

سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

أ.ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر



محمد مسعود

ترجمة وتحرير

أ.د. أحمد زكريا الشلق

تقديم

هذا الكتاب

من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر » فقد أشار إلى تقديره وإكباره « لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة » ، وكان يرى كذلك أن أحدا لا يستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة « منجن » الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها « نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولا تنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر » .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعاشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

أ.ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر



أ.ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر

ترجمة وتحرير

محمد مسعود

تقديم

أ.د. أحمد زكريا الشلق

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية
(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

كلوت بك، أنطونى برتلى، ١٧٩٣ - ١٨٦٨.
لمحة عامة إلى مصر/ أ.ب. كلوت بك؛ ترجمة
وتحرير محمد مسعود.. القاهرة: دار الكتب والوثائق
القومية، ٢٠١١ -

٦٥٤ ص؛ 24 سم.

تدمك 2 - 0790 - 18 - 977 - 978

١ - مصر - تاريخ

٢ - مصر - الأحوال السياسية

٣ - مصر - الأحوال الاقتصادية

٤ - مصر - الأحوال الاجتماعية

أ - مسعود، محمد (مترجم ومحرر)

ب - العنوان

٩٦٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٤٢٤٠

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0790 - 2

تقديم

كان للفرنسيين ، وربما لا يزال ، شغف خاص بمصر ، وقد قدم العديد من المفكرين ورجال السياسة والدبلوماسية مشروعات - تغرى الحكومات الملكية فى فرنسا باحتلال مصر ، بل إن العديد من القناصل والتجار والرحالة والمغامرين ورجال الدين الفرنسيين ، صاروا يجذبون الفكرة لدى حكومتهم مدفوعين بفكرة تفكك الدولة العثمانية . والرغبة فى توطيد مركز فرنسا التجارى فى مصر وفى الشرق عموما ، غير أن إرهابات الثورة الفرنسية صرفتها مؤقتا عن الغزو والاستعمار .

لقد كان هؤلاء يرون أن مصر هى أخصب بقاع الأرض قاطبة ، تنمو بها المحاصيل دون مشقة ، كما أنها بلد صحى المناخ ، ولا يبعد عن شواطئ فرنسا الجنوبية كثيرا ، ولاتستطيع دولة أوربية أن تنازع فرنسا فى احتلالها . . . وعندما قامت الثورة فى فرنسا وأعلنت الجمهورية ، أقدمت على غزو مصر بإرسال حملة بونابرت الشهيرة (١٧٩٨ - ١٨٠١) التى احتلت مصر نحو ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، لم يتهيا للفرنسيين خلالها الاستقرار اللازم لتحقيق استراتيجيتهم ، للأسباب المعروفة التى أدت إلى فشل الحملة ، وعلى رأس هذه الأسباب المقاومة العنيدة من الشعب المصرى . ومن المهم التأكيد على أننا لا ينبغي أن نبالغ فى الإشادة بأهمية الاحتلال الفرنسى للمصر من حيث اتصالها بالمدنية الحديثة أو نعتبر أن هذه الغزوة بمثابة نقلة حضارية لمصر من عالم العصور الوسطى إلى عالم الحضارة الحديثة ، فلا ننسى أن هذا الاتصال جاء قسرا وفى إطار حملة عسكرية غازية وأنها ووجهت بمقاومة مستمرة ، كما أن المصريين أبدوا تحفظا خاصا تجاه الحداثة التى قدمها الغزاة على ظهور المدافع ، ويجب التأكيد على أن أعظم ماحققه الفرنسيون هو تقديم مصر للغرب ، أكثر من تقديم حضارة الغرب لمصر أو التأثير فى المصريين .

وفى المقابل ينبغي الإشارة الى أن الاحتلال الفرنسى لمصر قد أفادها بقدر ما ، ودون قصد ، ذلك أن وجه الحملة الحضارى لم يكن مقصوداً به تحديث مصر ، لكن انتفاع المصريين بالظروف التى أوجدتها الحملة كان بمثابة النفع الذى يأتى من الضرر ، أو التنبؤ الذى أثاره التحدى . . . كما أن الاطلاع على ما فى يد المحتلين من أدوات القوة والحضارة الحديثة ، كان قمينا بإثارة نوازع الفضول الذى يفضى إلى تشكيل وعى جديد . قد يتحول إلى حركة نحو التقدم .

وهذا التقدم هو الذى دفع محمد على باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨) إلى أن يتجه نحو أوروبا ونهضتها ليفيد منها ، عندما أراد أن يبنى فى مصر دولة حديثة ، وهو الذى دعاه لإنشاء ادارة حديثة وجيش عصى واقتصاد جديد ، ومن هنا أقام مع أوروبا ونهضتها جسورا واضحة أهمها استقدام الخبراء والمعلمين والفنيين للتدريس والتدريب فى مدارس ومصانعه وجيشه ، وإرسال البعثات التعليمية للنبهاء من تلاميذ المدارس إلى مختلف دول أوروبا للتعلم والاستفادة من منجزاتها ، ثم إقامة حركة ترجمة واسعة ونشطة لمختلف العلوم والفنون الأوروبية إلى اللغة العربية . ومن الثابت أن مجيء كلوت بك إلى مصر عام ١٨٢٥ كان جزءا من سياسة محمد على « الذى سعى إلى أن يجلب إلى مصر التمدن والمعارف والصنائع الأوروبية ، فعندما رأى عظم ثمرة الارسالية الفرنسية فى هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا » ورأى أن يأتى بأطباء فرنسيين للمحافظة على صحة جيشه ، ومن هنا جاء كلوت بك لتولى وظيفة « جراح باشى » مشروطا أن يكون حراً فى العمل ، وأن يظل على ديانته المسيحية ، وألا يجبر على السير فى ركاب الجيش .

ذلك هو كلوت بك (نوفمبر ١٧٩٣ - أغسطس ١٨٦٨) مؤلف هذا الكتاب والذي يحمل اسم انطوان بارتملى ، وقد ولد لأسرة فقيرة فى جرينوبل بفرنسا وتعلم فى مدرسة خيرية بمرسيليا ، وبدأ فى ممارسة الطب والجراحة عمليا مساعدا لطبيب كان صديقا لوالده يدعى الدكتور «سابيه» ، حتى نبغ فى الجراحة ، والتحق بمدرسة الطب فى مونبليه ، والتي حصل منها على الدكتوراه فيما بعد (عام ١٨٣٠) . وقد عرض عليه أحد التجار الفرنسيين أن يقبل وظيفة جراح باشى فقبلها وجاء إلى مصر عام ١٨٢٥ وبلغ شهرة كبيرة بها حتى صار جراح محمد على الأول بين عامى ١٨٢٨ و ١٨٣٨ ، كما أن الباشا استعان به لتنظيم الخدمة الصحية ، فأسس مدرسة للطب فى مصر فى أبى زعبل فى فبراير ١٨٢٧ والتي نقلت إلى مكانها الحالى بقصر العينى فى أوائل عام ١٨٣٧ . وقد أتاحت لها إدارته المتصلة مدى اثنين وعشرين عاما حظا كبيرا من الاستقرار والتقدم ، وكان قوى الشخصية فتخرج على يديه جميع الأطباء فى مصر ممن درسوا فى القصر العينى ، كما بذل جهودا كبيرة فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الاجنبية إلى اللغة العربية . وقد استطاع كلوت بك هو وطاقم من زملائه من الأوربيين تدريب الكثير من الاتراك والمصريين فى القاهرة ليصبحوا جراحين فى الجيش ، كما صاحب عام ١٨٣٢ عددا من خيرة تلاميذه المصريين إلى باريس للدراسة المتخصصة والتدريب .

وقد أذن له محمد على بالسفر إلى فرنسا عام ١٨٣٩ بعد زواجه ، وهناك أعد كتابه « لمحّة عامة إلى مصر » الذى نشره فى باريس عام ١٨٤٠ ، ليعود فى نفس العام إلى مصر ويظل يمارس عمله حتى وفاة محمد على .

وما كاد عباس باشا (١٨٤٨ - ١٨٥٤) يتولى مقاليد الحكم حتى كان أول أعماله إلغاء أكثر المدارس التى أسسها محمد على ورأى إبعاد الموظفين

الأوروبيين وفي مقدمتهم كلوت بك ، الذى بادر بتقديم استقالته فى ابريل عام ١٨٤٩ وقد قدرت الحكومة المصرية خدماته مدى خمسة وعشرين عاما للصحة والطب فى مصر ، فقررت أن يصرف له نصف مرتبه السنوى مدى حياته ، وبعد رحيله فقدت مدرسة الطب أهميتها حتى انتهى حكم عباس . وعندما تولى محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) عاد كلوت بك إلى مصر مرة أخرى وتولى إدارة مدرسة الطب وتحمل مسئولية تنظيم الادارة الصحية والطبية فى البلاد وأعاد الحياة الى مدرستى الطب والولادة . وصار المفتش العام للصحة فى مصر ، وما يذكر له أنه وضع لائحة لتأسيس مدرسة جديدة للطب تكون ملحقة بمستشفى قصر العينى ، افتتحت فى سبتمبر ١٨٥٦ وفى خطبة افتتاحها دافع كلوت بك عن رأيه فى وجوب إدخال الدراسات العلمية فى مصر بواسطة لغة البلاد وعن طريق المدارس الوطنية ، هذا مع عدم اغفال تدريس اللغة الفرنسية للطلبة حتى يستطيعوا قراءة المراجع الفرنسية . والمعروف أن الرجل أثار غيرة منافسيه الألمان وغيرهم فكثرت دسائسهم ضده ، مع تقدم سنه وضعف صحته ، بما حال دون مواصلة النضال فى سبيل المحافظة على نظام المدرسة التى ارتبط تاريخها باسمه ، فاضطر إلى اعتزال العمل والعودة إلى وطنه عام ١٨٥٨ ، فقدر سعيد باشا جهوده وأمر بمنحه كامل مرتبه طوال حياته .



من الواضح أن كلوت بك وهو يؤلف هذا الكتاب كان يرى أن عليه أن يكمل الجهد الذى بذله علماء الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى الذى تأسس خلال بقائها فى مصر وأنجز مجلدات الكتاب الشهير « وصف مصر » فقد أشار إلى تقديره وإكباره « لجهود هذا المجمع ومجموعة المذكرات التى دونها والتى هى أثر علمى جليل وموسوعة نافعة » ، وكان يرى كذلك أن أحدا

لا يستطيع أن يكتب شيئا عن مصر دون الرجوع إليها . وقد أثبت كلوت بك أنه اطلع على مادونه الرحالة الفرنسيون من مصنفات عديدة ، مثل سافارى وفولنى وسونينى ، وكذلك اطلع على ماكتبه إدوارد وليم لين ، ومصنفات العلامة «منجن» الذى كتب سيرة محمد على ، ورأى مؤلفنا أن بها «نقصا وعيوب وأن بعضها أصبح عتيقا ولا تنطبق أخباره على حقيقة الوضع القائم فى مصر» .

لقد كان كلوت بك من المؤمنين بعظمة محمد على باشا ، وربط بين جهود الحملة الفرنسية وجهوده ، وذكر أن محمد على « وضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين ، فكان بجلائل فعاله خير تعزية لمجدنا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل . . ففى عصره نهضت مصر من كبوتها وهبت من سباتها . . »

لقد رأى كلوت بك أن له الحق ، وقد أقام بمصر خمسة عشر عاما ، تقصى فيها أحوال أهلها وعاداتهم ، وفتش عن استعداداتهم وعبقريتهم ، وشهد أثناءها - كمتفرج أو ممثل - كل ما أدخل فيها من مستحدثات . ومن هنا كان يرى أن له الحق فى أن يدلى بشهادته ورؤيته .

لقد قدم المؤلف فى هذا الكتاب استعراضا موجزا لتاريخ مصر منذ العصر الفرعونى ، مركزا على الطبقات والفئات الاجتماعية والنظم القانونية والسياسية وطبيعة العلوم والأوضاع الاقتصادية . ووصل الكاتب بهذا التمهيد حتى حكم الأتراك ومجىء الحملة الفرنسية ليصل إلى عصر محمد على ، وهو صلب هذا الكتاب ، وهى الفترة التى عاصرها المؤلف وعاشها وكان شاهدا عليها ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب .

وقد قدم المؤلف فى البابين الأول والثانى لمحة عن طبيعة مصر الجغرافية . فكتب عن شكل الأرض وطبيعة الطقس والمناخ ونهر النيل والبحيرات ،

والمعادن والنباتات والحيوانات والطيور والأسماك ، والسكان وأعراقهم . أما الباب الثالث فقد خصصه للحديث عن السكان وتوزيعهم الديموجرافى . وكتب عن وسائل زيادة السكان وموانع الاصلاحات التى قام بها محمد على . والتى رأى أن من أهمها «وجود جيش كبير ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاوله الزراعة .»

أما الباب الرابع فقد اختص بالحديث عن الديانات والمذاهب ، فكتب عن الإسلام وقواعده وأدابه والعبادات . كما كتب عن اليهود والأقباط ، ثم تناول فى الباب الخامس التشريعات والقوانين ونظم العقوبات ، والنظام القضائى بشكل عام . واستمر فى الباب السادس يدرس أوضاع المسلمين وعاداتهم وطبقاتهم الاجتماعية ، ووضع الأسرة ، والرق والملابس ، والزواج والأثاث والرياضة والموسيقى والاخلاق . وقد بدا فى هذا الباب وكأنه يحذو حذو إدوارد وليم لين فى الحديث عن عادات المصريين وتقاليدهم وطبيعة حياتهم . ولم يغفل المؤلف أن يوضح أوضاع العناصر الأخرى من السكان كالعربان ، والأتراك ، والأرمن واليونانيين والسوريين ، ونشاط القناصل والتجار الفرنجة .

وفيما يتعلق بالحكومة والأنظمة السياسية فقد عالجها المؤلف فى الباب الثامن الذى تناول فيه وضع الحكومة وطبيعة الوظائف والموارد المالية وتكوين الجيش . وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة تناول كلوت بك الأوضاع الاقتصادية ووضع التعليم ، مركزاً على نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على . فضلاً عن الشؤون الصحية والأمراض الشائعة ، وهى الأمراض التى جاء كلوت بك إلى مصر لعلاجها .

وتكمن أهمية هذا الكتاب ليس فقط فيما قدمه من معلومات مهمة ، وإنما فى نظرة المؤلف المعاصرة لما رآه وشاهده بنفسه ، فضلاً عن ضرورة رؤية المجتمع

المصرى فى مرآة الآخرين ، وهى بطبيعة الحال تختلف عن رؤيتنا لأنفسنا . ونود أن نشير فى النهاية إلى أن كلوت بك له كتاب آخر عن تاريخ محمد على نشره فى مرسيليا عام ١٨٦١ ، فضلا عن كتاباته الطبية الخاصة بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، والتي نشرها عام ١٨٣٢ . وإذ نشيد بإقدام دار الكتب المصرية لإعادة طبع هذا الكتاب المهم ، بمبادرة كريمة من رئيسها المؤرخ الكبير أ.د. محمد صابر عرب ، فإننا نتمنى أن يفيد منه الباحثون وعامة المثقفين .

والله ولى التوفيق

أ.د . أحمد زكريا الشلق

مارس ٢٠١١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
١١	تمهيد	
١٧	تمهيد تاريخي - العصر الفرعوني	
١٧	العصور الجغرافية	١
١٧	العصور التاريخية	٢
١٩	جدول الأسر المصرية	٣
٢٠	من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة	٤
٢٠	غارة عرب الرعاة	٥
٢١	الأسرة الثامنة عشرة	٦
٢٢	سيزوستريس	٧
٢٢	شوكة مصر في عهد سيزوستريس	٨
٢٢	غارة الأثيوبيين الحبشان	٩
٢٣	الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس	١٠
٢٥	ديانة قدماء المصريين	١١
٢٩	حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم	
٢٩	الطبقات	١٢
٢٩	الكهان	١٣
٣٠	طبقة الجند	١٤
٣١	طبقة الشعب	١٥
٣١	الملك	١٦
٣٢	الحكومة	١٧
٣٣	القوانين	١٨
٣٤	العلوم	١٩
٣٤	الزراعة والصناعة والفنون والتجارة	٢٠
٣٥	قمبيز	٢١
٣٦	خلفاء قمبيز	٢٢
٣٦	الأسرات الوطنية الأخيرة	٢٣
٣٧	البطالسة	٢٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٩	الحكم الروماني	٢٥
٤٢	حكم الخلفاء والسلاطين من المماليك	٢٦
٤٥	حكم الأتراك	
٤٨	العملة الفرنسية	
٥٣	حكومة محمد علي	
٧٢	محمد علي وأسرته	
٧٦	إبراهيم باشا	
	الباب الأول	
	لمحة طبيعية. الوضع والشكل	
	والحدود والأقسام الجغرافية	
٨٥	الوضع والشكل والحدود	١
٨٦	الأقسام الجغرافية	٢
٨٦	المسطح	٣
٨٧	شكل الأرض وتكوينها الجيولوجي	
٨٧	الأرض القابلة للزراعة وشكلها	٤
٨٧	تكوين الأراضي القابلة للزراعة	٥
٨٨	طمي النيل	٦
٨٩	أشكال الأرض الزراعية	٧
٩٠	الجبال وأشكالها	٨
٩١	ارتفاعها وانحدارها العام	٩
٩٢	التكوين الجيولوجي	١٠
٩٣	الصحاري وتكوينها	١١
٩٣	الواحات	١٢
٩٤	منظر الصحراء	١٣
	الطقس والأتسار الجوية	
٩٥	الفصول	١٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٩٥	درجة الحرارة	١٥
٩٦	السراب	١٦
٩٦	الرياح	١٧
٩٧	الخماسين	١٨
٩٨	النسيم	١٩
٩٨	الضباب	٢٠
٩٨	السحب	٢١
٩٩	الندى	٢٢
٩٩	النقطة	٢٣
٩٩	الرطوبة	٢٤
١٠٠	العثير	٢٥
١٠٠	الإعصار	٢٦
١٠٠	المطر	٢٧
١٠١	الثلج	٢٨
١٠١	البرد	٢٩
١٠٢	درجة الحرارة	٣٠
١٠٣	الاختلافات الجوية	٣١
١٠٣	ينابيع النيل	٣٢
١٠٤	الشلالات	٣٣
١٠٤	مجرى النهر	٣٤
١٠٤	ضفاف النيل	٣٥
١٠٥	أقطار النهر	٣٦
١٠٧	الفيضان	٣٧
١٠٧	قطع الخليج	٣٨
١٠٨	تيار ماء النيل	٣٩
١٠٩	حجم الماء	٤٠
١٠٩	أيام التحاريق	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٠٩	أيام الفيضان	
١٠٩	المقياس	٤١
١١٠	انحسار الماء	٤٢
١١١	مياه الرشح	٤٣
١١٢	أنواع مياه النيل	٤٤
	بـحـيرـات مـصـر	
١١٢	البحيرات المتصلة بالبحر الأبيض	٤٥
١١٣	بحيرة مريوطيس أو مريوط	٤٦
١١٣	بحيرة المعدية	٤٧
١١٤	بحيرة إدكو	٤٨
١١٤	بحيرة البرلس	٤٩
١١٤	بحيرة المنزلة	٥٠
١١٤	بحيرة البلح	٥١
١١٥	سبخة بردويل	٥٢
١١٥	بحيرة عامر	٥٣
١١٥	بحيرات النطرون	٥٤
١١٦	بحيرة مريس أو بركة قارون	٥٥
	الباب الثاني	
	التاريخ الطبيعى	
	«المواليد الخلائية»	
	المعادن	
١٢١	تقسيم المعادن	١
١٢١	التكوين الجيولوجى والمعدنى للجبال	٢
١٢١	الجرانيت أو الصوان	٣
١٢٢	الأحجار الجصية	٤
١٢٢	الأحجار الكلسية	٥
١٢٣	المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر	٦

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	م
١٢٣	الأبرش المصرى الأخضر	٧
١٢٤	محاجر الرخام	٨
١٢٤	أحجار الزمرد	٩
١٢٥	الخشب المتحجر	١٠
١٢٥	الحيوانات المتحجرة	١١
١٢٥	الأحجار المختلفة	١٢
١٢٦	المعادن	١٣
١٢٦	الكبريت وزيت البترول والجبس	١٤
١٢٦	الفحم الحجري	١٥
١٢٧	النطرون	١٦
١٢٧	النتر	١٧
١٢٨	الشب	١٨
١٢٨	معادن مصر ليست أصلية	١٩
	النباتات	
١٢٨	مقدمة	٢٠
١٢٩	عموميات	٢١
١٣٠	نباتات الصحراء	٢٢
١٣٢	الأرض الصالحة للزراعة في القطر المصرى	٢٣
١٣٣	حدائق شبرى = شبرا - والروضة	٢٤
١٣٤	حدائق الشرق	٢٥
١٣٦	الغابات	٢٦
١٣٦	تبلید نباتات أوربا الجنوبية	٢٧
١٣٧	النباتات الأجنبية التى أدخلت في حدائق أصحاب السمو	٢٨
١٣٩	زراعة الزيتون	٢٩
١٤٠	الأشجار الأجنبية	٣٠
١٤٢	أشجار الفواكة الأهلية	٣١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٤٨	أشجار الفاكهة والنباتات التي أدخلت حديثا	٣٢
١٥٠	النباتات الحبوبية النجيلية	٣٣
١٥٢	الحبوب غير النجيلية	٣٤
١٥٤	الخضروات والنباتات البقلية	٣٥
١٥٧	النباتات النسيجية	٣٦
١٥٩	نباتات ألوان الصناعة	٣٧
	حيوانات مصر	
١٦١	عموميات	٣٨
	الحيوانات الثديية	
	الحيوانات الأهلية الداجنة	
١٦٢	الحصان	٤٥
١٦٢	الحمار	٤٦
١٦٣	البغل	٤٧
١٦٣	الجمال	٤٨
١٦٤	البقر	٤٩
١٦٤	الجاموس	٥٠
١٦٥	الضأن	٥١
١٦٥	الماعز	٥٢
١٦٦	الكلب	٥٣
١٦٦	القط أو السنور	٥٤
١٦٧	الذئب	٥٥
١٦٨	الثعلب	٥٦
١٦٨	ابن أوى	٥٧
١٦٨	الضبع	٥٨
١٦٩	الخنزير البرى	٥٩
١٦٩	فرس البحر	٦٠
١٦٩	الغزال	٦١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٧٠	الدمان	٦٢
١٧٠	القرد	٦٣
١٧٠	القنفذ	٦٤
١٧٠	الدروال	٦٥
١٧١	النمس	٦٦
١٧١	القط النمرى	٦٧
١٧١	اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع	٦٨
١٧٢	الفأروالسيى	٦٩
١٧٢	الأرنب	٧٠
	الطيور	
	الطيور الداجنة	
١٧٣	الدجاج	٧١
١٧٣	الدجاج الهندى	٧٢
١٧٣	الحمام	٧٣
١٧٤	الأوز	٧٤
	الطيور الجارحة	
١٧٤	الحدأة الرخمية	٧٥
١٧٤	الصقر أو البازى	٧٦
١٧٤	العقاب	٧٧
١٧٤	العقاب الصياد	٧٨
١٧٥	النسر	٧٩
١٧٥	نوعان من الحدأة	٨٠
١٧٥	الحدأة المعروفة باسم الأنبون	٨١
١٧٥	الباشق	٨٢
١٧٥	الصقر الشاهينى	٨٣
١٧٥	الخفاش والوطواط	٨٤
١٧٦	عصافير الشوك	٨٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٧٧	الطيور المتسلقة	٨٦
١٧٧	الطيور التي من نوع الدجاج	٨٧
١٧٧	الطيور المعروفة بطول سوقها	٨٩
١٧٨	الحشرات	٩٠
١٧٩	الأصداف البحرية	٩١
١٧٩	الهوام والأفاعى الرحالة	٩٢
	الأسماك	
١٨٢	عموميات	٩٣
١٨٣	أسماء بعض أسماك النيل	٩٤
١٨٦	سكان مصر المختلفون	٩٥
١٨٦	الأقباط	٩٦
١٨٧	المصريون المسلمون	٩٧
١٨٨	البدو أو العربان	٩٨
١٨٨	البرابرة	٩٩
١٨٨	اليهود	١٠٠
١٨٨	اليونان أو الإغريق	١٠١
١٨٩	السوريون أو الشوام	١٠٢
١٨٩	الأحباش	١٠٣
١٨٩	الأنثيوبيون	١٠٤
١٩٠	الأوروبيون	١٠٥
	الباب الثالث	
	السكان والمساكن والمدن والقرى في مصر	
	«السكان»	
١٩٣	سكان القطر المصري في العصور	١
١٩٤	السكان الحاليون	٢
١٩٥	أسباب قلة عدد السكان في مصر	٣
١٩٧	محمد على ووسائل زيادة السكان	٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٩٩	موانع ظهور الإصلاحات التي قام بها الوالى منازل السكنى والمباني	٥
٢٠١	منازل المدن	٦
٢٠١	المظهر الخارجى للمساكن	٧
٢٠٢	باب الدخول	٨
٢٠٢	الشبابيك الحديدية	٩
٢٠٣	السطوح	١٠
٢٠٣	صحن الدار	١١
٢٠٣	حجرة النساء	١٢
٢٠٣	المميزات الخاصة	١٣
٢٠٥	أخوانيت	١٤
٢٠٥	منازل القرى	١٥
٢٠٥	المساجد	١٦
٢٠٦	الأسيلة والأحواض والحمامات	١٧
٢٠٧	القهوات والأسواق والوكائل	١٨
٢٠٧	المدن والقرى المصرية	١٩
	التقسيمات الأرضية	
٢٠٨	التقسيمات فى الأزمان القديمة	٢٠
٢٠٨	التقسيمات فى عهد المماليك	٢١
٢٠٩	التقسيمات الحالية	٢٢
٢٠٩	المديرلكية = المديرية = الأولى	٢٣
٢٠٩	المديرلكية الثانية	٢٤
٢٠٩	المديرلكية الثالثة	٢٥
٢١٠	المديرلكية الرابعة	٢٦
٢١٠	مديرلكية مصر الوسطى	٢٧
٢١٠	الوجه القبلى والصعيد	٢٨
	أنهر مدائن القطرى المصرى حاليا	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٢١٠	الإسكندرية	٢٩
٢١٦	أبوقير	٣٠
٢١٧	رشيد	٣١
٢١٨	دمياط	٣٢
٢١٩	دمنهو	٣٣
٢١٩	الرحمانية	٣٤
٢١٩	فوه	٣٥
٢١٩	المنصورة	٣٦
٢١٩	المحلة الكبرى	٣٧
٢٢٠	طنطا	٣٨
٢٢١	مدائن الوجه البحرى الأخرى	٣٩
٢٢٢	القاهرة	٤٠
٢٢٩	بنى سويف	٤١
٢٣٠	مدينة الفيوم	٤٢
٢٣٠	فيديمين	٤٣
٢٣٠	المنيا	٤٤
٢٣١	الأشمونيين	٤٥
٢٣١	منفلوط	٤٦
٢٣١	أسيوط	٤٧
٢٣١	أخميم	٤٨
٢٣١	جرجا	٤٩
٢٣٢	قنا	٥٠
٢٣٢	قوص	٥١
٢٣٢	إسنا	٥٢
٢٣٢	أسوان	٥٣
٢٣٣	ثغرالسويس	٥٤
٢٣٤	القصر	٥٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٣٤	المسافات بين بعض مدن القطر المصري الباب الرابع الديانات والمذاهب الشائعة فى القطر المصري	
٢٣٧	الإسلام وقواعده	١
٢٣٨	القرآن	٢
٢٣٨	الوحدانية ورسالة محمد	٣
٢٣٩	الملائكة	٤
٢٣٩	البعث ويوم الحساب	٥
٢٣٩	الجنة	٦
٢٤٠	جهنم	٧
٢٤٠	المطهر	٨
	آداب الإسلام	
٢٤٠	الفضائل	٩
٢٤١	التقوى	١٠
٢٤٢	القضاء والقدر	١١
٢٤٣	صلة الرجل بالمرأة	١٢
	العبادات	
٢٤٣	الصلوات اليومية الخمس	١٣
٢٤٤	التطهر	١٤
٢٤٥	المساجد	١٥
٢٤٦	النظار والأئمة	١٦
٢٤٧	رمضان	١٧
٢٤٨	عيد الفطر والأضحى	١٨
٢٤٨	الحج	١٩
٢٥٠	الأولياء	٢٠
٢٥٠	المذاهب الأربعة	٢١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٢٥٠	أداء فروض الدين عند المسلمين	٢٢
٢٥١	الأغذية المحرمة	٢٣
٢٥٢	واجبات الدين للنساء	٢٤
٢٥٢	القرآن والتسامح نحو النصارى	٢٥
	الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة	
٢٥٣	اليهود	٢٧
٢٥٣	الأقباط اليعاقبة	٢٨
٢٥٤	الأقباط الكاثوليك	٢٩
٢٥٤	اليونان المنشقون	٣٠
٢٥٤	اليونان الكاثوليك	٣١
٢٥٤	الأرمن	٣٢
٢٥٥	الكاثوليك اللاتين	٣٣
٢٥٥	العداوات بين المذاهب المسيحية	٣٤
	الباب الخامس	
	الشريعة الإسلامية وإدارة العدل في مصر	
	الشراخ والقوانين المدنية	
٢٥٩	الشريعة الإسلامية	١
٢٦٠	سن الرشد	٢
٢٦٠	الزواج والطلاق	٣
٢٦٠	حقوق الأب	٤
٢٦٠	الأوصياء	٥
٢٦١	المدينون والمفلسون	٦
٢٦١	الحجر	٧
٢٦١	التسليف على رهن	٨
٢٦١	الهبة	٩
٢٦١	الوراثة	١٠
	الجنايات والعقوبات	
٢٦٢	سب الدين	١١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٢٦٢	القتل	١٢
٢٦٢	الضرب والجرح	١٣
٢٦٣	الزنا	١٤
٢٦٣	السرقه	١٥
٢٦٣	الردة	١٦
	نظام القضاء	
٢٦٣	القضاة	١٧
٢٦٤	المحكمة	١٨
٢٦٤	تنفيذ القوانين	١٩
٢٦٥	العقود العمومية	٢٠
٢٦٥	المصاريف القضائية	٢١
٢٦٥	القانون العسكري	٢٢
٢٦٦	سلطة باشوات الاستبدادية	٢٣
٢٦٦	العقوبات	٢٤
٢٦٧	القضاء عند الإفرنج	٢٥
	الباب السادس	
	أخلاق المسلمين وعاداتهم	
	الطبقات الاجتماعية	
٢٧١	اعتبارات عامة	١
٢٧٢	الأترك والعرب	٢
٢٧٣	الطبقات الاجتماعية عند المصريين	٣
	الأسرة الإسلامية	
٢٧٤	الأخلاق والعادات	٤
٢٧٤	السلطة الأبوية	٥
٢٧٥	احترام الزوجة لرب الأسرة	٦
٢٧٥	احترام الأبناء لأبائهم	٧
٢٧٥	السلطة التي لأبى الأبناء على إخوته	٨

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	٢
٢٧٦	احترام الصغير للكبير والرئيس للمرءوس الرق في الشرق	٩
٢٧٧	الرق في الغرب	١٠
٢٧٧	الرق في الشرق	١١
٢٧٨	الرقيق الأبيض	١٢
٢٧٨	الرقيق الأسود	١٣
٢٧٨	حالة الأرقاء	١٤
٢٨٠	الرقيق من النساء	١٥
٢٨١	ديانة الأرقاء	١٦
٢٨١	معاملة الأوربيين للأرقاء في مصر	١٧
٢٨٣	مقتبسات في الرق وتجارته والعتق الرجال	١٨
٢٨٦	فصل الرجال عن النساء	١٩
٢٨٦	الصفات الجثمانية	٢٠
٢٨٧	الفضائل النفسية والعقلية	٢١
٢٨٧	القناعة	٢٢
٢٨٨	الصدقة أو الإحسان	٢٣
٢٨٨	الشجاعة والتوكل	٢٤
٢٨٩	حب المصريين أوطانهم	٢٥
٢٨٩	الكسل	٢٦
٢٩٠	عزة الدين	٢٧
٢٩٠	الجهل	٢٨
٢٩٠	التعنت وصلابة الرأي	٢٩
٢٩١	المنازعات والانتقام	٣٠
٢٩٢	الميل إلى المجون والمطايبة	٣١
٢٩٢	الثياب	٣٢

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٩٥	لباس المالك	٣٣
٢٩٥	اللباس الجديد	٣٤
٢٩٦	الحذاء	٣٥
٢٩٧	أفكار وخواطر في الزى الحديث	٣٦
٢٩٩	ثياب الفلاحين	٣٧
٢٩٩	عادات المصريين في تدبير الشعر	٣٨
٣٠٣	النظافة والوساخة	٣٩
٣٠٥	الحمامات	٤٠
٣٠٩	استخدام الوقت والأشغال	٤١
٣١٠	التوم وطريقة الرقاد	٤٢
٣١٢	أصوات النداء والتعجب والاستفهام .. الخ	٤٣
٣١٣	الخدم	٤٤
النساء		
٣١٥	النساء المصريات	٤٥
٣١٦	وسائل الزينة والتبرج	٤٦
٣١٧	الوشم أو الدق	٤٧
٣١٧	خفض النساء أى (ختانهن)	٤٨
٣١٧	النساء التركيات	٤٩
٣١٧	لباس السيدات الغنيات	٥٠
٣٢٠	التغيرات التي أدخلت على نساء الأغنياء	٥١
٣٢١	نساء الطبقة الوسطى	٥٢
٣٢١	نساء الطبقة الدنيا	٥٣
٣٢١	مساكن النوم والحرم	٥٤
٣٢٢	الهيئة التي يتألف الحريم منها	٥٥
٣٢٤	المعيشة في الحريم	٥٦

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٢٤	امتياز النساء بالنجدة	٥٧
٣٢٥	زيارة سيدات الحرم	٥٨
٣٢٥	أشغال النساء	٥٩
٣٢٦	رأى النساء في حالتهم	٦٠
٣٢٦	عادة الاستحمام في الحمامات	٦١
٣٢٦	حكاية نابليون بونابرتة	٦٢
٣٢٧	طبائع النساء وأخلاقهن	٦٣
	العاهرات	٦٤
٣٢٨	الخصيان	٦٥
٣٢٩	معاهد الجب	٦٦
٣٣٠	عملية الجب	٦٧
٣٣٠	تعظيم الخصيان	٦٨
٣٣٠	العلاقات المميزة للخصيان	٦٩
	منع الجب	٧٠
	الزواج وتعدد الزوجات والطلاق	٧١
٣٣١	الزواج	٧٢
٣٣٢	تعدد الزوجات في مصر	٧٣
	الطلاق	٧٤
٣٣٣	أسباب تعدد الزوجات والطلاق	٧٥
	الأطفال	
٣٣٤	العناية الأولى بهم	٧٦
٣٣٥	تربية الأطفال	٧٧
	الأغذية وآداب الطعام	
٣٣٧	الغذاء	١
٣٣٩	ألوان الطعام	٢

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٤٠	الترتيب المتبع في تقديم أصناف الأطعمة	٣
٣٤١	المشروبات	٤
	قهوة البن	٥
٣٤٢	الشرابات	٦
٣٤٢	الحشيش	٧
٣٤٣	الأفيون	٨
٣٤٤	وجبات الطعام	٩
٣٤٥	الآنية والأوعية المستعملة في الطعام	١٠
٤٣٦	آداب الطعام	١١
٣٤٨	الاقتداء بالأوروبيين في تناول الطعام	١٢
	طعام الفلاحين	١٣
٣٤٨	الأنثاء	
٣٤٩	ملحوظات عامة	١٤
٣٥٠	المنظرة والدركة	١٥
٣٥٠	الليوان	١٦
٣٥٠	الديوان	١٧
٣٥١	زخرفة الجدران والسقوف	١٨
٣٥٢	البرفارف والبراويز	١٩
٣٥٢	زجاج الشبابيك والمفروشات	٢٠
٣٥٤	الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل	٢١
	أثاث الفقراء	٢٢
	آداب الاجتماع	
٣٥٤	بيانات عامة	٢٣
٣٥٥	التحية	٢٤
٣٥٦	القواعد المرعية في الاستقبال بالديوان	٢٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٥٨	قهوة البن	٣٦
٣٦٠	الشبك = الشيشة =	٣٧
	الختان أو الطهارة	٣٨
٣٦٣	قِدَم الاحتفال بالختان	٣٩
٣٦٣	الاحتفال بالختان	
	الزواج	٣٠
٣٦٥	ميل المصريين إلى الزواج	٣١
٣٦٥	السن المعينة للزواج	٣٢
٣٦٦	الزواج المحرم	٣٣
٣٦٦	مقدمات الزواج	٣٤
٣٦٧	حفلات الزفاف	٣٥
٣٦٨	فض البكارة	
	الوفاة والأجـازة	٣٦
٣٧٠	الوفاة	٣٧
٣٧٠	حزن الأهل	٣٨
٣٧١	الكفن	٣٩
٣٧٣	القبور والمقابر	٤٠
٣٧٤	احترام المسلمين للموتى	٤١
٣٧٤	الحداد	٤٢
٣٧٤	الجن	٤٣
٣٧٥	الأولياء	٤٤
٣٧٩	الدرأويش	٤٥
٣٧٩	الحسد أو النظر أو العين	٤٦
٣٧٩	الأحجبة	٤٧
٣٨٠	الأحلام	٤٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٨٠	أيام السعود والنحوس	٤٩
٢٨١	التنبؤ بالمستقبل	٥٠
٢٨٢	السحر	٥١
٢٨٢	التنجيم	٥٢
٢٨٣	علم الكيمياء	٥٣
٢٨٤	البوهيميون أو الفجر	٥٤
٢٨٤	حواة الثعابين	٥٥
٢٨٥	الاعتقادات الباطلة والخزعبلات	٥٦
٢٨٦	المرأة المتنبئة ومحمد على	
	الآداب اللغوية	
٢٨٨	الآداب اللغوية العربية	٥٧
٢٨٩	قصة أبي زيد الهلالي	٥٨
٢٩٠	المحدثون	٥٩
٢٩١	الشعر	٦٠
٢٩٢	الأناشيد المصرية	٦١
	الموسيقى	
٢٩٢	الموسيقى العربية	٦٢
٢٩٤	استعداد المصريين لسماع الموسيقى	٦٣
٢٩٥	الآلات الموسيقية عند المصريين	٦٤
٢٩٥	المغنون المصريون	٦٥
٢٩٦	الموسيقى الأوربية في الجيش المصرى	٦٦
	الرقص	
٢٩٨	الرقص المصرى	٦٧
٤٠٠	الراقصات	٦٨
	الراقصون	٦٩

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٣
٤٠٢	الالعاب والرياضات والمشعوذون	
٤٠٣	الالعاب الحسابية	٧٠
٤٠٤	الرياضة البدنية	٧١
٤٠٥	ركوب الخيل	٧٢
٤٠٦	الحواة والمشعوذون	٧٣
	الاعیاد والحفلات العمومية	٧٤
	بیانات تفصیلیة عن الأخلاق	
٤٠٩	الشجاعة	٧٥
٤١٠	الصوص	٧٦
٤١١	المحكوم عليهم	٧٧
٤١١	القتل	٧٨
٤١١	الشغب والفتنة	٧٩
٤١٢	تنفيذ أحكام الإعدام	٨٠
٤١٣	الانتحار	٨١
٤١٤	المبارزة	٨٢
	نظرة فی العناصر الأخرى من	
	سكان مصر العربان	
٤١٧	قبائل العربان	١
٤١٧	شغب العربان بالصحراء	٢
٤١٨	صفاتهم وطباعهم	٣
٤١٩	قناعتهم	٤
٤١٩	مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم	٥
٤١٩	تربيتهم ونظامهم	٦
٤٢٠	حروبهم	٧
٤٢١	حريتهم الدينية	٨

محتويات الكتاب		
م	الموضوع	الصفحة
٩	تربيتهم العقلية	٤٢١
١٠	السنيرة	٤٢٢
١١	العريان الأدلاء	٤٢٤
١٢	سراقات العريان وقطعهم الطريق	٤٢٥
١٣	مكافحة محمد على لهم	
١٤	تنظيم جيوش فرسان العرب بهينة جيوش غير	٤٢٧
	نظامية	٤٢٧
١٥	فضائل العرب الرحل	٢٢٧
	الحكومة نسي مصر	
١٦	أتراك مصر	٤٢٨
١٧	صفاتهم النفسية	٤٢٩
١٨	ازدهاؤهم بأنفسهم وصلفهم	٤٢٩
١٩	شعور الأتراك نحو الأوربيين	٤٣١
٢٠	الإسلامبولية وأتراك أوربا والانوود	٤٣٣
	والعثمانيون والآسيون والمماليك	
	الأتقاط	
٢١	نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الأقباط	٤٣٥
٢٢	طبائعهم وأخلاقهم	٤٣٥
٢٣	ملابسهم	٤٣٦
٢٤	إيمانهم الديني	٤٣٦
٢٥	كنائسهم	٤٣٧
٢٦	الحج إلى بيت المقدس	٤٣٨
٢٧	الإكليروس القبطي	٤٣٩
٢٨	الزواج وتشجيع الجنازات	٤٣٩
٢٩	صناعات الأقباط وحرفهم	

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	م
	اليهود والأرمن واليونان والسوريون	
٤٤٠	الفقر الظاهري لليهود	٣٠
٤٤٠	أخلاقهم	٣١
٤٤١	بُغض المسلمين عن اليهود واحتقارهم لهم	٣٢
٤٤١	يهود دمشق	٣٣
٤٤٢	الصناعات التي يمارسها اليهود	٣٤
٤٤٢	الأرمن	٣٥
٤٤٣	اليونان	٣٦
٤٤٤	السوريون	٣٧
	الحالة السياسية للرعية	٣٨
	الفرنجية	
٤٤٧	القناصل	٣٩
٤٥٠	التجار بالجملة	٤٠
٤٥٠	التجار بالقطاعي	٤١
٤٥١	أرباب الصنائع والحرف	٤٢
٤٥١	موظفو الحكومة	٤٣
٤٥١	طباع الإفرنج وأخلاقهم	٤٤
٤٥٢	الرحالة والمسافرون	٤٥
٤٥٤	تأثير الزيارة في نفوس السياح	٤٦
٤٥٦	اصحاب المشروعات	٤٧
٤٥٩	لوم يستحقه السياح	٤٨
٤٦٠	نصائح إلى الرحالة والمسافرين	٤٩
٤٦٣	صفات أقوام الإفرنج وطباعهم	٥٠
	الاسباب الثامن	
	الحكومة والانظمة السياسية	
٤٦٥	أسباب ظهور الحركة المدنية في الشرق منذ هذا القرن	١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٤٧٢	الحكومة في مصر الوظائف الإدارية الكبرى التي استحدثها سمو الوالى	٢
٤٧٥	الموظفون الجدد	٣
٤٧٦	اختصاصات هؤلاء الموظفين	٤
٤٧٨	البوليس والشرطة	٥
	الموارد المالية لوالى مصر	
٤٧٩	القواعد التي أقام عليها محمد على شوكته الملكية	٦
٤٨٠	تشكيل الملكية في الشرق	٧
٤٨٠	حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى	٨
٤٨١	حالتها على عهد المماليك	٩
٤٨٣	التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على	١٠
٤٨٤	أفكار وخواطر في النظام الحالى للملكية الاقتصادية	١١
٤٨٥	الغرض من الاحتكار	١٢
٤٨٥	قدمه في مصر	١٣
٤٨٧	سبب ضرورته	١٤
	الضرائب والأموال	
٤٨٨	الضريبة العقارية أو الميرى	١٥
٤٨٩	الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس	١٦
٤٩٠	الضرائب المختلفة والجمارك	١٧
٤٩١	أفكار وخواطر في جباية الضرائب	١٨
	ايرادات مصر ومصرفاتها	
٤٩٢	ايرادات مصر في سنة ١٨٣٣	١٩

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	٢
٤٩٤	المصروفات في سنة ١٨٣٢	٢٠
	الوسائل السياسية	
٤٩٥	تشكيل الجيش المصري وحسن تأثيره في الحضارة	٢١
٤٩٧	المسيو سيف (سليمان باشا)	٢٢
٤٩٨	مبادئ تشكيل الجيوش النظامية	٢٣
	المشاة أو البيادة المصرية	٢٤
٥٠١	الخيالة أو الفرسان	٢٥
٥٠١	مدرسة الخيالة	٢٦
٥٠٢	المدفعية أو الطوبجية	٢٧
٥٠٢	مدرسة المدفعية أو الطوبجية	٢٨
٥٠٤	الإدارة العسكرية	٢٩
٥٠٥	شوار - لبس - الجنود	٣٠
٥٠٦	الرتب في الجيش	٣١
٥٠٦	المرتبات والمهايات	٣٢
٥٠٦	الطاعة للرؤساء	٣٣
٥٠٩	الروح العسكرية في المصريين	٣٤
٥١٠	جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها	٣٥
	جيوش نظامية	
٥١٢	الجيوش غير النظامية	
٥١٤	الحرس الأهلى	
	البحرية المصرية	
٥١٥	انشاء البحرية المصرية	٣٦
٥١٦	حالة البحرية قبل وصول سيزى بك	٣٧
	تشكيل ترسانة الإسكندرية	٣٨
	دليل تفصيلى لتصميم ترسانة الإسكندرية قبل	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٥١٨	المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩	
٥٢١	العقبات التى تغلب عليها السيودى سريزى	٣٩
	دليل تفصيلى لتصميم ترسانة الإسكندرية بحسب	
٥٢٢	المشروع صودق عليه سنة ١٨٢٩	
٥٢٤	أعمال الترسانة وبنائها	٤٠
٥٢٤	السفن الحربية التى شرع فى بنائها	٤١
٥٢٩	عمال الترسانة المصريون	٤٢
٥٣٠	أحواض ترميم السفن	٤٣
	النوتية والدونمة	٤٤
٥٣٤	القوات البحرية المصرية	
٥٣٨	هتد الرجال لخدمة البريد والبحرية	
٥٣٨	الإسلوب المتبع فى التجنيد	٤٥
٥٣٨	عيوب هذا الإسلوب	٤٦
٥٣٩	أسباب هذه العيوب	٤٧
٥٤٠	جهود محمد على لعلاج هذا الداء	٤٨
٥٤٣	نفور المصريين من الخدمة العسكرية	٤٩
٥٤٢	النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى	٥٠
	الباب التاسع	
	الزراعة والصناعة والتجارة	
٥٤٧	الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر	
	الزراعة	١
٥٤٨	جداول الأراضى القابلة للزراعة والمزروعة	٢
	الرى	
٥٥٢	الرى بالترع - الرى بالآبار - السواقى - الشواذيف	٣
٥٥٣	الرى بالآبار	٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
	آلات العناية والأساليب الزراعية	
٥٥٦	المحراث	٥
٥٥٨	الزراعات الكبرى في مصر	٦
٥٥٨	مواسم الزراعة	٧
٥٥٩	الزراعة الشتوى : القمح	٨
٥٥٩	الشعير	٩
٥٦٠	الفول	١٠
٥٦٠	العدس	١١
٥٦٠	الحمص	١٣
٥٦٠	الزعفران	١٤
٥٦٠	البرسيم الحجازى	١٥
٥٦٠	الزراعة الفيض : القطن	١٦
٥٦٣	النيلة	١٧
٥٦٣	الزراعة الصيفية : الذرة	١٨
٥٦٤	الأرز	١٩
٥٦٥	التيل أو القنب	٢٠
٥٦٥	الكتان	٢١
٥٦٦	دود القز أو دود الحرير	٢٢
٥٦٦	حاصلات القطر المصرى	
	الصناعة	٢٣
٥٦٨	الفاوريقات - الشركات -	٢٤
٥٦٨	مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية	٢٥
٥٧٠	فاوريقات الأقمشة الكتانية	٢٦
٥٧٠	فاوريقات الحرير	٢٧
٥٧٠	معامل الحبال	٢٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٥٧١	فاوريقة الجوخ	٢٩
٥٧١	فاوريقة الطرايش	٣٠
٥٧٢	فاوريقة السكر	٣١
٥٧٢	مصانع النيلة	٣٢
٥٧٢	معاصر الزيت	٣٣
	معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد	
٥٧٣	الكيمائية	٣٤
٥٧٣	مسابك	٣٥
٥٧٤	معمل الأسلحة القابلة للحمل	٣٦
٥٧٤	آراء وخواطر في فاوريقات مصر	
	الصناعات الصغرى والفنون والمهن	٣٧
٥٧٧	الطوائف الصناعية	٣٨
٥٧٩	المهن الغذائية : تحضير القمح والخبازون	٣٩
٥٨٠	الجزارون	٤٠
٥٨٩	معامل الدجاج	٤١
٥٨١	تحضير الفول	٤٢
٥٨١	الخل	٤٣
٥٨١	الاستقطار	٤٤
٥٨٢	البن	٤٥
٥٨٢	القطاطرية	٤٦
٥٨٣	الفنون المتعلقة بالملابس : الغزل	٤٧
٥٨٣	البلد والحريروتبييض الخيط والقماش والصبغ	
	والتلميع والتطريز	٤٨
٥٨٣	العقادون	٤٩
٥٨٣	الدباغة	٥٠

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	٢
٥٨٤	الصرماتية والسروجية	٥١
٥٨٤	الخياطون	٥٢
٥٨٤	الفراؤون	٥٣
٥٨٤	الفنون المتعلقة بالمباني : البناءون	٥٤
٥٨٥	نحاتوا الأحجار	٥٥
٥٨٦	الحدادون	٥٦
٥٨٦	النجارون	٥٧
٥٨٧	صناعو الضبيب أو المزاليح	٥٨
٥٨٧	الخراطون	٥٩
٥٧٨	صناعة الفخار	٦٠
٥٨٩	الزجاج	٦١
٥٨٩	الجوهرية والصياغ	٦٢
٥٨٩	صانعوا السلاح	٦٣
٥٩٠	صناعة الحصير	٦٤
٥٩٠	الصناعات المختلفة : الشبكجية	٦٥
٥٩٠	الحلاقون	٦٦
٥٩٢	السقاؤون	٦٧
٥٩٢	التجار	٦٨
	التجارة	
٥٩٣	الأهمية التجارية لمصر	٦٩
٥٩٥	أصناف التجارة المصرية	٧٠
٥٩٩	تجارة القوافل	٧١
٥٩٩	المحلات التجارية الأوروبية	٧٢

الصفحة	الموضوع	٢
٦٠٠	أفكار وخواطر	٧٣
	الباب العاشر	
	التعليم العام	
	والمدارس في مصر	١
٦٠٣	العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب	٢
٦٠٤	عصر الخلفاء	٣
٦٠٤	عصر المماليك	٤
٦٠٥	نهضة العلوم والمعارف في عهد محمد علي	٥
٦٠٥	البعثة المصرية	٦
٦٠٨	تأسيس المدارس	٧
٦٠٩	تنظيم التعليم العام	
	الباب الحادي عشر	
	صحة المصريين وأمراضهم	
	وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية	١
٦١٣	تربية المصريين	٢
٦١٤	طريقة معيشتهم	٣
٦١٥	الإمساك عن المشروبات	٤
٦١٥	قهوة البن والأفيون	٥
٦١٦	الحمامات والدلك	٦
٦١٦	نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر	
	الأمراض المصرية	٧
٦١٨	الطاعون	
	أمراض أعضاء الجسم	٨
٦١٩	الدوستاريا	٩
٦٢٠	التهاب الكبد	١٠

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	٢
٦٢٠	امتلاء المساريقا	١١
٦٢٠	الاستسقاء	١٢
٦٢٠	البواسير	١٣
٦٢٠	الآفات الديدانية	١٤
٦٢١	الفتق	١٥
٦٢١	الأمراض الجلدية	١٦
٦٢٢	الجذام	١٧
٦٢٣	حب النيل	١٨
٦٢٤	البرص	١٩
٦٢٥	الأمراض القويبة والخنزيرية	٢٠
٦٢٥	الجدرى	٢١
٦٢٥	الجرب	
٦٢٧	لمحة من «كلوت بك»	
٦٢٩	مقدمة مؤلف هذه النسخة التاريخية	
٦٣٠	المطلب الأول	
٦٣٤	المطلب الثانى	
٦٤٧	* (جواب من كلوت بك إلى الميورا نزي بالقاهرة)	
٦٥٠	* خطاب للحضرة الخديوية السعيدية في إعادة فتح	
٦٥١	المدرسة . خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا .	
٦٥٣	* خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور	
	كلوت بك .	

تمهيد:

لقد عم الاهتمام بمصر وشئونها في هذه الأيام بلدان العالم جميعا. إن هذا القطر الذى كان فيما سلف من الزمان مهد الحضارة والعرفان قد خيمت عليه منذ زمن طويل عناكب النسيان فظل خامل الذكر حتى أواخر القرن الأخير حيث جاءت الحملة الفرنسية فمزقت ذلك الحجاب ووجهت نحوه أنظار العالم من أقصاه إلى أقصاه. ذلك لأنه بعد أن فشلت هذه الحملة وانتهت بما هو معلوم من النتائج التعسة والعواقب السيئة ظهر في الميدان رجل ذو عبقرية عالية فوضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين فكان بجلال فعاله خير تعزية لمجدنا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل على ما ختمت مساعيهم به من الخيبة والفشل. أجال ذلك الرجل نظره فيما أودعناه أرض الفراعنة من بذور الحضارة ورويناه به من دماننا فتعهده بعناية حتى طلع نبتة وأثمر. بهمة السامية. عادت الآفاق فرددت أصوات الأبواق الفرنسية في سهول الأهرام وأبى قير وعكا وعين شمس، كأنما ودت أن ترضى أبطالنا في أجداثهم الذين لقوا الحتوف في هذه الميادين. فلقد عهد إلى لفيف من الفرنسيين تعليم الجيوش الإسلامية فنون القتال وتدريبها على طرائقنا العسكرية وأساليبنا الحربية ونشر عبقرية الأمة الفرنسية. في الآن الذى لاح فيه طالع السعد الميمون بأفق الشرق. منذ هذا العهد نهضت مصر من كبوتها وهبت بمن سباتها وحيث حياة طيبة فأصبحت من أقوى العوامل في أهم مسألة تضاربت بشأنها صوالح السياسة واختلفت بسببها المذاهب في العالم القديم. إن مصر بجهودها

الذاتية ومركزها بالنسبة للأمم الأخرى أصبحت من خطر الشأن ورفعة القدر بحيث ظهر أن البلدان الجديدة مثلها بالتوسع في بيان أحوالها والإحاطة بأطراف عاداتها أندر من الكبريت الأحمر.

وإنى لأعلم يقينا أن الاهتمام بمصر لم يكن وليد اليوم، وأن طائفة كبيرة من المصنفات النفيسة قد وضعت عنها غابرا وحاضرا باحثا في أحوالها ومستوعبة أخبارها وحوادثها بل أن منها مؤلفا جليلا يسمو عليها سموا عظيما حتى أن الكاتب الذى تستقره الرغبة إلى الكتابة عن مصر قلما يستطيع الإقبال على عمله قبل أن يؤدي إلى هذا المصنف مفروض الإتاوة من الإكبار والإجلال.

أريد به مجموعة المذكرات التى دونها المجمع العلمى المصرى، وهى أثر علمى جليل . بل موسوعات نافعة تستشف من خلال أسطرها عبقرية الرجل العظيم الذى رسم أسلوبها وخطط برنامجها واستطاع بمن استجمعهم حوله من ذوى الكفاءات العالية الوصول بها الى الغاية التى رسمها لها.

وفي الوسع أن نذكر بعد هذا المصنف العظيم الذى ليس هو الأول ولا الأخير من أعمالنا الجليلة الموجبة للفخر مصنفات أخرى لا عداد لها، جديرة - والحق يقال - بالإطراء والحمد، نذكر مما نشر منها قبل الحملة الفرنسية مصنف العلامة (سفرى) ورحلة (فولنى) التى برزت حقائق العلم ودقة الملاحظة منها فى ثوب قشيب من الإنشاء الذى تتفجر منه ينابيع الحماس والقوة، وكذا مصنف (سونينى) الجدير بالاعتبار لأسباب شتى. أما المصنفات الحديثة فنورد منها كتاب الرحلات للدوق (دى راجوز) فإن القسم المخصص منه لمصر يحتوى كثيرا من البيانات المفيدة والآراء العلمية الصائبة، وكتاب «رسائل فى الشرق» من إنشاء مؤلف تاريخ الحروب الصليبية وصديقه العلامة (بوجولا) وكتاب «رحلة دى كدالفين ودى بروفري» وكتاب العلامة (و. لان) فى مجلدين عن أحوال المصريين وعاداتهم وأخيرا مصنفات العلامة (منجن) التى تحتوى سيرة محمد على وتاريخ حكمه مبنيًا على بيانات وتفاصيل امتازت بالدقة والصدق.

وثمة مصنفات لا عداد لها أقل من تلك أهمية من حيث تحقيقها شئون مصر وتمحيصها وأطوار أهلها وعاداتهم، وإنما بالرغم مما توافر فى المصنفات التى نشرت حتى اليوم من المزايا والفوائد لا يزال فى كل منها نقص

أو عيب. إما لأن البعض منها قد أصبح عتيقا لا تنطبق أخباره على حقيقة الواقع في عهدنا لما يكون قد طرأ عليه من التبديل والتغيير، وإما لأن البعض الآخر لا يتناول من أحوال مصر سوى الحوادث الطارئة والأحوال العارضة التي تزول بزوال أسبابها، وإما لأن هذه المصنفات لم تكن وفقا على مصر بل كل ما ورد عنها فيها عبارة عن موجز لا يتناول إلا المهم من أحوالها، وهو مايؤخذ منه أنه لم يكتب عن مصر مصنف جامع لشتات أحوالها ملم بأطراف عاداتها وأننى لذلك تصديت لتأليف هذا الكتاب الذى أقدمه إلى جمهور القارئين سدا لما ذكر من الخلل وإتماما لما تقدم من النقص.

وقد أكون بما تخيلته في نفسى من القوة والكفاءة عندما أخذت بتأليف هذا الكتاب مخدوعا بالأمانى. فسواء أخطأت في هذا الحدس أم أصبت فلى، وقد أقمت بمصر خمسة عشر عاما تقصيت فيها أحوال أهلها وعاداتهم وفتشت طويلا عن استعدادهم وعبقريتهم وشهدت أثناءها كمتفرج أو ممثل كل ما أدخل فيها من المستحدثات، كل الحق في أن أباشر بنفسى السير على الخطة الموضوعة للوصول إلى الغاية التي جعلتها مطمح جهدى ومرمى عملى.

على أنه لم يتح لى أن أبدأ بمزاولة هذا العمل إلا منذ أشهر قلائل. وأول ما انصرف إليه خاطرى بادىء الأمر استهلال البحث الذى كنت أكتبه عن الطاعون بلمحة إلى مصر من الوجهتين الطبيعية والطبية. إلا أننى ما انتهيت من استجماع المواد اللازمة لذلك حتى ألفتها — لإتساعها وكثرة عددها — متجاوزة الحد الذى رسمته لعملى. فأثرت حينئذ أن اتخذ منها أساسا لمصنف خاص آليت على نفسى إتمامه، لأن الاسئلة التى كانت توجه إلى عن مصر كلما رحلت إلى أوروبا باعثة على الدهش = الدهشة = والعجب. فلقد التقيت بكثيرين ممن اشتهروا بوفرة العلم وسعة الإطلاع وفرط الذكاء فاستخلصت من الاسئلة التى كانوا يوجهونها إلى عن مصر أن معلوماتهم عنها مبتورة مغلوطة غريبة في ذاتها. بل إنها من الغرابة بحيث استقر في خلدنى أننى إذ قمت بتصنيف كتاب صغير الحجم ألم فيه بأحوال مصر إماما عاما أكون قد قمت بعمل نافع مفيد.

ولست أنكر على القارئ أنه كان من أشهى الأمور إلى نفسى أن تتاح لى الفرصة لإطالة النظر في هذا العمل وقتله بحثا وفحصا قبل الشروع في تدوينه. لأنه بالحالة التى أقدمه بها إلى القراء ما يبرح بادى النقص جم العيوب. ولكن لما كان الوقت الحاضر من أوفق الفرص وأنسبها لنشره لأن

البحث في حياة مصر ومستقبلها قد لاكته الألسنة كثيرا في هذه الأيام وأصبح موضوع الجدل والمناقشة بين أرباب الصحف وأقطاب السياسة في الأقطار الأوروبية قاطبة فقد سارعت إلى تقديم هذا المستند ضمن مستندات القضية المصرية التي أضحى الحكم فيها من أولئك الأقطاب قاب قوسين أو أدنى. ذاك هو الباعث الذي حملنى على التعجل بتحرير هذا المصنف. ورجائى من القراء وقد قدمته إليهم مبتورا منقوصا، أن يسحبوا عليه ذيل الإغضاء متجاوزين عن السقطات التي زالت فيها البراعة عند تحريره. وإذا كانت هذه أول مرة عهدت فيها إلى الطباعين مصنفا طويلا كان رائدى فيه العجلة في إنجازها فما أحرانى بصفحهم وأشد حاجتى إلى تجاوزهم وعفوهم.

ولست بمتكلم عن التقسيم الذى راعيته في هذا المصنف، وغاية ما فى وسعى أن أقوله أننى اتبعت فيه ما خلته أكثر انطباقا على وجوه الصواب من غير، وهو ما سيقنته القراء به متى مروا بنظرهم على فهارس مواده. وأكرر القول بأن الغرض الذى أرمى إليه هو الكلام على جميع ما يرتبط بمصر بأوفى ما يستطيع من البيان، مع رعاية الاختصار لضيق المجال الذى حددته بنفسى لنفسى فارضا عليها ملازمته وعدم تخطيه إلى ما بعده ومن ثم يبدو للناظر أثر عنايتى بترتيب المواد وتنسيقها فى مواضعها اللائقة بها.

ومما لاشك فيه أننى تصديت للبحث فى كثير من المسائل الخارجة عن دائرة اختصاصى. فلتحريرها وتدوين حقائقها قد استعنت بالمصنفات الجليلة التى قصدت للبحث فى كل منها مع رجوعى إلى الأخصائيين المعروفين من أصدقائى الذين آزرُونى بأرائهم ونصائحهم فاستحقوا منى لذلك جزيل شكرى بعنايتهم.

وهناك مسائل أخرى، ولاسيما المسائل الحديثة، كان من غير المستطاع أن يتناولها بالبحث سوى الواقف على أسرار الأحوال الحاضرة للبلاد المصرية. ورجائى أنه إذا أضيفت هذه المسائل إلى ماسبق يتكون مجموع لا يخلو من النفع والفائدة.

أما المسائل الجديدة التى سبقت الإشارة إليها فلا يسبقن إلى وهم القارئ أننى اتخذتها منوالا أنسج عليه المدايح فى إنسان أو شىء أيا كان. كلا فإن هذا المصنف لم يوص بتصنيفه أحد، ولم يهيمن على تدوينه أحد، فإذا عثر القارئ فيه بمدح اقتضاه الإنصاف والعدل فى حق الرجل العظيم الذى لايسعنى إلا الإعجاب به والشكر له فليثق بأننى لم أطاوع فيه هوى

النفس ولا مجرد المجاملة أو الأدب نحو الأشخاص. وإننى فيما كتبت قد احتفظت بحريتي كاملة في الإعراب عن أفكارى بما اخترت لها من الألفاظ والعبارات.

وإذا كان الكمال لله وحده، وكان من الواجب التجرد عن الغرض واجتناب التحيز في الكلام على الخير والشر والنفع والضر فقد توخيت في إبداء ملاحظاتي على ما تبينته من النقص أو الفساد في أمر ما الاستقلال المجرد في الرأي وتحري الصواب جهد الإمكان.

على أنه لا يغرب على = يغيب عن = العاقل أن الوصول إلى الإصلاح لا يكون أبداً من طريق التنديد والتبكي ولا بوسائل الطعن الحاد والتشهير المعيب. فإنه من المعلوم حق العلم أن من يجعل حسن النية رائده في طلب إصلاح العيوب التى يستكشفها. يمهّد الطريق إلى هذه الغاية الشريفة ويوفر لها أسباب النجاح والفلاح بما يبيده من الآراء الصائبة والنصائح الصادقة المنبعثة من قلب سليم.

وقد أصبح حقاً على بعد ذلك أن أعلن شكرى لمن تفضلوا فمتحونى عضدهم ومؤازرتهم بما وافونى به من النصائح والإرشادات النافعة أو قدموه إلى من المستندات النفيسة والبيانات المفيدة. وأخص بشكرى وثنائى العلامة (جومار) الذى بصفته أقدم أعضاء المجمع العلمى المصرى، وقف وقفة الحارس الأمين على التقاليد التى تربط فرنسا بهذا القطر برياطها الوثيق، والوسيط المخلص الذى استعانت به مصر الحديثة على الاستنارة بضوء الحضارة والعمران المنبعث من الديار الفرنسية.

ولقد تفضل ذلك العلامة فأشرف على تحرير القسم الجغرافى من هذا المصنف فضلاً عن اننى من جهة أخرى مدين للعلامة (فيجرى) أستاذ النباتات بمدرسة القاهرة الممتلىء حماساً وعلماً بشطر كبير من المواد المتعلقة بهذا العلم، وإن أنسى لا أنسى المساعدة الجليلة التى وافانى بها العلامة (رجيس) مدرس التاريخ الطبيعى وأمين المتحف الخاص بهذا العلم في مدرسة الطب أثناء تحريرى القسم المتعلق بالحيوانات من كتابى، ولا البيانات التى قدمها إلى العلامة (بونفور) ملاحظ أملاك صاحب السمو إبراهيم باشا عن النباتات التى أدخلت حديثاً في مصر. ومما أنا مدين به إلى العلامة (منجن) المعلومات القيمة التى أوردتها في القسم التاريخى

والإحصائي مقتبسة من مؤلفاته التى لامحيص لكل من يتصدى للكتابة على مصر عن الاعتماد عليها والاغتراف من موردها العذب السلسيل. وإن صدرى لينشرح لإنصافه بهذا القول ولاسيما وأن كتابا كثيرين ارتضوا لأنفسهم نقل عباراته برمتها غير منسوبة إليه.

أما المهندس الحاذق (لينان) الملم تمام الإمام بايدروغرافية = بجغرافية= مصر وتاريخها، والذي نيط به إنشاء القناطر الخيرية فقد كان لى خير معاون على إيراد البيانات المتعلقة بهذه المسائل مشفوعة بالأرقام والإحصائيات الدقيقة.

أما (سريزى بك) الذى سيبقى اسمه مخلدا فى مصر بما تولى إنجازاه من الأعمال الجليلة فإليه يرجع الفضل فيما أوردته من البيانات المستقاضة عن دار الصناعة «الترسانة» ومابنى فيها من الجوارى المنشآت، ونقلته من المذكرات، والرسوم التى إليها رجعت فى إتمام هذا القسم من مصنفى.

أما العلامة (روزللىنى) الذى تعرفت عليه بمصر ثم حظيت بلقائه فى (بيز) «بيشه» فهو الذى أفاض على من سجل معارفه الأثرية المعلومات النفيسة التى أتممتها بالاقتباس من مؤلفات (شمبوليون).

وأما الآثار العربية فإن مايراه القراء عنها فى هذا المصنف قطرة من غيث البيانات التى وافانى بها الماهر (ب . كوست) من أوائل المهندسين الذين انتظموا فى سلك خدمة وإلى مصر، ولقد قام فيها بأعمال هندسية جليلة وألف كتابا مفيدا فى الهندسة العربية.

ولقد ذكرت أن السرعة كانت رائدنا فى تحرير هذا المؤلف وطبعه، فمن البدهى أن يتأثر القالب الإنشائى الذى صنعناه فيه بها، وأن تتسرب إليه الأغلاط عند مباشرة التصحيح المطبعى.

تمهيد تاريخى

العصر الفرعونى

العصور الجغرافية- العصور التاريخية- جدول بأسماء الأسر المصرية التى تعاقبت على مصر- من الأسرة الأولى فتح الملوك الرعاة - غارة الرعاة- الأسرة الثامنة عشرة - سيزوستريس- شوكة مصر فى الخارج على عهد سيزوستريس- الإدارة الداخلية - التجارة- غارة الاثيوبيين - الحبشان- الأسرة السادسة والعشرون - الفتح الفارسى.

١- العصور الجغرافية

لاشك اننى أتجاوز الغرض المقصود من هذا الملخص الوجيز إذا أردت الإيغال فى تيه توقيعات الحوادث التى يضطر الباحث فى تاريخ مصر إلى تعيينها عند شروعه فى عمله. ومعلوم أن الكهنة المصريين أفسحو المجال للزمن فجعلوا وجود أمتهم فى العصر السابقة على التاريخ. إذ حددوا له عشرات الألوف من السنين زاعمين أنها كانت فى خلالها محكومة بالآلهة أو أنصاف الآلهة - أى الأبطال. فقالوا إن مدة حكم الفريق الأولى بلغت ٤٢٠٠٠ سنة منها ١٢٠٠٠ سنة كان الحاكم فيها الإله فتاح و ٣٠٠٠٠ سنة كانت الشمس هى المدبرة لشئونها، وتلت هذه المدة الأولى مدة تسلط أنصاف الآلهة الذين اتخذ اليونانيون منهم آلهتهم الاثنى عشر الكبار، وهم زحل والمشتري الخ. وإنى لأترك إلى غيرى العناية بإيضاح هذا المعنى وحل هذا اللغز، وإلى غيرهم مهمة البحث فى مطابقة تواريخ تلك الحوادث بتواريخ حوادثنا المستمدة من سفر التكوين.

٢- العصور التاريخية

إن أول حقبة تاريخية لمصر كشف عنها البحث والتحقيق هى التى تضمنها جدول الكاهن مانيتون المصرى لحصر الأسر المصرية المالكة.

فإن هذا المؤرخ كان الكاهن الأعظم لعين شمس وقد عاش قبل الميلاد المسيحي بثلاثمائة عام فناط به أحد الملوك البطالسة تدوين تاريخ مصر القديمة. على أن يستخرجه من الأوراق المقدسة التي كانت موكولة إلى عهده. ومن المعلوم أنه لم يخلص إلينا من عمله المفيد سوى الجداول الزمنية المبينة لمدد حكم تلك الأسر على يد بعض المؤرخين الأقدمين، ومع أن في هذه الجداول بالحالة التي هي عليها بين أيدينا شيئاً من التباين والخلل والنقص فإنها تحدد على سبيل التأكيد أو التخمين النقاط الأساسية لتاريخ تلك العصور المتراجعة في القدم إلى أبعد مدى.

على أن العلم الحديث قد توصل إلى انتزاع أسرار الحقائق من الكتابة الهيروغليفية، إذ عثر في هذه النقوش التي جللت بها الآثار المصرية على ما يؤيد غالب البيانات التي دونها الكاهن مانيتون، وأحيانا على الوسيلة التي يستطيع بمقتضاها تصحيح الأغلط التي فرطت من المؤلفين الذين أخذنا عنهم تلك الجداول أثناء نقلهم إياها.

وها أنا ذا أقدم إلى القراء جدولا مختصرا للأسرات المصرية طبقا لما يؤخذ من القائمة المانيتونية والاستكشافات الخديثة المصرية. وإننى لمقتصر فيه على بيان تاريخ جلوس كل أسرة منها وعدد من تعاقب على الحكم من ملوكها ومدة حكم كل فريق منهم على حدة، وسأورد بعد ذلك أهم الحوادث التاريخية للملوك الذين اشتهروا بجلال الأعمال، أو بما كان لهم من الشوكة والافتدار أو الحكمة والدراية أو غير ذلك من المزايا التي تنطق بها الآثار التي شادوها ولا تزال أطلالها خير شاهد على فضلهم ونبالتهم ورفعة قدرهم.

٣- جدول الأسر المصرية (١)

الأسرة الأولى الطينية الطيبة	٥٨٦٧	٨ ملوك ٢٥٢ سنة
الأسرة الثانية الطينية الطيبة	٥٦١٥	٩ ملوك ٢٩٧ سنة
الأسرة الثالثة المنفيسية	٥٣١٨	٨ ملوك ١٩٧ سنة
الأسرة الرابعة المنفيسية	٥١٢١	١٧ ملكا ٤٤٨ سنة
الأسرة الخامسة الألفنتينية	٤٦٧٣	٩ ملوك ٢٤٨ سنة
الأسرة السادسة المنفيسية	٤٤٢٥	٦ ملوك ٢٠٣ سنة
الأسرة السابعة المنفيسية	٤٢٢٢	٥ ملوك ٧٥ سنة
الأسرة الثامنة المنفيسية	٤١٤٧	٥ ملوك ١٠٠ سنة
الأسرة التاسعة الهرقليوبوليتية	٤٠٤٧	٤ ملوك ١٠٠ سنة
الأسرة العاشرة الهرقليوبوليتية	١٩٤٧	١٩ ملكا ١٨٥ سنة
الأسرة الثانية عشرة الطيبة	٣٧٠٣	٧ ملوك ١٦٠ سنة
الأسرة الثالثة عشرة الطيبة	٣٤١٧	٦٠ ملكا ٤٥٣ سنة
الأسرة الرابعة عشرة الأكزوتية	٣٠٠٤	٧٦ ملكا ٤٨٤ سنة
الأسرة الخامسة عشرة الطيبة	٢٥٢٠	— ٢٥٠ سنة
الأسرة السادسة عشرة الطيبة	٢٢٧٠	— ١٩٠ سنة
الأسرة السابعة عشرة ملوك الرعاة		
الأسرة الحادية عشرة الطيبة	٣٧٦٢	١٧ ملكا ٥٩ سنة
	٢٠٨٢	٦ ملوك سنة (٢)
الأسرة الثامنة عشرة الطيبة	١٨٢٢	١٧ ملكا ٣٤٨ سنة
الأسرة التاسعة عشرة الطيبة	١٤٧٣	٦ ملوك ١٩٤ سنة
الأسرة العشرون الطيبة	١٢٧٩	١٠ ملوك ١٧٨ سنة
الأسرة الحادية والعشرون الصانبة	١١٠١	٧ ملوك ١٣٠ سنة
الأسرة الثانية والعشرون البويسطية	٩٢١	٧ ملوك ٢٠ سنة
الأسرة الثالثة والعشرون الصانبة	٨٥١	٤ ملوك ٨٩ سنة
الأسرة الرابعة والعشرون الصائلة	٧٦٢	١ ملك ٤٤ سنة
الأسرة الخامسة والعشرون الأثيوبية	٧١٨	٦ ملوك ٤٤ سنة
الأسرة السادسة والعشرون الصائبة	٦٧٤	٩ ملوك ١٥٠ سنة (٣)

(١) نقلت هذا الجدول من كتاب العلامة شامبوليون الذى ألفه عن مصر القديمة ونشرته «مجلة العالم العجيب» فعلى من يرغبون استقصاء تاريخ مصر القديم الرجوع إلى هذا المصنف الذى تناول هذا البحث بالإسهاب وشرحه شرحا مبنيًا على الاستكشافات الأخيرة التى قام بها لأول مرة العلامة شامبوليون فيجاءك

(٢) حكم مصر ستة من الفراعة الطيبين بالوجه القبلى، ولبت حكمهم مثل هذه المدة - أى ١٦٠ سنة

(٣) هذه الأسرة هى التى أخفى عليها الفرس فى سنة ٤٤٢

٤- من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة

أول ملوك هذه الأسرة هو (مينثى) الذى يسميه مؤرخو اليونان «مينيس» وهو الذى بدل الحكومة الاستبدادية الدينية بالسلطة الملوكية والمأثور أن الدلتا فى عهده كانت عبارة عن مستنقع وأنه شق للنيل مجرى آخر غير مجراه وأسس مدينة منفيس التى عثر الباحثون على أطلالها فى قرى منف وميت رهينة وأم خنان. وقد خلف (مينثى) على عرش الملك ملوك كثيرون ما برحت أسماؤهم وأعمالهم مجهولة حتى الآن ولم تترك أسراتهم للتاريخ من الذكريات المجيدة سوى ماشاده ملوكها من الآثار العظمى التى ما برحت موضع إعجاب السياح والعلماء وأرباب الصناعات والفنانين. وتبتدىء من الأسرة الثالثة منها تواريخ إنشاء أقدم الآثار فى العالم وهى أهرام دهشور وسقارة أما أهرام الجيزة الثلاثة فما هى إلا قبور الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الرابعة. وإنشاء (لباريس) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة فى إقليم أرسنوة (الفيوم) التيه الشهير فى الأزمان القديمة، وهو الأثر الذى كان إحدى العجائب السبع على ظهر المسكونة. والظاهر أن الغرض من إنشاء هذا التيه كان من أجل الأغراض وأشرفها. ألا وهو جعله دارا للندوة يجتمع فيها نواب الأقاليم المصرية كلما دعاها إلى ذلك حادث خطيرى أو ضيق شديد لإبداء آرائهم فيما ينبغى أن تتخذه الحكومة من الوسائل لاتقائهما أو دفعهما. وهذا الأثر الجليل لم تبق منه اليوم سوى أطلال دارة وأثار بالية.

٥- غارة عرب الرعاة

كان المصريون يطلقون لفظ (هكسوس) أى الرعاة على عرب الصحراء الرحل الذين ندعواهم اليوم باسم البدو أو العربان فإن هؤلاء الأقوام الباسلين = البواسل = الذين اعتادوا اقتحام أخطار الحروب واحتمال المشاق وصنوف الحرمان بما جبلوا عليه من التقشف فى المعيشة والتنقل من مكان إلى مكان تدفقوا على مصر من ناحية برزخ السويس فى عهد الأسرة السادسة عشرة فاستولوا على إقليم الدلتا، وتناوب الحكم عليها ستة من كبار زعمائهم وظلوا قابضين على أزمتها ٢٦٠ سنة ابتدأت من سنة ٢٠٨٢ قبل الميلاد المسيحى. وفى عهد الرابع من أولئك الملوك الأجانب تقلد يوسف منصب الوزارة ودعا إلى مصر أسرة أبيه يعقوب الذى تناسلت منه الأمة اليهودية.

٦- الأسرة الثامنة عشرة

فتح ملوك الرعاة على المصريين أبواب الظلم وساروا فيهم بالجور والغشم. فكانوا إذا أطاعوهم يطيعونهم مكرهين غير ناظرين فيهم إلا أنهم قوم من البرابرة المتوحشين أعملوا أيدي التخريب والتدمير حتى أتوا على ماشيد من الآثار الضخمة والأعمال النافعة في عهد الأسر السابقة ولم يطق الأبناء من خلائف الملوك الأقدمين الذين خلعهم الرعاة صبرا على هذا الضيم فانسحبوا في أقاليم الدلتا وتمكن أحدهم وهو (أمينوف الأول) من إجلائهم عنها فلما استتب له الأمر في ديار مصر ورست قواعد سلطته بها على الأسس الوطيدة أسس الأسرة الثامنة عشرة التي سطع نجمها وعلت كلمتها وأمتد رواق نفوذها على أرجاء مصر بحدودها القديمة.

ولقد تفرغ الأربعة الأول من ملوكها وهم (أمينوف الأول) و(تموتموزيس الأول) و(تموتموزيس الثاني) و(تموتموزيس الثالث) لانتشال الأمة من وهدة الظلم التي أوقعها الرعاة فيه وكان هؤلاء في مدة تسلطهم على مصر قد بثوا في البلاد الفساد وأطلقوا أيديهم فيها بالتخريب والتدمير. فلما انبرى أولئك الملوك الأربعة لتجديد ماتخرب وإصلاح ما فسد كان أول مانهضوا به من الأعمال أن أعادوا إلى الدين رونقه القديم وحفوا طقوسه بشارات التعظيم والتكريم وقووا أركانه بدعائم السلطة والنفوذ. وكانت القوانين القديمة قد سقط اعتبارها وزالت من بين الناس أسبابها فكان مما انصرفت إليه عنايتهم إعادتهم إياها إلى مقامها الأسى ومرتبته العليا. وكانت الترع والقنوات والجداول قد طمت بالتراب فحفروها من جديد كما أعادوا بناء المدائن التي دمرت والآثار التي عفى عليها. وما أغلب المباني الشاهقة والآثار الباذخة التي ترى في (الكرنك) و(مدينة أبو) إلا مظهرا من مظاهر تلك الهمة العالية والغيرة الدافقة للاحتفاظ بمجد الأمة وعظمة البلاد.

وقد امتاز الملك (تموتموزيس الثالث) المشهور باسم (موريس) على غيره بأنه الذى أنشأ فيما عدا المباني المنجدة والهياكل المعظمة المستلتن المعروفتين بمسلتي الإسكندرية وأطلق اسمه (موريس) على البحيرة المعروفة الآن ببركة قارون التي تروى بمياهاها أراضى إقليم الفيوم، وهى التي كان ماء فيضان النيل في الزمن القديم يخزن فيها لتروى به الأرض أيام التحاريق، فكان ذلك سببا لخصب الشطر الأكبر من أراضى مصر الوسطى.

٧- سيزوستريس

بعد أن أرست الأسرة الثامنة عشرة قواعد النظام والسعادة في الداخل رفعت لواء شوكة مصر في الخارج وأيدت سيادتها على الأقطار المجاورة لها كافة. وأشهر ملوكها الذين أمتازوا بفتوحاتهم وأعلامهم همة وأبعدهم صيتاً هو (رمسيس الثالث)، ولعله الثاني المعروف بـ (سيزوستريس) فقد استأنف هذا الملك الفتوحات التي بدأ بها أسلافه، ووسع نطاقها حتى ترامت أطرافها إلى باطن الأقطار الهندية واستعان بما استفاده من الغنائم العظيمة على أثر انتصاراته الباهرة التي فدح فيها الأمم المغلوبة بالإتاوات البالغة والكلف الباهظة على إنجاز كثير من جلائل الأعمال العامة الفائدة وهو الذي تعزى إليه فكرة توصيل النيل بالبحر الأحمر، وشاد من جليل الآثار هاتحلي الآن به جيد الديار المصرية كآثار أبو سمبل والدر ووادي الأسبعة في النوبة والقرنة والمدينة . أى مدينة أبو بالقرب من القرنة وجزء من هيكل الأقصر والبهو الكبير ذى العمد في قصر الكرنك. قال (شامبوليون) الشاب: «إن هذا الأثر الأخير لأفخم بناية شادتها يد الإنسان».

ففى عهد سيزوستريس بلغت مصر إلى أوج السعادة والهناء داخليا والشوكة والهيبة والاقترار خارجياً.

٨- شوكة مصر فى عهد سيزوستريس

نذكر فيما يلى الممالك والأقطار التى كانت تعترف بسيادة فرعون عليها أو بحكمه فيها وهى: بلاد النوبة والحبشة وسنار، وكثير من أقطار جنوب افريقية والأقوام الرحالة النزالة = النازلة = فى صحارى شرق النيل وغربه وبلاد الشام والعرب ومملكتا بابل ونيوى، وشطر كبير من آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وبعض جزر الأرخبيل اليونانى والأقاليم التى تتألف منها الآن المملكة الفارسية.

٩- غارة الأثيوبيين الحبشان

بلغت هذه الحقبة قصارها = أقصاها = من العظمة والمجد والشوكة على عهد الأسرة الثامنة عشرة كما ذكرنا . إلا أن الأحباش بقيادة (سبكون) قائدهم أخذوا على هذه العظمة وجعلوا الصرح الشامخ الذى رفع ذراه الملك (سيزوستريس) أطلالا دارسة وأثرا بعد عين، ولكن لم يلبث الأثيوبيون أن طردوا من مصر على يد (استيفيناتى) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

١٠ الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس

لو أن مصر استطاعت أن تبقى نفسها شر الاتصال بالأجانب، أو لو كانت طبيعة وجه أرضها وشكل سطحها من الوجهة الحربية بحيث يصدان عنها الغارات الأجنبية لما بقى شك في قدرتها على صيانة وجودها وإطالة أمد حياتها بما كان مسنوناً لها من الأنظمة العالية والقوانين الحكيمة لتدبير مرافقها ومصالحها من كل نوع. ولكن مصر لا تملك من وسائل الدفاع الطبيعية عن كيانها ما يكثر به أو يعتمد عليه. فقد قال الحكيم (فولتير) في ذلك «إنه كان يكفي من يحب أخذها أن يهمل بالغارة عليها لتطيب له». فهي بهذا الوصف فريسة سهلة ولقمة سائغة جذبت إليها من جميع النواحي عظماء الفاتحين الذين طالما طمحت أنظارهم إلى خيراتها الزراعية وموقعها الجميل بين ثلاث من قارات العالم، وحيث لا يفصل بين بحرين من بحار الأرض سوى برزخ لا يتجاوز طوله بعض الفراسخ، فافتقارها إلى الوسائل الطبيعية للدفاع عن كيانها كان على الدوام موضع الضعف منها.

ولقد أدرك واضعو قوانينها القديمة هذه الحقيقة من بادئ الأمر وحسبوا لعواقبها الحساب فحرموا على الأمة المصرية باسم الدين كل إتصال بالأجانب أو اختلاط بهم خشية أن يستفزز هذا الاختلاط هؤلاء إلى محاولة الوقوف على أسرارها والعلم بمواطن ضعفها فينشطوا إلى فتحها وامتلاكها. وطالما لبث فريق الكهنوت عزيز الجانب رهيب المقام بكثرة عدده وامتداد نفوذه واستقرار صولته. فإنه كان يحول دون كل إتصال بالأجانب فأمنت البلاد شرهم ووقت نفسها عاقبة أطماعهم ولكن ملوك الأسرة السادسة والعشرين رأوا أن يلقوا عن عاتقهم نير النفوذ الكهنوتي ويستبدوا بالأمر فمهدوا السبل لذلك الإتصال الذي كانت عاقبته شراً ووبالاً على مصر إذ بلغ بأحدهم وهو الملك (أبساميتيك الأول) أن إتخذ لنفسه جنداً من الإغريق والكاريين واليونانيين المجمعين فأغضب طائفة الجند المصرى الذين انحاز سوادهم الأعظم عن هذا الملك ومنحوه أكتافهم = ولوا عنه = قاصدين إلى بلاد الحبشة فحرمت مصر بذلك من حمايتها الطبيعية.

وحدث أن الملك (واقريه) من خلائف (أبساميتيك) اقتدى به إذ إتخذ جنداً من الأجانب فساءت سمعته وقبح ذكره بين أمته ثم أخطأ خطأ غليظاً إذ أغضب (نبوخذ نصر) ملك آشور بمهاجمته إياه في دياره أخذاً بناصر اليهود وتأييده لهم عليه. فلما غلبه (نبوخذ نصر) أغار على مصر وأيد فيها

(أمازييس) الذى كان قد ثار على الملك (واقريه) واغتصب منه صولجان الحكم.

وبقى (أمازييس) قابضا على زمام البلاد زمنا طويلا نشرت السعادة والهناء فيه أجنحتهما عليها. فقد روى المؤرخون أن عدد المدن الآهلة بالسكان بلغ فى عهده إلى عشرين ألف مدينة. وزار مصر وقتئذ الحاسب الشهير (فيثاغورس) ^(١) والحكيم المكنن (سولون) غير أن (أمازييس) لم يرافقه اليمن والتوفيق حتى النهاية. لأنه رأى بعينه قبل وفاته هبوب العاصفة التى تحيقت ببلاده وأخذت على استقلاله. فإنه أغضب زعيم الإغريق الذين كانوا فى خدمته فلم يكن منه إلا أن استفز (قمبيز) ملك الفرس إلى مهاجمة مصر والاستيلاء عليها فعمل (قمبيز) برأيه. إذ رحل من فوره إلى مصر. ولكن (أمازييس) لقى حتفه قبل وصوله بزمان يسير فلم تنتشب سوى معركة واحدة فاز الفرس فيها على المصريين عند (بيلوز) ففتح لهم هذا الفوز أبواب مصر فولجوا فيها واستبدوا بحكمها بعد أن استبعدوا ملكها البساميتى وأهلكوا ولده. وأصبحوا منذ سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أصحاب القول النافذ والكلمة المسموعة المطاعة فى أرجائها.

(٢)

ديانة قدماء المصريين

مبدأ التوحيد- الثالوث- الأعلى- الآلهة المختلفة- أوزيريس وإيزيس وهوروس- تيفون إله الشر- تقمص الأرواح- عبادة الحيوانات- المدن المخصصة لهذه العبادة- التقسيمات الدينية لمصر.

١١- لم تكن ديانة المصريين كما وقع في وهم الكثيرين بناء على روايات مؤرخى الإغريق والرومان فظة غليظة تستدعى الاحتقار لسقوط منزلتها وخساسة قدرها بقيامها على عبادة بعض الحيوانات والنباتات. فإن تلك الديانة التى قامت قواعدها على أسس مبادئ علم ما وراء الطبيعة وأشرفها جوهرها كانت تمثل الطبقة العامة بالحركات الرمزية التى كان الكهان وحدهم يملكون أسرارها، وما كان للشعب أو الأجانب أن تشرئب أعناقهم إلى استكناها.

وكان مبدأ التوحيد قوام العلم الإلهى وعماده عندهم وبمقتضى قواعد هذا العلم كان (آمون رع) الكائن الأعلى الذى يشتق منه كل شئ فى الوجود فكان يمثل مبدأ التذكير بذاته ويمتزج به مبدأ التثليث من طريق الاتصال والاختلاط بالآلهة (موث) وقد تولد من هذا وذاك الإله (خونس) الذى تم بوجوده الثالوث الأعلى.

وهذا الثالوث الإلهى هو الذى توالدت منه آلهة مصر الذين مثلوا فى بادئ الأمر بجميع أرجاء الكون مظاهر الربوبية التى لاحد لها ولا غاية وكان ترتيب درجات الآلهة يتناول تقسيمها إلى فرق ثلاثية أى جماعات تتألف كل جماعة منها من مبدأ مذكر وآخر مؤنث وثمره اتحاد المبدئين واجتماعهما.

وكان يلى (آمون رع) الذى طالما عبده العابدون باسم (خنوفيش) جملة آلهة انتحلها الإغريق لأنفسهم بعد أن بدلوا من أسمائها بأسماء جديدة نذكر منها (بوتو) إلهة الليل التى كان لها عند المصريين نفس الصفات التى وصف الإغريق بها آلهة الليل عندهم . و(نيث) إلهة الحكمة التى كانت عبادتها قائمة الشعائر فى (صائيس) بالوجه البحرى. و(فتاح) إله الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم وكان يشغل فى ترتيب درجات الآلهة المصرية المرتبة الثالثة من

مراتب الربوبية و(خنوفيس) الذى كن يمثل وفي فيه بيضة بارزة هى التى نتجت عن الإله (فتاح) ، إشارة الى معنى الخلق والإبداع والمادة الأولى. والمفهوم من عقائد قدماء المصريين أن هذا الإله كان أول ملوكهم، وأن مدينة منفيس الملوكية كانت معهد عبادته. وكانت حفلات تكريس الملوك وتتويجهم تقام بالهيكل الفخم الذى شيد بتلك المدينة إجلالا له. و(هاتور) وكانت عند قدماء المصريين بمنزلة الزهرة عند الإغريق وكانت مدينة منفيس مقر عبادتها أيضا. (فريه) إله الشمس، وكان عند قدماء المصريين بمثابة (هليوس) عند الإغريق، وكانت شعائره عبادته تقام بمدينة هليوبوليس، و(توت) وكان فى مصر بمثابة (هرمس) فى بلاد اليونان فإنه هو أول من كشف النقاب لبنى الإنسان عن أسرار المبادئ الأولى للعلوم والفنون والتجارة وكانت مدينة (هرموبوليس) مقر عبادته ومهبط وحيه، وكان البجع طائره. و(بشت) وكانت تعبد فى (بوباستيس) أى تل بسطة وكان القط حيوانها المقدس.

وكان الثالث الذى ينتهى إليه تدبير الأرض مؤلفا من (أوزيريس) و(إيزيس) و(هوروس) وهو الذى على أثر قيامه بتدبير شئونها تم خلق الإنسان، وما القسم الأول من حوادث مصر فى العهد القديم سوى تاريخ المدة التى استوى هذا الثالث فيها على العرش متصرفا فى أحوال العباد وإذا سلمنا بأقوال (بلوطرخس) كان (أوزيريس) العنصر الفعال فى خلق الكائنات وتوالدها و(إيزيس) المادة الأولى المفعولة لسائر الكائنات الخاصة.

ومن اتحاد (أوزيريس) بإيزيس أى من اتحاد العنصر المنتج بالمادة نشأ العالم أو الكون واستقر نظام كل شىء فالعالم هو الابن الواحد للألوهية وقد أطلقوا عليه اسم (هوروس) وإنما كان إلى جانب مبدأ النظام والالتزام الذى يمثله (أوزيريس) (إيزيس) و(هوروس) مبدأ الشر والفساد الذى كان يمثله (تيفون) أخو (أوزيريس) وخصمه اللدود.

وكان المصريون يعتقدون أن (أوزيريس) بعد أن أقاض على مصر نعمة المدنية والحضارة وأنشأ مدينة طيبة ذات المائة باب أحب أن يغدق هذه النعمة بالسوء على أقطار الأرض جميعا فزار الشعوب التى رفعت الهياكل لعبادته بأسماء مختلفة. فلما عاد من رحلته الطويلة تدهلت (نفتى) زوجة أوزيريس وأخته فى حبه وأوهمته أنها (إيزيس) زوجته فرزق منها بأنوبيس فلما رأى تيفون أنه تدنس بعار هذه المخزاة أراد أن يغسله عن نفسه فنصب لأوزيريس المكاييد يريد بها اغتياله، وقد بلغ من ذلك إربه إذ سلبه الحياة كما

سلبها من هوروس وألقى بأشلاء جسمه في الفرع الصائى من نهر النيل ويقال إن هذا الحادث سبب كراهة قدماء المصريين لهذا الفرع، ولقد كانوا يعتقدون أنه لما ألقيت تلك الأشلاء فيه بثت في مياهه مزايا الخصب والبركة.

وكان أوزيريس قد عاد من جهنم وتسمى بعد بعثه باسم (سرابيس) فرد إلى ابنه (هوروس) الروح وجهزه بالسلاح لقتال (تيفون) الذى لم يلبث أن قهره (هوروس) وتغلب عليه وكاد يفتك به لولا أن (إيزيس) أنجته من الهلاك وظل مختبئا في الكون منذ هذا الحين يبيت فيه الفساد فيضطرب حبل نظامه وتنزل صنوف المحن والمصائب.

وكانوا يصورون (أوزيريس) في الهياكل بأشكال مختلفة سنتكلم عليها في الفصل الخاص بالآثار القديمة، ولكنهم كانوا يعبدونه غالبا في صورة ثور أسود، ومن هنا اشتقت عبادة العجل (أبيس) الذى كانوا يعرفونه بسمات خاصة هي الشامة المربعة البيضاء وسط الجبهة وازدواج شعر الذنب وإلتواء أسفل اللسان بشكل العقدة.

وكان المصريون يعتقدون بتناسخ الأرواح ويرجعون إلى هذا الاعتقاد في القول بخلود النفس وانتقال الروح بعد فناء الجسم إلى حيوان آخر يوشك أن يولد وعودتها بعد ثلاثة آلاف عام لتنبث من جديد في الهيئة البشرية وتستأنف الحياة لمدة أخرى.

وبالرغم من استقرار قواعد الديانة المصرية على الأسس الوطيدة فإن العلماء الباحثين لم يتبينوا من أسرارها الكامنة إلا النزر اليسير. لأن الكهان والمكرسين استأثروا بمعرفتها دون عامة الشعب. فلم تلبث العقيدة الدينية أن انحرفت عن جادتها وتحولت في نفوسهم إلى عقيدة غليظة دعامتها التسليم بتعدد الآلهة إلى ما لاحد له من العدد، فمن معتقداتهم الباطلة الكثيرة التي جرت في مصر مجرى الحقائق ماكانوا يبذلونه من مظاهر الإجلال والتعظيم للحيوانات التي كان أحراها = أجدرها = في نظرهم بالتبجيل والتكريم السنانير والخنمون والكلاب والبجع والذئاب والتماسيح. وكانوا لهذا السبب يتعهدونها بالعناية التامة ويقومون على تغذيتها في الهياكل وينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة.

وكانوا إذا نفق أحدها ينفقون عن سعة في تنظيم جنازته وتشيعها ويحملون من أجله شارات الحداد. ويعاقبون بالإعدام من يتعمد قتلها ويطبّقون هذه العقوبة على من يقتل خطأ سنورا أو بجعة.

وذكر ديودورس الصقلي أن أحد الرومان في عهد البطالسة قتل سنورا غير عامد ولا متربص فلم يستطع أحد أن ينقذه من أيدي الشعب الحانق الهائج، بالرغم مما كان لدولة الرومان في ذلك الزمان من الصولة والهيبة وامتداد النفوذ والسلطان. وكانت المدن الكثيرة مخصصة لعبادة الحيوانات. فالعجل (أبيس) كان يعبد بمدينة (منفيس) والعجل (مينفيس) في عين شمس والجدى في (منديس) والسبع في (ليونتوبوليس) وتمساح بحيرة (موريس) في مدينة مسماة باسمه، والذئب في (ليكوبوليس) إلخ. وكان سبب تكريم الحيوانات هذا التكريم الدينى معروفا. إلا أن الكهان كانوا يسرونه ويحرصون على مواراته حتى لقد ذهب رحالة الإغريق المذاهب البعيدة من الحدس والتخمين في تأويله فكانوا يرجعون به تارة إلى ما تؤديه تلك الحيوانات من الأعمال النافعة وطورا إلى ما يتوافر فيها من الصفات المختلفة لتكوين الرموز والعلامات الموما إليها.

ويؤخذ من أقوال القديس (كليمنتس) الإسكندري أن أماكن العبادة من الهياكل المصرية كانت خالية من التماثيل وان رمز الربوبية فيها كان عبارة عن حيوان مقدس يوضع في مكان بعيد عن الهياكل ويسدل عليه حجاب حتى لا تدركه الأبصار.

وكانت مصر مقسمة إلى مناطق دينية لكل منطقة عبادة خاصة بها تتناول إليها واحدا أو ثالوثا إلهيا. وعلل (ديودورس) الصقلي هذا التقسيم بأن أحد الفراعنة السابقين أراد أن يمهد لنفسه سبيل الحكم على القطر المصري كله فابتكر لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض حيلة ترمى إلى تفريق شمل الأمة وتصديع ألفتها ليمنعها من الاتحاد والعمل على تقويض سلطته ألا وهى تقسيم مصر إلى مراكز خص كلا منها بعبادة مغايرة لعبادة المراكز الأخرى وحرم عليها بعض الأغذية وعمل على تطبيق المثل المشهور «فرق تسد» فنال مبتغاه من التحكم في شئونها وذكر (ديودورس) الصقلي أن هذه الحيلة جاءت بالمراد إذ استحکم الشقاق بسببها بين أهل المراكز المتجاورة لتعيرهم بعضهم البعض بالتقصير في القيام بالفروض نحو معبوداتهم. على أن الهياكل كانت بالرغم من ذلك التخصيص تحتوى مع الرمز الربانى الخاص بعبادتها رمزا آخر يمثل (أمون رع) الإله الأكبر لمصر بأسرها.

وإذ لم يكن من قصدى الإسهام في الكلام على ديانة قدماء المصريين لانفساح مجاله وتشعب أطرافه فإنى أحيل القارئ الراغب في استقصاء هذا الموضوع على المصنفات المطبولة التى ألفت فيه، ولاسيما المصنف الجليل الذى ألفه شمبوليون.

(٣)

حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم

الطبقات الاجتماعية - طبقة الكهان - طبقة الجند - طبقة العامة - الملك - الحكومة - القوانين.

١٢ - الطبقات

كان عدد سكان مصر أيام عزها في عهد الفراعنة يتراوح بين خمسة الملايين وسبعة الملايين من النسمات. وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبيرة، وهى طبقة الكهان وطبقة الجند وطبقة العامة. وكانت العامة منقسمة إلى فريقين، فريق الفلاحين وفريق التجار. وكان القانون يقضى على الأبناء ان يزاووا صناعات آبائهم ويمارسون مهنتهم. فكان هذا من أعظم بواعث استقرار الأقسام الكبرى للهيئة الاجتماعية على وتيرة واحدة.

١٣ - الكهان

كان زمام حكومة مصر في مبتدأ الأمر بيد رجال الدين، ثم تحول منهم إلى قبضة الجند، إلا أن رجال الدين ظلوا مع هذا محتفظين بكثير مما كان لهم من الامتيازات قبل هذا الانتقال. ففي عهد الفراعنة وكان لهم من الهيبة ورفعة المكان في نفوس العامة ما يرجع تعليقه إلى أمور شتى منها سعة الثروة وبسطة الجاه ومنعة الجانب. وكانت ثروتهم تتألف من الأراضى الواسعة والاتاوات التى يؤديها إليهم الأتقياء والمتدينون أصنافاً من الحاصلات لانقدا كريما وكان أفراد الأمة بأسرها على تفاوت درجاتهم في سلم الاجتماع من أكبر كبير حتى الملك نفسه إلى أصغر صغير.. لا يعفى أحدهم من تلك الاتاوات. ولم يقتصر الكهان على جباية الفرض والضرائب من الأحياء وحاصلات الأرض بل كانوا يفرضونها على الموتى ويجبونها من أهلهم. لأنه لما كانت المقابر ملكا لهم لا يمتازهم عليها منازع فإن الجثث المحنطة (المومياء) كانت لاتغيب فيها إلا بإذن منهم، وكانوا يحصلون عليها رسماً معيناً في كل عام.

وكان لطبقة الكهان مشاركة في الإشراف على شئون الوطن وتداخل في مرافقه ومصالحه. فما أشهرت حرب أو أبرم صلح أو اتخذ تدبير بشأن الزراعة أو الإدارة الداخلية أو المنافع العامة أو تقررت خطة في شأن خطير إلا ورجع فيها إلى مشورتهم. فإذا أبدوا فيه رأياً مسدداً فلا يسع الحكومة إلا أن تتخذة دستوراً لها لن تحيد عنه قيد أنملة.

وكان الملك إذا أفضى إليه بصولجان الحكم لا يعترفون به إلا إذا تولوا بأنفسهم إجلاسه على العرش بعد أن يعقدوا مجالسهم ويوافقون فيها على إسناد الكرسي إليه. وكان الكاهن الأعظم يلى الملك في رفعة المنصب وشرف القدر ونباهة الذكر. وكان الكهان يمارسون الطب والعلوم الفلكية. وكان تحنيط الأجسام من الأعمال الكثيرة الداخلة في دائرة اختصاصهم. وكانوا بالجملة الظافرين في مصر دون غيرهم بنعمة التفقه في العلوم ومدارستها من حساب وهندسة وغيرها. وليس هذا بالأمر المستنكر. لأن أعمال التاريخ كانت في بلد كمصر يغير الفيضان في كل عام شكل سطح أراضيها وينقل حدودها من مكان إلى مكان ويثير ثائرة المنازعات بين الملاك كانت على مكان مكين من الأهمية فليس بدعا أن تكون لهم عناية تامة بعلم الهندسة يحددون به حصة كل مالك من الأرض بمقتضى قواعده الدقيقة التي تصيب دائما ولا تخيب أبداً.

وكانت طائفة الكهنوت ذات طبقات مختلفة. فكان يلى كبار الكهان الكتبة المقدسون المنوط بهم إدارة الحاصلات الكهنوتية وموارد إيراد الهياكل الدينية تم تتبعهم كبار الأنبياء فالأنبياء فحراس الهياكل. فكتبة القرابين الذين كانوا موكلين بدمغ الحيوانات المخصصة للقربان بميسم خاص بهذا الغرض ثم يتلوهم كهان المدن فالمكلفون بتقديم القرابين الجنازية. فالمنوط بهم إحراق البخور أمام الآلهة فالملتعدون لإهراق الخمر، فملاحظو الهياكل فالخدم كالبوابين والرسامين والمغنين والحنوتين على تفاوت درجاتهم وتباين أعمالهم.

وكان الكهنة شديدي العناية بملابسهم لاعتبارهم إياها المظهر الأول لكرامة الوظائف المعهودة إليهم وكان أغلب لباسهم الثياب البيضاء من نسيج الكتان. إذ كان لا يؤذن لهم بحمل غيرها من الثياب. وكان من الواجبات المفروضة عليهم على مذكره (هيرودتس) المؤرخ حلق رؤوسهم وإزالة الشعر برمته منها ومن سائر منابت الشعر في الجسم.

١٤- طبقة الجند

وكانت طبقة الجند الثانية في تركيب طبقات الأمة المصرية، ولكنها حلت المحل الأول والمرتبة العليا بعد أن ثل (مينيس) رئيسها عرش السلطة الدينية وقوض أركانها. وكانت ذات أملاك واسعة النطاق بعيدة الأرجاء لكثرة عدد

أعضائها. فقد كان الجيش المصرى فى وقت الصلح يعد نحو مائتى ألف جندى، وكان وقتما زار هيرودتس القطر المصرى يتجاوز أربعمائة ألف منقسمين إلى شطرين كبيرين تبعا للأقاليم التى وكل إليهم الذود عن حماها يتألف أحدهما وهو قسم (الكاليزيريين) من مائتين وخمسين ألف، والآخر وهو قسم (الهرموتيبين) من مائة وخمسين ألفاً.

وكان فى الجيش المصرى المشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة والمقاتلة فى مركبات القتال، والمأخوذ من النقوش الأثرية أنه كان خلوا من كتائب الفرسان. وكان سلاح المشاة الرمح والسيف المقوس والبلطة والنبال والدركة. وكانت المركبات تجرها الخيل، لكل مركبة منها جوادان ويعلوها المقاتلة مسلحين بالبلط ومعهم النبال يرشقون بها العدو. وكان كل جيش منقسما إلى جملة فيالق ولكل فيلق عمله الخاص به. وكان الملك القائد الأكبر للجيش، ولكنه كان ينتدب للقيادة العليا أحد أبنائه أو من يقع عليه اختياره من كبار القواد.

١٥ - طبقة الشعب

أما طبقة الشعب فكانت تشمل من لاعمل لهم فى الطبقتين السالفتين، وكان أفرادها كثيرى العدد يعيشون فى اليسر والرخاء مما تخرجه لهم الأرض من ثمراتها أو من مزاولة الصناعات وممارسة التجارة.

والظاهر أن طبقة الشعب كانت فى وقت ما حاصلة على حقوق سياسية مهمة. إذ كان لها أن تشارك فى انتخاب الملوك ومبايعتهم، ولكنها أمسكت شيئا فشيئا عن التداخل فى هذه الشؤون فلم يسمع عنها أحد أنها اهتمت بالمسائل العامة إلا إذا انقضت أسرة ملكية ومست الحاجة إلى استخلاف أسرة أخرى على عرش الملك بدلا منها فإنه كان يجوز لها وقتئذ أن تنظر فى الأمر وتعنى به. على أن هذه الميزة انتزعت منها فيما بعد فلم يبق لها من الحقوق سوى حق النطق بالأحكام الغريبة فى القضايا التى كانت ترفع إليهم فى موضوع سير الملوك بعد وفاتهم.

١٦ - الملك

كان الملك الذى يخلص له الملك بالوراثة تبعا لقاعدة أحقية الأكبر فالأكبر من الأبناء الذكور يبايع ملكا عند توليته، ويوافق الكهان فى الاجتماع الذى يعقدونه لهذا الغرض بمدينة (منفيس) على الإقضاء بزماء الملك إليه. وكان

زعيم السلطة التنفيذية هو المنوط به أثناء السلم أمر المحافظة على القوانين وأثناء الحرب الدفاع عن الوطن والذود عن حياضه. وكان يشترط في توليته أن يقسم بالطاعة التامة للقوانين المعينة لكل ساعة من ساعات نهاره عملاً من الأعمال المعهودة إليه. وكان عند ابتداء السنة الزراعية يثير الأرض بيده في حفلة علنية فيمسك بالمحراث ويحرث به على ملاء من رعيته أول خط من خطوط الزراعة. وكان في أثناء الحرب يقود بنفسه إحدى المركبات يحارب العدو فيها وسط جيشه.

وكان الشعب المصرى وثيق الارتباط بملوكه . شديد الكلف بهم. فإذا مات ملك لبس أثواب الحداد اثنين وسبعين يوماً وأغلقت أبواب الهياكل أثناء هذه المدة وعكف الأهلون على الصلاة والدعاء إلى الآلهة. وعلى أثر انقضائها يعرض تابوت الملك على ملاء من قومه عند مدخل قبره ليوجه إليه كل منهم مايعن له من التهم بدون أن يكون هذا الحق المخول لجميع أفراد الأمة على السواء مانعاً أحد الكهان من الوقوف إلى جانبه ليخطب في الناس ذاكراً محامده مثنيا وشاكراً ومثوباً ، فإذا تلقى الجموع المحتشدة كلامه بالموافقة والاستحسان كان حقاً للملك الميت أن يفوز بنعمة الدفن في قبره، أو بالإعراض والاستياء حرم منها.

ومما ينهض دليلاً على قوة تأثير هذه العادة واستقرارها في النفوس مايلاحظ حتى الآن من أن أسماء بغض الملوك المنقوشة على ماشادوه من الآثار الضخمة قد محيت محو تاماً إشارة إلى عدم الرضى عنهم. وقد زعموا أن التهييب من الأحكام الجنائية التي كان جمهور الشعب يصدرها على الملوك كان وازعاً لهم عن الإفراط والتفريط ، ورادعاً عن مجاوزة حد الاعتدال في سيرهم بين الرعية. ولكننى أرانى مع هذا عاجزاً عن تعيين الحد الكفيل بأن يتهيب حكم الأعقاب أناس لم يكثرثوا قط بمسلك معاصريهم نحوهم ازدراء بهم وتنقيصاً من أقدارهم.

١٧- الحكومة

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات يرأس كلأمنها رئيس عهدت إليه شئونها الإدارية والدينية والمدنية والعسكرية والمالية. قال العلامة (شامبوليون فيجاك) في مصنفه البديع «مصر القديمة» إن الجمعيات السياسية كانت تعقد علناً بأمر الملك أو بمقتضى القانون. إما لحادث طرأ أو في شأن خارق للعادة وإما لتقدير أموال الجباية وتعيين أنواعها ، وإما لتحويل أزمة الملك

والسلطان من قبضة ملك إلى ملك آخر، ولاسيما حوزة أسرة إلى أسرة أخرى. فكان كل إقليم من تلك الأقاليم يبعث بمن ينوبون عنه في الجمعية العمومية من النواب والوكلاء، وكان قصر التيه (اللابيرانت) مكان اجتماعاتهم للأغراض المتقدمة.

١٨- القوانين

ليس ما نعلمه عن التشريع عند قدماء المصريين موثوقا بصحته ولا مقطوعا بمطابقته حقيقة الواقع. وغاية ما انكشف لنا من أمره أنه عدل وحرر مرارا على أثر الغارات المختلفة التى منيت بها البلاد المصرية. على أن هذا لا يمنعنا من ذكر بعض الأحكام القانونية نقلا عن (هيرودتس) و(ديودورس) الصقلى فقد ذكرا أن المصريين كانوا يعاقبون الحانث يمينه بالإعدام، وكانت الشريعة المصرية تسلم باليمين الحاسمة في كثير من الأحوال الخطيرة، وتفرض على كل مصرى الاحتياط لدرأ الجرائم والمطالبة بعقاب مرتكبها فالذى يرى أمرا قد أدركه الخطر مثلا ثم لا يسعفه بدركه عنه على قدر طاقته كان كمن يأثم بقتل نفس عامدا متعمدا ويعاقب كالقاتل. وكان فرضا على المصرى الدفاع عن نظيره ضد من يعتدى عليه ويريد به سوء وحمايته من غضبه. فإذا استطاع أن يثبت بالدليل القاطع عجزه عن موافاته بالمساعدة والإسعاف طالبه القانون باستكشاف المجرم والتعريف عنه والقيام بمقاضاته أمام المحاكم. فحق المقاضاة باسم العدل كان إذا من القواعد المقررة عندهم والواجبات المفروضة على جميع أبناء الوطن بالسواء. وكان شاهد الجريمة الذى يمتنع عن الشهادة يعاقب ضربا بالقضبان ويحرم الغذاء ثلاثة أيام وصلا وكان المدعى موجه التهمة إلى أجد، إذا ثبت أنه قصد بها الوشاية يجازى بالعقوبة المقررة للمتهم إذا ثبتت هذه التهمة قبله. وكان المذنب الذى لاتدركه التهمة في حياته لا يستطيع الفرار منها عند مماته إذ كان يكفى أن ينبعث صوت صادق بتوجيه التهمة إليه لتحرم جثته الدفن في القبر الذى أعد له.

وكان القصاص العقوبة الشائعة لمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق. فن يقتل أباه جزاؤه الإحراق بالنار. أما والادون الذين يقتلون أبناءهم فكان عقابهم أن يعانقوا جثتهم ثلاثة أيام بلياليها. وكان جزاء منتكح العرض التمثيل به وعقاب الزانية جلع الأنف والزانى الضرب بالقضبان.

ومن أغرب قوانين مصر القديمة ذلك القانون الذى يسوغ السرقة ويجيزها إلى حد استتبع الاعتراف باللصوص كطائفة ذات زعماء ورؤساء يديرون شئونها ويدبرون أمورها. وكانت الطريقة المتبعة عندهم أن يتلقى هؤلاء من اللصوص مايسرقونه من المال والمتاع ثم يردونه إلى أصحابه مقابل التنازل لهم عن ربع ثمنه، ومتى حصلوا على هذه الحصة جعلوها قسمة بينهم. وقد أجاز القانون المصرى عقب استيلاء الإغريق على الديار المصرية زواج الأخ بأخته.

١٩-العلوم

اختص الكهان أنفسهم بمدرسة العلوم والبحث فيها . ولقد ذكرت العلوم التى أخذوا منها بالقسط الأوفى. لذا أدع الإسهاب جانباً فى الكلام عليها. وماستطيع ذكره فى هذا الموضوع أن المصريين كانت لهم الباع الطولى فى العلوم الطبيعية والرياضية وفيما اتقنوا صنعه من مناطق فلك البروج دليل على إلمامهم بأهم الحوادث الفلكية. ولقد أنشأوا للكهان فى عين شمس وبعض أمهات المدائن مدارس خاصة كانوا يعكفون فيها على رصد الكواكب ودرس = ودراسة= أحوالها. وأشار المؤرخ سترابون إلى هذا الموضوع فقال إن المصريين كانوا أول من قام بترتيب الزمن وتقسيمه بحسب دورة الشمس لا القمر . إذ حسبوا للسنة إثنى عشر شهراً ولكل شهر ثلاثين يوماً ثم ضموا إليها خمسة أيام وهى أيام النسء التى سموها الأيام السماوية، وكانت السنوات عندهم نوعين نوعاً يسمى بالسنوات الشمسية المؤلفة من ٣٦٥ يوماً وربعا ونوعاً يسمى بالسنوات المدنية أو المبهمة المؤلفة من ٣٦٥ يوماً فقط. وكان تقهقر هذه السنة أو المبهمة فى التى قبلها يؤدى إلى فرق شهر واحد فى كل مائة وعشرين سنة وفرق سنة ذات ٣٦٥ يوماً فى كل ١٤٦٠ سنة، وكانت تعرف هذه المدة الطويلة عندهم بالسوتيقية. وقد توصل المصريون قبل غيرهم إلى تحديد السنة الشمسية بالدقة والضبط على أثر رصدهم شروق هالة الشعري اليمانية. وكانوا لايقسمون السنة إلى أربعة فصول كما هى الآن. بل إلى ثلاثة فقط كل فصل منها ١٢٠ يوماً.

٢٠-الزراعة والصناعة والفنون والتجارة

كانت الزراعة قوام حياة مصر وملاك وجودها الذاتى ولم تكن أعمالها كثيرة المشاق إذ كانوا يبدأون بها عقب انصراف مياه الفيضان. ذكر

هيرودتس: أن الفلاحين كانوا يثثرون البذور عندئذ على الأرض ثم يطلقون مواشيهم لتطأها بأقدامها فتدفن البذور وينتظرون بعد ذلك أو أن الحصاد لمباشرة. والمصريون القاطنون فيما يلي (منفيس) جنوبا كانوا يحصلون من مزارعهم على أوفر الثمرات بأقل مجهود في العمل، لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى إثارة الأرض أو شقها بالمحاريث أو قلبها بالفؤوس. كانت زراعة الحبوب أهم مايعنون به من صنوف الزراعة لأن أرضهم كانت تجود بالمحصول الوافر منها.

أما الفنون والصناعات فقد ارتفعت عندهم إلى الأوج الأعلى من الإتيان والإحسان. ولست بذاكر شيئا هنا عن المباني الضخمة والآثار المنجدة التي شادوها في كل بقعة من بقاع مصر، لأننى سأفرد لها بحثا خاصا متى حان وقت الكلام عن الآثار المصرية القديمة. إلا أننى لا أجد مندوحة منذ الآن عن تذكير القارئ بما كان للمصريين من البراعة والحدق في صناعة المعادن على الطرق والأساليب الكيميائية وأنهم بلغوا من الإتيان في التعمية بالمينا وصناعة الخزف والزجاج البسيط والملون وغيرهما الشاؤ الأبعد، وأنهم شادوا المصانع الكبيرة لعمل السلاح والآنية على اختلافها، وأن أكثر حدقهم كان في صناعة المصوغات والجواهر على تباين أشكالها وعمل الآثاث المنزلية والمنسوجات المشهورة بالمتانة والجودة. ولما كانت مصر غنية بحاصلاتها الطبيعية والصناعية فلا بد أن تكون من البلاد البارعة في ممارسة التجارة وترويجها.

٢١ - قمبيز

قمبيز - خلفاؤه - الأسرات الملوكية الوطنية الأخيرة

اقترن فتح الفرس للبلاد المصرية بالغلظة والقسوة في معاملة الأهلىن وإطلاق يد التدمير والتخريب في الآثار البانخة. فإنهم مااحترموا العادات المرعية ولا صانوا المعالم الدينية بل أخنوا على المعابد وسلبوا ما فيها. وكان لاهم ملكهم (قمبيز) سوى اضطهاد الشعب وإيذاؤه فيما يحرص عليه من العقيدة الدينية. إذ ذبح بيده العجل (أبيس) كى يقيم الدليل للمصريين على أنه لم يكن إلها، وأنه لو كان كذلك لدفع عن نفسه ما حاق به. ولم يكتف بفتحه ديار مصر بل عداها إلى بلاد الحبشة وأنفذ في الصحراء جيشا ضخما لإخضاع سكان واحة (آمون) ولكنه فشل في الأمرين لأن الجيش الذى وجهه الى الأمونيين هلك في رمال الصحراء ومات هو غما وكمدا بعد هلاكه بقليل.

٢٢- خلفاء قمبيز

في عهد داريوس بن هستاسب أحد خلفاء قمبيز بمصر أحس المصريون بانفراج الكربة وعاد إليهم ما فقدوه من الطمأنينة في عهد هذا الفاتح الظالم الغاشم فشيدت الهياكل الدينية لآلهة مصر تحت رعاية ذلك الملك الجليل ولا يزال أحدها وطيد الدعائم شديد المقاوم في الواحة الخارجة. وكان مما صرف داريوس إليه همته تمهيد طرق المواصلات بين النيل والبحر الأحمر، على أن المصريين لم يلبثوا أن نقموا عليه في آخر أيام حكمه وهبوا إلى الثورة فأخضعهم (أركزرسيس) خلفه وألزمهم ملازمة الطاعة له ولكنهم ثابوا = رجعوا = إلى الثورة ثانيا في أيام ابنه فأرهبهم من المظالم والمغارم بأكثر مما فعل أسلافه انتقاما منهم وتنكيلا بهم. على أن المصريين لم يثنتهم عن عزيمتهم فشلهم المتوالى في تحقيق مرادهم. إذ تمكن زعيمهم (أميرته) عام ٤٠٤ قبل الميلاد من رد استقلالهم المسلوب إليهم. فيكون الفرس قد تملكوا مصر في هذه المرة مائة وعشرين عاما.

٢٣- الأسرات الوطنية الأخيرة

كانت الأسرة الثامنة والعشرون وهي الأخيرة من الأسر المصرية مقتصرة على الزعيم (أميرته) السابق الذكر ولم تتجاوز مدة حكمها ستة أعوام إذ خلفتها أسرة منديسية الأصل هي الأسرة التاسعة والعشرون المعروفة بالمنديسية، وقد بلغ عدد ملوكها خمسة لم تتعد مدة حكمهم إحدى وعشرين سنة، ثم خلفتها الأسرة الثلاثون المعروفة بالسبينية، وكانت مؤلفة من ثلاثة أمراء بلغت مدة حكمهم ثمانية وثلاثين عاما. وفي عهد الأخير منهم وهو الملك نقطنبو (الثاني) أي سنة ٢٢٨ قبل الميلاد استولى الفرس ثانيا على مصر. وكان حكمهم في هذه المرة قصيرا جداً لم يتجاوز سبع سنوات أخرجت على دولتهم في ختامها الإسكندر الأكبر باستيلائه على مصر في السنة التالية - أي في سنة ٣٣١ قبل الميلاد.

٧-البطالسة

الإسكندر الأكبر - اللاغيون - حضارة البطالسة - الاحتلال الرومانى

حرر الإسكندر الأكبر مصر وخلصها باستيلائه عليها من ربة العبودية. فان المقدونيين لم ينتهوا من فتحها فى سنة ٣٣١ من الميلاد حتى طرح هذا الفتح عليها شعاعا جديدا من نبراس الحضارة والعرفان أكسبها بهجة وبهاء ولقد أفاض عليها ذلك البطل نعمة من أجل النعم بتخطيطه فيها مدينة تجارية فى موقع أحسن اختياره لها بما خصه الله به من صواب الرأى وسلامة الذوق، ولم تلبث هذه المدينة عقب إنشائها أن صارت درة فى تاج مدائن العالم وثغوره، وبعد وفاته التى أعقبتها تجزئة فتوحاته وتقسيمها بين قواده آلت مصر إلى واحد من هؤلاء فاستلم زمامها واستوى على عرشها باسم (بطليموس سوطر) فبطليموس هذا هو أول ملوك الأسرة الثانية والثلاثين من الأسر الملوكية المصرية، وتعرف باللاغيين وقد بلغ عدد ملوكها إثنى عشر ملكا وملكة واحدة ظل حكمهم قائما على أوثق القواعد وأحكمها مائتى عام وأربعة وتسعين عاما، وهاك أسماء هؤلاء الملوك الذين تعاقبوا الحكم على البلاد من تلك الأسرة.

بطليموس سوطر	المتوفى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد
بطليموس فيلادلف	المتوفى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة	المتوفى سنة ٢٢٤ قبل الميلاد
بطليموس فيلوباطور	المتوفى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد
بطليموس ابيفان	المتوفى سنة ١٨٠ قبل الميلاد
بطليموس فيلوميطور	المتوفى سنة ١٤٥ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة (الثانى)	المتوفى سنة ١١٦ قبل الميلاد
إسكندر الأول	المتوفى سنة ٨٨ قبل الميلاد
بطليموس سوطر الثانى	المتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
إسكندر الثانى	المتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
بطليموس أوليت	المتوفى سنة ٥٢ قبل الميلاد
بطليموس دنيس	المتوفى سنة ٣١ قبل الميلاد

ولم يكن حكم البطالسة وتسلطهم أثناء هذه المدد إلا نسيجا من حوادث متضاربة ومكائد عائلية وفتن داخلية لهذا كانت ولايتهم خالية من الفوائد التاريخية.

على أن مصر بلغت في عهد البعض منهم شأوا بعيدا من الرفعة والتقدم والرفاهية. فلقد انفتحت أبواب الرواج لتجارتها وأصبحت الممر الوحيد لحاصلات الهند الى بلدان البحر المتوسط، وسطعت أنوار العلوم بسناء يخطف الأبصار. وكان تقدمها وإتساع نطاقها في الإسكندرية مما يذكر مقترنا بالدهشة والإعجاب، فعلوم الفلك والطب والفلسفة سما بها الإسكندريون إلى الأوج الأعلى سموا لاتزال ذكره مدونة بحروف لاتمحي في تاريخ تقدم العقل البشرى.

ولقد رأت مصر في ذلك العصر كيف اندمجت فيها مدنيات جملة من الشعوب بانفتاح أبوابها لليونان واليهود والأشوريين والرومان وامتزاج أخلاق هذه الشعوب وأفكارهم ودياناتهم وعقائدهم الامتزاج الذى تولدت منه مدرسة اشتهرت بالعلوم الفلسفية، وانطوت تحت لوائها العقيدة المصرية المبنية على تعدد الآلهة بعد أن حورت تحويرا خفيفاً مكنها من الحيلولة دون انتشار الديانة المسيحية التى كانت وقتئذ قريبة العهد بالظهور.

ولكن لم تلبث أسرة البطالسة أن سطت عليها أيدي الفساد وترتب على احتدام نار الفتن الأهلية في أيام الأخيرين من ملوكها أن تطلع الرومان إليها وتدخلوا في شئونها وكان (قيصر) قد تغلب وقتئذ على (بومبيوس) فمر بالإسكندرية حيث عاون (كليوباترة) على استلام زمام الملك. وكانت هذه الملكة قد اقترنت أثناء الحرب الأهلية بانطوان ثم ماتت معه في معركة (أكتيوم) فأصبحت مصر عقب ذلك على عهد الامبراطور أغسطس إقليما تابعا للدولة الرومانية.

الحكم الرومانى

السياسة الرومانية - الديانة المسيحية في مصر - المنازعات الدينية - الأقباط يدعون العرب إلى الإغارة على مصر.

٢٥- كانت سياسة الإمبراطور اغتوس نحو مصر قائمة على أساس الحزم والتبصر. وهى مما يساق دليلا على معرفة هذا الملك الحاذق بأحوال البلاد وإلمامه بدخائلها . فهى من هذا الوجه جديرة بالتدبر وإمعان النظر فيها حتى فى هذه الأيام. وذلك لأنه كان يوجد فى عهد الرومان كما يوجد فى زمننا مسألة شرقية فى الغاية القصوى من الأهمية، وكان لابد من طرح هذه المسألة على بساط البحث والتحقيق وإعداد الحل العملى لها طبقا لما ذكره (تاسيتوس) فى عبارته الفخمة باللغة اللاتيلية وهى :

كان الإمبراطور (اغستوس) يرى فى امتلاكه مصر مصلحة حيوية لدولته. لأنها فضلا عن أهمية موقعها الجغرافى كانت وفيرة الخيرات الزراعية فاتخذها هذا الامبراطور مستودعا للحبوب اللازمة لرومية = لروما = وجعل عليها حاكما أوكل إليه مهمة موافاة العاصمة الرومانية - وهى عاصمة العالم وقتئذ بما يكفى من الحبوب لتموين سكانها قبل انقضاء شهر أغسطس من كل عام وفرض عليه جعل أملاكه الخاصة ضمانة للقيام بتلك المهمة على أحسن وجه وأتمه فكان إذا بدا منه تقصير أو عجز صودرت أملاكه وضمت إلى أموال الحكومة.

ومن هذا نرى أنه كان لامندوحة للدولة الرومانية من العناية باتخاذ الوسائل الكفيلة باستدامة امتلاك إقليم بلغ ذلك المبلغ من الأهمية وخطورة الشأن.

ولقد استحدث الامبراطور أوغستوس لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض سابقة لم يلبث خلفاؤه أن اقتدوا به فيها وهى أن لا يعهد بالإدارة العليا لمصر إلى أحد ما من سلالة الأعضاء فى مجلس الشيوخ. لاسيما إذا كان من ذوى الجاه والنفوذ ، فعهدا إلى فارس بسيط من الفرسان الرومانيين ياتمر بأمره حكام الأقاليم والمديريات المختلفة وثلاثة جيوش منبثة فى أرجاء القطر إلى حدوده الجنوبية . وكان إلى مصر كثيرا ما يبدل بغيره خشية أن يصبح له من القوة والسلطان ما يمهده له السبيل لاغتصاب الحقوق التى جاء ليتمثل الإمبراطور فيها.

ومن جهة أخرى فإن الامبراطور أغستوس لم يمنح الأمة المصرية حقاً ولا حرية مما اعتاد الرومانيون منحه الشعوب المغلوبة على أمرها. نعم إنه احترم عاداتهم المدنية والدينية ولكنه ضمن عليهم بما يمهد لهم الحصول على حريتهم السياسية، وهناك أمران عاليان من الأوامر التي أصدرها يشهدان صراحة بما كان يخالجه من النيات في هذا الصدد. إذ قضى في أحدهما بحرمان أشرف المصريين من التوجه إلى رومية للانتظام في سلك مجلس الشيوخ، وحتم في الثاني على أعضاء هذا المجلس وعلى الفرسان الرومانيين ألا يهبطوا مصر إلا بإذن من الإمبراطور.

وكان يهم الدولة الرومانية إسعاد مصر بتنمية ثروتها لعلمها بما تجنيه من الثمار وتستفيد من المزايا بذلك. فلا عجب إذا عנית بإصلاح ترعها القديمة وحفر ترع جديدة غيرها. واتسع نطاق التجارة البحرية وبلغت الإسكندرية من رفعة الشأن وسعة الثروة ما جعلها إلى عهد إنشاء مدينة القسطنطينية المدينة الثانية على وجه المعمورة.

ولقد ظلت مصر أيام تسلط الرومان عليها مسرحاً للفتن الداخلية والمشاعبات الأهلية ومحطاً لأنظار الطامعين حتى لقد سارعت بفتحها زنوبيا، ملكة (تدمر) وسرعان ما ردها بعد ذلك الامبراطور (أورليانس) إلى حظيرة السيادة الرومانية، ودخلت إليها الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور (دومسيانوس) وانتشرت فيها انتشاراً عظيماً بالرغم من اضطهاد الرومان لها بما اتخذوه من الذرائع القاسية لأخذ المسالك عليها، ولقد كان هذا الحادث الديني سبباً لإعطاء مصر مساحة جديدة من الشهرة فإن إقليم (طيبايد) أصبح أهلاً بالرهبان، وقضى الإيمان الديني بتقديس صحاريها المترامية الأطراف، وأختصت مدينة الإسكندرية بشطر كبير من الحركة الدينية في القرون الأولى من التاريخ الميلادي. وكان (آريوس) قساً لهذا النثر والقديس (أطناسيوس) خصمه اللدود الذي لا يمل مناصبته العداوة، ثم صار بطريقاً لها فنشأ عن المنازعات الدينية في مصر مانشأ عنها بالشرق المسيحي لذلك العهد من المعارك التي سالت فيها الدماء وفاضت الأرواح.

ولما قسم قسطنطين المملكة إلى قسمين كبيرين جعلت مصر في القسم الذي اتخذته القسطنطينية عاصمة له، ولكن الدولة الأخيرة المعروفة بالدولة السفلى كانت قد أقسدتها الفتن الداخلية ونال منها الضعف واشترأبت نحوها أعناق المطامع من كل جانب. فلم تستطع أن تحفظ في قبضتها ذلك الإقليم

ولا أن تدفع عنه عادية العدوان على أن الفتن الدينية والانقسامات المذهبية قد عجلت بخسارته قبل الأوان الذي كان يتوقع حدوثها فيه.

وكان سواد الشعب المصرى قد انضم إلى فرقة اليعقوبيين، وانفصل بهذا الانضمام عن الكنيسة البيزنطية. فتولدت لهذا السبب في نفوس المصريين اليعقوبيين (الأقباط) الضغائن على الحكام الأورام القابضين على أزمة أمورهم. وبالغوا في نفث ما في صدورهم من كامن الأحقاد عليهم إلى حد أنساهم ما تتطلبه ديانتهم من العناية بمصالحها. فإن بنيامين بطريرك الأقباط وبعض ذوى الجاه والنفوذ من المصريين لم يترددوا في استدعاء المسلمين أعداء الديانة المسيحية إلى مصر. وكان هؤلاء قد استولوا وقتئذ على قسم من بلاد الشام مفضلين الرضوخ لحكم المسلمين على البقاء تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينية، وقد تلقى المسلمون إلتماسهم بالمسارعة إلى قبوله والمبادرة بتنفيذه. إذ استولوا على الديار المصرية عام ٦٤٠ من الميلاد - أى في أيام الإمبراطور هرقل أو هيرقليوس.

(٩)

حكم الخلفاء والسلاطين من الماليك

٢٦- استولى العرب بقيادة عمرو بن العاص على مصر، وكان الأهليون يشدون أزرهم ويمدونهم بما يلزمهم في زحفهم من المؤن. فلم تلبث الإسكندرية أن وقعت في حوزتهم. أما نهبهم هذه المدينة وإحراقهم مئات الألوف من المصنفات التي احتوتها مكتبتها الثمينة فإن شهرته تغنى عن ذكره- أما سبب الإحراق فراجع إلى أن عمرو بن العاص استشار الخليفة في شأن هذه الكتب وتنقيتها = ونقلها = للمسلمين فأجاب: «إنه إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، وفي الحالين ينبغي إحراقها» فأحرقها عمرو تنفيذا لهذا الأمر وتلاشت بذلك دار كتب اللاغين وحرمت العلوم والآداب دررها الثمينة^(١) ولكن عمرا إذا سلك بهذه المناسبة المسلك الذي تستدعيه الشدة في التعصب للإسلام فقد سلك مسلك الكرم والتسامح حيال المسائل الأخرى. فلقد أفاد البلاد المفتوحة مزايا لاحصر لها نذكر منها إنشاء مدينة القسطنطينية واتخاذها إياها عاصمة لمصر وحفره الترعة المعروفة بترعة أمير المؤمنين للإيصال بين النيل والبحر الأحمر. على أن الولاة بعده لم يستنوا بسنته ولم ي نهجوا في هذا الصدد سبيله. فإنه بعد أن تملك الأمويون فالعباسيون مصر استقل بالأمر فيها أحمد بن طولون رأس الدولة الطولونية التي لبثت عهدا قصيرا قابضة على زمام الأحكام. ومن أعمال هذا الأمير الحصون التي أقامها حول الإسكندرية ولا تزال آثارها باقية حتى الآن.

وخلف الطولونيين في الأخذ بزمام الحكم الدولة الإخشيدية التي قامت

(١) كان الوهم السائد بأوروبا في القرن التاسع عشر أن عمرو بن العاص هو الذي أحرق دار كتب الإسكندرية بناء على أمر من الخليفة عمر بن الخطاب، ويبلغ من شيوع ذلك الوهم فيها أن الكتب المدرسية كمعجم (لاروس) الصغير مثلا في مفردات اللغة الفرنسية كانت تعتبر كلمة (عمر) مرادفة لكلمة (الجهل) ولكنها عدلت عن هذا التعريف المبني على الجهل والتعصب منذ أقام علماء أوروبا الدليل القاطع على عدم وجود مكتبة ما في الإسكندرية وقت استيلاء عمرو بن العاص عليها فإن هذه المكتبة أحرقت للمرة الثانية في سنة ٢٨٩ من الميلاد - أي قبل فتح الإسكندرية على أيدي المسلمين بأكثر من مائتي وخمسين عاما وكان إحراقها بفعل المسيحيين أنفسهم يوم هاجموا هيكل السرابيوم (رواق الحكومة أو مدرسة الإسكندرية) الذي كان عمود السوراني قائما وسط صحفه وقتلوا أهله من الكهان المصريين الذين أبوا التدين بالنصرانية ثم أحرقوه وقد عثر مجلس الإسكندرية البلدي منذ سنوات على أثر الدخان بجدران ذلك الهيكل أثناء قيامه بالحفر لاستكشافها. هذا وقد زار الرحالة المؤرخ يوسيفوس الإسكندرية في خلال القرن الخامس من الميلاد - أي بعد إحراق مكتبتها للمرة الثانية وقبل ظهور الإسلام فلم يشر بكلمة فيما ذكره من معامد تلك المدينة عن دار كتبها العظيمة.

بأعباء الأمر ردحا قصيرا من الزمن وليت الأحكام بعدها الدولة الفاطمية (سنة ٨٨٢ ميلادية) وهى التى رتعت مصر خلال حكم الخلفاء الأولين منها فى بحبوجة النعيم والهناء، وتأيدت شوكتها وامتنع جانبها وأنشئت مدينة القاهرة التى ما عتمت أن أصبحت عاصمة الملك ونبع العلوم والعرفان. وأصل مؤسسى هذه الدولة ورافعى صرحها وناشرى لوائها من ضاحية فاس بالمغرب الأقصى هرعوا إلى مصر منها حاملين من آثار الحضارة العربية التى سطعت أنوارها على آفاق الأندلس إلى ذلك العهد ما كان سببا لفيوض أنوار العلوم والفنون فى أنحاء الأقاليم المصرية . غير أن المتأخرين من خلفائها انتابهم الفساد وتحيفهم الضعف فزالت دولتهم وثل عرشهم وثل صولجان الملك من يدهم إلى عهدة الأيوبيين (سنة ١١٧١ من الميلاد).

ولقد سطع نجم الأيوبيين على أفق الصعود، وعلا حتى بلغ إلى الأوج فى عهد الأول من سلاطينهم، وانتشر ذكرهم فى الخافقين مقرونا بهيبة الجند وشدة البأس، وكان الصليبيون قد تغلبوا على المسلمين فى ربوع الشام فأل أمرهم إلى الضعف والتدابير والتخاذل حتى كادوا فى الوقت الذى ظهر فيه صلاح الدين أول السلاطين الأيوبيين يردون موارد الفناء والتلاشى فرفع من شأن الإسلام، وجدد مايلى من قوته وهيئته بما أتىح له من الفوز وعقد لوائه به من الانتصار.

وفى عهد أسرة هذا السلطان سمت مصر إلى الأوج الأعلى من العلم والعرفان واتسع نطاق تجارتها حتى عادت إلى ماكانت عليه فى عهد البطالسة من الرواج ونفاق السوق وتوثقت الروابط التجارية بينها والهند من جهة وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

وكان من حظ الأيوبيين أن تمت لهم الغلبة على الصليبيين. إذ فازوا عليهم فى حروبهم كافة. وعلى عهد الأخير من سلاطينهم نزل القديس لويس (الملك لويس التاسع) إلى بر مصر فأسر فى معركة فارسكور التى دحر الصليبيون فيها وقد طالبت فرنسا الممالك بحساب هذه المعركة بعد ستة قرون من الزمان.

وقد آل تراث الأيوبيين - إذ تآذن الله بإنقراض الملك منهم - إلى الممالك البحرية (سنة ١٢٥٠) وكانت الدولة العباسية ببغداد قد أشرفت على الفناء ثم ثل عرشها فى أوائل حكمهم فلجأ إلى مصر من بقى على قيد الحياة من أسرة

الخلافة فيها فاعترف المماليك بسلطتهم الدينية وصارت القاهرة مقر الديانة الإسلامية ومهبط وحى الخلافة، وحلت في ذلك محل بغداد إلى أن تغلب على مصر سلاطين آل عثمان فانتزعوا من آخر الخلفاء العباسيين بمصر السلطة الدينية ليعززوا بها سلطتهم السياسية.

وخلف المماليك البرجية المماليك البحرية (سنة ١٣٨٢) فلم يؤثر عنهم من الأعمال إلا ما سنوه في مدة تسلطهم من الأنظمة التي بنوا عليها صرح نفوذهم وأقاموا دعائم شوكتهم فإن التاريخ لم يذكر مثالا للطبقة الارستقراطية التي تألفت منهم بفعل أحد السلاطين الأيوبيين من سلالة صلاح الدين، فإن هذا السلطان أراد أن يذهب مذاهب الملك في جلال المظهر مع الحرص على الذات فأساء من حيث أراد أن يحسن وأخطأ من حيث ظن أنه يصيب. وذلك أنه اشترى إثنتى عشر ألف مملوك من الجراكسة والأبازية والمنجرلية وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جندا لم يلبث أن صار أشد الجنود الآسيوية الأصل بأسا وأقواهم بطشا. وكانت سلطة مواليهم قد آلت على توالى الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا في أحوال الدولة على ماشاءت أهواؤهم، ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم واختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقا من المماليك على الوجه الذى ألفته بمقتضاه فرقمهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفيذ أحكامهم والتغلب على من سواهم.

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم في مقتبل العمر يباعون في أسواق النخاسة بيع الأرقاء ثم ينقلون إلى ذلك القطر الذى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه بدون أن تربطهم به صلة وطن ولا أسرة قرابة.

ولم يكن عجبا أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعنيه من شأنه وشأن أهله سوى التفتن في ضروب ابتزاز الأموال واستدراخ الخيرات، فتطوروا بطور الحضارة والترف، وألفوا النعيم ونضارة العيش، وبلغوا في ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاحتلال والمكايد المراد بها تعزيز الأطماع الذاتية وتفشى وسائل العنف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء وإفاضة الأرواح لتحقيقها.

(١٠)

حكم الأتراك والمماليك

حكومة مصر في عهد الأتراك — على بك — السيادة الخيالية للباب العالي على مصر — الاستقلال الحقيقي للمماليك.

صارت مصر في سنة ١٥١٧ - أى أيام السلطان سليم الأول إقليماً تابعاً للدولة العثمانية . ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعدها عن مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها.. وكان من جهة أخرى في حاجة إلى مدارة المماليك واستمالتهم إليه ليأمن من جانبهم فابتكر لإدارة شئون البلاد أسلوباً أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمناه من ذلك. فإنه جزء السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وفقاً على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل بين قوى تلك الأجزاء.

أما شئون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضائه من كبار المماليك وزعمائهم ، وأما الإدارة المحلية فقد نيّطت بأربعة وعشرين بيكا منهم هم رؤساء تلك الفرق والطوائف وزعمائها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا الفرض والضرائب الجزئية، فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التي يجب دفعها إلى الباب العالي. وكان للسلطان في البلاد وال برتبة الباشا يمثلها فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته في إبلاغ الأوامر التي يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الإعتداء الخارجى ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرهما.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والأسباهية بقيادة رؤساء يسمون بالوجاقلية لتأييد الباشا والذود عن حقوقه واختصاصاته. ولكنهم بالنظر لاعتيادهم في مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر في الترف والنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التي جعلت انكشارية القسطنطينية من أولى البأس والشدة، ونجم عن هذا وذاك أن

احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان في قدرتهم العمل لإقاعده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على توالى الأيام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت في النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.

وفي سنة ١٧٦٦ رفع على بك أحد البكوات المماليك على الدولة العثمانية لواء العصيان وأحجم عن دفع الجزية وطرد الباشا المعين من قبلها ، وضرب النقود باسمه ودحر الجيش العثمانى فى جميع المعارك التى اشتبك معه فيها. وبإيعه شريف مكة سلطانا على مصر، ولكن بعض حاشيته كادوا له ففشلت ثورته وأخفق سعيه. على أنه لم يكن هناك شك فى أن السلطة العثمانية بمصر كان قد انصدعت من جراء هذه الثورة صرحها المشيد وتزعزعت أركانها فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال فقد سهل على المماليك منذ هذا الحين إقعاد الباشوات ونفيهم بلا معارض ولامشاق، وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وخرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحى عن منصب الولاية ومغادرة المدينة يادروا من فورهم إلى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا ممانعة ولا محاولة مقاومة، وخلف من بعد على بك خلف تفوقوا عليه فى الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فإتهم بالرغم من إتصافهم مثله بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام اتقوا مزلق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية البعيدة التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها. لاسيما وأنهم يعتقدون أن ما هم فيه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الاسمى. بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها.

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجراءة أحيانا بهم إلى التوقف عن دفعها بالمرّة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد المدعيات. وماكان فى وسع الباب العالى تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجر ذيل الإغضاء عليه علما منه بما يعقب

التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له. ومن ثم اتجهت سياسته إلى غاية واحدة هي إلقاء بذور التدابر والانقسام بين الممالك مع إتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوي الغالب من تأييد شوكتة وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة ويتوافر النظام. وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التي كانت تسوء أحوالها على الدوام ويضطرب حبل شئونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أسس وطيدة من الهمة والهيبة والنظام.

الحملة الفرنسية

الغرض من هذه الحملة- النزول في ثغر الإسكندرية- واقعة الأهرام هزيمة أبى قير- نتائجها- كليبر - الانتصار في هليوبوليس (عين شمس)- منو - الجلاء- نتائج القمع الفرنسى.

١٢- لما وصل بونا برتة إلى مصر ووطئت قدماء ثراها في أول يوليو، سنة ١٧٩٨ كان يتصرف في شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها إثنان من البكوات المصريين أى المماليك.

أما العلة التى لأجلها ألفت حكومة الدركتوار الحملة التى عهدت رئاستها إلى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها إلى ضفاف النيل لاحتلاله. فهى أن المماليك كانوا يتصدرون للتجار الفرنسيين بالإجراج والمغارم حتى علت أصواتهم بالشكوى والاستصراخ. غير أنه كان هناك سبب أشرف مغزى من قصر إنزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش في المظالم والمغارم وهو أن القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين إلى التدفق على البلاد الإفريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا. فلم يسعهم إلا أن يطاوعوا هذه القوة القاهرة. فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر أن ينفذ اقتراحاً رفعه إليه الوزير (لبنتز) للاستيلاء على مصر، وطرحت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة في وزارة (الدوق دى شوازل) فلما عاد بونا برتة من إيطاليا حذب فكرة (لبنتز) وصدق لها استحسانا معتقدا أنها من الأغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها. وبلغ من حماسه لتلك الفكرة أنه قال ذات يوم في حديث له: «إن الشهرة لا تكتسب إلا في الشرق» ولقد أيقن بصواب هذا رأى يوم قال له كليبر في أبى قير: «أيها القائد: إنك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطئ حينما أقبل على بلاد الأهرام يلتمس منها المجد والفخر — أى الطلسم الذى يربط بالنوع البشرى كله حظوظ القطارحل والعبريين.

على أن نابليون شرح في جمل قصيرة الغرض السياسى الذى كان يرمى إليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز في الشرق الأوسط. إذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال في الهند. وكان لابد في إصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و(الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا. وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر. إلى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية في أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في مرافئ إيطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والإسكندرية صار البحر الأبيض المتوسط لامحالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق - ويا للأسف - قط!

وإذا كنت لا أقصد في هذا المقام إلى إيراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإننى أقتصر على القول بأن الإسكندرية وقعت في قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم إلى البر، ولم يبق بونابرتة في هذا الثغر إلا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة، وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش: الفرنسى بصارمه البتار كما تشطر البطيخة بالسكين. يقول بونابرتة : فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل مراد بك بفرسائه المصريين فلم تلبث شدة حملاته أن تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعه فلما رأى الممالك ماحل بهم من الفشل والعجز أخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم إلى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب. ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والأهرام يتربصون بنا السوء، وزعموا في لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون في هذا المكان انكسار شوكتنا وأقول نجمنا ولكن خاب فآلهم وطاش سهمهم لأن واقعة الأهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بإمبابية مؤلفا من ستين ألف مقاتل أشقى على الهلاك والتلف إذ انجلت المعركة عن موت عشرة آلاف من الممالك قتلا في ميدان المعركة أو غرقا في النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت إلينا بزماد مدينة القاهرة وبالتالى القطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنتقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدوننمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا إليها قال نابليون فى مذكراته (المجلد الثانى) «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر. بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها بل لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار إلى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا. أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحي رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخرس جيشنا بذلك سنداً قوياً وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وأنقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر إلى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب».

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم، وانصرف خاطرهما إلى ماوقع بها من النكبات والمحن فى إيطاليا وألمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت إليه إلا أن يتخذ الوسائل للجلء عن وادى النيل وأن يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونا برته بالأتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحي به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته إلى فرنسا. فقد عقد كليبر مع الأتراك فى العريش إتفاقية تعهد فيها بالجلء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم إلى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا ، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الأميرال (كيث) إلى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه أن انكلترا لاتقبل من الجيش الفرنسى التسليم إلا إذا ألقى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والأمتعة. فكان جواب كليبر على هذا البلاغ أن نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب إليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها إلا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية أن ينازل جيشا مؤلفا من سبعين ألف عثمانى وأن يدحره ويشنت شمله. وهو ما قام به

التسعة آلاف من الفرنسيين في واقعة عين شمس الخالدة الذكرى. ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد فلول الجيش العثماني في الشام كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا = هبوا = إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرون في أحد القصور مائة وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة إليهم من جموع الأهلين الذين كان يؤيدهم نحو الألف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت في أنسب الأوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم . على أن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيثوا = يرجعوا = إلى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم إلا بعد أن أحرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للأسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته إلى توثيق أركان شوكرته وإقامة معالم نفوذه وسلطته. ومهد له السبيل إلى هذه الغاية فوزه على الأتراك في عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن انتمائه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين في واقعة (مارانجوا) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر إلى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الأثر مع مراد بك فألت إليه بمقتضى هذا التحالف السلطة في أقاليم الوجه القبلي. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الأمر له ثانيا أن اعتدت عليه يد أثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسي الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لأنه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فبيث فيهم الشجاعة والثقة، ولم يوجد بين من عهدت إليهم أزمة الأمور فى مصر من هو أهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشئ من الاستحقاق والفضل، كما لم يكن له من الوجهة الإدارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه أغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية وأجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه. دع إنه من

جهة أخرى لم يرض الأهالي الوطنيين إذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغريبة. وكانت إجراءاته العسكرية تستدعى لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى أن سواد الجيش كثيرا ما استهجنها وأغفل القيام بها، فكان بديهيًا أن تضيق مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الإنكليز حقيقة هذه الحال فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبى قير في قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السييائي) إلى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الأتراك فالزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد «منو» الغبي الغافل بتسليم الإسكندرية إليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافقت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة إلى الديار الفرنسية.

وأنه لمن الأعمال النافعة تقييد حوادث الفتح الفرنسي لمصر وتدوين النتائج التي أفضى إليها ولكن أرانى في هذا المقام مضطراً إلى الاقتصاد منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول هذه النتائج أن انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش الممالك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق أفقهم. فلاح لهم شبح أوربا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسي قد خلب بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات^(١) فإن ما أبداه من الحكمة في تسامحه والمهارة في احترامه ديانته الأمة المغلوبة وعاداتها بث في نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد

(١) سيشغل نابليون أو السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزاً سامياً فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيراً ما سمعت المصريين يذكرونه بعبارة الحماس والإعجاب وحدث أننى سافرت سنة ١٨٢٤ إلى السويس في مهمة فنزلت في بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه أقل تغير حتى الفراش الذى قام فيه فلم أشأ أن يؤتى إلى بغراش غيره. وكان صاحب البيت وقت نزولى به صاحبه على عهد ذلك القائد العظيم وكان يخلل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل أن نضرة الشباب تعاوره كلما أخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسي. ومن قوله: «لم يكن بونابرتة عدوا للمسلمين إذ كان في استطاعته لو أراد أن يقلب جميع المساجد بسن الإبرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمه كبيراً بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: «ولقد أكدوا لنا أنه في ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التى تمكن إثني عشر ملكاً من ملوك النصارى من إرساله إليها وتكبله بالإغلال فيها بعد أن سقوه شراباً منوماً رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترح في أمان وسلام» وقد نقل إبراهيم باشا إلى اللغة التركية تاريخاً مختصراً لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير» «امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة أسرار حكام أوربا» أى كنز أسرار ملوك أوربا.

بينها وأوربا، والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتبس = لتقتبس = منها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان في الوسع إجراء هذا الإصلاح لو بقى احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها. فإن بونا برته كان قد وضع بالفعل أساسه وأنشأ = وأخذ = يرفع أركانه بقصدة إيقاظ القومية العربية المصرية من سباتها، ويذل في هذا السبيل ماتيسر له من الجهود التي كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين في المدائن الكبرى وأمها القري، وهى عبارة عن المجالس البلدية التى ألفت من كبار الشيوخ والأعيان لترجع الحكومة إليها في معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لا يبرم أمرا حقيقيا أو خطيرا إلا بعد إطلاعها عليه وإبدائها رأيها فيه. وكان كل مجلس منها يبعث إلى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما ولاقى الفرنسيون نحو هذا الإصلاح وغيره التعاضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة وأحاطوها من جهتى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون.

١٢ - حكومة محمد على

حالة مصر بعد رحيل الفرنسيين - الباشا والمماليك والألبانيون والإنكليز - تغلب المماليك - انقسامهم وتخاذلهم - الألبانيون تحت قيادة محمد على يطردونهم من القاهرة - محمد على - شهرته - مبايعة الشيوخ له واليا على مصر ومصادقة الباب العالى - مساعى وتدبير الإنكليز والمماليك ضده - نزول الإنكليز في الوجه البحرى وفشلهم - الحرب ضد الوهابيين - إبادة المماليك - دسائس الباب العالى - فشل هذه الدسائس - ترتيب الجيوش النظامية - فتح بلاد العرب وكردفان وسنار - ثروة مصر وشوكتها - حرب موره - دسائس الباب العالى الجديدة ضد محمد على - الانتصارات في حمص وبيلا و قونيا - تدخل الدول بين الباب العالى ومحمد على - اتفاقية كوتاهية آخر مساعى السلطان محمود - الانتصار في نصيبين - الحالة الحاضرة - مقصد محمد على - جعل حكمه ولاية وراثية.

٢٩- لما أكرهت غلطات الجنرال منو جيش الحملة الفرنسية على التنحي عن فتوحات (بونابرتة) و(ديزه) و(كليب) ووقعت مصر ثانيا في قبضة الباب العالي فاحتلتها جيوشه التي كان أساسها فرقة مؤلفة من أربعة آلاف الباني والجيوش الإنكليزية التي أنزلها إلى البر الأميرال (كيث) وجماعات المماليك. وكان مما تطاولت إلى معرفته الخواطر عقب رحيل الفرنسيين: أى فريق من هؤلاء ستخلص مصر له في النهاية هل هم أولئك الولاة الذين تبعث بهم الاستانة ليمثلوها في مصر؟ أم المماليك سادة البلاد من قبل وأصحاب المصالح الكثيرة فيها؟

أما المماليك فقد عانوا في حروبهم مع الفرنسيين ما حملهم الخسائر الفادحة في الأنفس وجعلهم يعجزون عن تعويضها خصوصاً وقد أصدر الباب العالي الأوامر بمنع تصدير الأرقاء من الجركس كيلا يتمكن أولئك المماليك من سد ثلم تلك الخسائر، وليتيسر له الخلاص من عسفهم وتحكمهم في أمور البلاد. هذا فضلا عن أن التعليمات للولاية على مصر بعد رحيل الفرنسيين كانت قاضية بإبادة بقية المماليك والتعفية على آثارهم حتى لاتقوم لهم فيما بعد قائمة .

وكان هذا الوالى المسمى محمد خسرو باشا يشغل في الحكومة العثمانية منصب الصدر الأعظم وكثيرا ما لفت إلى شخصه وهو في هذا المركز السامى أنظار الدول الأوروبية بما جهر به من العداء لمحمد علي. ولقد بدأ هذا الوزير بتنفيذ الأوامر التي زودته بها حكومته ولكنه لم يقم دليلا في تطبيقها على شىء من الحصافة والمهارة المنتظرة من مثله. لأنه عجل بمحاربة المماليك الذين كان، زعيمهم الكبيران عثمان البرديسى ومحمد الألفى يتنافسان على الاستئثار بالحكم والسلطة . فلم تلبث الجيوش التي سيرها لقتالهم أن عادت من ميدان القتال بالفشل والخذلان.

وكان محمد علي الذى سبرى القارىء فيما بعد أنه سيقوم بدور خطير على مسرح هذه الحوادث قائدا لفرقة الألبانيين في ذلك الجيش التعس. فلم يستطع لبعده يومئذ عن ميدان القتال الاشتراك فيه وذلك لأن الرئيس الذى عهدت إليه، رئاسة الحملة كان ناقما عليه. فاتهمه لدى خسرو باشا بسوء النية، وأنه قصد بتخلفه إلقاء مسئولية الهزيمة عليه، ولم يكن هذا الوزير من الذكاء

وحضور الذهن بحيث يستطيع سر هذه الوشاية فأقسم أن ينكل بالزعيم الألباني ويورده شر الموارد. وكان مما بعث به على اعتزام الكيد له غير ماتقدم أنه بدأ يخشى جانبه، إلا أن محمد على استطاع بذكائه وفرط احتياظه أن يوقى نفسه شر ما ينصبه له أعداؤه من المكاييد. فلقد استدعاه خسرو باشا ذات ليلة فلم يجبه إلى دعوته هذه لعلمه بأنه إذا أجابه إليها فإن الموت ملاقيه لامحالة عنده. ثم اغتتم فرصة استيلاء عساكره وغيرهم من الألبانيين بسبب التسوية في دفع مرتباتهم فانضم معهم إلى الممالك وفتح لهم بمحالفته إياهم الطريق إلى القاهرة، والتحق بعد ذلك بعثمان البرديسي للزحف على خسرو باشا، وقد ظل يطارده حتى ضيق عليه الخناق في دمياط وأسره فيها بعد استيلائه عليها واستاقه إلى القاهرة حيث تولى إبراهيم بك مراقبته في أسره (سنة ١٨٠٣).

ولما انتهت أنباء هذه الحوادث إلى علم الباب العالي بادر بإرسال على باشا الجزائرلى إلى مصر ليخلف خسرو باشا في منصبه ويعاقب الذين خلعه من كرسى الولاية غير أن الجزائرلى لم يكن أسعد طالعا ولا أوفر حظا من سلفه فإنه لما استشعر في نفسه العجز عن إخضاع الممالك والألبانيين بالعنف والقهر لجأ إلى الحيلة والخدعة والدسيسة فلم يفلح، وانتهى الأمر به إلى الوقوع في أيديهم وكان مما أسخطهم عليه التجاؤء إلى هذه الذرائع الخسيسة في مغالبتهم فقتلوه شر قتلة بأمر رؤسائهم.

على أن الممالك لم يلبثوا بعد ذلك أن دب بينهم دبيب الانقسام واختاروا الشتات بدل الألفة. فذهبت مزايا فوزهم أثناء اتحادهم بددا. وكان محمد الألفى قد ذهب إلى انكلترا ليسأل حكومتها التدخل في شئون مصر دفاعا عن مصالح البكوات المصرية ثم عاد منها عقب قتل الجزائرلى باشا بقليل، ونزل في أبى قير فداخل عثمان البرديسي الخوف من أن يرى هذا الخصم الذى ينافسه على النفوذ والكلمة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى فيما ينتظر أن يهم به من اغتصاب زمام السلطة من يده بعد أن تكبد في سبيل الحصول عليه صنوف المشقة والعناء.

وكان محمد على يذكى في نفسه نار الحقد والبغضاء على محمد الألفى منذ حالفه على التنكيل بخسرو باشا، ولم يكن انتهاجه هذه الخطة عن غير علة.

فإنه لما ذهب محمد الألفى إلى انكلترا ليدعوها إلى مد ظل حمايتها عليه ضد خصومه لم ينل منها الوعد بهذه المؤازرة إلا بعهود عاهدها على القيام بها من شأنها أن تعرض حياة مصر الاستقلالية في المستقبل إلى خطر مؤكد كبير . وقد حاول البرديسى التخلص من خصمه بما نصب له من المكائد وبث من المصائد . ولكنه لم يفلح في مناوآته والكيد له . لأن الألفى كان قد تمكن من الفرار إلى الوجه القبلى حيث بذل الهمة فى تكوين حزبه وتآليف القلوب حوله من جديد .

وقد انشق الممالىك لهذا السبب على أنفسهم فانقسموا إلى حزبين متعادين لكل حزب منهم زعيم وكان خليقا بهما الاقتداء بمراد بك وإبراهيم بك فيما فعلاه قبل وصول الحملة الفرنسية من اقتسام البلاد بينهما حتى لاينازع أحدهما الآخر ويعمل على التنكيل به والكيد له ولكنهما بدلا من ذلك أخذوا يتقاتلان ويفنيان - فى معارك لا فائدة تجنى من ورائها - ما بقى من القوة العسكرية المملوكية فكانت نتيجة فعلهما أن ازداد الألبانيون جرأة وقحة وصلابة .

وكان عثمان البرديسى حتى هذا الوقت مطمئنا إليهم وواثقا بهم، وكان لهم من المتأخر مايربو على مرتبات ثمانية أشهر فأخذوا يصيحون ويصخبون مطالبين بحقوقهم، وتهددوا البيك بالثورة عليه إذا لم يوافهم بها على الفور فأنشأ البرديسى يسترضيهم إذ فرض القرض الفادحة على أهل القاهرة ليسد بها تلك الثغرة فكان سوء طريقته فى ذلك باعثا على تذرهم واستيائهم وتجردهم وتحفزهم للثورة . وجاء الألبانيون بقيادة زعيمهم محمد على لحصار قصره وقصور غيره من الأمراء المصرية . فلم يتمكن عثمان بك من تسكين ثائرتهم ودفع غائلتهم . ولم يسلم من أيديهم إلا بفضل بسالته الذاتية إذ إنه برح القاهرة فى سنة ١٨٠٤ ولم يعد إليها إلى أن وافته منيته .

ولقد دبر محمد على هذه الثورة الفجائية بلباقته وحذقه واكتسب بها عطف العلماء ومودتهم فتمكن من استمالة الأهلين إليه والفوز بثقتهم فيه واعتمادهم عليه فى الملمات والقبض على ناصية السلطة .

وأول خطوة خطاها بعد استتباب الأمر أنه أراد إعادة خسرو باشا الذى كان لايزال أسيرا إلى منصة الولاية على مصر . غير أن بقية الزعماء من

الألبانيين لم يشاطروه هذه الفكرة . فوجهوا خسرو باشا إلى رشيد وأنزلوه منها في سفينة سافرت به إلى الآستانة . فلم يعارضهم محمد على في فعلهم ، ولكنه أصر على رغبته في جعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك ، ولذا عمل على تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية واليا على الديار المصرية فتألب الشيوخ وزعماء الجنود وأجمعت آراؤهم على تعيينه في منصب القائمقامية للوالى وصادق الباب العالى في سنة ١٨٠٤ على تقليدهما هذين المنصبين .

ومنذ هذا التاريخ ظهر تأثير محمد على ظهورا بينا في شئون مصر ، وعلت كلمته في إدارة أحوالها ولهذا كان مما لا يخلو من الفائدة إيراد الظروف التى أفضت به في المستقبل إلى العظمة ورفعته الشأن .

ولد محمد على سنة ١٧٦٩ بقولة من الثغور الصغيرة في الرومللى ، وقد توفى عنه والده وهو صغير السن فكفله أحد الأغوات من سكان تلك البلدة وبدا له فيه من مزايل البسالة والذكاء ما حمله على إحاطته بعطفه ورعايته . إذ زوجه من قريبة له ذات ثروة وخصب من العيش فتفرغ للتجارة وبرع فيها وربح من المال ما شرف به قدره وعظم خطره ورمى من أجله بالأبصار فلما أغار الفرنسيون على مصر وهم الباب العالى بالتعبئة وتسيير الجيوش لدفع عادية هؤلاء المغيرين عنها صدر الأمر إليها بأن تقدم بلدة قولة من أهلها فصيلة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل فاندرج محمد على في سلكها وعين بكباشيا عليها . وحضر واقعة أبى قير فامتاز فيها بالبسالة والإقدام ، وكوفئ على ذلك بتعيينه سارى جشمه (أى قائدا للألف) وكان لا يزال بهذه الرتبة وقتما ناظ به خسرو باشا الزحف لتعقب المماليك وقتالهم عقب جلاء الفرنسيين عن مصر . وفيما سبق إirاده شهدنا كيف حاول هذا الباشا بعدئذ الإيقاع به وكيف ان محمد على ، وقد أصبح بحيث ينبغى له الحرص على كيان ذاته استطاع في زمن قليل وبفضل الظروف التى عرف كيف يستثمرها وينتفع بها الحاكم المتسلط على مصر والمتصرف في أمورها .

وكان مركز خورشيد باشا بعد تنصيبه في الولاية محفوفا بالخطر والخرج . فقد كان عليه أن يحارب المماليك من جهة ويتقى شر طغيان عساكره من جهة أخرى . ولم تكن هذه المهمة العسيرة تتفق مع ضعف قدرته

وعجز حيلته ونقص الوسائل بين يديه . فلقد كان الألبانيون الهائجون لا يكفون عن تعقبه بمطالبهم ملحين محلفين. خصوصا ما تعلق منها بالمتأخر من مرتباتهم وأعطياتهم حتى اضطر إلى الشدة والعنف بإثقال كواهل الناس بصنوف المغارم والفرض سدا لتلك الخلّة. فساءت من جراء هذا الفعل سيرته وتلوّث سمعته - وأنبتت في الأفئدة كراهته. بينما كانت القلوب تجتمع على محبة محمد على وتتعطر الأنديّة بذكره. لأنه كان من جهة في قتال متواصل مع المماليك يدفع عن الأهليين عاديّتهم ويرد مظالمهم وكان من جهة أخرى يقف موقف الوسيط المسكن لثائرة الفتن العسكرية التي كثيرا ما ارتاع من أهوالها سكان العاصمة وأصابهم من جرائها النكال والخسائر.

وكان خورشيد باشا شديد الخوف من الزعماء الألبانيين، فسعى لدى الباب العالي سعيه للخلاص منهم باستصدار أمره إليهم بالعودة إلى أوطانهم فكان محمد على أول من جهر بعصيان هذا الأمر، ثم لم يلبث أن تظاهر أمام أعيان المدينة. وشيوخها بالرغبة في الرحيل عنها ومغادرة الديار إلى الأبد. وإن كانوا يعتقدون أنه الوحيد الذي يذب عن حماهم ويزود عن حقوقهم - فقد أسرعوا بالسعي لديه ليقنعوه بالعدول عن عزمه. فلما استشف بهذه الحيلة حقيقة شعورهم نحوه وأيقن أنه منبعث = صادر = عن ميل صحيح إليه وثقة عمياء به ربض في مكانه مترقبا سنوح الفرصة لاستثمار هذه الحالة النفسية في مصلحته فما هو إلا أن لاحت له الفرصة المتمنّاة. إذ حدث أن فريقا من عساكر - خورشيد باشا عاثوا في العاصمة بالنهب والهدم والتحريق وضروا على الأهالي ضراء الأسد على فريسته حتى عمت الشكوى وعلا الصراخ وأدت هذا الحال بالشيوخ إلى عقد اجتماع قرروا فيه عزل الباشا بعد أن بدا لهم من عجزه عن حفظ الأمن في البلد ما عانوا مشقته وحقاق بهم ضرره وبايعوا محمد على واليا عليهم بدلا منه - بالرغم من صدور الأمر السلطاني بإسناد ولاية جدة إليه - رغبة من الحكومة العثمانية في إقصائه عن مصر على كل حال، فرفض محمد على في بادئ الأمر ما عرضه عليه الأهلون من تقلد الولاية ولكنه لم يسعه إلا إجابة رجائهم بالقبول نظرا إلى إلحاحهم وشدة رجائهم. وفي يوم ٩ يوليو سنة ١٩٠٥ ورد من الباب العالي الأمر المؤذن بهذا التعيين والموافقة عليه.

أغرى الشيوخ محمد على بتقليد زمام الأحكام وهم بما لهم من النفوذ الدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداية نواب الأمة ووكلاءها . فلا عجب إذا رسخت قدماء فيها من مبتدأ الأمر.

على أنه فوق ذلك كان من صدق النظر وحسن التدبير وتمام الدراية بحيث استطاع وقاية سفينته من الارتطام بصخور المصاعب المالية التى اعترضت أسلافه. وغير خاف أن الحاجة إلى المال كان يذكى نارها جشع الجند وشراهم. وكان محمد على فوق هذا وذاك مؤيد الجانب من الأمة منذ رآته رأى العين يطوف بأرجاء القاهرة ويجوس خلال الديار لتوطيد دعائم الأمن فيها ملقيا القبض على المعتدين والناهيين من عساكره تارة وطورا معاقبا لهم بيده العقاب الصارم.

وكان حجم الاحترام والتوقير للشيوخ مبالغاً فيهما إلى حد عدم المسارعة بمكاشفته إياهم بما يراه من صعوبة الحالة وحرص الموقف. فكان يضعهم بذلك في مركز يرون من الواجب عليهم فيه المبادرة بتدبير الوسائل لدرء تلك الحاجة. وكانت مصلحتهم وقتئذ مماثلة لمصلحته ومندمجة فيها لأنه لما كانت قوته مستمدة من مؤازرتهم له فلا عجب إذا تطوعوا لجباية ما يضطر كرها إلى فرضه على الأهلى من القرض التى لو باشر جبايتها بنفسه قبل أن يحصل على موافقتهم واستحسانهم لكانت سببا فى تسوئة = تشويه = سمعته وبث كراهته فى نفس الجمهور.

وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها. فإنه ماكاد يسقط خورشيد باشا من منصة الولاية حتى عرض محمد الألفى عليه، وكان قد أعاد تنظيم حزبه وأهبه = وجهزه = بما يلزم من عدد القتال ، الانضمام إليه لمكافحة الوالى الجديد. دع أنه أوفد رسلا من عنده إلى قبطان باشا الذى كانت سفنه راسية فى مياه الإسكندرية ليعاهدوه بالنيابة عنه على الخضوع للباب العالى إذا عاونهم على إخراج محمد على من مصر. وكان معتمدو انكلترا يؤيدون جانب الألفى فى هذه المفاوضة وبلغ من أمرهم فى الانتصار له وتعزيزهم مبدأه أن تهددوا الأميرال العثمانى بالإغارة على مصر إذا ظلت هذه الولاية فى قبضة الألبانيين ومحمد على. ووصفوا هؤلاء يومئذ بما شاءوا من أوصاف

التحقير التى تحط من قدرهم وتزرى بشرفهم ، ولكن المسيو (دروفتى) قنصل فرنسا بالإسكندرية وقف لدى قبطان باشا وقفة المدافع عن محمد على، فكان عمله هذا فاتحة السياسة الحاذقة التى لم تكف حكومتنا عن انتهاز سبيلها حيال محمد على.

ومع أن مساعى محمد الألفى وأعوانه من الإنجليز قد انتهت بما ذكرناه من الفشل فإنهم أصرروا على متابعتها حتى النهاية وكان الألفى قد وعدهم بتسليم ثغور مصر إليهم إذا نجحت مشاريعه بمساعدتهم وبنت الحكومة البريطانية على هذا الوعد ماشاءت من القصور والعلالى فسألت = فطلبت = من الباب العالى على لسان سفيرها بالآستانة إعادة زمام الأحكام إلى الممالك على شرط أن يكون الألفى زعيمهم الأول. ولم تقف تلك الحكومة عند هذا الحد بل تهورت فى مناصرته إلى حد الرضى بضمانة مال الجزية التى تعهد بأدائها فى كل عام إلى الخزينة السلطانية، فوافقت الحكومة العثمانية على هذه الاقتراحات والمطالب وأنفذت إلى مصر أسطولا بقيادة أميرال آخر نيظت به مهمة العمل على إعادة الممالك إلى دست الحكم وتسليم محمد على فرمان تعيينه فى ولاية سلانيك فتظاهر محمد على فى إبان الأمر بالانقياد للدولة ولكن الشيوخ والعساكر منعوه من مغادرة الديار.

وكان البكوات المحاربون لعثمان البرديسى — وهم الذين ظلوا متمسكين بسياسة مراد بك — أى بالبقاء على الولاء لفرنسا لا يستطيعون طبعاً أن يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه مافاز به خصمهم الألفى من تأييد الانكليز وعضدهم . وقد رأوا أن الخطر الذى يتهدد محمد على أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى فاستشعروا بالحاجة إلى التقرب منه. وكان قنصل فرنسا يوالى محمد على بنصائحه ويؤيده بمشورته ويعمل على نصرته فانتزع من جيش لوائه وكتب إلى سفير فرنسا فى الآستانة أن يؤيد محمد على لدى الباب العالى ويدافع عنه وينصره على شائئيه = كارهيه =.

أما قبطان باشا فإنه ما وقف على حقيقة الأحوال فى مصر حتى أيقن أن الخصومات التى قسمت الممالك أحزاباً متعادية أصبحت حائلاً منيعاً دون إعادتهم إلى ما كانوا عليه من الصولة ورفعة الشأن فكان ذلك من البواعث القوية التى حملت قبطان باشا على السعى لتحويل سياسة حكومته نحو

محمد على ولقد ظهر أثر هذا السعي حينما أرسل الباب العالي إليه فرمانا يثنيته في ولاية مصر على شرط أن يوافق الخزينة السلطانية بأربعة آلاف كيس من المال - أى بثلاثمائة ألف من الجنيهات.

خرج محمد على سالما من هذه الأزمة. فرأى أن سلطته تزداد في كل يوم رسوخا واستقرارا وحدث أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى توفيا في وقت واحد تقريبا إذ كانت وفاة الأول في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ووفاة الآخر في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧ فترك له المجال خاليا والميدان بلا منافس ولا منازع. وفي السنة نفسها أى سنة ١٨٠٧ عز على الإنجليز أن يروا الباب العالي يصالح محمد على ويتفق معه وأن تستقيم الأحوال في مصر. ذلك لأنه كان من مصالحهم أن تستمر فوضى الممالك فيها ليضطادوا في مائها العكر. فأنزلوا في الإسكندرية جيشا ما برح التاريخ حافظا ذكرى فشله وخذلانه فإنهم ماكادوا يستولون على هذا الثغر في ١٢ مارس سنة ١٨٠٧ حتى هزموا شر هزيمة بمدينة رشيد في الحادى والعشرين منه، وفي بلدة حماد في الثلاثين منه وسبب هذا الاندحار المتعاقب أن الممالك الذين كان الانكليز قد وضعوا فيهم ثقتهم تخلفوا عن تأييدهم وضنوا عليهم بعونهم إذ أخذ بعضهم يفاوض الوالى للصالح معه بينما كان البعض الآخر يطاردهم الجنود في الوجه القبلى عقب خذلانهم المتكرر في معارك متتالية ، ولقد لبثت الجنود البريطانية محتلة الإسكندرية ستة أشهر ثم اضطروا إلى الجلاء عنها في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧.

وكان الموسيو دورفتى قنصل فرنسا خير معاون لمحمد على على تذليل هذه المصاعب بما كان يقدمه إليه من الآراء السديدة والنصائح النافعة وهو الذى يرجع إليه الفضل في رسم خطة الدفاع التى جاءت بتلك الثمرات الطيبة ولقد أضاف محمد على ما أحرزه باجتهاده وحسن توفيقه من الفخر العظيم فخرا آخر أحرزه بكرمه وتسامحه . فإنه رد إلى الانجليز جميع الأسرى من جنودهم بدون أن يطالب بفديتهم كما جرت العادات.

ولم يكن من سياسة الباب العالي أن يترك لوالى مصر فرصة للعمل في ظل الأمن والطمأنينة بالسلطة المخولة له التى أحرزها بهمته وأمرته الدولة مرارا بحشد الجيوش وتسييرها لمحاربة الوهابيين، وهؤلاء الوهابيون خوارج

مبتدعون في الإسلام يريدون على حد قولهم الرجوع بهذا الدين إلى حالته الأولى من السذاجة والتقصّف، وقد ظهروا بدعوتهم هذه في أواسط القرن الثامن عشر فاستولوا بعد زمن قليل على بلاد العرب - كافة وأخضعوها لمذهبهم . وكانت المدينة ومكة، وهما الحرمان الشريفان في الإسلام، قد سقطتا في قبضتهم فنهبوا ما فيهما من وافر الأموال ونفيس الأعلام. وكانت القوافل التي تذهب بالحجاج إليهما لأداء مناسك الحج تخشى أن يسوقها الوهابيون بعضا التنكيل إلى ما يراد منها بل كثيرا ما كانت تقصر بهم الوسائل عن الوصول إلى الغرض المقصود من رحلتهم فكان العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه في اكتئاب وانزعاج وحرص لهذا السبب، وكان في قدرة الوهابيين لما لمسوه في نفوسهم من العزة وبالكثرة والعصبية لمذهبهم المستحدث إرهاب السلاطين والأمراء أصحاب السطوة والنفوذ فيما يلي حدود جزيرة العرب. ومن هذا انهم كانوا يتهددون ولاية بغداد بأن تطأ جنودهم قاصيتها = أرضها = وتنكل بأهلها حينما وصلت الأوامر السلطانية إلى محمد علي بالمبادرة إلى محاربتهم ورد الأمور إلى معاهدها = ما كانت عليه = في الجزيرة العربية.

وبدهى أن هذه الحرب كان لابد أن تخلص مصر من حاميتها العسكرية وتكشف جوانبها لأخطار الغارة عليها من الأعداء المتربصين بها السوء، فكان من وجوه الحكمة وأصالة الرأي وأحوال الدهاء أن يحتاط لدرئها بإرساء شوكتها على أوطد القواعد . وقد اتفق في هذا الحين أن عاد الممالك إلى تقلد السلاح وبرزت حشودهم لقتال محمد علي (سنة ١٨٠٨) فدرأ بحكمته بلاءهم وعاجلهم بقوته الساحقة فأباد فريقا منهم ووقع بالفريق الآخر أنكأ العقوبة وعرض عليه زعماء بيت الألفى مؤازرتهم على أعدائهم ولكنه ما كان لمثله أن يحفل بوعودهم أو يستنيم إلى عهودهم. بدليل أنهم ما كادوا يتأكدون الأنباء المتعلقة بالحملة الوهابية ويوقنون أن البلاد ستصبح خالية من جنودها حتى تأمروا على خيانتته والكيد له ومداهمته . ولقد عللوا أنفسهم بالظهور عليه متى حرم معاونة رجاله وأوليائه وأهل طاعته. ولكنه سرعان ما استكشف سر مؤامرتهم فوقر في نفسه أن المسألة بينه وبينهم مسألة حياة أو موت. فلجأ إلى حق من حقوقه الشرعية والطبيعية. ألا وهو حق الدفاع عن

النفس والحرص على الحياة.

رأى أنه مهدد الجانب منهم فعول على اتخاذ الوسائل لدرء هذا الخطر عنه وقرر أن يكون اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ يوم الفتك واستئصال شأفتهم . فدعا الممالك إلى القلعة ليشهدوا حفلة تولية ابنه طوسون باشا قيادة الحملة على الوهابيين فأجابوه إلى دعوته وأدى المطاف بموكبهم إلى مضيق لم يستطيعوا فيه الحركة فإذا به المأزق الذى زجوا إليه بلطف الحيلة للافتراس بهم . وفى الواقع فإنهم ما كادوا يتوسطونه حتى أخذهم الألبانيون برصاص بنادقهم من غير شفقة ولا رحمة . ولقد فشا خبر هذه المجزرة بالقاهرة حتى عم انحاءها فتلقاه أهلها واجمين ولم تنقض أيام بعد ذلك حتى تناول الفتك سوادهم الأعظم فى مديريات هذا القطر .

وقد بقيت منهم بقية صغيرة لجأت إلى بلاد الحبشة (لعلها النوبة) فلما باد سواهم صدر أمر الوالى بالإمساك عن مطاردة الذين فروا منهم أول وهلة . وعلل ذلك بأنه يريد محاربة الجماعة لا أفرادها .

ولقد نظم فى سلك خدمته بعض الذين بقوا منهم على قيد الحياة وأباح لهم التمتع بما كانوا يملكونه من الثروة الثابتة والمنقولة . بل بالغ فأجرى على نساء القتلى وأولادهم الأرزاق والأعطيات التى تجعلهم فى نجوة عن = تغنيهم = ذل السؤال . وعليه فقد أصاب محمد على فى يوم واحد الغرض الذى طالما اشترأت إليه منذ أكثر من قرنين أعناق السواس فى الدولة العثمانية بدون أن يصيبوا منه هدفا .

طال أمد الحرب مع الوهابيين وتعددت مصاعبها وتعاقب فيها الانتصار والانكسار . فلما انقضت ست سنوات من معاناتها ضعفت شوكة الوهابيين واصطلم أمرهم . على أن إبراهيم باشا لم يكن قد استسلم الوهابيون إليه أو عفروا له خدودهم فاضطر محمد على أن يتولى بنفسه حملة جديدة ضدهم ولكنه بينما كان مشغلا بالزود عن حرمة الإسلام وحرمة الإيمان كان الباب العالى يبغيه الغوائل ويحفر له الحفائر . إذا اعتنم فرصة غيبته فقلد لطيف باشا ولاية مصر بمقتضى فرمان أصدره السلطان سرا وأمر قهارمة دولته بتكتم خبره .

أما لطيف باشا فصنيعة من صنائع محمد علي وعبد من عبيد إحسانه ونعمته. فلما اتصل بهذا الجاحد لأنعم مولاه منطوق الإرادة الشاهانية عمل في الخفاء على استمالة الأفئدة إليه وتكوين حزب له. غير أن محمد بك الذي كان قائما بإدارة شئون الحرب في حكومة الوالى قد فطن لذلك. فاستدرجه بحسن الحيلة إلى إعلان نيته والجهر بعزيمته على ملأ من الناس، ولما لم يبق شك بعد اعترافه في اقترافه رمى عنقه في ديسمبر سنة ١٨١٢.

ومما لا مراء فيه أن الحروب في جزيرة العرب كلفت الوالى الكلف الفادحة من المال والرجال، ولكنها عادت عليه ولاشك بمزايا جزية وفوائد لا يستهان بها فإن أنباء ظفره بالوهابيين نشرت بين الناس في أنحاء الإمبراطورية العثمانية سيرته مقرونة بحسن الذكر وطيب الأحداث، ومهدت له السبيل فيما بعد لتأليف جيشه النظامى الذى بنى عليه دعامة صولته وشهرته.

ومنذ أن جاءت الولاية على مصر إلى محمد علي منقادة وأفضت إليه بمقابلتها لم تغب عنه لحظة واحدة أهمية النظام العسكرى وفن التدابير الحربية عند الأوروبيين. فكان أول ما قرطس فيه سهام همته ونشاطه أن تفرغ في سنة ١٨١٥ لتشكيل الجيوش النظامية. إلا أن هذا السعى لم يلق النجاح المرجو. وحدث أثناء ذلك من الهرج والنزوع إلى الانتفاض بين الجنود الأتراك والألبانيين ما كاد يقضى على صرح شوكتة بالانهيار لما استشعروا به من كراهية تنسيقهم بحسب النظام الجديد فاضطر إلى تأجيل هذا المشروع مع اتخاذ ما يقوم من الوسائل مقامه، ثم لم يلبث بلطف حيلته أن تخلص من العصابات الثائرة بإفناذ رجالها لفتح بلاد العرب وسنار وكردفان فاستفاد بهذا التدبير فائدتين جليلتين أحدهما إتقاء شر تمردها والثانية التذرع بها إلى فتح بلدان جديدة وضمها إلى مصر.

وقد تم إخضاع سنار وكردفان لمصر وإلحاقهما بها خلال سنة ١٨٢٠ - وفقد محمد علي في سنار ابنه إسماعيل باشا بموتة شنعاء على أثر مكيدة دبرها له زعيم من أهالى ذلك الإقليم وقد أخذ الدفتردار بك صهر الوالى بثأر الفقيذ إذ نكل بالأهالى أشد تنكيل. ولما امتدت فتوحات محمد علي إلى أبعد الآفاق وتناولت الأطراف القصية من الأرض انكب على تنمية ما احتوته أملاكه الواسعة من موارد الثروة وينابيع الخير فوحد نظام الملكية وأدخل زراعة

القطن وعضدها وأصلح أساليب فلاحة الأراضى المصرية واستثمارها ووسع نطاق التجارة فنمت موارد إيراده بسرعة لذلك السبب. وكان قد حان الوقت بعد ذلك لتنظيم الجيش فأنشأ في أسوان ميدانا للتعليم درب فيه جملة من الجيوش على مقتضى النظام الأوربى ونجح في ذلك نجاحا لا مطمح بعده لمستزيد بفضل مثابرته وحسن إدارة المسيو سيف (سليمان باشا).

وقد استدعى إليه من فرنسا القواد والضباط والأطباء وأنشأ المدارس والمستشفيات والمصانع، وكان ملما بأسرار سياسة الباب العالى عالما بمقاصدها ومراميها فلم يستنم في وقت من الأوقات إليه ولم يعتمد في جلائل الأمور على، ولم يعمل قط لتعزيز مصالحه ليقينه أنه مهما بذل من النفس والنفيس في خدمته فإنه لن يحترمه أو يخشى جانبه إلا بمقدار ما يأنس من قوته. وأنة إذا ضعفت يوما قواعد سلطته وانحلت عرى دولته ولم يعد من اشتداد القوة بحيث يخشى بأسه ويرهب جانبه فإن الديوان السلطانى يقف تجاهه بين أمرين. إما أن يصرفه عن منصة الولاية بشيء من مظاهر التكريم والتعظيم وإما أن يبادر بإرسال خلف له فتعزيزه جانب نفسه بمظاهر القوة والبأس كان في أسبابه ألصق بالمطامع السياسية منه بالضرورات الحيوية.

وفي الواقع فإنه لم يمض زمن حتى انبرى لتعيين مركزه حيال الدولة العثمانية بأن وقف أمامها وقفة الشبيهة بالمستقل وتصرفاته.

وهذه الوقفة كان الباعث عليها قوة الشعور الفطرى بحفظ الذات لا الميل إلى الاستزادة من البسطة في الامتلاك والتوسع في التسلط كما زعم البعض ومعلوم أن الرجل العبقري ذا النية السلية = الحسنة = والسريرة الطيبة كان لا يسعه أن يسلك من الباب العالى إلا الخطة التى سار محمد على عليها وبلغ أقصى المدى.

ولقد أخذت العلائق بين مصر وأوربا بعد ذلك تقوى وشائجها حتى لقد أصبح الغرب مطمع أنظار محمد على لا يكاد يصرف عنه لفتاته وآماله في النهوض ببلاده، وسما به حسن الظن فيه ورغبة الاعتماد عليه في تحقيق هذه الأمنية إلى أن ينوط به وضع أحكم النماذج لإمضاء الإصلاح في مملكته وإرسال القومة على تنفيذها من أبنائه. ولم يقف ذلك المصلح الثابت الجأش الوطيد الإيمان الذكى القواد عند هذا الحد من الشوق الشديد إلى السمو بهذا

القطر نحو شرائف = أشرف = الرتب بين أمم العالم بل أخذ يرسل إلى باريس برسم التعلم في مدارسها الشبان المسلمين. على أن ينقلوا بعد تلقيهم العلم إلى أوطانهم لبث ما اقتبسوه منه بين مواطنيهم في أرجاء الديار المصرية.

ولقد كان مكبا بكل همته على العمل لإنجاح هذه المشاريع الشريفة حينما وكل السلطان إلى عهده قمع الثورة اليونانية في حرب كادت تذهب في أوروبا برونق سمعته، ولكنه كان لا يسعه إلا الانقياد لأوامر أمير المؤمنين فأنفذ في بادئ الأمر مددا صغيرا إلى ساحات القتال حتى إذا لاحت لوائح الخطر على الدولة العثمانية من جراء تلك الثورة الهائلة اضطر إلى مضاعفة هذا المدد بتعبئة الجيوش الكثيفة وتهيئة عدد القتال حتى اجتمع لديه وقتئذ عشرون ألفا من الجنود النظامية، ولو أنه امتنع عن تسيير هذه القوة كلها أو بعضها ضد اليونان لجر إلى نفسه مقت المسلمين جميعا واستنزل عليها سخطهم. وفي السادس عشر من يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك الأسطول المصري مؤلفا من ٦٣ سفينة شراعية ومائة نقالة تنشر مختلف أعلام الأمم الأوروبية إلا الأمة الفرنسية قاصدا على شبه جزيرة مورة مقلا ستة عشر ألف رجل من المشاة النظامية وسبعمئة جواد وأربع فرق من رجال الهندسة وهذا غير مدافع الحصار والميدان.

وعهدت قيادة هذه الحملة إلى إبراهيم باشا فكان أول ما نهض به من الأعمال تقليص أظافر الثورة في جزيرة قنديا وجمع الخوارج فيها. وكان في معاركه بموره موفقا للنصر المبين كثير الرفق بأهلها من اليونان بارا بالإنسانية. وهذه حقيقة لا ريب فيها رغم ما أذيع من نقيضها تشويها لسيرة ذلك القائد فإنه لم يخالف قط في قتالهم القوانين المرسومة للحرب عند الأمم المتمدنية. على أن الحرب في بلاد اليونان ختمت بشر خاتمة للدولة العلية إذ أفضت إلى تدمير الدونمة المصرية في واقعة (نافارين) وزوال رسم الدونمة العثمانية على بكرة أبيها.

ولا يسع المتصدى إلى الكلام على الثورة اليونانية أن يفضل إلا الإشارة إلى ما عومل اليونانيون به من التسامح والكرم أثناء قتال المصريين لهم.. لأنه بينما كان ولاية المملكة العثمانية ما عدا محمد على يفحشون في سوء معاملتهم ويسومونهم خطة خسف إجابة لداعى التعصب فقد كان إلى مصر يحوطهم

بعنايته ويحفهم برعايته.

خذ مثلاً على قبح سيرة أولئك الولاة ما ارتكبه والى عكا من تدميره لكنيسة جبل الكرمل وأخذه نصارى الشام بوسائل الشدة والعنف وماجنه والى قبرص من ملاحقته المصرين من أهلها على الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية بالقتل والاضطهاد والزج في السجون حتى لقد سالت من جراء ذلك في جميع أرجاء المملكة دماء الأبرياء، ثم قارن بما كان حاصلاً في مصر فإنك لاتلقى صعوبة ما في استنتاج الحقيقة الآتية: هي أن اليونانيين ظلوا متمتعين برعاية محمد على بل بلغ من الأمر أن اخذت أسر المنكوبين منهم بتلك الاضطهادات في بلاد الدولة العلية تغد على مصر زرافات وشتى فتجد فيها الحرز الحرز والملجأ الأمين والمقام الطيب للعيش في ظل الهناء والنعيم.

على أن كارثة نافارين لم تقف في عضد محمد على ولم تكسر من شكيمته . كلا بل أنها كانت له خير معاون على الاستفادة وتقدير قوته وصلابته وبسالته بالنسبة لغيره من الجيوش. لهذا سارع إلى سد ما أحدثته الخسائر الفادحة فيه من الثغرات العديدة وأخذ العدة للحوادث المستقبلية بإنشائه بالإسكندرية في وقت قصير جداً دوننمة جديدة جاءت أعظم وأقخم من التي دمرت في واقعة نافارين .

وفي بداية حروب محمد على في شبه جزيرة موره كان الباب العالي قد وعده بالشام جزاء ما يقدمه من الوزر = العتاد = له. إلا أن الحكومة العثمانية لم تف بهذا الوعد مقتصرة على إعطائه جزيرة قنڨيا. وكان محمد عى ينفس من جهة أخرى على عبدالله باشا والى عكا وأكبر ولاة الشام بعض الأمور، ومما هو جدير بالذكر عن هذا الوالى أن السلطان غضب عليه في سنة ١٨٢٢ ثم عفا عنه برجاء من محمد على. فبدلاً من أن يعرف له هذه اليد لئج في إظهار العداء له وانتهاز لذلك كل نهزة = فرصة = فمن ذلك أنه كان يمنح عضده = مساعدته = للمهربين على حدود مصر ويدلى إلى سكان الشرقية بالمال لجر المنافع بواسطتهم إليه، واستدرج ستة آلاف منهم إلى هجرة مواطنهم للسكنى في ولاية عكا فكتب محمد على إليه ملحا في ردهم إلى أوطانهم فكان جوابه أنهم لما كانوا من رعايا السلطان فسواء عليهم أقاموا بمصر أو بالشام. فرأى محمد على في هذه اللهجة ما أثار كامن سخطه وأوجب تدمره فكتب يقول له

بأنه إذا لم يوجه بهم إليه حضر بنفسه لأخذهم جميعا زائدا عليهم واحدا . وكان يعلم من جهة أخرى ما اعتزمه الباب العالي من مهاجمته وقتاله فاغتنم فرصة الحادث المتقدم ليتقى شر هذه النية حتى لا يكون تنفيذها على غرة منه .

وفي الثاني من نوفمبر سنة ١٨٣١ تحرك نحو الشام جيش مؤلف من ٢٤٠٠٠ جندي من المشاة وأربع أورط من الفرسان وأربعين مدفعا من مدافع الميدان وأكثر منها عددا من مدافع الحصار وعقدت لإبراهيم باشا القيادة العامة على هذا الجيش . فما هي إلا أيام حتى وقعت مدائن غزة ويافا وحيفا في حوزته . أما عكا وهى التى لم يوفق نابوليون لأخذها أثناء حملته على الشام فقد قاومت إبراهيم باشا ستة أشهر وصالا . إذ استولى عليها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣١ وكان الرأى العام فى الآستانة قد بدأ يوقن أن من المستحيل أخذ ذلك الثغر فلما انتهى إليه خبر ذلك الفوز أعلن فى الأوامر الشاهانية اعتبار محمد على عاصيا على الدولة وخارجا على الملة . وكان قد بدىء بتسيير جيش كبير لقتال ابنه إبراهيم . ففى ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ مزق إبراهيم فى حمص فيلقا كبيرا من فيالقه وألحق به الهزيمة . وكانت واقعة حمص هذه المعركة الأولى من المعارك التى التحمت فيها جيوش شرقية مدربة على اللطراز الاوربى . وقد بلغت خسارة الأتراك فيها ألفى قتيل وألفين وخمسمائة أسير ولم تتجاوز خسارة المصريين مائة قتيل وقتيلين وأقل من مائتى جريح . وبهذه المناسبة كتب إبراهيم وقد أخذته نشوة التمس إلى والده ما يأتى : «ولا أتردد فى القول بأن مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف من أشباه هذه الجنود لن يكثر بهم ولن يخفق لنا فؤاد بالخوف منهم» .

ولم يمض زمن طويل بعد واقعة حمص حتى هزم إبراهيم فى بضع ساعات الجيوش العظيمة التى سيقى لقتاله فى مضائق بيلان تحت قيادة الصدر الأعظم حسين باشا فاستولى على هذه المضائق التى فتحت له أبواب جبال طوروس . وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢ فتك فى قونيا بالجيش العثمانى الجديد المؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة رشيد باشا فى حين أن جيشه كان أقل من ثلاثين ألفا وأسرى هذا القائد .

وقد فتح إبراهيم فى قونيا له طريق الآستانة . فلما رأت الامم الإسلامية هذا

الأمر أجمعت على دعوة محمد على إلى الأخذ بزمām الدولة فلو أنه أراد إسقاط الأسرة العثمانية من علوة عرشها لفعل لوعرض في هذا السبيل عارض، ولكنه كان معتدلاً في مطالبه. إذ لم يطلب بعد هذه الانتصارات المتوالية إلا ماطلبه قبلها من إعطائه ولاية الشام. وكان إبراهيم باشا قد بلغ إلى كوتاهية أى أنه صار على مسافة خمسين فرسخاً من دار الخلافة فارتاع السلطان لهذا النبأ وانهذ ركنه وفقد صوابه وتولاه اليأس فلم يجد سوى أن يلقي بنفسه في أحضان روسيا ملتمساً منها الذود عن حياضه فانفذت هذه الدولة إلى الأستانة جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل لوقايتها من عادية المصريين فكان من ثمار هذا التداخل عقد معاهدة (انكيار أسكله سى).

وكانت الأزمة خطيرة والمسألة آخذة في التحول من الصيغة الشرقية المحضة إلى صيغة أوروبية - أى دولية . فإن الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا التى كان المسيو (ميمو) وكيلها في الإسكندرية يؤيد محمد على تداخلن فعلاً بين هذا الوالى والسلطان محمود. فكانت نتيجة تداخلهن أن تنازلت الدولة العليا لمحمد على بضمانتهم عن بلاد الشام وإقليم أطنه مقابل اعترافه بالتبعية إليها وتعهده بدفع جزية سنوية إلى خزينتها تعادل الجزية التى كان يدفعها ولاية الشام السابقون . وكان تحرير الاتفاقية بذلك في ١٤ مايو سنة ١٨٣٣.

ولقد كان إلحاق سوريا بمصر من الأمور الضرورية لتأمين الأملاك التابعة لوالى مصر، وإذا كان من الحقائق التى لامراء فيها ماينجم من الفوائد والمزايا للمدينة بوجه عام من جعل مصر مقر دولة مستقلة . فمن البديهي أن لايستطاع الوصول إلى هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . وأن نظرة واحدة في طبوغرافية القطر المصرى من الوجهة الحربية لتنهض دليلاً على أن الأمن والسلامة من غارة المغيرين عليه كان من المتعذر إذا لم يكن من المستحيل توافرها خصوصاً من ناحية برزخ السويس مالم يكن ذلك الانضمام أمراً واقعياً. وليس في هذا القول أثر من المبالغة ولا التهريف. فإن جميع المغيرين الذين أغاروا على مصر (ماخلا عرب الغرب من الفاطميين ورجال الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت) مثل قمبيز ملك الفرس والإسكندر والعرب في صدر الإسلام والأيوبيين والأتراك. إنما طغوا عليها من ناحية الديار السورية

فلم يكن بمستطاع مع هذه الحالة صيانة القوة الحيوية لمصر المستقلة من عادية المغيرين إلا إذا تناولت حدودها حدود سوريا، وتم الإجماع على أن حدود مصر الحقيقية لم تنته ببرزخ السويس بل بجبال (طوروس).

يؤخذ مما سلف أن محمد على أراد بالحرب التي أضرم نارها في سنة ١٨٣١ أن يخطط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة وكان يتبقى له ليكسب العمل الجليل الذي قام به صفة الدوام والاستمرار — اللذين هما في السياسة قوام جلائل الأعمال وملاكها أن يعمل لتوثيق أركان الأسرة التي ستحظى بالقبض على زمام هذه الدولة الفتية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى.

أما السلطان محمود فكان لما دب في نفسه من الحنق على وإلى مصر لا يفكر إلا في أمر واحد. ألا وهو العمل لإسقاطه من علوة مجده وأوج شوكرته وكان لا يكف تحقيقاً لهذه الأمنية عن بث الفتن في البلاد السورية ونسج الدسائس التي قضى إبراهيم باشا في تلافي خطبها سنوات متعاقبة، فقد كان ذلك السلطان يصدم مصالح محمد على بمصالح الدول بمنحهن من المعاهدات التجارية ما كان يرجو من وراء تطبيقه في مصر إثارة مصاعب وخلق مشاكل من شأنها أن تخرج مركز ذلك الوالي أيما إحراج. وبعد انقضاء خمس سنوات في صراع خفى بين التابع والمتبوع كان الثأني منهما في أثنائها قد تمكن من إعادة تنسيق جيشه وتجديد أسطوله قديراً على سرعة. ولم يتوان. فقد سير في بداية سنة ١٨٣٩ إلى الشام السر عسكر حافظ باشا الذي لم تلبث جيوشه أن تحطمت عند أول ارتطام لها بصخرة الجيش المصري في واقعة نصيبين الشهيرة الخالدة الذكر.

ومنذ عام طرأت في الشرق حوادث لم تكن منتظرة، وكلها من الأسباب التي جعلت تحقيق أحلام محمد على وإصابته الغرض الذي كان يرمى إليه أمراً محتوماً. نذكر منها وفاة السلطان محمود في الوقت الذي تمزق جيشه فيه كل ممزق، وإنحياز الدونمة العثمانية إلى محمد على واضطراب السياسة الأوروبية لهذا الحادث المفاجيء والكوارث التي نزلت بالدولة العثمانية لاستمرار الحالة فيها على وتيرة واحدة، وما نشأ عن ذلك كله من الشك في استقرار السلام العام على قاعدة ثابتة.

ومن المسائل المسلم بها لبدايتها أن محمد على. وهو ذلك الرجل العظيم أنقذ مصر من شر الفوضى ولحقها بلقاح الحضارة العصرية ووثق أركانها بقوة عسكرية هائلة يرجع إليها فضل استقلالها، واستكمل الشروط الجغرافية لهذا الاستقلال بفتح الديار السورية ومدّه أفق مصر إلى القاصية من حدود هذه الديار. فماذا كان ينقص الدولة المصرية الحديثة التي هي ابتكار فكره وصنع يده وثمار الغرس الذي كان قد غرسه..؟ كان ينقصها أمر واحد ألا وهو ضمانّة الاستقرار والاستمرار والأمن في المستقبل لها. ثم كان يعوزها من جهة أخرى جعل حياتها قيد ضمانّة المعاهدات المصدق عليها من الدول، وأن يفضى بالسلطة العليا المحدثّة من العدل إلى محمد على وحصرها في سلالته للاحتفاظ بها وصيانتها من الضياع. ذاك هو ما طلبه محمد على وذاك ما يقتضيه العدل، وتستدعيه الحضارة. بل ذاك ما استخوله إياه قوة الشيء الواقع وهو ما يسمو الأمل إلى إقامة الدليل عليه في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

محمد علي وأسرته

أرى من اللائق أن أعرف القراء بالأسرة المجيدة التي أصبح حظ مصر مرتبطا بها ارتباطا لا فكاك له.

ذكرت فيما سبق أن محمد علي ولد في سنة ١٧٦٩ ببلدة قوله. فهو يبلغ من العمر الآن الحادية والسبعين.

وهو ربع القامة لا يتجاوز ارتفاع قامته خمسة أقدام وبوصتين بدين الجسم دموى المزاج عصبية الى الدرجة القصوى. كان شعر رأسه ولحيته في إبان شبابه على شيء من الصهوبة. مكشوف الجبهة بارزها وفي حاجبيه نتوء ظاهر. أما عيناه فكستينائيتا اللون في صفاء ووضوح وغائرتان في الحاجبين. متوسط حجم الأنف في سعة وانتفاخ عند المنخرين. صغير الفم. ملتوى الشاربين في طرفيهما أبيض شعر اللحية في غير كثافة ويتألف من مجموعة هذه الملامح فيه سحنة محبوبة جذابة للدرجة القصوى، ووجه تبدو فيه نضرة الحياة وعلائم الحركة والقوة، وله عينان نفاذتان شيمتهما البحث والتنقيب، وفي منظره العام ما يدل على دقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول.

ولمحمد علي يد صغيرة جميلة مفتولة الأصابع، وقدم صغيرة كذلك وهو حسن الخلقة تتم مشيته على الوثوق بالنفس وتدل على ما يطلب في الجندي من الضبط والنظام العسكريين. إذا سار دفع إلى الأمام طرف القدمين محترزا عن تحريك جسمه إلا بمقدار ما تقتضى الضرورة به في نطاق ضيق تكاد تتلامس جوانبه، وإذا وقف وقف مستقيما واضعا إحدى يديه في الأخرى وراء ظهره ومما يحسن بنا في هذا المقام ذكره لأنه غير أمالوف عند الاتراك ميله الى الرياضة والفسحة بداخل حجرته. وهو إذا وضع عمامته على رأسه جعلها منحرفة قليلا إلى الجانب الأيسر منه، ومع أنه يكره التحلى بعلامات الشرف والرتب ويرغب عن لبس الثياب المزركشة بأسلاك الذهب على العادة الشائعة عند العثمانيين فهو شديد الحرص على نظام ملابسه وهندامها. وبالجمل فإِنَّه في أحواله وأطواره وسلوكه ومعاملته يتوخى السهولة

والبساطة في رفعة قدر وعزة نفس، وهو مسلك العظماء والكرماء.

ومحمد على سريع خاطر حاضر الذهن شديد الإنفعال لا يستطيع أن يكتم ما يتأثر به نفسه من الشعور = المشاعر = المختلفة، ومن ثم كان مطلق الحرية في القول. حريصاً على الصدق فيه بعيداً عن التكتّم بقصد المكر والخديعة غيوراً على كل ما له مساس بالكرامة. صادق الوعد بعيداً عن مظان الغدر. طلق اليدين يدفعه حب البذل أحياناً إلى السرف. وهو لطيف المعشر حلو الحديث بلا تكلف.. شديد الرفق بأبنائه. يعيش معهم في داره على البساطة والتقشف كأنه أحد أفراد الطبقة الوسطى. أما رقة الإحساس فبالغة من نفسه إلى الدرجة القصوى، ولولا أنني شاهد عيان لفضايلة العالية لتعذر على أن أقدم إلى ذهن القارئ فكرة ما عنها أو عما انطوى عليه قلبه من العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين.

لا يصرف العزاء عن فؤاده - مهما حسن - أثر الحزن على فقد ولد له. وقد كان هذا شأنه كلما اتصل به نعي قرين له في الحروب. فإن عينيه كانتا تهميان بالدموع لسماع هذه الأنباء. شديد العطف على مستخدميه وكل من ارتبطوا معه برابطة التعارف يبالغ في عطفه عليهم إلى حد الحنان الأبوى، وقلما يقر القرار الأخير على إنزال العقوبة بأحد لأخذه بالعفو في أغلب الأحوال الهفوات والهنات إلى ما عظم منها في زوايا النسيان.

شغف بالمجد والفخار فلم يشغله من أمر نفسه حسن الذكر في حياته فقط. بل أيضاً بعد وفاته. ومن عاداته حب الإطلاع على ما يكتب في الصحف فتراه يشدد على المترجمين بالعناية في نقلها إليه ليلم بما تتضمنه من مختلف الآراء والأنباء وكثيراً ما يقرأها بنفسه. وهو لا يعبأ بما يذاع عنه من الترهات والباطيل. لأنه يرى همته فوق الأقوال والتخرصات.. ومن شيمه مواصلة العمل طوال النهار. فإذا عمد إلى فراشه لينام لاتغمض جفناه منه إلا قليلاً إذا أن نومه مضطرب تتخلله اليقظة من حين إلى آخر. وفي الساعة الرابعة بعد نصف الليل يغادر سريره ويلبس ثيابه وينتهي لمباشرة الأعمال فأول ما يتلقى منها التقارير الجديدة التي تصل إليه من رجال الحكومة فيملي على النواميس ما يعن له من الأجوبة عليها، ثم يتفرغ لعرض الجيوش فزيارة الورش والمعامل والمعاهد المختلفة فيفتقد فيها الأعمال الجليلة التي جعلها أسس الرقي لبلاده وأمته.

ومما يؤثر عنه من الفضائل والمحامد صدق التمييز وسلامة الذوق في الأعمال واستقامة الحكم وصواب الرأي وسرعة الخاطر في المناقشات المعضلة والمسائل المختلفة. حتى التى لم يسبق له أن يطرقها ببحث أو تمحيص. ومتى انتهت المناقشة تبين أن الصواب كل الصواب في رأيه . وفي تاريخ حياته السياسية الطويلة البراهين الكثيرة على ذلك.

وهو بارع في الحساب مع أنه لم يسبق له أن درس العلوم الرياضية ، ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة إلا في الخامسة والأربعين من عمره. وهذا بلاشك أجمل ما يذكر من تاريخ حياته. على أنه لم ينفق في الحصول على غرضه من التعليم وقتا طويلا ولا عناء كثيرا. وما كاد يضرب بسهم في القراءة والكتابة حتى تفرغ لدرس التاريخ، وكان أهم ما شغله منه تاريخ الإسكندر ونابليون بونابرتة. ومع أنه غير ملم بلغة أجنبية ما فقد بلغ من حدة ذكائه وثقابة فكره أن يستطلع بمجرد النظر في عيون محدثيه من الأوروبيين مضمير رغباتهم قبل أن يتم المترجمون نقلها إليه، ومن أبعث الأمور على سروره التحدث مع الأوروبيين والمتعلمين والمتنورين وهو يعالج معهم أرقى المسائل وأعضلها فيدرك حقائقها بدقة تشهد له بالبراعة وطول الباع.

وهو شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولا تنطع، ولقد أظهر دواما من التسامح نحو الأديان جميعا ما هو مشاهد بالعيان، واتخذ من الوسائل ما كفل للمسيحيين الاحترام والتوقير وأولى البعض منهم مودته ووضع قيهم ثقته ورفعهم إلى شرائف الرتب وسلمهم مقاليد الحكم والقيادة وأنعم عليهم برتبة البكوية ولكى يتغلب على ما تحكم من التقاليد الباطلة في نفوس حاشيته وشعبه الذين كانوا ينفسون عليه عطفه على الأجانب تدرع بالشجاعة والإقدام لمكافحة تلك النزعة فيهم.

ومحمد على سهل الأخلاق يتحرى البساطة - كما قلت - داخل بيته فتراه فيه يقطع فراغ وقته بلعب الشطرنج أو الدامة، وهما اللعبتان اللتان برع فيهما وفاق على النظراء والمنافسين.. وكثيرا ما كان يلعب متواضعا مع الضباط ذوي الرتب الصغيرة وأحيانا مع الجنود. ولقد فزت بشرف اللعب معه بلعبة الورق. فما وجدت منه إلا الإيناس والعطف والمجاملة. ومن أحب الملاهى إليه ركوب الخيل. فإذا ركبها أحسن الاستواء عليها وأظهر الخفة والرشاقة في الركض بها.

ولم أطرق حتى الآن باب الكلام على مزايا محمد على وفضائله في الحروب. والذي أجمله في هذا الموضوع إن في تاريخ حياته الذى علمنا منه كيف خرج من صفوف الجيش ووصل ببسالته وفضله واستحقاقه إلى أسنى المراتب وأعلاها ما يغنينى عن الإفاضة فيه. على أنه في وسعى أن أثبت هنا أن من أبلغ تلك الفضائل التى تحلى بها وفاق على عظماء الرجال البسالة التى كثيرا ما كانت تدفع به إلى الاستهتار بالنفس في اقتحام الأخطار سواء في ميادين الحروب أو في أحوال المعيشة اليومية.

وغنى عن الذكر جهله معنى الخوف. فإنه في بدء حياته العملية كثيرا ما اقتحم الأهوال وغامر بحياته، ولقد شهدته العام الأخير متأهبا، مع تقدمه في السن، للرحلة إلى جهة فازوغلى بالسودان - أى لقطع مسافة لاتقل عن ستمائة فرسخ بينها وعاصمته متخللا شعاب النيل التى أرتطمت بها سفينته فألقى بنفسه في الماء وسبح فيه حتى إذا بلغ إلى البر سالما امتطى إحدى النياق وقطع بها أجواز الفلوات تحف به الأخطار والمصاعب الكبار من كل جانب.

ومما أكبر شأن محمد على ورفع مكانته الأزمة السياسية الحالية التى لفتت نظر أوروبا إلى الشرق فإنه لم يمر وقت من حياة هذا البطل حفت به فيه أشباه هذه الحوادث الخطيرة. ولا ريب أن نفوذه الذى أخذ يمتد أفقه شيئا فشيئا قد ترامى إلى الأطراف البعيدة بحيث شمل الأقطار الأوروبية بأسرها فهو الآن كالرومانى في أيام شوكة رومية يحمل الحرب أو السلم في إحدى ثنيات ثوبه، فيه الآن قد نيط التوازن الدولى بالبلاد الأوربية. ولقد تمكن من خلال هذه الحوادث الجليلة من أن يرفع نفسه - بحذقه العمل وحسن تدبيره وكرم تسامحه واعتداله - إلى مستوى فحول رجال أوروبا وأوسعهم خبرة وأشدهم عارضة. ولقد أقام الدليل - بما امتاز به كل سياسى صحيح الرأى في العهد الذى نعيش فيه الآن - والذي خففت فيه رايات السلام من العقل والرصانة. على أن صدق رويته وبعد نظره في العواقب لم يكونا في شىء من الحياء والاستكانة، وإنه بما وهب من سعة الحيلة قد أيد بثاقب فكره المستمد من حسن فطرته ذلك المثل القديم الذى جاء فيه «إن ترد السلم فتجهز للحرب» فهو وحده يرسل نظره القصى فيدرك به مغبات الأمور وهو وحده

الذى إذا عنت حاجة أنبرى لقضائها. ولا يخطرن ببال أنه يجد في أحد وزرائه عضداً أو سنداً. نعم إن جملة منهم لا يختلف اثنان في كفاءتهم وقدرتهم على إمداده بالنصائح الرشيدة والمنشورات الصائبة ولكنهم إذا رأوا أنفسهم في موقف محفوف بمثل الصعوبات والمشاكل الحافة بالموقف الحاضر لا يجرون على تحمل مسئولية رأى قاطع أو الإقرار على عمل جازم. فمحمد على لا يجد خير العون والوزر إلا في نفسه، ولا يتلقى الوحي إلا من حدة ذكائه وطيب سريره.

ولسنا بمبالغين إذا أكدنا أن محمد على من فحول الرجال وأنه أكبر من أنجبهم الشرق وامتازوا بالعبقريّة العالية.

إبراهيم باشا

إبراهيم، باشا هو بكر أبناء محمد على. فمن الافتراء المحض ما أشيع من أنه ابنه من طريق التبني. وكان ميلاده ببلدة قوله في سنة ١٧٨٩ أى بعد زواج والده من والدته بعامين.

فإبراهيم باشا يناهز من العمر الآن الحادية والخمسين وهو ربيع القامة طول قامته خمسة أقدام وبوصتان. متين البنية. جيد الفصوص. شيبته قبل الآوان متاعب الحروب ومشاقها بعد أن كان شعر رأسه ولحيته أشقر جمرى ، مستطيل الوجه طويل الأنف مستدق أزرق العينين في وجهه أثر الجدرى.

مزاجه دموى صفراوى، ومن ثم جاء ميله إلى الجد بالرغم من تفرغه في بعض الأحيان إلى شىء من المطايبه وحب الضحك. جهورى الصوت لم تتوافر فيه لهذا السبب ماتوافر في والده من السماحة والهشاشة حتى أنه إذا أقبل عليه أحد شعر بما يسقطه في نفسه ولو لم يلق في استقباله شيئاً من الجفوة والصلابة والمكره.

تلقى إبراهيم التربية التى كانت تعطى في زمنه إلى الأمراء من أبناء المشرق. فهو ملم باللغات التركية والفارسية والعربية يتكلم ويقرأ ويكتب بها من غير عناء. دح إحاطته بتاريخ أم المشرق واضطلاعه به الاضطلاع التام.

وما ناهز السادسة عشرة من عمره حتى عهدت إليه قيادة الجنود وإدارة بعض الأقاليم. فإذا زج - وهو في مقتبل العمر - إلى ميدان العمل فمن السهل

الحكم بأن مزاولة الأعمال الحربية والإدارية كانت عنده من الأمور المألوفة وأنه بما اكتسبه من الخبرة قد أحاط بتفاصيل أعمال الحكومة في مصر وعنت له فيها آراء كثيرة تنطبق على الحقيقة والعمل.

وفي سنة ١٨١٦ سلم إليه زمام الحملة على الوهابيين فقام بها قياما حسنا بانتصاراته المتعاقبة عليهم. وقد قوبل بالقاهرة في عودته بما يقابل به الظافرون والقاتحون. ولما شرع والده في إدخال النظام الأوربي على الجيش كان هو أول المقبلين على تعلم قواعده والعمل بمقتضياته. فكان يحضر التمرينات والمناورات العسكرية التي أكسبته من البراعة ما جعله جديرا بتقلد القيادة العليا للجيش، وقد أحاطه علمه بكل شيء من ذلك لافرق بين أصغر الجزئيات وتحريك السلاح وحركات الجيش الشديدة الصعوبة.

وكان حينما عين قائدا عاما للحملة ضد بلاد موره قد برع في ذلك براعة تامة. وفي خلال هذه الحملة أضلت الصحف سواء السبيل في الحكم عليه وإبداء آرائها بشأنه لغيرته الدافقة على قضية تحرير الأمة اليونانية فإنها مثلته لقراءها في جلد الضواري المفترسة السافكة الدماء. مع أنه يصعب جداً إيراد حادث واحد حقيقى يمكن الاستناد عليه في توجيه التهمة إليه بارتكاب الشدة والقسوة ضد أحد. ثم إن الميل إلى الفضائح لا يتفق أبداً مع ماعرف عن إبراهيم باشا من البسالة المقرونة بالتؤدة والكرم.

ولقد كانت حملة موره له بمثابة مدرسة تلقى فيها الدروس النافعة. فإنه زج بها في أحرج المراكز. ولما كان النصر في المعارك السالفة حليفاً له على الدوام، وكان يعتقد أنه القابض على ناصية الفوز يتصرف فيه كيف يشاء فقد تولد في نفسه لهذه الأسباب شيء من الصلف والخيلاء لم يلبث أن تلاشى بتأثير تلك الدروس التي زادت حنكة وتجربة بتصويره الحرب لناظره في أوضاع وأشكال لم تكن معلومة له من قبل. ولقد سره كل السرور ما شاهده من الجنود الفرنسية إذ قد أتاحت له الفرصة التعرف بالجنرال (ميزون) والجنرال (سبسيانى) وكثيرين من الضباط الفرنسيين الذين أيقنوا عقب الاختلاط به بكفاءته العالية ودرأيته بالشئون العسكرية على أنه أستفاد الفوائد الجليلة مما لقيه في طريقه من المعائر والعقبات. وكان الاعتقاد الشائع في الشرق وقتئذ أن فرسان الأتراك أحكم نظاما وأرفع شأنًا من فرسان

الأوربيين. فما عثم إبراهيم أن تحقق بنفسه فساد هذا الرأي، واعتقد أن الفرسان إذا نزلوا في ميادين القتال صفوفًا وألقوا من صفوفهم فرقا زحفوا للقتال جماعات متكاثفة بمقتضى تدبير حربى دقيق فإنهم يحصلون في تلك الميادين على نفس المزايا والفوائد التى يحصل عليها المشاة العاملون بمقتضى الحركات المبنية على العلم والدقة. لهذا لم يلبث عقب عودته إلى مصر أن صرف همه إلى تنظيم الفرسان ورغب في أن تكون تحت يده الأسلحة الأساسية فكانت نتيجة عمله تشكيل فرق المشاة والرمحية وفرسان الدراغون والفرسان المدرعين.

وبعد عودته من اليونان بقليل بدأت الحملة على سوريا وغنى عن البيان أن فتحه لهذه البلاد وانتصاراته التى فاز بها لما يرفع شأنه ويؤيد ما اشتهر عنه من البسالة وسعة المعلومات العسكرية.

ولما أتم الفتى بالسلاح بدأ بفتح آخر لم يكن بأقل من الأول سهولة ولا ادعى إلى الشرف والفخر. وأريد به تنظيم البلاد المفتوحة. فإنه لكى يصل إلى هذا الغرض قرر القيام بأعمال ذات مساس بالسياسة العالية إذ وجد أنظمة الحكومة وراعى أصول المركزية لإدارتها فتتقت = فتخلصت = بذلك من صغار الزعماء والرؤساء الالتزاميين الذين كانوا يسيرون بين الناس بالجور ويذكون، في تلك الولاية الواسعة الكثيرة الخير والبركة نار الاحتلال والفوضى. وجرد جميع القبائل من السلاح عندما أيقن أنهم لا يستخدمون سلاحهم هذا إلا في قتل بعضهم بعضا وتهديد الأمن والنظام العموميين. فبهذه الأعمال وبما قرن تنفيذها به من الحزم والثبات نشر ألوية الأمن على ربوع الشام بعد أن حرم منه أهله أحقابا طويلة فبفضل محمد على وثبات حكومته تمتعت بهذه النعمة جميع البلدان التى مد عليها رواق حكمه.

ولقد عرض لإبراهيم باشا أن يجمع في بلاد الشام جملة من الفتن والثورات، ولاسيما ماشب ضرامه منها بمدينة نابلس وجبل الدروز. وكانت فتنة هؤلاء على أشد ما تكون من الهولة والفداحة، وشهدنا بالعيان قمعها فاستطعنا أن نرى عن كثب ما أيد حسن ظننا في إبراهيم ورفقه بالمغلوبين. وليس في وسع أحد أن ينحى عليه باللوم بحجة أنه ارتكب أمرا يخالف مقتضيات الإنسانية فإنه لم يعمل قط ما يستهدفه اللوم اللائمين.

وكان جم الرحمة بالرغم مما أذاعه المفترون والقائلون عنه ووجهوه إليه من تهم دل على فسادها أن أربابها لم يجسروا على الإعلان عن أنفسهم. فإنه غير خفى ولا بمكنون اهتمامه المتواصل بإنشاء المستشفيات وغيرها من المعاهد المقصود بها محض البر والإحسان. ومن فضائله التى عرف بها تعلقه بمن يأنس فيهم الخير من الناس وصدق وفائه فى مودته إلى الحد الذى تسقط معه الكلفة، وبغضه الشديد لمن يتقرب إليه من حاشيته بالتملق والمداهنة. وإذا أطريت صفة من صفاته النفيسة فإنما أطرى ما عهدته فيه بنفسى من الدأب الغريب على العمل وحدة الذهن والشغف المطلق بالترتيب والاقتصاد والنظام. وإنك تراه لما عالجه من صنوف المتاعب وعاناه من أنواع المشاق لا يحفل بوسائل الوقاية لنفسه أو العناية بها حتى استمكنت منه الآلام الروماتيزمية بمعيشته كعميشة الجندي البسيط فى المعسكر ونومه على الأرض بالرغم من الصقيع والمطر والبرد. وما من جندي فى جيشه إلا وهو يحبه حبا مفرطا ويخلص له حتى لكأنه يؤثر فى عساكره تأثيرا يجذبهم إليه بقوة سحرية لادافع لها.

وفيما عدا تلك الصفات العسكرية امتاز إبراهيم بفضيلة لا يستهان بها فى أمير سيقبض يوما على صولجان الحكومة المصرية ألا وهو حبه للزراعة . فإنه ما التمس الراحة من فراغ وقته أثناء الحروب التى عهدت إليه قيادة الجيوش فيها حتى كان همه الوحيد الاشتغال بالزراعة دون غيرها وتشجيعه من يهتمون بشأنها.

وأخر واقعة فاز إبراهيم فيها بالنصر المبين كانت واقعة نصيبين. وقد استقرت بهذه المعركة الولاية العامة على مصر والشام لمحمد على وذريته من بعده، ومما لاريب فيه أن إبراهيم سيقوم بأعبائها خير قيام متى دعاه الحظ أن يخلف فيها والده العظيم.

أمراء الأسرة المحمدية العلوية

إن ثانى أبناء محمد على هو طوسون باشا المولود فى (قوله). اشتهر هذا الأمير بالكرم والبذل اللذين ذهب فيهما مذهب الإسراف. والكرم عند الشرقيين من الفضائل الرئيسية، فليس بغريب أن يكون طوسون باشا محبوبا عند الناس . ولقد توفى عن ابن له هو عباس باشا المولود فى سنة ١٨١٣ وهو الآن

حاكم القاهرة ومحاظها.

ورزق محمد على وهو في (قوله) من زوجته والدته إبراهيم وطوسون ابنا ثالثا هو اسماعيل باشا الذي مات في حرب (سنار) بلا عقب، ورزق منها أيضا ابنة تبلغ من العمر الآن أربعين سنة يقال إنها تشبه والدها كثيرا في صفاته الجثمانية والنفسية، وهي الآن أرملة عن زوجها محمد الدفتردار بك. وكانت كثيرة التعلق به فلم تتزوج بعد وفاته تكريما لذكراه وإعرابا عن أسفها لفراقه. وهي تقضى الآن حياتها في عمل المبرات التي هي أجمل حلية للنساء وتستميل الناس إلى محبتها بفيض إحساناتها وعميم خيراتها.

ورزق محمد على في مصر عددا كبيرا من الأبناء أكبر من بقى منهم على قيد الحياة سعادة سعيد بك المولود في سنة ١٨٢٢. وقد امتاز هذا الأمير بمحاسن الخصال وكرائم الشيم وهو جميل الخلقة لولا أن في عينيه آثارا من مرض أصابهما شائع في مصر بين الأطفال. وقد اعتنى بتربيته والده على أقوم المبادئ وتنشئته التنشئة الحسنة فإنه بعد أن تلقى اللغات الشرقية تفرغ لدراسة الرياضيات والرسم والسباحة، وتعلم كل ما يطلب تعلمه من ضباط البحرية.

وقد تدرج في مراقى هذا السلاح بعد الامتحان والاختبار. يجيد التكلم بلغتنا = بالفرنسية = كما يجيدها أحد أبنائنا ويبدو منه كثيرا ما هو معروف عن شمائل الفرنسيين، والمنظور له أن يكون في يوم ما على رأس البحرية المصرية كوزير لها أو قائد عام لأسطولها (أمير البحر).

أما الباقيون من أبناء محمد على فهم بنت ولدت في سنة ١٨٢٠ وحسين بك المولود في سنة ١٨٢٥ وحليم بك المولود في سنة ١٨٢٦ ومحمد على بك المولود في سنة ١٨٢٣.

وهؤلاء الأمراء جميعا على شيء كثير من حسن الخلقة وجمال الصورة واتقاد الذهن وحدة الذكاء. وليس من المستطاع لأحد غيرى — بالنظر لمخالطتى إياهم الزمن الطويل واختبارى أخلاقهم — الحكم على ماتوافر فيهم من حلاوة الشمائل ورقة العواطف ومحامد الخصال التي يتحل بها الأطفال.

ولإبراهيم باشا ثلاثة أبناء البكرى منهم أحمد بك المولود في سنة ١٨٢٥

وهو شديد الشبه بوالده ولكنه سيكون أقل منه بدانة جسم. وقد تعلم تعلما راقيا متينا وفيه من سلامة الذوق وصواب الرأي ما لا يتوافر عادة في أمثاله سنا ، وقد عنى إبراهيم باشا بتنشئته حتى أنه كثيرا ما كان يصطحبه في رحلاته، ومن أبنائه الآخرين إسماعيل بك المولود سنة ١٨٣٠ ومصطفى بك المولود سنة ١٨٣٢ وهما طفلان تبدو عليهما مخايل الذكاء والنجابة على أن صغر سنهما يحول دون النطق بحكم صحيح في شأنهما.

أما عباس باشا بن طوسون وهو الذى سبقت الإشارة إليه الآن فقد أخذ عن والده كثيرا من طرائقه وخلاله، وهو شديد الشبه به وقد مزج هذا الأمير منذ نعومة أظفاره بالأعمال العامة. إذ عين مفتشا عاما لأحد الأقاليم. أما الوظيفة التى يشغلها الآن وهى محافظ القاهرة فمن أهم الوظائف وأعلى المساند العظيمة، وهو يقوم بأعبائها على ما يستوجب الارتياح من تصرفاته. ومن الخطأ قول القائلين أنه يخاصم إبراهيم باشا على مسألة الوراثة فى دست الملك، إذ المعلوم بعكس تلك التخرصات أنه شديد التعلق بعمه هذا الذى لا يتوقع أحد أن يناقسه مناقس بطريقة جدية على تولى الأحكام واستلام زمام الأمور فى مصر فإن حق الولادة يؤهله بالطبيعة لذلك. فضلا عن أن الجيش والرأى العام بقوته العظيمة وصيته الذائع وسيرته الطيبة بانتصاراته المتتابعة لمن خير الذرائع وأشدّها فعلا لإسناد ذلك المنصب إليه.

وإنى لاقتصر فى الختام على المرور ببقية أعضاء الأسرة المحمدية العلوية العديدين مرا سريعا إذ لا يتوقع أن يكون لهم نصيب فى استلام مقاليد الحكم وهم جميعا أبناء أخ محمد على مثل أحمد باشا حاكم مكة البالغ من العمر أربعين عاما وإبراهيم باشا من قواد الجيش وإسماعيل باشا حاكم حلب البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، وحسين بك البالغ اثنتين وأربعين سنة وهو لا يقوم بوظيفة ما وهناك إثنان من أبناء إخوته لا يزالان فى غضارة الشباب ومقتبل العمر.

لمحة طبيعية
الوضع والشكل والحدود
والأقسام الجغرافية

١- الوضع والشكل والحدود

أول ما يتبادر إلى الذهن عند إلقاء النظر على أحد المصورات الجغرافية العادية لمصر أن ما يطلق عليه هذا الاسم يشمل كل القسم الشمالى من أفريقية بين الشلال الأول للنيل جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا وصحراء ليبية غربا والبحر الأحمر شرقا. وهذا وهم فاسد. لأن مصر لم تكن فى الواقع سوى الوادى الضيق الذى ينزل النيل منه منزلة الشريان من أحد أعضاء الجسم. فإنها تتبع تعرجات هذا النهر وتنفسح انفساحا يتمادى فى الانفراج بعد تفرع النهر ويظل كذلك إلى أن تختلط مياه فرعية بمياه البحر المالح.

تلك هى حدود مصر الصحيحة، وهى تنحصر فيما بين الدرجتين ٢٤ و ٣٢ من العرض الشمالى ودرجتى ٢٨ و ٣١ من الطول الشرقى ويحدها جنوبا بلاد النوبة - التى يفصلها عنها الشلال الأول وشمالا البحر الأبيض المتوسط الذى تصافيه سواحلها على مدى سبعين فرسخا تبتدىء من (تابوزيرس) «برج العرب» إلى النهاية الشرقية من بحيرة المنزلة حيث أطلال (الفرمة).

وبعض الجغرافيين يزجون بحدود مصر إلى أبعد من هذه الجهة بعشرين فرسخا - أى إلى العريش ثم إلى سلسلة جبال ليبية فى الغرب وسلسلة جبال العرب فى الشرقى السلسلتين. وفيما بين هاتين حيث تكفان عن التوازى بانصراف أحدهما إلى الشمال الشرق وتنحصر مصر فى امتدادها الطويل كله حتى القاهرة والأخرى إلى الشمال الغربى فالتى إلى الشمال الغربى تنتهى إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والتى إلى الشمال الشرقى تندمج بجبال بلاد العرب ثم بسلسلة الجبال السورية.

٢- الأقسام الجغرافية

اشتهرت الديار المصرية عند الشرقيين باسم مصر، واستمد اليونان اسمها من كلمة كانت تطلق في غابر الأزمان على النيل. وقد أصابوا في هذا الاختيار لأن مصر لم تكن في الواقع إلا مجرى هذا النهر الذى يخرقها بعد أن أوجدها من العدم.

وجزء وادى النيل الذى تتكون منه مصر يبلغ طول امتداده أكثر من مائتى فرسخ. وقد اتفق الجغرافيون على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: أعلى وأوسط وأدنى. فالأعلى ويسمى الصعيد والأوسط ويسمى مصر الوسطانية هما أراضى شفتى = ضفتى = النهر التى تحف بها من الجانبين سلسلتا الجبال اللتان سبق الكلام عليهما، وتبتدىء مصر العليا عند الشلال الأول وتنتهى مصر الوسطانية عند القاهرة. وهما تؤلفان بتعاقبهما واتصالهما شريطاً متعرجاً يختلف عرضه بين فرسخ واحد وأربعة فراسخ إلا فى الجزء الأوسط فإنه يتعلق به جزء آخر من الأرض اهليلجى الشكل قابل للزراعة ومنحصر فى سلسلة جبال ليبية وهو الذى يتكون منه إقليم الفيوم المعروف الغنى بزروعاته. أما مصر السفلى التى سماها العرب بالبحيرة أو الوجه البحرى فعبارة عن سهل منبسط مثلث الشكل رأسه دُوَيْن القاهرة عند الجهة المعروفة ببطن البقرة أى المكان الذى يتفرع ماء النيل فيه إلى فرعين، وإحدى زاويتي قاعدته عند برزخ السويس والأخرى عند برج العرب وضلعاه محدودان شرقاً وغرباً بالصحراء، ويمتدان بمؤازرة فرعى النيل اللذين تتكون بينهما تلك المنطقة التى طبقت شهرة خصوبتها الخافقين وسماها اليونان بسبب شكلها الدالى باسم الدلتا.

٣- المسطح

يقدر المسطح القطر المصرى بنحو ألف وستمائة فرسخ مربع منها مائتان وخمسة وأربعون فرسخاً فى مصر العليا ومائتان وخمسة وخمسون فى مصر الوسطى والبقية فى مصر السفلى. والمسطح الكلى ينقسم بالتفصيل على المثال الآتى:

أرض قابلة للزراعة	١٠٠ فرسخ مربع
أرض غير قابلة للزراعة أو غير مزروعة	٢٠٠ فرسخ مربع
النهر والترع	٣٦٧ فرسخا مربعا
الأراضي الرملية	٦٨ فرسخا مربعا
الجزر الموجودة في النهر	١١ فرسخا مربعا

(٢)

شكل الأرض وتكوينها الجيولوجي

الأرض القابلة للزراعة - شكلها - التكوين الجيولوجي للأرض القابلة للزراعة - الطمي - أشكال الأرض القابلة للزراعة - الجبال - شكلها وارتفاعها وانحدارها العام - تكوينها الجيولوجي - الصحارى - تكوينها - الواحات - شكل الصحراء.

٤ - الأرض القابلة للزراعة وشكلها

لم تكن مصر الأصلية إلا ذلك الوادى الذى يخترقه النيل كما أسلفنا في ملاحظتنا السابقة ولكنها ذات صفات خاصة تميزها عن الأودية المعتادة.. فإن الأودية التى تجرى في وسطها الأنهار الكبرى ممهدة تلتمس المياه فيه مجرى تنحدر عليه إلى الأمام ولكن الحالة في مصر من هذا الوجه على النقيض من ذلك فإن شواطئها أكثر ارتفاعا من بقية الأرض التى تنحدر منها انحدارا يزداد كلما ابتعدت عن مجرى النيل فنتج من تكون الأرض على هذا الشكل أن ماء النهر إذا ارتفع فوق ضفتيه طغى على الأراضي الممتدة منهما وانتشر فيهما وربما غمر المنطقة المزروعة.

٥ - تكوين الأراضي القابلة للزراعة

إنه لانحدار أرض القطر المصرى انحدارا خفيفا نحو الشمال تندفع مياه النيل في مجراه حاملة معها عناصر الطمي الذى جعل المصريين يروون للرحالين اليونانيين أن مصر كانت في عهد (مينيس) وهو الملك الأول من ملوكها حتى بحيرة (موريس) عبارة عن مستنقع كبير جداً. وقد ثبت بالعلم

الصحيح ما يؤيد هذه الرواية. لأن الأراضي القابلة للزراعة في مصر تكونت برسوب طمي النيل وتراكمه بعضه على بعض بتوالي الأعوام.

وما الطبقات السفلى منها إلا حيوانات بحرية متحجرة وأحجار خفاقة وحصى مستديرة وحمم وصخور بركانية متكاثفة وأحجار يشبية ومواد بركانية أخرى كانت على الراجح تغطي مياه البحر زمنا ثم أخذت تسوقها المواد الطينية الواردة مع مياه النيل شيئا فشيئا.

على أن توارد هذه الرواسب النيلية وانتشارها أمران تؤيدهما الحقائق العلمية المتفق على صحتها. ومن الأمثال في هذا الموضوع أن مدينتي رشيد ودمياط كانتا في عصور غير بعيدة مغمورتين بمياه البحر الأبيض المتوسط فأصبحتا الآن مفصولتين عنه ببضعة فراسخ وكذا فإن الأراضي أكثر ارتفاعا عند ضفتي النهر منها عند سفوح الجبال. وما ذلك إلا لأن مياه الفيضان بتعاقبها على مر الأعوام تترك من المواد الرسوبية في الجهات المجاورة للنهر أكثر مما تترك في الأماكن البعيدة منه. ومما يؤيد صحة هذا الحادث الجيولوجي ببرهان أسطع وخجة أقطع انطمار أساس المباني القديمة حتى أصبحت الآن مغطاة بالأراضي الزراعية. ومع أنه من المتعذر تحديد نسبة النمو التدريجي الدوري لارتفاع الأرض بطريقة مؤكدة فقد أدت الأبحاث الدقيقة للعلماء الجيولوجيين في الحملة الفرنسية إلى تقدير تلك النسبة بأنها - على وجه التقريب - مائة وستة وعشرون ملليمترًا في كل قرن من الزمان.

ثم أن طبقات الأرض الزراعية لم تكن متساوية الأعماق في كل الجهات لأن زيغ النيل زيغاً مستمرا عن مجراه وسرعة سيلان مياهه فيه من البواعث الحقيقية لذلك فحيث تجرى هذه المياه بسرعة عظيمة تندفع المواد الطينية معها ولا تجد من الوقت ما يكفي لرسوبها في مكانها وحيث تركد يكون رسوبها عظيما.

٦- طمي النيل

الطمي الصرف الذي تتكون منه الأرض الزراعية في مصر يتألف بحسب التحليل الذي قامت به اللجنة الفرنسية مما يأتي:

أولاً: الألومين الذى يدخل فيه بنسبة ثلاثة أخماس.

ثانياً: كربونات الجير بنسبة تزيد فيه على الخمس قليلاً.

ثالثاً: كربونات الجير بنسبة العشر.

رابعاً: خمسة أجزاء الى ستة فى المائة من أوكسيد الحديد الذى يكسب الماء لونه الأحمر المعروف أيام الفيضان.

خامساً: جزءان إلى ثلاثة أجزاء فى المائة من كوبات المانيزيا.

سادساً: بعض ذرات حجرية متناهية فى الصغر والانقسام الى حد أنها تبقى معلقة فى الماء.

ومما يجىء به النيل أثناء الفيضان مقدار عظيم من الرمال القاقية (من ملح القاق أو دب الملح المسمى عند الإفرنج بالكوارتز) فالغليظ منها يهبط إلى قاع النهر فيسبب ارتفاعه وغير الغليظ ينتشر بغير انتظام على الأراضى المجاورة ومايتبقى بعد هذا وذاك يندفع بقوة جريان الماء إلى البحر فيساعد بتراكمه وتراكبه بعضه على بعض على امتداد الدلتا وتقدمها شيئاً فشيئاً فى البحر الملح.

٧- أشكال الأرض الزراعية

الأرض الزراعية فى مصر يتغير شكلها تغيراً دورياً محسوساً فى كل سنة ولقد وصف عمرو بن العاص فاتح مصر هذا التغير وصفاً دقيقاً فى كتاب كتبه إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين حيث قال:

«مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر. يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر. له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها. حتى إذا عجز عجاجه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب. فإذا تكاملت تلك كذلك نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته.

فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابييه. يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرق سقاه من فوقه الندى وغذاه

من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه. فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء».

وفى الواقع فإننا نرى الأرض فى بادئ الأمر ولا شية = علامة = فيها من الزرع إلا ما كان من جهات متفرقة هنا وهناك تروى بالحيلة بل قد صارت ماحلة قاحلة = جرداء = وتشققت أخاديد يختلف عرض كل أخدود منها من ستة إبهامات إلى قدم وعمقه من خمسة أقدام إلى ستة وتجف شيئاً فشيئاً بحيث يصعب على الناظر أن يقتنع بأن الثمار اليانعة والمحصولات الوفيرة. ذلك هو أول طور من هذا الجفاف يعقب فى كل سنة تلك المزروعات السندسية ذات الأطوار التى تتقلب فيها أرض الزراعة فى مصر.

أما الطور الثانى فهو طور الفيضان الذى يجعل الوادى كله بمثابة بحيرة جسيمة قد انتشرت على سطحها القرى والأكام والأشجار حتى يخيّل للرأى أنها أرخبيل انثرت جزره فى البحر انتثاراً يقضى بالعجب.

أما الدور الثالث فأقصر من الدورين السابقين لأن الماء لا ينحسر فيه عن وجه الأرض حتى تمتص حرارة الشمس ماتشبع به بطنها من الرطوبة فيسارع الفلاح إلى انتشرت البذور عليها وتعليل النفس بعد ذلك بمحصول وافر فى الموسم المقبل.

أما الدور الرابع فيتبع الأدوار السابقة بغثة بحيث لا يكاد يشعر المرء بوقوفه، ذلك هو دور الإنبات الذى يكسو وجه القطر بحلة من سندس أخضر.

وأما الدور الخامس وهو الأخير فهو تحمل النباتات بالأزهار وامتلاء الحقول بالسنابل وهذه التغيرات والأدوار لا تقع فى وقت واحد بكل جهات القطر على السواء. فلإن الجهات الأكثر قرباً من المدار هى أسرعها إلى إهداء تلك المناظر لأعين الناظرين.

٨- الجبال وأشكالها

يبدو للمتأمل أول وهلة أن الطبيعة وضعت الجبال حفاقي القطر المصرى لوقايتها من رمال الصحراء وهى قاحلة ماحلة جرداء. إذ لاسبيل لمياه النيل

المخضبة إليها. كما أنه من النادر أن ترويه مياه الأمطار. على أن الأمطار إذا نزلت مرة فإنها لا تكفى للإنبات، وتلك الجبال تبدو للناظر من جانبي النهر متصلة الأجزاء وتزيد في عرضها كثيرا على ارتفاعها والتي منها إلى شرق النيل أقرب إليه من التي إلى غربه بل كثيرا ما يتكون منها الشاطئ. أما الجبال الغربية المعروفة بسلسلة جبال ليبية فأكثر بعدا من ضفة النهر بل تكون من البعد أحيانا بحيث تغيب عن نظر الناظر الواقف على ضفة النيل. والجبال الأولى — أى التى إلى الشرق تطل برؤوسها على النيل بينما ترى الجزء الأوسط منها عموديا والجزء الذى عند القاعدة متراجعا إلى الوراء بشكل قوس مقعر وترى في إتجاهها الطولى آثار خطوط يخيل للرأى معها أول وهلة أنها رسمت أو حفرت في أزمان سابقة بقوة التيارات المائية التى يكون ذلك التقتعر والحالة هذه نتيجة من نتائجها.

٩ - ارتفاعها وانحدارها العام

يبلغ ارتفاع سلسلة الجبال العربية في الجهة التى يتكون فيها جبل المقطم مائتى متر تقريبا . ولكن ارتفاعها يزداد بالتدريج كلما تقدمت إلى الجنوب . ففي إقليم أسيوط مثلا، وهذا الإقليم على مسافة ستين فرسخا من القاهرة، يبلغ أربعة الأخماس من أعظم ارتفاع لها وهو ستمائة إلى سبعمائة متر. وهى تبلغ هذا الحد الأقصى من الارتفاع فيما يلى مدينة طيبة (الأقصر) بقليل وتستمر مرتفعة بقدره الى أمد ثم تنحدر بالتوالى حتى الشلال الأول حيث تصير عبارة عن أكام صغيرة تعود بعد مسافة طويلة إلى ماكانت عليه من الارتفاع في مصر الوسطى.

والمسلم به بوجه عام أن سلسلة جبال ليبية أخفض ارتفاعا من سلسلة الجبال العربية، وإنما يمكن التأكيد بأنها تعادلها في متوسط ارتفاعها، والذي جعل الناس يذهبون إلى الحكم بانخفاضها تأثير المنظر فقط فإنها لفرط بعدها عن النيل يخيل للرأى أنها أبخرة متكاثفة لا تميزها العين المجردة وأنها لأفق مصر من ناحية الغرب كأحد جوانب الإطار الذى يحيط بالصورة.

أما الجبال التى تتجه من شرق المقطم نحو البحر الأحمر وبرزخ السويس فتذهب على الدوام صاعدة مرتفعة. وهذا بخلاف مايشاهد في سلسلة الجبال

الليبية فإنها تذهب منحدره بلا انقطاع من موقعها تجاه القاهرة. فمن هذه البيانات يستطيع القارئ أن يتخيل ما هو الانحدار العام للجبال التي شق في وسطها وادى النيل ويعلم أنه عبارة عن ميلين يتجه أحدهما من الجنوب إلى الشمال تبعا لمجرى النهر والآخر من الشرق إلى الغرب وبامتزاجهما ببعضهما ينشأ الميل الأكبر الذى يتجه خطه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ثم ينعطف قليلا نحو الغرب.

١٠- التكوين الجيولوجى

المحتمل أن شلالات النيل لم تكن إلا الدرجات الأخيرة لانحدار السلسلة الجبلية الأولى التى انساق النهر فيها ولاختراقها وجعلت مجراه متعرجا بما ينطبق على اتجاه السلسلة الأولى نفسها وهذه السلسلة التى يمكن اعتبارها ممتدة من الشلال الأول فى اتجاه الخليج الشرقى للبحر الأحمر تتوافر فيها صفات الأرض الناشئة عن التكوين الأول فإنك تجد فى شمالها الرخام السماقى وفى الجنوب الصخور الصوانية. أما حجر الشطف فيشغل المواقع التى بين هذين الطرفين وفيما بين الشمال وفى هذه الأجزاء الوسطى توجد صخور مختلفة تتألف بوجه عام من الاسبات الصفيحي.

وتفضى الأرض الأصلية أو الأولى إلى الأرض الثانوية فى اتجاه يوازى على وجه التقريب الاتجاه الذى وصفناه للسلسلة الأصلية وتكوين الأرض فى شمال الخط غربى النهر حتى قرب شواطئ البحر الأبيض المتوسط كتكوين الأرض الثانوية. لأن المادة الحجرية غالبية فيها بما يتخللها من حجر القاق والبودنج اللذين يشاهدان دوما بين الأحجار الثانوية والأحجار الأولية.

وفى تلك الجبال الجانبية الجرداء التى سبق الكلام عليها الآن قطاعات طولية وحلوق تفتح للمسافرين والتجار منافذ الصحراء يصلون منها . إما إلى البحر الأحمر شرقا وإما إلى الواحات غرباً.

١١- الصحارى وتكوينها

تتكون صحارى مصر من الأراضى الرملية القاحلة الممتدة فيما يل سلسلتى الجبال اللتين ذكرناهما قبلا.

ويحتوى وجه الصحارى رمالا غليظة مختلطة بالحصى الرفيع المستدير

والرمل. أما الرمل فيتكون من حبوب قاقية فقط غير مختلطة بمادة أخرى، والظاهر أنها كانت في العصور الماضية مغطاه بالماء. وهى تتجمع في بعض النقاط على شكل كتبان مختلفة الهيئات. والنواة الأولى التى تتراكم الرمال عليها هى النباتات والأجسام الصلبة وأغلب الجبال الصغيرة تتكون على هذا المثال إلا جبالا تغيرت أوضاعها بفعل الرياح التى تدفعها بلا انقطاع فى اتجاه هبوبها. فإذا وجد من الجبال مابقى فى مكانه فإن الأشكال التى تتشكل بها بفعل تيارات الرياح المختلفة تتشابه بحيث لايمكن تمييزها عن القمم المستديرة التى تتألف منها.

١٢-الواحات

الشطر الأعظم من الصحارى فى الدرجة القصوى من القحولة، فإذا وجد بها أثر لنبت فإنما هو أثر الادغال والأعشاب أو مياه الأمطار النادرة وتترك شيئا من الماء فى ثنيات الأرض وينمو فى الأماكن الواطئة التى تجتمع فيها هذه الرطوبة بعض النباتات وتظهر بعض الحشائش والأعشاب ولكن أثر هذه الخضرة لايلبث أن يزول بدنو، الصيف.

وهناك جهات أخرى قليلة العدد أراضيها قابلة للزراعة على مدار السنة بسبب ماتحتويه من الينابيع المائية وتسمى تلك الجهات بالواحات. والواحة كلمة مصرية قديمة معناها المكان أو البيت ولقد شبهوها بالجزر الخصيبة متناثرة فى بحار واسعة من الرمل ، وخمس من تلك الواحات تابعة لمصر وهى كلها فى صحراء ليبيا الأولى. منها الهابط من الجنوب إلى الشمال الواحة الخارجة الموجودة فى منطقة طيبة ويفصلها عن القطر المصرى مسافة أربعين فرسخا وتمتد بمؤازرة = بمحاذاة = النيل على طول خمسة وعشرين فرسخا تقريبا وكان القدماء يسمونها صحراء (مانيا) وعلى مسافة عشرين فرسخا منها توجد الواحة الداخلة التى يقرب طولها من اثنى عشر فرسخا وعرضها من عشرة فراسخ.

وإذا استمر الهابط فى هبوطه إلى البحر الأبيض المتوسط التقى فى طريقه بواحة فرافرة الصغيرة الواقعة على مسافة خمسة وسبعين فرسخا من أرض مصر. فواحة برية (بارفا) على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا من مصر الوسطى ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها خمسة . ثم واحة سيوه

المعروفة في قديم الزمان باسم واحة (زفس آمون) والمشهورة برحلة إسكندر الأكبر إليها لزيارة هيكل هذا المعبود بها. وهى كائنة مع الفيوم على خط واحد من خطوط العرض تقريبا وتفصلها عن مصر مسافة مائتى فرسخ وطولها خمسة فراسخ في عرض أربعة . وتحتوى الواحات بوجه عام أراضى في الغاية القصوى من الخصوبة وفيها يزرع قصب السكر والبن والقرمز والنيلة.

١٣- منظر الصحراء

تحدث الصحراء في نفس من يشهدها أول مرة تأثيرا شديدا ظاهرا فإنها تستفز النفس لتخيل الخواطر السامية والأفكار الكبار. ولا عجب إذا اختار المسيحيون في القرون الأولى، للانقطاع عن الناس وطلب الزهد في الدنيا، تلك الأرجاء البعيدة التي يتيسر للمتعبد فيها أن يكون على اتصال روحانى مع معبوده وأن يتفرغ للتأمل العميق فيما هو منبسط تحت نظره من عظمة الكون الذى لاحد له.

وكل ما ابتكرته قرائح الشعراء وسطرته أقلام الكتاب المفكرين في اتساع الأوقيانوس انفساح أرجائه وتراعى أطرافه الى أبعد مدى ينطبق على الصحراء فإن ما يستشعر به المرء في عزلته وسط الصحراء يسمو على ما يستشعر به منه وهو على متن الماء. لأن المنقطع عن المخلوقات في الصحراء يظل دواما تحت تأثير من السكون الشامل لا يقدر أحد غيره ممن لم يتأثر به أن يوضح ماهيته ويستطلع كنهه، ذلك لأن سكون الصحراء صمت لا يتخلله همس ولا يذهب بجلاله صوت لجأت الماء في الاقيانوس. فإن أول ما يستشعر المرء به وهو في وسط السهول التي لا غاية لأفقها والبيداء التي تشبه بألوانها البيضاء المزدوجة بوهج ذكاء مدى فسيحا من الأرض جاله البرد، إنما هو الشعور بالاستقلال والتمتع بحرية لا يجاريها في بعد المدى غير تلك الآفاق التي لا تدركها الأبصار هناك يتمثل للمفكر حال الإنسان الأول بعد الخليفة فيشعر بأنه مثله سيد الكون وأنه الملك المتسلط عليه، وأنه يستنشق نسيم الصحراء بما لا يحيط به الوصف من السعادة والهناء فتشرح باستنشاقها الصدور التي اعتادت ثقل الجو ورياءة الهواء في الأماكن الآهلة بالسكان.

(٣)

الطقس والآثار الجوية

الفصول - درجة الحرارة - السراب - الرياح - الخماسين - النسيم -
الضباب - السحاب - الندى - النقطة - الرطوبة - العثير - الإعصار -
المطر - الثلج - البرد - الأرصاد الجوية.

١٤- الفصول

لم يكن ابتداء الحر والبرد وغيرهما ومدة بقائها ومواعيد انتهائها في القطر المصرى مماثلة لها في أقاليمنا (الفرنسية) المعتدلة. فإن البرد في مصر يكاد يكون عديم الأثر . خصوصا في الجهات المجاورة للمدار. وليس بين الربيع والخريف فرق لشدة تشابههما . فهما في الحقيقة فصل واحد تبلغ مدته ستة أشهر وإنما ينقسم إلى قسمين بفصل الصيف الذى تتسلط فيه الحرارة الشديدة.

١٥- درجة الحرارة

إن ما يذكر بوجه عام عن الحرارة في مصر مبالغ فيه كثيرا على أن درجة الحرارة في الأقاليم التى يتألف منها هذا القطر لم تكن متماثلة إذ منها ما تزيد هذه الدرجة فيه عليها في جملة من الجهات والأصقاع الأوربية الجنوبية كإسبانيا وإيطاليا مثلاً. وهناك بيان لمتوسط درجة الحرارة في المناطق المختلفة.

في الدلتا، تبلغ درجة الحرارة عادة في ثلاثة أشهر الشتاء من ١٢ إلى ١٤ فوق الصفر ، وفي أشهر الربيع من ١٦ إلى ٢٤ وفي الصيف من ٢٤ إلى ٢٦ وأحيانا إلى ٢٨ و ٢٩ وفي الخريف من ٢٤ إلى ٢٨ فإذا أضفنا درجتين إلى درجة الفصول المتقدمة وقفنا بالتقريب على متوسط درجة الحرارة في مصر الوسطى. ويرى الصاعد في الوجه القبلى أن الحرارة تزداد بالتدرج كلما أوغل فيه صعودا. ففي أسيوط الواقعة في الوسط تقريبا من إقليم الصعيد يرتفع ميزان الحرارة إلى ٢٤ درجة، وفي أسوان وهو الحد بين مصر والنوبة إلى ٢٦ وأحيانا إلى ٣٨.

ومن مميزات درجة الحرارة في القطر المصري الاختلاف الذي تتأثر به أثناء الانتقال من النهار إلى الليل. فإنه لا يوجد بلد على ما أعهد بلغت فيه مفاجأة ذلك الانتقال مثل هذا المبلغ، والسبب في ذلك أن ريح الشمال التي يلطف هبوبها حرارة الجو تلطيفا عظيما تهب عادة عند الغروب فتلطف الجو الذي لا يلبث أن تنحط درجة حرارته إلى أقل مما كانت عليه في النهار بما يتراوح بين ثمانى درجات واثنى عشرة درجة. وإلى هذا السبب يرجع الفضل في أن الإنسان إذا تنفس هواء الليل لا يعترضه ذلك الاختناق الذي يغشاه في غير مصر من البلدان. ثم إن السماء في تلك الليالى تبدو صافية الأديم ساطعة النجوم لصفاء الجو وخلوه من الشوائب فيحلو استنشاق نسيمة المتعش والتمتع بمزاياه التي نظم شعراء الحب فيها قصائد المدح والتمجيد.

١٦- السراب

سبب الظاهرة الغريبة المعروفة بالسراب أن حرارة الجو تؤثر في حدوثه. وبيان هذا التأثير أن الأرض إذا سخنتها الشمس تسخيناً كافياً خلال النهار ظهرت من بعد فرسخ تقريباً كأنها محدودة بما يشبه الفيضان العام. وتبدو القرى الواقعة فيما يلى هذه المسافة كأنها جزر في وسط بحيرة عظيمة يفصلها عن الرائي متسع من الماء صغير أو كبير. وهذا الماء الخيالى يعكس صور المرئيات الواقعة في أفقه كما تعكسها البحيرة الحقيقية. ولكن كلما دنا المرء من إحدى القرى التي تظهر في وسط الماء ابتعدت حافة البحيرة الوهمية وظهر له أن الماء الذي يحول بينه والغرض الذي يسعى إليه يضيق شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ من الضيق قصاره تلاشى بالمرة وتولد في الحال بجهة أخرى بالنسبة لمجموعة جديدة من المساكن بعيدة عن الأولى أو لأى شىء موضوع وضعا بارزاً في المسافة المقصودة. ولم يغب عن الذاكرة ماسببته هذه الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة إذ أصابتهم من العطش بما كاد يؤدى بحياتهم أجمعين.

١٧- الرياح

أفاض (قولنى) في الكلام على الرياح وهبوبها بمصر إفاضة لايسعنى معها إلا إيراد بعض ماقاله في هذا الموضوع: «حينما تقرب الشمس من

مناطقنا تتجه بمصر الرياح التى كانت قى قسم الشرق إلى الشمال وتثبت فيه فإذا كان شهر يونيو هبت باستمرار نحو الشمال والشمال الغربى. وفى يوليو تستمر على الهبوب نحو الشمال باختلاف فى اليمين واليسار بين الشمال الغربى والشمال الشرقى. ومن آخر يوليو حتى أواسط سبتمبر تعود الرياح إلى الشرق وتهب منه بدون أن تستقر فيه أكثر مما تهب فى أى اتجاه آخر إلا الشمال. وكلما مرت الشمس من مدار إلى مدار اشتد اختلاف الرياح واقترن هبوبها بصوت شديد. ويستمر هذا الهبوب من الشمال والشمال الغربى والغرب وتلبث على هذه الحال أشهر ديسمبر ويناير وفبراير التى يتألف منها فى مصر كما فى بلادنا فصل الشتاء وعندئذ تدنوأبخرة البحر الأبيض المتوسط المتراكمة المتناقلة بفعل برودة الهواء من البر فيتكون منها الضباب والمطر.

«وفى أواخر فبراير ومارس - أى عندما تعود الشمس نحو خط الاستواء يكون هبوب الرياح من الجنوب أكثر منه فى أى وقت آخر وفى الشهر الثانى منهما وشهر أبريل تكون الرياح جنوبية بحتة وجنوبية شرقية وجنوبية غربية. وقد تختلط بالرياح الغربية والبحرية والشرقية والأخيرة من هذه تتحكم فى أخريات أبريل. وفى مايو تتسلط مع الريح الشمالية على مملكة البحار».

الخماسين

تهب رياح الخماسين حوالى الاعتدال الربيعى وهى شديدة ويكون هبوبها من الجنوب واسمها مشتق من عدد (خمسين) لأنها تلبث نحو الخمسين يوما وأطلق العرب عليها أيضا اسم السموم.

وأفاض فولنى وغيره من الرحالين فى الكلام عليها بما يغنينى عن الإسهاب فيها وكل ما ذكره بشأنها أن السماء تصطبغ، متى هبت بلون ضارب إلى الحمرة وأن الجو لا يلبث أن يصبح كأنه قد امتلأ بضباب من العثير = التراب الناعم = وأن الحرارة الشديدة تجفف العرق المنفطرز من البشرة وأن ميزان ريومور للحرارة يرتفع أحيانا إلى عشر درجات وأنه يتعذر التنفس على الإنسان حتى يشعر بألم عام فى جسمه وضعف يتناول أعضائه وأن هذه الأعراض كثيرا ما تستتبع الرمد الصديدى والصداع والسكته المخية

والدوستتاريا الحادة.

وبتأثير تلك الرياح المشثومة تزداد أحوال المرضى خطرا وشدة . وإذا كان هناك وباء فاشيا فنسبة الموتى به تزداد إزديادا عظيما . وكثيرا ما تبلغ الخماسين من الشدة والخطر ما يحمل المرء على التصديق بما يروى من إخنائها = فضائها = في الصحراء على قوافل برمتها وجيوش بعددها . وعدتها غير أنه لمن حسن حظ الإنسان أن الخماسين لا تهب بشدة وخطورة إلا خمس مرات أو ستا في الخمسين يوما التي تلبث أثنائها . ونادرا ما تتجاوز مدة هبوبها في كل مرة أربعا وعشرين ساعة أو ثمانى وأربعين . ولقد فوجئت مرارا بهبوب الخماسين فكانت تثير من حولي إعصارا من التراب والحصى لولا الحيلة للفرار منها في الوقت المناسب لألحقت بى الأذى من غير ريب .

والشائع بين الجمهور في مصر أن الخماسين تهب على وتيرة واحدة في اليوم الثانى من عيد الفصح كل عام ، وهو اعتقاد مبنى على الخطأ المحض والظن الفاسد فإن عيد الفصح لا يقع في تاريخ معين من كل سنة . في حين أن للخماسين بداية دورية لاشك فيها ، وهى وإن وقعت في مواعيد متفاوتة قليلا يحوم وقوعها دواما حول موعد الاعتدال الربيعى .

١٩-النسيم

في ليلة اليوم الذى ينتظر فيه هبوب الخماسين يبرح الأهلون من مسلمين ويهود ومسيحيين دائرة المدينة لاستنشاق النسيم في ضاحيتها ، وهم يعتقدون أنهم يتقون بهذه الوسيلة شرور الرياح الخماسينية التى تهب من الجنوب .

٢٠-الضباب

يتكون الضباب في فصل الشتاء وفي أوقات نادرة غير معينة ، ويبلغ من الكثافة أحيانا مبلغا يتعذر معه تمييز الأشياء على بعد بضع خطوات . ويخيل للمرء في هذه الحالة أنه أصبح تحت سماء باريس أو لندرة ذات الضباب . إلا أن هذه الظاهرة الجوية قليلة المكث قصيرة العمر لتحل الضباب سريعا بتأثير حرارة الشمس الشديدة في مصر .

٢١-السحب

وفى ذلك الفصل تتلبد السماء بالسحب التى لاتلبث أن تتبدد وتختفى غالباً قبيل الفجر. وهى تمر عادة من الشمال إلى الجنوب ويتقدم ظهورها أحياناً البرق والرعد اللذين كثيراً ما ينزعج المصرى منهما لما وقر فى نفسه من سوء الاعتقاد فيها، ويحدث أحياناً أن يعترى الأجنبى مثل هذا الانفعال برغم إرادته فيحن إلى وطنه ويأسف عليه.

٢٢- الندى

نادراً ما يتساقط الندى فى الشتاء ولكنه يكثر فى الصيف، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى أثناء هبوب الرياح من الغرب والشمال متحملة بالأبخرة، المتصاعدة من مياه البحر الأبيض المتوسط. ولكنها لاتلبث أن تختفى بهبوب الرياح. لأن هذه الرياح لاتلتقى فى مرورها إلا بالصحارى القاحلة.

٢٣- النقطة

يطلق المصريون اسم «النقطة» على الندى الذى ينزل فى ليلة ١٨ يونيو من كل عام، وهم يستبشرون بها وينسبون إليها خاصية تنقية الهواء ومنع الأمراض وخصوصاً الطاعون.

وبدهى أن نزول النقطة لاتأثير له معيناً فى ذلك الوباء وغاية ما هنالك أن نزولها يتفق مع اشتداد الحرارة التى إليها وحدها ينبغى أن ينسب التأثير الذى نسب خطأ إلى النقطة، وقد أشار قدماء المؤلفين إلى عادة تم نسيانها اليوم. وهى استطلاعهم نتيجة الفيضان من خير عميم أو عكسه بوضعهم قطعة من الطين المجفف تحت تأثير النقطة وفعلها فتدل درجة ابتلالها بالماء على ماسيكون من درجة الخير المنتظر من وراء زرع الأرض.

٢٤- الرطوبة

الرطوبة فى الوجه البحرى شائعة باستمرار، وهى بلا شك حاصلة من مجاورة البحر وطبيعة الأرض بسبب انخفاضها وامتلائها بالمستنقعات أو أيضاً بسبب غزارة الندى الذى يتساقط عليها. وهى تأكل المعادن جميعاً، وعلى الخصوص الحديد. إذ سرعان ما يعلق الصدأ بها وبسببها يتعذر جلاء الأسلحة والأدوات الفنية التى لاتلبث أن تفسد فى زمن قصير مع ما يضارعها من الأمتعة الفضية والثياب المزركشة بأسلاك الذهب والفضة إذا لم تتخذ

الوسائل لوقايتها من فعلها الضار. وهى تقل كلما تقدم المرء نحو المدار وتبلغ أقصى شدتها أيام فيضان النيل - أى فى الأيام التى يزداد سقوط الندى خلالها.

٢٥- العثير

بمجرد انقطاع الرطوبة الحادثة عن الفيضان والندى تجف الأرض ويتفتت سطحها ويتحلل إلى عثير يكفى هبوب النسيم أو الريح اللطيفة لاستثارتها فى كل ناحية. وهو من النعومة والدقة بحيث ينفذ فى الأماكن كلها حتى المحكمة الغلق. والمصريون يصفون سهولة نفوذ العثير فى كل مكان بقولهم من طريق المبالغة «أنه ينفذ حتى من قشرة البيض» ومن السهل الوقوف على فعله الضار بالنباتات التى يتراكم عليها ويجففها وبالحيوانات وعلى الخصوص الإنسان. فإنه يمنع خروج العرق من بشرته لانسداد مسامها، ويتعب تنفسه بتسربه إلى الرئتين ويفسد الآلات الدقيقة وغيرها حتى الآلات المستعملة لغزل القطن ونسج المنسوجات الحريرية والكتانية.

٢٦- الإعصار

قليل من البلاد يثور العثير فيه كما يثور فى مصر على شكل إعصار تحركه الرياح، فإن هذا الإعصار الرملى يتكون كأساطين عظيمة تدور حول نفسها وترتفع فى الجو عموديا حتى تبلغ السحاب وتظل أحيانا واقفة فى مكانها ولكن تسير فى العادة بسرعة شديدة مدة بضع دقائق حتى تلتقى بشجرة أو جدار أو بيت أو مرتفع من الأرض فتتكسر قوتها وتهبط متساقطة فى نفسها.

٢٧- المطر

من الأوهام الشائعة أن السماء لا تمطر فى مصر أبداً، وهو وهم أذاعه بعض المتأخرين الذين لم يزوروا القطر المصرى إلا زمن الجفاف التام والواقع أن السماء تمطر كثيرا فى الوجه البحرى، وتبتدىء هذه الأمطار عادة فى شهر أكتوبر وتستمر فى شهرى نوفمبر وديسمبر، ولا تنتهى إلا فى شهر مارس.

وفى هذه المدة يندر أن تنقضى أسابيع من غير مطر. بل غالبا ما يشاهد المطر متماديا أياما متعاقبة، وفى كل عام تبلغ مرات المطر من خمس وعشرين

إلى ثلاثين. أما في القاهرة فلا تزيد تلك المرات عن نصف العدد المتقدم مع قلة الأمطار. وفي سنة ١٨٢٥ أمطرت السماء بالقاهرة ثمانية أيام وصحلا مطرا أفضت شدته إلى سقوط منازل عديدة ووقوع أضرار مختلفة. أما في الوجه القبلي فالأمطار نادرة جداً، وهي لا تظهر فيه إلا بعد أزمان مديدة. على أنه قد شوهد بين القاهرة وقنا نزول مطر شديد مسبوق بالبرق والرعد. وفيما يلي قنا يعد نزول الأمطار من الحوادث الخارقة للعادة. على أنهم يذكرون أن المطر نزل هاميا في مدينة اسوان. ويذهب بعضهم إلى أن المزارع العديدة التي أنشأتها عناية الوالي قد أثرت في طقس القطر المصري. فسببت تواتر الأمطار السنوية وطول مكثها. وليس لهذا الرأي فيما نرى أساس من الصحة يمكن الاعتماد عليه. إذ بمقارنة جداول الحوادث الجوية التي عملت خلال الثلاث سنوات التي أقامتها الحملة الفرنسية بمصر بالجداول التي يجدها القاريء في نهاية هذا الفصل يستنتج أنه لم يحدث في طقس مصر تغير محسوس أو انقلاب ظاهر خلال الأربعين سنة الماضية. فإذا عدد أيام المطر التي سجلت أثناء الحملة الفرنسية بلغ متوسطها في كل سنة من ١٥ إلى ١٦ يوما بينما أنها لم تبلغ في خلال الخمس سنوات الأخيرة من ١٢ إلى ١٣ يوما.

٢٨- الثلج

إذا كان الثلج نادر السقوط في الوجه البحري فسقوطه أندر في الوجه القبلي. على أن الفرنسيين الذين كانوا بمدينة قنا في السنة الثامنة للجمهورية شهدوا سقوط ثلج غزير فيها، وقالوا أن حبوبه كانت تعدل في حجمها ما لا يقل عن حجم البندق الكبير. وحدث بعد ذلك أن سقط الثلج مرارا في أزمان متفاوتة متباعدة، وكان من الكثرة سنة ١٨٢٨ بحيث استطعنا أن نملاً به في أبي زعل بعض الآنية. بل قد شهدنا سقوط ثلج بحجم صغار الجوز وعلمنا أنه ألحق بالناس في الأرياف ضررا بليغا إذ جرح الكثيرين منهم وقتل بعض الحيوانات.

٢٩- البرد

أما البرد في مصر فأثر جوى أندر وقوعا من الثلج. هذا فضلا عن أنه لم ير إلا في شطوط البحر أو في نقاط تبعد عنها بفراسخ قليلة. ونزل البرد في سنة

١٨٢٣ بثغرى الإسكندرية ورشيد، وامتد إلى جهة العطف فأخذ الطاعنون في السن من أهل هذه الجهات ينقبون في ذاكرتهم عن حادث من هذا القبيل حصل في ماضى حياتهم فذهبت جهودهم في هذا السبيل سدى واتفقوا رأياً على أنهم لم تقع أعينهم قط على شيء من هذا النوع.

٣٠ - وأظننى أحسن صنعا إلى الذين يودون التحقق بالدقة من أمر درجة الحرارة في القطر المصرى بإيراد الأرصاد الجوية التى قام بها الموسيوى (ديتوش) الصيدلى المفتش فى خدمة سمو الوالى أثناء خمس سنوات متتابعة. فإذا قورنت هذا الأرصاد بالتى قامت بها فى القاهرة اللجنة العلمية للحملة الفرنسية يتبين أن الطقس فى مصر لم يطرأ عليه تغيير محسوس منذ نحو أكثر من أربعين عاماً.

وهناك على طريق المثل الأرصاد الترمومترية التى قامت بها تلك اللجنة محولة إلى درجات سنتغرافية فإنها تبين أن درجة الحرارة:

١٣,٢	فى يناير قد بلغت إلى
١٤	وفى فبراير قد بلغت إلى
١٧,٥	وفى مارس قد بلغت إلى
٢٢,٢	وفى أبريل قد بلغت إلى
٢٤,٣	وفى مايو قد بلغت إلى
٢٨,٦	وفى يونية قد بلغت إلى
٣٠,٢	وفى يولية قد بلغت إلى
٢٩	وفى أغسطس قد بلغت إلى
٢٨,٣	وفى سبتمبر قد بلغت إلى

وفى الجداول الآتية مقنع بأن متوسط ما كان يعطيه الترموتر من الأرقام عن تلك المواقيت يقرب من الأرقام التى دل عليها فيما تقدم.

ومن السهل الحكم بطريق الاستنتاج - طبقاً للمعلومات المتقدمة - على شدة الحرارة فى الأماكن المعرضة للشمس. ففى أسوان أى فى الحدود القصوى للصعيد يرتفع ميزان سنتغراد من ٦٠ درجة إلى ٧٠ فى الرمل

والشمس، وفي القاهرة إلى ٤٥ درجة في الأولى و ٥٠ في الثانية.

مذكرة - الأرقام التي في الأعمدة المحصورة بين عنواني (الرياح) و(حالة الجو) تدل على مقدار الاختلافات الجوية التي وقعت خلال كل شهر ويستدل من هذه الأرقام على سرعة تغير الآثار الجوية لطقس القطر المصري.

٣٢- ينابيع النيل

قام بعض الملوك في الأزمان القديمة وفي مقدمتهم (سيزوستريس) و(قمبيز) و(الإسكندر الأكبر) و(البطالسة) و(قيصر) و(نيرون) بأبحاث كثيرة عن ينابيع النيل لاستكشافها إلا أن جهودهم في هذا السبيل ذهبت ضياعاً ، وإلى فشل مسعاهم ضرب الأقدمون مثلاً على المشروعات التي لا تؤدي إلى نتيجة بقولهم: «بحث عن ينابيع النيل».

ولقد كان هذا الفشل نصيب الرحالين المتأخرين فإنهم رغم ما بذلوا من الجهود لاستكشاف ينابيع النيل لم يوفقوا حتى الآن إلى تكذيب ذلك المثل. والرأى المسلم به والمجمع عليه أن ينابيع النيل في جبال القمر وأنه بابتعاده عن هذه الينابيع المعينة له على سبيل الحدس والتخمين يتكون منه ما يسمى بالبحر الأبيض ثم يلتقى به شرقاً بإقليم سنار على مسافة مائة وثمانين فرسخاً من أسوان البحر الأزرق الذي ظن بعض الرحالة أنه النيل نفسه فالنهر المعروف باسم (تانار) و(أرقابوراس) هو الأخير من روافده. وفيما بين هذا النهر والدلتا - أى على مسافة أربعمائة وخمسين فرسخاً لا يتلقى النيل ماء من أى رافد آخر. قال همبولدت: «إن هذا هو المثال الوحيد لنهر في التاريخ الهيدروغرافي للكورة (الأرضية).

٣٣. الشلالات

اشتهرت شلالات النيل عهداً طويلاً شهرة ملأت الخافقين وفاقها في الشهرة منها الشلال الأول فإن (شيشرون) و(سنكة) لم يترددا في ذكر ما يفهم منه أن هذا الشلال قد بلغ من العظم بحيث كان يصل خريره إلى مسامع جميع السكان الذين يجاورونه فيصم أذانهم. وقد ذهبت الآراء في بيان أهمية ذلك الشلال إلى مثل هذا المذهب في المبالغة في عهد قريب منا.

والشلال الأول، وهو الوحيد الذى نتصدى للكلام عليه — بالنظر إلى أن

الشلالات الأخرى غير موجودة بالقطر المصرى — مكون من جبل كان يعترض النيل فتمكن النيل من قطعه في جهات متعددة منه يلتبس لمائة منفذا إلى الأمام، وفي الواقع فإنك ترى مجرى النهر على مسافة نحو فرسخين منه تعترضه أهداف = صخور = كبيرة من الجرانيت يرتفع بعضها عموديا إلى علو شاهق ويتكون من البعض الآخر جزر كبيرة أو صخور مبعثرة هنا وهناك ولكثرة هذه العوائق تندفع مياه النهر وتتمزق بشدة عند مرورها عليها فتتألف منها شلالات تتساقط مياهها من مرتفع إلى منخفض ومن هذا إلى غيره. ويسمع من بعيد صوت المياه متكسرة على الصخور أو متساقطة في الهوى أو مرتفعة كالاعصارات الرملية. والمرور من ذلك الشلال شديد الخطر على القارب. ولهذا السبب اتخذ لها ممر على الضفة اليسرى لوقايتها من العطب. وفي أثناء الفيضان تغمر المياه تلك الصخور بأسرها، ولكن السفن تستطيع في أيام التحاريق الصعود فيه جذبا بالحبال كما تستطيع النزول مدفوعة بقوة التيار.

٣٤. مجرى النهر

يجرى النيل من الشلال الأول إلى الشمال على مسافة مائتين وستة عشر فرسخا حتى إذا بلغت المسافة بينه والقاهرة فيما يليها شمالا تفرع إلى فرعين يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى والآخر نحو الشمال الغربى ويظل مواصلا السير على هذين الاتجاهين إلى البحر الأبيض المتوسط فيتكون من أحدهما فرع دمياط ومن الآخر فرع رشيد ماريين بهاتين المدينتين بعد أن يقطع كلاهما نحو خمسين فرسخا من نقطة تفرعهما.

ويتكون مجرى النيل كله من الرمل والطين. وعرضه وعمقه يختلفان بحسب الأماكن التي يمر بها فتراه تارة ضيقا عميقا وطورا يتسع حتى يبلغ من العرض ربع فرسخ، ويمكن في هذه الحالة عبوره خوضا على امتداد عرضه.

٣٥. ضفاف النيل

كلما تقدم الإنسان نحو الشلال الأول ارتفعت ضفتا النيل، وصار ارتفاعهما فوق منسوب مياهه محسوسا. ويبلغ هذا الارتفاع أيام التحاريق بمصر العليا ٣٥ إلى ٤٠ قدما. وبالقرب من القاهرة ٢٥ إلى ٢٠ ثم يذهب

منخفضا بالتدريج إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث يتلاشى بالمرّة في شواطئه. غير أن مياه النيل أثناء إرتفاعها تذهب بكل أثر لدرجات هذا الارتفاع. إذ كثيرا ما تسمو حتى تبلغ إلى المسطحات العظيمة الارتفاع وتغمرها. ولما كانت ضفاف النيل خاضعة في كيانها لطبيعة الأرض وشدة التيار وكيفية اصطدام المياه بها فإنها تبدو تارة مقطوعة قطعاً عموديا وطورا منحدره كثيرا أو قليلا. وليست تلك الضفاف كضفاف أنهار أوربا مرصعة بالأشجار والنباتات المائية. كلا! فإنك ترى عليها على أبعاد متفاوتة أشجار النخل واللبخ والتوت فيسر النظر بمرآها. وأكثر ما يكون وجودها في المسالك الموصلة إلى المساكن أو حول السواقي حيث تقى بظلال الوارف من حر الهجير الرجال والحيوانات العاملة على رفع المياه من النهر المبارك لرى الأرضين بها.

ويمر النيل بجميع مدن القطر المصرى تقريبا وأمّهات قرى الوجه القبلى وجزء من مصر السفلى وتقوم على ضفافه الكفور والعزب المشيدة في نقط متقاربة بعضها من بعض، وهو ما يجعل للبلاد منظرا يستهوى النظر ويمهد للمسافر سبيل الحصول منها على الحاجيات اللازمة لمعيشته اليومية.

٣٦. أمطار النهر

النيل كغيره من الأنهار المحصورة بين المدارين تزداد مياهه سنويا عقب الانقلاب الصيفى. وقد اتجهت الخواطر إلى استطلاع أسباب هذا الحادث السنوى المنتظم الباعث على الخصب. لأن ما انتحطه من الأسباب له ولايزال مستقرا في الاخلاص ليس من الصواب في شىء. فقد كانوا يذهبون إلى أن السحب التى تجتاز جو مصر مسوقة بقوة الرياح الشمالية تتجه نحو جبال السلسلة الأثيوبية حيث تتراكم ثم تستحيل إلى مطر يفضى باجتماع مياهه بعد سيلها من السفوح والمنحدرات المختلفة إلى ارتفاع مستوى النيل الارتفاع السنوى المعهود.

وذهب هذا الاعتقاد بالقوم إلى حد الزعم بأن رياح الشمال بغض النظر عما تسوقه من السحب تسبب أيضا ارتفاع النيل ويستند أرباب هذا الرأى على أن تلك الرياح تدفع بمياه النيل نحو الجنوب أعلى إلى اتجاه مضاد لمجراها فيؤدى هذا الدفع الذى يصدها عن سبيلها إلى بلوغها من الارتفاع حدا يؤدى

إلى فيضانها على الأرضين التى حولها. وهو مذهب بين الفساد بدليل أن رياح الشمال لاتهب إلا فى الوقت الذى يبدأ مستوى النيل فيه بالارتفاع فى مصر ذاتها - أعنى فى شهر يوليو. أما فى الخرطوم - أى المكان الذى تكون فيه من إنضمام النهر الأزرق والأبيض فإن ارتفاعه يبتدىء منذ شهر أبريل. فليس من الممكن القول بأن رياح الشمال تاتى إلى بلاد الحبشة وسلسلة الجبال الأثيوبية حيث تنبثق مياه روافد النيل جميعا بالأبخرة التى يعزى إليها ازدياد مياه هذا النهر. على أن هناك رأيا يكاد يكون حاسما فى الموضوع لموافقته الصواب وهو أنه لا سحب من السحب الخفيفة التى تشاهد بمصر مارة فى اتجاه الشمال إلى الجنوب يصل إلى النوبة فضلا عن الحبشة، ذلك لأن السحب تتبدد قبل أن تبلغ إلى دنقلة. فمن الواجب إذا تعليل ارتفاع مياه النيل من غير هذا السبيل.

وفى سنار تجىء أشهر أبريل ومايو ويونيو بأمطار لا انقطاع لها والرياح تهب بتلك المنطقة فى اتجاه الجنوب الشرقى. فإن السحب تترامى يوما قبيل الظهر فى هذه الجهة من الأفق فينقضى المساء كله والليل حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل والطقس مزعج غير محتمل وتكون للرياح زمجرة هائلة وللرعد قصف يصم الأذان وللمطر هطول شديد لا ينقطع، ويستمر هذا الطقس فى سنار إلى آخر يونيو، ولا تنتشر الأمطار فيها إلا إذا عم الفيضان. ولكن لوحظ أن هذه الأمطار لا تسبب ارتفاع المياه بل تساعد على تغذيتها فقط وتنمية إيرادها مدة ما من الزمن (١) وليس فى هذا أيضا ما يصح أن يكون تعليلا لذلك الحادث.

أما رأى الراجح المسلم به لانطباقه على الصواب فهو أن ارتفاع الماء فى النيل ناشئ من السحب المتكونة من أبخرة الاقيانوس الهندى والمندفعة بقوة الرياح الجنوبية الشرقية إلى ناحية الحبشة حيث تحجزها الجبال المرتفعة من السلسلة الأثيوبية فلا تلبث أن تستحيل إلى مطر ينصب عليها.

والمياه الأولى التى ترفع نهر النيل تمر بالخرطوم فى أوائل أبريل - كما ذكرت آنفا - ولا تظهر الزيادة فى حجم مياه النهر بالقاهرة إلا فى النصف

(١) ما ء الفيضان فى سنار لا ينسكب على الأرضى كما فى مصر بل يظل فى مجراه.

الآخر من يونيو، وهو ما يؤخذ منه أنها تقضى نحو ثلاثة أشهر تقريبا في قطع طريق طوله أربع مائة وثمانون فرسخا وهو طريق تقطعه في شهر واحد وكسور إذا كان التيار سريعا، وسبب بطء المياه الأولى للفيضان في الوصول إلى القاهرة استنفادها في الطريق قبل وصولها إلى مصر العليا ومصر الوسطى وانصراف بعضها إلى جهات مختلفة كثيرة وارتشاح البعض الآخر فيحرم النهر بهذا وذاك من مياهه الأولى قبل أن يبلغ في سيره إلى الصعيد ومصر الوسطى.

ثم أن مياه النيل لا تزداد زيادة مطردة التدريج والانتظام أبدا، فإنها غالبا ما تزداد بغتة ازديادا عظيما ثم تقف فتتقص أو تزداد من جديد ويتفق أحيانا أن يكون تدرجها في الزيادة سريعا، وفي مصر الوسطى والوجه البحرى تبدئ المياه بالارتفاع في أواخر يونيو أو أوائل يوليو لتبلغ الحد الأقصى من ارتفاعها في أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ثم تهبط منخفضة أثناء التحريق في مارس وأبريل ومايو.

٣٧. الفيضان

يظن من لا يعرف القطر المصرى إلا بالاسم أن النيل يفيض على الأرض فيغمرها كما غمرتها مياه الطوفان. والحقيقة أن الفيضان يعم الأرضين في كل مكان بترع الرى والقنوات المشتقة منها وهى التى بواسطتها يذهب الماء إلى الأراضى البعيدة. على أن الفيضان قلما يكون عاما لأن المياه تتوزع على مسطحات من الأراضى يختلف ذرعها = مساحتها = كبرا أو صغرا وتحيط بها الجسور التى يندفع الماء من بعض جهاتها ليرويها. والأراضى التى تروى بغمر المياه لها قليلة. لأن الفلاح المصرى لا يكل إلى النهر شئون رى أراضيه على ما يقتضيه الجراف.

٣٨. قطع الخليج

إذا بلغ النيل من الارتفاع إلى الحد المناسب لرى الأرض بمياهه وهو ما يحدث بين ١٥ و ٢٠ أغسطس احتفل في القاهرة احتفالا باهرا بفتح الخليج الذى يختزنها من جانب إلى الجانب الآخر، وانطلقت فيه المياه وسرت في الفروع المشتقة لتروى قسما عظيما من الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط. وفي ليلة يوم ذلك الاحتفال العظيم تضىء الأنوار كل ناحية

وتطلق في كبد الجو الأسهم النارية بأشكال ورموز مختلفة، ويسمع دوى المدافع وعزف الموسيقى وأنغام المغنين، وترى بجوار الخليج مئات الزوارق مزينة بالأعلام ومضاءة بالمصابيح وهى تروح وتغدو متقابلة متدابرة على وجه الماء. فإذا كان نهار اليوم التالى للمياه هدفا للمدافع وألقى في النيل قربان على مثال البشر فلا يلبث الجسر أن يتهدم بتأثير المقذوفات فتنتطلق المياه في الخليج بدوى عظيم^(١).

٢٩. تيار ماء النيل

لم يكن انحدار الأرض التى يجرى النيل عليها بين أسوان والبحر عظيما فإن ارتفاع هذا الانحدار فى النقطة التى تبعد عن مصب النهر بنحو مائتين وخمسين فرسخا وعن مدينة أسوان شمالا بنحو خمسة فراسخ يبلغ ٤٥٣ قدما فوق مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ فى طيبة (الأقصر) الواقعة على نحو مائة وثمانين فرسخا من مصب النهر ٢٥٧ قدما وفى أسيوط على مسافة مائة وخمسة وعشرين فرسخا ٢٨٧ قدما، وفى القاهرة حيث يبعد عن ذلك المصب بنحو خمسين فرسخا فقط ٤٠ قدما أثناء الفيضان من جهة الشرق. وتبلغ سرعة جريان ماء النيل ثلاثة أميال فى الساعة وقت الفيضان وميلين فى وقت التحريق. على أن هذه السرعة تقل بسبب ما تصادفه المياه فى طريقها من العوائق المختلفة كمنعطفات النهر أو ضيق عرضه أو اتساعه أو

(١) زعم بعض المؤلفين المتقدمين أن المصريين كانوا فى العصور السابقة يقدمون فى مثل هذا الاحتفال قربانا للنيل فتى وفناء حليا بالأزهار. ولكن هذا الزعم قول بالتركيب من المحققين الذين ينكرون شيوع مثل هذه العادة الوحشية فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية ما بلغته الأمة المصرية. وهم يذهبون إلى أن المؤرخين الذين اتهموا الأمة المصرية بمثل هذه التهمة الشنعاء (وهمل أشنع من تضحية النفوس البشرية) قد جرهم إلى السقوط فى هذا الخطأ شيوع عادة تماثل العادة الشائعة الآن وهى إلقاءهم فى النهر قبل فتح الخليج مثالا من البشر مكللا بالأزهار على أنه مع ثبوت أن عادة إلقاء القربان البشرية فى النيل لم تعمل الأمة المصرية بها فى عهد اليونان والرومان على الأقل. فقد روى العلامة ابن عبدالحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاءت إليه الأقباط وقالوا: إن نيلنا سنة لا يجرى إلا بها وهى إذا كان الثانى عشر من بؤونة عمدنا إلى بكر طليحة نأخذها من أبويها غصبا ونزنيها ثم نلقيها فى النيل فى مكان معلوم عندنا فقال عمرو: «هكذا لما يكون فى الإسلام أبداء فمكث النيل من بؤونة لغاية سبعة عشر توت لم يزد فيها. فهم أهل مصر بالجلاء عنها، قلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستشير فى الأمر فكتب أمير المؤمنين بطاقة وأرسلها إليه وفيها وافق على الخطة التى سلكها عمرو بن العاص والثبات الذى أظهره حيال المصريين فيما جروا عليه من تلك العادة. وقال إن دين الإسلام جاء ليقتضى عليها وعلى أشباهها من العادات الوثنية ثم أمره متى قرأ هذه البطاقة بأن يلقى فى النيل الورقة المرفقة بها وهى رسالة منه إلى هذا النهر كتب فيها ماياتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله. من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر المبارك».

«أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك».

فالتقيا فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد الذى هو سابع عشر توت فأجرى الله تعالى النيل من ليلته ففرح أهل مصر بإبطال هذه العادة السيئة.

غير ذلك مما يكون سببا لازدياد سرعته حيناً وانخفاضها حيناً آخر.

٤٠. حجم الماء

سواء في زمن الفيضان أو في وقت التحاريق يذهب قسم عظيم من مياه النيل ضياعاً في البحر الأبيض المتوسط، ويتعذر رى متسعاً كبيرة متفرعة من الأرض لهذا السبب ولبعد قاع النهر وعدم توافر الوسائل الصناعية لرفع مياهه إلى الضفتين والاستفادة بها في الزراعة. وفي الحسابات الدقيقة التي قام بها المهندس (لينان) ببيان أحجام المياه التي يسوقها النيل في مجراه كل أربع وعشرين ساعة من أيام الفيضان أو التحاريق.

متر مكعب

٧٩٥٣٢٥٥١٧٢٨

٧١.٣٣٨٤.٦٤٠

١٥٠.٥٦٦٣٩٢٣٦٨

أيام التحاريق

حجم المياه التي تجرى في فرع رشيد

حجم المياه التي تجرى في فرع دمياط

٤٧٨٣١٧٨٣٨٩٦٠

٢٢٧١٩٦٨٢٨٤٨٠

٧٠.٥٥١٤٦٦٧٤٤٠

أيام الفيضان

حجم المياه التي تجرى في فرع رشيد

حجم المياه التي تجرى في فرع دمياط

ومن المناسب إلى حد ما في هذا المقام التكلم على سد النيل (القناطر الخيرية) ولكنني أثرت. أرجاء الكلام عليه في الفصل الذي عقدته لذكر الأشغال العمومية الحالية، ولهذا أحول نظر القارئ إليه.

٤١. المقياس

لما كان فيضان النيل السنوي من الشئون الحيوية لمصر فقد شعر المصريون في كل عصر بالحاجة إلى قياس ارتفاعه. فقدماء المصريين أنشأوا المقاييس العديدة في نقاط مختلفة من مجراه ليعلموا مقدماً من قياس ارتفاع مياهه إذا كانت نهاية هذا الارتفاع صالحة للزراعة أو غير صالحة لها، وكان أحد تلك المقاييس في مدينة (منفيس) والثاني في (فيلة) بأسوان^(١) ولا تزال آثاره باقية حتى الآن. أما الآن فالمقياس الوحيد من هذا النوع في القطر المصري هو الموضوع في الزاوية الجنوبية من جزيرة الروضة تجاه مصر

(١) الصواب في جزيرة الفنتين تجاه أسوان.

العتيقة، وقد أطلق العرب كلمة المقياس عليه، وهو عبارة عن عمود من المرمر الأبيض قائم وسط بئر مربعة تتصل بالنيل بفتحة في قاعها الذي ينزل إليه بسلم مثبت الدرج في جدرانها، والعمود ذو ثمانية أوجه ومقسم ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع، والذراع المصرية تنقسم إلى ستة أشبار. قياس كل منها أربعة أصابع، وعليه فهي تعدل بتقدير علماء الحملة الفرنسية ٠,٤٥٠ ملليمترًا.

وبنسبة حركة النيل ارتفاعا وهبوطا إلى هذا التقسيم يعلم أن هذا النهر الذي لا ينخفض أبداً إلى أقل من الذراع الثالثة في المقياس يصعد بمقدار ٢٤ إلى ٣٠ إصبعا فوق الذراع السادسة عشرة أعنى أنه يغطى أعلى العمود فيدل بذلك على بلوغه من الارتفاع إلى النصاب الذي يرجى منه الخصب والخير العميم.. الذراع أى ثلاثة وعشرين قدما. وأثناء ارتفاع مياه النهر يطوف ويحصل وفاء النيل ببلوغه إلى ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة أرباع، ويقوم المنادون في القاهرة لتبشير الأهلين بأنباء هذا الارتفاع في المقياس (١).

ومقياس الروضة بالقاهرة أنشئ في أيام سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة ٩٧هـ وجدده في سنة ١٩٠هـ المأمون الخليفة العباسي ونقش في عمودها، يشير إلى ذلك وأمر بترميمه بعدهما المستنصر بالله الخليفة العباسي، وضرب عليه قبة فوق عمد عليها المالك أيام الحملة الفرنسية إلا أن مهندسينا قاموا بترميمها وجعلوا البناية المقياس بابا خارجيا نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلى هذا الإصلاح

٤٢. انحسار الماء

تبذر الأرض في مصر بعد انحسار مياه النيل عنها. إما بالوسائل الصناعية أو الوسائل الطبيعية. ولا تلبث البذور بعد نثرها بأيام أن تنبت وتنمو وتكسو الأرض ثوبا زاهى الألوان. لأن الأرض وإن لم تكن صالحة بذاتها للزراعة تتأثر بمياه النيل التى تحمل في غصونها عناصر الخصب

(١) ترجع عادة النداء تبشيرا بالنيل وبلوغه من الارتفاع الحد الذي يتوقف عليه أمل الأمة المصرية أو بأسها إلى العصر الراغلة ن القدم. ولقد هم العرب بإبطالها إبان الفتح، لأنه كان كثيرا ما يحدث أن لم يبلغ الفيضان إلى الحد الذي يتم به رى الأرض ويرجى معه المحصول الوفير والغلة الكثيرة أن يستسلم أن الأملون إلى اليأس والقنوط على وجه يضطرب معه حيل التجارة ويختل ميزان الأعمال ولم يجرؤ العرب مع سداد رأيهم على استعمال القوة لكافة تلك العادة ومعارضة الرأي العام فيها لما كان المصريون يولونه للمقياس من الاحترام يكاد يكون في نظرهم فرضا من فروض الدين.

والخير والبركة. وفي سننى الفيضان العالى تبلىغ المياه أحياناً إلى حدود الصحراء والجهات التى لا تصلح تربتها للإنبات فإذا بالإقحال وقد تحول إلى خصوبة وبالنباتات وقد أتت أكلها كل حين.

٤٣. مياه الرش

لا تخصب الأرض فى مصر بتأثير فيضان النيل وحده. إذ لو صح عكس ذلك لما أمكن زرعها إلا مرة واحدة ولتعدر على النباتات بلوغ الحد الأقصى من نموها. فإن المياه الراشحة لمن أهم عوامل الإنبات ورشها يحدث بمرورها فى باطن الأرض خلال الطبقات الخفيفة المجاورة للطبقة الصالحة للزراعة.

وسبب ارتشاح هذه المياه التى تسمى أيضاً بمياه النشع ضغط ماء النيل على ضفتيه وانحدار الأرض وتخلخل موادها. ويختلف تأثير هذا الضغط تبعاً لمقدار حجم ماء النيل قلة وكثرة، وبمجرد حصوله عقب ارتفاع الماء يحدث على الشاطئين تياران يتبعان فى سيرهما اتجاهين متضادين فينفذ الماء من الشاطئين شيئاً فشيئاً، ويتغلغل فى باطن الأرض حتى يبلغ إلى قواعد الجبال الحافة بالقطر المصرى شرقاً وغرباً فتصدده عن النفوذ منها موادها الصخرية الصلبة.

هذا وليس لسطح النيل مستوى تقف عنده مياهه إلا إذا بلغ الارتشاح إلى منتهاه، ولم يعد للماء قدرة على السريان فى باطن الأرض إلى أبعد مما وصل إليه. وأثناء التحريق تسرى المياه الراشحة مسرى معاكساً لمسراها الأول أى أن المياه التى تشبعت الشواطىء بها وتشربتها أثناء الفيضان تعود من الأماكن التى وصلت إليها لتتسكب فى النيل عند هبوطه بسبب التحريق، وبذا تكون الأرضى التى بلغت إليها المياه الراشحة بعد غيرها من الأرضى آخر ما ينحسر الماء عنه، أو بعبارة أخرى آخر ما يجف.

أما المياه التى تملأ الترعى أيام الفيضان وتبقى محجوزة فيها بالسدود بعد أن يقل حجم مياه النيل فإن ارتشاحها فى الأرضى المجاورة لها يبقى مستمراً حتى بعد أن يكف النهر عن إمدادها بمياهه. ويستفيد الفلاحون بالمياه الراشحة فى الزراعة باستعمال السواقى فى رفعها ورى الأرض بها. والسواقى كثيرة فى الأرضى الزراعية، وسيأتى الكلام عليها بالإفاضة فى

القسم الخاص بالزراعة.

٤٤- أنواع مياه النيل

يكثر ماء النيل في وقت الفيضان، ثم ترسب المواد الطينية التي يحتويها فيصفو شيئاً فشيئاً، وهو مقبول في الذوق ولا يعطل وظائف الهضم وبالنظر إلى خفته يمكن الشرب منه إلى حد الشبع من غير أن يصيب الشارب ضرر. وينفرز من الجسم بسهولة عن طريق المسام عرقاً ومن أحد السبيلين بولا. وقد أيد التحليل الكيـمى = الكيمياء = الرأى القائل بنقاوته العظيمة وخلوه من الشوائب وصلوحه التام لتهيئة الأطعمة والفنون الكيـمى. وفيه غنى عن مياه الأمطار والماء المقطر الذى يتعذر الحصول على المقادير الوفيرة منه حيث ينذر الوقود لتقطيره.

ولم يقتصر القدماء على تكريم النيل لطيب مائه فقط بل لما أسندوه إليه من الخصيات = الخصائص = والمزايا الكثيرة. فقد ذكر (بليناس) من فضائله إزالة العقم فى النساء، ولعل هذا هو ما بعث (بطليموس فيلادلفوس) على موافاة ابنته (برينيس) زوجة (أنطيوخوس) ملك الشام بماء النيل لتشرية دون غيره. ولا يزال الناس إلى هذا العهد يكرمون هذا الماء إكرام القدماء له، والمعروف أن سلاطين القسطنطينية كانوا يعنون على الدوام بادخار ماء النيل فى قصورهم برسمهم وأفراد أسراتهم لتفضيلهم إياه على غيره من أنواع المياه.

بحيرات مصر

ترتيبها - بحيرة مريوط - بحيرة المعدية - بحيرة ادكو - بحيرة البرلس - بحيرة المنزلة - بركة البلح - سبخة بردويل - بحيرة عامر - بحيرات النطرون - بركة القارون أو القرن - وادى بحر بلا ماء.

٤٥- يعدون فى مصر عشر بحيرات منها تتصل بالبحر الأبيض المتوسط هى:

١ - بحيرة مريوط أو (مريوطيس) القديمة.

٢ - بحيرة المعدية أو بحيرة أبوقير.

٣ - بحيرة البرلس.

- ٤ - بحيرة المنزلة.
- ٥ - بحيرة البلح.
- ٧ - سبخة (بروديل) أو بحيرة (سيربون) القديمة. أما الثلاث بحيرات التي لا تتصل بالبحر فهي:
- ٨ - بحيرة عامر.
- ٩ - بحيرات النظرون.
- ١٠ - بركة القارون أو بحيرة (مريس) القديمة.

٤٦ - بحيرة مريوطيس أو مريوط

بحيرة مريوطيس أو مريوط وهى أولى البحيرات الواقعة على قاعدة الدلتا بترتيب الوضع من الغرب إلى الشرق. ممتدة بين برج العرب والإسكندرية. وكانت أراضي ضاحية هذا الثغر تستمد منها الخصب. لأن ماءها كان إلى القرن السادس عشر عذبا فراتا تسوقه إليها الترع المشتقة من النيل. وحدث على أثر إهمال حكومة المماليك العناية بالشئون العامة أن جف ماؤها. وكانت حينما هبط الفرنسيون مصر سهلا فسيحا من الرمل تجتمع في جزئه المنخفض الأمطار وتستقر فيه شطرا كبيرا من الشتاء، ولكن الجيش البريطانى العثمانى قطع في ٤ ابريل ١٨٠١ جسور ترعة الإسكندرية من الطرف الغربى لبحيرة المعديّة فانتشرت مياه البحيرة، وهى كمياه البحر الملح في شدة الملوحة، في بحيرة مريوط من ثلاث فتحات أو أربع، وكانت جافة وقتئذ كما ذكرنا، واستغرق امتلاؤها بها ستة وستين يوما، وكان من نتائج هذه الفعلة الشنعاء أن غرقت أربعون قرية وعم الماء الأراضي الزراعية المحيطة بها^(١).

٤٧ - بحيرة المعديّة

أطلق عليها هذا الاسم انتحالا من الممر الواقع في الطريق بين الإسكندرية ورشيد، وكان يوصل هذه البحيرة بالبحر الملح. وهى واقعة بين أبى قير وبحيرة أدكو. تكونت من عهد حديث وماؤها ملح أجاج. ويشغل قناة الماء

(١) أمر محمد على بسد الفتحة التي تصل بحيرة مريوط بالبحر فلم تعد هذه البحيرة تلقى سوى مياه الأمطار وما يفيض من ماء ترعة المحمودية. وهذه المياه تغطى سطحها في زمن الشتاء ولكنها تتبخر في الصيف. وبالنظر لتشبع قاع البحيرة طويلا بمياه البحر ترى عليه طبقة ملحبة سمكية يخيل للناظر أنها طبقة من الجليد، والملح الذي يتبلور بهذه الطريقة ينتج به، وقد فكر الوالى في الاستفادة من أرض مريوط بجعلها صالحة للزراعة.

التي بينها والبحر الملح مكان مصب فرع كانوب القديم تقريبا ولا يزال يوجد على اللسان الرملى الفاصل بين ذلك المضيق والبحر الأبيض المتوسط آثار جسر طوله ثلاثة آلاف متر قطعه هذا البحر في سنة ١٧١٥ فكان ذلك سببا في طغيان مياهه على بحيرة المعديّة التي يبلغ مسطحها ١٤٠٠٠ هكتار.

٤٨ - بحيرة ادكو

سميت كذلك باسم قرية على سواحلها. وهى واقعة بين بحيرة المعديّة وفرع رشيد ويمدها النيل بمياهه. كانت في عهد الحملة الفرنسية جافة تقريبا لأن جسور الترع التي تمتلئ بمياهها لم تكن قد فتحت منذ زمن طويل. ولقد انكسر أحد هذه الجسور في سنة ١٨٠٠ ولكن طغيان الماء كان من الشدة بحيث ارتفع مستواه فيها فوق مستوى سطح البحر الملح بنحو ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمترا. إذ فتحت في ذلك الجسر فوهة بلغ عرضها نحو ٥٠ مترا ومسطح هذه البحيرة أقل من ٣٣٠٠٠ هكتار بقليل.

٤٩ - بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس قاعدة الدلتا، وتمتد بين نهايتى فرع النيل. وهى قليلة العمق تتلقى المياه من الترع المختلفة وتتصل بالبحر بفتحة. ويبلغ طولها ٢٥ فرسخا تقريبا ومسطحها ١١٢٠٠٠ هكتار.

٥٠ - بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة بين دمياط وأطلال (بيلوز) وأعظم امتداد لها يقرب من ٨٤٠٠٠ متر وأقله ٢٢٠٠٠ متر ومسطحها ١٨٤٠٠٠ هكتار. وتتصل بالبحر المالح بفتحتين إحداهما تسمى (الديبة) والأخرى أم (سراج) وقد تبين أن هاتين الفتحتين كانتا مصبى فرعى (منديس) و(تنيس) في الأزمان القديمة. وطعم مائها لا تتقرز النفس منه كما تتقرز من طعم ماء البحر. ولذا فإنه في أيام فيضان النيل يكون صالحا للشرب بسبب إنصباب ماء النيل فيه وامتزاجه به عن طريق ترعة بحر موسى.

٥١ - بركة البلح

يطلق هذا الاسم على المستنقعات التي تكونها مياه بحيرة المنزلة في الجزء الجنوبي منها، وهى تشغل من الأرض ما مسطحه ١٣٠٠٠ هكتار تقريبا.

٥٢. سبخة بردويل

سميت بحيرة (سيربون) الواقعة شرقى أطلال (بيلوز) وفي جوار العريش بسبخة (بردويل) ولايزال وصف (استرابون) و(ديودورس الصقل) لها منطبقا على حالتها الحاضرة فقد قال ديودورس أن فيالق برمتها من الجيوش هلكت لجهلها بحقيقة هذه المستنقعات العميقة التى تغطيها الرياح بما تسفيه عليها من الرمال فيختفى في الظاهر ما تحتها من الهاويات العميقة إلى أن قال: «وهذا الرمل الطينى تسوخ الأقدام فيه بثقل الأجسام شيئا فشيئا. فكأنه يغرر بالمسافرين. إذ يستدرجهم إلى السير عليه فإذا أوغلوا فيه وشعروا بخطئهم تعذر عليهم إنقاذ أنفسهم مما تورطوا فيه عن جهل واغترار. وكان كل جهد يبذونه في هذا السبيل جاذبا للرمل إلى الجهات المجاورة فينتهى الأمر بأولئك المسافرين التعساء إلى الاختفاء في غياهب تلك المهاوى. ومن ثم جاءت تسمية ذلك السهل الطينى باسم (باراتروم) الذى معناه باللغة اللاتينية «المهواة».

٥٣. بحيرة عامر

هذه البحيرة قريبة من منتصف برزخ السويس والظاهر أن مياه البحر الأحمر كانت في الأزمان السالفة ممتدة إلى موقعها وكانت الترع القديمة توصل بينها والنيل.

٥٤. بحيرات النطرون

على مسيرة اثنتى عشرة ساعة غربى بلدة (الطرائنة) في الوجه البحرى واد يحتوى الجزء الواطىء منه أغوارا أطلق عليها اسم بحيرات النطرون. والنطرون مادة ملحية حجرية تتكون فيه. وعدد هذه البحيرات عشر تنتهى حافاتها بخلجان صغيرة يرتشح الماء منها فتتكون منه عيون يتسرب الماء منها جداول صغيرة تنصب في قاع تلك الأحواض وحافاتها مغطاة بطبقة من النطرون.

ولامشاحة في أن قاع هذه البحيرات أوطأ من مجرى النيل. بل من مستوى البحر الأبيض المتوسط، والرأى الراجح يعلل وجود المياه فيها بمياه النهر الراشحة من الأرض على مسافة عشرة فراسخ تقريبا ، وهى المسافة التى

تفصلها عن واديهها. والمحقق أن الارتفاع في البحيرات متعادل، وأنه يطابق بنسبة عكسية ارتفاع الماء في النيل. إذ من الثابت المحقق أن مياه النهر الراشحة ترفع مياه البحيرات إلى أعلى منسوب لها خلال فصل الشتاء والأشهر الثلاثة التي يفعل الارتشاح فيها فعله.

والأملاح المختلفة التي تحتويها تلك البحيرات هي الموريات (الكوريدات) والكربونات وسلفات الصودا. فإن هذه المواد التي تنشأ عن تبخر الماء تتجمد فتصبح صالحة للانتفاع بها في التجارة.

ومياه اثنتين من تلك البحيرات لونها ضارب إلى الحمرة بتأثير مادة نباتية حيوانية فإذا تباخرت بالصناعة فإن الملح البحري أول ما يتبلور يحجز ذلك اللون الأحمر، ويكتسب رائحة عطرية مقبولة في الشم لقربها من رائحة الورد.

وبالقرب من بحيرات النظرون أديرة قبطية عديدة.

٥٥- بحيرة مريس أو بركة قارون

بحيرة قارون أخرى من بحيرات مصر بالالتفاف والبحث من العلماء المحققين. ذلك لأن شهرتها منذ قديم الزمان وما أحرزته مصر من مزايا وجودها يجعلها في مقدمة ما امتاز هذا القطر به من الميزات الجديرة بلفت الأنظار.

تشغل بحيرة مريس قاع واد عظيم مستدير الشكل يتكون كما قلنا سابقا من سلسلة جبال ليبية بمؤازاة = بمحاذاة = مصر الوسطى وهذا الوادي هو الذي كان معروفا بإقليم أرسنوة عند قدماء المصريين ويعرف الآن بإقليم الفيوم. أطلق العرب عليه هذا الاسم اشتقاقا من كلمة (بيوم) أو (فايوم) ومعناها في اللغة المصرية القديمة (المكان ذو المستنقعات) وما تبقى من البحيرة القديمة يسمى في أيامنا بركة أو بحيرة قارون أو القارون. فيألى هذا الحوض العظيم ترجع القصة الخرافية المعروفة في علم (الميثولوجيا) وهي أن (قارونا) هذا كان دليل الموتى على نهر (ستكس) يوصل ظلالهم إلى الجحيم. وقد كان قدماء المصريين في الحقيقة يجتازون جزءا من البحيرة ليودعوا إحدى المقابر هناك توايبت موتاهم. فكانت هذه العادة سببا لاستنباط تلك

الخرافة الوهمية التى كانت ذات شأن فى مذهب تعدد الآلهة عند اليونان والرومان. ولقد فسر الأقدمون وفى مقدمتهم المؤرخ (هيرودتس) أصل بحيرة مريس تفسيراً مبنيًا على الخطأ وكثيراً ما خدع المتأخرين من علماء الجغرافيا. وما برح هذا التفسير عالقا بأذهان العامة ومستقرا فى أخلادهم. ولكن العلم الحديث مجمع على رفضه وعدم الاعتداد به. إذ يؤخذ من رواية ذلك المؤرخ اليونانى أن الملك (مريس) حفر بحيرة الفيوم ليتخذها خزاناً يخزن فيه ما يفيض من مياه النيل فى أثناء الفيضان ليرده فيما بعد إليه إذا ظهر أن فيضانه لم يكن كافياً لرى الأراضى الزراعية. ولكن البدهة تأبى التسلم بإمكان حفر تلك البحيرة باليد العاملة لأنه لو تيسر هذا العمل فعلاً لاستدعى نقل أحد عشر مليار متر مكعب من التراب والحجارة والصخور. وأيد (هيرودتس) قوله بأن هرمين عظيمين جداً نصب على قمة أحدهما صنم عظيم كانا مرتفعين فوق سطح الماء. ومما يرجح هذا القول أن الملك مريس انتهز فرصة الوضع الطبيعى لوادى الفيوم وانخفاض قاعه بكثير عن قاع نهر النيل ليوصل إليه ماء هذا النهر، وأنه أنشأ الهرمين قبل الشروع فى هذا العمل الجليل. وميسور أيضاً افتراض أن هذين الهرمين كانا موجودين قبل عهد الملك (مريس).

ولم يكن مسطح بحيرة (مريس) التى لا تشغل بركة (قارون) منها الآن سوى القاع العميق أقل من ستين فرسخاً مربعاً. وكانت مياه النيل ترد إليه بترعة تعرف الآن بالبحر اليوسفى وقد اتخذ لها منفذاً فى سلسلة جبال العرب. وكانت ذات فروع وجداول تنتشعب فى أراضى الفيوم الصالحة للزراعة حتى إذا أخصبتها بالرى انطلقت نحو تلك البحيرة فسكبت فيها الفائض من مائها. ولم يتفق الباحثون على كيفية استفادة مصر بما كان يرد إلى هذا المستودع العظيم من مياه النيل. وزعم (هيرودتس) فى هذا الصدد أن البحر اليوسفى الذى كان يجلب إليه ماء النيل خلال ستة أشهر من السنة كان يرد لها إليها فى أثناء الستة أشهر الباقية منها. والأقرب إلى البدهة أن ذلك الماء كان ينصرف من بحيرة (قارون) بواسطة الترعة المعروفة اليوم باسم بحر بلا ماء (١).

(١) نحيل القارئ إلى المذكرة التى نشرها العلامة جومار عن بركة القارون فى المصنف العظيم الذى ألفه عن القطر المصرى. فإنه قد بحث فى المسائل المتعلقة ببخيرة مريس بحثاً مدققاً يعززه ما عرف عن هذا الباحث المتضلع من الكفاءة والإقتدار.

٥٦. البحر بلا ماء

إن البحر بلا ماء المتصل بالطرف الغربى من بحيرة (مريس) يتقدم نحو الشمال فى وسط الصحراء بمجازاة مجرى النيل فيمر من بحيرات النظرون على مسيرة ساعة ونصف منها. وكانت تقضى بعد ذلك إلى بحيرة مريوط. ومجرى البحر بلا ماء الذى أطلق عليه الآن الاسم بالنظر إلى جفافه تدل الدلائل على أن جزءا منه حفر بيد الإنسان فإنه كان فى الحقيقة تابعا لبحيرة (مريس) أو بعبارة أخرى بحيرة تالية لبحيرة مقدمة. فإذا كانت قوة الإنسان تستحق الإعجاب والثناء لعمل أنجزته فإنما هو هذا العمل. ويبلغ إتساع الوادى المعروف بالبحر بلا ماء ثلاثة فراسخ من إحدى ضفتيه إلى الضفة الأخرى. وهو الآن لا يحتوى أثرا ما من الينابيع وإنما فيه الكثير من الأخشاب والحيوانات المتحجرة.

التاريخ الطبيعى (المواليد الثلاثية)

(١)

المعادن

التكون المعدنى والجيولوجى للجبال - الأحجار الجصية - الأحجار الكلسية - الجرانيت أو الصوان - المواد المجلوبة بالتيارات - الليدين أو الحجر الأسود اليشى - الحجر الأبرشى - السليسى بالعقيق، الحصى - الأبرش الأخضر المصرى - مناجم الرخام - حجر الزمرد - الخشب المتحجر - التحجرات الحيوانية - الأحجار المختلفة - المعادن - الكبريت - زيت البترول - الجبس - الفحم الحجرى - النظرون النتر - الشب.

١ - يمكن تقسيم المعادن فى مصر إلى قسمين عظيمين. يشمل أحدهما المعادن المتعلقة بالتكون الأصلى للأرض ، والثانى المعادن التى أولدتها الحوادث والآثار الطبيعية التى ينسب إليها تكون الشطر الأكبر من أرض مصر.

٢. التكون الجيولوجى والمعدنى للجبال

يتألف أول هذين القسمين من المعادن التى تحتويها سلسلتا جبال العرب وليبية. وفى هذه الجبال ما هو جدير باستقصاء علماء المعادن من أنواع الأحجار الجصية والكلسية والصوانية.

٣. الجرانيت أو الصوان

توجد بضواحي أسوان تلك الأنواع المختلفة من الجرانيت الذى طبقت شهرته الآفاق فى العصور القديمة، حيث كان يعرف باسم (سبينيت) وفى تلك الجبال المعدنية أنواع مختلفة منه نذكر منها السبينيت الوردى، والسبينيت الرخامى الوردى والأصفر، والسبينيت الرمادى والأبيض والأسود، والسبينيت الرمادى الوردى، والسبينيت المعرق والأسود، والصخور الورقية الرخامية

(نيس) وأصناف الجرانيت الأبيض والقاتي. وما أغلب الكتل الكبيرة الصوانية التي تركها المصريون لنا كالمسلات والتماثيل العظيمة إلا أنواعا من السييينيت الأحمر. وهناك تماثيل كثيرة وأثار رمزية أصغر من تلك حجما، وهى مصنوعة من السييينيت الأسود أو الرمادى. وتتوزع ألوان هذه المواد التي كان يستعملها المصريون فى شئونهم الهندسية القديمة لما يسترعى النظر بحسن التوفيق بينها فيؤثر فى نفس الناظر أجمل تأثير وأحسنه.

٤. الأحجار الجصية

تتألف منها الجبال التى بين أسوان وجنوب مدينة إسنا ببضع الفراسخ - أى على مسافة يبلغ طولها نحو العشرين فرسخا تقريبا، وترسو طبقات تلك الأحجار على سائر الطبقات متصلة من ناحية الجنوب بالجرانيت ومن ناحية الشمال بالجبال الحجرية. ويفصلها عن الجرانيت كتل بودنج غليظة. وهذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله - كما هو مذكور فى مذكرات المجمع العلمى الفرنسى بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء ببعض جهات فرنسا، وإنما يختلف عنها بأن حبوبه أغلظ من حبوب هذه وأكثر ضلوعا واحتواء على جزيئات الميكا. وألوانه المميزة له إما رمادية أو ضاربة للصفرة. والطبقات الجصية فى المحاجر الكبرى بجبل السلسلة عند الجهة الوسطى من سلسلة هذا الجبل الحجر الجصى فيها جيد الصنف، ويتألف من طبقات سمكية متراكبة بعضها على بعض. أما الجهة الشمالية من الجبل والجهات العليا منه فإن طبقات الجص فيها أقل سمكا من تلك وأضعف اتصالا ببعضها ببعض. على أن تطابقها يمتاز بخصية = بخاصية = الموازنة أو ما يقرب منها. والأحجار الجصية اختارها قدماء المصريين لإقامة مبانيهم العظيمة لسهولة استخراجها ولأن نقلها ميسور لا كلفة فيه لقرب المسافة بين مناجمها والنيل وهذا فضلا عن سرعة فعل أدوات النحت فيها. فهذه الأسباب هى التى جعلتهم يؤثرونها على ما عداها من الأحجار.

٥. الأحجار الكلسية

إن الجبال فيما يلى الأراضى الجصية شمالا وشمالا بشرق كلسية بركتها. وأهرام الجيزة وسقارة شيدت بالأنواع المختلفة من الأحجار المستخرجة منها.

٦. المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر

تتضمن الأودية والطق العرضية التى تقطع خطوط الجبال الحافة بمصر عند اتصالها بالوادي الأصيل أراضى تكونت فيها بتأثير التيارات، والباحث فى مادة الأراضى يجد أنها عبارة تارة عن مواد هشة لاتتلاحم بينها وطورا عن طبقات من البودنج أو البساميت السريع التفتت، وبعض تلك الأراضى قاقى المادة والآخر مؤلف من مواد أجنبية ويوجد بينها حجر الليدين أى الحجر اليشى الذى منه الفاتنة المعروفة منذ قديم الزمان باسم البازانيت وأحجار البازلت الأخضر والأسود ذات الأهمية العظمى فى بناء الآثار العجيبة.

ولاتزال توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى. وعلى الخصوص فى الأراضى الرملية بودنجات يشببه الشكل ونوع اليشب المعروف بالزلط المصرى. أما الأبرش الرملى الشبيه بالعقيق الذى يوجد بأسوان فهو من الأحجار الجديرة بالالتفات والعناية. فتمثال (ممنون) الذى بلغ من الشهرة قديما أبعد مبلغ انما نحتت أحجاره من هذا الأبرش الذى ترجع إلى تركيبه الخصية العجيبة التى امتاز بها وهى ترجيع الأنغام عند شروق الشمس^(١).

٧. الأبرش المصرى الأخضر

هذا الأبرش أجمل الأحجار الموجودة على وجه الأرض، ويوجد بالوادي الذى بين الصعيد والبحر الأحمر، ويسمى باسم المدينة التى يفضى هذا الوادي إليها وهى القصير، وهو نوع من البودنج متكون من قطع مستديرة من الجرانيت والرخام وصخر أخضر اللون يشبه كثيرا التروسيلكس ويمتاز بصلابته وبهاء ألوانه المختلفة. ولم يكن الأبرش وافر المقادير فى القطر المصرى. بل يمكن القول بأنه أصبح الآن غير موجود بالمرة، وقد صنعت به فى إيطاليا جملة قطع فنية وهو معروف فيها عند الصناع الإيطاليين باسم: Beccia Verde d'Egitto وإنما نحت تابوت الإسكندرية الشهير فى قطعة من هذا الحجر الصخرى.

(١) إن الحادث الغريب الذى جعل لتمثال ممنون تلك الشهرة العظيمة فى العصر السابقة أيده شهادات عديدة من اناس جديرين بالثقة والاحترام. فهى إذن مما لا يعرفه الشك ولا تتناوله الريبة وقد حاول بعضهم تاويله على أوجه شتى أقربها إلى الاحتمال التأويل الذى قدمه المسير دى روزبير فى مذكرته عن التكون الطبعى لمصر. وقد لاحظ فيه أن الجرانيت والأبرش غالبا ما يحدثان صوتا عند شروق الشمس. أما تمثال طيبة فقد قال المسير روزبير إن أشعة الشمس كانت إذا أصابت هذا التمثال العظيم جفت الرطوبة الحادثة عن الندى المتساقط أثناء الليل على سطحه وبددت أيضا معها الرطوبات المتجمعة فى ثنايا ذلك السطح غير المصقول فينجم عن استمرار هذا العمل أن حبات أو صحائف الأبرش السالف الذكر تتأثر بفعل الأشعة الشمسية فتتفجر فى الوقت.

٨. محاجر الرخام

كان للرخام المصرى منذ قديم الزمان شهرة ذائعة فى الأفاق، وقد استخرجه الأقدمون من محجر واقع بين البحر الأحمر والنيل فى منطقة المنيا على مسافة أربعين فرسخا من النهر وهـ ١٥ فرسخا من البحر، وكانوا قد شابوا بالقرب منه مدينة سموها مدينة (البسترويوليس) أى مدينة الرخام وذلك المحجر هو الذى استخرج منه الرخام الذى صنعت به أجمل الأنية القديمة التى لاتزال نعجب بها حتى اليوم.

وهناك محجر آخر للرخام على مسيرة ثمانى ساعات من بنى سويف فى مصر الوسطى، وقد استكشف منذ سنوات وهو عظيم الاتساع، والرخام المستخرج منه من النوع الجيد وله على غيره ميزة جلية وهو امكان نقل الكتل التى تقطع منه بأقل كلفة بالنظر إلى قربه. وقد بدأ الوالى باستخراج الرخام منه لينتفع به فى المسجد الذى يشتغل بتشيدته بقلعة القاهرة.

وهذا الأثر الدينى الجليل قائم على أعمدة عديدة من الرخام كل عمود منها قطعة واحدة كما أن جدران المسجد مكسوة كلها بالواح من هذا الرخام النفيس.

٩. أحجار الزمرد

كان الأقدمون يعنون عناية تامة بالبحث عن الزمرد المصرى، ويطرون مزاياه ويفضلونه على الأحجار الكريمة، وإن لم يشغل قط المرتبة الأولى بينها. وهم إذا مالوا إليه فإنما هو لصفاء لونه. قال بليناس: «إن البصر إذا اعتراه التعب وجد الراحة بالنظر إلى الزمرد، ولا شئ غير هذا الحجر يريح العين بلطف لونه وصفاء مادته» فلا عجب إذا انصرف الأقدمون إلى التختم بالزمرد ليتمكنوا من النظر إليه كل حين إراحة لبصرهم وشرحا لصدورهم.

ومناجم الزمرد بضواحي مدينة (بيرينيس) وهى ثغر بحرى على شواطئ البحر الأحمر أسسه الملك (بطليموس فيلادلف) على نفس خط العرض الذى عليه مدينة أسوان. وتلك المناجم فى الجبل المعروف الآن باسم (زبارة) وقد عثر عليها حديثا الموسيو (كايو) وكان الزمرد معدن آخر على الضفة الغربية للنيل بالقرب من طهطا إحدى مدائن الصعيد.

١٠. الخشب المتحجر

فى الصحارى المجاورة لوادى النيل كثير من الأخشاب المتحجرة متفرقة هنا وهناك ، وهى تلفت النظر بما تحفظه من أشكالها وألوانها الأصلية. وعلى مسافة فرسخين ونصف خلف جبل المقطم وادى رملى يحتوى - فى متسع من الأرض مساحته فرسخ مربع تقريبا - نباتات متحجرة أصلها غابة تحجرت فى هذا المكان ويؤخذ من شكلها أن الأشجار الغالبة فيها كانت النخل والجميز والغاب الهندى ومنها ما يبلغ الثمانين قدما طولا، وأنها احترقت فى الأزمان القديمة فتحولت إلى الحالة التى تشاهد الآن عليها.

ويحتوى وادى بحر بلا ماء أخشابا متحجرة أيضا، وكذا وادى التيه الذى يخترق الصحراء العربية من ضاحية القاهرة إلى سواحل البحر الأحمر على مسافة ٢٥ فرسخا فوق ثغر السويس.

١١. الحيوانات المتحجرة

تحتوى الأحجار الكلسية والجصية كافة تقريبا كميات عظيمة من الأصداف والأسماك الحفرية، وكثيرا ما تكون هذه الحفريات مدمجة بالبودنج. غير أن قلة تماسك الأسمنت الذى يضم عناصر هذه الأجزاء يعرضها أحيانا للانفصال والتبدد، وهذا هو علة وجود تلك الأصداف الحفرية مبعثرة عند سفوح الجبال وفى وادى القبور الواقع تجاه مدينة طيبة (الأقصر). وفى الصحراء المجاورة للأهرام أصداف كثيرة من هذا النوع يسميها الأهلون «قرون أمون».

وإذا حفرت الطبقات العميقة من أراضى القطر المصرى، ولاسيما فى الوجه البحرى ظهرت كتل كبيرة من الأصداف والحيوانات البحرية الحفرية. وظهورها البرهان الساطع على أن البحر كان إلى عهد غير بعيد يغمر تلك الجهات الواسعة من أراضى القطر المصرى. وفى وادى التيه أصداف تشبه قطع النقد وبعضها لايزيد حجمه على حجم العدسة.

١٢. الأحجار المختلفة

ومما يحتويه وادى التيه أيضا الحجر الصالح لطحن الحبوب (حجر الطاحون) وحجر اليهود الذى يشبه الزيتون شكلا وحجما. وفى جبل البرام الواقع شرقى أسوان باتجاه إلى الشمال منها نوع حجر تصنع منه الأوعية

التي يهيا فيها الطعام وتعرف هناك بالبرام. وهذا هو السبب في إطلاق اسمها على ذلك الجبل.

١٣. المعادن

أرض مصر لا معادن فيها، فإذا وجد فيها شيء منها فإنما هو آثار معادن لا تصلح ولا تفيد، وليس للحديد أثر بالمرّة فيها، وغاية ما يعلم عن أمره أن النيل تحمل مياهه بعض ذرات منه، وأن بالقرب من أسوان نوع من الأحجار الجصية يدخل الحديد في تركيبها. وقد عثر على النحاس في جبل البرام استكشفه الموسيو (كايو) الذي استكشف أيضاً معدناً للرصاص بالقرب من منجم الزمرد في جبل (زبارة).

١٤. الكبريت وزيت البترول والجبس

مفروض من باب الحدس والتخمين أن براكين منطفئة ومناجم للكبريت موجودة في الجزء الواقع من سواحل البحر الأحمر تجاه أسوان، فقد عثر الموسيو كايو فعلاً على معدن للكبريت قريب من الأماكن التي كان الزمرد يستخرج منها قديماً في الجبل المشهور باسم جبل الكبريت، وعلى سواحل البحر الأحمر عند الدرجة الثامنة والعشرين من العرض الشمالي جبل الزيت وبأسفله عين لزيت البترول. وفيما عدا هذا وذاك توجد في جهات مختلفة من القطر المصري مناجم للجبس عديدة وغنية بهذا الحجر، ولكن الجبس الذي يؤخذ منها من الصنف العادي الشديد الكثافة ولونه ضارب إلى الرمادي.

١٥. الفحم الحجري

لو أن مناجم الفحم الحجري موجودة في مصر لعادت عليها بالفوائد الجليلة والمنافع الجمة بالنظر إلى قلة الأخشاب فيها، وليس ثم ما يدل على أن الأقدمين وقفوا على مناجم للفحم في مصر واستخرجوه منها. وقد بذل علماء الحملة المصرية جهوداً كثيرة لاستكشافها، ولكنها ذهبت ضياعاً كالجهود التي بذلت في سبيل ما أمر به محمد علي من البحث عن مناجم الفحم.

والذي يصح استنتاجه من الشكل الجيولوجي للأراضي في القطر المصري أن جميع الأبحاث التي ستعمل في المستقبل لاستكشاف الفحم الحجري لن تؤدي إلى نتيجة يحسن الوقوف عليها كالتي قام بها الباحثون المدققون حتى

الآن للوصول إلى هذا الغرض.

١٦- النطرون

سبق لنا الكلام على النطرون المستخرج من البحيرات الشهيرة «بحيرات النطرون». وكان الراسخ في الأذهان إلى وقت وصول الحملة الفرنسية إلى مصر أن مناجم النطرون خاصة بهذه البحيرات لا تتعداها إلى غيرها. وهو وهم بين الفساد فلقد استكشف النطرون في جهات كثيرة من القطر المصرى منها الوادى الواقع فى الوجه القبلى على مسافة خمسة فراسخ من إسنا فإن النطرون يستخرج منه كما يستخرج من تلك البحيرات ومنها سواحل بحيرة (مريس) وبعض ضاحية الإسكندرية بالقرب من بحيرة مريوط وبربخ السويس، وهذا فضلا عما تجلبه قوافل طرابلس الغرب ودارفور معها من تلك المادة.

١٧- النتر

تعتبر المواد الملحية التى تحتويها أراضي القطر المصرى بمقادير وافرة من الخواص البارزة التى تميز هذا القطر على غيره من الأقطار. ففي الحقيقة توجد مناجم عديدة للملح الحفرى. ومنها ما يوجد فى الأراضي الحجرية التى يتكون منها قاع بركة قارون. فإن سطح هذه الأراضي يحتوى مقدارا من العناصر الملحية عظيما إلى حد لا يندر معه مشاهدة الجدران بعد الأمطار وقد اكتست بالمواد النتريّة. إلا أن هذا لا يشاهد غالبا إلا فى الاطلال المتراكمة حول المدن حيث يوجد النتر بمقادير وافرة.

واستخراج النتر صناعة واسعة النطاق، ويكون على البارد بتأثير الشمس وحدها فى حين أن استخراجها فى أوروبا يستدعى استخدام النار.

وطريقة استخراجها على ذلك الوجه يكون بإلقاء ما يجمع من أنقاض المباني القديمة فى أحواض عريضة قليلة العمق فيتحلل النتر بواسطة الغسل بالماء. فإذا تمت هذه العملية سيق الماء إلى أحواض أخرى أقل عمقا من السابقة فيتباخر بتأثير حرارة الشمس فى درجة ٤٠ إلى ٥٠ ويبقى النتر متبلورا. وقد أنشئت بالقاهرة أحواض متسعة للنتر. وأنشأ لمحمد على فيما بعد السنيور (رافى) الكيمى = الكيمائى = الإيطالى هذه الطريقة فى سنة ١٨٢١ أحواضا مثلها فى الجيزة وسقارة وندرة وكوم أمبو حيث تكثر أطلال المباني وأنقاضها.

١٨- الشب

منذ قبض محمد على على زمام الديار المصرية استكشفت مناجم للشب بلغ هذا الحجر فيها كثرة تجاوزت حاجة الاستنفاد المحلى تجاوزا استدعى تصدير ما يفيض منه إلى الخارج.

١٩ - وليس فى مصر شىء من المعادن الأصلية. ذلك لأنها بلد زراعى قبل كل شىء، فإنه يبدو واضحا للناظر أن الطبيعة أرادت حرمانها مزاوله الصناعة لكى تنقطع إلى الزراعة فلم تجمع فيها الأسباب لمزاوله الصناعة كالفحم الحجرى والحديد والنحاس، وهى مقومات الآلات الصناعية ومدارها التى تدور عليه.

(٢)

النباتات

مقدمة - عموميات - نباتات الصحراء - النباتات الصالحة للزراعة فى القطر المصرى - حدائق شبرى والروضة - حدائق الشرق - الغابات - تبليد نباتات أوروبا الجنوبية - النباتات الأجنبية التى ادخلت حديثا فى حدائق أصحاب الأشجار الأهلية - الأشجار الأجنبية - الأشجار الأهلية الفاكهة - الأشجار الفاكهية والنباتات التى ادخلت حديثا - النباتات الحبوبية والنجيلية - الحبوب غير النجيلية - الخضر والنباتات البقلية - النباتات الليفية النسيجية - نباتات الصباغة - النباتات ذات البذور الزيتية - النباتات الكلاية - النباتات الأخرى النافعة - أزهار الزينة ونباتاتها - المراعى فى الصحراء والواحات - النباتات الطبية.

٢٠- مقدمة

لم يوف مؤلفو الأزمان القديمة والعصور الوسطى (١) الكلام على نباتات مصر. وأول من حصر نباتاتها وضبطها هو العلامة النباتى الشهير (دويل) الذى كان مرافقا للحملة الفرنسية ، ولم يكن عمله الخطير جامعا لشتات النباتات المصرية ولا مستقصيا وصفها ولكن لما تمكن محمد على من تقرير قواعد الأمن والنظام فى القطر المصرى والصحارى المجاورة له، وفيما بين

(١) فى الأزمان القديمة هيرودتس وسترابون وديودورس الصقل وبليناس وفى القرون الوسطى بروسيرالبان والعرب، وبعد ذلك لبيى وفورسكال وغيرهما.

مصببات النيل والنوبة العليا استطاع علماء المواليد الثلاثة الجوس خلال هذه الأرجاء بلا خوف على حياتهم لإتمام العمل الذى بدأ به العلامة (دوليل). وهم إذا عجزوا عن حصر النباتات كلها واستقصائها بأبحاثهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم مغبة الإيغال فى الصحراء فجاء عملهم لهذا السبب ناقصا ميتورا.

ولما أنشئت مدرسة الطب فى أبى زعبل عهد تعليم علم النبات إلى أحد تلاميذ الأستاذ العلامة السنيور (فيفانى) الجنوى، ألا وهو السنيور (فيجارى) الذى كان فوق إحاطته بأطراف العلوم يميل كل الميل إلى علم النباتات أحد فروع علم المواليد الثلاثة، ولهذا نراه منذ اثنى عشر عاما دأبا مواصلة الجد فى البحث والتحقيق والاستقصاء فى أرجاء مصر المختلفة. وقد وصفت وصفا مستفاضاً فى كتاب العلامة فيفانى. كما استكشف ما لا عداد له من النباتات الذائعة فى الأقاليم المختلفة. وقد قام العلامة فيجارى بأبحاث مهمة وتجارب خطيرة فى الزراعة، وإليه معظم الفضل فيما التقطناه من المعلومات التى زينا بها حواشى هذا الفصل الموجز. على أننا لم نكتف بهذا الإيجاز. بل توسعنا فى جملة من موضوعاته فى الفصل المعقود خصيصا للزراعة المصرية.

٢١- عموميات

النباتات الخاصة بأرض مصر محصورة العدد، فنباتات جهات الأهرام مثلا تتفق مع نباتات الأطلانطيق = الأطلنطى = التى ذكرها فيفيانى. أما نباتات الجهات المقابلة لتلك أى جهات شرق وادى النيل فتتفق مع نباتات بلاد العرب التى ذكرها العلامة (فورسكال) وأصلها من الصحراء. ثم اختلطت بنباتات الجهات المجاورة لضفة النيل.

وإذا اتجهنا نحو الشمال الغربى فى جزء الصحراء الممتد على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط فإننا لانتبث أن نجد فيها النباتات الخاصة بحوض هذا البحر.

وإذا واصلنا السير فى الصحراء إلى الحدود المتاخمة لبلاد الشام فإننا نجد فيها النباتات الخاصة بمنطقة فلسطين، وقد اجتازت تلك الحدود لتدخل مصر وتستقر فيها.

ومن الأمثلة التي تساق في هذا الموضوع أن النباتات الشائعة في ضواحي غزة والعريش وبلبيس هي عين النباتات التي وصفها العلامة (أوليفيه) ضمن النباتات السورية الأصل. ومفهوم أننا فيما سبق من القول نقصد النباتات الحشيشية السنوية ونصف السنوية لغيرها.

وإذا اتجهنا في وادي النيل جنوباً حتى نبلغ إلى الدرجة السادسة والعشرين من العرض الشمالي فإننا نرى النباتات وقد اتخذت شكلاً خاصاً غير شكلها في الجهات الأخرى، لأن أصلها من النباتات النوبية الطارئة على القطر المصري.

٢٢. نباتات الصحراء

أنواع النباتات الخاصة بمصر توجد منعزلة بالصحاري القاحلة وقليل منها يوجد في الأودية التي تتخلل سلسلة جبال المقطم وأنواعها الخاصة المجاورة لصفاف النيل والترع والبحيرات والمستنقعات بالوجه القبلي قليلة محصورة العدد أيضاً.

وليس لنباتات الحقول من الوجهة العلمية شأن خاص يستدعي الاهتمام بها لأننا إذا ضاهيناها بمقابلها من نباتات أوروبا ألفينا الأنواع التي تتألف منها قليلة بخلاف نباتات الصحراء والأودية المتغلطة في سلاسل جبال العرب وليبية. فإنها حرة = جذيرة = بعناية علماء النبات وتوفرهم على البحث فيها. على أن فيها من الخصائص ما يجعلها بنباتات جبال الألب أشبه منها بالنباتات المصرية البحتة.

والأنواع النابتة في الرمال تكاد تكون كلها سنوية أو نصف سنوية. أما التي تبقى قائمة على سوقها أكثر من هاتين المدتين فنادرة جداً، ويذكرون من هذا النوع صنفين من السنط الشوكي.

ونباتات الصحراء ترى في الأصقاع المنعزلة المنخفضة أرضها انخفاضاً محسوساً عن الأرضين = الأراضي = المحيطة بها الشبيهة بأودية أهليجية الشكل أبعادها طولاً وقصراً أو تتجه بوجه عام من الشرق إلى الغرب مع ارتفاع الأرض الحافة بها من الشمال والجنوب.

وتبدو الصحراء لعين العالم النباتي كبسيط أرض انتشرت في أرجائه جزر

صغيرة غير متناسقة تحتوى مختلف النباتات وتلك الجزر الخصيبة المجللة بالأعشاب الخضراء مراتع الغزلان التي ترتاد المراعى لغذائها.

والنباتات العطرية منتشرة فى الصحراء، ومنها ما هو من صغر الحجم وكثرة اللون بحيث يتعذر على حديد = قوى = البصر تمييزه بعضه عن بعض، على أن فى منظر بعض نباتات الصحراء ما يسبب الاغترار والخطأ فمن ذلك أن السائر فيها كثيرا ما يخلل له من بعيد أنه يرى شجرة باسقة فإذا ما يراه فتاة قد بدت لناظره فى شكل الشجرة، وكثيرا ما يتفق له بسبب السراب أن يرى قمم الأشجار تعلو فوق سطح الماء والحقيقة أن شيئا من ذلك غير كائن ولا بصحيح وإنما هو السراب المغرر الخادع.

والماء باختراقه وجه الأرض فى الشتاء حيث يندر هطول الأمطار يرسم فيها خطوطا كما يفعل الحراث، وتكون فيه ذرات قليلة من الطين وأكسيد الحديد وينور مختلفة. فإذا اجتمعت هذه المواد المختلفة فى الجزر الأرضية الصغيرة التى تكون فى العادة أوطأ مما حولها من الأرض وجاءت الرياح حاملة إليها من الجهات القصية بذورا أخرى فإن هذه البذور وتلك لا تلبث متى حان ميعاد الإنبات فى فبراير غالبا أن تنبت وتنبثق أوراقها وتزهو فى مارس أو أبريل. وفى شهر مايو يقف نمو النبات، وفى يونيو وبقيّة الصيف لا تقع العين إلا على سهول قاحلة جرداء.

ولون نباتات الصحراء أخضر ضارب إلى البياض عادة وأنسجته جافة لايجرى فيها من العصارة النباتية إلا النزر اليسير وهى جميعا على وجه التقريب من النبات ذات الفلقتين الويرية الخشنة الملمس وترتفع على سطح الأرض قليلا ولها جذور عميقة خيطية الشكل تمتد بعيدا فى باطن الأرض.

وأكثر الشجيرات شيوعا فى الصحراء على الحالة الطبيعية شجيرة السبال المعروفة عند العرب بالسيالة، وسماها العلامة دويل (أكاسياسبال). وهى قليلة الارتفاع تكاد تكون عديمة الورق ذات شوك طويل يشبه فى لونه بياض الفضية^(١) أما فروعها فمغطاة ببشرة - أى غلاف خشن يشبه ملمسه ملمس قروش السمك، ولونها أحمر غامق، ونادراً ما تزهر وتكون تلك الشجيرة

(١) جاء فى القاموس المحيط للفيروزى فى مادة «سبال» السبال كسحابة نبات له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن.

محاطة عادة برمل رفيع جدا يجتمع عند أصلها ثم يرتفع شيئا فشيئا إلى نصف ساقها. ويتفق أحيانا أن يغطيها الرمل فتكون الأكام الصغيرة التى تنشأ منه أصلا للكتبان الرملية الكبيرة.

ونادرا ما يشاهد النخل فى الحالة البرية. عل أنه يصادف أحيانا كذلك فى الصحراء وفى أودية المقطم. وعندئذ يكون قصيرا تحيط به أصول السعف المقطوع أو الذابل منثنية أو متدلية وقد حف بها الشوك، ويرى فى قمته السعف الأخضر منبتقا باهت اللون خشن الملمس. وهذا الصنف من النخل لا يأتى بزهرة أبدا وإذا أزهى بقلته من فلتات الطبيعة فإن ثمره يكون رديئا، وقد اعتاد الغريان وحشرة شبيهة بالجعل إتخاذ سعف هذا النخل أو كارا لها.

٢٣- الأرض الصالحة للزراعة فى القطر المصرى

اشتهرت مصر فى كل زمان بفرط خصبها وجودة حاصلاتها ووفرة غلاتها. وهذه المزايا ترجع بلا ريب إلى ثلاثة عوامل: الأرض والطقس ومثابرة الفلاح على العمل.

ومن العبث التحدث بنعم أرض مصر وخيراتها العميمة، والقول بأن الفضل فيها يرجع إلى النيل وفيضان مائه. فلقد سبق لى من الكلام فى هذا الموضوع ما يجعلنى فى غنى عن تكراره، وغاية ما يصح لى الإفاضة فى موضوعه الطمى. فإن الطمى لا يكفى وحده لتكوين التربة الصالحة للإنبات إلا إذا مزج بالرمل بواسطة الحرث.

أما الأراضى الكثيرة الرمل فلا تناسب من النبات إلا الخفيف الجنور رفيعها الذى يستطيع النفوذ بلا جهد فى هذا النوع من الأرض. أما الأرض الطينية الطمىية التى تتألف منها الأرض القابلة للزراعة فى القطر المصرى فمختلطة فى كل مكان بالمواد الملحية التى تعاون على نمو النباتات الكبيرة.

وطقس مصر يساعد بحرارته فعل مياه النيل وتأثيرها المخصب. فليس بغريب إذن أن نرى الحقول الفسيحة وقد أزينت بالأزهار. ويتم العمل فى الحقول الزراعية بقصارى ما يتصور من السهولة فى أقصر وقت وبأقل ما يمكن من الأيدى العاملة.

وإذا كانت عوامل الطبيعة ومؤثراتها قد جاءت منقادا إلى ملاك الأتبان فى

مصر لتكون تحت تصرفهم فى خدمة أراضيهم فهم وحدهم المسئولون عن مقدار ما تنتجه هذه الأراضي من الثمار والمنافع قلة وكثرة. ومما لا شك فيه أنهم إذا استحكم فيهم الجهل أو استناموا إلى الدعة والكسل فلم يهبوا من رقادهم ليعملوا على تنمية موارد رزقهم ولم يستخدموا تلك الهبات الطبيعية للبلوغ إلى ذلك الغرض فإنهم يفوتون على نفوسهم المال الكثير والخير الوفير.

أما إذا كانوا على إرث من الذكاء والاجتهاد فإنهم ينتفعون به فى مرافقهم ويرفعون شأنهم بإنماء ثروتهم، وهو ما نشاهده منهم اليوم والحمد لله.

وفى الواقع فإن مصر إذا شوهدت الآن وقد بسقت فيها الأشجار فى كل مكان، وبدا من منظرها بضواحي القاهرة والوجه البحرى ما يشبه الغابات فإنما يرجع هذا الفضل إلى ذلك الرجل العبقري الواضع يده على زمام أمورها والآخذ بها إلى أسمى المنازل ومعالي الرتب. فلقد غرس هذا الوالى حفظه الله فى سنوات قليلة بالوجه البحرى وحده ستة عشر مليوناً من الأشجار وأنفق إبراهيم باشا الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء وادى النيل. فبعنايته المتواصلة ورعايته العالية غرست خمسة ملايين وألف وخمسمائة وأربعة وثلاثون شجرة من خمسة وعشرين نوعاً من أنواع أشجار الغابات وخمسمائة واثنان وثمانون ألفاً ومائتان وخمس عشرة شجرة من واحد وأربعين نوعاً من أنواع الفاكهة تنقسم إلى سبعمائة وأربعة وثلاثين صنفاً مختلفاً. وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل بضع سنوات لا يتجاوز اثنى عشر نوعاً. كما كان لا يوجد بها من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ثمانية عشر نوعاً، وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفرقة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقي.

٢٤. حدائق شبرى = شبرا = والروضة

مما يساعد على تقدم زراعة النباتات والأزهار قيام الوالى وابنه الكريم إبراهيم بإنشاء الحدائق الفخمة فى بعض جهات القطر. وأهم هذه الحدائق انفساح مدى وحسن تنسيق حديقتى شبرى والروضة. والأولى منهما بقرب النيل على مسافة فرسخ واحد تقريباً من القاهرة شمالاً، ويوصل إليها منها طريق واسع مستقيم مظلّل بالأشجار الحافة بعطفه. وتحتوى هذه الحديقة داراً

خلوية أنشأها الوالى على نمط المبانى البيزنطية (الإسلامبولية) وجمع بداخلها من الرياش الجميل والأثاث الثمين مايلفت النظر بحسنه تنسيقا فى الوضع وسلامة ذوق فى الاختيار.

ويطرف الحديقة المقابل لهذا القصر الجميل الجليل أنشأ محمد كشكا ظريفا وهو عبارة عن بناية مربعة ذرع = طول = محيطها ألف قدم، وأقام فيها الأعمدة من الرخام والمرمر الشرقى وجعل بداخلها نافورة جميلة من رخام إيطاليا (كرارى) ينبثق منها الماء المستمد من النيل بواسطة إحدى السواقي فيظل المقيم بجوارها يستشعر بطراوة طويلة يسكن إليها، ويضاء القصر والكشك أثناء الليل بجهاز من الغاز الأيدروجينى يقوم على إدارته وتعهده آلى = عامل = ماهر من الإنجليز.

والطباق متوافر بين جبال الحديقة وجلال المبانى الضخمة التى تحتويها، وفى الحديقة ما لا يعد ولا يحصى من صنوف أشجار الفاكهة الغضة والأشجار المجلوبة من الخارج، وهى ثمينة القيمة بندرتها وعدم وجود ما يضارعها والنباتات العطرية التى يتألف من مجموعها على اختلاف أشكالها وألوانها مايجذب النظر أمثالها بالحدائق الأوربية ويسهل المواصلات بين أطرافها المتتائية.

أما جزيرة الروضة التى ضربت بخصبها الأمثال من قديم الزمان فيرجع فضل تنظيمها وتنسيقها إلى حضرة إبراهيم باشا ، فإن هذا الأمير الجليل ما كاد يضع يده على أرضها بالشراء من أربابها حتى جعلها قسمين كل قسم منهما حديقة قائمة بذاتها ، فالحديقة الأولى نسقت بحسب الأسلوب الإنجليزى والأخرى بمقتضى الطريقة الفرنسية ووكل أمر الحديقتين إلى إثنيين من مهرة البستانيين وهما تجمعان الآن أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية.

٢٥. حدائق الشرق

إن شهرة الحدائق الشرقية غنية عن البيان. وقد أذاعت مفاخرها بيننا قصص ألف ليلة وليلة فإذا تخيلناها على ما وصفت به فى هذه القصص خيل لنا أننا نستنشق رياها = ريحها = العطر. والسبب فى أن العرب خصوا الحدائق بعنايتهم الفائقة راجع إلى كونهم سكان قفار قاحلة تتسلط عليها حرارة الشمس المدارية فلا جرم إذا رأوا فى انبثاق النبات وتكاثر الخضرة

معجزة من المعجزات فحسوها = فعنوها = فى انبثاق النبت وتكاثر الخضرة معجزة من المعجزات فحسوها بالإطناب فيها بشعرهم والإشادة بما تمده من الظلال الوارفة، ويجرى فيها من الماء السلسبيل المنعش بطراوته، بل لاجب إذا رأوا فيها النعمة السابقة ففهم الله بها من فضله والنعيم الذى لا يدانيه نعيم فى الوجود، بل لا غرابة إذا وضعوا الجنة فى وسط ما طمحت إليه آمالهم واشربت إليه أعناقهم من غضارة العيش والسعادة فى ذلك النعيم المقيم.

وليس فى حدائق الشرق ما يجعلها شبيهة بالحدائق فى البلاد الأوربية، إذ إنها خالية من أثر التجانس والتناظر المبنين على دقائق العلم والفنون الهندسية. ولا شيء يذكر الجالس خلالها بما أزيئت به حدائقنا من الأزهار التى نسقت أوضاعها على أحسن مثال، ولا بما امتازت به الحدائق الإنجليزية من لطف التركيب فى الجمع بين أقسامها المنسقة وأنواع نباتاتها المرتبة، إذ غاية ما يشاهد فى تلك الحدائق إنما هو أشجار الفاكهة مزوجة لأشجار الزينة ومجاورة لها بلا نظام معروف ولا نسق مألوف فترى أغصان هذه ملتفة بأغصان تلك لم يشذبها مشذب التقليم، ولم تباشرها يد التنميق والتنظيم. وكثيرا ما يحدث لهذا السبب أن تتداخل الأغصان فى الأغصان. وتتشابك الأشجار بالأشجار فتتدلى أغصانها الملتفة إلى الأرض لثقلها فلا يستطيع أحد أن يمر من تحتها إلا إذا أحنى جسمه أو حبا على الأرض حبوا. بل يخيل له أن هذه الأوكار النباتية الطريئة التى يكاد يكون السلوك فيها متعذرا إنما جعلت للعزلة وتبادل الأسرار الغرامية.

وفى حدائق مصر ترى أشجار الليمون والبرتقال والتين والجميز والنخل وغيرها متزاحمة متلاحمة، وأزهارها تفرش الأرض ببساط تتضوع منه الروائح العطرية والمياه المتشعبة خلالها منبثقة فى النافورات ومتدفقة الأحواض ثم منسابة بأطراف الحديقة فى جداول تتلوى تلوى الأفعوان فتروى أصول الأشجار، والكشوك = الأكشاك = الجميلة بين هذه الأشجار الباسقة تمتد فوق قبابها أغصان النباتات الغضة مرصعة بالأزهار الزاهية الألوان.

ويميل الأتراك جميعا - ماداموا على شيء من الثروة - إلى إنشاء الحدائق على هذا المثال. وتكون حدائقهم أحيانا بداخل المدن، وفى وسطها الدور لسكنى نسائهم، ولكنها تنشأ غالبا فى الضواحي والأرياف. وأجمل الحدائق الريفية فى القطر المصرى ما كان منها بالدلتا، ولاسيما بالفيوم.

٢٦. الغابات

زعموا أن مصر كانت تحتوى قديما غابات كثيرة. ولو قيل لنا أن هذه الغابات كانت فى الأرض القابلة للزراعة من الخصوبة بحيث لا يفكر أصحابها فى أن يجعلوها كلها أو بعضها - فى حال ما - غابات لا يستفيدون من وراء تعهدا إلا الحطب الجاف، ولكن بعض المؤلفين يذهبون إلى أن الجبال الحافة بوادى النيل يمتدة وبسرة كانت فيما سلف مجللة = مغطاة = بالأشجار. وهذا الزعم كسلفه فى الخطأ والفساد لأن مجرد نظرة إلى تلك الجبال تكفى للإقناع بأنها لم تكتس فى يوم ما بما لا ينبت عادة إلا فى الأراضي الزراعية، وأنها جبال جرداء لا يستطيع النظر أن يلتقى بقشة واحدة على سطحها القاحل.

فلو فرض وجود تربة فيها كثرة الأرض الخصبة فإنه ينبغي أن تظل آثارها باقية حتى الآن، إذ لا يمكن التسليم بإمكان تجريد الجبال منها. يضاف إلى ما سبق أن هذه الجبال لا تنزل عليها الأمطار ليقال إن مياهها جرفت وذهبت بها. على أنه بافتراض أنها كانت مغرسا لأشجار الغابات فإن الأمطار التى تهطل عليها لا تكفى لريها وإنباتها فضلا عن أنه كان من الواجب أن يبقى منها بعد اندثارها آثار ماثلة حتى الآن. والمعلوم أن الآثار الغابية التى بقيت على مر الأجيال إنما هى آثار شجر الجميز وأشجار أخرى من التى لا طاقة لها على النمو والبقاء إلا فى الأراضي العميقة التى يوافيها ماء الرى كل حين.

ليس فى القطر المصرى من الغابات الطبيعية سوى ما يتألف من أشجار النخل، والغابات من هذا القبيل كثيرة العدد فى القسم الشرقى من الوجه البحرى - أى فى مديرية الشرقية ثم فى الطريق الموصل من العريش إلى الصالحية من جهة وإلى بلبس من جهة أخرى. وفى ضواحي القاهرة غابات نخل كثيرة بعضها بالجيزة فى مواقع مدينة (منفيس) القديمة بالقرب من بلدة (أم خنان) وهناك غابات نخل أخرى فى (بركة الحج) بالقرب من (الخانقاه) حيث هزم الصدر الأعظم بانتصار الجنرال كليبر عليه الانتصار المبين فى الواقعة المعروفة بواقعة عين شمس.

٢٧. تبيد نباتات أوروبا الجنوبية

إن طقس مصر وطبيعة أرضها يتفقان تمام الاتفاق مع تبيد النباتات الجنوبية فى نصف الكرة الأرضية وتجنيسها بما تقتضيه الطبيعة فى مصر

فمن المستطاع والحالة هذه - باتخاذ مصر نقطة وسطى بين هذين الطرفين - الوصول إلى تبيد النباتات الهندية فى البلاد الأوربية.

ومن طبيعة النباتات فى مصر سرعة النمو، وهو ما يشاهد بنوع خاص فى نباتات أوربا الجنوبية، فلا غرابة إذا عاشت هذه النباتات فى الديار المصرية أقل مما تعيش فى بلادها الأصلية، وهى تأتى بثمار وفيرة ولكن صغيرة الحجم غير لذيدة الطعم. نعم قد تمكن العارفون من تحسين نوعها بعملية التطعيم، ولكن ينتهى الأمر بها دوماً إلى التغير والفساد بعد سنوات قليلة.

ومثل هذا يقال عن النباتات البقلية التى أدخلت على الزراعة المصرية. فإن البذور التى تؤخذ منها تكون رديئة بوجه عام.

ومن هذا القبيل أن البطاطس الأوربية إذا زرع فى أرض مصر أتى بمحصول وفير جدا، ولكنه إذا زرع فى السنة التالية من بطاطس هذا المحصول فإن محصوله يكون أقل من هذا كمية وأردأ صنفا. وكذا بذور البنجر الأوربية تعطى فى السنة الأولى محصولا عجيبا. حتى أن البنجرة الواحدة كثيرا ما يبلغ وزنها كيلو جراما وتكون كثيرة المادة السكرية، ولكنها إذا زرعت فى السنة التالية من بذور المحصول الأول أعطت نباتا كثير الورق ولكنه عديم البذور تقريبا وقليل السكر.

ومن المحتمل أنه بمرضى الزمن يمكن الوصول إلى أحسن من هذه النتائج باستئناف التجارب وتدوين الملاحظات وتطبيق ما تهدى إليه من وسائل العناية والتعهد.

٢٨- النباتات الأجنبية التى أدخلت فى حدائق أصحاب السمو

من هذه النباتات شجرة (الفاقللى) الهندية وهى منتشرة حسنة النمو

وشجرة (ترميناليا) الهندية، ويزرع منها الآن صنفان كبيران.

وشجرة (سرسييس سليكستروم).

وشجرة (الميس) البروفنسية.

وشجرة (التنكا) الهندية.

وشجرة (الصندل) الأبيض.

وشجرة (الاثل).

وشجرة (البن).

ولم تتبلد هذه الشجرة الأخيرة إلا بعد صعوبات جمة. على أن منها الآن بضع شجيرات نمت نموا حسنا ، بعضها فى الحدائق الخاصة بإبراهيم باشا وقد بلغت من النمو فى الأرض الطلقة من إثنى عشر إلى خمسة عشر قدما، وهى تثمر مقدارا عظيما من حبوب البن. والمرجح أن نجاح زراعته يكون أضمن فى الوجه القبلى منه فى الوجه البحرى لأن هذه الجهة تشبه بموقعها من خطوط العرض وبطبيعة أرضها طبيعة أرض بلاد اليمن.

وشجرة الغاب الهندى، وقد تحسنت بالتبلد تحسنا صارت به على شىء كثير من الحسن، وقد انتشرت فى كل مكان ولا تزال أخذة فى الانتشار.

ثم الشجيرات من الفصيلة الجبهانية.

والفصيلة الآسية ومنها أصناف نادرة المثال.

والفصيلة الغارية، ومنها شجرتا القرفة والكافور وغيرهما.

وفصيلة خانق الكلاب، ومنها الجوز المقى وأصناف أخرى غيره.

والفصيلة الزاروندية، ومنها شجرة الفانيلا التى تنجح نجاحا تاما كنبات طفيلى ينمو على أشجار التوت الكبيرة.

والفصيلة الشنيينة (ومنها نبات تلومبيوم سببسيوزوم) الذى يزين أحواض الماء هو والبشنيين المصرى.

وشجرة (طاليا دياباتا) وتوجد بين هذين النباتين المائنين.

وقد بعث الاستاذ العلامة (دوليل) هذا النبات الأخير مع نباتات أخرى من حديقة نباتات مونبلييه.

وشجرة (فيلولاكاديويكا) وتنمو نموا عظيما ويعظم حجمها وشجرة (كونفولفولوس بتاتا) ومنه بطاظة اليمن التى تنجح زراعتها فى مصر نجاحا باهرا ، وستكون فى عداد بقولها المهمة.

وشجرة (كوبر ستوس سميرفيرنس، لينيه) المعروفة عند العرب بالسرو.

وهى فى مصر كثيرة، وتزرع على حافات المسالك وأعطاف الطرق، وتنمو

بسرعة بالغة . حتى أن ارتفاعها ليبلغ من ست أقدام إلى سبع فى السنة الثانية لغرس بذورها، والشرقيون لا يتخذون هذا الشجر كما يتخذه أهل أوربا رمزا للحزن وزينة خاصة بالمقابر.

وشجرة (بينوس هابنسيس، ميلر) المعروفة عند العرب بالصنوبر والتنوب. والمهمة مبذولة لتكثيره.

وشجرة (موروس ألبا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت البلدى.

وشجرة (موروس نيجرا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت الشامى.

وقد غرست فى هذه الأيام ثلاثة ملايين شجيرة بالوجه البحرى على مسطح من الأرض مساحته عشرة آلاف فدان. وأشجار التوت تورق فى شهر يناير ويبلغ ورقها حد النمو فى منتصف فبراير والطقس فى مصر موافق لها كل الموافقة . لأنه لا يمضى على غرسها زمن طويل حتى تنمو نموا حسنا.

أما التوت الأسود - أى التوت الشامى فإنه يجنى منها ويباع بالطرقات ويحب الأهلون أكله.

وشجرة (أوليا أوريبا، لينيه) المعروفة بشجرة الزيتون.

والظاهر أن هذه الشجرة وجدت فى مصر منذ الأعصر القديمة، ولايزال إقليم الفيوم المعروف بخصبه يحتوى القدر الوفير منها وقد بلغ بعض هذه الأشجار من النمو مبلغا يخيّل للرأى معه أنها غرست قبل الفتح الإسلامى لأن الاعتقاد سائد بأن شجر الزيتون لم تهيا له المزارع منذ ذلك الوقت حتى الآن.

٢٩ - ومع أن أرض مصر تلائم زراعة شجر الزيتون ملاءمة عجيبة، إذ إنه لا ينقضى على غرسها ثلاث سنوات حتى تأتى بثمارها الوفيرة، فإن هذه الشجرة الثمينة أهملها العرب وطرحوها فى زوايا النسيان. ولم يتعذر على محمد على إدراك ما ينجم من المزايا الجليلة عن زراعة الزيتون فى مصر خصوصا وأن هذه الزراعة تكفيها مؤونة جلب الزيت من الخارج كما تفعل حتى الآن، وتؤدى إلى الشعب المصرى غذاء جديدا فوق ما اعتادوه من الأغذية فتراه لهذه الأسباب باذلا الجهود العظيمة لإعداد مزارع الزيتون وتنمية أشجاره فيها. ولابراهيم باشا فى حدائقه الكثيرة نحو مائة ألف عود من الزيتون. وزيتون مصر مشهور بكبر الحجم وكثرة اللحم.

وشجرة (سلكس سبسرائتا، ولدنوف) المعروفة بشجرة الصفصاف.
 وشجرة (سلكس بابيلاتيكا، لينيه) وهى نوع آخر من الصفصاف.
 وهذان النوعان كثيرا الانتشار، ومنهما تتخذ الحكومة الفحم الذى تستعمله
 فى صناعة البارود.
 وشجرة (أولوس كميستريس) المعروفة عند العرب بشجرة الدردار أو
 الفرعاج.
 وشجرة (ميرتوس كومونيس) المعروف بالمرسين.
 وهى تزرع بالحدائق وتباع أغصانها لليهود لمصلحة لهم فيها أيام أعيادهم.
 وشجرة (تمركس جليكا - تمرکس أوريننايس، لينيه) المعروف بالآثلة
 والطرفة.
 وتزرع هذه الشجرة خصيصا لأجل ظلها. وتوجد عادة حول السواقي ومن
 خشبها يتخذ الفحم، ومن نتوءاتها تستخرج الصبغة السوداء وتستعمل هذه
 النتوءات أيضاً فى دبغ الجلود.

٣٠- الأشجار الأجنبية

تحتوى الحدائق، ولاسيما حدائق حضرة إبراهيم باشا فى جزيرة الروضة:
 شجرة جرافة البراغيث (بتولا ألبا، لينيه).
 وشجرة الميس البروفنسى (سلتيس أستراليس، لينيه)
 وشجرة اللوز أو البدام (ترميناليا كتابا، لينيه).
 وشجرة الأرخوان، أو شجرة يهوذا (سروى سيليجستروم، لينيه).
 وشجرة جوزة الزنج (ستركوليا بلاتانيقوليا).
 وشجرة اسفندان الجميز (آسر بسودو بلاتانوس، لينيه).
 وشجرة اسفندان الذلب أو الساج أو الجنار (آسر بلاتانويد، لينيه).
 وشجرة اسفندان الغيطان أو الجرسق (آسر كمبسترا، لينيه).
 وشجرة الاسفندان ذات ورق لسان العصفور (آسر نيجوندو، لينيه).
 وشجرة فيلاريا ذات الأوراق العريضة (فيلاريا لاتيفوليا، لينيه).

ومن الأشجار التى فى حدائق الوجه البحرى:
 شجرة الدلب الشرقى (بلاتانوس أورينتاليس، لينيه) وهى كثيرة الانتشار.
 وشجرة لسان العصفور (فراكسينوس أورموس، لينيه).
 وشجرة المران (فراكسينوس اكسلسيور، لينيه).
 وشجرة (روبينيا بسودو اكاسيا، لينيه).
 وشجرة الفول الأمريكية (جليد ستشياثيا كنتوس، لينيه).
 وهناك أصناف أخرى مختلفة أدخلت حديثا ، ومنها تتخذ الزرابى المحيطة
 بالحظائر.
 وشجرة الحور أطلق عليها العلامة لينيه اسم (بوبوليس ثريمولا).
 وأنواع مختلفة من شجرة السرو وهى: (دستيكا، بندولا، أوريزونتاليس) وهى
 عديدة.
 وشجرة الصنوبر الغابى (ثويا أورينتاليس، لينيه) وهذان النوعان منتشران
 انتشاراً عظيماً فى الحدائق.
 وشجرة القرو (كركوس) وهى نادرة الوجود.
 وهذه الأشجار كلها زراعتها ناجحة ، وتنقل من الحدائق إلى المزارع
 الواسعة.
 ولوحظ أن النباتات الليلية تتبدل بسهولة متى أعتنى بها فى أول الأمر. ووجه
 العناية بها أن توضع فى أمكنة ملائمة لها ومظلة . على أن تكون الأرض خفيفة
 رطبة وافرة مواد النماء. فإنه بمراعاة هذه الشروط تنبت البذور وتنمو النباتات
 ويتيسر بعد مضى ثلاث سنوات وضعها فى الحدائق فتنمو نمواً سريعاً مطرداً.
 ومما يستدعى الدهشة أن الزيزفون وشجر الغاز الكرازى لا يوجدان حتى
 الآن فى مصر، وأن شجرة الشاهبلوط الهندية لا أثر لها فيها بالمرءة.
 وشجرة البان (مورنجا أوليفيرا، لينيه) وهى شائعة فى النوبة واليمن
 وثمرها محمود، وهو على شكل الجوز، لما توافر فيه من الخواص الطبية.
 وقد أدخلها إبراهيم باشا منذ نحو خمسة عشر عاماً، ومنذ هذا الحين

انتشرت انتشارا عظيما.

٣١. أشجار الفواكه الأهلية

شجرة اللوز (امجدالوس كومونيس).

الصفان اللذان يثمران اللوز الحلو واللوز المر يزرعان بمصر، ولكنهما قليلا الانتشار وثمارهما متوسطة النوع.

وشجرة الموز (موزا براد يزيكا).

لا توجد إلا في الوجه البحرى ومصر الوسطى على أنها لا تستتبت إلا في الحدائق، وإذا زرعت في الأرض البراح = الجالية = تعرض جذعها الحامل لأوراقها الكبيرة لصدمات الرياح. والتين الموزى بعيد النوع. إلا أن ثمره لا يزال نادرا. وبالتالي مرغوبا به ولذا لا يرى إلا في موائد الأغنياء.

شجرة البلح أو النخلة (فينكس دكتيليفيرا).

يطلق المصريون على أنثى هذا الشجر «النخلة» وعلى الذكر «الذكر» والنخل منتشر في جميع أصقاع مصر العليا ومصر الوسطى. وينمو في الواحات وحدود الصحراء، وقد وجد بمصر في كل زمان بدليل أن تيجان الأعمدة في الآثار القديمة محلاة برسوم تمثل سعفه منضما. وهو ينمو بغير تعهد ولا أقل عناية ولا تدبير زراعى سابق غير أنه إذا أريد الحصول منه على الثمار الجيدة الوفيرة فلا بد من إرواء أرضه والعناية بتقليمه في كل عام، وتجتمع أشجار النخل في الغالب على شكل غابات عظيمة تعد فيها بمئات الألوف. ومنظرها يؤثر في النفس لما فيه من الهيبة والجلال وإذا جاس الإنسان خلالها خيل له أنه سائر تحت قباب هيكل عظيم مهيب. بل إذا نظر تلك الجذوع العارية السامية إلى ارتفاع ستين أو ثمانين قدما ظن أنه يرى تلك الأعمدة الرشيقة التي أذاعتها هندسة القرون الوسطى في مبانيها المنظمة وأثارها المتحدة. إذ تجد مجموعات الأوراق العريضة السمكية المتوجة للأعمدة متزاوجة متعانقة. فيتكون منها ما يشبه تقوس القباب وتوافرت به وجوه الشبه على النمط السالف.

ولأشجار النخل أربعة وثمانون صنفا يميزها بعضها عن بعض اللون والشكل والحجم والنوع. ومن حيث اللون يمكن تقسيم تلك الأشجار إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول النخل الذى يثمر البلح الأحمر، والثانى النخل نو البلح

الأصفر والثالث النخل ذو البلح الضارب إلى البياض.

وإذا كانت النخلة منعزلة لا يجاورها نخل آخر بدت للرأى رشيقة الشكل،
وانه لما يروق للعين أن ترى وسط السيف = الزعف = المتفرع من رأسها
أعذاقا جسيمة من البلح معلقة بأسفل تلك الأوراق، وكثيرا ما يبلغ وزنها بضعة
قناطير من البلح. والبلح كما هو معلوم ثمر جيد حلو المذاق وافر مواد التغذية.
وأصنافه كثيرة مختلفة وما يرد منها من الصعيد والواحات أحلاها مذاقا وألذا
طعما.

ويبتدىء نضجه فى الوجه القبلى فى أواخر يونيو، وفى الجهات الأخرى بعد
ذلك بشهر على وجه التقريب. وهم لا يدعونه ينضج على أمه - أى على شجرته.
بل يقطفونه قبل أوان النضج ويحفظونه عندهم مدة من الزمن يبلغ فيها إلى
الدرجة الملائمة من النمو ثم يباع بعد ذلك فى المدن حيث يتطعم به كل الناس
على السواء. وهو غذاء اقتصادى فى متناول يد الفقير. فالبلح من هذه الوجهة
نعمة من نعم الله أسبغها على سكان أهل مصر. وليس كل البلح يؤكل طازجا
بل منه ما يعجن كعجين الخبز ويستفد على هذا الشكل خلال السنة.

ومن البلح تستخرج ثلاثة أشربة، وهى الشراب المعروف بالعرقى ونوع من
الخل والشراب المعروف بالدبس أورب البلح.

ولم يكن النخل من الأشجار المباركة لثماره فقط. بل أيضا لما ينتفع به فى
المعيشة من أجزائه التى يتكون منها جميعا. فإنه ما من جزء من أجزائه إلا
وتبنى عليه مصلحة وتستمد منه منفعة. فبالأوراق تصنع الحصر للجلوس
والقفف للمصالح البيتية، ومذبات = مضارب = طرد الذباب التى كثيرا ما
تجلب إلى أوربا كأداة من الأدوات الغربية وبالأغشية التى تغلف السعف عند
عراجينه وتعرف باسم الليف تصنع الحبال اللازمة فى مرافق الزراعة ومنافع
النقل وغيرها.. إلخ وبالفروع المتصلة بها أعذاق = سباط = البلح تصنع
الحبال الطويلة المتينة وقد يخط بها ورق السعف فتكون الحبال المصنوعة على
هذه الكيفية ملساء ناعمة. وينتفع بالفروع فى وضعها بين الأخشاب التى تسقف
بها المنازل فتتنزل منها بمنزلة ألواح الخشب ومنها تتخذ الأقفاص للطيور
والأسرة والكراسى وغيرها.

والطرف الغليظ من العرجون ينزع من النخلة وهو كثير الألياف فإذا دق بجسم ثقيل تفككت أليافه وصنعت منها المكانس لتنظيف البيوت.

وإذا أدركت النخلة - أى بلغت أوان الإزهار فإن عضو التأنيث يتولد منه نوع من الليف يزيد سمكه على سمك شعر الخيل ، ويصلح فى الحمامات لذلك الجسم به مع الصابون.

وجذوع النخل تستعمل عادة مكان العروق الخشبية فى العمارات وغيرها من الأعمال التى تستدعى استعمالها. وتلك الجذوع تنتشى بسهولة إذا كان خشب النخل الذى اتخذت منه لا يزال طريا ، ولكنها تجمد شيئا فشيئا فتزداد صلابة ومقاومة على توالى الأيام.

أما نوى البلح فيصلح للوقود عند بعض ويعطيه آخرون للجمال غذاء لها.

ومما تقدم يتيسر للقارئ أن يستنتج أنه قلما يضحى الناس بنخلة. بالنظر إلى توافر تلك المنافع فيها، فإذا قطعت نخلة من أصلها فذلك لأنها لا تحمل ثمرا ومتى قطعت وجد بأعلى جذعها الذى هو متلقى أعذاق البلح مادة صالحة للتغذى بها طولها نحو القدم وتسمى قلب النخلة أو لبها أو الجمار. وهى مؤلفة من طبقات قشرية متراكبة بعضها على بعض بيضاء اللون لينة المجس تشبه فى مقاومتها اللوزة الطرية كما تشبهها فى طعمها. والعرب يحبونها ويشتهونها ويتهاونونها وهى ذات قيمة جلية ومقدار عظيم فى نظر المهدي إليه.

ومعلوم أن النخل لا فروع له إلا السعف الطويل الذى يتفرع منها متقوسا ومثنيا إلى أسفل من طرف الجذع، وينتظم وضعه حوله على خمسة أو ستة صفوف، وفى كل سنة يقطع الصف الأسفل منها وأثر هذا القطع ظاهر فى محيط جذع النخلة بأصول السعف البارزة والمتجهة من أسفل إلى أعلى، وبواسطة هذه الأصول يمكن تحديد عمر النخلة إذ كل صف منها تتألف منه دائرة حول الجذع يعدل سنة منه وليس ببعيد أن يوجد من بين النخل ما يبلغ عمره بحسب هذه القاعدة عدة أجيال.

ومن السهل - بالتأمل السطحى - معرفة أنه من المتعذر الصعود فى نخلة إلى أعلاها بنفس الطريقة التى يصعد بها فى الأشجار الأخرى. لهذا ترى المصريين يتحليون على الوصول إلى قمة النخلة بوسيلة خاصة بهم، وهى أنهم يعقنون حول جسمهم وحول جذع النخلة حبالا متينا فى جزء منه بعض العرض

يجعله أشبه شىء بالمقلاع، ثم يستندون جلوسا إلى هذا الجزء ويرتكزون بأرجلهم على أصول السعف الناتئة بسبب قطعه، ويستعينون بهذا الوضع وبواسطة أيديهم أيضا على الصعود على الشجرة برفع الجزء الملامس للجذع من الحبل إلى فوق، وهم يعتمدون على هذه الطريقة فى النزول كما صعدوا.

شجرة الدوم أو المقل (كروسيغير اطيائىكا) وثمره «البهش».

تختلف عن النخل المعتاد بنعومة جذعها وانقسامها إلى طفيين = فرعين = عظيمين ينقسم كلاهما إلى فروع أخرى. ويختلف ثمر الدوم اختلافا عظيما عن النخل - أى البلح، ولكنه مثله فى تعلقه بالأعناق ويعدل حجمه حجم البرتقالة باستطالة قليلة وعدم تجانس فى الشكل. ويحيط بثمر الدوم غلاف ضارب إلى الحمرة توجد من تحته مادة اسفنجية سكرية المذاق ولكنها تافهة الطعم. ولى هذه المادة فى وسط الثمرة نواة غليظة. وشجرة الدوم تأتى أكلها من هذا الثمر مرتين فى كل عام، وهى غير معروفة بالمرّة فى الوجه البحرى ولا فى مصر الوسطى، ويبتدىء وجودها فى الأرض الواقعة على مسافة ٧٠ فرسخا من القاهرة حوالى طهطا، ومن المؤكد أنها أبعد من أن تعدل النخل فى منافعه ومزاياه الكثيرة.

شجرة الجميز (فيكوس سيكوموروس) أكبر أشجار القطر المصرى حجما وأغلظها جذعا، ويظهر أنها من أشجار مصر الأصلية. بدليل ما ذكره عنها قدماء المؤرخين، وأن تواييت الموتى (المومياء) مصنوعة بخشبها، وتبلغ من النمو أحيانا ما يجعل محيط جذعها من عشرين إلى ٣٠ قدما. ويكون هذا الجذع قصيرا جدا فى الغالب وتمتد فروعه فى اتجاه يكاد يكون أفقيا فتلقى على الأرض ظلا وارفيا.

أما لون أوراقها فأخضر جميل يظل ثابتا طول السنة. لأن ما يذوى منها لا يسقط من منابته إلا إذا نبت مكانه ورق جديد. فشجرة الجميز على هذا الاعتبار من الأشجار العيمة النفع فى بلد حار الطقس كمصر.

أما ثمره فتبنى ذو أنواع مختلفة، والغريب فى أمره أنه لا يتدلى من الأغصان كثمر الأشجار الأخرى بل يرى ثابتا على الجذع الأصلى والفروع الغليظة، ولون هذا الثمر أصفر لا يختلف شكله فى شىء عن شكل التين العادى، إلا أنه لا يعدله فى حلاوته ولذة طعمه، ويبتدىء نضج هذه الثمار فى

شهر يوليو ويعجل نضجها بعد بلوغها الحد الطبيعي من النمو بقطع الجزء الأعلى منها فلا تمر أيام حتى ينضج تماما ويجمع فيؤكل.

والمشهور عن خشب الجميز أنه لا يعتريه الفساد، ولدينا قطع مشغولة منه منذ العصور القديمة. فإذا بها حافظة لكيانها. ويتخذ من هذا الخشب الآن القواعد التي ترسو المدافع عليها.

وشجرة المشمش (برونوس أرمنیکا).

وشجرة الخوخ أو الإجاص (اميجداليس برسيكا).

يبلغ من الارتفاع حدا لا بأس به، إذ كثيرا ما يصل إلى ٣٦ أو ٤٠ قدما ويجفف الثمر ليمزج ببعض الأطعمة الأخرى فيطيب طعمها. وأشجار الخوخ في مصر قليلة، ويتم نضج ثمارها حوالى شهر مايو.

وشجرة البرقوق (برونوس دومستيكا) وهى فى مصر على أنواع مختلفة.

وشجرة الكمثرى (بيروس كومونيس).

وشجرة التفاح البلدى (مالوس كومونيس).

وشجرة السفرجل (سيديونيا فولجاريس).

والأشجار التفاحية السالفة الذكر لا تبلغ من النمو فى مصر ما تبلغه منه فى أوروبا ولا تكون ثمارها بجودة هذه وطبيها.

وشجرة التين (فيكوس كاريكا).

وهى قليلة الانتشار والموجود منها ثلاثة أنواع التين البرشومى وتين بوليزان والتين البلدى وثمار هذا الأخير جيدة حلوة المذاق.

وشجرة التين الهندى (كاكنوس أوبونثيا) ويسمى بالتين الشوكى.

وهى منتشرة فى مصر، وتزرع لعمل الزرابى حول الحدائق، وتؤكل ثمارها التى يحيط بها قشر مجل بالاشواك الرفيعة.

وشجرة العناب (زيزيفوس فولجاريس).

وخشبها صلب جدا يصلح فى العمارات ونجارة الأثاث وتنمو أشجار العناب عادة بين الأشجار المغروسة حول السواقي.

وشجرة الخروب أو الخرنوب (سيراتونيا سيليكيا) وهى نادرة الوجود بالقطر

المصرى ولا ترى إلا فى بعض الحدائق.

شجرة النبق (راموس سينا كريستى).

شجرة فى شىء من الكبر وضخامة الحجم ذات ثمر صغير يشبه التفاح فى شكله، وحبّة العنب الكبيرة فى حجمه وطعمه حريف إذا كان أخضر فجاً لذیذة إذا بلغ النضج وصلاح للأكل، والمصريون مغرمون بأكله، ولعل هذا لأنه هو الذى كان معروفاً فى الأزمان القديمة باللوتس على قول هوميروس الشاعر اليونانى. وأشجار النبق منتشرة فى كل مكان بالقطر المصرى.

وشجرة الرمان (بونيكاجراناتوم).

والموجود منها نوعان: يسمى أحدهما بالرمان فقط ويمتاز بحلاوة ثمره والآخر بالرمان الحجازى وثمره حامض الطعم فى حلاوة.. وقشرة النوع الأول حمراء والثانى حمراء قاتمة.

وهذا الشجر حلية الحدائق وزينتها فى الوجه البحرى ومصر الوسطى. وهو شائع فيهما إلى درجة أن بلاداً برمتها لا يشتغل أهلها بغير زراعته.

والبرتقال أنواع كثيرة منها نوع لون لحمه فى حمرة الدم وهو نادر الوجود يسمى برتقال الداسين.

شجرة الليمون البلدى (ستروس مديكا):

وثمره كثير صغير ممتلىء بالماء (العصارة) ذو مادة صمغية لزجة. أما الليمون الكبير فقد انتشرت شجراته بالتطعيم. والليمون الحلو محبوب من المصريين ولكنه قليل، ولقلته لا يستطيع الفقراء الحصول عليه.

وشجرة المخيط (كوردياميك).

وشجرة عالية يبلغ علوها عادة ثلاثين قدماً، وتأتى فى شهر مايو بزهر زكى الرائحة أما ثمارها فغير لذیذة الطعم.

وشجرة المخيط الرومى (كورديا كريناتا).

وهى أصغر حجماً من السابقة وأقل ارتفاعاً ولكن ثمارها أجود وألذ طعماً.

وشجر العنب (فيتيس فينيغرا).

كانت أعناب مصر وأنبذتها ذات شهرة فائقة وصيت ذائع فى الأعصر القديمة، وكان الرومان يهتمون بها جد الاهتمام حتى أنهم نقلوا بعض أعوادها إلى إيطاليا لتبليدها فيها. ثم جاء الفاتح الإسلامى بعد ذلك بمبادئته التى تحرم شرب النبيذ تحريما قاطعا. فآثر تأثيرا بالغا فى زراعة الكروم وأدى إلى إهمالها وإغفال العناية بها.

على أن الفاتحين سمحوا ببقاء بعض الأشجار فى الحدائق للتفكه بثمرها دون اعتصار النبيذ منها. فكان من حظ إقليم الفيوم تصدير الأعناب إلى أسواق القاهرة والإسكندرية.

والعنب البلدى جيد لذيد الطعم بذوره صغيرة الحجم قليلة العدد إلى حد أنه لا يوجد منها سوى بذرة واحدة فى كل حبة. بل إن هناك نوعا من العنب لا بذر بالمرة فى حبوبه وهو مشهور عند المصريين باسم العنب البناتى.

ومنذ خلصت مقاليد الأحكام لمحمد على وانتهت أزمته إلى يده عادت زراعة الكروم إلى شىء من سابق انتشارها وتقدمها. فإن سمو الوالى وحضرة نجله قد أدخلوا فى مصر زراعة أنواع العنب كافة المعروفة فى أوروبا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريبا نجاحا باهرا. وحتى الآن لم يحاول غير الأوربيين استخراج النبيذ منها، ونبيذهم هذا جيد النوع ولكنه كثير الكحول.

وللشرقيين عادة فى العنب وهى جمع قطوفه خضراء غير تامة النضج واتخاذ ورقه للطعام يحشونه بالآرز واللحم.

٣٢. أشجار الفاكهة والنباتات التى أدخلت حديثا

من هذه الأشجار والنباتات:

الأناناس (برومليا أناناس).

هذه الشجرة مع انتشار زراعتها لم تغلح فى مصر لأنها تآتى فيها بمحصول قليل جدا من الثمر.

وقصب السكر (سكاروم أوفيسناروم) ويسمى أيضا بالقصب الحلو.

ينمو نموا تاما حسنا فى القطر المصرى، ولكن زراعته لم تزل غير واسعة النطاق ولا موفية بحاجة البلاد من السكر فتضطر إلى استجلابه مكررا من

البلاد الأوربية، ومع هذا فإن بعض السكر المصرى يصدر إلى الحجاز ومكة وبعض جهات بلاد العرب.

وأوسع منطقة لزراعة قصب السكر فى ضواحي اليريمون فى قرى الوجه القبلى.

وأوان نضج القصب حوالى شهرى نوفمبر وديسمبر، ويصل من الارتفاع حينذاك إلى عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ومتى بلغ هذا الحد من النضج قطع وعصر فى المعمل الذى انشأته الحكومة هناك واستخرج منه السكر وشراب الروم.

شجرة الكراز (برونوس سيراوسوس)

حاولوا إدخالها وتبليدها فى مصر فنمت فى أرضها نموا حسنا ولكنها لم تأنث بأقل ثمر، ومن المحتمل أن يتمكن العاملون من إعطاء مصر أشجار تثمر الكراز إذا اجتهدوا فى تبليد اشجار الكراز المالطية بدلا من أشجاره المستوردة من أوربا الوسطى. لأن شجر الكراز المالطى معتاد على درجة حرارة تقرب كثيرا من درجة الحرارة فى القطر المصرى.

شجيرات الشليك (فراجاريا)

إنه لعدم وجود جبل ما فى مصر يحتوى أشجار الغابات لايوجد فيها من شجر الشليك إلا النوع البرى منه، وقد أصبح الباعة الآن يبيعون فى الطرقات ثمره بعد أن كان مجهولا من الأكلين أو كان على الأقل نادرا جدا على عهد الممالك.

شجرة القشدة أو القشطة (أنوناسكواموزا)

أصل هذه الشجرة من أمريكا وكانت نادرة جدا فيما سبق لاتوجد إلا فى بعض الحدائق، أما الآن فقد أصبحت أكثر انتشارا. وهى متوسطة الارتفاع وثمرها كثير الشبه بتفاحة ثمر الصنوبر. لونها أخضر جميل ولحمها لين جدا يشبه فى شكله وطعمه السكرى ورائحته المحبوبة شكل القشدة وطعمها ورائحتها. ولهذا سميت بذلك الاسم. ويتخذ الفحم من خشبها كما يتخذ من أوراقها مسحوقة بعد تجفيفها لزقة توضع على العين إبان الإصابة بالرمم الصديدي.

شجرة الجوافة (بسيديوم بروميفيروم).

اشتهرت هذه الشجيرة في مصر حتى أصبحت معروفة من الجميع وهى ذات ثمر وافر كثير.

شجرة الجوز (جوجانوس رجيا).

هذه الشجرة التى هى من أشجار البلاد الباردة فى مصر لم تزرع قبل محمد على وهى تنمو فيها نموا حسنا ولكن ثمرها قليل وإذا أدخلت زراعتها فى هذا القطر فما هو إلا لخشبها دون ثمرها.

شجرة الباباير أو نخلة العجور أو الباباز (كارىكا بابايا).

ترتفع هذه الشجرة كثيرا وتضخم وتأتى بثمر جيد وأصلها من أمريكا. شجرة الفستق (بستاشيا فيرا).

هذه الشجرة ذائعة الانتشار وتأتى بثمر جيد جدا.

٣٣. النباتات الحبوبية النجيلية

القمح أو الحنطة (تريتيكوم ساتيفوم).

اشتهرت مصر بحبوبها منذ الأعصر القديمة إذ كانت تمون بها بلاد اليونان وإيطاليا حتى لقد أسماها الشاعر (ناسيتوس) بخزائن رومية. ومنذ تعددت فيها صنوف الزراعات وشغلت بزراعتها شطرا كبيرا من الأرض ضاق نطاق زراعة الحبوب بالرغم من أن هذه الزراعة ما برحت شاغلة المرتبة الأولى بين صنوف المزروعات المصرية.

وقد غالى الكثيرون فى تقدير محصول القمح المصرى فأبلغه بعضهم إلى ٥٠ أو ٦٠ فى المائة والبعض الآخر إلى ١٠٠ فيها. والحقيقة أن متوسط هذا المحصول لا يتجاوز ١٥ إلى ٢٠ فى المائة. وإذا تجاوز هذه النسبة فى بعض السنين التى تمتاز بوفرة المحصول فى الجهات الملازمة لزراعته فإنه لا يتجاوز ٢٥ وتارة ٣٠ أو أربعين فى المائة.

والقمح المصرى جيد الصنف وأجوده ما كان من الوجه القبلى. وسوقه = أعواده = قلما يزيد ارتفاعها على قدمين أو قدمين ونصف. وهذه السوق غليظة وصلبة تعلوها بوجه عام سنبله وافرة الحبوب. وأرض مصر لا تنتج سوى

القمح. وغنى عن البيان أن القمح فيها على جملة أنواع تختلف عن بعضها بلون الحبة وشكلها وصلابتها.

القمح العربى (ترينكوم ترجيوم).

الشعير (هورديوم فولجارى).

بينما تتطلب زراعة القمح الأرض الرطبة الكثيرة مواد الخصب، تكفى الأرض الرملية لزراعة الشعير ويختلف متوسط محصوله فى الفدان الواحد من ٥ أرباب إلى ١٢ أرباب.

وتعطى حبوب الشعير بوجه عام غذاء للخليل، ودقيقه إذا مزج بدقيق الحنطة صلح أحيانا لتهيئة الخبز. وفى القاهرة يصنع النشاء مستخرجا من الشعير والقمح والأرز.

الذرة (سور غوم فولجارى).

تزرع بمقادير عظيمة جدا لأنها لا تستلزم عناء الحرث الكثير ولا ميثاق الري بالماء ويختلف محصولها فى الفدان الواحد من ١٥ إلى أربعين أربابا. ويبلغ ارتفاع ساقها إلى ٨ إلى ١٠ أقدام. وعلى دقيق الذرة المعول فى تغذية الفلاحين إذ به يصنعون خبزهم ويفضلونه على الخبز المصنوع بدقيق الحنطة بالرغم من حموضة طعمه ورداعته. وسوق الذرة بعد جفافها تصلح وقودا لأفران الجير (القماين) كما تصلح لإقامة الحواجز وتغطية سطوح المنازل وبناء الأخصاص والأكوخ الصغيرة.

يسمى المصريون الذرة العادية بالذرة الصيفية لأن بنورها تبذر عادة فى آخر مارس، وهناك صنف آخر من الذرة يزرع فى فصل الخريف ويسمى بالذرة البيضاء (سورغوم سرنوم) والذرة العويجة.

الذرة الشامية (زياميس).

أطلق هذا الوصف عليها لورودها من الشام، وحبوبها صفراء اللون وأكبر حجما من حبوب الذرة البلدية، ويؤخذ منها محصولان فى السنة الواحدة، الأول فى الصيف والثانى فى الشتاء. وقد اعتاد الفلاحون قطع كيزان الذرة طرية قبل تمام النضج والتغذى بها بعد شيها على النار ويتخذ من دقيق هذه الذرة خبزا

أجود من خبز الذرة البلدية السالفة الذكر. ومحصول القدان الواحد منها يبلغ أحيانا إلى ١٤ أردبا.

الدخن (سورغوم سكاراتوم).

الدخن «نوع آخر» (بانيكوم ملياسيوم).

الدخن «نوع آخر» (برميتيوم تيفوثيديوم).

الأرز (أوريزاساتيفا).

ذهب بعض المؤلفين إلى أن الأرز كان مجبولا = طبيعيا = من قدماء المصريين، وبحث غيرهم في عكس ما ذهب هؤلاء إليه. والرأى الراجح هو أن الأرز كان لايزرع قديما في مصر. بدليل أنه لا يرى مرسوما على آثارها في حين يرى القمح والشعير مرسومين عليها. والمحقق أن العرب هم الذين أدخلوا زراعته بعد أن جلبوه معهم من بلاد الهند.

وتستلزم زراعة الأرز الأراضي الواطئة الطمئية. هذا ما دعا إلى الاقتصار في زراعته على الوجه البحرى. وفي ضواحي دمياط ورشيد يزرع من الأرز أجود أصنافه. ومتى تم حصد الأرز وهىء للاستنفاد خلط بالملح البحرى الجاف لصيانتته من الفساد وحفظه زمنا طويلا.

ومنذ استلم محمد على زمام ولاية مصر أدخل زراعة الأرز في إقليم سنار.

٣٤. الحبوب غير النجيلية

من هذه الحبوب:

الحلبة (تريجونيلافينوم جريكوم).

الحلبة نبات كلى يحببه المصريون، وهم يتغذون به. إذ ياكلون منه الساق والورق ومنابت الحبوب. وهم يحمصون هذه ويتخذون منها شرابا كقهوة البن ويصنعون منها مستنبتة نوعا من الطعام يدخل العسل في تركيبه.

الفول (فاباساتيفا) أو الفول البلدى.

الفول أحد الحاصلات الوفيرة في القطر المصرى، وتبذر بذوره في الحقول والغيطان الفسيحة، وحبوبه فيه أصغر حجما منها في أوربا. ولكنها أجود صنفا وألذ طعما. ويتخذ المصريون منها طعاما يعتبر من أطعمتهم الأساسية

فإذا كانت طرية أكلوها بالملح أو جافة كغذاء للماشية والدواب كالبحر والجمال والحمير.

وكان كهان الهياكل فى الأزمان القديمة يعتبرون الفول غذاء غير طاهر بسبب ما كانوا يشهدونه فى زهره من البقع السوداء التى كانوا يقولون إنها تشبه شارات الحداد وعلاماته.

الجلبان (لاتيروس ساتيفوس).

البسلة (بيزوم أرفنس).

يزرعان فى الوجه القبلى وتعطى حبوبها للجاموس والجمال.

الحبة السوداء (نجيلا ساتيفا).

العدس (أرفوم لنس).

كان عدس مصر مشهورا فى الأزمان القديمة ، وكان الرومانيون يسمونه «عدس بيلوزه» وهو لا يزال منتشر الزراعة غزير المحصول فى مصر ولونه أصفر برتقالى جميل.

الترمس (لويينوس ترمس).

حبوبه مرة المذاق لا تصلح غذاء إلا للإنسان، وإنما ينبغى قبل أكلها أن تنقع فى الماء الملح. وساق الترمس ليفية، ولهذا تتخذ وقودا فى المصالح البيتية وغيرها.

الحمص أو الملائنة (سيسر أريكتيوم).

يسمى المصريون هذا النبات بالحمص وهم يأكلون حبوبه خضراء ويسمونها عندئذ بالملائنة. أما إذا جفت فيأكلونها بعد تحميصها على النار وتعطى سوقها للمواشى.

اللوبياء (بوليكوس لوبيا).

تزرع اللوبياء فى الوجه البحرى وسوقها قصيرة وحبوبها بيضاء الشكل ذات نقطة سوداء فى سرتها، ويوجد بأطراف الصعيد الأعلى نوع آخر من اللوبياء مستدير الحبوب صغير الحجم يعدل حجمه حجم الفلفل الأسود وقد سماه لينيه باللاتينية (فازيولوس مونجو) ويسمىها الأهالى «الماسح».

٣٥- الخضر والنباتات البقلية

الخبيزة (مالفاسافستريس، لينيه).

الخبيزة «نوع آخر» (مالفافتيسلاتا، لينيه).

الباميا (هيسكوس اسكولانتوس، لينيه).

الرجله (بورتولاكا أو لراسيا، لينيه).

السبانخ أو الإسفاناخ (سييناسيا أو لراسيا).

السلق (بيتا فولجاريس).

تؤكل هذه الخضر مسلوقة أو مطبوخة باللحم.

الملوخيا أو الملوكية (كوركوروس أو ليتوريوس، لينيه).

أما الخبيزة التى لا تنمو فى أوربا إلا بالحالة البرية فتزرع بمصر فى الحدائق والحقول والأهوان يفضلونها على الاسفاناخ ويستنفذونها أكثر مما يستنفذه الأوربيون.

أما الباميا وتعرف عند العامة باسم (الجومبو) وفى أمريكا باسم (كالالو) فمن الخضر اللزجة ، وتستنفذ بكثرة مدة نحو ستة أشهر من كل سنة وهى طعام نافع جدا.

أما الملوخيا فمن البقول التى يحبها المصريون أيضا كما يحبون الباميا وهى شديدة اللزوجة وتافهة الطعم. وتبلغ فى نموها ارتفاع قدم إلى قدمين وزهرها أصفر جميل يسترعى النظر. وتجفف أوراق الملوخيا لتحفظ برسم الطبخ فى فصل الشتاء، وإذا وضعت بعد جفافها فى الماء المغلى لانت وصارت كما لو ألقيت فيه وهى خضراء. وتطبخ الرجلّة والاسفاناخ والسلق بالطرق المتبعة فى طبخ النباتات المشار إليها.

البصل (اليوم سيبا).

الكراث (آاليوم يوروم).

الثوم المعتاد (آاليوم ساتيفوم).

إن بصل مصر المشهور بالجودة منذ الأعصر القديمة يستحق حتى اليوم

هذه الشهرة. وهو أصغر حجما من بصل أوروبا ولكنه ألد منه طعما. ويستنفذ في مصر بمقادير عظيمة ومحصوله في الوجه القبلى أوفر منه في الوجه البحرى.

والكراث ينمو في مصر نموا عظيما ويؤكل كما هو في إبانته ولكنه إذا كبر حجمه وغلظ طبعه وأكل كما تؤكل الخضر السالفة الذكر.

وزراعة الثوم غير منتشرة في مصر.

الكرفس (أبيوم جرافيو لانس، لينيه).

البقدونس أو المقدونس (بيوم بترو سيليوم، لينيه).

الهندباء (شيكوريوم انتيوس، لينيه).

الخس (لكتوكاساتيفا، لينيه).

الرشاد (ليبيديوم ساتيفوم، لينيه).

والكرفس لا يزرع إلا في حدائق الوالى، والمصريون يأكلون جذوره ولكنهم لا يأكلون أوراقه.

والمقدونس نادر جدا في مصر.

والخس يوجد في أرضه وينمو نموا حسنا ويؤكل نيئا ويوجد بالأسواق طول

فصل الشتاء.

الجزر (نوكوس كاروتا، لينيه).

اللفت (براسيكا نابوس، لينيه).

القلقاس البلدى (آرون كولوكازيا، لينيه).

البيارون، البشنين، النيلوفر (تنفيا كابروليا رادكس).

الفجل (رافانوس ساتيفوس).

والجزر المصرى صغير جدا شديد الحمرة كثير الأوراق حريف الطعم.

واللفت غير منتشر الزراعة ويؤكل في مصر بنفس الكيفية التى يستنفد بها

في أوروبا إذ يخلل في الخل.

ويطبخ القلقاس كما يطبخ اللفت.

أما البيارون أو النيلوفر أو البشنين فمعروف منذ القدم. وهو نبات مائى يغطى بعد انقضاء فيضان النيل سطح الترع بأوراقه الكبيرة التى تنبعث من وسطها أزهار بيضاء أو ضاربة إلى الزرقة جميلة الشكل. ويؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أن ثماره كانت أحب الأغذية إلى المصريين وهى لاتزال حتى الآن مرغوبا فيها .

ويستفد الفجل بمقادير عظيمة جدا ، ولأوراقه عروق غليظة يحبها المصريون ويفضلونها على الجنور.

الكرنب (براسيكا أولراسيا، لينيه).

القرنبيط.

القرنبيط الأسود (بروكوليس).

الخرشوف (سيناراسكوليموس، لينيه).

والكرنب لاتتجح زراعته بمصر نجاحها بأوربا .

والخرشوف يظهر فى أسواقها من شهر فبراير.

الشبت (أنيثوم جرافيونانس، لينيه).

الطماطم، الباذنجان القوطه (سولانوم ليكوبرسيكوم، لينيه).

يأكل المصريون الطماطم نيئا وناضجا وكذا الخضر الأخرى.

القرع الطويل (كوكورييتا لاجنياينا، لينيه).

القرع الإسلامبولى (كوكورييتا بيبو، لينيه).

القرع المغربى أو الأوزى (كوكورييتا بوليمورفا، لينيه).

الخيار (كوكوبيس سانيفوس، لينيه).

الباذنجان (سولانوم مليونجيرا، لينيه).

نباتات الفصيلة القرعية شائعة الاستعمال فى طهى الأطعمة.

وفى القطر المصرى نوعان من الباذنجان أحدهما أبيض ويسمى بالباذنجان الأبيض والآخر بنفسجى اللون ويسمى بالباذنجان الأسود، والمصريون يأكلون الباذنجان نيئا ومطبوخا كما يأكلون الخيار نيئا ويخللون الكبير الحجم منه فى الخل.

الكراويا (كاروم كارفى، لينيه).
 الكزبرة (كورياندروم ساتيفوم).
 الكمون (كومنيوم سينينوم، لينيه).
 الأنيسون (يمينلا أنيزوم، لينيه).
 الفلفل الأحمر (كاسيوم فروتسانس، لينيه).
 وأثمار هذه النباتات المختلفة تدخل فى الطعام كتوابل.
 ملونا أو القاوون أو الشمام (كوكوميس ميلو، لينيه).
 البطيخ (كوكوربيتا سترولوس).
 القاوون فى مصر أصناف عدة ، وقاوون الوجه القبلى أحسنها . أما مايزرع
 منها فى ضاحية القاهرة فقليل الحلاوة.
 أما البطيخ وهو الثمر المرطب للبدن والفاكهة التى تفضلت العناية الإلهية
 فأسبغت نعمتها على البلاد الحارة فمنتشر الزراعة كثير المحصول فى مصر.
 وكان معروفا فيها منذ الأعصر القديمة، وفوائده ومزاياه عنى العرب بزراعته
 وتعهدوها بالتحسين تعهدا متواصلا. وإن ننس لا ننس ما أفاد البطيخ به جيش
 الحملة الفرنسية فى رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة حينما اشتد على الجنود
 القيظ وأخذ العطش منهم كل مأخذ، وكان العساكر يسمونه كقدماء المصريين
 بالبطيخ المقدس تنويها بفوائده ومزاياه.
 ومنذ بضع سنوات أدخلت إلى مصر زراعة كل ما يزرع بأثناء أوروبا من
 صنوف الخضر فلم تلبث أن انتشرت فيها.
 والخضر كثيرة وشائعة فى حدائق القاهرة . حيث تبلغ من النمو حدا لا
 بأس به ، ولكنها مع حسن منظرها شديدة اللزوجة تافهة الطعم غالبا . ونباتات
 الخضر تذبل أوراقها أحيانا، وهذه الأوراق عريضة السطح ملساء ذات لون
 أخضر فاتح وهى سريعة النبت والنمو.

٣٦. النباتات النسيجية

التيل أو القنب (كانابيس ساتيفا، لينيه).
 تيل سيام (أورتিকা نيفيا).

كان التيل قبل عهد محمد على لايزرع إلا فى الوجه القبلى للانتفاع ببذوره فقط ، وكان الناس يتخذون من هذه البذور غذاء أو شرابا مخدرا يسمى بالحشيش ولكن الباب العالى عمم زراعته تعميما عظيما ليتخذ من سوقه الخيوط الضرورية لصنع حبال السفن وقلوعها ، أما القماش للباس وغيره فلم يصنع من التيل . لأن أهل مصر يفضلون عليه القماش المصنوع من الكتان .

أما التيل السيامى فقد بعث به أخيرا إلى العلامة (فيجارى) العلامة (دوليل) الأستاذ فى (مونبلييه) ليدخله فى زراعة مصر . وقد نجح العلامة فيجارى فى ذلك نجاحا باهرا يحمل على الاعتقاد بأن زراعته ستنمو وتنتشر انتشارا عظيما .

القطن (جوسبيليوم فيتيفوليوم، لينيه).

زراعة القطن من النعم الجزيلة والموارد الفياضة بالثروة التى أصبحت مصر مدينة بها لمحمد على . ومعلوم أن شجرة القطن كان يزرعها أهل مصر فى حدائقهم باعتبار كونها من شجيرات الزينة وظل هذا شأنها حتى أخرجها محمد على من زاوية النسيان وجعلها فى مقدمة موارد الثروة المصرية . وساتكم على هذه الشجيرة ببيان أوفى فى الصفحات التى سأبحث فيها عن الحالة الحاضرة للزراعات فى القطر المصرى .

الكتان (لينوم أوزيتا تسيموم، لينيه).

هذا النبات من أقدم ما زرع فى القطر المصرى إذ كان المصريون القدماء يتخذون منه الأنسجة المشهورة التى كانوا يصدرونها إلى جميع أنحاء العالم . ومنه يصنع المصريون الآن الأقمشة التى يلبسونها .

كتان زيلاندة = نيوزيلانده = الجديدة (فورميوم تيناكس).

لم تبذل حتى الآن الجهود الكافية لتبليد هذا النبات بالقطر المصرى . إذ لم يصل إلى مصر فى الحقيقة منه سوى نبتة واحدة أرسلت من حديقة مونبلييه ولكنها ماتت . وقد يتأتى من زرع هذا النبات نفع جليل لمصر ، ولهذا يحسن استئناف التجارب لتبليده مادام هناك من البوادر ما يحمل على الجزم بنجاحه والحصول منه على النتائج المرضية . وفعلًا فإن طقس القطر المصرى قريب من طقس زيلاندة الجديدة ، وقد دلت التجارب الأخيرة الكثيرة على صلاحية تربته

لإنبات وإنماء ما يجلب إليه من النباتات الجديدة لزراعها فيها.

٣٧ - نباتات ألوان الصبغة

القرطم، العصفور، الأخرىض (كرتاموس تنكتوريوس، لينيه).

إذا بذرت بذوره فى وقت انحسار ماء الفيضان عن الأرض فى الاستطاعة حصده فى مارس بدون أن يستلزم عناية ما ولا تعهدا فى أنوار نموه، ويعد جفاف أوراقه تسحق وتجمع إلى بعضها على شكل رغيف من الخبز. ويستخرج من بذور القرطم زيت شائع الاستعمال بين عامة الأمة. أما سوقه فتتخذ بعد جفافها للوقود. وزراعته أكثر شيوعا فى مصر الوسطى منها فى غيرها.

القوة (روبياتنتكتوريا، لينيه).

تزرع القوة فى مصر منذ بضع سنوات، وكانت تستخرج سابقا فى جزيرة قبرص وهى فى مصر لا تأتى حتى الآن بمحصول يكفى للتقدير إذ كل محصولها تستنفده معامل الحكومة وفاروقاتها.

البليخاء، الليرون، الأسليخ (ريزيدا لوتيا، لينيه).

الحناء، القيفرس (لاوسونيا البيا).

تجفف أوراقها ثم تسحق فيكون منها ذلك المسحوق الذى تستعمله النسوة فى تلوين بعض أجزاء أيديهن وأرجلهن ليصير لونها كلون الجوز الكابلى، وفى جهات عديدة من القطر المصرى تصنع السلات من فروعها الصغيرة بعد جفافها. وشجرة الحناء لا يحتاج نموها إلى الرطوبة.

النيلة، النيل، النيلج، العضليم، السمانى، انديقون (انديجوفيرا أرجينيا، لينيه).

النيلة الصينى (بوليجونوم تنكتوريوس، لينيه).

تذر بذور النيلة عادة على ضفاف النيل، وتزرع بوجه خاص فى الوجه القبلى والفيوم، ويظهر أن القوة الملونة فى النيلة المصرية مثلها فى النيلة الأوروبية وإن كانت المادة المجهزة فى معامل النيلة المصرية أقل نقاوة وصفاء منها فى تلك.

والفضل فى إدخال زراعة النيلة الصينية إلى القطر المصرى راجع إلى

العلامة الأستاذ (بوليل) من مدينة (مونبلييه) بفرنسا. ويأمل الموسيو فيجاري الموكل بزراعتها أن يتمكن بما أخذه من بذورها في العام الماضي من توسيع نطاقها ، وأن يباشر أعمال استخراج المادة الملونة منها بعد ذلك.

طرنشولى، الغبيرة، الغبيراء (كروتون تنكتوريوم).

ينمو هذا النبات وحده في الفيضان.

٣٨. النباتات الزيتية

تكلمنا فيما سبق على بعض النباتات التى يستخرج الزيت من بذورها ونقل الآن إن الزيت يستخرج أيضا من بذور الكتان ويسمى بالزيت الحار (الزتحار) وبذور القطن والغبيرة والتيل ويسمى زيت التيل، والفول السودانى ويسمى زيت فول سنار. وبذور الشلجم زيت الشلجم. وبذور أبى النوم ويسمى بزيت أبى النوم، وبذور الخروع ويسمى بزيت الخروع. وبذور السمسم ويسمى بزيت السيرج (الشيرج).

٣٩ - النباتات الكلائية.

٤٠ - نباتات نافعة مختلفة.

٤١ - نباتات الزخرفة والزينة.

٤٢ - مراعى الصحارى والواحات.

٤٣ - النباتات الطبية الاهلية والاجنبية.

(٣)

حيوانات مصر

٤٤. عموميات

لما كانت أرض مصر متكونة مما حمله النيل ولايزال يحمله من الطمي فأول ما يتجه الظن إليه أنها كانت قبل هذا التكوين عبارة عن خليج للبحر الأبيض المتوسط يوازى البحر الأحمر من اتجاهه ويشبهه فى امتداده وأن حيواناتها لهذا السبب لم تكن أصلية - أى خاصة بها - وأن ما فيها من الكائنات

الحيوانية إنما انتقلت إليها بالمهاجرة المتتالية من الأصقاع الأخرى، وأن هذه المهاجرة كان يتسع نطاقها بتقلب الأرض على الماء على أثر رسوب الطمي بعضه فوق بعض.

وفى المأثور من روايات الأقدمين ما يكفى لتأييد هذه النظرية التى يعززها من جهة أخرى المقارنة بين الحيوانات التى حنطت بمصر فى الأزمان السابقة ولا تزال محفوظة فى المقابر فى عدد يتجاوز الألوف والحيوانات الموجودة الآن فى هذا القطر. أما تعيين الجهات التى بدأت المهاجرات منها فلا يزال من المسائل العسيرة الحل، وإنما يؤخذ من توافر الشبه بين أغلب حيوانات مصر قديما وحديثا والحيوانات الخاصة ببلاد البربر أن نقطة تلك البداية هى هذا القسم من بلاد إفريقية الشمالية.

وهذا القول ينطبق بنوع خاص على الحيوانات الثديية والشرط الأكبر من الأفاعى.

أما الطيور فقد اتفق علماء الحيوان على التسليم بأن مصر كانت فى كل زمان طريق صلة وانتقال لتلك الحيوانات التى اعتادت أن تهجر بلادها إلى البلاد البعيدة مرتين فى كل عام ذهابا وإيابا. وهذا هو السبب الذى جعلنا نجد فى مصر أنواع الطيور الأوربية وجملة طيبة من أنواع الطيور الخاصة بأسيا ماعدا طيور قليلة العدد يدخل عدم وجودها فى باب المستثنيات المثبتة للقاعدة. أما الطيور الأخرى التى لاشك فى أنها من الطيور المقيمة لا الرحالة فإنها تعيش وتموت فى هذا القطر بدون أن تتخطى الحدود التى تعيش فى نطاقها.

ولست أقصد من أيراد أسماء الحيوانات التى اتخذت مصر مقاما لها أو ممرا تسلك منه إلى الأقطار النائية الإبغال بعيدا فى دائرة علم الحيوان فإننى إنما أقصد تعريف القارئ على وجه سطحى بخصائص كل نوع إذا عن لنا فيها ما يفيد الوقوف عليه منها، وتصحيح الخطأ فى بعض الآراء الشائعة بشأنها.

وإنى وإن توخيت فى إيراد تلك الأسماء عدم إزعاج القارئ بجفوة الترتيب والتبويب ووحشية الألفاظ الفنية الاصطلاحية. لاسيما إذا كان من طبقة الظرفاء الذين لا أشك فى أنهم سيكونون صفوة المطلعين على هذا الكتاب فقد بدا لى

أن أجعل هذا العمل مرتبا بحسب الطرائق العلمية حتى لا يكون من جهة أخرى
دون ما ينتظره منا رجال العلم.

الحيوانات الشديدة

الحيوانات الأهلية الداجنة: الحصان - الحمار - البغل - الحمل -
الثور - الجاموس - الغنم - الماعز - الكلاب - السنائير.

الحيوانات المتوحشة: الذئب - الثعلب - ابن أوى - الضبع - الخنزير
البرى - فرس البحر - الدركاس - الدامان - القرد - القنفذ - النمر - قط
النهر - الفار - الأرنب.

الحيوانات الأهلية الداجنة

٤٥ - الحصان

للخيل فى مصر أنواع عديدة منها النوع العربى الأصيل الوارد من بلاد
العرب ، والنوع الشامى الذى تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة، والنوع الوارد من
داخل آسيا وأوروبا ، والنوع المجلوب من دنقلة. وقد اختلطت هذه الانواع
ببعضها فكان نسلها خليطا مختلفا، على أنهم يتخذون للطلوكة غير الجياد
العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا نزت على أفراس قوية انجبت نوعا
من الجياد كبيرا قويا تام استدارة الأعضاء ، وهو الذى يتألف منه النوع
المصرى الحقيقى.

فالحصان المصرى أطول قامة من الجواد العربى ورأسه أحسن وضعاً من
رأسه ورقبته أجمل منقارا وأدق الاستدارة وعينه يطير منهما شرر النشاط
والحماس ومنخراه أعرض وأوسع من منخريه = أى الحصان العربى = وسوقه
أدق وأصلب وأكثر أعصاباً من سوقه، ومشيته أدل على النبيل والعزة والجلال،
والجواد العربى الأصيل يرى على الدوام صغير الجسم نحيله مجرداً من
الهيئات المحبوبة فى النظر بسبب ما يتكبده فى معيشته من العمل الكثير
والمشقة البالغة والحرمان المتلف وما يلقاه من الهوان فى أيدي أناس هم أقرب
إلى الهمجية منهم إلى الحضارة وأبعد عن أن يعنوا بما يملكون من الحيوانات.
ومع هذه العوارض فإنه لا يزال من الإقدام والشدة بحيث يرى صاحبه فيه عند
الحاجة أنه خير نحر وأثمن كنزله.

والمفهوم أنه لا يوجد بمصر خيل طويلة القامة، ولهذا السبب لا يستطيعون تحميل خيولها بالفرسان الثقيلة.

وأمم الشرق تستخدم الخيل بدون أن ينشأ عن استخدامهم إياها ضرر ما. لأن طاعة هذا الحيوان عندهم ليست بأقل من طاعته عندنا . بل هم لا يعذبونه بما نعذبه نحن به من بتر ذيله مثلاً وهو الأمر الذى يحط من قيمته ويثير أعصابه فهو عند الشرقيين الذين يجهلون هذه العادات وأمثالها لا يثور ولا يجمع بل ينقاد لمطالب صاحبه بإقبال عجيب مهما بلغ من حدته الطبيعية وميله إلى الحرن والعبوس.

٤٦. الحمار

يخطئ من يخلط بين الحمار المصرى والحمار الأوروبى . فإن الحمار فى بلادنا ليس إلا حيواناً ضعيفاً ضئيلاً مرزولاً سىء الغذاء محروماً من العناية يعامل بالقسوة من غير رحمة. أما فى مصر فإنه حيوان كبير حسن الخلقة خفيف المشية يجمع فى حركاته اللطف والحدة معا . وهذا هو السبب الذى جعل أثمان الحمير المصرية غالية لاسيما إذا جمعت إلى ما وصفته فيه من حسن الشكل والنشاط والقوة. وتستخدم الحمير بطريق التفضيل على غيرها فى الأسفار البعيدة بأطراف الصحراء مع الجمال محملة بالأمثلة الثقيلة والبضائع الكثيرة.

وأجمل الحمير وأعلاها قيمة الوارد منها من الجهات الجافة والأصقاع الحارة كالصعيد. أما التى تستنسل فى الوجه البحرى فأحط مرتبة من هذه فى جميع الوجوه.

٤٧. البغل

بدهى أن تنتج مصر أصناف البغال كما تنتج أجمل أصناف الخيل والحمير. والبغال فيها مطلوبة جداً. إذ منها ما يعدل ثمنه ثمن كرائم الخيل. وأصحابها يمتطونها لقطع المسافات البعيدة ويتخذون لها من السرج والعدد ما يتخذ للحمير عادة على وجه التقريب. أما البغلة فأسلس قيда من البغل وأقوى على احتمال التعب، ولذا تفضل عليه ، وسيرها العادى الخب، وهم يعبدونها هذا

السير بطريقة ميكانيكية وهى أن يجمع اليد الأمامية والرجل المقابلة لها من خلف بواسطة حبل بحيث أن حركة اليد الأولى منهما تستدعى حتما حركة الرجل الخلفية.

٤٨. الجمال

إذا أريد إطلاق لفظ «الجمال» على ذلك النوع من الجمال التى يتقوس ظهرها بحيث يكون سنامين قلنبادر إلى القول هنا بأن هذا النوع من الجمال غير موجود بمصر مطلقا. وإنما الموجود نوعان مختلفان يسمى أحدهما الجمل وهو عظيم الارتفاع عجيب القوة ثقيل المشية، ويخصص لحمل الأثقال والثانى يسميه العرب بالهجين وهو أصغر حجما من الأول وأنشط حركة وأسرع سيرا.

وبالرغم مما كانت الجمال تقوم به من جلائل الأعمال فى الأزمان الماضية فقد كان المصريون ينظرون إليها بعين الاحتقار والتصغير. فساروا فى ذلك على عكس العرب الذين يحبونها حبا جما ويجلونها ويقدرونها. على أن الجمال بصرف النظر عن نقل الأثقال وقطع أجواز الفلوات تفيد صاحبها من جهة أخرى فوائد جليلة. فإن وبرها من أهم ما يتجر به من أصناف البضاعة ومنه يتخذ العرب بيوتهم وينسجون ثيابهم وسجاجيدهم. وهى إذا خلط بعرا بالقش المقطوع ثم جفف فى الشمس كان منه وقود فى غاية من الصلاحية والفائدة. ولبن النياق من الألبان التى يقدرها الأعراب قدرها لما يستفيدون به من منفعة.

٤٩. البقر

البقر الداجن فى مصر لا يختلف فى شىء عن البقر الأوروبى، وهو يستخدم فى أعمال الزراعة وفى كثير من المصالح المختلفة. أما ما ذكره بعض المؤلفين الذين كتبوا عن مصر من جمال هذا الحيوان وجودة لحمه فلا يسبب = يصيب = شاكلة الصواب كله. ومن المحتمل أنه كان فى الأزمان القديمة ممتازا بكبر حجمه وجمال شعره ونمو قرنيه فإذا صح ذلك - وهناك ما يدعو إلى ترجيح صحته بالنظر لما كان له عند الأقدمين من الاحترام والتقدير - وفى هذه الحالة يسلم بأنه قد طرأ على نوعه بعض الفساد فصار إلى ما صار إليه. فإن البقر المصرى على ما هو مشهور الآن قد صغر جسمه إلى أن بلغ حد الوسط فى أجسام الثيران. كما صغر أيضا قرناه بوجه عام. وليس فى لون شعره الذى

يشبه لون شعر بعض الضواري ما يلفت النظر بوجه ما. كما أن جودة لحمه أبعد من أن تستحق الشهرة التي سمعتها عنها، فإن ألد لحوم الأبقار طعما وأقومها لصحة الأكل لحوم الثيران الموجودة في الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية لا في البلاد الحارة منها.

وفي مصر نوع من البقر يسمى ببقر الوحشى (الخيـس) وهو يقرب كثيرا من حمار الوحش على ما ذكره أحد كبار المؤلفين - إذا لم يكن هو حمار الوحش نفسه - ويقوم الغرب أحيانا بتربية أبقار صغيرة من هذا النوع في الخلوات لأنهم يكونون قد أصابوها في أثناء مطاردتهم لما هو أكبر سنا، والجلود المتخذة منها جيدة مرغوب فيها.

٥٠. الجاموس

الظاهر أن الجاموس ليس بمصرى الأصل. إذ لم تشاهد صورة له على الآثار القديمة. كما أنه لم توجد له جثة محنطة ضمن الموميאות. ويذهب البعض إلى أن العرب هم الذين جلبوه إلى مصر بعد الفتح الإسلامى، وإقليم هذا القطر أرضه يناسبه تمام المناسبة، فإنه قد تناسل فيها بسهولة تامة ونما جسمه وتحسن شكله وارتفعت قامته، ووبر الجاموس المصرى قليل ولون جلده رمادى يشبه لون الحديد. ويميل كثيرا إلى السباحة فى الماء ميلا يتبادر معه إلى ذهن من لم يألّفه أنه من الحيوانات البرية المائية، ولم يكن منظره مخيفا ولا مزعجا بل هو فى الحقيقة هادىء الطبع سلبى القيادة وليس فيه ما فى الجاموس الأوروبى - وعلى الخصوص جاموس رومانيا من سرعة الخوف المقرون بحب الافتراس - وتعطى الجاموسة فى اليوم الواحد من أربعة عشر إلى ستة عشر رطلا من اللبن الجيد. ولم ينتفع المصريون حتى الآن بما فى الجاموس من القوة العجيبة باستخدامهم إياه فى أعمالهم البيئية. أما لحمه فجيد جدا ولا تأكله إلا الطبقات الواطئة من الشعب.

٥١. الضأن

الضأن جزء من الثروة فى مصر، وهو فيها كثير العدد مصون الأصل، وذكر الضأن لا تخصى كما هو الحاصل عندنا، وصوفها من النوع الجيد الناعم. أما النعاج فأحسن من النعاج الأوربية من جهة أنها تلد أكثر منها. إذ

تحمل فى كل سنة مرتين فى كل حمل رأسان دفعة واحدة، وأصل هذا النوع من بلاد البرير.

وفى مصر أنواع أخرى من الضأن جلبت إليها من سنار وكردفان واليمن وهى تلك الخراف الكثيرة شحم الذنب المرتفعة القامة الرديئة نوع الصوف، ولكنها مع ذلك كثيرة اللحم جيدة الشحم. ومنها أيضا تلك الخراف القصيرة الوبر فى صلابة وبر الغزلان والأياثل، وفى بعض أجزاء جسمها نمو شحمى يمكن الاستفادة به من وجوه كثيرة.

٥٢. الماعز

أصل الماعز المنتشر فى مصر السفلى من بلاد الشام، ويتميز بتقوش ذيله وصغر قرونيه وطول أذانه فى مبوط وتدل وصهوبة لون شعره بوجه عام، ولبنه جيد غزير شائع الاستعمال وتتألف منه بداخل المدن قطعان صغيرة يقودها الرعاة فى الطرقات والأزقة، فإذا أراد أحدهم شراء شىء من لبنه حلب أمامه على منظر منه وهى كالنعاج شديدة القابلية للضراب والحمل. لأنها تعطى فى السنة حملين فى كل حمل رأسان غالبا وثلاثة رعوس أحيانا وأربعة فى الأحوال الاستثنائية.

أما ماعز الصعيد فمن نوع آخر غير المتقدم. لأنه أصغر قامة وأطول قرونا وأكثر نشاطا وأسرع حركة وأطول وبراً وأنعمه وأغزره، وهو إذا اعتبرنا هذه الخصائص أقرب شبها بماعز ولاية أنقره.

ويستورد من سنار نوع من الماعز قصير القامة جدا وقصير الشعر يخترق ظهره كله خط أسود بينما لون بقية الشعر فى الجسم كله إما رمادى وإما مائل إلى الشقرة.

٥٣. الكلب

لا أدري أيستحق الكلب المصرى أن يدرج فى عداد الحيوانات النافعة أم لا، فإنه بطباعه وعاداته يكون تارة أليفا أنيسا وطورا وحشيا نفورا، وذلك تبعا لوجوده بلا صاحب فى المدن أو الخلوات. حيث يأنس على حدود الصحراء بالثعالب وبنات أوى. على أنه فى الحالتين المتقدمتين يعرف بمميزات واضحة فى شعره فإنه فى حالة حيرته التامة يكون طويل الشعر فى لون يقرب من لون

شعر الحيوانات الضارية، ويعتمد في غذائه على ما يتركه الضبع وابن أوى من فضلة فريستهما . فإذا عز عليه الغذاء هجم على أخيه واقتترسه ليشبع نهمته.

أما في المدن حيث يرى كثير الانتشار فإنه يأوى إلى بعض الأحياء طوائف مختلفة ويستقر فيها ويتخذها موطناً له. فإذا طرأ عليها كلب من طائفة أخرى اجتمعت عليه كلابها وهاجمته ودفعته. فإذا لم ينج بنفسه نهشته نهشاً. وتلك هي معاملة هذه الكلاب للكلاب الأوربية الأصل إذا التقت بها في الطرقات. ومع أن الكلاب مدنسة في نظر المسلمين فإنها تجد منهم في مصر عناية خاصة. إذ يخصها الأكلون بفضلات طعامهم كما هو المشاهد منهم في جهات عديدة من تركية أوربا ، ومما يحق لنا ملاحظته وتوجيه النظر إليه بهذه المناسبة أن داء الكلب في هذه البلاد غير معروف من أهلها كما هو معروف من غير المصريين بالديار المصرية لما تجده الكلاب من الشفقة عليها والعناية بأمرها.

وخلاصة القول أن الكلاب المصرية من نوع خاص تناسل على توالى الأجيال بدون أن يختلط بأى نوع آخر من الكلاب. فليس من المستغرب إذا رأينا التشابه متوافراً بين صفاتها ومميزاتها وصفاتها ومميزاتها في المومياوات التي يعثر عليها بالمقابر الصغيرة والمقابر الكبيرة.

٥٤. القط أو السنور

فاز القط بمصر في كل زمان بامتيازات تكاد لا تقف عند حد كما يثبته تكريم الأقدمين له، وما هو فيه الآن من الحظوة والقربى. وكان المتشرعون في الأزمان الحالية يفرضون على العامة ذلك التكريم لاعتبارات سياسية كما أن وارثى ملك الفراعنة من المسلمين لم ينحرفوا عن هذه الجادة لبعض الاعتبارات والتقاليد الدينية. فقد روى أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يحب القطط بدليل أن قطاً نام يوماً على كم ثوبه ففضل أن يقطعه كيلا يزعجه من نومه، ولعل هذا هو السبب في محبة المسلمين للقطط اعتقاداً منهم أنها من نسل القط الذي لقي ذلك الرفق والإكرام.

والقط في مصر أن يدخل في كل مكان. فهو يغشى الحرم كما يغشى المسجد وينساب في بيت الفلاح كما يهبط بيت الشيخ. وله موضعه من مجلس القاضى كما له مثله من مجلس الأغا. وكان موت القط أيام الفراعنة يستندى حزن أصحابه وحدادهم عليه. وكانوا يعبرون عن أسفهم عليه بمظاهر خاصة

منها قيامهم بتحنيط جثته وتشيعهم جنازته بالإكبار والجلال فى أسمى مجالى الاحتفال، أما الآن فقد اقتصروا على احاطته بعناية يمازجها الفرق فى أثناء مدة حياته، وبالملاطفة والتعهد أثناء مرضه حيث يعالج فى مستشفيات خاصة أو ما يشابهها من المنشآت التى أقيمت بالأموال المرسودة على البر والإحسان. يؤخذ مما تقدم أن القط عومل فى مصر بالإكرام والاحترام . بينما الكثير من الحيوانات الأخرى لاحظ لها من البقاء فى هذه الدنيا إلا الجوع والألم والموت فى آخر الأمر بشر ما تلاقيه الأرواح من صنوف الفناء والتلاشى من عالم الوجود.

٥٥. الذئب

زعم بعض علماء التاريخ الطبيعى أن الذئب لا أثر له بمصر - وهو زعم فاسد - إذ فى جملة جهات منها نوع من الذئاب يختلف عن النوع الأوروبى بقصر شعره. على أن الذئب المصرى أقل انتشارا من الثعلب والضبع، ولعله من النوع المعروف فى لغة العلماء باسم «كانيس انثوس» أو النوع المعروف عندهم باسم «كانيس فنس» كما ذكره (بروس).

٥٦. الثعلب

الثعلب المصرى أصغر حجما من الثعلب الأوروبى وأذناه سوداوان وأرجله كأرجل الحيوانات الضارية ولون بطنه أسمر يزداد ميلا إلى السواد كلما تقدم فى العمر. وهو يوغل فى الخلوات ييغى القنيسة، ويدنو من المساكن ليفاجئ فيها الدجاج والحيوانات الداجنة فيفترسها.

٥٧. ابن أوى

تعيش بنات أوى أسرابا عديدة بأطراف الصحراء وتلوى إلى الخرائب والأطلال وتتغذى بجيف الحيوانات وهريرها أثناء الليل محزن مستطيل .

٥٨. الضبع

هذا النوع من الحيوانات المفترسة شائع فى مصر شيوعه فى الشام والسواحل الشمالية لإفريقية ، وطباعه وعاداته معروفة فلا حاجة إذن إلى

الإفاضة فيها. ويمكن استئناسه إذا أخذ صغيرا وعود الإقلال من أكل اللحم.

٥٩. الخنزير البرى

يظهر أن هذا الحيوان نوع مستقل بذاته، وهو بالنظر لدنسه أصبح فى منجاة من مطاردة الصيادين له، وهذا هو صاحب انتشاره فى جهات الوجه القبلى حيث يكثر فساد، إذ من عادته الانسياب فى الغيطان المزروعة ذرة ويشاهد فى الغالب أسرابا كل سرب منها مؤلف من خمسين إلى ستين، وأكثر وجوده على سواحل البحيرات والبحر.

٦٠. فرس البحر

هذا الحيوان الهائل الجسم الذى يعتقد الناس وجوده فى كل مكان من مصر يخترقه النيل لايشاهد فيها إلا عرضا. والحقيقة أن موطنه ومستقره بلاد النوبة العليا. على أن هناك روايات تؤيد مشاهدة بعض الناس له حتى بالجهات القريبة من دمياط فقد ذكر (بروسبر البان) أنه صاد مرة فرسا منها فى هذه الجهة وأنه شوهد بالقرب منها فى سنة ١٨٣٦ وأنه أصاب المزروعات بتلف بالغ، وظل نحو العشرين يوما يفتك بها حتى اختفى فلم يعد يراه أحد. وقد زعموا أن فرس البحر كان فى زمن مضى منتشرا بالقطر المصرى وهو زعم لم يقم عليه دليل ولذا لاينبغى التعويل عليه.

٦١. الغزال

يكثر هذا الحيوان الجميل الطريف على حدود الصحارى المتصلة بمصر ويمكن التذكير بما تفنن فيه شعراء العرب من ضروب الإطراء فى محاسنه من دقة أعطاف ورقة حركات وسواد عينين. إلخ.

وهو يتغذى بالأعشاب الصغيرة التى تنبت فى الصحراء، وقد يطرق فى الليل أحيانا الأراضى المزروعة ليأكل من نباتها ويرتوى بعذب مائها. وقد برع عرب البدو فى مطاردته على أفراسهم الخفيفة. فيتمكنون بهذه المطاردة أحيانا من إعيائه وأخذ الأطراف عليه وقنصه فى نهاية الأمر. ولهم فى اصطياده وسائل مختلفة فهم يصيدونه إما بالبندق وإما بالصقر أو الكلب، وتتخذ صغار الغزلان حية فلا تلبث أن تأنس بالإنسان وتآلفه بالرغم من نفورها الشديد فى حالة التوحش. وفى دارى بالقاهرة جملة منها تأنس بى وأنس بها وتتناسل فى كل

عام. أما الدركاس وهو فى مصر اسم لبقر الوحش فأعلق ببلاد النوبة منه بالقطر المصرى، ومن الحيوانات الداخلة فى فصيلة الغنم نوع من الخراف يبدو من ارتفاع جسمه أن أصله من النوع المعروف بالخراف الأفريقى.

وتتمة لهذا البيان الذى قصرناه على ذكر الحيوانات الثديية أذكر حيوانا نادرا جدا من الحيوانات المجتررة هو بحجم الجدى وقد وجدته فى الصحراء المجاورة للصفة الشرقية من النيل تجاه أسيوط ولم أجد لنوعه ذكرا فى الكتب المصنفة.

٦٢. الدمان

هو المعروف عند اليهود باسم الشازان، والمشهور عند العامة بخروف إسرائيل أو دمان إسرائيل، وأول عالم أورد ذكره هو العلامة (بروس) وقد عرفنا به إذ قال إنه قصير القامة أصهب لون الشعر فى سمرة خفيفة والحيوانات المفترسة تتخذ فى الغالب منه غذاء ما.

٦٣. القرد

ليست القرد التى فى مصر - ويتنقل أصحابها بها من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى - مصرية الأصل بل مجلوبة من سنار وبلاد العرب. فمن الخطأ المحض ما زعمه بعض المؤرخين من أنها مصرية، وأنها وجدت بمصر منذ العصور الخالية استنادا على ما استكشف فى المقابر الاثرية من القرد الكثيرة المحنطة، والحقيقة أن القرد التى يطاف بها من الأنواع المعروفة بأسماء الميمون والتارى والماجو.

٦٤. القنفذ

يختلف نوع القنفذ الموجود بمصر عن النوع الشائع بأوروبا فى لون جلده ولكن يماثله فيما عدا هذا عادات وطباعا، إلخ.

٦٥. الدروال

هذا الحيوان لم يشاهد نوعه إلا فى القطر المصرى، وهو فيها يغشى الدور فيقتل الطيور ويفتك بها أذرع فتك، وفيه شراهية غريبة إلى البيض.

٦٦. النمى

الاسم الخاص بالنمى هو (اشنومون) وفأر قرون. وهو منتشر فى أرجاء القطر المصرى كافة وفى الاستطاعة استئناسه لأنه لطيف بطبيعته. فإذا استؤنس أفاد صاحبه بإيادته الفيران الكبيرة والصغيرة لما فى فطرتة من الشره الشديد إلى التغذى بلحمها. ولكنه يضر من جهة أخرى ضررا بالغا لضراروته بالحيوانات الداجنة التى تسوقه غريزته إلى الفتك بها.

والنوادير الماثورة عن النمى كثيرة. حقا أنه يبيد التماسيح وهى فى بيضها بل ويفتش فى الرمل عن هذا البيض وينهش صفار هذا الحيوان متى نفقت عن بيضها، ولكن مالا يستطيع التسليم بصحته لظهور أثر المبالغة عليه أنه يفتنم فرصة انفتاح فكى الورنة الكبيرة فينفذ من بينهما إلى معدتها ويمزقها تمزيقا ويسبب بهذا الفعل موتها.

وفى القوانين المصرية القديمة نصوص صريحة تقضى بحماية النمى وتوصى به، وهذا ما جعل الأهلىن فى ذلك العهد البعيد يوافقونه بحاجته من الغذاء ويكرمونه ويحتفلون به إذا مات.

٦٧. القط النمى

فى مصر نوعان من القط النمى. أحدهما يجاور المستنقعات ليتغذى بما يصيده من الطيور التى تألفها. وحجمه يعدل ثلاثة أضعاف حجم القط، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى «فليس شوس» والثانى نادر الوجود جدا يسمونه «فليس لنكس».

٦٨. اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع

فى مصر نوعان يختلفان اختلافا بينا فى حجم الجسم واكتساء الأرجل بالشعر أو تجردها منه. وفى الحالة الأولى يكون اليربوع من النوع الصغير المعروف عند علماء الحيوان باسم «ديبوس هرتيوس» وفى الحالة الثانية يسمونه «ديبوس ساجيتا» والنوعان يتفقان فى أن الرجلين فيهما أطول من اليدين وأدق منهما ولهذا تراهما يثبان بسهولة وثبا يقطعان مسافة بعيدة بعدا مناسبا وليس بين الحيوانات القارضة حيوان أكبر أسنانا من اليربوع، ولا أعظم قدرة منه على القرص حتى أنك إذا وضعت يربوعا فى قفص من الخشب الصلب وأخذت

الحيطة حتى لا يفلت منه فإنه لا يلبث أن يقرض خشب القفص ويفر منه مسترداً حرّيته. أما إذا كان القفص حديداً فإنه لا يستطيع إتلافه كما يتلف القفص الخشبي.

وقد خلط بعضهم فأطلق اسم اليربوع على حيوان قراض = قارض = بحجم الفئران الكبيرة في أوربا هو الكثير الانتشار في جهة الأهرام. ويقال أن في النوبة نوعاً من هذا الحيوان ولكنه أقل حجماً منه بمقدار النصف.

٦٩. الفأر والسيّس

هذان الاسمان يشملان أنواع الفيران التي يكثر في مصر وجودها. ولكن من بين هذه الأنواع نوعين جديرين بالبحث وهما فأر الإسكندرية الذي توطن سواحل أوربا الجنوبية وتلد فيها وهو نفس الذي يسميه الإيطاليون بفأر السطوح، ثم الفأر الشوكي وهو الذي وبر ظهره خشن الملمس وخاز ليد اللامس.

٧٠. الأرنب

يختلف الأرنب المصري عن الأرنب العام المعتاد بلون شعره وطول أذنيه ورجليه الخلفيتين، وهو في نظر المسلمين غير طاهر ولهذا يمسون عن أكله ولا يطاردونه لصيده كما يطارد النوع المعتاد في فرنسا وفي جميع الأصقاع التي ينتشر بالتناسل فيها.

الطيور

الطيور الداجنة

الدجاج - الدجاج الهندي - الحمام - الأوز.

٧١. الدجاج

لا يختلف دجاج مصر عن دجاج أوربا إلا بحجم الجسم. فإن حجمه لا يتجاوز حجم هذه كبرا. وما يستدعى البحث فى طباعها والبحث عن غرائزها بنوع خاص أنها لا تميل إلى احتضان بيضها. حتى لقد لجأوا فى مصر إلى التفريخ الصناعى وهو فيها شائع = شائع = بحيث يمكن التوكيد بأنه لم يكن فى بلد ما أعم انتشارا منه فى القطر المصرى، لاسيما وأن الوسائل المتخذة للتفريخ لا تقتضى إيقافه زمنا بحكم الفصول كما هو المشاهد فى البلاد الأوربية. وأبسط تجربة يمكن القيام بها لبيان الشذوذ الذى ذكرته الآن فى أمر الدجاج المصرى والدجاج الأوربى هو أن ينقل إلى مصر بعض الدجاج عرف عنه فى أوربا الميل إلى احتضان بيضه وأن ينقل إلى فرنسا فى الآن نفسه بعض الدجاج المصرى فإذا أدى هذا النقل إلى فقدان الأولى خصية الإحتضان وإكتساب الثانية لها فلا يكون السبب لذلك سوى تأثير الطقس، وفى هذا الحادث الغريب ما يستدعى الاهتمام بدرس أسبابه.

ويوجد بالفيوم وندرة نوع من الدجاج أكبر حجما من الدجاج المعتاد وأطول أرجلا منه.

٧٢. الدجاج الهندي

جلب الدجاج الهندي إلى مصر منذ سنوات قلائل وتربيته فيها سهلة وانتشاره مطرد سريع.

٧٣. الحمام

يربى الحمام الداجن الشبيه بحمام أوربا فى مصر بعناية ونجاح، وله أنواع عديدة كما للحمام الصغير البرى المرغوب فيه كثيرا للذة طعمه. وهو يفضل على النوع الأول من حيث إنه غير مستأنس يتحرى غذاءه فى الجهات البعيدة فلا يكلف صاحبه فتىلا ولا نقيرا. وفى مصر قرى بكاد لا يوجد لأهلها شاغل سوى تربية هذا الصنف من الحمام.

٧٤. الأوز

النوع الأصلي من الأوز هو الرمادى لون الريش. وقد أدخل الأوز الأوربى إلى مصر حديثاً. أما البط الأهلى فقليل الانتشار بخلاف البط البرى الذى يشبه لون ريشه لون الصلب، وهو يربى مع بقية الحيوانات الداجنة فى المنازل.

الطيور الجارحة

الحدأة - الصقر أو البازى - العقاب - العقاب الصياد - النسر - نوعان من الحدأة - الباشق - الصقر الشاهينى.

٧٥. الحدأة الرخمية

الحدأة من نوعى «أريان» و«جريفون» والحدأة الرخمية المعروفة بدنجاجة أو فرخة فرعون من الجوارح الشائعة فى مصر، وهى لا تستقر فى مكان واحد بل تهجر فى أوقات دورية إلى القارة الأوربية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

٧٦. الصقر أو البازى

فى مصر سبعة أنواع من البزاة والشواهين وهى كلها صقور: الصقر الحاج - الصقر الرمادى - الصقر الصغير - اليؤى - الصقر الأرقط - الصقير الأرقط - الكوبز، وجميعها من الطيور الشاردة الرحالة^(١).

٧٧. العقاب

أنواع العقاب أربعة وهى: العقاب العادى الرحال - العقاب الملوكى الشارد - العقاب الصارخ الرحال - عقاب طيبة المقيم. ويوجد من هذا الأخير فى الشام بل وعلى سواحل بلاد البربر.

٧٨. العقاب الصياد

أنواع هذا العقاب وهى العقاب الصياد ذو الذنب الأبيض والعقاب الصياد المعروف باسم حنا الأبيض والعقاب الصياد القصير المنقار لم تكن نادرة الوجود فى القطر المصرى لأنها تجد غذاءها وافراً فيه على ضفاف نهر النيل وسواحل البحر وشطوط البحيرات.

(١) جاء فى حياة الحيوان تقسيم الصقور إلى خمسة أصناف: البازى والباشق والبيدق والزرق. وفرغ البازى يسمى الفطريف.

٧٩. النسر

وعادة الانتقال غريزة فى النسر والباشق فإنهما يظهران بالقطر المصرى فى مواعيد دورية مختلفة من السنة.

٨٠. نوعان من الحدأة

وما سبق من الكلام على النسر ينطبق على الحدأة الملكية والحدأة السوداء.

٨١. الحدأة المعروفة باسم الأنيون

إن هذا النوع من الحدأة طير فريد فى نوعه، وهو يعيش مقيما فى القطر وربما كان ينبغى حسبانه ضمن الطيور الشاردة.

٨٢. الباشق

يعرف الباشق العادى فى القطر المصرى بأنه من الطيور الرحالة فليس بمستغرب أن يستكشف علماء التاريخ الطبيعى بعض أصناف له بالنظر لاختلاف ريش هذا الطير الجارح.

٨٣. الصقر الشاهينى

البومة الكبيرة (غرنوق) - البومة المتوسطة (الدوق المتوسط) البومة القصيرة الشوشة - هامة سافينى - المصاصة الصغيرة - المصاصة سكويس.

هذه الطيور الليلية الضعيفة الأجنحة الرخوة الريش فى قلة اتصال وتلاحم لا تستطيع الطيران لقطع المسافات الطويلة، وهو ما يؤخذ منه انها تقيم فى هذا القطر ولا تنتقل منه بالرحلة إلى قطر آخر. ولكن ظهور النوع المعروف منها باسم «ستركس اسكولافوس» فى انجلترا وبعض جهات أوربا مع أن مأواه الخاص القارة الأفريقية يناقض ذلك الرأى المبني على الملاحظات الفسيولوجية.

٨٤. الخفاش والوطواط

تأوى أصناف لا حصر لعددها من الخفاش والوطواط داخل الأهرام والمقابر الفرعونية القديمة والمغاور والهيكل القديمة والأشجار الجوفاء، والصنف المعروف منها باسم الخفاش الأصهب أكبر الأصناف الأخرى حجما.

وقد قسم علماء التاريخ الطبيعى أصنافه أقساما تختلف عن بعضها بعلامات ومميزات خاصة، وتلك الأصناف هى: «دينويوم» و«ريمولوف» أى الذى

كحذوة الحصان و«نيكتير» و«زافيان» و«مولوس» و«نيكلونوم» و«روسيت» أى الأصهب.

٨٦. عصافير الشوك

إن معظم أنواع العصافير الصغيرة التى ينطلق عليها هذا الاسم، وهى خاصة بأوروبا، تظهر عادة بمصر فى الأوقات الدورية لهجرتها. فلسنا فى حاجة إذن لتعدادها وإنما اقتصر من باب الاستثناء على ذكر بعض أنواعها كالنوع المعروف بدقة منقاره مثل عصفور سيكسيكولا والعصفور الأصهب الصالح... إلخ.

وكلها دققة المنقار، وكذا العصفور ذو الطوق الأشقر اللون من نوع العصافير ذات المنقار المخروطى الشكل والقتابر المعروفة باسم «بيفاسيسى» و«ايزابلينى» و«الحسون» «الكوكو الأمريكى» الرمادى اللون و«الفينجيل».

ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا عن العصفور الأوروبى العادى. ويظهر أنه فى رحلاته وشروده لا يحيد عن طريق واحد و«الشوالة» العظيمة الانتشار فى شبه جزيرة إيطاليا، ثم العصافير المشقوقة المنقار كخطاف سافينى وقنبرة البرك التى تظهر عرضا فى إقليم بروفنس بفرنسا ثم العصفور الأسبانى الذى يختلف اختلافا كبيرا.

أما الغربان فأنواع. منها الغراب التوحى والسقاو، وهذا الأخير هو الذى نراه يعلو المنازل فى القاهرة ويتنقل فيها انتقال السيد المالك ويوغل حتى يبلغ إلى مصر العليا وهو من نوع البضاء الألمانى وهو مسرول بالريش الأخضر الضارب إلى الزرقة ويخيل للناظر أنه طير من طيور المنطقة المحصورة بين المدارين.

ومن أنواع الطير النوع الملتصق الأصابع وهو يجتمع أسرابا كثيرة العدد ويعتبر من الوجهة الحيوانية الخاصة بهذا النوع الصلة بين إفريقية الغربية وأفريقية الشمالية المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، ثم الأنواع المعروفة بأسماء «ميرويس سافينى» و«ميرويس ايباستر» و«ميرويس فيريدس». وهذا الأخير هو الذى نراه يتقلب تقلبه الجميل فى الهواء فوق غيطان الذرة وبالقرب من أشجار السنط التى يأوى إلى أغصانها المتكاثفة، ثم النوع الرفيع المنقار الذى منه

الهدهد وهو لا يختلف فى شىء عن نظيره بأوربا .

٨٧. الطيور المتسلقة

لا أذكر من هذه الطيور سوى الشرشق المعروف بالشقراق ومقطع الظهر وهو من القواطع التى تمر بمصر مرا ولا تقيم فيها . أما النوع المعروف باسم «كوكسيروس يزانوس» فهو والكوكو العادى من الطيور المقيمة بالقطر المصرى .

٨٨. الطيور التى من نوع الدجاج

يشمل هذه الطيور اسم «جنجا» أو «الجونية» أو «الجونى» وهى كثيرة بالقطر المصرى وتعيش على حواف الصحراء وكثيرا ما تتقدم أسرابا عديدة نحو الحقول المزروعة، وتقصد إلى ضفاف النهر لترتوى بمياهه وهى على أنواع منها:

الجونية القطاة.

الجونية لشتنستين.

الجونية التى ذيلها كالمقراض.

وهى جميعا من الطيور المقيمة وتختلف عن بعضها قلة وكثرة. أما السمانى أو الهى أو السلوى فيكثر فى بعض الأوقات، وهو يقطع فى رحلته المسافات الطويلة بحيث يرى فى الجهات المتعارضة من سطح الكرة الأرضية.

وهناك نوعان مختلفان كل الاختلاف من طير اليمام لا يمكن إغفالهما وغض النظر عنهما، وهما من نوع اليمام أو الشفنين العام المألوف الذى يمر بالبلاد مرا ولا يقيم بها ولحمه لذيذ مطلوب، ونوع اليمام المقيم ذى اللحم القليل غير المقبول فى الذوق. ويمام هذا النوع يشبه كثيرا يمام بلاد الغرب المطوق، لولا أن الجزء الأسفل من بياضه كدر ناصع كيباض ذلك اليمام المغربى.

٨٩. الطيور المعروفة بطول سوقها

إذا تصدينا لإيراد أصناف هذه الطيور الداخلة فى فصيلة أبى مغازل بما هو معروف عنها من التفاوت فى الحجم والاختلاف فى الشكل فإننا نرج بأنفسنا فى بيداء لا أطراف لها من الأسماء وهو ما يخرجنا حتما عن موضوعنا ويذهب بنا بعيدا عن أفقنا. لا سيما وإنها جميعها عين ما يشاهد من أنواعها فى الأقطار الأوربية مما يعرف عنه الميل دواما إلى الرحلة والانتقال من

مكان إلى مكان. ولكننا نذكر منها عصفور الزقزاق المعروف بسواد الرأس والزقزاق البلدى (المسلح) وجراى الصحراء فانما.

ومما تسرنى الإشارة إليه الطير المعروف بأبى منجل أو أبى حنس، وهو نوع من اللقلق ومن أشهر الطيور الطويلة المنقار، وكان مقدسا عند قدماء المصريين ومحترما منهم، وقد وجدت جثته محنطة فى المقابر المصرية القديمة بعناية تامة واحتياط بالغ، وصورته ترى ضمن النقوش الهيروغليفية.

ولم يكن ذلك الطير منتشرا فى القطر المصرى الآن انتشاره فى الأزمان السابقة فإذا شوهد فإنما فى الجهات التى يصعد منها إلى الشلالات ويكون فى صفره مجرد الرقبة من الريش فإذا كبر كساها الريش الكثيف على طول امتدادها.

وسأتبع هذه القاعدة فى الكلام على الطيور نوات الكف كالبعج وأنواع البط والأوز.

٩٠. الكلام على الحشرات

توجد الحشرات كلها على تعدد أشكالها فى مصر إلا القليل منها. فحشرة أبى دقيق أقل أصنافا فى هذا القطر من نوات الأجنحة العمودية، والحشرات الليلية من هذه (عفريت الليل) أكثر انتشارا من الحشرات النهارية. وتعزى هذه الكثرة إلى الشمس وتأثير أشعتها الشديدة الحرارة فى قطر لا يتسع فيه الظل ولا يمتد إلى مسافات بعيدة، ثم إلى النباتات المتسلقة التى تأوى ما لا حصر لعدده من الكائنات العضوية الصغيرة الحجم، ويحتوى النيل بعض الحيوانات المفصلية من الطائفة القشرية وبعضها آخر من الطائفة العلقية. أما الحشرات من طائفة أبى ريالة فتخرق دائما مياه النهر وتلعب على ضفتيه. بل كثيرا ما ترتفع الألوف المؤلفة منها فى الفضاء وترحل مهاجرة إلى الأصقاع النائية كالطيور المختلفة وأبى دقيق.

أما الجراد وهو الحرجول أو الحرجل الذى كان فى العهد القديم من البلى والافات التى منيت مصر بها فلا يزال يرى فى أريافها أكثر عددا منه فى جميع البلدان. بينما ترى الطيور الآكلة للجراد تعيش فى البلاد كطيور مقيمة لارحالة ولا مهاجرة.

وما الحشرات العنكبوتية من جميع الأشكال والألوان التي إذا لسعت كانت لسعاتها عظيمة الخطر شديدة الضرر تأوى إلى الرمال والخرائب وتتدس في كل شيء حتى في حصيرة السمر التي تفرش بها الحجرات. وهناك دودة صغيرة من نوع النمل المعروف باسم أبى على «ميرميليون» تنقب الأرضى المتحركة ثقباً على شكل القمع وتعمل فيها ما يفعله هذا النوع من النمل في أوربا من التريص بالحشرات الأخرى للوثبة عليها والفتك بها واتخاذها غذاء تشبع به نهمتها.

٩١. الأصداف البحرية

الأصداف البحرية كالقواقع والشنج والركبة والودع قليلة الكمية في مصر إذا قيسست بما يعيش فيها من صنوف الحيوانات العضوية. والصدف المعروف فيها باسم «هليكس أريجولاريس» هو بوجه التقريب النوع الوحيد المعروف منها. ولا حصر لأشكال هذا النوع وألوانه لكثرتها.

وتحتوى مياه النيل الكثير من الأصداف المعروفة في العلم بأسماء «أونيوس» و«أيريدين» و«القرنى» كما تعيش على ضفافه «قواقع المستنقعات».

وفى الوجه القبلى وحوالى الشلالات توجد أنواع المحار الاسواقى المعروفة بالاثيرية التى يرجع فضل استكشافها إلى العلامة (كايو) وترى مندمجة فى القطع الصخرية. وتوجد أنواع من القواقع الحلزونية الصغيرة والودع متفرقة هنا وهناك.

٩٢. الهوام والأفاعى الرحالة

الهوام الداخلة فى طائف الأفاعى كثيرة العدد فى القطر المصرى، وبعضها وهو الشطر الأصغر يسكن مياه النيل أو يأتى إلى ضفافه، والبعض الآخر يقيم فى المدن والحقول وأطراف الصحراء.

والتمساح ويسمى أيضاً بالورل النيلى أشهر ما يسكن النيل من الهوام ولكنه لا يآلف لإجهات الوجه القبلى ولا يهبط ما يلى: بلدة جرجا شمالاً وهذا هو السبب فى عدم رؤيته من النيل بجهات الوجه البحرى إلا نادراً فى أيام الفيضان العالى وهو يصل إليها مسوقاً بتيار النيل.

والتمساح وإن لم يكن من الحيوانات التى تعيش فى الهواء والماء لتجرده من

عضوى التنفس - أى الرئتين يعيش فى الماء وعلى وجه الأرض ويتنفس الهواء الطبيعى. ولكنه إذا برز إلى البر ثلثت = بطأت = مشيته وتعطلت حركاته بخلافه فى الماء فإنه يبدو سريع الحركة كثير النشاط، وهذا ما جعله يخاف على حياته ويشعر بأنه لا يأمن عليها إلا إذا بقى فى الماء فتراه إذا سمع همسا لجأ إليه واحتوى به. وفيه تبلغ ضراوته الحد الأقصى. فكثيرا ما إذا عثر بإنسان يفتك به ويقضى على حياته. أما فى البر فإنه لايمك القدرة على الأذى ويطشه فيه لايشاء حتى الطفل الصغير.

والتماسيح كثيرة النسل. فالأنثى منها تعمد إلى الرمل تودعه بيضها التى تنقب فى الميعاد بفعل حرارة الشمس. ويبلغ طول التمساح عادة وقت خروجه من بيضته سنتمترين ثم ينمو إلى أن يبلغ من الطول نحو الخمسة أمتار أو الستة، وقد شوهد منها ما بلغ طوله إلى عشرة أمتار.

وتتخذ التماسيح مساكنها بأطراف الجرز والأماكن التى تستطيع الالتجاء منها بسهولة إلى النيل، وتعيش أفواجا مجتمعة وتخرج للصيد بإرشاد زعيم لها وإذا نامت قام أحدها بالحراسة والمراقبة. فترى أثناء النهار مطروحة على جزر النيل مستشرقة الشمس المتلظية أو مخرجة رؤوسها من الماء فترى متحركة بتأثير دفع التيار.

وفى القطر المصرى أنواع مختلفة من التماسيح كان نوع منها فقط موضع إجلال قديما المصريين الذين كانوا يغالون فى تمجيده إلى حد دفع بسكان مصر الوسطى إلى عبادته. لاسيما وإنهم كانوا وهو صغير لا يخشون منه ضررا بل كانوا يستأنسونه ويألفونه.

وكان ماء الفيضان يسوق التماسيح إلى تلك الجهة. فإذا رآها المصريون اعتبروها بشرى خير وبركة وأدوا إليها مراسم التكريم الدينى وبلغ من حفاوتهم بها وإكرامهم لها أنهم كانوا يحلون أذانها بالذهب والأحجار الزجاجية كما يحلون أرجلها بالأساور الذهبية. وقد وجد الكثير منها محنطا فى المقابر على هذا المثال.

ونقتصر هنا على ذكر الأفاعى الأخرى التى بالقطر المصرى وهى:

السلحفاة الرخوة النيلية الكبرى أو الرق واسمها العلمى «تريونكس»

وسماها المصريون «الترسة».

ورن البحر واسمه العلمى «توينمبيس» ويعرف أيضا باسم «مونيتور النيل» حيوان شديد الخوف سريع الانكماش. إذا رأى أحدا يدنو منه صفر صفيرا حادا . خصوصا إذا كان من ضواري الماء كالتمساح وهو بذلك يخدم الإنسان خدمة جلية لأنه يخرطه بوجود هذا الحيوان.

الحردون المعروف عند الأقدمين باسم «ستليون».

والضب المجهول أعضاء التذكير.

والوزغ أو البرص أو سام أبرص.

ومنه نوعان شهيران أحدهما الحلقى.

والحرباء القصيرة.

والسقنقور، وهو على تسعة أنواع بأقل تقدير، والفرق بينه وبين الورل من وجوه . منها أن الورل برى لا يأوى إلا بالبرارى والسقنقور لا يأوى من الماء، ومنها أن ظهر الورل أصفر أغبر والسقنقور مدبج بصفرة وسواد.

أما الورل وجمعه أورال وورلان فله سبعة أنواع مختلفة وهو والضب والحرباء وشحمة الأرض والوزغ كلها متناسبة.

وثعبان الرمل، ومقر بعضه فى الوجه البحرى والبعض الآخر فى إقليم طيبة.

والحية وتطلق على الذكر والانثى وانما تميز بقولهم حية ذكر وحية أنثى وهى على أنواع. الرقشاء والرقطاء بنقط أو خطوط سوداء وبيضاء.

وثعبان جهة الأهرام.

والأفعوان نوعان - الأفعوان ذو القرنين والهاج - وهو معروف بشدة خطره وقد قام فورسكال بتجارب عديدة على تأثير سمه فقال إنه سم قتال لا محالة.

والضفدع والشفدع - أى صغير الضفدع ، ومنها نوع يعرف باسم سافينيى تراه مذكورا ومرسوما فى كتب العلوم الطبيعية.

الأسماك

٩٣-عموميات

إن أسماك النيل وهى الجيدة التى أتصدى لذكرها هنا يتألف منها على قلتها مجموعات يهتم القارئ العلم بها لما يستطلعها من أحوالها وعاداتها وتراكيبها العضوية.

وهذه الأسماك المختلفة فريقان، فريق يقيم باستمرار فى أماكن معينة والفريق الآخر من القواطع يتنقل من مكان إلى مكان فى مواعيد مختلفة من السنة. وربما بلغت الرحلة به إلى الأرجاء القاصية من الأرض. ومن الأسماك النيلية ما يجرى من أعلى جهات النيل حتى يبلغ إلى مصبه. فإذا جاء موعد الفيضان فى سبتمبر من كل عام أخذ الأهل إلى مكان لهم من الغذاء الطيب الوافر. ذلك لأنهم يلتقطون منه المقادير العظيمة فى الأرض التى يغمرها الماء بعد انحساره عنها وعودته إلى مجراه. وبحيرة المنزلة القريبة من دمياط كثيرة الأسماك تصاد منها الأسماك بمقادير وافرة جدا فيتجر بها الصيادون ويصدر منها إلى جزر الأرخيل وبلاد اليونان.

وقد زعموا أن الأسماك القواطع الرحالة تحتوى أجسامها علامات مؤكدة تدل على هجرتها. والذى أجمع عليه العارفون بأحوال الأسماك وسلموا به أنها فى الوقت الذى تتجه فيه إلى مصبات النيل يصيبها بالجانب الأيسر من رأسها جرح أو أثر اصطدام. بينما التى تصعد فى النيل من مصباته إلى أعلاه يكون ذلك الأثر فى الجانب الأيمن منه، وبحسب الرأى الأول يكون الأثر ناشئا من أن السمك يدنو من الضفة اليسرى للنيل اجتنابا لقوة دفع التيار، وبحسب الرأى الثانى أن هذه الضفة تكون إلى يمينه.

نعم إن أحد المؤلفين المتأخرين الضليعين فى هذا الفرع من علم الحيوانات وهو الذى أخذنا عنه هذه البيانات ذكرها فى كتاب له، ولكنه لم يذكرها من قبيل التعميم على الأسماك القواطع كافة. بل جعلها مقتصرة على بعض أنواع. فقد قال بالحرف الواحد: إن السمك لا تهتم سرعة التيار الذى يلقي فيه بنفسه من غير أن يتحرى الطريق الذى يلائمه اتباعه. بل إن هناك حاجة تدفعه إلى

الحركة وترشدته إلى الطريق، وهى حاجة الانضمام إلى أفراد طائفته. فتراه لهذا السبب يسارع فى الوصول معها إلى هذا الوسط الملائم لتوافر بواعث الطبيعة بالتزاوج. ومتى تم له ذلك وأراد العودة إلى الوسط الذى اعتاد الإقامة به والذى أقصاه عنه مؤقتاً ذلك الاحتياج الغريزى فإنه يدنو من الشاطئ لمقاومة التيار الذى تفوق سرعته السرعة الطبيعية. وبهذه المناسبة وحدها تحدث الجراح التى ترى على جانبى رأسه لأعلى الجانب الأيمن منه فقط. وهو ما يثبت أن السمك فى صعوده للنيل إلتماس الأوبة إلى موطنه يسير بلا تمييز تارة إلى اليمين وطورا إلى اليسار وسط الاعشاب النهرية والأحجار التى تجد فيها بينه غذاء.

٩٤. أسماء بعض أسماك النيل

هذه الأسماك هى:

الكرشرة اسمها العلمى «نريهس لاتس».

ونوع جميل يشاهد فى البرك التى يكونها النيل بالقرب من رشيد ولحمه لذيز واسمه «خروميس بوتيه».

ونوع كان يسميه الأقدمون «لييدوس» وهو من نوع «الباريو» واسمه العلمى «سبران لييدوس» وكان فى عداد معبوداتهم.

وسمك آخر من نوعه استكشفه فورسكال وسماه «سيران النيل».

واللبيس وقد استكشفه (رويل).

ونوع يسمى «لنسك النيل» وهو سمك جميل فضى اللون ذهبى بريق البطن يوجد بنواحي طيبة فى أيام الفيضان.

ونوع آخر منه يسمى «منسك بيبه» ربما كان نوعا من أنواع السمك السابق.

ونوع منه يسمى «لنسك طيبة» ويعرف عند المصريين باسم اببيه.

سمك مورمير «أكسيرنك» وهو الذى ذكرت عنه البيانات الخاصة بهجرته من مكان إلى مكان، وكان قديما المصريين يبجلونه ويكرمونه.

وهناك نوع من السمك اسمه العلمى «مورميروس» وهو أصناف كثيرة منها:

الصنف المعروف بالكشفي، والصنف المعروف بالعرسة، والصنف المعروف بالحنفي.

و، الصنف الذي يسميه المصريون بالقشرة، ويشبه قليلا السمك المعروف باسم سمك الكراكي أو القشر. إلخ.

الجرى أو سلورس نو الأذنين، وتسمى أيضا الشلبة، واسمها العلمي «سولوروس وريتاس».

الجرى أو سلورس أو الشلبة بأنواعها واسمها العلمي «سولوروس مستوس». وهناك ثلاثة أنواع من الشلبة نوع منها لاهبي اللون يسميه الأهالي بالشلبة العربي، واسمها العلمي «هيوفتالموس نيلوتيكيوس».

وهناك خمسة أنواع من الأسماك الغليظة أحدها هو ما يسميه المصريون بالشال ويوجد محفوظا بالتحنيط في مقابر طيبة.

وثلاثة أنواع من صنف آخر من الشال اسمها العلمي «سينودونتيس».

والنوع المعروف في الصعيد باسم البجل والبجاس، وقد يبلغ من الطول أحيانا خمسة أقدام ولحمه رخو تأفه الطعم لا إقبال عليه.

والسمك المعروف باسم الدقماق ويسمى أيضا بالخزير.

والسمك المشوك وهو سمك صغير الحجم يخشاه الصيادون كثيرا بسبب ما تحدثه أشواكه من الوخزات الضارة، وبالنظر إلى هذه الخصية فيه سماه المصريون أبوشكه.

القرموط، واسمها العلمي «هيتيروبر انشوس انجيلارس» وهو معروف بقوته الحيوية وشدتها إلى حد أن مظاهر الحياة تظل باقية عليه بعد إخراجها من الماء ولو هشم رأسه. وبه تتغذى الطبقات الفقيرة من الأهليين.

والرعد أو الرعاد. يسميه المصريون بذلك، ولكن هذه التسمية لا تقي بما توافر فيه من الخواص الكهربائية الغريبة التي بواسطتها يوصل إلى أجسام الذين يلمسونه موجات كهربائية شديدة تضطربهم إلى التنحي عن الإمساك به في الحال.

والحيتان المعروفة باسم حيتان سليمان، وهي أنواع. منها الحوت المعروف

بالنفاش أو اللفاش ، والحوت المسند إلى (زاسكال) والحوت المعروف باسم الراعى واسمه العلمى هو «شراسينوس نيلوتيكوس» والحوت المسنن والحوت المعروف باسم (بس) وهو نادر الوجود لا يرى إلا بالقرب من طيبة (الأقصر).

ومن أنواع السمك البارموزه وهو صغير الحجم كثير الألوان والجمية، وهو كثير بالقرب من طيبة ولا يهبط الوجه البحرى فى النيل والملش والسردين السابوغة. ومن أنواعه كذلك:

أبومنقار، واسمه العلمى «هيميرهميس».

البرنوتى، واسمه العلمى «مولوس».

البطيش، واسمه العلمى «جيرينيدون فاسياتوس».

البطيظ، واسمه العلمى «موجيل سينالوس».

الفهدة، واسمها العلمى «باريوس يرنس».

الفرخة، واسمها العلمى «موجيل ساليئوس».

الجورنتى، واسمه العلمى «تريحلا» وهو سمك منتظم الهيئة وفيه خاصية استنشاق مقدار من الماء وقذفه بقوة على الناس وهو لا يرى إلا أيام الفيضان.

الجرجار أو الزقزوق، واسمه العلمى «يرستيوما بتنى».

اللبيس، واسمه العلمى «لابيونيلوتيكوس».

الشبار، أو البلطى واسمه العلمى «ثيلابيا».

البياض، واسمه العلمى «باجروس بياض».

سكان مصر المختلفون

عموميّات - الأقباط - المصريون المسلمون - البدو أو العربان - اليهود - اليونان أو الاغريق - الأحباش - الأثيوبيون - الأوروبيون.

لا نتصدى فى هذا المقام للبحث فيما إذا كان سكان مصر الأول من الصينيين أو الهنود. لأن الكلام فى هذا الموضوع بناء على الحدس والتخمين مجازفة إذا أصبت كبد الحقيقة أحيانا تتعرض للخطأ غالبا لتعذر الرجوع بخصوصها إلى الأسس القويمة والمأخذ المقطوع بصحتها. ومن البديهي بالنظر إلى حقيقة تكون الأراضى المصرية واتجاه مجرى النيل من الجنوب إلى الشمال أن يتبادر إلى الذهن أن الشعوب التى كانت تقطن بلاد الحبشة والنوبة العليا والنوبة السفلى انتشرت نحو الشمال تبعا لإتجاه تكون أرض مصر وجريان النهر الذى يشقها. وهذا الافتراض الذى يتفق مع تعليل المؤرخ هيرودتس لهذا الموضوع يبدو أنه الأدنى إلى الصواب. لاسيما إذا أمعنا النظر فى سحنة التماثيل والصور المنقوشة فى جدران أقدم آثار الأول وهيئات أعضائها.

ولقد كانت مصر أكثر من كل بلد سواه، محطا لرجال الثورات البشرية والحوادث السياسية. فلقد أغار بالتتابع عليها أقوام الفرس واليونان والرومان والعرب والماليك والأتراك والفرنسيين فنشأ عن امتزاج هذه الأمم بالجنس المصرى واندماج نوعيتها فيه بقدر ما ان تناول الطابع الأصلى للسحنة المصرية شىء من التغير والاختلاف عن أصله الأول.

وسكان مصر الآن يتألفون من أقباط وعرب ويهود ويونان وأتراك وجركس وأحباش وسودانيين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومن جاليات أوربية.

٩٦. الأقباط

درج المؤلفون دائما على اعتبار الأقباط وحدهم سلالة قدماء المصريين لا يشاركونهم فى هذه الصفة مشاركا. واستشهدوا على هذا الرأى بما هو متوافر من جوامع الشبه المعينة بينهم والصور الهيروغليفية المنقوشة فى الآثار (١) ولكن خالف العلامة شامبليون هذا الرأى إذ وصف الأقباط وصفا جثمانيا بانسحاب الجبهة وسعة العينين فى سواد واتجاه قطاع الجفنين من أسفل إلى أعلى ومن

(١) وقف الكاتب الرحالة «فولنى» الذى زار مصر على أصل كلمة «قبط» التى تطلق باللغات الأوربية على الأقباط فقال: «إن كلمة قبطى العربية يظهر أنها تحريف لكلمة «اجيبتوس» اليونانية التى معناها «مصرى». إذ لابد من ملاحظة أن «يونان» كان النطق بها عند قدماء اليونان وأن العرب بالنظر إلى عدم وجود حرف كما ينطق به أمام ولا حرف الفارسي يبدلون من هذه الحروف بحرفين. أى القاف والباء العربية. فالأقباط والحالة هذه سلالة قدماء المصريين.

الداخل إلى الخارج وتتوء الخدين فى ضخامة وارتفاع صيوان الأذنين وانبطاح الأنف انبطاحا خفيفا وغلظ الشفتين فى ارتفاع وعرض الذقن واسوداد الشعر، وهم بوجه عام نحاف الأجسام يقل من بينهم السمين. هزيلو الأعضاء بشرتهم ضاربة اللون إلى الكدرة.

وهذه الصفات والمميزات لا تتوافر فى الأقباط جميعا . لأن سوادهم الأعظم اختلطت أنسابهم بالأغيار . فمن اعتنقوا المذهب الكاثوليكي منهم شبيبت أصولهم بأصول المسيحيين اليونانيين أو السوريين . بينما الأقباط من أهل المذهب اليعقوبى وهم أكثر الأقباط انتشارا فى الصعيد فقد حفظت أنسابهم صريحة مصونة من تداخل الأعراق، وصينت مع عاداتهم وأخلاقهم السحنة المعروفة عنهم منذ قديم الزمان.

٩٧. المصريون المسلمون

لا يختلف إثنان فى أن شطرا كبيرا من الأقباط اعتنقوا فى أول عهد الفتح العربى الديانة الإسلامية طوعا أو كرها، فالتحم الغالبون بالمغلوبين واختلطوا بهم ولبسوا جلدتهم.

وقد دخل العنصر العبرى فى هذا المزيج بنسبة ضعيفة جدا - إذا قيست بالعنصر الأسمى - فنشأ عن ذلك أن صار المصرى فى العهد الحاضر أقرب شبها بشكل ملامحه وطباعه وأخلاقه إلى قدماء المصريين منه إلى العرب الصميين الذين لا يوجدون بأشباههم الحقيقية وأصلهم الصميم إلا فى بلاد العرب الأصلية.

ويختص المصريون المسلمون الذين يتألف منهم الآن السواد الأعظم من سكان المدن والأرياف - بل الذين أطلق عليهم اسم الفلاحين - بالصفات الجثمانية الآتية: عظم الجمجمة وقيام الوجه على قياس الزاوية القائمة تقريبا واستدارته على الشكل البيضاوى وتقوس الحاجبين وسواد العينين فى غور وتتوء الشفتين وكثافة اللحية وسعة الصدر وضمور البطن وتقوس العمود الفقرى واستدارة الأعضاء وقلة بروز المفاصل وصغر اليدين والقدمين وتوسط القامة واختلاف لون البشرة فى الدكنة. ومع أن مسطح مصر صغير وعرضها قليل وأطرافها متقاربة فقد شوهد أن بياض بشرة سكانها على سواحل البحر الأبيض المتوسط يقرب من بياض بشرة الأوربيين، ثم يضرب إلى الدكنة شيئا

فشيئاً فيصير في مدينة أسوان كلون أهل النوبة .

٩٨- البدو أو العربان

تعرف القبائل الرحالة التي تتراد الصحارى القريبة من مصر باسم البدو أو العربان. والعربان مرتفعو القامة بوجه عام ارتفاعاً مناسباً وأعضاؤهم غير مستديرة كما هي في العرب الفلاحين بل ضئيلة نحيلة. ولونهم الطبيعي قريب من اللون الأبيض الذي لفحته الشمس، ونساؤهم بارعات في الجمال، وهم يفتخرون بصراحة أنسابهم وسلامة أصولهم من الشوب ويحرصون على هذه المزايا . فتراهم لذلك يجتنبون بما في وسعهم مصاهرة أهل الأرياف.

٩٩- البرابرة

البرابرة جيل من النوبة السفلى انتشروا على ضفاف النيل بين جزيرة فيلة (أنس الوجود) والشلال الثاني على مسافة طولها مائتا فرسخ تقريباً ويميزهم عن المصريين لون البشرة. إذ تشبه فيهم لون خشب الجوز الكابلي. والفارق بينهم والجنس السوداوى الأسود عظيم لما امتازوا به من الإخلاص والأمانة وعددهم في القاهرة الآن من خمسة آلاف إلى ستة يزاوون جميعاً أعمال الخدمة المنزلية . فهم للمصريين في مصر بمنزلة أهالى مقاطعتى (أوفرني) و(سافوى) للفرنسيين، ويرجعون كهؤلاء إلى مواطنهم الأصلية ليقضوا فيها آخر أيامهم بعد أن يجمعوا من ثمرات كدهم شيئاً من المال، ومع امتداد بلاد البرابرة ذلك الامتداد العظيم فإن عددهم فيها قل أن يتجاوز مائة وعشرين ألفاً إلى مائة وثلاثين ألفاً من النسما.

١٠٠- اليهود

احتفظ اليهود في مصر بسحتهم الأصلية أكثر مما احتفظوا بها في بلد آخر، وهم يختلفون عن الأهلين ببياض ألوانهم وزرقة عيونهم أو لونها الرمادى وشقرة شعر لحيتهم وروسهم.

١٠١- اليونان أو الإغريق

أصل اليونان المقيمين بمصر من الأرجاء المختلفة ببلاد اليونان، وبعضهم مولودون في هذا القطر ويعرفون بتقاطيع وجوههم ورشاقة قوامهم ولطف حركاتهم واختلاف ملابسهم عن ملابس بقية السكان.

١٠٢. السوريون أو الشوام

السوريون كثيرو العدد فى القطر المصرى، وهم أقل من اليونانيين فى حسن مظهرهم وانحدار غريزتهم إلى البسط والمطايبة. ولغتهم العربية ولباسهم لباس الرعية من أهل القطر.

١٠٣. الأحباش

يؤتى بالأحباش إلى القطر المصرى ليبيعوا فيه ورق، ويخصى البعض منهم فترتفع بهذه العملية أثمانهم. أما الحبشيات فأقل عدداً فى مصر من الذكور والجهات التى يرد الأحباش منها إلى مصر سواحل البحر الأحمر وسواحل الأوقيانوس وداخل بلاد الحبشة وحدود بلاد السودان، وهم على ثلاثة أنواع.

الأول لونه كالمولدين. شعره متجمع فى ملابس فلا يشعر لامسه منه بما يشعر به إذا لمس الصوف.

الثانى يقطن داخلية البلاد ولونه أنقى وأصرح من لون غيره وشعره طويل مرسل.

وهذان النوعان تنطبق أوصاف رءوسهما وتقاطيع وجوههما على المعروف من مقابلها عند العرب، وإنما فى دقة وتناسب لا يتوافران فى رأس العربى ولا فى تقاطيع وجهه. وهىئة أعضائهما مستديرة وبنيتهما رقيقة وتنقصهما القوة البدنية كما تنقصهما الهمة النفسية، على أنهما أية فى الذكاء والأمانة.

والنساء منهن يمتزن بالمحاسن الخلقية ورقة الأخلاق وحسن الطباع.

أما النوع الثالث من الأحباش فموطنه حدود إقليم (الجالا) حيث يضرب لون بشرتهم إلى السواد وشعورهم صوفية اللون والملمس وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع وجوه السودانين.

١٠٤. الأثيوبيون

أصل السودانين الذين يصلون إلى مصر من بلاد دارفور وكردفان وبلاد الكاميل. والقبائل فى هذه الأقطار مختلفة يحارب بعضها بعضاً فيأخذون الأسرى الكثيرين ويبيعونهم أو يقايضون عليهم، ويأتى تجار من النوبة يعرفون

بالجلابة فيأخذون هؤلاء الأسرى إلى أسواق النخاسة بمداين مصر الكبرى لبييعوهم فيها. والسودانيون من تلك الأقطار تختلف أشكالهم الجثمانية وصفاتهم الطبيعية اختلافا عظيما. وهم يختلفون عن بعضهم بالقامة وشكل الرأس وتقاطيع الوجه ولون البشرة ودرجة الفهم والذكاء.

١٠٥-الأوروبيون

يتألف الأوروبيون النازلون بالقطر المصري، والذين تشملهم فيه لفظة «الإفرنج» من جاليات تابعة للأمم أوربا وعلى الخصوص إيطاليا وقد جاءوا جميعا إلى مصر وبلاد الشرق الأدنى مدفوعين إليها بحب الكسب من مزاوله الأعمال التجارية. والقليلون منهم يتخذون هذا القطر مقاما دائما لهم ولأعقابهم، وأغلبهم يعودون إلى أوطانهم.

واسوف اغتنم الفرصة فى الفصول المخصصة للكلام على الأمة وأخلاقيها لنذكر شىء عن الأقوام المختلفة بالقطر المصري مقرونا ببيان مايجمعها بعضها إلى بعض من الروابط والعلاقات وإيراد أهم الصفات الأدبية التى اختص بها كل فريق منهم.

السكان والمساكن والمدن والقرى فى مصر

(١) السكان

سكان مصر في العصور القديمة - السكان الحاليون - أسباب قلة السكان في القطر المصري - ما اتخذ محمد علي من الوسائل لإنماء عددهم - الموانع التي تحول في الوقت الحاضر دون ظهور أثر الإصلاحات التي قام سموه بها.

١- سكان القطر المصري في العصور القديمة

محقق أن سكان القطر المصري أيام مجده القديم كانوا كما في جميع الممالك والولايات الراقية كثيرون العدد منيعي الجانب بكثرتهم. ولو سلمنا بما ذكره كل من استرابون وديودورس الصقلي لكان عددهم في عهد الملك سيزوستريس وفي أيام البطالسة يتراوح من سبعة ملايين إلى ثمانية. وقد بالغ مؤرخو العرب في تعداد سكان القطر المصري مبالغة أفضت بهم إلى زعم أن عدد سكان مصر كان إبان الفتح الإسلامي يناهز العشرين مليوناً من النسما، وأن عدد مدنها وقراها كان نحو العشرين ألفاً.

وبعيداً عن الشك أن هذا التقدير مبني على ما عرف به الشرقيون من المبالغة والإغراق. على أنه لا يبعد كثيراً عن الصحة وربما كان مصيباً لشاكلة الصواب إذا رجع في تقدير سكان قطر ما على المتوافر فيه من الوسائل الطبيعية الكافية لقضاء حاجاتهم المعيشية. فيكون أولئك المؤرخون قد اعتمدوا في تقديرهم على ما استنتجوه من اتساع أراضيها وطبيعة تربتها

ومقدار مساحتها القابلة للزراعة.

ولما كان مسطح مصر يعدل على هذا الاعتبار السدس من مسطح فرنسا، وكان بمثابة واد خصيب قابلة لمساحته للزيادة كما هي قابلة للنقصان. فبالزراعة وحدها يستطيع توسيع نطاقها بإيصال مياه النيل إلى الصحراء لإخصاب رمالها. فإذا أحللنا محل الاعتبار هذه العناصر التي تتألف منها الثروة الداخلية للبلاد فإننى أرى قريبا من الاحتمال أن يكون عدد سكان مصر قد بلغ قبل هبوطها في هاوية الانحطاط إلى نحو الثلث مما قدره أولئك المؤرخون من العرب.

٢. السكان الحاليون

في بداية هذا القرن - أى في عهد الحملة الفرنسية قدر عدد سكان القطر المصرى بما لا يتجاوز مليونين من النسمات. نعم لم يكن هذا التقدير مبنيًا على شيء من الدقة والضبط. إذ قد ثبت بالإحصاء أن عددهم الآن يبلغ ثلاثة ملايين من النسمات.

ومن المستحيل الرجوع بهذا الرقم إلى مصدر صحيح وبيان مضبوط لحرمان مصر في الوقت الحاضر من نظام تضبط بمقتضاه الأحوال المدنية لكل فرد من الأهلى، وإنما التقدير عمل بحسب ما يستنتج من الإحصاء التقريبى لعدد المنازل فقد ذهبوا إلى أن منازل مدينة القاهرة يحتوى كل منها ثمانية أشخاص ومساكن الأرياف أربعة على حساب المتوسط في الجهتين. وقدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمائة ألف نفس. الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح. أما مجموع السكان فيمكن تقسيمهم على الوجه الآتى:

٢٦٠.٠٠٠	المصريون المسلمون
١٥٠.٠٠٠	المصريون المسيحيون - أى الأقباط
١٢.٠٠٠	العثمانيون - أى الأتراك
٧.٠٠٠	العرب - أى البدو
٢.٠٠٠	السودانيون
٥.٠٠٠	البرابرة

٥٠٠٠	الأحباش
٥٠٠٠	المماليك الجراكسة
٧٠٠٠	اليهود
٥٠٠٠	السوريون
٣٠٠٠	اليونان الرعية
٢٠٠٠	الأرمن
٣٠٠٠	اليونان الأفرنج
٢٠٠٠	الإيطاليون
١٠٠٠	المالطيون
من ٧ إلى ٨٠٠	الفرنسيون
من ٨٠ إلى ١٠٠	الإنجليز
من ٦٠ إلى ١٠٠	النمسيون
من ٢٠ إلى ٣٠	البروسيون
من ١٥ إلى ٢٠	الاسبانيون
	السويسريون والبلجيكيون
	والولنديون والبروسيون
١٠٠	والدانيماركيون تقريبا

وأكرر القول هنا بأن هذه الأرقام ليست رسمية، وما قصدت بإيرادها إلا تصوير فكرة تقريبية عن السكان في القطر المصرى.

٣. أسباب قلة عدد السكان في مصر

لا يسع المرء إذا قارن عدد سكان القطر المصرى في العصور القديمة به الآن إلا التساؤل — والحزن ملء فؤاده — عن أسباب النقص السريع الذى اعترى النوع البشرى في بلاد خولتها الطبيعة كل العطايا والمنح. ولما كان هذا القطر محصورا بين صحراويين فهل يمكن القول للإجابة على هذا السؤال بأنه يتنازل شيئا فشيئا عن أراضيه ليحتلها ذلك المغير الذى لا يعرف للرافة والشفقة معنى؟ وهل صحيح ما يزعم بعض علماء طبقات الأرض (١) من أن الناموس الطبيعى يقضى بأن تعمر جهات الوجه القبلى بالصحراء التى سبق لها أن وارت تحت رمالها شطرا كبيرا من إقليم طيبة القديم، وأن النوع البشرى قد طارده فأخرجته من مواضعه وأماكنه القديمة تلك القوة التى لا

(١) راجع كرفين في خطابه عن التقلبات التى تنازلت سطح الأرض.

غالب لها. هذا ما لا نعتقده، وإنما الذى نسلم به أن بنى مصر يستطيعون التغلب على الصحراء فإذا كانت هى الغالبة على أمرهم فما ذلك إلا لجمودهم وتراجعهم عن مغالبتها بما استنبط فى هذا العصر من ذرائع التقدم ووسائله.

الحياة فى مصر هى النيل والموت هو الصحراء. والنيل هو الذى أوجد مصر من العدم، فهو إذن روحها ولا يزال كذلك. أما الصحراء فإنها إذا تركت إلى القوة التى تدفعها نحو الأرض الخصبة فإنها لا تلبث أن تلتهمها وتقنيها شيئاً فشيئاً فى ذاتها، ولكن النهر يستطيع التغلب على الرمال بإخصابه إياها بمياهه فمن الواجب للاحتفاظ بمصر الجميلة التى توغل بمقدار مائتى فرسخ فى البحار الرملية بل لتوسيع نطاقها، معارضة قوة الصحراء بقوة النهر ودفعها بها. ولاريب أن رفاهية مصر وزيادة عدد سكانها يتوقفان على حسن تدبير مياه النيل. بل هما مرتبطان وثيق الارتباط باتساع نطاق الري وتعهده أحواله، فلتتيسر موالاة هذه المصالح الحيوية الجلية الخطر بالرعاية ومواصلتها بالمراقبة الدائمة لاغنى عن مشاركة القدرة للفكرة وإتحادهما معا وأن تكون الحكومة مصدر الاثنتين.

فمصر إذن أكثر البلاد احتياجاً إلى تدبير أمورها بمعرفة حكومة عاقلة مدبرة. ووجودها المادى وحفظ كيان تربتها الزراعية وبالتالي نمو عدد سكانها يتطلب الهمة فى العمل والمثابرة عليه من القابضين على زمام أمورها. ولكن قضى الله أن لا يوجد على وجه الأرض بلد اختل نظام الحكم فيه منذ عشرة قرون اختلاله فى القطر المصرى. بل لا بلد شهد فى مدد قصيرة تناوب السلطات المختلفة مثله على استلام زمام أموره على ما عرفت به من شدة الهمجية والميل إلى التخريب مع الدعة والتهاون والغباوة فى إدارته^(١).

وإذا بحثت عن أسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فإنك لا تلبث أن تتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شئونها بالعبث والإفساد حتى ضاع

(١) الناشر: يقصد الكاتب الإشارة إلى السلطات وليس الشعب.

الغرض النافع المقصود منها.

فإذا كان في مصر أسر شهدت حقولها ومزارعها وقد غلتها من الصحراء طبقة صيرتها غير صالحة للزراعة حتى اضطرت أن تهجر مواطنها وأماكن عزها، وإذا وجدت أسر غيرها قد أنهكها الفقر المدقع وأضناها الجوع حتى كاد أفرادها يتلاشون عن آخرهم للسبب المتقدم. فما الخطأ في ذلك إلا خطأ السلطة ولية الأمر، أو بعبارة أخرى خطأ حرمان البلاد من سلطة جديرة بأن تتحلل بهذا الاسم.

وإذا كانت الأوبئة على تعددها واختلافها قد تحيقت القطر المصرى وفتكت بأبنائه أذرع فتك واتخذته لنفسها مستقرا ومقاما، فمن ذا الذى تقع على عواهنه مسئولية الإهمال في اتخاذ الوسائل لدفع ضررها إما بالصيانة والوقاية وإما بالمكافحة؟ بل من ذا الذى يحاسب على جهله وغفلته فيكون إثم غليظا وقصاصه عليه عبرة ظاهرة للناس ومثلا مضروبا؟ إن على رأس تلك الحكومات - إن وجدت - تقع أثقال هذه العبرة، فإن لم تكن موجودة فقد حق للناس أن يرفعوا الصوت بالشكوى والتذمر من سوء الحال وشر المال.

ولقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلت في مصر محل النظام أن شيئا كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحساب ما انتحلوه أنفسهم من حق التصرف في نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك. ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس أولئك الألووف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين؟ ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب. إذ أصبح ميدانا مستمرا للحروب الأهلية ومجالا تعبت فيه شيع الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد.

٤. محمد على ووسائل زيادة عدد السكان

محقق أنه لإقامة أركان سلطة قوية في بلد تدهور في مثل هذا الدرك من الانحطاط الأدبي والمادى، وإيجاد وحدة متينة العرى حيث ذهبت وحدة كل

شئ ببدءا، بقوة الفوضى التي تعاقبت على مدى الأجيال، وتخويل هذه السلطة الجديدة من الحياة ما يكفي لضمان استمرار تأثيرها بانتقال التقليد بها من طريق الوراثة إلى سلالة أسرة واحدة، لا يكون مثل هذا العمل الجليل على ما يتراءى لي إلا عملا ذا عبقرية ساطعة عجيبه والذريعة الفريدة لبعث مصر ثانيا إلى الوجود وزيادة عدد سكانها، وقد كان هذا قصارى ما يستطيع أن ينتظر من محمد على. بل لم يكن لأحد الحق في أن يطالبه في هذا الموضوع بأكثر مما عمل.

ومع هذا فإن خصومه وشائنيه لم يكفوا عن توجيه التهمة إليه بأنه استنفد قوى البلاد المصرية واستدر حلابها. بل ذهبوا إلى أنه قد أتى إنما غليظا لتتقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية مالا تتسع للإنفاق عليه مالية البلاد.

فإذا كان من المسلم به لإعادة مصر إلى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة في سالف الأزمان من البدء قبل كل شئ بإنشاء حكومة قوية على أسس وطيدة فلا بد من غض النظر والتسامح حيال الوسائل التي استعان محمد على بها على تعزيز سلطته بالقوة التي تكفل لها الاستمرار.

وليس بغارب على فكر أحد أن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» لمن المبادئ التي تحقق على البلاد المتوحشة التي يخضع كل شئ فيها لحكم الاستبداد الفعلي. بل والتي لاتزال كلمة الحق العام فيها من الكلمات المجهولة أو من اللغو الباطل، فمن عجز المنطق وقلة الذمة وسوء النية أن يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الأمة من الآلام الوقتية ويصيبها من الأضرار الزائلة التي يؤدي إليها تنفيذ مشاريعه الكبار، وليست هذه الأضرار والآلام إلا نتيجة الأمراض المزمنة التي أخذ على عاتقه تطهير مصر من أدرانها وصيانتها من عواقبها الوخيمة.

نعم إن مصر قليلة في عدد السكان الآن، ولكن ليس في استطاعة الوالى ابتكار ما يؤدي إلى زيادة عددهم فورا. إذ من المقرر أن المدنية لاتبلغ إلى حد الكمال حتى في أكثر الظروف والأحوال ملاءمة لها إلا بتأثير الزمن. ولم يقل أحد إن شعبا نهض من عثرته وبذل شبابا من هرمه وقوة من ضعفه بإحدى

وسائل السحر . فمما يدعو إذن لإكبار محمد على وتكريم ذاته أن جعل وسائل التقدم والإصلاح ممكنة في مصر، وأن يتخذ منها قوة تحل محل الضعف ويستمد منها حياة وعمرانا يقومان مقام الموت والخراب.

فمحمد على لم يستنفد رجال وادى النيل. بل دأب على ما يوجب كثرة عددهم. ولقد كان نابوليون يقول: «إذا انقضت عشرون سنة على مصر وهى بيد الممالك يتصرفون فى إدارتها على ما تشاء أهواؤهم فإنها تكفى لخسارة ثلث أراضيها الزراعية وخرابها» ولكن «محمد على» عرف بحكمته ودرأيته كيف يوقى مصر شر هذا الرأى. إذ شق الترعى الكثيرة التى حملت إلى الجهات القصية من بلاد الأرياف عناصر الخصب والرخاء، وأدخل التحسين على نظام الرى فأصابته حسناته القفار والصحارى فزادت محصولات مصر زيادة بالغة، واستدعى إليه الأطباء الأجانب لاستئصال شأفة الأمراض، وأنشأ مدرسة للطب ومستشفيات عديدة، وكان داء الجدرى قبل ولايته يحصد الثلث من عدد الأطفال. فيما اتخذ من وسائل المكافحة والوقاية زال هذا السبب الذى كان من أهم أسباب نقص السكان. إذ تقرر تلقيح المولودين وغيرهم بالمادة الجدرية، وحال بين الموظفين والتسلط على الأهلى بالظلم والعسف، وساد النظام التام فيما خضع لحكمه من بلاد افريقية التى ظلت فيما سبق نهبا مقسما وفريسة بين القبائل التى كانت كالكلاب المسعورة فى الشره إلى الغنائم . وساد الأمن وخفقت ألوية النظام بحيث أصبح ساكنوها متقلبين على مهاد الراحة والنعيم. بل أهنأ بالا منهم فى أى بلد من أوربا ساد فيها النظام واستقر الأمن على أوطد أساس.

٥. موانع ظهور الإصلاحات التى قام بها الوالى

إن قوات مصر العسكرية هائلة فى الحقيقة، ولكنها لا تنهض دليلا يستند إليه القائلون بأن الجندية المصرية نظام داع إلى نقصان عدد سكان القطر. فإن الفلاح يجد فى الجيش الذى هو أحد جنده هناء ونعيما يبعد أن يكون متمتعا بمثلهما فى بيته، وعدد الوفيات بين الجنود أقل منه نسبيا بين الفلاحين. ومن جهة أخرى فإنه من المسموح به لرجال الجيش التزوج وهم فى الغالب متزوجون الآن.

ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاولة أعمال الزراعة، ولولا أن «محمد علي» بحاجة إلى الدفاع عن استقلاله ضد ما يلاقيه من سوء الإرادة والنية، بل لو كان من المسموح له أن يتخصص للعناية بشئون الأقاليم الواقعة تحت حكمه وأن يوجه إليها كل خاطره لكفاه الزمن القصير لينشر على أهلها أجحة الهناء ويغدق عليهم الثروة واليسار.

ولقد تم اليوم إنشاء الحصون ودور الصناعة وأقيمت المباني العمومية والأشغال الأساسية ودفع ما استلزمته الأدوات من النفقات. فلم يبق إلا أن تقطف مصر ثمار المزايا المنتظرة من الإصلاحات الحديثة. إذ لم تبق الحياة السياسية لصاحب تلك الإصلاحات على محك البحث والمناقشة من غير انقطاع. أما المصائب والآلام التي ما برحت مصر تنوء بها فأوروبا وحدها هي الكفيلة برفع هذه الأصر عنها إذا أرادت أن تحسم المصاعب الناشئة عن المسألة الشرقية حسما نهائيا جازما^(١). فإذا لم تكن مصر حتى الآن تستطيع السير بقدّم ثابتة في طريق السعادة والمدنية فما ذلك إلا لأن الدول الغربية هي التي يرجع الأمر إليها في تعضيدها التعضيد النهائي بوضع حد لما نجم من المتاعب والمشاق عن بقاء الحالة السياسية الحاضرة على ما هي عليه بالنسبة لها مقرونة بما تتكبدته من القلق الشديد على مصيرها.

(١) الناشر: إنها وجهة نظر المؤلف في الفترة التي أصدر فيها كتابه.

(٢)

منازل السكنى والمباني العمومية

منازل المدن - مظهرها الخارجى - باب الدخول - الشبابيك - الجديدة -
السطوح - صحن الدار - حجر النساء - بيوت القرى - المساجد -
الأسبلة والأحواض والحمامات - الأسواق والقهوات والوكائل.

٦. منازل المدن

منازل المدن بوجه عام أفسح منها فى القرى وأجمل. وهذا الفارق لما يلفت
النظر فى القطر الذى يشكو سكانه من أهل القرى الفقر ويعانون الفاقة على
وجه يخیل معه أن الهناء والرخاء قد فارقا ربوعهم ليهبطا المدائن الكبرى
ويسيرا فى ظل سكانها تبعاً لهم وطوعاً إرادتهم.

ومواد بناء المنازل فى المدن الأحجار العادية وحجر الجص. وهما يؤخذان
من الجبال المجاورة لها، ثم من حجر الآجر المطبوخ بالنار أو المعرض
لحرارة الشمس.

وليس لتلك المساكن غالباً سوى دور أرضى وطابق علوى، وقلماً شديد
فوق هذا الطابق طابق ثان، لأن كل دار لا يسكنها إلا أسرة واحدة. وسيدرك
القارئ على أيسر وجه سر هذه العادة متى علم أن المسلمين نزعت بهم
التقاليد إلى قصر الحياة البيتية على العزلة وقطع الصلة مع الأغيار. فهم
يؤثرون أن تكون لكل منهم داره كى يستطيع إغلاق بابها عليه دفعا لكل
صلة تترتب على المخالطة أو ما يستتبعها من المودة.

٧. المظهر الخارجى للمساكن

لما كانت دور المسلمين مقتصرة على ما ذكر من المصلحة الذاتية فمن
الطبعى أن تختلف فى أسلوب بنائها وتوزيع حجراتها ومظهرها الخارجى
عن غيرها من المساكن، وأن يقصد بترتيب أوضاعها وتنميق زخرفتها إلى
توفير الهناء الذى يتحرى أربابها أسبابه وجعلها بحيث لا تصل إليها أشعة
أبصار المتسمعين والمتسقطين. فإنه لم يراع فيها مثلاً مجاراة أذواق الجمهور
فى أن تكون على نمط من أنماط البناية الهندسية الصحيحة. فحوى أغلبها

لهذا النقص الفاضح مشيدا بحكم الجراف والمصادفة في شوارع غير معتدلة. ودور الأغنياء منها كثيرا ما يرتد الطرف عنها وهو حسير لقبح منظرها وحقارة مظهرها وخلوها من كل أثر للتناسق أو الزخرفة، ولكنها في مقابل ذلك تحتوى من الداخل أجمل ما يقع البصر عليه من الزخارف وثمان الرياش، وربما كان لإغفال شأن المظهر الخارجى للمنازل سبب آخر غير قلة اكتراث أصحابها بميول الجمهور وأذواقه وهو اتقاء مطامع العظماء وأصحاب البطش بتزهيدهم في التطلع إلى ما يسبتره القبح الخارجى من الجمال الداخلى. فلقد تبين الشرقيون بالتجربة الطويلة ما يتهددهم من الخطر في أموالهم وأعراضهم إذا امتدت أنظار الأقوياء إلى ما وراء جدرانهم القبيحة من مجلس النفائس وثمان الأعلاق وجميل المقتنيات.

٨. باب الدخول

مداخل هذه المنازل أبواب واطئة جدا تفتح دواما إلى الداخل، وتتألف من دفة = درفة = واحدة بحيث إذا فتحت وقف نظر الناظر دون جدار قائم تجاه المدخل وإلى جانبه منفذ يوصل منه إلى داخل البيت. والأبواب في هذا تغلق بعارضة متينة من الخشب تجرى في مجراها، فتمرر بالبواب كله على اتجاه العرض فإذا أريد فتح الباب أدخلت في مجراها وإذا أريد إغلاقه سحبته منه وهناك أيضا مزاليج من أصناف مختلفة لا أرى فائدة من إيراد وصفها في هذا المقام.

٩. الشبائيك الحديدية

لواجهات المنازل نافذات كبيرة ركبت فيها قضب حديد متشابكة ضيقة الثقوب تؤذن للهواء والضوء بالنفاذ إلى داخل الحجرات، ولكنها تحول دون رؤية ما وراءها من الأشخاص أو الأشياء. والطابق الذى يلي الدور الأرضى هو الذى توجد النوافذ به عادة، وهو بارز إلى الأمام بنحو قدمين أو ثلاثة أقدام فيتكون من هذا البروز شرفة مستورة لا يمتد البصر إلى ما وراءها. والمشربيات التى تتركب عادة في هذا الجزء البارز عبارة عن قطع صغيرة دقيقة من خشب المخروط تعشق بعضها في بعض بحيث تتألف من مجموعها أشكال ورسوم متشابكة لطيفة المنظر. وفي بيوت الفقراء تتخذ حواجز النوافذ من البوص أو سعف النخل. أما دور الموسرين ففيما عدا الحواجز الحديدية توجد بها أبواب من الزجاج تحول دون نفاذ العثير = التراب الناعم = إلى الداخل.

١٠- السطوح

لما كانت سقوف المنازل في مصر مسطحة فقد استتبع ذلك أن تكون سطوحها مسطحة كذلك، ومن ثم أطلق عليها هذا الاسم. وتحيط بالسطوح ذروة بارتفاع الإنسان وتتخذ مناشر لتجفيف الثياب المغسولة. ولكنها في الحقيقة معاهد خاصة لتريض النساء في منازلهن. خصوصاً إذا كانت خالية من الحداثق والأفنية وإليها يصعد رب البيت وحرمة وجواريه لاستنشاق النسيم العليل في الأصيل والتماس الراحة من عناء النهار، وتطلى السطوح - أي ظاهر السقوف عادة بمونة تتألف من رماد الأفران والجير والمصيص. أما في منازل أصحاب اليسر والرخاء فتبلى بالبلاط الحجري مقطوعاً قطعاً صغيرة رفيعة جداً.

١١- صحن الدار

في كل منزل غالباً صحن داخلي تتوافر فيه مزيّتان: إحداهما إدخال الضوء والهواء في حجرات الدار، والثانية الاستفادة بما حوله من الأمكنة في اقتناء الحيوانات الداجنة كالبداج والمعز. إلخ أو إيواء حيوانات النقل كالخيل والحمير أو حفظ الأمتعة الفائضة عن الحاجة، وقد يجعل فيها الطاحون والفرن والمطبخ ومسكن للخدم وحجرة استقبال الزائرين (المنظرة) يتوسط ذلك كله بئر لاستقاء الماء اللازم للمرافق المنزلية منها.

١٢- حجرة النساء

يختص القسم الأعلى من الدار بالنساء. وهو يحتوى بهوا كبيراً يشبه البهو الخاص بالاستقبال في منازل الأوروبيين، وكذا مخادع النوم لرب المنزل ونسائه وجواريه وغرفاً أخرى.. إلخ.

١٣- المميزات الخاصة

دور المسلمين كافة - إلا القليل منها - مشيدة على الطراز المتقدم ومقسمة بمقتضاه فإذا وجد اختلاف يسير في الترتيب بين دار وأخرى فإنما يرجع إلى التفاوت بين أربابها في الهيئة الاجتماعية وجاهة وثروة. فبيوت الأغنياء مثلاً تحتوى الحداثق غالباً وهى سرحهم ومراحهم دون غيرها يختلفون إليها لترويح النفس وتطيببها وتعوض عليهم لذة ما يرجى من السرور بتنزههم في الخارج، وتحتوى مساكن العظماء أحياناً صحنين وحديقتين وبنايتين

إحداهما للرجال والأخرى للنساء.

ودور المصريين مبلطة عامة ببلاط من الحجر. أما الاغنياء فيقوم المرمم في دورهم مقام البلاط في تلك وفيها الحمامات. وتبلط مناظرها بالقاشاني، وفي وسطها حوض ينبثق منه الماء. وفي الحجرات العليا أحواض من هذا القبيل ذات نافورات، وليس في كل دار سوى مدخنة هي التي يسلك = يخرج منها دخان المطبخ. أما بيوت الخلاء فعديدة. إذ لكل حجرة واحد منها. وزجاج الشبابيك لا يفتح كما هنا بدفتين بل يرفع من أسفل إلى أعلى فيتحرك في مجرى خاص به يمتد ويسر ولما كانت التهوية من الأمور المهمة في البيوت المصرية فالذي جرت عليه العادة في مصر أن يفتح في السقف فتحة يقام عليها منور متجه إلى الشمال (البحري) فإذا ما أقبلت الريح من الشمال واصطدمت بهذا الحاجز هوت إلى داخل المنزل فجددت هواءه.

والنمط الهندسي الغربي هو المعمول به في إنشاء جميع المنازل تقريبا بالقطر المصري، ولا يجهل أحد ما تحلت به هذه الهندسة البنائية من الرسوم الظرفية والزخارف الجميلة والتراكيب المنسقة والألوان الزاهية. وهو ما يصح معه القول بأن البيوت المصرية مدينة بجمال منظرها إلى الأجزاء التفصيلية التي هي أسس ذلك النمط الهندسي وقوامه. ولقد سبق لي الكلام على رداءة مظهرها الخارجى. وهى من حيث توزيع أقسامها الداخلية حقيقة بمثل هذا الانتقاد. إذ لانظام بالمرّة في توزيع الغرف بل غالبا ما تكون بعض الحجرات أكثر ارتفاعا من البعض الآخر وغير قائمة على مستوى واحد وأن تكون كلها حجرات طابق واحد. وهذا الاختلال الهندسى مقصود بذاته. لأنه يساعد على العزلة التى يطلبها رب البيت. وهناك مخابىء كثيرة ليس من الممكن انشاؤها إلا إذا ضحى بالنسق الهندسى ووحدة التطابق في المجموع.

ومنذ بضع سنوات طرأ اختلاف عظيم على أنماط هندسة المساكن فحل محلها النمط الإسلامبولى الذى هو عبارة عن مزيج من النمط اليونانى الفاسد والنمط العربى لارائد له من الذوق السليم. ولقد أنشئت مبا من الخشب طبقا لهذا النسق الجديد، وروعى فيها استبدال القواعد البيضاء الشكل بنواقد كبيرة مستطيلة واستعويض عن النقوش العربية الجميلة بصقل

أسطح الجدران صقلا متناسقا وهو مما ينبو عنه النظر وينبذه الذوق.

١٤. الحوانيت

في الأدوار الأرضية من المنازل الواقعة في الأحياء التجارية حوانيت التجارة ومخازنها. وهذه الحوانيت صغيرة جدا يختلف مسطحها من ١٢ إلى ١٦ قدما عرضا في مثلها طولاً، وليس لها في مقدمها مكان تعرض فيه البضائع. وكل ما هنالك دكان من الحجر يحول بين الجمهور المقبل على الشراء والدخول فيها فيضطر إلى البقاء خارجها.

١٥. منازل القرى

في مدن الوجه البحرى فقط تشاد المنازل بالحجر والآجر، لأن الأمطار فيه كثيرة والمنازل تستلزم الصلابة والمتانة أكثر مما تستلزمها المنازل في الوجه القبلى لقلة الأمطار، ولا يستعمل في بلدان الصعيد عادة إلا الآجر المربع المجفف في الشمس والمبنى من الطين وحده، وليس فيه مدن كبيرة بل قرى صغيرة فقط فيها مساكن الفقراء، وهى في أقصى ما يكون من الحقارة. لأنها عبارة عن أكواخ لا ترتفع فوق سطح الأرض إلا ببضعة أقدام وجدرانها الهشة متخذة من الطين الآجر النيىء الذى اتخذ روث الحيوانات لإصاق بعضه ببعض. والضوء والهواء ينفذان فيها بفتحات صغيرة جدا، وأسقفها مغطاة بفروع الأشجار وسعف النخل. ويعيش الفلاح في هذه الغرفة الضيقة مع ما يملكه من الحيوانات الداجنة. وفي عدد عظيم من القرى أبراج مربعة الشكل للحمام ولكن جدرانها مائلة ميلا قليلا وقائمة فوق سطوح الأكواخ.

١٦. المساجد

المساجد هى معابد المسلمين، وهى كثيرة العدد منتشرة في جميع أرجاء القطر المصرى لكثرة ماشاد منها الملوك والأمراء والأغنياء إظهاراً لورعهم وتقواهم. والقاهرة وحدها فيها أكثر من أربعمائة مسجد تحتوى مبانيها عادة بوابات ترتفع صفوفها حول صحن مربع في وسطه حوض معد للوضوء والجانب الذى فيه المحراب والمنبر من المسجد يتجه صوب مكة المكرمة، وهو أقسح من الجوانب الأخرى، وبه صفان أو أكثر من الأعمدة موازية للجدار الخارجى ويتألف منها الجزء الأمامى من المسجد، وفي الجدار المتقدم تجويف يسمى بالمحراب هو دليل الاتجاه نحو مكة بالنسبة للمسجد وإلى اليمين من المحراب المنبر الذى يصعد فيه الخطيب ليعظ المصلين، وتجاه المحراب إلى الخلف أدراج بسطت عليها نسخ من القرآن ودكة يقيم المؤذن

منها الصلاة. وفوق المساجد ترتفع المنارات فترتسم على صفحة السماء اللازوردية اللون كسهام محددة النصال، وهذه المنارات يدعو المؤذنون من أعلاها المؤمنين إلى الصلاة في الساعات المقررة لها فتكسب المدائن الإسلامية طابعا خاصا تخلو منه المدائن الأخرى. وتكتسى جدران المساجد بنقوش هي آية الظرف والدقة والإتقان. ومعلوم أن نبي المسلمين لما أراد أن يطعن الوثنية في قلبها الطعنة القاضية عليها شدد في تحريم تصوير الكائنات الحيوية = الحية = ولو كان رسما بالقلم فكان هذا سببا في ألا توجد على الآثار الإسلامية نقوش تمثل صور الإنسان أو الحيوان ذات الأشكال المختلفة التي تحير بمختلف تراكيبها اللب وتأخذ بمجامع القلب، وهي كلها لا تمثل سوى تشابك الأغصان وتضاهي = تماثل = الأوراق والأزهار على نمط بديع يشير إلى ما هنالك من الحذق والمهارة في الصناعة.

وغالبا ما تعترى السياح الدهشة كلما زاروا هذه المساجد ورأوا ما هي عليه من اندثار تلك النفائس فيها شيئا فشيئا وتعذر عليهم التوفيق بين هذه الحالة وما يظهره المسلمون من التقوى والورع والتعلق بالدين واحترام المساجد. ولكن لنا أن نقول إن هذا الاحترام نفسه هو السبب في إهمال شأن المساجد على الوجه الذي رسمناه لمبالغتهم فيه إلى حد أنهم يخشون أن مجرد الشروع في ترميم العطب وإصلاح الفاسد يعد منهم افتئاتا وتعديا على تلك الآثار الجميلة. فهم يتركونها على حالها من الاندثار إلى أن تقول إلى السقوط فإذا سقطت شرعوا في بنائها من جديد.

١٧. الأسبلة والأحواض والحمامات

في غالب الأمر يلحق ببناء المساجد منشآت للجمهور كالأسبلة وأحواض الماء والحمامات والمدارس والفنادق. أما الأسبلة فشائعة شيوعا عظيما في جميع أرجاء القطر. إذ يوضع فيها الماء في أيام الفيضان النيل ليوزع على المحتاجين إليه. وهذه الأسبلة مستديرة الشكل وتحلى بالنقوش وفي نافذاتها الشبابيك المصنوعة من البرونز والأعمدة الرخامية والزجاج الملون والكتابات المحفورة. أما الأحواض فعبارة عن حوض يملأ بالماء وتعلوه قبة أو بأكية، وكثيرا ما يكون بالقرب منه بوابة كبيرة تجعل لها منظرا أثريا. ويقضى طقس مصر بالاستحمام، ويحتمه دين المسلمين، وهذا هو السبب في وجود عدد كبير من الحمامات العمومية.

١٨ القهوات والأسواق والوكائل

من الخطأ تصور القارئ أن القهاوى فى الشرق تشبه القهاوى فى بلادنا بوجه ما من وجوه الشبه. فإن القهاوى المصرية عبارة عن غرف يحيط بها دكاكين من الحجر مغطاة بالحصر يجلس عليها المصريون للتدخين وشرب القهوة وسماع القصص، والقهاوى من هذا النوع كثيرة جدا.

أما الأسواق فليست إلا شوارع مغطاة على عطفها = جانبيها = حوانيت صغيرة تتزاحم أقدام الناس فيها.

وأما الوكائل فبنايات كبيرة مخصصة لحاجات التجارة، وهى عبارة عن أبنية مقامة حول فناء مربع يحتوى فى وسطه حوض ماء وحوله مخازن فسيحة مسقوفة بالحجر كيلا تؤثر فيها نار الحريق. أما الأدوار العليا فمقسمة إلى غرف وحجرات ينزل فيها الغرباء من التجار.

١٩. المدن والقرى المصرية

يؤخذ مما ذكرته عن المساكن المصرية أن المدن التى تتألف منها لا بد أن تكون على شىء من الجمال، ولكن الحقيقة غير ذلك. فإن الطرقات فى هذه المدن لا تحف بها منازل يرضى شكلها النظر أو يسر القلب. فضلا عن أنها غير خاضعة لقانون تنظيم يجعلها فى تعاقبها على خط مستقيم. لأن كل مالك متى شرع فى بناء منزل له أقامه على ما يرضى هواه ويتفق مع مصلحته ولذا كان فى الغالب لا يهتمه التوفيق فى الاتجاه بين واجهة منزله ومقتضيات الطريق العامة. فكثيرا ما تراه يجعل هذا المنزل مائلا على هذا الطريق لاقائما عليه وهذا فضلا عن أن الطرقات كثيرا ما تكون من الضيق بحيث تكاد مشربياتها المتقابلة تلتقى ببعضها فتمنع انطلاق الهواء فى الطريق وتحجب أشعة الشمس عنه. ثم إن الطرقات لم تكن مفروشة بالبلاط. فهى إما أن تغطى بطبقة كثيفة من العثير وإما بطبقة أكثف منها من الطين. وفى الحالين يكون المرور منها مكروها ومتعذرا. وهناك شوارع على شىء من الاتساع ولكنها جميعا معوجه تعترضها الأزقة المسدودة أو تتلاقى ببعضها على وجه المصادفة ومن غير ترتيب. فيتكون من مجموعها تيه يتعذر على من لم يكن قد ألف السير فيها التماس مخرج له منها.

وتنقسم المداخن إلى حارات أو أحياء تغلق كل حارة منها فى الغالب بأبواب كبيرة تعهد حراستها - كما هو الحال فى القاهرة - إلى حراس يظلون طول الليل فى موقف المراقبة، ولكل حارة من تلك الحارات اسم تعرف به. كما أن

لكل طريق اسما كذلك، ولكن هذه الأسماء لم تكن مكتوبة على جدرانها . كما أن المنازل لم تكن مرقومة بأرقام التعداد. أما الاستصباح = الضوء من المصاييح = العام في الطريق فمجهول بالمرّة وغاية ما هنالك من الضوء في الليل ما يعلقه الأغنياء من الفوانيس على أبواب منازلهم في أثناء الليل. ومواقع المدن والقرى اختيرت بمحض المصادفة وبدون رعاية شرط ما من الشروط التى تقتضيها قواعد الصحة التى يهملها سكان القطر وأهل القرى منهم خصوصا فيضرون بأنفسهم ضررا بليغا . فإنك تراهم يتركون المنازل يعمل فيها الفناء بلا اكتراث فتشقق جدرانها وتنتشل أحجارها فلا تلبث أن تصبح ملتقى لصنوف الحشرات والأفاعى، وهذا فضلا عن إغفالهم إزالة الانقاض التى تتراكم على الأرض، وربما زادوا الطين بلة بإلقائهم عليها من غير كراهة ولا تقزز قمامات المنازل وقاذوراتها وما تعافه النفس من فضلات طعامها فيكون ذلك شر بؤرة تنبعث منها عناصر الأمراض الوبائية.

(٣)

التقسيمات الأرضية

التقسيمات في الأزمان القديمة — التقسيمات في عهد الممالك — التقسيمات الحالية — المديرليات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.

٢٠. التقسيمات في الأزمان القديمة

كانت مصر على عهد الفراعنة مقسمة إلى ستة وثلاثين نوما — أى قسما أو مديرية، وكل نوم أو مديريةية إلى مراكز صغيرة. وكان أربعة عشر من تلك الأقسام بالوجه البحرى واثنان وعشرون بالوجه القبلى. وحافظ البطالسة على هذا التقسيم فلم يدخلوا عليه تغيرا ما، فلما صارت مصر في أيام أغسطس قيصر إقليما رومانيا رأى أنها من الأهمية بحيث لا يليق أن تعهد إدارتها إلى حاكم واحد فجعلها اثنى عشر قسما فقط.

٢١. التقسيمات في عهد الممالك

أما في عهد الممالك فكانت مصر مقسمة إلى خمسة عشر إقليما . تسعة منها في الوجه البحرى وهى البحيرة ورشيد والغربية ومنوف ودمياط والمنصورة والشرقية وقلوب والجيزة، وثلاثة في مصر الوسطى وهى أطفيح والفيوم وبنى سويف، وثلاثة في مصر العليا — أى الصعيد وهى أسبوط وجرجا وطيبة، وحافظ بونابارته على هذا التقسيم فلم يدخل عليه تعديلا ما.

٢٢. التقسيمات الحالية

أما محمد على فقد غير هذه التقسيمات برمتها. إذ قسم القطر أقساماً إدارية رأى أنها أصلح لجصر السلطة وأدعى إلى تركيزها وتوحيد أعمالها. فجعلها سبع حكومات أصلية يقوم على تدبير شئونها المديرون، وقسم هذه الحكومات أو المديرلكيات = مديريات = إلى مقاطعات والمقاطعات إلى مراكز يحوى كل مركز منها عدداً من القرى.

وقسم الوجه البحرى إلى أربع مديرلكيات ومصر الوسطى والوجه القبلى إلى ثلاث، وجعل عدد المقاطعات فيها كلها أربعاً وستين مقاطعة وظهر من الإحصاء أن عدد القرى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية.

وسأين هنا مراكز المديرلكيات والمقاطعات التى تتألف منها والمدن الشهيرة والقرى المهمة التى تحتويها.

٢٣ - المديرلكية = المديرية = الأولى

تتألف هذه المديرلكية من أقاليم البحيرة وهى مقاطعات الرحمانية والنجيلة وشبرى ريس ودمنهو. وفى الطرف الشمالى الغربى من هذا الإقليم ثغر الإسكندرية. ومن أهم قراها أبوقير وديروط والطرانة ثم إقليم الجيزة ويتألف من مقاطعتى الجيزة والبدرشين، وفيها من المدن ميت رهينة (منفيس) ودهشور وسقارة.

أما القاهرة فلم تكن داخلة فى إحدى المديرلكيات، ولكنها توجد بحكم وضعها فى إقليم، الجيزة ثم إقليم قليوب، ويتألف من مقاطعات قليوب والمرج وبنها العسل وطحا. ومن قراها الشهيرة شبرى = شبرا = والخانقاه وأبوزعبل والمطرية.

٢٤ - المديرلكية الثانية

تتألف من إقليم منوف، وهى مقاطعات أشمون جريس والباжور وشبين الكوم ومليج وأبيار، ومن قراها الشهيرة منوف، ثم الغربية وتتألف من مقاطعات قوه وزفتى وطنطا والجعفرية والشباسات والمحلة الكبرى ونبروه وشربين ودمياط. ومن مدنها رشيد وهى لاتدخل فى إدارة مديرى المحلة الكبرى.

٢٥ - المديرلكية الثالثة

تتألف من إقليم المنصورة، وفيه مقاطعات ميت غمر والسنبلاوين والمنصورة والوادى ومحلة دمنة والمنزلة ومن قراها الشهيرة فارسكور

والعريش والتينة بالقرب من أطلال الفرمة.

٢٦. المديرلكية الرابعة

تتألف من إقليم الشرقية، وهى مقاطعات شبيبة النكارية والعزيزية وبلييس وههيا وأبوكبير وكفور نجم.

أما أطفيح فتتألف من مقاطعة واحدة من أشهر قراها التبين.

٢٧. مديرلكية مصر الوسطى

هذه المديرلكية تشمل الفيوم وبنى سويف وتتألف من ست مقاطعات وهى فمن العروس والفيوم وبنى سويف، والفشن وأبوجرج. ومن قراها الشهيرة الزاوية وأبوصير الملق ومدينة الفيوم واللاهون ومعصرة دروة.

٢٨. الوجه القبلى والصعيد

ينقسم الوجه القبلى إلى مديركيتين تشمل الأولى بنى مزار والمنيا وزاوية موسى وديروط وملوى والقوصية ومنفلوط والدوير والشروق وأسيوط وسوهاج وطهطا وأخميم وبرديس وجرجا وفرشوط.

وتشمل الثانية مقاطعات قنا وقوص وإسنا وإدفو. ومن أشهر مدنها دندره ومدينة أبو.

(٤)

أشهر مدائن القطر المصرى حالا

الإسكندرية - أبوقير - رشيد - دمياط - دمنهور - الرحمانية - فوه - المنصورة - المحلة الكبرى - طنطا - المدن الأخرى فى الوجه البحرى - القاهرة - بنى سويف - الفيوم - فيديمين - المنيا - الأشمونين - منفلوط - أسيوط - أخميم - جرجا - قنا - قوص - إسنا - أسوان - السويس - القصير.

سأتوخى فى كلامى على أهم مدائن مصر الحالية المرور بها مرأ سريعا، وسأبتدىء بالواقع منها فى الوجه البحرى ثم أتبع فى ذكر البقية ترتيبها بحسب مجرى النيل صعودا. وهذا الترتيب ينطبق على الطبيعة، إذ هو الذى يراها بمقتضاه السياح والرحالون الذين يزورون القطر المصرى.

٢٩. الإسكندرية

قال نابليون: «اشتهر الإسكندر بتأسيسه مدينة الإسكندرية وانصراف نيته إلى اتخاذها مركز دولته وعاصمة ملكه أكثر من اشتهاره بفتوحاته

العظيمة وانتصاراته الباهرة.

فقد كان مقررا أن تصير تلك المدينة عاصمة العالم بأسره، وهى حرية بذلك لوجودها بين آسيا وأفريقيا واتصالها بالبلاد الهندية والأصقاع الأوروبية. ومينائها هو المرسى الوحيد للسفن على مدى خمسمائة فرسخ من السواحل الممتدة من تونس أو قرطاجنة القديمة لنهر النيل ومينائها يسع أساطيل العالم بأجمعه وفى الميناء القديم تكون عرضة لعبث الرياح وهجمات الأعداء».

وموقع الإسكندرية فى درجة ٥ ، ١٣ - ٣١ من العرض الشمالى ودرجة ٣٠ ٣٥ - ٢٧ من الطول الشرقى ، وقائمة بالقرب من بحيرة مريوط على البرزخ الذى بين القارة وشبه الجزيرة التى يتكون منها الميناء القديم والميناء الجديد. أما الميناء الجديد وهو السواقع إلى الشرق فمتسع المدخل ولا أمن فيه على السفن إذا لجأت إليه أثناء اضطراب البحر. وفى النهاية القصوى من لسان الأرض الواقى له قلعة المنارة، سميت بذلك لأنها مشيدة على المكان الذى كانت به فى الأزمان القديمة منارة البطالسة. أما الميناء القديم فإلى الغرب من الأول وهو حوض عميق جدا إذا لجأت إليه السفن أمنت على نفسها عبث الأمواج بها، والبوغاز المؤدى إليها يتعذر المرور منه على السفن الكبيرة التى جزؤها الغائص فى الماء عميق. وكان الدخول منها إلى الميناء ممنوعا ومحرمًا على المسيحيين قبل أن يتسلم محمد على مقاليد الحكم. إذ كان لا يجوز لهم النزول إلى البر إلا فى الميناء الشرقى الشديد الخطر على السفن - كما قلنا.

وموقع الإسكندرية، وقد أحاط بها البحر من جهة ورمل الصحراء من جهة أخرى، يجعلها كالجزيرة. وليس فى المدينة الحالية شىء من الإسكندرية القديمة غير الاسم والأطلال الدارسة، وقد لاحظ الكثيرون هذا الأمر. والذى خططها وأقام مبانيها بمقتضى الأوضاع والأوصاف التى عينها الإسكندر الأكبر هو بنفسه المهندس (دينوقراطس) ويؤخذ من رواية (بلينياس) أن طول محيطها كان خمسة فراسخ تقريبا ، وأن عدد سكانها كان ٣٠٠,٠٠٠ من الأحرار ومثلهم من الأرقاء. وكان يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طوله ٢٠٠٠ قدم وعرضه ١٠٠ قدم يقطعه فى زوايا قائمة شارع آخر مثله. وكانت أحيائها محلاة بالمباني المنجدة من القصور الباذخة والهيكل الفخمة والمدارس الجمنازية والمسارح التمثيلية.. إلخ.

ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب أنه لما استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية كانت مؤلفة من ثلاث مدائن تسمى إحداها «منه» والثانية «نكيته» والثالثة «الإسكندرية» ووصفها ذلك الفاتح العظيم في كتاب بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال إنه وجد بها ٤٠٠٠ قصر و ٤٠٠٠ حمام و ٤٠٠٠ ملهى وبنية عامة و ١٢٠٠٠ مخزن أو مستودع للتجارة.

وقبيل سنة ١٢١٢ من الميلاد المسيحي أحاطها أحد السلاطين ممن حكموا بعد السلطان صلاح الدين بسياج طوله الدائري فرسخا يتخلله مائة برج ولا يزال هذا السور قائما إلى الآن ورممه محمد علي.

وقد سقطت مدينة الإسكندرية من علوة مجدها منذ فتحها المسلمون وهبطت إلى الدرك الأسفل من الحضيض في عهد المماليك. فليس بغريب إذن أن تكون في أيام وصول الحملة الفرنسية إلى القطر المصري واحتلالها إياها قرية يأوى إليها القرصان، وأن لا يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة وأن تكون حصونها وقلاعها آيلة للسقوط وأن ينتابها العربان في كل وقت للنهب والسلب. حتى أن الإنسان كان لا يستطيع الخروج منها لزيارة عمود بومبيوس (السواري) الواقع على مسيرة عشر دقائق من المدينة من غير حرس يحرسونه.

ولم يطل احتلال الفرنسيين لمصر ليتمكنوا من إحلال الإسكندرية في المرتبة الأولى التي جعلها حقيقة بها بموقعها الطبيعي على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكل ما استطاعوا أن يقوموا به فيها من الأعمال أن شادوا حولها الاستحكامات اللازمة لوقايتها من غارة العربان وترميم الاستحكامات القديمة التي عملت فيها يد البلى والاندثار.

وما أن استتب لمحمد علي الحكم على الديار المصرية حتى أدرك بثاقب نظره وصائب فكره مالها من الأهمية العظمى من الوحوش = الوجوه = الحربية والبحرية والتجارية، وهى الأهمية المستمدة من طبيعتها موقعها كما ذكرناه. فإنها بلا مرء المفتح الحربى للقطر المصرى، وأول نقطة يتصدى لها العدو المغير بهجماتة. فكان في الدرجة القصوى من الأهمية السهر على توطيد تلك الحصون والاستحكامات وتعهدتها بما يجعلها على الدوام مكنة البنيان وثيقة الأركان. ولاشك في أن احتلال الانجليز إياها سنة ١٨٠٧ ألقى نفس محمد علي الاعتقاد بأن أقل إهمال في هذا المصدر ربما كان فيه

القضاء على نفوذه ومكانته أبد الأبدین.

ومرفئاً الإسكندرية هما الوحيدان اللذان على السواحل المصرية ، وإذا كانت الأساطيل ضرورية لصيانة استقلال القطر المصرى الذى لا تستطيع الدول الأوربية تهديده إلا عن طريق البحر. فالإسكندرية المرفأ الوحيد الذى تستطيع هذه الأساطيل اتخاذه مكمناً يتعذر الهجوم عليها فيه. فقد كان من الواجب اغتنام هذه المزية الطبيعية وهو ما لم يغفل عنه محمد على لأنه جعل الإسكندرية ثغراً حربياً وأنشأ بها داراً للصناعة (ترسانة) فارتفع لها شأن بين مرفأء البحر الأبيض المتوسط.

أما الأهمية التجارية لكل نقطة من نقط سواحل مصر على البحر الأبيض المتوسط فتابعة لسهولة المواصلات بينها والقاهرة التى هى المركز التجارى والصناعى والسياسى لذلك القطر وكانت الإسكندرية قديماً تتصل بالجهات الداخلية من القطر بفرع النيل الذى كان واصلًا إليها. فلما انسدت هذه التربة بانهيال الأتربة فيها كان أول ما عنى الفاتحون العرب به إيصالهم إليها بالقاهرة بترعة أجاد المؤرخون الشرقيون وصفها. ولكن هذه التربة لم تلبث في أيام أن اندثرت كسابقتها وأصبحت لافرق بينها والخنق البسيط يجف الماء منها أثناء الشطر الأكبر من السنة، فنشأ عن ذلك أن فقدت الإسكندرية مكانتها التجارية التى آلت من بعدها إلى ثغر رشيد.

غير أن محمد على أبى أن يستمر هذا الغبن. فأعاد إلى الإسكندرية أهميتها الأولى بإنشائه ترعة تسير فيها السفن سماها بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود إجلالا وتخليدا لاسمه، ومنذ هذا الحين انحصرت دائرة التجارة في الإسكندرية وجعل ناظر التجارة المصرية مقره فيها لهذا السبب، ولكى يباشر أيضاً مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير إلى التجار الأوربيين.

ولما نهضت الإسكندرية من عثرتها وعادت إلى نضرة شبابها الأول من الوجوه الثلاثة المتقدمة ازداد عدد سكانها بسرعة غريبة فوصل إلى ٦٠٠٠٠ نسمة الثلث منهم يعملون في الأساطيل والمصانع نوتية أو صناعاً. والثلثان الباقيان نصفهما — أى عشرون ألفاً من الأهالى الوطنيين والنصف الثانى منه ستة آلاف من الأتراك وعشرة آلاف من اليهود والقطب وخمسة آلاف من الأوربيين. ولا يدخل في هذا التعداد السكان الرحل — أى الذين يأتون إلى الإسكندرية لقضاء الأشغال أو لمجرد السياحة ثم يعودون إلى مواطنهم.

ولقد تغير منظر المدينة تغيراً محسوساً خلال السنوات الأخيرة. فلقد كانت المقابر الفسيحة بداخل المدينة فزحزحت إلى خارجها، وبعد أن كانت مستنقعات المياه الراكدة تتخللها جفت ورددت. أما الطرقات فمن المحقق أنها لم تفرش بالبلاط، ولكن العناية بنظافتها متواصلة وأنشئت على أعطافها = جوانبها = في كثير من جهاتها المباني المختلفة ودور الصناعة (الترسانات) والقصور والثكنات العسكرية والفاوريات والمستشفيات.. إلخ وهدم قسم عظيم من الأسوار التي كانت محيطة بها من ناحية البحر لتحل المباني الجديدة محلها وتنمو المدينة النمو الطبيعي الذي كانت بحاجة إليه.

ودار الصناعة البحرية (الترسانة) مشيدة في شبه الجزيرة المعروفة برأس التين كما شيد فيها قصر الوالي وجملة من المباني المخصصة لمصالح الحكومة.

أما البرزخ الواصل بين رأس التين والأرض القارة. ففيه الحى الذى يسكنه الأتراك وهو مشيد على النمط المألوف في المدن الإسلامية.

ويلى ذلك الحى حى الأوربيين، وكان بالإسكندرية في الزمن السابق حى أفرنجى يسكنه الإفرنج - أى الأوربيون - فصار أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الأهلة بالوطنيين منذ أقيمت مقاليد الحكومة إلى عهدة محمد على واتخذ القناصل الجنراليون الإسكندرية مقراً لهم.

وفي سنة ١٨٢٤ نزلت الإسكندرية وافداً عليها من الخارج فكانت لا تقع عين الناظر في الحى الإفرنجى إلا على بضع وكائل. أما الآن فقد انقلب هذا الحى رأساً على عقب وتغيرت معالمه. فامتد من وسط الميناء الجديدة إلى مسلة كليوباتره. وبجوار هذا الاثر الآن ميدان جميل مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم وعرضه ١٥٠ قدماً. وقد شيدت المباني الحافة به من كل جهة على الطراز الأوربى وبحسب تصميمات هندسية متقنة. ويملك سمو إبراهيم باشا بعض هذه المباني الشاهقة ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر. ودار القنصلية الفرنسية منها تمتاز عن دور القنصليات الأخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها.

وداخل السياج المتكون من حصون المدينة أكمتان = تلآن = ارتفاع كل منهما مائتا قدم تقريباً وعلى قمة كل منهما طابية أنشأها الفرنسيون، ولا تزال إحدى الطابيتين تحمل اسم البطل (كفاريللى دوفالجا) القائد في فرقة الهندسة والمتوفى في حصار عكا، وهذه الأكمة وهى أقرب الأكمتين من المدينة

عبارة عن مجموعة اكام من الانقاض يرجع تاريخ وجودها على الأرجح إلى زمن حكم العرب. أما الأكمة الأخرى المعروفة بكوم الدكة فصخرة حجرية تشرف على المكان الذى كان يشغله في الزمن القديم أحد ملاهى التمثيل، وكانت المساكن التى حولها عششا وأكوخا حقيرة لبعض العربان. أما الآن فبالنظر لما تبينه الأوربيون من جودة موقعها وحسن مناخها وموافقتها لصحة المقيمين بها شيدت المباني عندها، وأقيمت القصور في وسط الحدائق الغناء.

والخرائب والأطلال منتشرة بضواحي الإسكندرية إلى مسافة كيلومترين منها وهى تدل صراحة على صدق ما رواه المؤرخون عن عجائب المدينة القديمة وتحفها وصحة ما قالوه بشأنها وأنه لم يكن مبالغا فيه، ولاريب في أن مواد البناء التى شيدت بواسطتها منازل الحى العربى أخذت من هذه الأطلال الدائرة وكان أخذها من الطبقة الظاهرة على وجه الأرض دون الطبقات التى تحتها، وهذا هو السبب في أن المنقبين عن الأطلال القديمة يعثرون كلما حفروا على مقابر وافرة منها ، وكثيرا ما يهبطون أثناء الحفر إلى عمق ستين قدما.

أما المباني العامة التى بثغر الإسكندرية فهى دار الصنعة (الترسانة) وقصور سمو الوالى في رأس التين، وهى تتألف من الحرم والديوان والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافر خانة التى أعدها الوالى لضيافة وإكرام كبار الزائرين والمسافرين والسياح. وفي الإسكندرية مصلحة لمراقبة الشئون الصحية ومستشفيات أحدها للبحرية وهو المعروف بمستشفى الحمودية ويسع من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مريض، وهناك مستشفى آخر للجنود البرية يعرف بمستشفى رأس التين ويسع من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مريض وفي المدينة كلها نحو ثلاثين مسجداً.

٣٠. أبوقير

إذا اشتط السائر الساحل شرقى الإسكندرية كان أول ما يلتقى به في طريقه قبل وصوله إلى بحيرة إدكو ساحل اشتهر بالواقعة البحرية التى ذهبت بثمرات الحملة الفرنسية وبفوز بونايرت على الأتراك في السنة التالية التى أصيب فيها بذلك الفشل - أى على أثر عودته من بلاد الشام. فذلك

المكان ذو الشهرة المضاعفة الذى يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد هو «أبوقير».

أما القرية المسماة بهذا الاسم فواقعة فى المكان الذى كانت فيه قديما بلدة (بوزيرس) المشهورة بهيكلها المشيد للإلهة إيزيس وبالأعياد السنوية التى كان المصريون يقيمونها به.

وأهمية موقع أبى قير من الوجهة العسكرية لا تذكر، ولولا أن سواحلها معرضة لهياج الأمواج لكانت أصلح موقع تنزل منه حملة أجنبية للإغارة على الديار المصرية. ولقد أدرك الوالى بثاقب فكره تلك الأهمية فأنشأ به حصونا واستحكامات جعلته أمنع من عقاب الجو، كما أيده الكثيرون من العارفين بحقيقة الحال.

٣١. رشيد

مدينة رشيد واقعة فيمايل بحيرة المعدية على الضفة اليسرى من الفرع الغربى للنيل. وموقعها على مسافة فرسخ ونصف من البحر المالح فى ملتقى ٢٥ ٣١ من العرض الشمالى بـ ٨,٥ - ٢٨ من الطول الشرقى. والسفر إليها برا باشتطاط الساحل وبحرا باجتياز ممر شديد الخطر عند مصب النيل. وهذا الممر أو البوغاز يفتحه التيار فى الكتبان الرملية المتكونة من رواسب النهر. وهو شديد الاختلاف، ومن هناك جاءت الصعوبة التى تعترض السفن فى اجتيازها إياه.

وبعد اجتياز البوغاز يرتسم فى باصرة الانسان منظر يفتن العقل ألا وهو منظر سهول الدلتا وقد فرشت ببساط طبيعى من سندس أخضر ونثرت عليه الحاصلات الذهبية اللون، ورسمت فيه صور غابات النخل، والقرى والمدائن تعلوها منارات المساجد زاهية إلى السماء كأنها سهام حادة النصال، وتلك السهول تمتد إلى أقصى مدى النظر فتنتهى إلى حيث ينتهى الأفق وتعجز الباصرة عن نظرها وإياه.

ويقول العرب: إن مدينة رشيد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى. وقد حازت أهمية تجارية كبرى عندما سقطت الإسكندرية وتدهورت إلى الحضيض، ولكن التجار لم يلبثوا أن هجروها منذ

أنشئت ترعة المحمودية وأعادوا إليها بإنشائها المزايا التي فقدتها زمنا ما، وقد نقص عدد سكان رشيد للسبب المتقدم نقصا محسوسا فهو لا يتجاوز الآن ١٥٠٠٠ نسمة. وهى مشهورة بمعامل الأرز فيها وبحدائقها الغناء التى يبالغون فى وصف جمالها وهى على نسق الحدائق الشرقية التى وصفتها فيما تقدم بما يزجى = يسوق = إلى ذهن القارئ فكرة صحيحة عنها.

ويبلغ ذرع = مساحة = مدينة رشيد نحو الفرسخ طولاً فى ربعه عرضاً. ومما يلفت النظر فيها مسجد آية فى حسن البناء ومعمل لنسج القطن ومعامل لضرب الأرز منها واحد يدار بالبخار وثكنة فسيحة للجنود. وفى جنوب رشيد زاوية شهيرة بنيت على ضريح شيخ مشهور بالتقوى والورع يعرف عند الأهلين هناك باسم سيدى مندور، والذي يصعد فى منارة مسجد هذا الشيخ يرى منظراً عجبا يتناول ما ينتهى البصر إليه برا وبحرا.

٣٢. دمياط

تغر دمياط على الضفة الشرقية من الفرع الشرقى للنيل الذى كان معروفا أيام الفراعنة بالفرع (الفتنى) وهو بعيد عن البحر الملح بنحو فرسخين وعن بحيرة المنزلة بنحو نصف فرسخ فى ملتقى خط ١٥ - ٢٩ - ٢٩ من الطول الشرقى بالخط ٤٣ - ٢٥ - ٢١ من العرض الشمالى. وليست الآن فى نفس الموقع الذى كانت تشغله أيام الحروب الصليبية. والمدينة التى هاجمها الصليبيون مرارا حتى وقعت فى قبضتهم سنة ١٢١٨ من الميلاد هى دمياط القديمة لا الحديثة، ثم استولى عليها القديس لويس سنة ١٢٤٩ ولما ردها هذا الملك إلى المسلمين فى مقابل إطلاق سراحه هدمها هؤلاء وأنشأوا المدينة الحالية على مسافة فرسخين من الأولى.

وضواحي دمياط مشهورة بمزارع الأرز، أما هى فإنها المستودع الكبير لأصناف أرز القطر المصرى، ولها بالشام صلات تجارية وثيقة، وكانت لمعامل النسيج بها فى الزمن السابق شهرة ذائعة وصيت بعيد. وقد أبلغ بعضهم عدد سكانها إلى ٦٠ أو ٨٠ ألف نسمة. وهذان الرقمان مبالغ فيهما. لأن هذا العدد لا يتجاوز اليوم ٢٥ إلى ٣٠ ألفا فقط.

وأشهر مباني دمياط وأجملها المساجد وما شاده الوالى فيها من معامل الأرز ومستودعاته، وقد أنشأ سموه بها ثكنات للجند ومدرسة للمشاه (البيادة).

٣٢- دمنهور

دمنهور أول مدينة كبيرة يمر المسافر بها وهو متجه نحو الغرب، وهي على مقربة من ترعة المحمودية ويتراوح عدد سكانها بين ٨ و ١٠ آلاف نسمة.

٣٤- الرحمانية

مدينة صغيرة على النيل وعلى مقربة منها أطلال مدينة (صا) أو (صائيس) القديمة، وبالقرب منها أيضا كانت مدينة (نوقراطيس) وهي الوحيدة التي فتح قدماء المصريين أبوابها من مدن القطر المصري كله للتجارة مع الأجانب.

٣٥- فوه

واقعة على النيل بين الرحمانية ورشيد تجاه قم التربة المحمودية وكانت في القرن السادس عشر على مكان من الأهمية ولكن قلت أهميتها وتلاشى وجودها التجاري منذ أن انسدت ترعة الإسكندرية التي كانت واصله بينها وهذا الثغر وكانت من بواعث تقدمها بما كان يرد إليها بواسطتها من البضائع والأرزاق وقد علا في هذه الأيام نجمها بإنشاء سمو الولى فيها فاوريقة لصنع الطرايش على مثال المصنوع منها في تونس ومعملا لغزل القطن وطاحونا لضرب الأرز.

٣٦- المنصورة

واقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط، وتبعد عن هذا الثغر بنحو اثني عشر فرسخا وقد اشتهرت بانكسار الجيش الفرنسي الصليبي الذي كان يقوده ملك فرنسا لويس التاسع عشر المعروف بالقديس لويس، ولا يزال يوجد بها في ميدان صغير مقابل للنيل المكان الذي سجن فيه هذا الملك بعد أسره. ومما يرى في المنصورة غير ذلك أطلال قبة يقال إنها التي أمضى القديس لويس تحتها معاهدة الصلح القاضية برد ثغر دمياط والجلء عنه. وفيما بين المنصورة ودمياط بلدة فارسكور التي انكسر فيها جيش القديس لويس الأول مرة. فكان هذا الانكسار سبب خذلانه وحبوط آماله.

٣٧- المحلة الكبرى

يؤخذ من أقوال بعض الجغرافيين أن المحلة الكبرى الواقعة الآن بداخل

الدلتا على مقربة من فرع دمياط تشغل موقع مدينة (سينوبوليس) أى (مدينة الكلاب) وهى على شىء من السعة وانفساح الجوانب. ومع أنها الآن فى غير ما كانت عليه سابقا من ارتفاع الشأن وجلال القدر فلا يزال عدد سكانها متراوحا بين ١٦ و ١٨ ألفا من النسومات، ولعامل نسيج قماش التيل فيها شهرة فائقة ، وقد أنشأ سمو الوالى بها فاوريقة جليلة لغزل القطن ونسج الأقمشة.

٣٨. طنطا

يلقى الصاعد من بحرى القطر المصرى إلى قبليه عن يمينه بالنسبة للمحلة الكبرى مدينة طنطا. وهى مدينة صغيرة اشتهرت بتقاطر الجم الغفير من الناس إليها لحضور المولد الأحمدي . والسيد أحمد البدوى صاحب هذا المولد مدفون فى مسجد مشهور به، وهو من أشهر مساجد القطر المصرى وأجملها. ومن الكرامات المنسوبة إليه أن التوسل به يزيل العقم ويشفى الأدواء المستعصية.. إلخ. وهذا الاعتقاد جعل المصريين يتواردون إليه من جميع أنحاء القطر المصرى، وهذا فضلا عن أن الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز يقفون بطنطا فى طريقهم لزيارة ضريحه.

والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الذى يقام فى كل عام إجلالا له، وهو أهم الموالد الثلاثة التى تقام عادة فى تلك المدينة ، والاثنان الآخران هما مولد سيدى عبدالعال ومولد الرجبية. وفى المولد الكبير تزدهم مدينة طنطا بالزائرين. إذ يقصد إليها التجار من بلاد تركيا وفارس والهند وبلاد كثيرة من إفريقية يحملون إليها معهم الأقمشة المطبوعة والمناديل والأقمشة الحريرية ولعب الأطفال والأوانى الصلصالية والخزفية وریش النعام والأرقاء.. إلخ للتجار بذلك وغيره. وهم يعرضون هذه البضائع على الأنظار فى الوكائل وتحت الظلات التى كثيرا ما تشغل متسعا من الأرض طوله نحو الأربعة فراسخ على صفين متوازيين.

أما الذين يحضرون إلى المولد بقصد الزيارة لا الاتجار فإنهم يضربون الصواوين والخيام بقرب المدينة فيجىء الحواة وبنات الهوى والراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقى ليطلعوا تلك الجماهير على فنونهم وصناعاتهم. وقد اعتادت الحكومة أن ترسل إلى طنطا فى أيام المولد أربعة

آلاف جندى لحفظ الأمن والنظام ، ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم بما هو معروف عنهم من الحيلة والتمويه والدهاء. وبانتهاء المولد الأحمدي تعود مدينة طنطا إلى سابق عهدها من السكون وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس، وتصبح كأنها قفر بلقع ليس فيه ديار ولا نافخ نار.

٣٩. مدائن الوجه البحرى الأخرى

مدائن الوجه البحرى الأخرى الجديرة بالذكر هي:

منوف — قرية عظيمة بالقرب من رأس زاوية الدلتا ، وبها مسجد فيه أعمدة جميلة.

وإلى شرق فرع دمياط بالطريق الموصل إلى الشام القرى والبلدان الآتية: بلبيس — حصنها نابليون بونابرت — وبالقرب منها كانت توجد على عهد البطالسنة مدينة (أونيون) التى أنشأ بها (أونياس) ابن أحد كبار الأحرار اليهود هيكلا عبريا على طراز هياكل أورشليم ، وفيه كانت تقام شعائر الديانة اليهودية.

الصالحية — بلدة واقعة فى وسط مديرية الشرقية.

وأبوزعبل والخانقاه — اكتسبتا أهمية وشهرة فى العهد الأخير، وهما واقعتان فى الطريق من الصالحية إلى القاهرة على مسافة أربعة فراسخ من هذه ومثلها من النيل. أما القريتان فتبعدان إحداهما عن الأخرى بنحو نصف فرسخ، وفى كل منهما نحو ١٥٠٠ نسمة. وفى المسافة الفاصلة بينهما سهل عظيم غير مزروع يواجه صحراء برزخ السويس الذى حدثت فيه الواقعة بين جيش الصدر الأعظم المؤلف من ٨٠٠٠٠ مقاتل وجيش الفرنسيين المؤلف من ٩٠٠٠ مقاتل بقيادة (كلير) ودارت الدائرة فيها على الجيش الأول. إذ دحره الجيش الثانى ومزق شمله. وفيه أيضا أقيم ميدان التعليم للجيش المصرى النظامية، وأنشئت المدارس الأولى لأركان حرب الطوبجية، وكذا مدرسة الطب المشهورة باسم مدرسة أبى زعبل.

المطرية — بلدة من ضواحي القاهرة قائمة على أطلال عين شمس — إحدى مدن مصر القديمة الذائعة الصيت — وتحوى آثارا وأطلالا ذات علاقة

بالديانة المسيحية في إبان أمرها كالبئر التي استقى منها الماء يوسف النجار ومريم والولد يسوع في فرارهم إلى مصر، وشجرة الجميز التي آووا إلى ظلها. وهذه الآثار يجلبها المسلمون والمسيحيون على السواء. والمطرية شهيرة بالمعركة التي وقعت بجوارها بين الفرنسيين والأتراك، وكان الظفر المبين فيها للأولين على الآخرين.

٤٠. القاهرة

تقع القاهرة في ملتقى الخط ٢١ ٢ ٢٠ من العرض الشمالى بالخط ٣٠ ٥٨ من الطول الشرقى. وهى قائمة على سهل رملى وتبعد عن النيل بنحو ٤٠٠ تواز، وعن رأس الدلتا بنحو خمسة فراسخ ونصف وعلى مقربة من السفوح الأخيرة لجبل المقطم. والقاهرة الأصلية وتسمى أيضا بالقاهرة العظمى تنحصر بين بولاق مرفأها في الشمال ومصر العتيقة مرفأها في الجنوب.

وتشغل مصر القديمة المكان الذى كانت فيه بابل مصر قديما. وكان عمرو بن العاص محاصرا لها حينما عشتت حمامة على فسطاطه فلما بلغه هذا الخبر سر به واستبشر. فلم يشأ أن يزججها بتقويض الفسطاط يوم عن له الرحيل إلى الإسكندرية لفتحها، ولما تم له فتحها وعاد اختط له عاصمة حول المكان الذى ترك فيه فسطاطه وسماها «فسطاط مصر».

ولم يكن من حظ المدينة الجديدة أن تتقدم ويتسع نطاقها فإن الصليبيين زحفوا عليها في سنة ١١٦٧ بقيادة (أمورى) ملك أورشليم. فلم يكن من حاكمها حينما رآهم مقبلين عليها إلا أن أضرم فيها النار التى استمر ضرامها فيها خمسين يوما واضطر سكانها أن يلتجئوا إلى الريف المجاور لها وأن يجددوا مساكنهم حول القاهرة التى اختطها في سنة ٩٥٨ للميلاد المسيحي جوهر القائد مولى المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين، فارتفع شأنها بعض الشيء فحلت محل الفسطاط كعاصمة للديار المصرية. واتسع نطاقها وامتدت حصونها وزهت مبانيها بالزخارف الجميلة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. ذلك أصل مدينة القاهرة التى يسميها العرب «مصر» وهو الاسم الذى أطلق منذ ذلك الحين على عاصمة الديار المصرية.

والقاهرة أكثر امتدادا في الطول منها في العرض. وتعتبر المدينة الأولى بين مدن الممالك العثمانية المحروسة بعد الاستانة. إذ إنها تشغل من الأرض ما مسطحه ٩٠٠ هكتار ويبلغ محيطها ٢٥٠٠٠ متر وتكتنفها آكام ترابية تكونت بتراكم الانقراض المتخلفة عن المباني المصرية التي كثيرا ما تشاد بالمواد الطينية والترايبية^(١).

وكان يحيط بالمدينة سور عظيم شاده السلطان صلاح الدين الأيوبي وجعل الأبراج تتخلله على مسافات متقاربة. ولم يبق منه الآن سوى جزء صغير. لأن المدينة باتساع نطاقها ونموها الكبير من ناحيتي الجنوب والشرق ويخترقها على اتجاه طولها مجرى الماء المسمى بالخليج.

وفي القاهرة الآن ثلاثون ألف منزل يقطنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ من السكان. وهي مقسمة إلى حارات يتجاوز عددها الخمسين. أهمها على ترتيب الاتجاه من الشمال إلى الجنوب حارات: الشعراوى والأزبكية والنصارى (وهي حارة الأقباط والأرمن والشوام وغيرهم.. إلخ) والروم (أى حارة اليونان) واليهود والافرنج والموسكى وزويله والأزهر والمؤيد وباب الخرق وبركة الفيل والمغاربة وطيون = طولون = (وهذه الحارة أقدم حارات مدينة القاهرة) والرميلة وقره ميدان والقلعة.

وبالقاهرة أكثر من سبعين بابا بعضها من الداخل وأهمها في الجنوب: باب السيد وباب طيلون وباب السيدة وباب القرافة. وفي الشرق: باب الوزير وباب الغريب. وفي الغرب من جهة النيل: باب اللوق وباب الناصرية. وفي الشمال: باب الحسينية وباب النصر وباب الفتوح والبابان الأخيران أثران هندسيان جليان (وباب النصر يرجع تاريخ انشائه إلى عهد السلطان صلاح الدين) وباب الحديد.

(١) هذه الأكام مرتفعة ارتفاعا كبيرا، وقد أقام الفرنسيون أيام الحملة البونابرتية عليها استحكامات وقلاعاً سهل بواسطتها تسلط على المدينة عند الحاجة. ولما كانت تلك الأكام حائلاً منيعاً دون انبثاق الهواء في أحياء القاهرة وشوارعها وأزقتها فقد كان في نيتهم إزالتها. ولكنهم عدلوا عن ذلك لصعوبة هذا العمل وطول مايلزم من الزمن للقيام به. وقد كان إبراهيم باشا أول من أقدم على تنفيذ المشروع. إذ أزال اكمتين عظيمتين كان يبلغ ارتفاع كل منهما نحو ٢٠٠ متر وكانتا تشغلان فيما بين بولاق ودم الخليج مسطحا من الأرض مساحته كيلومتر مربع، وظل العمل قائما على قدم وساق نحو خمس سنوات. فانتفع بالتراب المرفوع في ردم المستنقعات الأسنة المجاورة للقاهرة وسويت الأرض به ومهدت تمهيدا حسنا مكن أولياء الأمر من غرس الحدائق الغناء في مكانها. أما سمو الوالى محمد على فقد أزال اكمة عظيمة كانت تسد طريق شبرى. وكانت تتلو الاكمتين السالفتي الذكر، ولست بمتروك في القول بأن إزالة هذه الأكام كانت من أنفع الأعمال الجسيمة التي تمت على عهد محمد على والى مصر.

وشوارع القاهرة مثلها مثل سائر المدن الإسلامية معوجة كثيرة الالتواء والانعطاف والانكسار تقاطعها أزقة منها مالا يتجاوز عرضه أحيانا أكثر من ثلاثة أو أربعة أقدام وعطفات لا منفذ لها.

وعدد الطرقات الأصلية - أى الكبيرة فيها يزيد على مائتين وأربعين طريقا. وهى غير ما يعترضها من الأزقة والعطفات وعددها ثلاثمائة من هذه ومثلها من تلك. وتتغير أسماء الشوارع غالبا، ومن أكثرها أهمية شارعان يخترقان المدينة فى اتجاه طولها أحدهما هو الممتد من باب السيدة إلى باب الحسينية ويبلغ طوله ٤٦٠٠ متر، والثانى يساير الضفة اليمنى من الخليج ابتداء من القنطرة الجنوبية المسماة بقناطر السباع إلى قرب باب الشعرية. وهناك خمس طرقات تقطع المدينة فى اتجاه العرض منها ثلاث تتجه من القلعة إلى النيل.

وفى القاهرة أربعة ميادين كبيرة هى: ميدان قره ميدان وميدان الرميطة بجنوب المدينة وميدان بركة الفيل فى وسطها، وميدان الأزبكية فى شمالها الغربى وهذا الأخير هو أكبر الميادين وأفسحها. إذ يبلغ مسطحة داخل مسطح ميدان العرض العسكرى بباريس المعروف باسم (شاندومارس). وإلى الجانب الغربى من الأزبكية البيت الذى سكنه الجنرال بونابرت أيام الحملة الفرنسية. وتلك الميادين يغمرها الماء فى أيام الفيضان إلا ميدان الأزبكية الذى رفع سطحه بعض الشيء ومهدت أرضه وغرست فيه أشجار وجر إليه الماء بواسطة قناة.

وفى وسط المدينة أسواق كثيرة بعضها حقيقى بالذكر كسوق الغورية. حيث تباع الشيلان الكشميرية والحريير الموصلى والأقمشة الواردة من الخارج، وسوق الأشرفية حيث تجار الورق، والخان الخليلى حيث تجار الجواهر والنحاس والسجاجيد، وسوق النحاسين وفيه تجار المصوغات وصناعها وسوق البندقانية حيث تجار العقاقير والخردوات، وسوق الحمزاوى وفيه تجار الجوخ وسوق السروجية حيث تصنع وتباع سروج الخيل وغيرها، وسوق السلاح وفيه يصنع السلاح ويبيع، وسوق الجمالية حيث تجار البن والتبغ الوارد من الشام.

أما شارع مرجوش الكبير (أمير الجيوش) فيبيع فيه بالتجزئة أثواب

الإقمشة المنسوجة في القطر المصرى وهناك وكالة الجلاية التى يباع فيها الأرقاء المجلوبون من وسط أفريقية.

وبالقاهرة أربعمئة مسجد. الكثير منها متخرب أو آيل إلى السقوط وأشهرها من جهة النمط الهندسى مسجد عمر بن العاص المبنى سنة ٢٠ من الهجرة (٦٤٠ من الميلاد) ومسجد الحاكم العبيدى المشيد سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٧ للميلاد) على عهد الفاطميين، ومسجد السلطان حسن شاه فى سنة ٧٥٧ للهجرة (١٣٥٤ للميلاد) أحد السلاطين المماليك المعروف بهذا الاسم. وقد قضى البناءون فى بنائه ثلاث سنوات. قال المقريزى: كان ينفق عليه فى اليوم ألف مثقال من الذهب. ومسجد طيلون = طولون = بنى سنة ٢٣٨ للهجرة (٨٥٠ للميلاد) بناه السلطان أحمد بن طولون، ومسجد المؤيد انشأه فى سنة ٨٢٠ للهجرة (١٤١٥ للميلاد) السلطان أبو النصر المؤيد شيخ ومسجد السلطان قلاوون سيف الدين، ومسجد السلطان برقوق بنى سنة ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٥ للميلاد) ومسجد السلطان قايتباى بنى سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٣ للميلاد) ومسجد السيدة زينب سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٠ للميلاد) ثم مسجد الأزهر وهو أشهر المساجد على وجه الإطلاق.

والمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم نحو ثلاثين كنيسة ومصلاة. أما اليهود فلمهم عشر بيعات.

وفى الأحياء التجارية والصناعية نحو ألف وثلاثمئة وكالة.

وفى أنحاء متفرقة من القاهرة ألف ومائتا قهوة وثلاثمئة صهريج وسبعون حماما أشهرها بالاتساع وفخامة البناء وحسن الرياش حمام يربك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية.. إلخ.

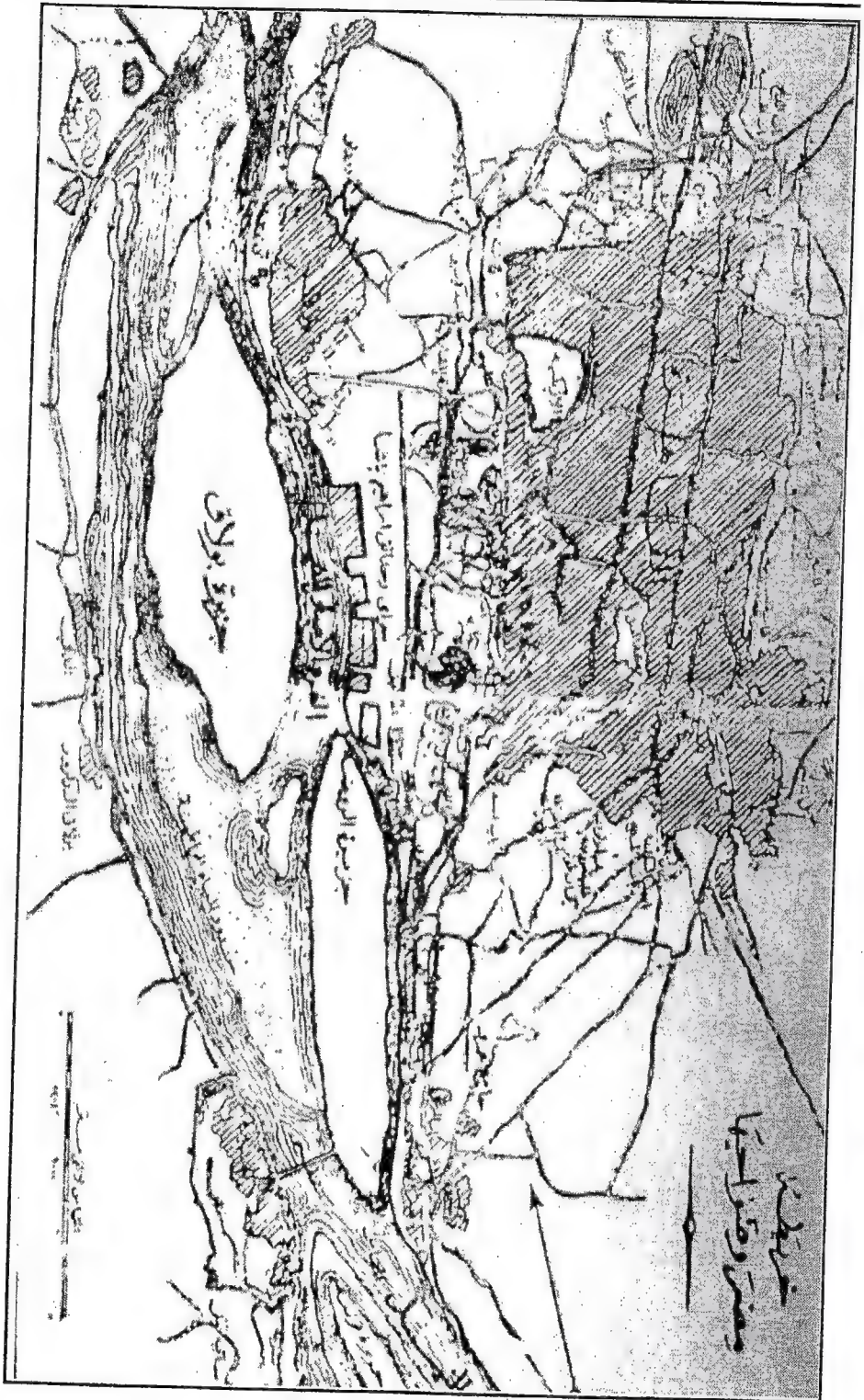
وفى ظاهر القاهرة ثلاث بقاع للمقابر شهيرة باتساع نطاقها. لأن مسطحها يشغل أكثر من ربع مسطح هذه المدينة. وهى القبة بحرى السور وترب قايتباى فى الشرق وترب السيدة أم هاشم فى الجنوب وفى هذه المقابر الواسعة قبور الخلفاء وبعضها آية فى الجمال الهندسى. أما مقبرة القبة فبها قبر الملك العادل وقبور أخرى لبعض السلاطين والبكوات المصرية - أى المماليك.

ولم يكن بالقاهرة في الزمن السابق سوى مستشفى واحد هو المستشفى المعروف بالمارستان وسيأتى الكلام عليه في غضون الفصل الخاص بالحالة الحاضرة للطب في القطر المصرى. وفي ميدان الأزبكية الآن مستشفى ملكى جميل يحوى سبعمئة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء. ويتبع هذا المستشفى مدرسة للولادة ومستشفى للمجاذيب. كل هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الواقع في الطريق بين القاهرة الكبرى ومصر العتيقة قرب المكان الذى كانت فيه عربة إبراهيم بك على ضفاف النيل. ويحوى هذا المستشفى ألفا وثمانمئة سرير.

وبالقاهرة غير العدد العظيم من المدارس الخاصة أو الملحقة بالمنشآت الخيرية كالمساجد والأسبلة وأحواض الماء مبان عديدة مخصصة للتعليم والتربية. وفيها قصور جميلة وسرايات واسعة. منها ما يملكه سمو الوالى وكل من إبراهيم باشا وعباس باشا والدفتردار بك حول ميدان الأزبكية، وقصر إبراهيم باشا كجك (الصغير) الذى يشغل من المدينة مكان السرة من الجسم، وقصور أخرى لغيرهم كقصر محمود بك. لا أتصدى للكلام عليها تقية = خشية = الإسهاب في الموضوع. وعلى ضفاف النيل قصر لإبراهيم باشا وآخر للدفتردار بك وهما مما يلفت النظر بانفساح الأرجاء ورشاقة البناء.

أما القلعة فى الجنوب من القاهرة على الجبل الأخير من سلسلة جبال المقطم، وهى تحكم المدينة، وقد أنشأها فى مكانها السلطان صلاح الدين الأيوبي وليس لها فى الحقيقة أهمية ما من الوجهة الحربية. لأن هناك جبلا آخر يتسلط عليها أنشأ محمد على فيه قلعة صغيرة تعوض ما ينقص القلعة الأصلية من جودة الموقع ومزيته والوصول إلى القلعة بطريقين منحدرين منحوتين فى الصخر أحدهما واقع إلى الشمال، ويقضى إلى الباب المشهور باسم باب العزب الآخر إلى الشرق ويؤدى إلى الباب المعروف بباب الانكشارية. وقد دمرت القلعة كلها تقريبا فى سنة ١٨٢٤ ميلادية عقب انفجار مخزن للبارود منحوت فى الصخر. فإن ما كان بها من المباني عامئذ سقط كله أو بعضه، ولكن «محمد على» لم يلبث أن أعاد بناءها كلها تقريبا.

وبالقلعة القصر المعد لنزول الباشا كلما جاء إلى القاهرة. وبها أيضا بئر



يوسف الذى سمي كذلك نسبة إلى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي الذى أمر بحفرها فيها، وهى بئر مربعة الشكل منقسمة فى اتجاه العمق إلى قسمين ويبلغ طول عمقها ٢٨٠ قدما. وقاعها يستوى مع منسوب نهر النيل. وينزل إليها بسلم حلزونى فى نهاية القسم الأول منه ساقية ذات عجلات يديرها ثوران فيرتفع الماء من القسم الأسفل إلى هذه الساقية التى يرتفع الماء منها إلى ظاهر الأرض عند مدخل البئر بمثل الوسيلة المتقدمة، وإنما حفرت هذه البئر لدرأ خطر قلة الماء فى القلعة إذا أصاب البوابات (العيون) التى تحمل ماء النيل إليها عطب أو قطعت فى جهة ما من جهاتها بفعل فاعل. على أن بالقلعة صهاريج عديدة يكفى واحد منها بضعة آلاف من الرجال سنة كاملة. وبالقلعة أطلال دارسة لقصر السلطان صلاح الدين الأيوبي والعمل بها متواصل الآن لإنشاء مسجد كبير بها أمر بإنشائه سمو الوالى، وفيها أيضا دار للصناعة ومسبك لصب المدافع ومعمل لصناعة الأسلحة ومصانع لإعداد معدات الفرسان والمشاة ولوازمها ومطبعة ودار لضرب النقود يصنع من النقود الذهبية فيها كل سنة ما تعدل قيمته خمسة ملايين من الفرنكات.

وتبتدىء حركة الأعمال فى القاهرة منذ الساعة السادسة من الصباح وتنتهى عند اشتداد القيظ فى ساعة الزوال. فيسود السكون ويظل سائدا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولقد أجمع الرحالة الذين كتبوا عن مصر على غرابة ما تقع عليه الأنظار من المرائى فى الشوارع والأسواق والميادين لاختلاط الأهلين على تعدد أجناسهم وتباين لباسهم. وذكر كل منهم ما شاء أن يذكر من متناقضات تلك المناظر الغريبة. فوصف الغنى صاحب الجاه بملابسه الفاخرة المزركشة بالذهب إلى جانب الفقير ذى الثياب الرثة والأطمار البالية وصاحب العمل مارا بخطوات سريعة أمام المتعبد الزاهد الذى يتمطى بلا اكتراث فى الطريق. فتأتى إليه النساء اللائى امتلأت رؤوسهن بالخرافات وباطل المعتقدات ليلمسنه ويربتنه للتبرك به اعتقادا منهن أن هذا الفعل سوف يذهب بأمراضهن، كما وصف أولئك الناس من الأمم العديدة والأديان المتخالفة والمذاهب والشييع المتباينة بالأوصاف الجثمانية والملابس الغريبة يتخلل هذه الجمع النساء اللائى يشبهن الطيف المبهم والسر الغامض، وقد تغطين بأرديتهن وأخفين ملامح وجوههن إلا ما

كان من عيونهم كى يهتدين بها إلى السبيل. دع ما هنالك من اختلاط الحمير بهذا الجمع الكثيف تشق زحامه بدافع من استفزاز السائق الشاب النشيط المتحمس إياها بالضرب تارة والوخز أخرى، إلى جوارها الجمل البطيء النهضة الذى يشعر ثقل مشيته بشيء من الوقار، وعلى مقربة منه جواد الثرى مطهما بأحسن ما تطعم به الدواب ومحل بأجمل ما تحلى به من مظاهر الأبهة والجلال، إلى جانبه البغلة التى تحمل الشخص الفقيه البصير بعلوم الشريعة تسير الهوينى بخطوات منضبطة القياس لا تزيد على ما يريده الراكب ولا تنقص عنه، إلى جانب ذلك كله الحواة والمشعوذون يدخلون على المارة السرور والدهشة بغريب ألعابهم وحيلهم. والقصاصون متصدرين فى القهوات لرواية القصص والحوادث على مسامع المختلفين إليها من ذوى البطالة والمغرمين بالتدخين، وينضاف إلى هذه الغرائب ما يتركه فى النفس من أثر المنظر الخاص الذى تطبعه القاهرة فيها بشكل بيوتها ذات السطوح المنبسطة وشوارعها الملتوية تلوى الثعبان فى انسيابه وما لا حصر له من منارات المساجد. فإذا مثلت فى خاطرك هذه المناظر مجتمعة كان لك أن تتخيل صورة هذه المدينة وتعتقد أن لا مدينة سواها على وجه الأرض تشبهها فى طابعها العربى الخاص إلا ما كان من المدائن التى ورد وصفها فى حكايات ألف ليلة وليلة. أما بلدة بولاق فى الشمال من مدينة القاهرة يفصلها عنها سهل ضيق. موقعها على ضفة النيل، وهى تقوم للقاهرة فى علاقتها التجارية مع الوجه البحرى مقام المرفأ، وبها معامل لصنع الجوخ وغزل القطن ونسج الأقمشة ومسبك لصهر الحديد وورشة لبناء السفن النيلية وكاثل ومخازن ومستودعات كثيرة للتجارة، وكذا قصر لإسماعيل باشا توجد به الآن مدرسة الهندسة.

بمصر العتيقة مستودعات للحبوب يعرفها العامة باسم شون يوسف وهى عبارة عن سبعة أفنية مربعة مبنية الأسوار بالآجر. وفى هذه الأفنية أكداس شاهقة من القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب.

٤١. بنى سويف

بلدة بنى سويف واقعة فى ملتقى الخط ١٥ ٥٢ ٢٨ من الطول الشرقى بالخط ١٢ ٩ ٢٩ من العرض الشمالى وكانت تعرف قديما باسم

(بتوليماثيدون) وسميت باسمها الحال الذي معناه بتفسير أهلها «بنى السيف» نسبة إلى واقعة بالسلاح الأبيض كانت هذه المدينة ميدانا لها. ويقرب عدد سكانها الآن من ٦٠٠٠ نسمة، والحركة التجارية فيها أكثر ما تكون نشاطا في مصر الوسطى. وفيها مصانع السجاجيد الصوفية والأغطية والملاء القطنية التي اشتهرت بها قديما ، وفيها الآن مصنع مهم للأقمشة القطنية ، وموقعها بالقرب من أحد مصاب البحر اليوسفى الذى يرسل ماءه إلى بلاد الفيوم. وإلى موقعها هذا يرجع الفضل في أهميتها التجارية التي ما برحت محافظة عليها حتى الآن.

٤٢. مدينة الفيوم

أكبر مدائن إقليم الفيوم الخصيب التربة، وموقعها في مدخله، وقد بنيت بأنقاض مدينة (كروكوديلوبوليس) القديمة أى مدينة التماسيح وعلى شطر من موضعها. و(كروكوديلوبوليس) هذه هى التي بدل بطليموس فيلادلفوس اسمها باسم مدينة أرسينوه تكريما لأخته وتخليدا لذكراها. ويبلغ محيطها الآن نحو الفرسخ ويخترقها فرع من البحر اليوسفى. وكان أمراء الممالك يقصدونها في الأيام السالفة للنزهة والتماس الراحة، وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة.

٤٣. فيديمين

أجمل قرى إقليم الفيوم على وجه الإطلاق، وهى مؤلفة من مجموعتين من المساكن، يسكن الأولى المسلمون والثانية الأقباط ، وتحيط بها أشجار الفاكهة التي يكسب تكاتف أغصانها وتشابكها هذه القرية منظرا جميلا. وإذا جاءها السياح أطلعهم أهلها على شجرة زيتون قديمة يزعمون أنها أم أشجار الزيتون كافة في القطر المصرى، ويقدرّون لهذا السبب عمرها بعشرة قرون. وهى تأتى كل سنة بمحصول تحسب زنته بأربعمئة كيلوجرام من الزيتون. وهو ماجعل سكان فيديمين يحترمونها ويحافظون عليها.

٤٤. المنيا

واقعة في ملتقى الخط ٣٥ ٢٨ ٢٨ من خطوط الطول بالخط ٢٠ ٢٨ ٢٨ من خطوط العرض الشمالى وموقعها على الضفة الغربية من النيل.

وهى حسنة المبانى منتظمة بعض الشوارع بها جملة مساجد متينة البناء دقيقة الهندسة ، وفيها فاوريقة لنسج الأقمشة القطنية.

٤٥- الأشمونين

بلدة عدد سكانها من ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ نسمة وهى على الضفة اليسرى من النيل.

٤٦- منفوط

بلدة على الضفة اليسرى من النيل عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس.

٤٧- أسيوط

مدينة واقعة فى ملتقى الخط ١٧ ٢٣ ٢٨ من خطوط الطول الشرقى والخط ١٤ ١٣ ٢٧ من خطوط العرض الشمالى، وتحسب عاصمة الوجه القبلى. والأراضى التى حولها خصبة وزراعتها ناضرة وحاصلاتها وافرة. وهى قائمة على أطلال مدينة (ليكوبوليس) القديمة على مسافة ربع فرسخ من ضفة النيل. وحصونها كان يعتصم المماليك بها كلما زحزحوا عن الوجه البحرى وطوردوا إليها. ولذا ما برحت حافظة لشيء مما كان لها فى عهدهم من رفعة الشأن فإن شوارعها أعرض من شوارع المدن الأخرى وأنظف، وأسواقها عديدة رائعة، وبها مسجدان جميلان وقصر لإبراهيم باشا أنشأه حينما كان حاكما للصعيد، وحمام عام ملحق بمسجد أنشأه بها محمد بك الدفتردار، ومعملان أحدهما للغزل والآخر للنسج، وهى محط رحال القوافل التى تقد من السودان والنوبة وعدد سكانها ٢٠٠٠٠ نفس.

٤٨- أخميم

بلدة صغيرة على الضفة اليمنى من النيل عدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس. ألف منهم يدينون بالنصرانية، وبها فاوريقة للقطن وهى قائمة على أطلال مدينة (بانوبوليس) القديمة.

٤٩- جرجا

واقعة فى ملتقى الخط ٥١ ٣٤٥ ٢٩ من خطوط الطول الشرقية بالخط ٣٠ ٢٢ ٢٦ من خطوط العرض الشمالية، وقائمة بالقرب من أطلال مدينة (بطوليماثيس) القديمة وعلى الضفة اليسرى للنيل. وهى أكبر مدن القطر المصرى بعد القاهرة والإسكندرية، كما أنها من مدن الصعيد التى اتخذها المماليك ملاذا لهم ومعقلا عند مسيس الحاجة. وكانت فى عهد سبق عاصمة

الصعيد كله، وترى بها المساجد الفخمة الجميلة والأسواق الكبيرة، وفيها الآن معمل لغزل القطن وتعداد السكان بين ثمانية آلاف نسمة وعشرة آلاف منهم ٥٠٠ يدينون بالنصرانية وفيها دير للمبعوثين الكاثوليك.

٥٠. قنا

كائنة في ملتقى الخط ٣٠ ٢٤ ٢٠ من خطوط الطول الشرقي بالخط ٢٠ ١١ من خطوط العرض الشمالية وقائمة على أطلال مدينة (كينوبوليس) القديمة بالضفة الشرقية من النيل، وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس تقريبا وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير، فهي ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى بلاد الحجاز أو التى ترد منها إليه عن طريق القصير. والظاهر أنها كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى العصور السالفة بترعة لم يبق منها الآن أقل أثر. وفمها كان حيث توجد مدينة قنا الآن. وقنا مشهورة فى جميع أنحاء القطر المصرى بصناعة الخزرات (القلل) المشهورة فيها بالقلل القناوى، وبها معمل لنسج الأقمشة القطنية. وتجاهها بلدة (دندرة) القائمة على أطلال مدينة (تنتيرس) القديمة المشهورة بهيكلها الجميل الذى لا يزال حافظا لكيانه حتى الآن.

٥١. قوص

كانت تسمى قديما (أبولينوبوليس بارقا) وهى صغيرة بالضفة اليمنى من النيل وحركة التجارة فيها لا بأس بها.

٥٢. إسنا

كانت تسمى قديما بمدينة (لاتوبوليس) وهى على الضفة اليسرى للنيل وحركتها التجارية لا بأس بها وإليها تقصد القوافل الواردة من دارفور وسنار وتتخذها محطة لها، وفيها أكبر وأشهر سوق للجمال ويكتنفها من الآثار القديمة والأطلال الفرعونية ماسأفيض الحديث فيه بالباب المخصص للكلام على الآثار المصرية.

٥٣. أسوان

مدينة واقعة في ملتقى ٣٩ ٣٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقي بالخط ٦ ٨ من خطوط العرض الشمالى. وهى آخر مدن القطر المصرى من جهة

النوبة وقد أكسبها موقعها في كل زمان أهمية لا تنكر. فقد كانت في الأزمان القديمة (واسمها وقتئذ سين) معقلا حصينا وموقعا منيعا. وعنى العرب بتحسينها فلما سقطت دولة الفاطميين دمرتها القبائل النوبية التي احتلتها وأخت عليها، وعندما استولى السلطان سليم على مصر جردها على الضفة اليمنى من النيل بالقرب من الشلال الأول، وهى قائمة الآن على منحدر من الأرض تتخلله أشجار النخل. ومبانيها محاطة بالمزروعات فكان منظرها لذلك آخذا باللب، وسكانها الآن ٤٠٠٠ نفس تقريبا كلهم من العرب والبرابرة والأقباط وبعض الأتراك الموظفين.

وتجاه أسوان جزيرة الفنتين الصغيرة، وعلى مقربة من الشلال الأول جزيرة فيله المشهورة بهيكل (أنس الوجود) وهى مع قلة اتساعها، إذ يبلغ طولها ١٣٠٠ قدم، ينبوع للأثار الثمينة لا ينضب معينه وبها بعض أشجار النخل وقسم منها مزروع. يبقى علينا أن نتكلم إجمالا على مدينتين لاتحسبان من مصر بالنظر لكونهما خارج نطاق وادى النيل ولكنهما تابعتان له. نريد بهما ثغرى السويس والقصير الواقعين على سواحل البحر الأحمر.

٥٤- ثغرى السويس

واقع في ملتقى الخط ٥ ١٥ ٢٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٥٩ ٢٩ من خطوط العرض الشمالى. كان له في الأزمان السالفة شأن خطير بسبب نقل البضائع الهندية. وكانت تسمى في بادئ الأمر مدينة (أرسينوة) ثم سميت بمدينة (كليوبتريد وبوليس) ولرفأها الآن علاقات متواصلة بالثغور التى على سواحل البحر الأحمر، ومكاسب أهلها من التجارة مع بلاد العرب. وفريق من الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز ينزلون منها في السفن. وكان لخط السفن التجارية الآتية من الهند إليها والذاهبة منها إلى الهند تأثير في المدينة، إذ جعل لها في العهد الأخير شأنًا كبيرا دعا بفريق من الإنجليز إلى التردد عليها لمباشرة أعمالهم التجارية. وبينها والقاهرة الآن طريق ممهد تجرى فيه عربات من طراز الدليجانس لنقل السياح منها إلى هذه العاصمة. وفي السويس قنصل لانجلترا وعدد سكانها ١٥٠٠ نفس، ومع انها قريبة من القاهرة فإنها تختلف عنها بالمرّة من جهة شكل مبانيها ومن جهة أخلاق أهلها وعاداتهم، وهى بالنسبة إلى الهند كالطليعة بالنسبة إلى الجيش.

وسنرجع إلى الكلام على هذه المدينة في الفصل الذى سنعقده للكلام على
المواصلات الكبرى المنوى تنفيذها بين النيل والبحر الأحمر.

٥٥- القصير

قلت فيما سبق إن الوادى الممتد بين قنا والقصير هو الطريق الذى يسلكه
الراغبون فى الوصول إلى هذا الثغر، وللقصير مرفأ صغير على البحر الأحمر
وتجارة لا بأس بها مع سكان سواحله، وهى محطة من محطات السفن
الانجليزية، وبها قنصلان أحدهما لإنجلترا والآخر لفرنسا. وعدد سكانها
١٢٠٠ نسمة وتتبع إداريا مديرية قنا.

المسافات بين بعض مدن القطر المصرى (١)

من القاهرة إلى الإسكندرية	٤١,٦	فرسخا
من القاهرة إلى رشيد	٢٨,٣	فرسخا
من القاهرة إلى دمياط	٣٦	فرسخا
من القاهرة إلى الصالحية	٢٤	فرسخا
من القاهرة إلى بلبيس	١٠,٨	فرسخا
من القاهرة إلى السويس	٢٨	فرسخا
من القاهرة إلى بنى سويف	٢٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى المنيا	٤٩,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسيوط	٧٣	فرسخا
من القاهرة إلى جرجا	١٠٠	فرسخا
من القاهرة إلى قنا	١١٩,٥	فرسخا
من القاهرة إلى طيبة (الأقصر)	١٣٠,٩	فرسخا
من القاهرة إلى إسنا	١٤١,٣	فرسخا
من القاهرة إلى إدفو	١٥٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسوان	١٧٤	فرسخا
من الإسكندرية إلى رشيد	١٢,٨	فرسخا
من رشيد إلى دمياط	٢٨,٩	فرسخا

(١) المسافات من القاهرة إلى البلدان التى فى الصعيد مأخوذة بحسب مجرى النيل.

الديانات والمذاهب الشائعة في قطر المصري

(١)

الإسلام وقواعده

القرآن - الوجدانية ورسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) - الملائكة - البعث ويوم القيامة - الجنة - جهنم - المطهر.

١ - الإسلام هو الديانة الشائعة في مصر انتشرت بها في القرن السابع للميلاد المسيحي عقب فتحها على يد عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكان المصريون قبل هذا الفتح - أى في عهد الدولة اليونانية الشرقية يدينون بالنصرانية لا يعرفون غيرها لهم عقيدة، ولكنها كانت مهیضة الجانب منحلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيئا متعادية ومذاهب شتى كالتى مزقت أحشاءها منذ القرون الأولى للميلاد في بلاد المشرق.

والظاهر أن ما ترتب على هذا الانقسام من النزاع والجدل في الدين كان قد أضجر المصريين ونفرت منه نفوسهم فلما فشلت بينهم الدعوة إلى الإسلام أقبلوا عليه وأجابوا داعيه وبدلوا من عقيدتهم به ولم يبدوا في معارضته مقاومة مبنية على الجذب وصدق العزيمة.

وليس في الآراء المتداولة عن الإسلام ولا فيما يسند إليه ما يطابق الصواب ولذا أرى فرضاً على أن أورد بعض الشيء عنه على الوجه الصحيح. لا أقصد بذلك تمجيد عقيدة لا أدين بها ولست من الدعاة إليها، وإنما أرمى إلى التعريف بها في غضون الإشارة إلى قواعدها وآدابها وعباداتها مراعيًا الإيجاز الكلى. إذ ليس في مقدور أحد أيا كان النطق بحكم صحيح على أمة مستمسكة بالدين كالأمة المصرية إذا كانت البيانات التى عنده فى أوكد أسباب حياتها

العامة والخاصة مشوبة بالأغاليط والأوهام.

٢- القرآن

يعتقد المسلمون أن هذا الكتاب أثر لوحى إلهى أنزله على رسوله. وهو مصوغ في لغة عربية مبينة، ومفرغ في قالب يرى الأئمة والعلماء أنه نهاية الإبداع في حسن المبني ودقة المعنى وأن الإنس والجن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا فالقرآن في نظر المسلمين أجل الكتب. ولذا تراهم يتلونه أو يسمعون ترتيله خمس مرات في كل يوم. وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ومن لم يكن حافظا له فهو ملم بكثير من آياته وسوره الأكثر ارتباطا بشئون الحياة واتصالا بأحوال المعاملات.

وفي القرآن مائة وعشرون سورة (الحقيقة ١١٤) ^(١) يعتقد المسلمون أنها أوحيت على محمد خلال الثلاث والعشرين سنة التي انقضت قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى - أى منذ بعثه وهو في الأربعين من عمره.

٣- الوجدانية ورسالة محمد

القواعد الأساسية للإسلام بسيطة تنحصر في أمرين: الاعتقاد بالوجدانية معبرا عنها بشهادة أن «لا إله إلا الله» ورسالة محمد معبرا عنها بشهادة أن «محمدًا رسول الله» فعلى مبدأ الوجدانية جمع محمد كلمة شعوب العرب وقبائلهم بعد أن كانوا قبله عاكفين على عبادة صنف من الأصنام هو أغلط وأفظع ما يمر بالخاطر من أصنافها. فوضع بذلك أساس ديانتهم ووثق أركان ملتهم.

وفيما جهر محمد به من الدعوة إلى الإسلام أن الدين عند الله كان ولا يزال واحدا هو الدين الذي بعث لتجديده بوحى على لسان جبريل الأمين. وأن هذا الدين كان كلما طرأ ما يحرفه عن أصوله أو يغير من أوضاعه أنزل الله كتبًا على أنبيائه في أزمان متفاوتة بحسب وقوع هذا التغيير. فأنزل التوراه على موسى والمزامير على داود وغيرهما من الكتب على غيرهما من الأنبياء ثم أنزل الإنجيل على عيسى، وهذه الكتب كلها حق وصدق والقرآن آخرها فالواجب

(١)-الناشر: نؤكد أن عدد سور القرآن الكريم هي ١١٤ سورة .

اتباعه إلى يوم يقوم الحساب وهو كلمة الله ونوره، وباق إلى الأبد وغير مخلوق من أحد، وهو في اللوح المحفوظ لا يدخل عليه تغيير ولا يتناوله نسخ.

٤. الملائكة

من تعاليم الإسلام أن لله ملائكة وكل إلى بعضهم الإشراف على نبي الإسلام فهم رقباء عليه، وأن جبريل موكل بإنزال الغضب والسخط على المغضوب عليهم وعزرائيل يقبض الأرواح في النفس الأخير واسرافيل بالنقر في الناقور يوم البعث والنشور.

٥. البعث ويوم الحساب

يعتقد المسلمون بالبعث. فقد جاء في القرآن «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» وبحسب هذا الاعتقاد يجيء الحساب ثالثاً، وقد ذكر القرآن أيضاً «ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير».

وجاء فيه أيضاً: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيماً إنه كان في أهله مسروراً».

٦. الجنة

في العقيدة الإسلامية أن من يصدع بما يؤمر به ويعمل صالحاً يجزى جنات النعيم. فقد جاء في القرآن: «والسابقون السابقون أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون».

ولم تكن جنات المسلمين مقتصرة على الملاذ المادية كما تذهب إليه أوهام العامة، بل تتناول من صنوف السعادات الروحانية شهود الحضرة الإلهية، وهو اسمى هذه السعادات يفوز بها من رضى الله عنهم فأنعم عليهم بهذه النعمة العالية. وقد ورد في القرآن: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».

٧- جهنم

في تلك العقيدة أن ليس لأتيم أن يعتمد على بذل الصدقات وإقام الصلوات ذريعة لمحو ما أتاه من السيئات. بل يعذب في نار الجحيم عشرة أضعاف ما عذب غيره ظلما وعدوانا.

٨- المطهر

كثرت استعارات الإسلام من المسيحية إلى حد قيل معه إن الدين الإسلامي لم يكن في الحقيقة إلا إحدى الشيع المنشقة عن النصرانية. ذلك لأنه نقل ماورد برمته في الكتاب المقدس عن التكوين وهبوط آدم من الجنة، وأن هبوطه هو ليكفر عن خطيئته ويتوب عن ذنبه ليجزى في الآخرة خيرا. فقد جاء في القرآن: «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم».

وبمقتضى العقيدة الإسلامية أن الله يغفر لمن يموت مؤمنا قبل الندم على خطيئته ولكن هذه المغفرة لا تحقق له إلا إذا كفر عنها وتاب في مكان يعاني فيه صنوف الآلام، وهو الأعراف الشبيه بالمطهر في النصرانية.

(٢)

آداب الإسلام

الفضائل - الصلاح والتقوى - القضاء والقدر - صلة الرجل بالمرأة.

٩- الفضائل

يحض القرآن على التمسك بعري الفضائل وترك النقائص والردائل واجتناب الكبائر، فهو والمسيحية في تعزيز الآداب سواء. وأكبر الفضائل التي تحلى بها الإسلام وحافظ عليها المسلمون الزكاة. فالمسلم الذي حسن

إسلامه وصدق إيمانه هو الذى يؤدى زكاة العشر عن ماله يدفعها لذوى العوز والحاجة. وفى القرآن نصوص صريحة على تحريم الربا وحث على نسيان الإهانة وتحبيذ الصراحة فى القول والتواضع والكرم والعفة والصبر... إلخ.

١٠. التقوى

التقوى فى نظر المسلمين رأس الفضائل وعمادها إذ أن الله لا يقبل الطيبات من الأعمال ما لم تكن مقترنة بها. فمن أحب أن تتوافر فيه صفات التقى والصلاح وجب عليه الاحتراز من ارتكاب الخطيئة بجارحة من جوارحه السبع تقية أن تصير لصاحبها أبواباً تقضى به إلى نار الجحيم. أما هذه الجوارح فهى الأذنان والعينان واللسان واليدان والبطن والعورة.

١ - لا يجوز التسمع لعزف الآلات الموسيقية ولا إغارة الأذن لسماع القبيح من كذب ونميمة وفاحشة ولا سماع الغناء والتغنى بالقرآن أو الصلاة.

٢ - يجب تنحية النظر عن المحرمات، فلا يجوز لمؤمن أن يطلع من رجل على ما بين سرتة وركبتيه، ولا لإمرأة أن تطلع من نظيرتها على ما بين سرتها وركبتيها.

كما لا ينبغى للمسلم أن ينظر على السرة والركبة، بل ولا الظهر والبطن من محارمه. أما غيرهن فيكون من الإثم إطلاعه على أكثر من وجوههن وكفوفهن وأقدامهن. سواء أكان إلى ذلك مسوقاً بدافع شهوة أم بغيره أو كانت المرأة المنظورة مليحة أم قبيح. شابة أم عجوزاً. وهذه القواعد لا تسرى على الزوجة الشرعية ولا على الأمة.

ومن الواجب الإمساك عن التطلع إلى ما داخل دار الغير بالتسمع من وراء الأبواب أو النظر من خلال الشقوق والثقوب كما لا يجوز النظر إلى المسلمين بعين الازدراء والاحتقار.

٣ - ينبغى صون اللسان عن الكذب والغيبة والوشاية ومدح النفس والمراء وخلف الوعد ونقض العهد.

واللعن خطأ كبير ينتزع من مرتكبه ثواب ما أسلفه من حسنات. وإذا كان

متزوجا فقد انحلت عقدة زواجه .

٤ - رفع اليد بالإيذاء على أحد أو مدها للاستيلاء على طعامه ولمس النجاسات بها من غير ضرورة، كلمس الميتة أفعال مخالفة لمقتضى الشريعة الإسلامية.

٥ - يجب اجتناب مواقع الشبه، والدخول بلا إذن على دار الغير والاعتداء بالأذى كالضرب على قريب واتلاف سباجدته أو حصيرته أو أى شىء آخر من متعلقاته.

٦ - أما خطايا البطن وأوزارها فتتقى بالامتناع عن تناول المحرم من الطعام والبعد عن الشره إليه والإفراط فيه.

٧ - أما خطايا الفرج التى تعاقب عليها الشريعة الإسلامية عقابا أشد صرامة من عقاب الخطايا الأخرى فهى اللواط والمواقعة فى أثناء الطمث والوضع..إلخ.

١١. القضاء والقدر

عقيدة القضاء والقدر لا تنتزع من المرء - فى دائرة الآداب والأخلاق والفضل وعدمه - كل إرادته ولا تستلب منه حرية تصرفه. ولقد غالى المتصدون للبحث فى القضاء والقدر عند المسلمين فى المسند إليهما من التأثير فى المقدور للمسلم من السلوك الذى يسلكه والشعور الذى يستشعر به. نعم إن اعتقاده بالقضاء والقدر قد أودع فيه غريزة الاتكال والرضا بما يأتى به الدهر من المحن وينزل من النوازل الخاصة والعامة، ولكن لاصحة لما زعمه الزاعمون منهم من أن ذلك الاعتقاد قتل فيه الشعور فأصبح لا يميز بين الحق والباطل بين الحالى = المتجر من الحلى = والعاطل = لابس الحلى = .

ليس فى التسليم بالقضاء والقدر ما يكبل المسلمين بأغلال الجمود أو يلزمهم ملازمة الثبوت والاستقرار. فإنهم وإن تلقوا ضمن مبادئ دينهم ما يفيد أن الحذر من القدر إدعاء بالخلود مطالبون دينيا بالنهوض إلى إطفاء الحريق إذا شب فى دورهم، ومغادرتها إذا كانت آيلة إلى السقوط لحادث ما كالزلزلة وغيرها واللياذ بالفرار من الفيضان وإتخاذ كل ما يعين لهم من الوسائل التى يملئها العقل وتحكم بها غريزة حفظ الذات.

١٢. صلة الرجل بالمرأة

نظمت الآداب الإسلامية علاقة الرجل بالمرأة على قاعدة احكم وأطبق على العقل مما يتبادر إلى الذهن أول وهلة. حقا إن تعدد الزوجات في الإسلام مباح أباحته في جميع بلاد المشرق ولكنه مقيد بحدود صريحة. إذ جاء في القرآن: «وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا». وقد أصلحت الشريعة حالة المرأة في المشرق، إذ قضت بأن لا يتم زواج إلا بصداق من المال يدفع الرجل أجله إلى زوجته في حالة طلاقها. وفي المواريث قضت تلك الشريعة بأن تراث الأخت نصف حظ الأخ وأن تعتق الأمة لمجرد وضعها بعد الحمل من مالك رقبته.

ويحرم الإسلام الزواج بالوثنيات ولكنه يبيحه باليهوديات والنصرانيات وفي القرآن آيات تقرر فضل الرجل على المرأة على أن يكون مظهر هذا الفضل الرفق بها والذود عنها، ومن هذا القبيل قوله: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا».

(٣)

العبادات

الصلوات اليومية الخمس - التطهر - المساجد - النظار والأئمة والمشايخ والخطيب والمؤذنون والقيمون - رمضان - عيد الفطر وعيد الأضحى - الحج إلى بيت الله الحرام - الأولياء - المذاهب الأربعة - القيام بترويض الدين عند المسلمين - الأغذية المحرمة - الواجبات الدينية المفروضة على النساء - مخالفة الآداب الشرعية - وصية القرآن بالتسامح نحو المسيحيين.

١٣. الصلوات اليومية الخمس

الصلوة هي الركن الأساسى من أركان الفروض الدينية في الإسلام، وكل

مسلم مسئول عن إقامتها وأدائها خمس مرات في كل يوم. ومن المعتقدات المقررة في الإسلام أن ملكا يهبط في الفجر من السماء فيظل مقيما حتى الظهر فيسجل أسماء الذين قاموا بفرض الصلاة. فإذا أقبل الظهر طوى كتابه ولم يدون فيه أسماء المتخلفين عن أدائه، وبالشقاء هؤلاء، وبالشدة ما سيلقون من عذاب. على أن في يدهم محو هذه السيئة بالصلاة والصوم في غير المواقيت المفروضة.

وبعد الظهر يهبط ملك ثان يظل مقيما على الأرض إلى أن يأزف أوان العصر (حوالي منتصف الساعة الرابعة بعد الزوال) ليدون أسماء المصلين كما فعل الأول ثم يهبط ملك ثالث لأجل ما بين العصر والمغرب فراجع وهو الأخير لأجل ما بين المغرب والعشاء الأخيرة (أي بعد غروب الشمس بنحو ساعتين).

جاء في القرآن: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

.. «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره».

١٤. التطهر

التطهر قسم من أهم أقسام العقيدة الإسلامية. فإنه لا يجوز لمؤمن بحسب الدين الإسلامي أن يباشر فرضا ما من الفروض الدينية إلا إذا تطهر من كل الأدناس الجثمانية. والتطهر ثلاثة أنواع: الغسل والوضوء والاغتسال. فالأول ما يراد به إزالة دنس مادي في الجسم أو الثوب أو المكان الذي تقام الصلاة به. ولإتقاء هذا الدنس يأمر المسلمون عبدهم بأن يحملوا معهم سجادة صغيرة ليطرحوها على الأرض متى آن وقت الصلاة ثم يصلون عليها. أما من لم تكن عندهم سجادة فيتخذون منها بديلا أرديتهم أو معاطفهم.

أما الوضوء فهو غسل الوجه والفم والأنف واليدين والذراعين إلى المرفقين والقدمين إلى الكعبين والمتوضئ يقرأ في أثناء وضوئه بعض ما تيسر من القرآن أو الدعوات.

أما الاغتسال فيكون من الجنابة والحيض.. إلخ.

ولا خلاف في أن هذا التطهر على وجوهه المتقدمة من أوفق ما سنته الشريعة الإسلامية لمقتضى العقل والحكمة. لأنها تفرضه على المسلم بمناسبة إقباله على أداء فرض من فروض دينه، فتمهد له بذلك وسائل النظافة والوقاية الصحية التى لا جدال في مزاياها ومنافعها بالبلاد كافة والشديدة الحرارة منها خاصة.

١٥. المساجد

يكثر المسلمون من الحفلات الدينية والأعياد ويحتفلون بها بما يستطيعون من مظاهر الجلال. ولهم عناية خاصة بتعهد المساجد. إذ تراها على الدوام في الغاية القصوى من النظافة. وليس بداخلها شيء من آثار الزخرفة والتأنق فلا كراسى ولا مقاعد مستطيلة، وغاية ما هنالك أن أرضها تفرش صيفا بحصير السمار وشتاء بالسجاجيد يجلس عليها المصلون في وضع تستروح منه رائحة التواضع والتقوى. وتراهم قبل غشيانهم المساجد يخلعون أحذيتهم ونعالهم ثم يجلسون خاشعين. أما المساجد الكبرى فقد يرى الناس فيها، مع جلوسهم على الوضع المذكور، يتبادلون الأحاديث وربما يأكلون أو ينامون أو يزاولون عملا ما بدون أن يفوتهم قط أثناء ذلك إظهار الاحترام العظيم لتلك المعاهد.

وقبل وصول الحملة الفرنسية واحتلالها الديار المصرية كان من بين المساجد الكبرى جملة لا يسمح للنصارى ولا لليهود المرور أمامها على صهوات خيلهم فأبطل بونابرت هذه العادة وجادل فيها العلماء فالزمهم الحجة إذ قال لهم: «إذا كان ما تقصدون إليه بذلك المنع طلبكم الاحترام والتوقير لمساجدكم فلماذا لا ترمون إلى مثل هذا الغرض بالنزول عن دوابكم؟ وهل مما يقبله العقل والعدل أن يطالب المرء أجنيا بما لا يطالب نفسه به من علامات التوقير لدينه؟». وعلى أثر هذه المناقشة لزم المسلمون حد الاعتدال في معاملة الأجانب من هذا الوجه بل بلغ من تسامحهم معهم أن أذنوا لهم بغشيان المساجد لزيارتها والتفرج عليها من غير خوف عليهم. وإنما يؤسفنى في هذا المقام أن ألاحظ على بعض الزائرين تغافلهم عن الاحترام الواجب عليهم نحو تلك الأماكن.

والجدير بالنظر والاعتبار في أمر المساجد ما ألحق بها من المعاهد المختلفة التي لاختلاف في فائدتها كالملاجئ لإيواء الغرباء والمسافرين والكتاتيب العامة والمدارس التي ينشأ فيها الطلبة على التفقه في الدين فيخرج منهم المؤذنون للمساجد والقضاة والنواب.. إلخ.

وعدد المساجد كبير جدا في القطر المصري. بل هو أكبر مما يلزم له في الحقيقة، وهو في القاهرة وحدها يبلغ إلى الأربعمئة أهمها الأزهر الشريف^(١) وكلها عتيقة البناء جميلة النمط الهندسى. والذي يشيد منها الآن قليل جدا وليس في شىء ما من حسن الانمط الهندسية التي كانت مرعية في عهد الخلفاء المتقدمين.

١٦. النظار والأنمة

يقوم بإدارة كل مسجد ناظر بيده الإنفاق على شئونه من ريع الأملاك المرصودة عليه، وإليه يرجع تعيين خدام المسجد من الإمام إلى صغار الخدم الموكلين بنظافته. والعادة أن يكون لكل مسجد إمامان يأتهم الناس بأحدهما في الصلوات الخمس متى حلت مواعيدها الموقوتة. وليس لرجال الدين في الإسلام طائفة خاصة ولا فرقة ممتازة على غيرها في الهيئة الاجتماعية. لأن صفتهم الدينية لم تكن لاصقة بهم على الدوام كما هى عند القساوسة في المذهب الكاثوليكي، وإنما هى وقتية إذا شاء الناظر انتزعها منهم فيفقدون مع مراكزهم صفة الإمامة. ولهم حق التزوج لا يمنعه عنه مانع إذ لا رهبانية في الإسلام. ولما كانت الأجرة التي يتقاضونها في مقابل قيامهم بوظيفة الإمامة زهيدة جدا وهى قرش واحد في اليوم فإنهم يضطرون في الإنفاق على عيالهم إلى مزاولة مهنة أو الاحتراف بحرفة، فترى منهم العطارين والماوردين ومعلمي الكتاتيب. أما الذين لا يقدرون منهم على ممارسة الحرف أو لم يكونوا قد تعلموا حرفة خاصة فيرتلون القرآن في البيوت مقابل مال يتقاضونه من أربابها في آخر كل شهر وهم يكونون في الغالب من فقراء الطلبة في الأزهر الشريف.

(١) يشبه الجامع الأزهر في مصر جامعة السوربون في فرنسا، والطلاب من أهل الشرق جميعا يفدون عليه لتلقى العلوم الدينية والشرعية. ومما يدرس به علم الفلسفة على مذهب أرسطو واللغة العربية والتاريخ. وبداخل الجامع أروقة لسكنى الطلاب. رواق منها لكل من الأكراد والفرس والنوبيين والأثراك والهنود والمغاربة والحجازيين.. إلخ وهم جميعا يتلقون العلم على نفقة الجامع.

ومن أئمة المساجد تتألف الطبقة الوسطى من رجال الدين. إذ فوق درجتهم توجد درجة العلماء المتفقيين في الدين والقائمين بوظائفه ومناصبه، والشيوخ أو المشايخ ويقومون بخطبة يوم الجمعة والخطيب يقوم فيه بالصلوات الخمس التي يؤديها الإمام بقية أيام الأسبوع. والمؤذنون ويدعون المؤمنين إلى الصلاة من أعلى المآذن والقيمون وهم صغار الخدمة في المسجد.

١٧- رمضان

صيام رمضان من فرائض الدين الإسلام المتداولة الذكر في أوروبا لشهرتها. ويلبث شهرا كاملا. والمفهوم أن ليس فيه شيء من المزايا الصحية المتوافرة في الصوم على الطقسين المسيحي واليهودي. لأن شهر رمضان لا يقع في فصل معين من فصول السنة، وإنما يطوف بها جميعا على التدرج ويتم دورة طوافه في كل ثلاث وثلاثين سنة مرة. ولم يكن شهر رمضان عند المسلمين خلافا لما اتجهت إليه الظنون في أوروبا - شهر رفه ونعيم وتفرغ للمنكرات. بل هو شهر حرمان من الشهوات في الغاية القصوى من الشدة. فإن كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره مطالب برعايته. فقد جاء في القرآن: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون».. «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر».

ونصوص الدين في الصوم محترمة الجانب. إذ يتبعها المسلمون بدقة وانتباه ليس بعدهما وصف لوصف. نعم لاتخلو الحال من وجود أناس ييجرؤون على مخالفتها ولكنهم قليلو العدد جدا. فضلا عن تسرهم على أنفسهم في ذلك. ولم يكن الإمساك في الصوم قاصرا على حرمان النفس غذاءها طول النهار من كل شراب وطعام. بل يتناول استنشاق الأرواح العطرية والتدخين والنشوق. وهناك فريق من المتشددين يحرصون دائما على لفظ اللعاب محترزين من ابتلاعه.

أما الحوامل فلا يطلب منهن الصوم وكذا المرضى والمسافرون، ولكن

القليل من هؤلاء يميلون - وهم في حالة مرضهم أو سفرهم إلى الاستفادة من هذه الإباحة. بل إن هناك كثيرين من الأتقياء والصالحين يتمادى بهم الحرص على رعاية فروض الدين حتى فيما تباح مخالفته لمثل تلك الأسباب فيضنون على أنفسهم بقطرة الماء يربطون بها أفواههم في أثناء سفرهم في الصحراء. حيث يشتد القيظ ويقاومون بذلك الأوار الشديد. ولقد شهدت بنفسى مرضى كثيرين في بحران الحمى يأبون تعاطى الدواء المخفف لدائهم مؤثرين الموت على مخالفة واجب الصوم.

١٨- عيد الفطر والأضحى

يتلو عيد الفطر شهر رمضان ومدته ثلاثة أيام يحل أثناءها الفرح الشديد والهناء محل شدائد الصوم وما تخلله من صنوف الحرمان، ويتبادل المسلمون التهاني العيادية ويعفون بعضهم عن بعض.

أما عيد الأضحى فيتلو عيد الفطر بنحو ٧٠ يوما ويلبث أربعة أيام والغرض منه إحياء ذكرى إبراهيم الخليل. وعيد الفطر والأضحى هما الوحيدان من أعياد السنة اللذان ينقطع الناس فيهما عن مزاوله الأعمال.

١٩- الحج

من قواعد الدين الإسلامى الحج إلى مكة والوقوف على جبل عرفات. وكل مسلم مطالب بأداء هذه الفريضة لايغنيه منها إلا الفقر والمرض، وفي مذهب أبى حنيفة أن في استطاعة القادر على الحج إذا لم يشأ أداء هذه الفريضة بنفسه أن ينيب عنه في أدائها غيره - على شرط قيامه بنفقته كلها ولكن سواد المسلمين يغفلون القيام بشعائر هذا الفرض والحجاج الذين ينالون لقب الحاج بعد أداء فريضة الحج بزيارة مكة والوقوف على جبل عرفات يقصدون إلى الحجاز إما من طريق دمشق وإما من طريق القاهرة، والعادة أن يجتمع مسلمو أفريقية وأتراك ألبانيا والروملى الناهبون إلى الحجاز في القاهرة ثم يقصدون منها إليه. أما الفرس وأتراك آسيا الصغرى فيجتمعون في دمشق ومنها يوالون السير إلى الحجاز، وجرت العادة أن يطابق تحرك القوافل من القاهرة للحج في السابع والعشرين من شوال، وقبل هذا التاريخ بأيام يحتفل بالمحمل، وهو صندوق مربع من الخشب توضع فيه نسختان من القرآن يرسل مثلهما إلى مكة في كل عام.

وهذا الحمل مع ما يتبعه من عفش أمير الحج والصندوق المحتوى على صرة المال المرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوى وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة - وتشغل في القاهرة من الحرير الأسود - فيطاف بها في حفلة حافلة وموكب جليل بالسبل المعروف بالحصوة بحرى القاهرة ثم تتجه منه إلى بركة الحاج التى هى آخر مرحلة لاجتماع الحجاج برسم السفر إلى الحجاز.

وينقسم هؤلاء الحجاج إلى ثلاث قوافل تتبع إحداها طريق البر من الصحراء وتسرى عادة في الليل فلا تقف إلا الصبح بعد شروق الشمس بساعتين وتقضى النهار في مكانها . فإذا ما أقبل الليل تحركت للمسير من جديد في الساعة الثانية بعد الغروب ويظل السفر برا مدة أربعين يوما تقريبا. أما الذين يخشون أخطار هذا السفر ومشاقه فيسافرون إلى جدة عن طريق البحر الأحمر، بالنزول في السفن المسافرة إليها من السويس أو القصير.

والمقرر أن يجتمع الحجاج في مكة خلال الأيام الأولى من شهر ذى الحجة فيزورون الحرم المكى الذى فيه الكعبة. والكعبة بناء صغير يبلغ طوله ٥٦ قدما في عرض ٤٨ وأرتفاعه ٨٠. والمأخوذ من الروايات العربية المصدر أن إبراهيم قام بالتضحية فداء لابنه إسماعيل في جبل عرفات الواقع على مسافة ستة فراسخ من مكة. وأن الحج لا تتم شعائره إلا إذا صعد الحجاج في هذا الجبل إلى قمته وحضروا في ليلة التاسع من ذى الحجة الصلاة التى تقام بها، وفي اليوم التالى يقصدون إلى سهل منى ليختموا تلك الشعائر بتضحية الماعز والنياق.. الخ ويقدر عدد الحيوانات ذات القرن التى تنحر بهذه المناسبة من ثلاثين ألف رأس إلى أربعين ألفا.

وميعاد عودة ركب الحج من مكة إلى القاهرة في أوائل شهر صفر التالى وتسمى هذه العودة بنزلة الحج. والعادة أن يجتمع أهل الحجاج وأصدقائهم ومعارفهم للقائهم بمظاهر الفرح والسرور غالبا وبعلامات الحزن أحيانا إذا علموا أن الذين جاءوا للتمتع برؤيتهم قد لقوا حتفهم أثناء الطريق بسبب ما عانوه فيه من أنواع المشاق وصنوف الحرمان. أما الحجاج الذين يصلون سالمين فيحاطون بالرعاية والاحترام ويرمقون بعين الإعجاب. لأن الناس يعتبرونهم كأنهم طبعوا بطابع البركة والقداسة، ولهذا يتوسلون بهم إلى الله

في إجابة دعائهم وتحقيق متمناهم.

٢٠. الأولياء

الأولياء في مصر كثيرون ولهم في نفوس الأهلين منزلة رفيعة. إذ تراهم يجلسونهم ويتبركون بهم في حياتهم فإذا ماتوا أقاموا لهم الأضرحة وبنوا فوقها البنايات الحسنة. وليس لتقديس الأولياء وحسبانهم كذلك صيغ مخصوصة وإجراءات معينة كما هو عندنا. فإن الرأي العام هو المحكمة التي تقرر ولاية الولي بما يحدث في نفسها من الأثر الناشئ عن استحسان فعاله واعتبارها متفقة مع ما ينبغى من الورع والتقوى ليكون وليا جديرا بالتكريم حقيقة. وغالبا ما يكون ذلك الرأي مخطئا في حكمه فيصبح من لم يكن أهلا للولاية وليا ترمقه عين التجلة والاعتبار من جميع الأمصار. أما العلماء فلا يذهبون مذهب العامة في ذلك بل لا يعتبرون وليا ما تقر هذه ولايته.

وليس المعتوهون والذين ألفوا العادات المستغربة وظهروا بالأحوال الشاذة التي تشبه الجنون بأولياء كما تتجه إليه ظنون البعض. حقا إن في الدين الإسلامى ما يقضى برعاية جانبهم ولكنه لا يقيم لهم ولاية ولا يجعل لهم صفة تؤهلهم للتبجيل تبجيلا دينيا فإذا شوه ذلك ما يخالف هذا المبدأ فهو مناقض للواجب ومضاد للقواعد الشرعية على الخط المستقيم.

٢١. المذاهب الأربعة

المذاهب التي يتمسك المسلمون بها في عباداتهم أربعة: مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى ومذهب مالك ومذهب الحنبلى، وأكثر هذه المذاهب شيوعا في مصر المذهب الأول، وهو كذلك في بقية أنحاء الدولة العثمانية.

٢٢. أداء فروض الدين عند المسلمين

الأمر الذى يدهشك من المسلم ثبات عقيدته ورسوخ إيمانه في نفسه رسوخا لا يتناوله شك أو تزعزع قوة بالغة من الشدة مابلغت. فلعقيدته في نظره من سمو الرفعة وجلال القدر ما يلقيه في الدهشة والاستغراب من مخلوقات الأرض كيف لا يدينون بالإسلام؟ وقد جرت عادة المسلمين على تسميتهم إيانا بغير المؤمنين لأنهم يرون منا الإحجام عن أداء فروض الدين كما أنهم يسموننا بالكفار لأنهم لا يشاهدوننا مقبلين على الصلاة. وترى

المسلمين مستوفزين دائما للوثبة على من يهاجم دينهم بطعن أو انتقاد وعندهم كل مكان صالح لاداء فرض الصلاة. فالطريق العام وحقل الزراعة، والبيت الخاص بالسكنى سواء في ذلك. وهم يصلون جماعة أو فرادى ولو في وسط يختلطون فيه بالأجانب لا يلويهم عن ذلك مانع أو اعتبار ما.

وقد ذهب الناس في أوروبا إلى القول بأن المسلمين أخذت تنبث فيهم الميول الجانحة إلى ما يخالف الإيمان والعقيدة. أخذوا ذلك على سبيل الاستنتاج من مشاهدتهم بعض المسلمين لا يراعون نواهي القرآن فيما يتعلق بتعاطي الخمر. إذ هم يتعاطونها جهارا نهارا. ومفهوم أن هذه النواهي أكثر ما يكون ملاءمة لصحة الناس من أهل المناطق الحارة كبلاد العرب وأفريقية التي إذا وجدت بها الخمر فأنما تكون مما ورد إليها من البلاد الأجنبية لا مما صنع فيها.

٢٣. الأغذية المحرمة

من فضائل الديانة المحمدية وآثارها الحسنة في النظام الاجتماعي عنايتها المتواصلة بتقرير جملة طيبة من الاحتياطات الصحية الجزيلة الفائدة. وهذه العناية وإن استوجبت أحيانا رعاية بعض التفاصيل الدقيقة واستدعت شيئا من العسف في تحميم ما جاءت به من النواهي لايسعنا إلا الحكم بصوابها من حيث المبدأ. وبما أنها تناولت المشروبات الخمرية فقضت عليها بذلك القضاء المبرم واعتبرت وسائل النظافة الخارجية للجسم من الواجبات الدينية التي يتحتم القيام بها كان لا بد أن تتناول المطعومات أيضا. وفي الواقع فقد قررت في هذا الشأن الخطير أصولا وقواعد لاخلاف في صلوحها وفائدتها منها اعتبارها من مواد الغذاء النجسة التي يتحتم الإمساك عن تناولها، واليهود يشاركون المسلمين في هذا الاعتبار، لحوم الخنزير والحصان والبغل والحمار والسلحفاة والفيل والضواري على أنواعها والجوارح والأفاعي، ومما حرم تعاطيه غذاء لبن الفرس والحمارة، وعلى كل حال فليس من الجائز استنفاد شيء بالأكل من أحشاء تلك الحيوانات وأعضاء تناسلها فإنها محرمة قطعاً ومما شدد الدين الإسلامي في تحريمه الدم. وهذا التحريم هو علة ذبح الحيوانات - أعنى قطع رؤوسها وما يرتبط بهذه الرؤوس من العروق تسهيلا لخروج دمها حتى إذا أكلت لا تكون محتوية أثرا ما من الدم. ويأكل

المسلمون بلا مانع ديني لحوم الصيد، ولكنهم لا يقبلون كثيرا على لحوم الطير المصيدة لتعذر استنزاف دمها كله.

٢٤- واجبات الدين للنساء

النساء المسلمات غير مطالبات بكل ما يطالب الرجل به من فروض الدين، فإنهن نادرا ما يذهبن إلى المساجد لأداء فرض الصلاة. ومع هذا فلم يرد في الشريعة الإسلامية نص يمنعهن من الذهاب إليها للقيام به ولم يحرمه عليهن، ولكنها أثرت أداءهن إياه في بيوتهن. ولما كان المسلمون يذهبون إلى اعتبار وجود النساء في المساجد صارفا للخواطر عما يلائم صفة الطهارة والقداسة اللاصقة بالمعابد فقد حرموا على النساء بالفعل ما أباحه الشرع لهن في المبدأ من الصلاة في المساجد (١).

٢٥- القرآن والتسامح نحو النصراني

اشتهر المسلمون في أوربا بكرهاتهم للمسيحيين وحقدهم عليهم فإذا كان سبب هذه الشهرة ارتكابهم في أيام الحروب ضروب الفظاعة في حق المغلوبين (٢) فمما ينبغى الجهر به أن مسئولية كراهتهم لا تقع على مبادئ الدين الإسلامى، كلا فقد دعا القرآن في أكثر من موضع بالتسامح نحوهم كما تدل عليه السور الآتية:

«ومريم ابنة عمران التى أحصنت، فرجها فننفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين».

«وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب».

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم».

ومما ينبغى الجهر به في هذا المقام أن تعصب العامة من الشعب كثيرا ما حال دون ظهور أى أثر لما كان يخالج الحكام من النيات الحسنة نحو المتمسكين بالديانات الأخرى غير الإسلام. ولكننا لا يسعنا إلا الجهر قبل انتهاء هذا الفصل بأن العرب الأصليين أكثر تسامحا نحو الذميين من

(١) الناشر: ليس صحيحا ما ذكره المؤلف من تحريم الإسلام لارتياذ النساء للمساجد.

(٢) الناشر: هذه رؤية غير موضوعية للمؤلف فيما يتعلق بنظرة المسلمين للمسيحيين في أوربا.

الشعوب الإسلامية الأخرى وأن المصريين يفوقونهم في التسامح. إنما جبلوا عليه من الرقة ودمائة الأخلاق، وإنما سبق لهم من الارتباط بالأوربيين.

(٤) الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة

اليهود - الأقباط اليعاقة - الأقباط الكاثوليك - اليونان المنشقون - اليونان الكاثوليك - الأرمن - الكاثوليك اللاتينيون - العداوات بين المذاهب المسيحية.

٢٦ - الديانات أو المذاهب الدينية الشائعة في مصر بعد الإسلام هي الديانات والمذاهب التي يتمسك بها اليهود والأقباط والأرمن واليونان المنشقون والأقباط والأرمن واليونان الأرثوذكس والكاثوليك من المذهب اللاتيني. ويبلغ عدد المنتمين إلى هذه المذاهب المختلفة ٣٠٠٠٠٠ نفس.

٢٧ - اليهود

في القطر المصري نحو ٧٠٠٠ يهودى يقطن سوادهم الأعظم حيا خاصا بهم منهم ١٢٠٠ من القرين = القرائين = والباقيون من الربانيين. ورجع إلى محمد على باشا الفضل في استنقاذ اليهود مما كانوا يلحقونه قبله من التصدي بالإهانة والاضطهاد. فقد منحهم حمايته وعضده كما منحهما غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى. ولهم في مصر ثمانى بيعات أى هياكل للعبادة.

٢٨ - الأقباط اليعاقة

الأقباط المنشقون هم الشيعة الأكثر عددا والأعز في مصر نفرا. إذ يعدون ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا لهم ١٣٠ كنيسة وديرا في أرجاء القطر ورئيسهم الدينى هو البطريك الذى يتولى كرسى البطريكىة معيناً من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وإليه يرجع الاختصاص بتعيين النظار المكلفين بإدارة الأديرة والكنائس. والمفهوم أن المذهب القبطى مقتصر على مصر لا يوجد في غيرها، ومن طقوسه الاعتراف والتناول الربانى بنوعيه. ولا بد من التطهر

بالاغتيال قبل الجلوس إلى المائدة المقدسة ، وهم يختنون كاليهود ومذهبهم مستمد من بدعة (أوتيكييس) المبتدع اليونانى من أهل القرن الخامس . والأقباط يذهب بعضهم مذهب الطبيعة الواحدة والبعض الآخر مذهب الإرادة الواحدة مع الطبيعتين .

٢٩ . الأقباط الكاثوليك

بالقطر المصرى ٥٠٠٠ قبطى على المذهب الكاثوليكي . ولم تدخل الكتلة بين أقباط مصر إلا منذ عهد قريب . ولهم أسقف خاص بهم ، وقساوستهم أسمى إدراكا وأوسع علما من القساوس اليعاقبة . والظاهر أن مذهب الكتلة أثر فيهم فجعل لهم التفوق بالعلوم والمعارف على سائر المتمسكين بالمذاهب القبطية الأخرى .

٣٠ . اليونان المنشقون

اليونان المنشقون بالقطر المصرى ٣٥٠٠ يونانى ينقسمون إلى فرقتين الفرقة الأولى تتألف من اليونان المتناسلين فى القطر المصرى نفسه وهم السواد الأعظم ، والفرقة الثانية من اليونان الذين وفدوا على هذا القطر بعامل حب الكسب من التجارة . والمفهوم أن يونان الفريق الأول منتشرون بالوجه البحرى وهم سلالة الجاليات القديمة ، وانهم إذا تمذهبوا بالمذهب الانشقاقى فما ذلك إلا لاتصالهم بالقسطنطينية عاصمتهم السياسية القديمة وشأنهم كشأن الاجانب فى تبعيتهم من الوجهة الروحية إلى البطريك المعين من اسلامبول . ولهم بالقاهرة ثلاث كنائس وهى دير مار جرجس ودير القديسة كاترينة وكنيسة مارنيقولا .

٣١ . اليونان الكاثوليك

اليونان من المذهب الكاثوليكي يبلغ عددهم ٣٥٠٠ تقريبا . سوادهم الأعظم من السوريين وهم تابعون منذ بضع سنوات إلى أحد البطاركة فى أحوالهم الشخصية .

٣٢ . الأرمن

يعد الارمن فى مصر ٢٠٠٠ نفس تقريبا . أغلبهم تابع للمذهب المنشق ولهم قساوستهم وبطاركتهم وكنائسهم . ولفريق من الأرمن الكاثوليك هيك

خاص لإقامة شعائرتهم الدينية.

٣٣. الكاثوليك اللاتين

الكاثوليك المتمسكون بالمذهب اللاتيني هم الجاليات الأوربية وقيم شعائرتهم هذا المذهب في الكنائس اللاتينية آباء الأرض المقدسة ومتدينو القديس فرانسوا.

ولمبعوثى المذهب الكاثوليكي كنائس في القطر المصري، وقد عين قداسة البابا أخيراً أسقفاً لهم فيه.

والمعاهد الدينية الكاثوليكية وضعت منذ زمن بعيد تحت حماية فرنسا، ومعلوم أن الملك فرنسوا الأول والملك لويس الرابع عشر شملاً هذه المعاهد بوصايتهم ورعايتهم بأوامر أصدرها في هذا الصدر.

٣٤. العداوات بين المذاهب المسيحية

تشمل حكومة محمد على بحمايتها جميع الأديان والمذاهب على حد سواء بصرف النظر عما هو مستحكم بين بعضها البعض من أسباب العداوة والنفور. وليس في هذه المساواة ما يبعث على الدهشة. فإن المسلمين يعتبرون تلك الأديان والمذاهب كلها مخالفة للإسلام، وبالتالي غير مؤمنة وبين العقائد الدينية المختلفة التي يدين بها غير المسلمين من المصريين تناقض غريزي وتحاسد وتباغض وتخاصم أفضى بها إلى الخلاف المستمر والتنازع. ولكن هذه المقابح زالت الآن وصار لا أثر لها. لأن «محمد على» بما عرف به من النزاهة والبعد عن المحاباة لا يؤثر أهل مذهب على أهل مذهب آخر ولا يناصره ضده وإذا كان هناك ضرر يلحق بتلك الأحزاب الدينية فإنما هو الضرر الناشئ من حملهم المسلمين بتلك الأفعال القبيحة على احتقار المسيحية والنيل من كرامتها. وكان هذا الضرر قبل أن يتسلم محمد على أزمة البلاد متفاقماً. فقد كانت تلك المذاهب لانتقاضها على بعضها واستنفار الفساد بينها تتسابق في شراء حماية الحكومة بأموال تنقدها إياها فلا يفوز بهذه الحماية منها ليغتم الامتيازات إلا من بلغ الحد الأقصى من الزيادة في سوق الدلالة. وكان الإنسان لا يبعد أن يرى عندئذ أرباب الفتن والدسائس من المشايخين للمذاهب وقد توصلوا بقوة المال إلى تحقيق ميولهم الشريرة من

الفتك بأرواح خصومهم أو هدم كنيستهم أو استنزال السخط والاضطهاد عليهم وليس بعازب = ببعيد = على فكر أحد أن العداوات من هذا النوع إذا أطلق لها العنان كان من أخص نتائجها تزجية = سَوَّقَ = فكرة محزنة إلى أذهان المسلمين عن فضائل الديانة المسيحية وآدابها^(١).

(١) الناشر: أخالف رأى المؤلف.

الشريعة الإسلامية وإدارة العدل في مصر

(١)

الشرائع والقوانين المدنية

الشريعة الإسلامية - البلوغ - الزواج والطلاق - الحقوق الأبوية -
الأوصياء - المدينون والمفلسون - الحجر - التسليف على رهن - المحبة -
الميراث.

١. الشريعة الإسلامية

ينبوع الشريعة عند المسلمين كما هو في المدنيات الشرقية الدين وقوانينهم
في الشئون المدنية، والعقوبات مستمدة من القرآن، وحيث إن هذا الكتاب لم
يقرر الأحكام بالتفصيل في وجوه المنازعات فالقضاة يعتمدون في تقريرها
على الاسترشاد بما يأتي:

أولاً: السنة، وهي ما نسب إلى النبي قولاً أو فعلاً أو تقريراً - أي ما حدث
أمامه من قول أو فعل فأقره بالقول أو السكوت.

ثانياً: الإجماع - أي أجماع الصحابة الذين توفي النبي وهو راض عنهم
أو بعبارة أخرى هو المتفق عليه بالتواتر في خلال الثلاثة قرون الأولى
للإسلام، ويرجعون في العمل به إلى قول النبي «خير القرون قرني، ثم الذين
يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ثالثاً: القياس، وهو ما قررته العادة وجرى عليه الاصطلاح.

رابعاً: الاستقراء.

٢. سن الرشد

قررت الشريعة الإسلامية أن يكون بلوغ الرشد للذكر والانثى ميعاد بلوغهما الحلم - أى الثانية عشرة للذكور والتاسعة للإناث، هذا إذا جهرا بأنهما فى هاتين السنين قد بلغا الحلم. وأقسما على ذلك. فإذا لم يجهرا ولم يحلفا فإن سن الرشد لهما تكون ببلوغهما تمام الخامسة عشرة، وفى هذه الحالة يجوز للذكر الحر حق التصرف فى شئونه. فإذا مات أبوه فإن وصيه يتولى إدارتها إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، وإذا أمسك الرجل بزمام ماله فتصرفه فيه طبقا للقانون يعتبر صحيحا لا غبار عليه.

٣. الزواج والطلاق

رأينا فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية حددت بأربع عدد الزوجات الشرعيات التى للمسلم أن يتزوج بهن ويتم الزواج شرعا بإيجاب وقبول فى حضرة الشهود وبدفع صداق للزوجة إما معجلا كله وإما معجلا بعضه ومؤجلا البعض الآخر، والخيار فى الطلاق يرجع فى الأصل إلى إرادة الزوج. ولذا ترى العرب يسيئون استعمال هذه الحرية ويعبثون بها إلى حد أن بعضهم ربما تزوج وطلق خمسين مرة. أما الأتراك فالطلاق بينهم نادر جدا. وعلى كل حال فللزواج المطلق أن يرجع إليه زوجته فى الطلقتين الأوليين فإذا طلق ثالثة فلا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين بغد طلاقها من الزوج المحلل.

٤. حقوق الأب

وللوالد الخيار فى تزويج أبنائه القاصرين لمن يشاء وعلى أى وجه يشاء بدون أن يكون لهم حق ما فى الاعتراض على سلطته. أما الأبناء البالغون فلا يمكن تزويجهم بغير رضاهم. وهذه القاعدة مستمدة من الاقتداء بمحمد فانه استشار ابنته فاطمة قبل أن يزوجها بعلى. وللوالد الحق فى إدارة أموال أبنائه القاصرين بدون أن تلحقه مسئولية فيما لو أدركها ضرر كالذى يحتتم وقوعه إذا رهنها تأمينا لدين عليه أو أنفقها فى احتياجاته الصحيحة.

٥. الأوصياء

للوصى من الحقوق على القاصر ما للوالد بالسواء ما عدا الحقين الأخيرين اللذين تقدم ذكرهما. وأقرب الأهل إلى والد اليتيم أحق الناس بالوصاية عليه،

فإذا لم يكن لهذا اليتيم ولّى تؤول الولاية إلى قاضى الجهة التى يقيم فيها.

٦. المدينون والمفلسون

تبيح الشريعة الإسلامية حبس المدين حتى يعلن عجزه عن السداد. أما المفلس فيقع تحت طائلة الحجر الصحيح، ولا يجوز له التعامل مدنيا أو القيام بعمل ما يختص بأمواله إلا بتصريح من القاضى.

٧. الحجر

الذين يحجر عليهم هم: القصر والشيوخ المعتوهون والمجانين والأرقاء والمسرفون والمفلسون. ومع هذا فإنهم يعاقبون بالعقوبات المبينة فى الشريعة إذا ارتكبوا ما يجعلهم أهلا لها.

ولصاحب المال أيا كان حق التصرف فى ماله بالتنازل عنه لمن أراد على شرط أن لا يكون محجورا عليه.

٨. التسليف على رهن

وإذا سلف مالا فى مقابل رهن فإن النفقات التى تستلزمها صيانة الشئ المرهون تكون على ذمته، ويكسب بينه صفة الامتياز فى حالة وفاة المدين أو إفلاسه.

٩. الهبة

ولصاحب المال بمقتضى ماله من حقوق الملكية أن يهب فى حياته ما شاء من ماله إلى من يريد كائنا من كان. ولكن يبقى بيده الحق فى استرداد الهبة كلها أو بعضها، والشريعة تجيز له ذلك وإن تكن من جهة أخرى تستقبحه. ومع هذا فإن الهبة لا تتم فعلا إذا مات الواهب والموهوب إليه، أو كانت بينهما قرابة، أو كان الموهوب إليه لم يتسلم الهبة.

١٠. الوراثة

فى مصر كما فى بلاد الدولة العثمانية يرث الأبناء بالتساوى بما يتركه والدهم من الأموال فليس فيها ذلك الحق الذى يقضى بأن تكون الوراثة للأكبر فالأكبر من الأبناء. كما لا فارق ولا تمييز بين أبناء الزوجات الشرعيات وأبناء السرارى والجوارى، أما الأنثى فترث من مال الأبوين ما

يعدل نصف حظ الذكر. وإذا توفي المورث عن بنات فقط فبمقتضى الشريعة ترثن ثلثى التركة سواء كن اثنتين أو أكثر عددا. أما إذا مات المورث عن ابنة واحدة فلها بمقتضى الكتاب الحق في نصف ما ترك والدها وفي الحاليتين المتقدمتين يعود الثلث أو النصف الباقيان إلى البنات الوارثات أو الابنة الوارثة بعد التأكد من عدم وجود أقارب للمورث توزع تلك الحصص الباقية عليهم. وإذا مات المورث عن والده ووالدته فإن سدس تركته يؤول إليهما في حالة ما إذا كان له أبناء. أما إذا لم يعقب فيرث الاب ثلثى ما ترك الابن والأم الثلث الباقي. فإذا كان للمورث أخوة فلا يصيب الأم سوى السدس مما ترك ويؤول إليهم السدس الآخر. وليس للرجل أن يتصرف على سبيل الوصية في أكثر من ثلث ماله، والواجب بعد وفاته سداد ديونه وما وصى به قبل كل شيء آخر

(٢)

الجنايات والعقوبات

سب الدين - القتل - الضرب والجرح - الزنا - السرقة - الردة.

١١. سب الدين

في الشريعة الإسلامية يقام الحد على من يسب الدين بالقتل ويقام هذا الحد أيضًا على قاطع الطريق.. إلخ.

١٢. القتل

عقوبة القتل القصاص ويملك تخفيفها ورتة القتل باقتضائهم من القاتل مالا يدفعه في مقابل ما أجرته وهو دية الدم. وحوادث القتل تكاد تكون معدومة في القطر المصري.

١٣. الضرب والجرح

تعاقب جناية الضرب والجرح بالقصاص. العين بالعين والسن بالسن.. إلخ.

١٤. الزنا

يقام الحد على الزانى غير المتزوج بالجلد وعلى المحصن بالرجم.

١٥. السرقة

يعاقب السارق بقطع اليد، ولكن ورد في السنة تطبيق هذا الحد على السارق الذى يسرق في ظروف توجب التشديد في عقوبته وشهود الزور في الدعاوى المدنية يشهر بهم بين أهل وطنهم حتى يلحق بهم عار زورهم: أما شهود الزور في الجنايات فيستوجبون على أنفسهم عقوبة الجلد وقد يعاقبون بنفس العقوبة التى تترتب على شهادتهم لو نطق بها في حق المتهم. وحد شارب الخمر الجلد وهذه العقوبة وإن تكن مرعية قانونا في القطر المصرى لا يتأتى تطبيقها إلا في النادر لندرة من يعاقرون بنت الدنان في القطر المصرى.

١٦. الردة

الارتداد عن الديانة الإسلامية جناية ليس بعدها جناية ولذا يعاقب مرتكبها بالقتل ما لم يحلف المرتد ثلاثا بأنه عاد إلى حظيرة دينه.

(٣)

نظام القضاء

القضاة — المحكمة — تنفيذ الأحكام — العقود العامة — المصاريف القضائية — القانون العسكرى — السلطة الاستبدادية التى بيد الباشوات — العقوبات — القضاء عند الافرنج.

١٧. القضاة

السلطة القضائية مستمدة في مصر من ولى الأمر وحده. فهو الذى يرجع إليه اختيار كبار القضاة وتعيينهم، وهؤلاء يباشرون تعيين من دونهم ممن يتولون مناصب القضاء في أرجاء القطر. وبناء على هذه القاعدة فإن السلطان الذى هو ولى الأمر يرسل إلى مصر في كل عام قاضيا كبيرا تمتد سلطته القضائية بحيث تتناول هذا القطر كله وتشمل رياسته المشائخ والمدنيين والنواب وبالجمله أصحاب المناصب القضائية على اختلافهم.

وتتطلب الشريعة الإسلامية ممن يتولى القضاء صفتين أساسيتين. الفضيلة والعلم، وليس لعالم أن يرفض منصب القضاء إذا عرض عليه والقضاة قابلون للعزل من مناصبهم.

١٨. المحكمة

المحكمة هي التي يُنظر فيها القضايا بين الخصوم وتصدر الأحكام ولكل محكمة كاتب أو كتاب يسجلون المرافعات. وليس للخصوم في بلاد الدولة وكلاء يدافعون عنهم أمام المحاكم بل كل خصم يدافع عن نفسه بنصوص الشريعة. والمقرر بوجه عام أن شهادة الشاهدين تقوم مقام الدليل الكامل في جميع القضايا إلا قضايا الزنا فإنه من المحتم لصدور الأحكام فيها من شهادة أربعة شهود تتفق شهادتهم اتفاقا تاما ولا تختلف في شيء، ومن اعتراف الرجل والمرأة به مكررا أربع مرات فقط وإلا فلا دليل على وقوعه.

ولا تنهض شهادة الشاهد الواحد في أية قضية دليلا على إثبات أو نفى، ولا تقبل شهادة النساء إلا في القضايا المدنية والأحكام التي تصدر فيها. ولذا نادرا ما تستأنف. لاسيما وأنها إذا استؤنفت لا تلقى إلا تأييدا. وكل ما هنالك أن الأعوان الموكلين بالتنفيذ إما يوقفون تأثيرها أو يعدلون. والتنفيذ يتم في العادة قورا. وفي المسلمين نزعة إلى احترام أحكام الشريعة الإسلامية ولو داخلها بعض الخطأ أو كانت مبنية على شهادة شهود الزور.

١٩. تنفيذ القوانين

في كتب القضاء الإسلامي، وفيما تقرر بالقياس أحكام صالحة ونصوص حسنة جدا. ولكن ينبغي لكى تأتى بالفوائد والمزايا المقصودة منها أن لا تصدر قوانين مناقضة لها فتذهب بأثرها النافع، وأن يحرص الحرص كله على تنفيذها. وهنا لا أتمالك من الجهر بسوء حالة القضاء في البلاد العثمانية فأقول إنها فيها أسوأ منها في كل بلد سواها، ولا سيما من جهة الحقوق المدنية المعرضة إلى أقطع ما يكون من صنوف العبث والاعتيال.

فإن القضاة يحورون من أحكامهم بحسب ما يرونه من مكانة المتقاضين محاباة لهم، أو بحسب ما يدلى هؤلاء إليهم به من المال فإنهم في بعض الأحيان يبيعون أحكامهم بيعا لصالح من يتفوق على خصمه في المزايدة. ومن

الفاضح بعد هذا وذاك تواتر شهادات الزور. فقد سبق أن قلنا إن شهادة شاهدين تقوم شرعا مقام الدليل. فليس أسهل على المدعى عليه أو المتهم من العثور على شاهدين يبيعان ذمتهما بالمال.

وقبل أن تسند الولاية إلى محمد على كان القضاء في أشد من هذه الحالة اختلالا وظلما. إذ كان يقوم مقامه استبداد الباشوات والبكوات وصغار الرؤساء وغيرهم ممن يفتاتون على حقوق القضاء وضماناته لقضاء أوطارهم.

٢٠. العقود العمومية

أعمال المأذونين في العقود من اختصاص القضاة بمصر. فالقاضي هو الذي يتولى تحرير عقود بيع العقارات بين أفراد الملاك في مقابل رسم يتقاضاه لا يزيد على ٢٪. وهذه العقود ويسميتها المصريون «الحجج»، مشمولة بختم القاضي وأصولها تبقى محفوظة ضمن أوراق المحكمة في خزانة دفاترها.

٢١. المصاريف القضائية

لا تتجاوز المصاريف القضائية بمصر أربعة في المائة. لأن إجراءات القضاء بسيطة في ذاتها ولا التباك فيها، فضلا عن أنها تنجز بسرعة. والمحكوم عليه في القضية - أي الخصم الخاسر هو الملزم بدفعها فورا بالجلسة. ومفهوم أن ما يستفيد القضاة عادة من التصرف في القضايا بحسب أهوائهم ومصالحهم كثيرا ما يبلغ مبلغا جسيما.

٢٢. القانون العسكرى

لم يكن باستطاعة محمد على إدخال شىء من الإصلاح على حالة القضاء في الشئون المدنية نظرا لارتباطها الارتباط الوثيق بالدين. وكان بلا ريب يعلم ما يعتور هذه الحالة من الخلل والنقص فترك حبلا على غاربها وتحامى التصدى لها خيفة الاعتراض والتهمة بالجنوح إلى المساس بالدين. ولكنه لما أتم تنظيم الجيش المصرى لم يتوان في اتخاذ القانون العسكرى الفرنسى قانونا له، وزاد على ذلك أن أنشأ مجلسا مختلطا للتجارة دخل في عضويته نواب عن الجاليات الأوروبية.

٢٣ - سلطة الباشوات الاستبدادية

من المسلم به أن سمو الباشوات اضطر في ظروف خطيرة وأحوال ذات بال ولا سيما في إبان ولايته حينما كانت سلطته غير راسية القواعد ولا وطيذة الأركان إلى تنفيذ الإعدام، بلا مدعاة ولا مقاضاة، في بعض دعاة الفتنة من الألبانيين أو غيرهم. ومما لا ريب فيه أن رمى عنق رجل واحد كثيرا ما يؤدي إلى انقاذ ألوف من الأرواح. ولست أتطلع بهذا القول إلى تحبيذ الأسلوب الذي يجعل حياة أحد الأفراد تحت رحمة أمير أو قيد إرادة زعيم. كلا بل أقدر مزايا الإجراءات القضائية الممهدة للأحكام عند الأمم المتمدنية وما توليه من الحماية والضمانة للهيئة الاجتماعية. ولكن إذا كانت الأمة أمة خيم عليها الجهل ورائت عليها الهمجية فلن يؤثر فيها من أساليب المعاملات إلا الشديد النكاية المكفول النتيجة المقصودة من الشدة والعسف. وفي مثل هذه الحالة لاجناح على الحاكم مادام الغرض الذي يسمو إليه تأييد قضية الحضارة ورفع شأنها.

ولقد جربنا في بلاد الجزائر ما أيد يقيننا في عدم الفائدة من المحاسنة والسير بمقتضى القانون ودفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا غالب على أمر سكانها من القبائل المتوحشة المتعصبة سوى إقامة حكومة عسكرية ومجالس حربية بينهم. أما وسائل الرفق والحسنى التى يدعو إليها حب الإنسانية نحو أناس يجهلون الأماكن والأشياء والأشخاص فمن شأنها أن تؤدي إلى إراقة الدماء واستنزال الكوارث وليس كلاهما من الأمثلة = المثل = العليا التى ترنو إليها الإنسانية.

٢٤ - العقوبات

رأينا حين الكلام على الحدود في الشريعة الإسلامية ما هى أصناف العقوبات التى توقع في القطر المصرى على المجرمين وقلنا إنها تنحصر في الجلد والقصاص. ونقول الآن إن النساء لا تطبق عليهن. العقوبات التى تطبق على الرجال فهن لا يشنقن ولا ترمى أعناقهن بل يوضعن، إذا صدرت

الأحكام عليهن بالإعدام، في الأكياس ويلقيهن في الماء ليغرقن. والشنق ورمى الأعناق والخوزقة عقوبات الجرائم الغليظة. وكان الباشوات والزعماء في الزمن السابق بما عرف عنهم من القسوة والجور يتفنونون في استنباط وسائل للتعذيب هي أفظع ما مر بخاطري ومن ثم لا يسع أحد أن يتذكر ما ارتكبه أحمد باشا الجزار من الفظائع حينما مثل بنحو الثلث من سكان عكا إلا ويقشعر بدنه فزعا وجزعا.

٢٥- القضاء عند الإفرنج

مفهوم أن الأوروبيين في الشرق ليسوا خاضعين للقضاء العثماني. لأن الامتيازات الأجنبية تجعلهم في منجاة من هذا القضاء وتابعين لقضاء قناصلهم. وقد أصبح من اختصاص القنصليات الفرنسية في تلك البلاد - بمقتضى أمر جديد - النظر في قضايا الفرنسيين. وحبذا هذه الطريقة. لأن اختصاص القناصل كان في السابق مقتصرا على تحقيق القضية التي يتعلق النظر فيها بمحاكم فرنسا حيث يتعذر استدعاء الشهود. وهذه الحالة التي ما برحت مرعية بالنسبة للجاليات الأوروبية الأخرى من شأنها أن تكفل للمجرم الفرار من العقوبة. وفي الواقع فإنك لاتزال ترى في الشرق مجرمين ارتكبوا القتل يطلق سراحهم بالنظر إلى ما هنالك من تعذر محاكمتهم في بلادهم.

أخلاق المسلمين وعاداتهم

(١) الطبقات الاجتماعية

اعتبارات عامة - الأتراك والعرب - الطبقات الاجتماعية عند
المصريين - الطبقة الوسطى - العمال - الفلاحون.

١- اعتبارات عامة

من المقدور لمصر أن تحمل في كل شأن من شئونها طابعا خاصا بها لا يشبهها فيه شيء بالبلدان والأقطار الأخرى. مثال ذلك أن تكون الهيئة الاجتماعية فيها لم يتمش في الطريق الذى تمشى فيه هذا التكون بغيرها من البلدان ولاسيما الأوربية في الأبحر والمدنية. فإن الأمم العربية تكونت على أثر تخلصها من الغارات والفتوحات، فهي إذن ثمرة اندماج الأجناس الغالبة بالأجناس المغلوبة على أمرها. وكانت تتكون من الفاتحين الغالبين في مبدأ الأمر طبقة ممتازة، ثم قامت بينهم وبين عامة الشعب طبقة وسطى أخذ نفوذها يمتد شيئا فشيئا بما برعت فيه من العلوم والفنون والصنائع وبذلته من الجهود التى لا تعرف الملل في إنجاز الأعمال حتى إذا بلغت إلى مستوى الطبقة الشريفة حصلت على المساواة بها في الشئون المدنية أو هيأت بالأقل هذا الفتح الأدبى المبين الذى يظهر أن سيكون من حظ الهيئات الاجتماعية الحديثة القيام بمثله في جميع أنحاء العالم.

فإن الشعوب القاطنة في وادى النيل لم ينقصهم الفاتحون. إذ يظهر أنهم مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم. ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضحة نير العبودية في أعناق تلك الشعوب، ثم

جاء الفتح الفارسي وتلاه الفتح اليوناني الذي لم يلبث أن حل محله الفتح الروماني فالفتح العربي فحكم المماليك والأتراك. فلم يطرأ في خلال هذه الأدوار ما يغير من شأن الأمة المصرية. لأنها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نير تسلطهم وتحكمهم فيها. ولم يرد في أخبارها السابقة ما دل على أنها كانت ذات أثر في شئوننا الخاصة ولا مداخلة في مصيرها. (١)

٢. الأتراك والعرب

بالرغم من أن مؤسس الدين الإسلامي لم يجعل بين المسلمين فروقا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض. وأنه لا يوجد في الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة، فإن في مصر فريقين يختلفان أحدهما عن الآخر — بصرف النظر عما يربطهما من جامعة الدين — اختلافًا حال دون اختلاطهما ببعضهما. أحدهما الفريق الذي بيده السيطرة والحكم يتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم والتكريم ويستقل بقوائدهما، والفريق الثاني هو المقضى عليه الخضوع والخنوع للفريق الأول ويصيبه عار ذلك وما يفرض عليه من الكلف الباهظة. ذلك الفريق هو العنصر التركي، وهذا هو العنصر المصري العربي.

هذه الحالة القائمة في مصر المشهودة من كل ذي عينين إنما هي نتيجة ماضٍ موغل في القدم إلى مدى أربعين جيلًا. فمن المتعذر أن تتغير فجأة بوقوع ثورة فجائية. لهذا كان من الواجب الاحتراز من إلقاء مسئولية بقائها واستمرارها على عواهن محمد علي باشا. إذ إن جميع العقلاء غير المتحيزين إلى الغرض يقرون بأن هذا الوالي قد بذل بالعكس كل ما في وسعه لتغيير تلك الحالة أو تعديلها طبقًا لمقتضيات الظروف. فمحمد علي هو العثماني الوحيد الذي عمل على رفع القومية العربية إلى المستوى الذي هي جديرة به، فإنه بدأ بنشر نعمة التعليم بين أفرادها. وأرسل إلى مدارس أوروبا، وعلى الخصوص فرنسا، وجامعاتها طلابًا من العرب لدراسة علومنا والاطلاع على أفكارنا والانطباع بطابع مدنيّتنا. ثم أنه — وهو أمر في الغاية القصوى من الأهمية — ضرب الأتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بالجيوش المصرية العربية التي ألفها من أبناء البلاد، وذلك بالرغم من خضوعهم لهم مدة ثلاثة قرون.

(١) : الناشر : نسى المؤلف الفترة الفرعونية التي كانت مصر فيها سيدة نفسها وسيدة منطقة البحر المتوسط . خاصة أيام الفراعنة العظام أمثال تحتمس ورمسيس .

ومن عادة الفوز في الحروب إكساب الفائز احترام الغير وإحلاله شرائف الرتب. وإن أنس لا أنسى أن أقول أن المجد الذى يظفر به المنتصر بحد السنان تاج يعلو مفرق الشعوب المنتصرة ويرفع مكانتها ويعلى شأنها. وعلى هذا الاعتبار فإن الانتصارات الأربعة التى فاز بها محمد على ووثق بها أركان ملكه لابد أن سيكون لها أثر فعال فى إعادة القومية العربية إلى سالف مجدها. يضاف إلى هذا أن سموه عهد فى مختلف إدارات حكومته إلى المصريين الوطنيين عددا عظيما من الوظائف واختار من بينهم جميع ضباط جيوشه إلى درجة أمير الالاي.

٣. الطبقات الاجتماعية عند المصريين

ينقسم العنصر المصرى الأصيل إلى عدة طبقات. الأولى منها طبقة العلماء وهم يتوارثون تقاليدها وخطتها عن الآباء والأجداد ويؤلفون بذلك الطبقة العليا من الأمة. وكان لهم فى عهد سبق تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة أرائها فكانوا هم الذين يحرضونها على الحركات السياسية والفتن ويصدونها عنها إذا أرادوا. غير أن الوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عاليه سافله إذ انتزع من أيديهم الأملاك الواسعة التى ابتزوها من الأمة بطريق الاستفادة بما جاءت عليه من جهل وأوهام فاسدة. فأصبحوا لهذا الأسباب ولا شئ بيدهم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكومة التى يمكن أن يقال إن الممسك بأغنتها إنما هو العنصر العثمانى.

أما الطبقة الثانية فتتألف من الملاك والتجار كبارا وصغارا وأفرادها قليلو العدد لأنها لا تحتوى بوجه عام إلا ذوى الثروات المتوسطة. غير أن الأزمة التى تجتازها مصر الآن قد رفعت على ما يظهر من شأنها وإلى ذوى النفوذ والجاه من أفرادها عهدت مراكز القيادة الكبرى فى الحرس الوطنى، وهو الحرس الذى أنشأه محمد على فى مدائن الوجه البحرى.

أما الطبقة الثالثة فطبقة العمال والصناع. وينقسم أربابها إلى طوائف عديدة مختلفة تتولى بنفسها إدارة شئونها فى الدائرة التى تتبعها. ولها أنظمة خاصة وعادات لا تتعدها ورؤساء أو مشائخ يقبضون على زمامها. ومما يدخل فى إدارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد جدا.

أما الطبقة الرابعة وهى تتألف من المزارعين الفلاحين فمنها يتكون

الشرط الأكبر من الأمة، وستتاح لنا فرصة الكلام عنها مرارا في هذا الصدد.

(٢) الأسرة الإسلامية

السلطة الأبوية - احترام الزوجة لرب الأسرة - احترام الأبناء والدهم - السلطة بين الإخوة - احترام الصغار للكبار والمرءوس للرئيس.

٤ - يمكن القول بأن الأخلاق والعادات في الشرق لم يطرأ عليهما تغيير أساسي ما. فإن الصفة المميزة للحضارة الشرقية ترجع إلى أمرين: أحدهما احترام التقاليد، والثاني استقرار الأفكار والعقائد الدينية والعادات. ولهذا كانت الحضارة الشرقية مخالفة لحضارتنا التي يميزها عنها النشاط والحركة والعمل المتواصل، والتخلص من استبداد القوانين القديمة والعادات التي أكل الدهر عليها وشرب والوقوف في المدارس على حركة التقدم الحديث وعدم الثقة إلا بالحاضر وعدم الانصراف إلا إلى شيء واحد ألا هو المستقبل.

٥. السلطة الأبوية

من الأسرة الشرقية يتضوع شذا التقاليد القديمة الذي يحجب إلينا إلى الدرجة القصوى البحث في شئونها، فإن الأسرة الإسلامية قد حفظت كيائها المبني على السلطة الأبوية. وغير خاف أن مؤسس الديانة الإسلامية ولد في قوم يفتخرون بأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وعاشوا - ولا يزالون عائشين برمتهم تقريبا على البداوة الأولى فكان بدهيا أن يخص الأسرة بشطر واف من الأنشطة الدينية. خصوصا وأن مهمة الأسرة عند الشعوب الشرقية على جانب عظيم من الخطورة والأهمية. ومن ثم كان للسلطة الأبوية في الشرق جزء من النفوذ العظيم الذي كان لها في عهد قيامها بين قبائل العرب وشعوبها.

وعلى هذا الاعتبار فالأب هو الرئيس الأعلى للأسرة وله بهذا الوصف السلطة المطلقة على زوجته وأولاده وأقاربه إناثا وذكرانا. وكل هؤلاء مطالبون بالاحترام الجم له والطاعة لأوامره وحياطته بصنوف العناية والرعاية. وهذه

السلطة الوالدية التى تخضع لها الأسرة برمتها شائعة فى سائر الطبقات الاجتماعية للأمة ، وشأنها فى أسر الأمراء ، ومن ثم إنها فى أسر المستضعفين والفقراء.

٦. احترام الزوجة لرب الأسرة

تعنى المرأة فى علاقاتها مع زوجها بإظهار الاحترام الكلى له. فليس لها أن تظهر نحوه بما هو مألوف فى الغرب من عدم الكلفة - أى الإشارة الوحيدة للتساوى بين الزوجين. فإنها فى غالب الأحوال تقف أمام زوجها لتتلقى أوامره وتدعوه إذا دعت به بياسيدى. ولها من العناية بشئونه والمداواة له ما لا يصح أن يطلب من الخادم فضلا عن الزوجة. ومع هذا فإن قيامها بهذه الواجبات ليس مما يشق عليها لاعتيادها فناء ذاتها فى ذات زوجها. فلا يكون همها فى الحياة إلا اتخاذ الوسائل لنيل رضائه عنها والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له.

وهذه الصفات المبنية على التواضع والإخلاص هى التى رأينا نساء العصور السالفة مقيمات عليها. كما يؤخذ من الحكايات الواردة فى التوراة.

٧. احترام الأبناء لأبائهم

مفروض على الأبناء توقير أبائهم والطاعة لهم. لهذا تراهم يلثمون يمينهم ويؤدون إليهم من علامات الاحترام. والخضوع مايدل على برهم بهم، ولا يجلسون فى حضرتهم إلا إذا أذنوا بالجلوس لهم ولا يتكلمون إلا جوابا على سؤال ويمسكون عن التدخين وشرب القهوة فى حضرتهم^(١) ولا تظهر على علاقتهم بهم مسحة من الحرية وارتفاع الكلفة إلا بعد زواجهم وكما يحترمون الآباء تراهم يوقرون الأمهات ويتحينون الفرص لإظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم.

٨. السلطة التى لأبى الأبناء على إخوته

الروابط بين الأبناء يسوسها مبدأ رئاسة الكبير منهم على الصغير.

(١) مرتبة منه بمقتضى نظام الدرجات إذ كان بصفته واليا على مكة أول ولاية الدولة العثمانية وأشرفهم رتبة وأعلام مقاما ، وكان فرق هذا وذاك قائدا مكللا بأكاليل الفخر العسكرى والفرز فى الحروب ومع هذا فكان فى حضرة والده يظهر نحوه من علائم الطاعة والاحترام ما تقتضى الآداب الإسلامية به على الصغير نحو الكبير والمرءوس نحو الرئيس.

فالأصغر سنا مطالب بالطاعة والاحترام للأكبر سنا وللأكبر حق الرئاسة في الأسرة بعد الأب لأن هذا الحق يؤول إليه طبعاً عقب وفاة رب الأسرة. وأفراد الأسرة جميعاً يحترمون ما بينهم من أواصر القرابة ويقدرونها على حد اعتبارهم اليمين التي يقسمونها بحياة جد أو جدة أو أب أو أم.. إلخ مما يجب عدم الحنث فيه وإذا لم يكن أحد هؤلاء على قيد الحياة فإنهم يحلفون بقبره..

٩. احترام الصغير للكبير والرئيس للمرعوس

إن ما ذكرناه من الأخلاق البيئية أثر تأثيراً كبيراً في الهيئة الاجتماعية الإسلامية، إذ جعل احترام الكبار ضربة لازب = حق واجب = على الصغار حتى أصبح هؤلاء لا يفرقون في الاحترام بينهم وأبائهم وهم إذا خاطبوا في أمر أو حدثوا عنهم أطلقوا عليهم وصف الوالد أو الشيخ. ولم تكن الفروق في السنين وحدها من بواعث التأثير في الروابط الاجتماعية فإن للفروق في الرتب والتفاوت في الدرجات تأثيراً مثله، فمظهر طاعة الطبقات الدنيا صيغ أدبية خاصة ينمقون بها عباراتهم.

ومن هذا القبيل أنه إذا مر أحد من الأعيان أو ذوى الحثيات بهم ألقوا من أيديهم الأدوات التي يدخنون بها أو انقطعوا عن أعمالهم ثم وقفوا ينتظرون باحترام أن يلقي المار الكريم العظيم عليهم تحيته. وإذا وجه مرعوس خطاباً إلى رئيسه دعاه بالأستاذ أو السيد أو الوالد. أما إذا وجهه إلى نظيره سماه بالأخ، وهكذا بحيث يخيّل لمن يشهد هذه المناظر أو يسمع هذه الأقوال أن المجتمع الإسلامي أسرة واحدة تربط أعضائها جميعاً قرابة عامة ضمن أسلوب يقتضى طاعة الأصغر للأكبر في ظلال السلطة الأبوية الشاملة.

(٣)

الرق في الشرق

الرق في الغرب - الرق في الشرق - الرقيق الأبيض - الرقيق الأسود - حالة الأرقاء - الأرقاء من النساء - ديانة الأرقاء - سلوك الأوروبيين نحو أقرانهم في مصر - أقوال مقتبسة من الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالرقيق والنخاسة وعتق الأرقاء.

١٠. الرق في الغرب

إن سمو الأخلاق وارتقاء الآداب بفضل انتشار الديانة المسيحية أديا إلى استهجان مبدأ الرق وتحقيره في ذاته واعتباره جريمة ضد الجنس البشرى كله. وقد جعلت الفظائع التى ارتكبت، سواء فى العصور القديمة أو الحديثة ضد التعساء الذين ساقهم الشقاء إلى السقوط فى هذه الهاوية اسم الرق ممقوتا ومبغضا عند الناس أجمعين. لذا سيكون من أكبر بواعث الفخار لهذا الجيل أن يقضى على تلك التجارة الشنعاء التى كانت ولا تزال تملأ أسواق النخاسين فى المستعمرات الأوربية، وأن يحرر أولئك الإفريقيين الذين نقلوا إلى أمريكا ليزوقوا بها عذاب الاسترقاق فى أحوال ينفطر لها القلب وتنهمر بسببها دموع ذوى الرفق بالإنسانية.

١١. الرق فى الشرق

إن حب الكسب الذى أوجد من العدم أسواقا للنخاسة فى المستعمرات وجعل هذه التجارة رائجة فيها أفضى بها إلى حالة من الأحوال التى تتقزز النفس عند ذكرها وتنبو الأبصار عن مشاهدتها. إلى حد أننى لا أود استعمال لفظة الاسترقاق للدلالة على الاستعباد الواقع فى بلاد الشرق من بعض الناس على إخوانهم فى الإنسانية. فإن هناك فى الحقيقة فرقا باليا بين الاستعباد الأمريكى والاسترقاق الشرقى. فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة القاسية أو الحاطة من قدر الإنسان لأنهم لا يرون فى الرقيق متاعا أو شيئا ماديا كما كان الرومانيون فى قديم الزمان يرونه كذلك بحسب قوانينهم، كما أنهم لا يتخذونه صنفا من الأصناف التى يجرى عليها التصدير والتوريد وتكون موضوعا للمضاربات فى طلب المزيد من الربح بالتصرف فيها ببيعاً وشراءً ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الآلات بالأحصنة. فان المستعمر الغربى لا ينظر إلى العبد الأسود إلا من جهة قيمته المادية ناسيا أنه إنسان مثله ذو آداب وفضائل فيكون فعله هذا باعثا على تغيير ذاتيته وتحويل طبيعته.

أما المسلم فإنه على العكس مما تقدم يرى فى رقيقه إنسانا مثله لا يختلف عنه فى شيء ما. فلذلك يعامله بحيث يخيّل للواقف على طرائق هذه المعاملة أن الرق الشرقى لم يكن الا تبنييا صحيحا للرقيق وأن هذا الأخير يندرج

باسترقاقه في سلك الأسرة التي اشترته بمالها.

١٢. الرقيق الأبيض

بمصر فريقان من الأرقاء. فريق أبيض والآخر أسود، أما الفريق الأول فهم الذين أسروا في الحرب أو باعهم أبائهم ببلاد الجركس. والموجودون منهم في أسواق النخاسة قليلو العدد منذ اتسعت فتوحات روسيا حتى تناولت تلك الأصقاع. وكان الله سخر هذه الدولة لمعاقة أقوام القوقاز الذين درجوا منذ زمان بعيد على توريد النساء إلى دور الأغنياء في الشرق بالرغم من الشرائع السماوية والوضعية المحتتم إتباعها. وفي مصر بعض أرقاء من اليونان أخذوا أثناء حرب استقلال البلاد اليونانية.

١٣. الرقيق الأسود

أما الأرقاء السودانيون والحباشان فكثيرو العدد جدا وهم عبارة عن الأسرى الذين أسرهم أقوام أفريقية الداخلية وشعوبها أثناء الحروب التي يشب بينهم ضرامها. ولم يقل أحد إن هؤلاء الأرقاء باعهم أهلهم للنخاسين. وهو ما يؤخذ منه أن الشعور بمقتضيات النواميس الطبيعية أعلق بأفئده أولئك المتوحشين منه بأفئدة الجراكسة الذين حاول بعض المتأخرين من الكتاب تصويرهم في صورة يفهم منها أنهم سلالة من الأبطال على جانب عظيم من العزة والشرف وكرامة النفس.

١٤. حالة الأرقاء

ليست حالة هؤلاء الأرقاء في شيء من الرداءة كما يتبادر إلى خاطر أول وهلة. إذ كثيرا ما تكون هذه الحالة سببا في ارتقائهم إلى مستوى لم يكونوا ببالية لو جمدوا على حالتهم الأولى. فإن الأرقاء البيض يستطيعون الصعود إلى أعلى المراتب في الهيئة الاجتماعية والخلول في الوظائف الكبيرة والمراكز السامية، ومع أن الأرقاء السود قضى عليهم لونهم الأسود بمزاولة الأعمال الدنيئة. فإنهم يحظون من الهناء والسعادة والنعيم بما لم يخطر ببالهم أن يتوقعوا الحظوة به لو بقوا على فطرتهم الأولى، وهناك أمثال كثيرة يفهم منها أن كثيرين من السودانيين نالوا شرائف الرتب وبلغوا إلى أرفع المناصب وتحلوا برتبة البيكوية. فما الاسترقاق بالنسبة إليهم في الحقيقة إلا حياة جديدة كتبت لهم في لوح القدر ونجاة لهم من الموت. ذلك لأنهم بعد أسرهم

يذبحون بلا رحمة بأيدي المتغلبين عليهم إذا لم يتقدم النخاسون لشرائهم بالمال.

قلنا فيما تقدم أن الاسترقاق في الشرق سلم للتبني والاندراج في سلك أعضاء الأسرة. فإن المسلم الذي يشتري رقيقا في سن الطفولة يأخذه من سوق النخاسين عاريا من الثياب قذرا محروما من وسائل العناية اللازمة للأطفال. فهو بشرائه إياه يلتقط طفلا مهجورا ليقوم على تربيته لوجه الله وطلب مثوبته. ولا يقتصر على السلطة المادية التي يخوله إياها حق ملكيته ذلك الرقيق الصغير، بل يؤيد هذا الحق بما يتخذه حياله من وسائل العناية بأمره والسهر على تربيته. إذ يبدأ بتعليمه فروض الدين وإيقافه على قواعد القراءة والكتابة حتى إذا شب وترعرع وكل به أمر تعمير شبكه أو تهئية قهوته أو تجهيز فرشه - أى جعله إما شبكجيا أو قهوجيا أو فراشا. فإذا كان مالك الرقيق سريا غنيا اتخذه خزاندارا له أو كاتباً أو سلحدارا أو كيخيا (قيما على شئونه) وربما زوجه بعد ذلك من إحدى جواريه غالبا ومن ابنته أحيانا.

وعلى هذا المثال ترى أن الاسترقاق الشرقي يتحول في ظل هذه الأخلاق الأبوية التي امتاز بها الشرقيون إلى صفة مغايرة وجدناه إليه في الديار الأمريكية. دع أن في الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بحماية الرقيق من جور مولاه وتكفل له الاعتصام من قسوته وعسفه وتظله بجناح الحماية والرعاية الواجبتين على المؤمنين للضعفاء. ولم يكن اختلاف المعاملة هو ما استوجب دهشتي، فإن الاسترقاق الشرقي يبين الاسترقاق عندنا مباينة تشرف الأول وتفضله على الثاني لاسيما وأنه يحترم الكرامة الإنسانية ويؤيدها.

فالرقيق في البلاد الإسلامية لا يرى في مركزه الاجتماعي ما يغض من كرامته ويحط من منزلته. بل إنه غالبا ما يفتخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق عادة على سيده لقب الوالد، ويعلم علم اليقين أنه لن يبقى إلى الأبد راسفا في أغلال حالته الرقية لأنه يرى أمامه من الأمثال ما يحرك في نفسه ساكن الطمع ويصرف أمله إلى الغايات البعيدة والمقاصد العالية. وحسبنا دليلا على ذلك جماعة المماليك الذين وضعوا أيديهم قرونا عدة على زمام الحكم في مصر. فإنهم لم يكونوا سوى أرقاء اشتروا بالمال

لا فرق بين السيد والمسود منهم فعلى بك ومراد بك وإبراهيم بك كانوا أرقاء حصلت عليهم المساومة في أسواق النخاسة وهذا الصدر الأعظم الحالى للدولة العثمانية الشيخ القانى خسرو باشا لم يرق إلى منصبه السامى إلا بعد أن بيع في أسواق النخاسة واشترى بالمال. وكذا كان خليل باشا وسعيد باشا، وأحدهما صهر السلطان محمود، والآخر زوج أخت السلطان عبدالمجيد ووزير في الباب العالى فإنهما من الرقيق وصل بهما الجد إلى تلك الرتب الشريفة والمساند الرفيعة. والتقط السلطان محمود من شوارع الآستانة حافظ الجركسى واتخذة سر عسكر لجيشه الأخير.

أما في مصر فالسواد الأعظم من كبار الضباط في الجيش أرقاء فكنت رقابهم. وقد رأيت بعينى رأسى في أسواق الجلاية بالقاهرة أرقاء من اليونان انتزعوا من وطنهم في الوقت الذى كان هذا الوطن فيه على وشك الفوز باستقلاله ثم رأيتهم بعد ذلك وقد احتلوا المناصب السامية في النظامين الملكى والعسكرى. وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن أسرهم، بصرف النظر عما سببه من الآلام لأهلهم وعما كان هؤلاء يتمنونونه من مشاهدتهم راتعين معهم في حبوكة الاستقلال التام ومتقلبين على مهاد الحرية، لم يكن مصابا حل بهم، بل نعمة سابعة وخيرا جزيلا.

١٥. الرقيق من النساء

النساء اللائى يسترققن ويدخلن في حوزة من يشترونهن بالمال يتصلن بخدمة حرمهم، وربما اتخذوهن زوجات لهم أو زوجوهن من أبناءهم أو ضباطهم أو بعض المنتمين إليهم بعد تجهيزهم إياهن بما يلزمهن في معيشتهن المقبلة من الامتعة والأثاث. وسلاطين آل عثمان لا يقترون عادة إلا بجوارى الرق، وكذا الحال بالنسبة إلى سمو وإلى مصر وأبنائه.

وكثيرا ما يشاهد في البيت الواحد الجوارى السود والجوارى البيض ويتزوج مولاهن بجارية جركسية منهن وأخرى حبشية وثالثة سودانية من بنات دارفور. ويرى في هذه الحالة صارفا كل همته إلى العناية بهن وأبنائهن على وتيرة واحدة ونمط لا يتغير محافظا على العدل بينهن، ويندر أن يتخذ الأبيض جارية سوداء زوجة له أو أن تتزوج البيضاء من عبد أسود في الأسر

الكبيرة والبيوتات ذات الشأن.

١٦. ديانة الأرقاء

من مستتبعات الاسترقاق في الشرق ونتائجه تحويل عقيدة الأرقاء ذكورا وإناثا إلى العقيدة الإسلامية ولعل في شغف المسلمين وسعيهم المتواصل لتحويل الناس جميعا إلى عقيدتهم الدينية ما يعلل عدم إجازتهم للمسيحيين اتخاذ الرقيق إناثا وذكورا. واهتمامهم بأمر دينهم على هذا المثال خليق بالإعجاب من حيث دلالة على أن الشرقيين يرون في أقاربهم أهلا لمشاطرتهم السعادة المقبلة التي وعد بها المؤمنون في القرآن ويعترفون صراحة بالمساواة بين الناس جميعا أمام الخالق مساواة تسرى بالطبع عليهم في سائر شئون الحياة ومرافقها. وبالرغم من ذلك فإن المسيحيين يتمتعون في مصر بأوسع وأعظم مما يتمتع به أمثالهم في بقية بلاد المملكة العثمانية فقد منحوا الحرية في شراء الأرقاء من العبيد والجواري وبيعهم، وتوسع بعضهم في الانتفاع بهذا الإذن فتمكنوا، مع الاحتياط والحذر، من إدخال الجواري الجركسيات في حرمهم.

١٧. معاملة الأوربيين للأرقاء في مصر

أجيز للأوربيين بفضل ما أظهره محمد على من التسامح والتساهل في معاملتهم اقتناء الأرقاء كغيرهم. وأول ما يقع في خاطر عند سماع هذا القول أن الإرقاء إذا صاروا إلى حوزة الأوربيين - أي إلى قوم تنكر حكومات بلادهم الاسترقاق وتعمل على محو أثره وتقول بإكرام النزيل ومنح الحرية لمن يسألها، أصبحوا في لسان = تسعة ورعاء = من العيش ورفاهه. وهو خطأ بئس وهم فاسد يسوق إليهما حسن الظن. فإن أولئك الأوربيين الذين كلما عن لهم الكلام على المسلمين يلصقون بهم عار التوحش والهمجية ويقرنون القول في حقهم بعلامات الازدراء والتحقير نادرا ما يوفقون بين معاملتهم الشائنة لأرقائهم وما يتبجحون به من الكلام الفارغ في عطفهم على الإنسانية.

فإن الكثيرين منهم إذا اقتنوا الرقيق سرعان ما يهملون ببيعه التماس الربح، أو المقايضة عليه بغيره أو ببضاعة، ولقد يكون لمثل هذا التصرف ما

يسوغه في حدود معينة وأحوال خاصة وإنما على شريطة أن لا يكون القصد من البيع والمقايضة طمعاً في ربح. وأنه لمن والتناهى في جفاء الطبع فك رقبة الرقيق الصغير السن مع العلم بعجزه، إذا ترك وشأنه، عن كسب ما يسد به الخلة من عرق جبينه. فعتقه وتلك حالته من القصور عن مداركة حاجة لمحض الرغبة في الخلاص منه قسوة لا مبرر لها وجريمة في حق الإنسانية لا تغتفر بل هبوط إلى درك الوالد الذى يطرد ولده من بيته من غير ما جرم آتاه.

أما بيع الرقيق القدير على كسب حياته بالكد فتجارة مزرية بالشرف حاطة من الكرامة. فإذا قيل إن من الافرنج من يزاولون هذه التجارة فإننا نقول نعم وقد وصموا الإنسانية بعار لا يمحي. ولسنا ندرى بأى حكم يقضى عليهم إذا أثبتنا هنا أن منهم من يبيعون جواريتهم حاملات منهم فكانهم بهذه الفعلة الشنعاء يلقون أبناءهم بأيديهم في وهدة الاسترقاق بدون أن يزعمهم وازع الضمير أو يردعهم رادع الترقق للإنسانية. وإن اللسان ليعجز عن وصف هذه النقائص الشائنة بل الآثام الفظيعة، وإن الافئدة لتمتلئ بالسخط والنقمة على مرتكبيها.

ولاشك في أن الشرقيين إذا رأوا أولئك المتجرين بنسائهم وبما تحمله بطونهم من أبنائهم بعد أن عرفوا بعض الشيء من أمرهم ليحق لهم أن يشمخوا بأنوفهم ويفتخروا بهمجيتهم الفاضلة، ويحتقروا مدنيتهما التى دنسها أولئك الأشقياء بما لا يمحي على مر الأجيال من دناءاتهم.

وهذه المخازى لاتنفى وجود لفيف من الأوربيين يعاملون أرقاءهم عبدا وجوارى بما تقتضيه المروءة من الرحمة والرفق ويعترفون بأبنائهم ممن ملكت أيمانهم من الجوارى ويطرفون عن ارتكاب المقايح واحترام الآثار الغليظة التى لا تتفق وأخلاقنا وديانتنا ومبادئنا الاجتماعية التى تنتزه عن تلك النقائص كلها.

ويدفع الطيش والنزق أحيانا بعض السياح الذين يزورون مصر إلى ارتكاب ما لا يقل عما ذكرته الآن من المخازى والمقايح. فإن البعض منهم يزورون أسواق الجلايين لمجرد الاطلاع على شىء سمعوا به ولم يروه - كما هو شأنهم في كل أمر مستغرب - فإذا أعجبتهم سودانية أو حبشية أو غيرها

اشتروها بقليل من المال أيضا إرضاء لشهواتهم وجريا وراء أهوائهم حتى إذا قضوا منهم وطرا وظنوا أن من آيات الإحسان نحو هاته الشقيات البائسات اللاتي أطفأوا فيهن جمرة شهواتهم الزائلة أطلقوا سراحهن بالاعتاق ولكنهم نسوا أن تحرير الرقيق في بلد لا تستطيع المرأة فيه أن تعيش إلا في ظل الرجل وبفضل قيامه بنفسه على شئونها يدفع بها إلى أسوأ حالات الفقر والفاقة بل يلقي بها في هاوية العهر والدعارة. فترى من ثم أن طيش بعض الرحالة الأوروبيين، وهو طيش مبني على حب الذات، كان سببا في نظر المسلمين إلى أخلاقنا وعاداتنا بعين المقت والاحتقار.

وإنى لالفت النظر إلى ما ينجم من النتائج المحزنة عن مباشرة الغربيين للاسترقاق على الأسلوب الشرقي فانهم يضرون به الأرقاء ويسيطون إليهم في معيشتهم وأخلاقهم ومستقبلهم، بينما المسلمون يعاملونهم بما ذكرناه من العطف واللفظ والإحسان.

والواجب أن توسم النزعات المخجلة التي انحدر الأوروبيون في تيارها بين أمة لا تعرف شيئا من عاداتنا وأخلاقنا بالعار والخزى. وإلا اضطرت هذه الأمة إلى الوقوف في موقف الاحتياط والتحفظ إزاء المدنية الغربية والاستمسك بالمدنية التي تفخر بالانتماء إليها، ومواصلة العمل لإثبات سموها على مدنيتنا في الوقت الذي ينبغي فيه أن تكون لفظة الأفرنجي محفوفة بمظاهر الكرامة والرفعة في أعين المسلمين. ومن كبائر الإثم أن تستنزل على هذه اللفظة عبارات التحقير وأن تلوث بلوث الإهانة والتصغير بسبب فعال تلك الطائفة الخرقاء.

وأختم هذا الفصل بفقرات مقتبسة من كتب الشريعة الإسلامية يجد القارئ فيها بيانات مهمة تكشف الستار عن وجهة النظر الشرعية في الاسترقاق وإنهاء الحرب. فإذا جاء الاسترقاق من غير طريقها كان ظلما وعدوانا واقتاتا.

١٨ - مقتبسات في الرق وتجارته والعق

إذا أفضت الحرب إلى وقوع بعض المشركين أسرى في قبضة المسلمين فلولى الأمر الحق في إتخاذ إحدى الوسائل الأربع الآتية حيالهم:
أولاً: يجوز له قطع رقابهم ما لم يكونوا نساء أو أطفالا أو مصابين

بجنة.. إلخ.

ثانيًا: يجوز له العفو عنهم وإطلاق سراحهم.

ثالثًا: يجوز المبادلة على غيرهم من أسرى المسلمين لدى العدو أو اقتداؤهم بالمال.

رابعًا: يجوز له استرقاقهم.

فإذا اختار ولى الأمر وسيلة ما من هذه الوسائل الأربع فله أن يقوم على تنفيذها بشرط أن تكون أحسن الوسائل وأوفقها لمصلحة حكومته. فإذا استقر رأيه على الاسترقاق فقد وجب عليه أن يحسن معاملة أرقائه. فقد ورد في كتب الشريعة ما مفاده أن جماعة من الأسرى من بينهم عباس قدموا يوم بدر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمر النبي بكسوته على الفور ووجدت بالاتفاق والمصادفة ثياب لعبد الله لم تكن له بها حاجة فأعطيت إلى عباس فأخذها فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : رفقاً بالضعيفين. أراد بهذا القول، الإشارة إلى المرأة والرقيق. وجاء في الأحاديث الشريفة أيضاً ما يستفاد منه أن النبي سئل يوم بدر فيما ينبغي أن يعامل به الأسرى فأجاب: إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم فسأل عمر بن الخطاب: «يا رسول الله أتضرب أعناقهم». فالتفت النبي إلى الحاضرين من المسلمين قال لهم مكرراً: «إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم». فكرر عمر هذه الكلمات. فقام أبو بكر عندئذ وقال للنبي: يا رسول الله إن هؤلاء بنوا العم والعشيرة والاخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ففرح النبي وأمر بقبول الفدية. وبهذه المناسبة نزلت على رسول الله الآية الآتية: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم».

ولما طلب الرسول من عباس مائة أوقية ذهباً فدية ولم يطلب من قريب آخر سوى أربع وعشرين أوقية صاح عباس بما معناه: «إن هذه لإحدى آيات القرابة القريبة» فأنزل الله على النبي الآية الآتية: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم

ويغفر لكم والله غفور رحيم».

ولما كانت الحرية في الإنسان أصلاً والاسترقاق عرضاً فإن حكم الديانة الإسلامية بتحرير الأرقاء فضيلة تستوجب الحمد. وهناك صنوف من الذنوب والمخالفات لا يكفر عنها إلا بفك الرقاب. منها اليمين الكاذبة وفطر رمضان فقد قال الرسول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار» - وقد أعتق النبي في حياته ثلاثة وستين رقيقاً - أى بقدر ما عاش من السنوات، وأعتقت عائشة ابنة أبى بكر زوجه تسعة وستين رقيقاً أى بقدر ما عاشت من السنوات وأعتق أحد صحابته وهو ذو القرى وأصله من قبيلة حمير ثمانية آلاف رقيق في يوم واحد وأعتق عبدالله بن عمر ألف رقيق وحكيم بن جزان مائة كانوا يحملون في رقابهم أطواقاً من الفضة وعبدالرحمن بن عوف ثلاثين ألفاً وكانوا جميعاً من أصحاب النبي.

والديانة الإسلامية تحبذ تحرير الرقاب وتحث عليه وتدعو إليه حتى إنها لتتشرط على من يشتري رقيقاً لكى يعتقه الوفاء بعهدته بعد الشراء. فإذا أبى الوفاء بعهدته عومل بما يلزمه الوفاء ولو بالإكراه البدنى ويجوز بل يجب على غير المؤمن أيضاً إعتاق الرقيق ولو كان عدواً مبيناً للمسلمين وسواء وقع الإعتاق من مسلم أو من غير مسلم فإن المعتق يظل مقيماً في ولاية مولاه. وبين المولى والعبد رابطة وثيقة من القرابة تجعل أولهما الوصى الطبيعى على الثانى في حالة عتقه كما يكون الوالد وصياً.

وهناك طرق متعددة للعتق يقضى أحدها على المعتق أن يصرح كتابة في حياته بإعتاقه رقيقه بعد وفاته. وإليك النص الذى ينبغى أن يكتب به هذا التعهد: «أنت حر لوجه الله بعد وفاتى» ويقضى الثانى أن يفتدى العبد حرية بمبلغ من المال يؤديه على دفعتين. وله أيضاً بعد مساومته مولاه على هذا المبلغ أن يؤديه إليه أقساطاً صغيرة، فإذا برئت ذمته منه أصبح عتيقاً طليقاً. والحالة الثانية من هاتين الحالتين لا تنطبق إلا على الجوارى في حالة حملهن. أما إذا لم يكن كذلك فليس لهن أن يحصلن على حريتهن إلا بموت مالكنهن.

(٤)

الرجال

انفصال الرجال عن النساء في الهيئة الاجتماعية - الصفات الجثمانية للرجال - الصفات النفسية والعقلية - القناعة - الصداقة - الشجاعة والتوكل - حب المصريين أوطانهم - العيوب والنقائص: الجشع، الإنكار، الحسد، كفران النعمة - الكسل - العزة الدينية - الجهل - العناد والتشبث - الشجار والانتقام - المجون والمباشطة - الملابس القديمة - ملابس الممالك - الملابس الحديثة - الحذاء - أفكار في الملابس الحديثة - ملابس الفلاحين - عادات المصريين في تدبير الشعر واللحية.. إلخ - النظافة والوساخة - استعمال الوقت والاشغال - النوم وكيفية الرقاد - عبارات النداء والتعجب والقسم.

١٩. فصل الرجال عن النساء

يمثل الدين الإسلامى مع ما تواكب عليه من التقاليد الشرقية سدا منيعا في الهيئة الاجتماعية بين الرجال والنساء. فكان من نتائج هذا الافتراق أن صار لكل من فريقى الرجال والنساء في مصر أخلاق وعادات خاصة ومتباينة إلى حد يستدعى بحثها واستقراؤها في الرجال مستقلة عنها في النساء والعكس بالعكس.

٢٠. الصفات الجثمانية

تنم سحنة العربى وهيئته عن كرم المحتد = الأصل = وصلابة القلب وجفاء الطبع وشدة الرصانة. والمصرى المسلم وإن حمل الاطمار البالية تبدو متوافرة في شخصه أمارات السمو ورفعة القدر. إذا وقف وقف مستقيما في انحناء وبدا في هيئة الجندى وإذا سار اتاد = اطمأن = في مشيته بلا تكلف كأنما يعد الخطوات، وإذا تحرك تحرك في سكون ورباطة حتى لقد يخيّل للناظر أنه يضبط حركاته وسكناته ويدبرها. والحقيقة أنه لا يرهق نفسه بعناء شئ من ذلك لأنه يتحرك ويسكن من غير تصنع ولا تعمل. وما يبيديه الأوربى من الهزيمة في الحركة والاسترسال في الفرع والتبسط في المجانة قلما يخل بنظام مشيته أو يستقره إلى السرعة فيها أو يهز وترا من أوتار نفسه. وهو إذا نظر كان نظره حادا يدل على الجد وبدا وجهه من حوله معربا = معبرا

= بملامحه عن البأس والهمة. وهو مطمئن النفس لا يزعزع سكونها شيء ولذا تراه أكظم ما يكون لما ينتابه من الانفعالات الباطنية. فقيما وراء هذا الستار تعصف عواصف المؤثرات المختلفة بدون أن تحرك له ساكنا. وإذا تكلم تحرى الاقتصاد في كلامه والاقتصار منه على ما يؤدي مراده بالضبط من غير لاجاجة وبدت كلماته كأنها لا تخرج من فيه إلا وقد وزنت مرارا بمعيار الإمعان والروية. ومن عادته إذا حدث أن يرفع صوته عاليا فيخيل لسامعه أنه وهو يحدث قد ثارت بينه وبين محدثه ثائرة الجدل والخصومة.

٢١. الفضائل النفسية والعقلية

المصريون أقوياء الحافظة أذكىء بالفطرة لا يجدون صعوبة في الاستظهار ولا عناء في الفهم ولكنهم — إما لعدم المبالاة وإما لضعف في الذاكرة — لا يتذكرون زمنا طويلا ما أسرعوا في حفظه أول وهلة. وهم على شيء كثير من سلاسة الطبع، ودمائة الخلق. وهذا ما مهد لهم مزاولة الأعمال بهمة ونباهة على شدة ما بينها من التفاوت. ولسرعة انفعال نفوسهم بالمؤثرات تراههم على استعداد للتنافس والتبارى في العمل فإذا استثيرت كوامن هذا الاستعداد ظهرت أهليتهم للقيام بجلال الأعمال. ولا ننسى ما هم مفتورون عليه من الحق في الأعمال اليدوية وأنهم يبذلون في أدائها مهارة نادرة مقرونة بالإتقان والإجادة.

وللمصريين نزعة إلى السرور واندفاع فطري إلى المزح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء وحضور الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لا يكادون يبلغون إلى سن الرجولة حتى يميلوا عما مالوا إليه بالظهور في مظاهر السمات والوقار وملازمة الجد في القول والفعل. ويرجع هذا التحول بلا ريب إلى تأثير المبادئ الدينية التي تتأصل في نفوسهم كلما تقدموا في العمر وازدادوا رزاة وحرصا.

٢٢. القناعة

القناعة من خصال المصريين التي تستوجب العجب والدهش، وإن القارئ سيقنع بهذه الحقيقة مما سأورده عن كيفية غذائهم. أما المسكرات فتعاطيها غير فاش بينهم وأما الطعام فيراعون فيه البساطة والتقشف

والإقلال. ومن الخصال المحمودة التي درجوا عليها احترامهم الخبز وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة، فهو في نظرهم قوامها الذي لا تقوم لها بدونه قائمة. ولعل هذا ما حدا بهم إلى تسميته بـ«العيش» الذي يفيد معنى الحياة في اللغة العربية. ولشدة حرصهم عليه واحترامهم له يدأبون على وقايتهم مما يدعو إلى تحقيره والخط من قدره. فتراهم إذا عثروا في الطريق على شيء من فئات العيش سارعوا إلى التقاطه ولثموه ورفعوه إكباراً إلى رءوسهم ثم اختاروا لصيانتهم مكاناً إذا اهتدت إليه الحيوانات استطاعت أن تأكله بدلاً من بقائه عرضة لدوس الأرجل والتلطيخ بالأقذار.

٢٣. الصدقة أو الإحسان

المسلمون ميالون بوجه عام إلى البر بالفقراء والإحسان عليهم، لأن في دينهم من التعاليم والمبادئ ما يجعل هذه الفضيلة فرضاً واجب الاتباع. وثمة سبب آخر يدعوهم إلى البذل في سبيل الصدقة وهو الرجاء في الفوز بما أعد للمحسنين في الآخرة من الثواب. وربما كان الباعث لهم على التصديق في سبيل هذا المطلب أقوى منه في سبيل العطف على المساكين والبر بالمعوزين.

أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعاً في القطر المصري وهي - حرية بالذكر والإطراء الآن. فالمسافرون وعابرو السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين في كل زمان ومكان صدراً رخيياً ومثوى كريماً. ومن شيم المسلم أنه إذا جلس إلى الطعام وزاره أحد دعاه إلى طعامه وأشركه فيه. وسواد أفراد الطبقة الوسطى يتناولون طعام العشاء على أبواب منازلهم حتى إذا مر بهم أحد دعوه إلى مشاركتهم في طعامهم.

وهم حينما تلاقوا بدت على وجوههم أمارات البشاشة والهشاشة وتبادلوا عبارات الانس والمودة ثم لا يلبثون أن يحافظوا على السكون ويلزموا التحفظ إذا التقوا بالأوربيين أو تحدثوا معهم.

٢٤. الشجاعة والتوكل

ولد قطان = سكان = القطر المصري تحت تأثير الضغط والعنف. فتراهم في الأحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للأخطار أو اقتحام

غمارها، ولكنهم إذا نزل بهم نازل أو تهددهم خطر لاتبث الشهامة الكامنة في نفوسهم أن تهب من سباتها فيدراون هذه النازلة بشجاعة وهمة. وهم في كل ما يحيق بهم من الأحزان والأرزاء يثقون بالله ويتوكلون عليه إتكالاً لاتزعزعه قوة بالغة ما بلغت. وإلى هذه الثقة وهذا التوكل يرجع رضوخهم لمقتضيات الظروف ورضائهم بما تجيء به الحوادث باعتبارها قضاء إلهيا لا مرد له وقدر ربابيا لا مفر منه. وهم يقابلون المحن والمصائب إذا نزلت بهم بعبارة تدل على ثباتهم إزاءها وصبرهم عليها وهى قولهم «الله كريم».

٢٥. حب المصريين أوطانهم

لا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد في حب مسقط رأسه كالمصريين فإن الفلاحين لا يجدون للحياة معنى ولا لذة إذا ابتعدوا عن النيل الذى يطفىء ماؤه أوار عطشهم ويروى أرضهم أو حرموا النخيل الذى يكفى أن يهزوا اليهم بجذعه ليساقط عليهم ثمره فلا يتكبدون في أكله أقل كلفة. ومن ثم تسمعهم إذا حدثوا أوروبيا عن وطنه يسألونه عما إذا كان يجرى في أرضه نيل كنييلهم أو ينبت فيها نخيل كنخيلهم يعطيهم ما يشتهون من غذاء شهى ومرافق أخرى.

٢٦. الكسل (١)

إذا ترك المصريون وشأنهم أخلدوا إلى البطالة والكسل وتراموا في أحضان الدعة والخمول أى أنه إذا لم تستفزهم إلى العمل إرادة فعالة وهمة نشيطة ولم تدفعهم إليه يد قوية أثروا قضاء حياتهم في البطالة التامة. ولعل الباعث لهم على ذلك قلة احتياجاتهم وقدرتهم على قضاء ما يستشعرون به منها وهم على مهاد الراحة. ومن مظاهر جمودهم على هذا السلوك الشائن أنهم قلما يفكرون في المحافظة على خصوبة الأرض التى يلتمسون منها غذاءهم بالعمل المتواصل في فلاحتها واستخراج خيراتها. والحقيقة الثابتة أن دولة المصلحة لم تتغلب في نفوسهم على ما ألفته من الاستئامة إلى الكسل والسكون فتراهم لهذا السبب لا يهتمون من شئونهم إلا بما يتعلق منها بحاضرهم غير ملتفتين إلى مستقبلهم. وهم يشبهون لصوص نابلي لا

(١) الناشر: تعرض الكاتب للنقائض الموجودة في عهده كظواهر اجتماعية فذكر منها الجشع والإنكار والحسد.

يحركون ساكننا إلا إذا عضهم الجوع بنابه. فالنظر إلى المستقبل لا يمتد عندهم إلى أبعد من الغد.

٢٧. عزة الدين

من خصوصيات الديانة الإسلامية سلطانها الذي لا يُغلب على نفوس المستمسكين بحبلها وهيمنتها عليهم في أقوالهم وأفعالهم، وتأثيرها فيهم تأثيراً لا يقوون على دفعه مهما أوتوا من صدق الإرادة ولطف الحيلة. ترى أن الواحد لم يتلق شيئاً من دروس الدين تلقياً خاصاً ثم مع ذلك سرعان ما تدرك مبادئه الأساسية وتنطبع عقيدته بالطابع الذي يبغى أهله أن يبقى منقوشاً في صحيفتها فلا يجد الشك مسرباً إليها.

وترى المسلم لرسوخ عقيدته ووطود دعائم إيمانه لا يلبث أن يصبح مختالاً بها فخوراً بسموها على بقية العقائد. وينتهى الأمر به إلى الاعتزاز بانتمائه إلى ديانة يرى أنها تسمو على سائر الديانات وتفوقها فوقاً عظيماً فلا يسعه إلا أن ينظر إلى المتمسكين بغيرها بعين الاستخفاف والاحتقار.

٢٨. الجهل

السواد الأعظم من الأمة المصرية هائم في أودية الجهالة، وقد حاول بعضهم إسناد جهلهم إلى الديانة الإسلامية. وهو خطأ فاحش ومذهب باطل فإن في القرآن آيات كثيرة تدل على شرف العلم والحض على تحصيله. على أنه غنى عن البيان ما بلغت إليه العلوم والفنون من التقدم والارتقاء في عهد الحضارة الإسلامية ببغداد والأندلس.

والسبب الحقيقي لانغماس المصريين في حمأة الجهل أن الممالك أطفأوا في مصر نور العلم وهاضوا ركنه ودكوا معالمه حتى صار لا يوجد الآن من المتتورين والمتعلمين من غير الذين نشأوا في المدارس الحديثة وتلقوا بها مختلف العلوم من يلم بالقراءة والكتابة سوى النذر اليسير ومعلوماتهم مقتصرة على دراسة العلوم الدينية وحفظ بعض القصائد الشعرية.

٢٩. التعنت وصلابة الرأي

التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين فإنك ترى فيهم من

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتى جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة. ومن النادر أن تجد أحدهم مقبلاً بخاطره على دفع المال الذى عليه فإذا دفع أحدهم - بعد معاملته بهذه الاساءة التى يتحملونها بقدر ما تسمح لهم به قوتهم البدنية ما هو مطلوب منه - أظهر الأسف لأمر واحد، وهو أنه لو استطاع بدنه أن يتحمل من الضرب فوق ما تحمله لتخلص من دفع المال الذى لأجله يلقي هذه الإهانة.

والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج لإكراه الممولين على أداء الأموال المستحقة لجانب الحكومة وإقناعهم بالعدول عن الإصرار على عدم سدادها. ولقد كانت هذه حالهم على عهد (أميانوس مرسلانوس) فقد روى هذا المؤرخ أن المصريين يرون من بواعث الفخر والشرف أن لا يؤدوا ما عليهم من الضرائب إلى الخزينة إلا إذا ضربوا الضرب المبرح وعذبوا العذاب الاليم.

٣٢. المنازعات والانتقام

يميل المصريون من أهل الطبقة السفلى إلى المنازعات والمخاصمات التى يرجع سببها فى الغالب إلى الاختلاف على مصلحة لا يبعد أن تكون تافهة غير جديرة بالاهتمام. والذى يرى المشاحنة وقد احتدمت نارها وتلظى سعيرها وتبودلت فيها ألفاظ السب والشتم واستنزلت اللعنات وتراشق الفريقان بسهام المخازى والمعايرة يتبادر إلى ذهنه أن الشجار لسوف يفضى إلى أوخم العواقب ولكنه لا يلبث أن يوقن أنها لم تؤد إلى شىء مما يخشاه والسبب فى ذلك أنه قلما ينقلب الشجار بين المصريين من التناوب بالقول إلى التضارب بالأيدى، بل أنه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل أحد الخصمين عن حقه بقوله للآخر: «الحق على».

ويتفق أحياناً أن يتداخل بين الخصمين ثالث، ويجعل تمهيده للمقابلة قوله: «اللهم صلى على سيدنا محمد» فيكرر الخصمان هذه الجملة بصوت خافت ثم يقرآن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوثام والوداد.

أما الانتقام أو الإخذ بالثأر فغريزى فى نفوس المصريين. وبين بعض العائلات عندهم آثار = ثارات جمع ثأر = قديمة يثأرون بها على تسلسل

الأعقاب وفيما سبق من الزمن كان الأخذ بالثأر بين قرى برمتها. وهو ما يصح القول معه أن الدم يجذب الدم، فإن أسرة القتل يتحتم عليها الانتقام من أسرة القاتل ولكن القتل لحسن الحظ يكاد يكون مجهولا في القطر المصرى.

٣١. الميل إلى المجون والمطايبة

يميل المصريون بفطرتهم إلى المجون والمطايبة وهم كثيرا ما يبنونها على النكتة ، لاسيما وأن اللغة العربية التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكناية إلى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس. وهم فى كل ذلك قلما يحرصون على الآداب أو يتصونون عن القبائح إذ يعبرون بفاحش القول عن الآراء التى يجفل من الانصات لها السمع الكريم. ونادرا ما تجد بين النساء حتى الفضليات منهن من يتحاشين تلويث كلامهن بالألفاظ القذرة ذات المعانى المعيبة.

٣٢. الثياب

الملابس القديمة - الملابس التى كان المصريون يكتسبون بها قبل سنوات قليلة تتألف: أولاً من القميص، ثانيا: من اللباس - أى السروال، وثالثا: من الصدرية، ورابعا: من القفطان، وخامسا: من الحزام، وسادسا: من الجبة، وسابعًا: من البنش.

ولم يكن للزى الحديث (المودة) تأثير ما على طريقة الاكتساء عند المصريين الذين لم يطرأ تغيير ما على نظام ملابسهم كلها أو بعضها.

وتختلف الأقمصة الشرقية اختلافا بينا عن القمص عندنا . فهى عندهم تمتاز بفرط الطول والعرض إتساع القن (الكم) واسترساله إلى كاحل القدم. أما قمصان أفراد العامة فهى إما من الكتان أو التيل بخلاف أقمصة أصحاب اليسر فإنهم يلبسونها من قماش دقيق النسيج يسمونه المغربى أو قماش الحرير، والقميص لا يحشى به داخل السروال كما هو الحال عندنا بل يسبل فوقه.

ويمتاز السروال المصرى بالسعة حتى ليخيل لرائيه أنه جبة خيط الجزء الأسفل منها بحيث يترك فتحتين لخروج القدمين. وهو سابل إلى الركبتين ويثبت حول الجسم بئكة تجرى في باكية وغالبا ما تحلى التكة بالزركشة التى تتفاوت بتفاوت أصحابها في اليسار أما الصديرى فيتخذ عادة من الجوخ أو القماش الحريرى أو القطنى. وفوق هذه الثياب كلها يفرغ القفطان وهو لباس سابل إلى القدمين عريض الكمين.

أما الحزام فقطعة من قماش الحرير يبلغ عرضها مترا واحدا في ثمانية أمتار إلى عشرة طولاً يلف حول الجسم عند الحرقفتين وأصحاب اليسار يتخذونه من الكشمير الثمين.

أما الجبة وتوضع فوق المجاسد السابقة كلها فتبطن بالفرو وإذا كانت للبس الشتاء يكون كماها أقصر من كمى القفطان وتلبس فوقه مشقوقة من الأمام.

ويحمل بعض الناس فيما عدا الجبة ثوبا أعرض منه يسمونه البنش وكماها واسعان جدا وطويلان ومشقوقان في نهايتيهما، ولا يلبس إلا في الحفلات، ويختص رجال الشرع والعلماء بلبسه دون غيرهم من الناس.

ومع أن مصر من البلاد الحارة فإن لبس الفرو شائع فيها شيوعا عظيما. ولم يكن شيوعه للخيلاء فقط بل للحاجة إلى الاكتساء بمعطف واسع عريض الأكمام ومبطن بالفرو. وسبب ذلك أن الطقس في مصر ينتقل فجأة من درجة حرارة إلى درجة مناقضة لها فيجعل الشعور بالبرد شديدا. وكرك السمرور التركى عبارة عن معطف من الحرير أو الجوخ لا يلبسه إلا ذوو الحيشيات وأصحاب المقامات العالية ويكون محشوا بالسمرور.. إلخ. وهو معدود من شارات الشرف ورفعة القدر، والعلماء لا يكتسبون إلا به وإذا عين أحد في منصب خطير فإن علامة التقليد له في هذا المنصب إلباسه كركا من السمرور.

أما القلانيس - أى ما يلبس على الرأس فعبرة عن طربوش من الصوف المصبوغ باللون الأحمر تلف حوله العمامة. وتحت الطربوش يضع المصريون قلنسوة رفيعة يسمونها الطاقية الغرض منها وقاية الطربوش من تأثير العرق والعمامة شال من القماش الموصل صوفاً أو حريراً سانجا أو

مشغولا. ولا يزال يوجد حتى الآن أناس يحافظون على الزي القديم ولهم طرائق عديدة في حمل القلنسوة وتنسيق أوضاعها فإنهم يطوون الشال طيا ينطبق على اتجاه أحد قطريه ثم يلفونه بأسلوب معلوم حول الرأس مع جعل اللفات متشابكة بحيث يتكون منها فوق الجبهة ما يشبه خطين متقاطعين هكذا x وأحيانا يجعلون اللفات متراكبة بعضها فوق بعض بحيث يتألف منها ما يشبه الشكل الحزوني، وقد يكتفون بجعل الشال إلى أحد جانبي الرأس دون الجانب الآخر. واختلاف هذه الأزياء والأنماط يدل على حالة صاحب القلنسوة ويشير إلى مرتبة في الهيئة الاجتماعية. فإما أن يكون موظفا دينيا أو عسكريا أو ملكيا.

وهناك وسائل أخرى لتسوية العمامة تدل على حال لابسها. فهناك العمامة الخاصة بالعساكر والعمامة الخاصة بالتجار والعمامة الخاصة بالبحريين وغيرها كالتى على الطراز التركى أو الالبانى أو الأرناؤوطى أو التى يلبسها القاضى واختها التى يحملها المفتى.. الخ.

وكانت عمامات العلماء تمتاز بضخامة الحجم، ويتكون منها حول رؤوسهم ما يشبه الكرة العظيمة. وكان بعضهم يحليها بوشاح من الكشمير أو الحرير الموصلى تهبط منه عذبتان أحدهما تمس الصدر وتبقى معلقة أمامه من ناحية إحدى الكتفين، وتمس الثانية الكتف الأخرى وتحف الاثنتان بوجه العالم والشيخ فتعطيانه هيئة الجلال والوقار التى عرفت عن رجال الدين منذ قديم الزمان.

وكانت ألوان العمامات فى الزمن الغابر تفيد فى التمييز بين طبقات الناس. فكان المسلمون يتخذون العمامات البيضاء أو الحمراء، والأشراف من آل البيت النبوى العمامات الخضراء، أما الرعايا من اليهود والمسيحيين فكان لا يباح لهم من العمامات الا أسود اللون أو أسمره أو بنفسجيه أو ما كان لونه أحمر غامقا.

ذاك كان نظام اللباس القديم، وهو المسمى باللباس الطويل، وقد اندثر اليوم زيّه ولم يعد يحمله من طبقات الناس سوى العلماء والتجار وكتبة المصالح وبوجه خاص الوطنيون من النصارى واليهود.

٣٣ - لباس المماليك

لا يزال يحمل هذا اللباس بعض الذين بقوا على قيد الحياة من طائفة المماليك وهو يختلف يسيرا عن اللباس الذى وصفته الآن. فإن قفطان المماليك بدلا من أن يكون مفرط الطول ينتهى عند الحزام فكأنه صدرية لا قفطان. وكان الواحد منهم يلبس قفطانين أحدهما ضيق الأكمام جدا ينتهى عند الكوع. وكانوا يلبسون فيما عدا ذلك سروالا من جوخ البندقية يحملونه فوق السروال الداخلى ويثبتونه عند الحزام بتكة، وكان عظيم العرض سابلا إلى سمانة الساق ويشبه غرارة كبيرة ذات ثقبين فى أسفلها وكانوا يشدون بعد ذلك حزاما على وسطهم من الكشمير.

٣٤ - اللباس الجديد

إن الانقلاب الذى طرأ على لباس المصريين يرجع تاريخه إلى عهد تنظيم الجيوش النظامية فى سنة ١٨٢٢ وكان نتيجة لهذا التنظيم، فكانت العمامة أول ما حذف فى الجيش من ملابس الجنود، وفى سنة ١٨٢٦ أدخلت تعديلات أخرى. إذ تركوا اللباس العريض الهابط إلى الركبتين كما هو وأدخلوا صدرية ذات كمين توضع فوقها سلطة من نوع ما يلبسه عامة الشعب عندنا، وإنما تختلف عنها بالسعة وانفتاح الكمين وهبوطهما خلف الجسم. ولم يلبث المصلحون أن أدركوا مقدار ما تحدث هذه الأكمام من الالتباك فى أثناء القيام بالحركات العسكرية فقصوا بحذفها وحذفت فعلا.

ولما كان الجيش فى القطر المصرى الكل فى الكل الآن فقد كان من المنتظر أن يسرى تأثير التعديلات التى تطرأ عليه ولقد سرى هذا التأثير فعلا فتناول اللباس القديم الشائع الاستعمال إذ أخذ ذوو الحشيات يجعلون ثيابهم على طراز الثياب العسكرية سواء أكانت لهم أم لم تكن مناصب فى قيادة الجيش، وكان إبراهيم باشا فى مقدمة المقلدين فبدل العمامة بالطربوش. فلم يلبث الناس جميعا أن قلده ولبس الوالى نفسه عين اللباس الذى اتخذه لجيوشه.

والشرقيون ميالون إلى اتخاذ الثياب ذات الألوان الفاتحة الساطعة كالأحمر والوردى والأبيض والبنفسجى.. إلخ بقدر ميلهم عن الألوان الغامقة التى جعلوها ميزة الرعية من اليهود والنصارى. ولكن الأذواق والعادات

تغيرت الآن من هذه الجهة تغيرا محسوسا إذ هجر الألوان الساطعة أفراد الطبقات العليا واعتادوا الآن لبس الثياب من الجوخ الأسود والأزرق والكستنى.. إلخ وظل عامة الشعب محتفظين بالألوان الأولى.

وفى ظنى أن القلنسوة الحالية، وهى الطربوش بغير عمامة أصلح بكثير منه بها بل وأظرف شكلا. وأرى أن من غير المستطاع إدخال تغيير عليها فى زمن قريب. ولست أدرى بم يمكن تغييرها لو رغب فى هذا التغيير. فإن القبعة الأوربية ليست فى شكلها أظرف ولا أشرف من الطربوش حتى يمكن القول بالاستعاضة عنه بها. ثم إن المسلمين يفتنون القبعة إلى حد أنهم إذا أرادوا فى ثورة غضبهم قول ما يستفاد منه أنهم سيأتون أمرا نكرا قالوا بصوت التهديد أنهم سيلبسون القبعة. لأن لبس القبعة لا يقل فى نظر المسلمين عن جريمة التنحى عن القومية والكفر بالدين.

وعلى كل حال فالذى نتمناه ونقترحه فى هذا الموضوع أن يجعل المصريون فى طرابيشهم رفرقا يظل وجوههم بحيث تضاهى به القلنسوة التى يحملها جنودنا فى أفريقية. إذ مما تمس الحاجة إليه فى بلد كمصر يشتد فيها سطوع الضوء وحرارة الشمس وقاية العينين والجبهة من تأثيرهما الضار. غير أنى لازلت أشك فى إقبال المسلمين على العمل بهذا الاقتراح النافع. لأن الرفرق الذى أشرت إليه الآن يجعل الطربوش شبيها بالقبعة وهو ما يفتونه ويتقونه بكل الوسائل.

٣٥. الحذاء

لا يلبس المسلمون عامة الجوارب. ولكن أصحاب اليسار منهم يستعيضون عنها بشيء من الجلد الأصفر يسمونه المزد. فإذا لبسوا هذا الشيء الذى لا هو بالجورب ولا هو بالحذاء دسوا أقدامهم فى حذاء من الجلد الأحمر أو الأصفر يسمونه بالمركوب، واللون الأصفر فى المركوب كان لا يسمح به سابقا إلا للمسلمين، أما المسيحيون فكان لا يسمح لهم إلا بالأحذية الحمراء اللون. وكان السواد اللون الأصل فى أحذيتهم.

وفائدة لبس الحذاء والمزد معا عند الشرقيين أنهم إذا غشوا مجلسا أو مسجدا تركوا أحذيتهم مع ما يكون عالقا بها من القذر عند الباب وساروا

بالمزد على الحصر والبسط والسجاجيد بدون أن يمسه شيء من الأذى وبقيت أقدامهم مكسوة غير عارية.

٣٦ - أفكار وخواطر في الزي الحديث

بالرغم من أن الزي الجديد قد تناول اللباس المألوف بالتعديل والتغيير فإنه لم يفقد شيئا كثيرا من صبغته الوطنية لأنه جمع بعد تعديله إلى مزايا اللباس الأفرنجي أخص ميزات اللباس الإسلامي. على أنه لم يكن زيا مستحدثا فقد كان معروفا في البانيا والروملو ومألوفاً عند أهلها فإذا اختاره محمد على وفضله على غيره من الأزياء فما ذلك إلا لأنه طابق عنده ما كان يرمى إليه من حسن التدبير وسلامة الذوق. أما حسن التدبير فلأنه لو فرض على أفراد رعيته اتخاذ لباسا لهم لأثار غبار الاعتراضات من جهة رجال الدين وجر إلى نفسه كراهية الجمهور ونفوره. وإما سلامة الذوق فلأن الذين اعتادوا لبس الثياب الواسعة عرفوا مالها من المزايا على الثياب الضيقة وأنها تعوق حركة المفاصل ولو انساقوا بحكم التقليد إلى لبسها لأضجرتهم فقلقوا وتبرموا وربما أبرزهم القلق والتبرم إلى المترصدين للانتقاد في شكل يحملهم على الاستهزاء والاستخفاف بهم.

وما حصل من هذا القبيل في الآستانة دل على صدق نظر الوالي وسلامة ذوقه وسداد رأيه وسرعة خاطره فإن السلطان محمود قد ألبس جنوده شوار الجنود الأوربية بدون تحوير، وهو مؤلف من القميص الضيق ورباط الرقبة والبنطلون الضاغط على الفخذين والسترة الواسفة بضيقها للجسم والأحذية المغطاة فكان ذلك كله فيما عدا الطربوش نسخة طبق الأصل من الشوار الموماً إليه. وهو ما استاء العثمانيون منه بانتقاده واستهجانه وتقبيح رأى مقترحيه والذين سعوا إلى تنفيذه بلا نظر إلى أن الجيش الذي ألبس ذلك الشوار الأفرنجي جيش إسلامي. لا يجوز له التشبه في زيه بالجيش المسيحي لاسيما وأن الأتراك يتضايق بهم اللباس الأوربي ولا يشعرون معه براحة حتى أنهم قلما يعنون لهذا السبب بأحكام ثيابهم أو طلب التأنق فيها أو صرف العناية بتدبيرها فكان هذا باعثاً آخر على تحول ذلك الإصلاح السلطاني إلى موضوع السخرية والتهكم.

وليس من الإنصاف بالرغم مما تقدم إنكار ما لتطبيق الإصلاح الموماً إليه

من النتائج الطبية بقضائه على الفروق التي جعلت المسلمين في معزل عن أهل أوربا ، وصيرتهم أجانب عن هذه القارة وهم إنما يعيشون فيها. أما الإصلاح الذى قام به فكان من نتائجه أن قرب مسألة الخلاف بين اللبسين المصرى والأفرنجى بدون أن يؤثر في نمطهما الأصليين تأثيرا ذاهبا بكيانهما. وهذا سيفضى حتما إلى دور من أدوار الانتقال في موضوع اللباس يتم فيه التحول من غير صدام ولا احتكاك.

وأنماط الملابس، ولاسيما إذا كانت رمزا صحيحا للتقاليد الدينية والقومية كما هى عند المسلمين كثيرا ما تقيم بين الشعوب حواجز تتعذر إزالتها. فإذا نظرنا في الأمر من هذه الناحية فلا يسعنا إلا الحكم بخطأ الإصلاح الذى قام به كل من الوالى محمد على والسلطان محمود. وبدهى أن الذين يسرهم بقاء القديم على قدمه لسوف يأسفون على مزايا الملابس الواسعة وفوائدها التى تجل عن الحصر، ولكن الذين ينظرون في الأمر نفسه من الناحية العملية لسوف يرون أنهم عوضوا عن تلك المزايا الصورية والمحاسن الظاهرية بخير منها ألا وهو ما أثمره ذلك الإصلاح من النتائج الجلية والفوائد الجمة المطابقة لمقتضيات الزمان والمكان من جهة والتي لا تخالف من جهة أخرى العقائد المستقرة في النفوس.

هذا وفي النصوص الشرعية ما يحرم على المسلمين لبس الثياب الحريرية أو المزركشة بأسلاك الذهب، ويحظر عليهم التحلى بالذهب والفضة. ولكن صرامة الأوامر والنواهي الدينية في هذا الموضوع لم تتغلب على ما هنالك من النزعة الطبيعية الشديدة الى التحلى والتجمل. ومفهوم أن الشارع أنس في العرب الرغبة في التجمل بالحلل والثياب الفاخرة فحاول، ولكن عبثا - أن يصددهم عن مناحى هذا الميل بما سنه من تلك النواهي الصارمة. ويقتنى أن لا أمة من أمم الأرض قد شغفت حبا كالامة الإسلامية بالتحلى بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المزركشة وأسرفت من مظاهر التزيين والتجمل على أنواعها. ورغم هذا فإن المسلمين لا يحكمون الذوق السليم في تنسيق زينتهم وترتيب أوضاع حلالهم، ولا يدرون كيف يوفقون بينها حتى لا تنبوا الانظار عن رؤيتها وتمج الأنواق شكلها لما استحکم في أجزائها من التنافر وزال عنها من طلاوة التجانس والتشاكل فإنه لا يبعد في بلاد الشرق الإسلامى أن يقع

نظرك على رجل يحمل صدرية مزركشة بأسلاك الذهب على ثياب رثة وأطمار بالية. ولا يقتنى المصريون من الثياب بقدر ما يقتنى الأوروبيون منها عددا ولكن أثرياءهم وأصحاب اليسار منهم يكثرون منها ويلبسونها على التعاقب ويغيرون المجاسد أى الثياب التى تلى الجسد مباشرة مرارا فى الأسبوع الواحد. أما عامة الشعب فعلى عكس ذلك ولذا كانوا من أحوج المصريين إلى رعاية النظافة والعمل بقواعدها. والمصريون لا يستعينون بالرماد فى غسل ثيابهم إذ يكتفون فى تنظيفها بالماء البسيط والصابون ولا يحملون الثياب مثنية ولا مكوية.

٣٧. ثياب الفلاحين

ثياب الفلاحين فى الدرجة القصوى من البساطة، إذ تنحصر فى قميص وسروال من الكتان يعلوهما قميص أزرق سابغ يسمونه «العرى» يضبطونه حول الجسم بنطاق من الجلد أو القماش، وقلنسوة الفلاح صنف من طربوش أبيض أو رمادى يعرف باللبدة. وفى الشتاء يلبسون بدلا من العرى عباءة صوف واسعة الأكمام تسمى عندهم بالزعبوط.

وتختلف أشكال اللباس المصرى باختلاف الجهات. فساكن الوجه البحرى يستوفون فى ملابسه شروط الصحة المتفقة مع أحوال الطقس فيه، وساكن الإسكندرية يتخذون جميعا ثيابا من الجوخ شبيهة بثياب المغاربة. أما القاهرة فالثياب فيها أخف منها فى الوجه البحرى والإسكندرية. غير أن الذين لا يستطيعون من أهلها اقتناء ثياب الجوخ يكتفون بالثياب القطنية. ومن غريب التناقض فى موضوع اللباس فى مصر أن ساكن الوجه القبلى رغم شدة الحرارة يرتدون الأقمشة الصوفية حتى فى أشهر الصيف. ويقتصر الرجال والنساء فى ضواحي أسوان فى لباسهم على حزام من الجلد (الرهط) يضربونه على خصورهم فلا يستر من أجسادهم سوى العورة كالمشهود عند الأمم المتوحشة بالسواء.

٣٨. عادات المصريين فى تدبير الشعر

يرى المسلمون أن خلق الشعر فرض محتوم عليهم بحكم الدين. فهم يزيلونه برمته ولا يتركون منه سوى خصلة صغيرة وسط الجمجمة

يسمونها «بالشوشة» يعللون ذلك بأنهم إذا وقعوا في أسر العدو وسيقوا إلى الإعدام برمى الأعناق جذبهم العدو منها لكى يمضى فيهم حكمه فلا يلجأ إلى وضع يده المدنسة في أفواههم أو يقبض بها على لحاهم.

وشعر المصريين كشعر أقوام المناطق الحارة غير غزير. وخصوصا في اللحية. وهم يحلقون منه الجزء الذى فوق الفك الأسفل وشيئا من أسفل الفك تحت الشاربين ويفقلون الجزء المصطلح على تسميته عندنا بالملوكية وهى طريقة تسوية شعر اللحية كانت شائعة في فرنسا على عهد الملك لويس الثامن عشر) ويحلقون تحت الذقن جزءا من اللحية وما يكون ناشزا من شعر الوجه ويدعون اللحية تنمو حتى يبلغ طولها قبضة اليد ويقصون الشارب إلى ما يوازى الشفة العليا، وهم في ذلك يخالفون الأتراك الذين لا ينقصون شيئا من اطرافه بالمقراض فينمو نموا عظيما.

وللحية احترام عظيم عند الشرقيين، لأنها رمز الرجولة والحرية والقوة النفسية والبدنية. والقسم باللحية والشاربين (الشنب) يمين لا يحنثون فيها. وإذا ذكر أحدهم بقله الفهم قالوا أن عد شعر لحيته مستطاع. وهم شديدي العناية بها، ويحرصون على تعهدها بالنظافة والطيب لمكانتها عندهم واحترامهم إياها. فتراهم كلما اغتسلوا أو توضأوا نظفوها بالصابون وضمخوها بالروائح العطرية وإذا كانوا في بعض الأحيان يصبغونها بالحناء فما هو إلا لما رسخ في اعتقادهم من أن سواد اللحية شطر من الجمال، وهم لا يعدلون عن صبغها إلا لاتقاء الفتنة، ومع هذا فعادة الصباغة آخذة بالزوال والاندثار الآن على توالى الأيام.

وقد أمر الوالى محمد على بحذف اللحية في الجيش وحتمه على الضباط والعساكر سواء. فأصبحنا الآن نرى قواد الجيش والباشوات وقد تساوا في محو آثار هذه الحالة الطبيعية التى كانوا فيما مضى يهتمون بأمرها، وعندنا أن إزالة اللحية سيذهب بأحد السياجات الكثيرة التى ما برحت تحول بين الأوربيين والشرقيين، وهى من الأهمية بمكان لا ينكره إلا المكابرون لأنها بإزالتها أحد الفوارق والمتناقضات التى من شأنها أن تجعل الشرق على الدوام شرقا والغرب غربا تتحقق فكرة إتحاد الشعوب واندماجها بعضها في بعض إذا لم يكن في كل شىء فأقل ما يكون في الأخلاق والحالات النفسية

العامّة. وفي النظام الملكى لا يربى الشاب لحيته إلا إذا أذنه والده بإرخائها أو إذا حان وقت زواجه. أما الأرقاء فيحرمون تربيتها. ولكن إذا بلغوا سن الكهولة وأحبوا إرخاءها أذن لهم سادتهم وأجابوهم إلى رجائهم.

ومن لالحية له يرخى شاربيه على كل حال لأن الشرقيين يرمون من لاشاربين له بأقبح الصفات ويلصقون به العار، لذا أنصح إلى الأوربيين الذين يجيئون إلى الشرق للسياحة بأن يعنوا بهما ولا يتركوا موسى تسطو عليهما.

وشهدت بنفسى نادرة مضحكة ذات علاقة باللحية وإنى إذا تصدّيت لذكرها في هذا المقام فلازجى إلى ذهن القارئ فكرة عن مبلغ اهتمام المصريين بهذه الشارة التى يعدونها دليلا على كمال الإنسان ورجولته.

في عام ١٨٣٤ كنت أطوف في بعض بلاد القطر لأداء مهمة تتعلق بالتجنيد فلما وصلت إلى الزقازيق - وهى قرية صغيرة من قرى الوجه البحرى واقعة على الضفة اليمنى من بحر مويس - شهدت قضية غريبة كانت اللحية سببها. ذلك أن شيخ البلد كان قد جاء برجل طاعن في السن لينظمه في السلك العسكرى فلم أوافق على قبوله من الوجهة الطبية وكان هذا يخوله الحق في الحصول على الإذن، وقد أعفى من الخدمة العسكرية، بالانقلاب إلى أهله. ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل دنا من المأمور وأخذ يشخص في شيخ البلد الذى جاء به لينظمه في السلك العسكرى وصاح قائلاً: «الم أقل لك أننى غير صالح للخدمة العسكرية، ثم التفت إلى المأمور واسمه حسن وقال: «انصت. إلى قولى أيها المهاب. إن شيخ البلد هذا خصمى وقد حتم على مفارقة الأهل والوطن لأقضى بقية حياتى في ظلال البنادق والسيوف مع مجاورتى الأربعين من العمر. ولكى يضيب هذا الغرض أكرهنى على إزالة لحيتى لأبدو صغير السن في نظر البكوات وما أنا كذلك في الحقيقة فكيف استطيع الآن، وهى دليل مكانتى وشارة شرفى، أن أعود إلى بلدى سليب اللحية، إنى إن عدت إليه لاشك ذاهب فريسة ضحك الصغار وموضع رثاء الكبار فبجياة النبى اقض بينى وبينه بالعدل فإنك ابن إبراهيم صاحب العدل والبطش».

فتأثر المأمور بهذا القول وسأل القاضى الذى كان حاضرا في تلك الآونة

أن يدون حكمه في الموضوع. وكان القاضى متربعا على سجادة يهز رأسه هذا خفيفا كعادة القوم هنا إذا فكروا وترووا ثم نطق بالحكم الآتى ولم يكف عن هز رأسه: «جاء في سورة المائدة» من القرآن الحكيم - «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» - ولكن لم يرد فيها شيء عن اللحية.

وكان شيخ البلد والقاضى حينما طرحت المسألة على القضاء يتبادلان إشارات تفيد التواطؤ بينهما على أمر ما. فلما سمع المأمور ذلك فكر مليا وأخذ يمر بيده على لحيته التى خطها الشيب ثم قال: «الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه، حيث إن من المباح أن يقص أحدهم لحية أخيه فقد حكمنا بأن تقص في الحال لحية خضرة القاضى» ومعنى هذا أن القاضى إذا أصبح ولا لحية له صار في حكم المعزول يسخر الناس منه. فما كادت هذه الكلمات ترن في أذن القاضى حتى اعتراه خوف شديد واعتذر وابتهل وبادر ينقض حكمه الأول منصرفا إلى تطبيق قاعدة «العين بالعين» السالفة الذكر.

وكان شيخ البلد شديد التعلق بلحيته فخشى أن يسطو المقرض عليها وأن يذهب ضحية التهكم عليه من قومه فالتفت إلى صاحب الشكوى وهو ذلك الرجل الذى أكرمه على قص لحيته وقال له: «يا خليل يا أخى! هل إذا قصت لحيتى تنفيذا لحكم القاضى تنبت لحيتك فى أسرع ما تنبت اللحية فيه عادة من الزمن؟ إن الأولى بنا التراضى والاتفاق على أمر. قل لى ماذا يرضيك تعويضا لك عن الضرر الذى ألحقته بك؟» فدارت المساومة على تقدير قيمة لحية الرجل حتى انحطت على ستين قرشا. أى ما يقرب من خمسة عشر فرنكا. ومع أن الرجل قد حصل بهذه الترضية على ما كان يبتغيه من العدل فى قضيته لم يشأ أن يعود إلى بلده بل ظل فى خدمة المأمور إلى أن نبتت لحيته.

والنصارى من سكان القطر المصرى يجلون اللحية. بقدر ما يجلبها المسلمون ويتبعون فى تربيتها وتديرها والعناية بها عين الطريقة التى يتبعها هؤلاء. وأجمل اللحية وأوقاها حجما لحي القساوسة، لأنها أدعى إلى احترامهم وتوقيرهم. وإذا لم ييسر للمذهب الكاثوليكي فى الشرق الانتشار المرجو له فما هو إلا لأن قساوسه يجردون أذنانهم من اللحية.

وعادة المصريين من مسلمين ونصارى أن لا يقروا بالطاعة لرؤساء دينيين لا لحية لهم إذ يقولون أنه لا فرق بينهم وبين الأرقاء في الحرمان منها وبالتالي لا احترام لهم ولا مكانة في النفوس.

وإذا كان قداسة البابا هو الذى استحسنت تجريدهم من اللحية فإنك ترى المصريين من الطائفتين ينظرون إلى قساوستنا بعين الشفقة الممزوجة بالازدراء. ولست أدري كيف سرى إلى كل هذا الشعور فإنى لا أتمالك هنا من الاعتراف بأننى لما ذهبت إلى روما وحضرت الصلاة التى أقامها قداسة البابا بنفسه فى حفلة فخمة أسفت الأسف كله من أن هذا الشيخ الجليل لم يضيف إلى العلامات المحسوسة التى يقصد بها إلى توقيره وإجلاله التأثير الرهيب الذى يقع فى نفوس الناظرين لو أحاط وجهه بهالة لحيته البيضاء. وإنى لمعتقد بأن اللحية خير ما يليق بالوقار الكهنوتى ولست استبعد اليوم الذى يطالب فيه أحد الباباوات الذين سيخلفون البابا الحالى على الكرسي الرسولى الكرادلة والأساقفة بل أعضاء طبقات النظام الكليروسى كله بإرخاء اللحية واثق بأفضاء الخطة التى تقتضيها كرامة الديانة المسيحية لدى الشرقيين إلى نتائج تستوجب الرضا والارتياح لاسيما وأن الشرقيين تؤثر فى نفوسهم المظاهر الخارجية أكثر مما يخطر فى بال الأوربيين.

وفيما عدا اللحية يعنى المسلمون بإزالة الشعر من جميع أجزاء الجسم التى ينبت فيها عادة، وهذه الإزالة تتم عندهم بطريقة من ثلاث إما حلق الشعر وإما تنفخ - أى استئصاله وإما إسقاطه بعجينة مركبة من الجير وكبريتور الزرنين بحالته الطبيعية، وبعض العامة يحلون أيديهم وأذرعهم بالوشم المعروف بالدق.

٣٩. النظافة والوساخة

أدرك النبى أهمية النظافة فى بلاد حرها كنار تلظى ففرضها على أصحابه فرضاً دينياً. فالمصريون يحرصون كل الحرص على تنظيف أعضاء التناسل ومواضع التبرز مراراً فى اليوم، ولا يزالون هذه العملية إلا باليد اليسرى باعتبار أنها الخاصة بالنجاسات، وأما اليد اليمنى فتستخدم فى الأعمال الطاهرة الشريفة كتناول الطعام والمصافحة.. إلخ وهم يكثر من

الاستحمام . وسنتكلم على هذا الموضوع فيما بعد.

ومن عادة المسلمين ألا يبصقوا في حجراتهم ولا في مساجدهم. فإذا كانوا في حضرة غيرهم من الناس واحسوا بالحاجة إلى البصق أداروا وجوههم وبصقوا في مناديلهم بأتم ما يكون من الاحتياط والحدز.

وهم يسمحون لأنفسهم بالجشاء على الطعام وأثناء الكلام بل وخلال الصلاة ويتجشأون بصوت مرتفع ينكره الأوروبيون ويستاءون منه لجهلهم جريان عادة القوم به. والظاهر أن العرب نقلوا هذه العادة إلى أسبانيا فإنها لاتزال باقية ومعمولا بها حتى الآن.

وبالرغم من أن الدين الإسلامى قد فرض النظافة فإن الأغنياء كالفقراء كثيرا ما تحتوى ثيابهم القمل. وهم لا يخلطهم وجوده ولا يعنون بإبادته وتطهير أجسامهم منه. بل يقتصرون - بما جبلوا عليه من الدعة والخمول - على إمساكه بأطراف الأنامل وطرحه على الأرض بعيدا عنهم. ولدى أرباب اليسار أداة خاصة من الخشب في شكل المغرفة يحكون بها ظهورهم ليخففوا عن أنفسهم آلام وخزها ولسعها. وقد نسب وجود القمل عند المصريين إلى الوساخة وحرارة الطقس واستعمال الثياب القطنية والإخلاد إلى الراحة والنعيم والإمساك عن المشروبات المتخمرة إمساكا تاما.

ومع أن المصريين يغسلون أفواههم مرارا في اليوم الواحد فإن ذوى اليسار منهم الذين يراعون هذه القاعدة يصيب التلف أسنانهم أجمعين بخلاف الفلاحين فإن أسنانهم ناعمة البياض جميلة الشكل، وقد تكلم المؤرخ هيرودتس على الأطباء في مصر أيام الفراعنة فذكر منهم طبقة كان همها الوحيد الاشتغال بعلاج الفم. وهو ما يؤخذ منه أن داء الأسنان كان شائعا في القطر المصرى ومعروفا في كل الادوار التى تقلب فيها، وإن من الخطأ المحض نسبته إلى تعاطى القهوة أو التدخين، وإنما السبب الحقيقي له هو النظام الغذائى الذى يتبعه الاغنياء بأكلهم اللحوم والخضر المهيأة بالسمن وتناولهم الأطعمة الحارة ثم الباردة بغير نظر إلى ضرر الانتقال المتعاقب من الحر الى البرد ومن البرد إلى الحر.

ولا يستعمل المصريون الفراجين الشعرية التى اعتدنا تنظيف أسناننا بها

لأنهم يخشون احتواءها شعر الخنزير وهو دنس في شريعتهم، ولكنهم يتخذون لتنظيف أسنانهم جذورا ليفية لنبات يقال له الأراك ينمو في سنار وبلاد العرب.

ولا يتولى المصريون بأنفسهم تقليم أظافرهم بل يتركون للحلاق أداء هذه المهمة بالمقراض وهم يستأصلون الأجزاء البارزة منها.

ومن عاداتهم، إذا تربعوا على الفراش، أن يشبكوا سوقهم بعضا ببعض وأن يمرؤا بيديهم على باطن القدمين لأنهم يحبون الشعور بالتأثير الذي تحدثه هذه الملامسة.

٤٠. الحمامات

يفرض الدين الإسلامى على المسلمين الاستحمام بالماء الساخن لإزالة القذر. وشدة الحرارة في بلادهم تجعلهم يستشعرون بالسرور والهناء كلما قاموا بهذا الواجب. فلا يدهش أحد مما يراه من إقبالهم على الحمامات وإكثارهم من الاستحمام.

ولقد رأينا فيما تقدم أن عدد الحمامات العمومية عظيم جدا في القطر المصرى، وأنها في الغالب ملحقة بأحد الأبنية الدينية. والموجود الآن منها في القاهرة سبعون حماما بعضها مخصص للرجال دون غيرهم، والبعض الآخر للنساء وصغار الأطفال، والشطر الأكبر منها للرجال والنساء، على أن تخصص في الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء. فإذا كان الحمام مشغولا بالنساء علقوا ببابه قطعة من قماش الكتان أو الجوخ إشعارا للرجال بأنهم لا يجوز لهم الدخول في الحمام. وفي كل حمام خدم من الذكور لمباشرة تنظيف الرجال وغسلهم وخدم من النساء لأداء هذا الواجب نحو السيدات.

وواجهة الحمامات مزخرفة على النمط الذى تزخرف به المساجد. ويغلب اللونان الأبيض والأحمر في هذه الزخرفة خصوصا حول المدخل. أما الحمام نفسه فيتألف من حجرات مبلطة بالرخام المختلف الألوان ويتلو بعضها البعض. وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ الضوء بواسطتها من خلال قطع متكورة من الزجاج. والجدران والقباب تبنى عادة بالآجر والمصيص على مستوى الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية

القزان = الجزان = بالماء وهو يؤخذ أما من بئر أو من حوض في أسفل البناء.
والقسم الأول الذى يمر به راغب الاستحمام يسمى المسلوخ ويحيط به
صفف = مصاطب = مفروشة للجلوس، وفيه يتجرد المستحم من ثيابه. وإذا
كان يحمل ساعة أو نقودا أو سيفاً عهد حراستها عند دخوله إلى حارس
الحمام الذى يسمونه بالمعلم.

ومتى تجرد الإنسان من ثيابه جعل على وسطه فوطة كبيرة ولبس قبقابا
من الخشب وقصد بعد ذلك إلى مكان الاستحمام بواسطة دهاليز عديدة
ضيقة يعتاد بالمرور فيها التدرج على الحرارة الأخيرة للحمام، وهى التى
لا يطبقها المستحم إلا بهذا الانتقال التدريجى المتعاقب.

والحمام نفسه عبارة عن بهو كبير ذى قبة عالية وأرضية مفروشة
بالرخام ، وفى وسطه حوض ماء ساخن تنبعث منه سحب من الأبخرة لاتلبث
أن تتكاثر فوقه ويستمر انبعاثها على الدوام فتختلط بالروائح الزكية التى
تتحرق فى المباخر. وطريقة الاستحمام أن يتمطى المستحم على قطعة من
القماش بحافة الحوض ويسند رأسه إلى مخدة صغيرة ثم يتخذ من الأوضاع
ما يراه الأنسب لحاله والأوفق لراحته ومزاجه. وتكون السحب العطرية
المنعقدة بتباخر الماء قد أحاطت بجسمه وأحدثت شيئا من التمدد فى مسامه
جميعا. وعقب برهة من الوقت يقضيها المستحم فى هذه الراحة اللذيذة تكون
البشرة قد اكتست بطبقة خفيفة من الرطوبة فيأتى عندئذ أحد عمال الحمام
ليبدأ عمله بذلك الجسم، ولكنه قبل ذلك يضغط الأعضاء ضغطا خفيفا
متداركا ويطويها طيا رقيقا حتى إذا أكسبها المرونة الضرورية فرفع ما
تحتويه من المفاصل ثم تصرف فى الجسم بما يخيّل معه أنه بأصابعه
السريعة يعجن اللحم الذى يلمسه بها عجينا يراعى فيه الرقة واللفظ. وفى
أثناء هذه العملية التى لم يقل أحد أنها أفضت إلى حادث مضر لا يقتصر على
فرقة تلك الأعضاء بل يعدوها إلى الرقبة مرتين على الأقل. وحينما تتم الإنة
المفاصل على هذا المثال يحك الكعبين وباطنى القدمين بحجر خشن ذى مسام
متخذ من الآجر المطبوخ فيعمل عمل المبرد فى الحديد ثم يدلك اللحم بقطعة
من الصوف تسمى الكيس. وبتأثير هذا الدلك الشديد يخيّل للمستحم أن
البشرة تنزع من مكانها ولكن الحقيقة أن الأقدار هى التى تنزع من البشرة

وتسقط بما غمر الجسم من العرق. ذلك لأن الجزيئات الصغيرة التى كانت تسد المسام ينتزعها الكيس من مكانها فيتكون من اجتماعها بعضها ببعض ما يشبه الشكل الاسطوانى السالف الذكر. ومتى تمت هذه العملية شعرت بالبشرة وقد تناسق سطحها ونعمت نعومة الحرير ولا يستطيع المرء أن يتصور مقدار القاذورات والأوساخ التى تخرجها يد المدلك من جسم أكثر الناس نظافة — أى من جسم الذى اقتصر فى الاستحمام على الحمامات المنزلية ولو تتابع استحمامه فيها.

ينتقل المستحم بعد ذلك إلى خلوة يصب ذلك الخادم فيها على رأسه رغوة من الصابون المعطر ثم يغسله بقطعة من ألياف النخل يسمونها بالليف. فإذا تم تنظيف رأسه وجسمه بهذه الطريقة ينزل في حوض ماء ساخن ثم يغطى رأسه وجسمه بعد الخروج منه بالبشاكير الكبيرة ويعود إلى البهو الذى تجرد فيه عن ثيابه، وهناك يطرح نفسه على طراحة يغطى فيها مرة أخرى بالبشاكير الجافة ويجفف الماء الذى كان على جسمه بها بالدلك مرة أخرى ويقضى في هذا الوضع نحو نصف ساعة مستشعرا النعيم والراحة، وتقدم إليه خلال ذلك القهوة أو الشيك للتدخين حتى إذا ما انتهى من ذلك كله لبس ثيابه التى يبخرها الخدم ببخور العود.

والعادة أن الإنسان إذا استحتم على هذه الطريقة الشرقية شعر بهناء ولذة ونعيم يستحيل عليه وصفها. وغاية ما يقال أنه يستشعر بمرونة في الأعضاء ونشاط في الجسم لم يسبق له اعتيادهما بل يستشعر بأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه، أو أن حياة جديدة فتح له بابها وفيها يتمتع مع الهناء والسعادة بحياة طيبة لا يدرك قدرها إلا العقل والقلب كما تدركه جميع الجوارح.

وكثيرون من الناس يقصدون إلى الحمامات مرتين في الأسبوع كما يقصدها غيرهم مرة واحدة وأقل من مرة. ومنهم من يقتصر على الاستحمام في حوض ويغسل رأسه بماء الصابون المعطر. والاغتسال فرض على المسلمين كلما ضاجعوا نساءهم أو لحق بهم دنس من أى نوع ما.

ورسم الدخول في الحمام زهيد جدا. وفي متناول يد الناس جميعا فالفقراء منهم لا يعطون رسما لاستحمامهم أكثر من خمس بارات إلى عشر

أى من ثلاثة سنتيمات إلى ستة. وهم بهذا الرسم لا تدلك أجسامهم بالكيس ولا تغسل بالصابون.

أما أصحاب اليسار فيدفعون رسما للاستحمام الكامل من قرش إلى خمسة قروش - أى من خمسة وعشرين سنتيما إلى فرنك واحد وربع الفرنك على أن الدخول في الحمامات أمر من الأهمية بحيث لا يوجد ثرى إلا وفي بيته حمام خاص به.

واعتقد أن الحمامات الشرقية مفيدة للصحة إفادة تامة، أولا لأنها كفيلة باستمرار النظافة. وهو الأمر الذى لا بد منه في بلد تبلغ الحرارة فيه هذا المبلغ ويكثر العرق ويشور الغبار، فيكون ذلك كله من بواعث القذارة، ثم إنها لما كان امتناع العرق في مصر من أهم بواعث الأمراض فإن استعمال الحمامات يكون من هذه الوجهة نافع الأثر عظيم الفعل بإيقاظه على الدوام الوظائف الجلدية. وبدهى أن التجربة أثبتت للشرقيين فائدتها من هذه الجهة، ولهذا تراهم متى استشعروا بالم أو بضعف ولو خفيف في الجسم أو بجفاف في البشرة إلى غيرها من العوارض قصدوا إلى الحمام من فورهم وقضوا به بضع ساعات ثم كرروا هذه العمليات أياما متعاقبة.

وإلى الاستحمام في الحمامات يرجع الفضل في شفائهم من الأمراض الخطيرة كالأمراض الزهرية والجرب إلى آخر الأمراض الشائعة في الشرق.

ومما لا ريب فيه أن انتشار الحمامات في الشرق سبب من أهم أسباب نقص الأمراض الجلدية كالبرص وغيره التى كانت في العهد السابق — بتفشيها بين الناس — تلحق بهم أضرارا كبيرة وتفتك بحياتهم وبناء على ما تقدم فإننى أعتبر أن الحمامات الشرقية من أقوى عوامل حفظ الصحة عند الشرقيين. وإننى أتمنى على الله المنى أن يشيع استعمالها في البلاد الأوربية. لأن الحمامات التى انشئت بها حتى هذا اليوم ليست إلا تقليدا معيبا للحمامات الشرقية إذ توزيع أقسامها ردىء والانتقال فيها من الحر إلى البارد لا تراعى فيه شروط التدريج. هذا فضلا عن أن التدليك والتكيس ليسا فيها كما هما في حمامات الشرق.

ومع انتشار الحمامات في مصر السفلى فإنها غير معروفة فيما يلي مدينة

جرجا جنوبا . لأن الأهالى هناك من رجال ونساء يكتفون بالانغماس فى النيل المتأثر بحرارة الشمس والخروج منه وحرارة الطقس هناك تقوم مقام الحرارة الصناعية الناشئة عن تباخر الأبخرة من الماء الساخن فى الحمامات العادية.

٤١. استخدام الوقت والأشغال

ينهض المصريون مبكرين. إذ من واجب المسلم الذى يهمله أداء صلاة الصبح فى ميعادها أن يستعد لها عند بزوغ الفجر فيلبس ثيابه ويهيئ نفسه. وأول عمل يقوم به بعد أدائه فرض الوضوء والصلاة أن يشعل شبكه = يدخن البايب = ويتعاطى قهوته. وكثير منهم يكتفون فى الصباح بهذا الشراب، ولكن غيرهم يميلون إلى تناول طعام الفطور.

والموسر المنتصرف فى وقته يمتطى بعد ذلك جواده وينطلق به إلى منازل أقربائه ومعارفه لزيارتهم أو إلى السوق لشراء بعض اللوازم، ثم ينتظر ساعة العشاء متحدثا مع صديق له ويتناول طعامه الأول قبل الظهر ثم يدخن ويشرب القهوة. وبعد العشاء يدخل إلى حرمه حيث تسهر زوجته وجاريته على إعداد ما تتوافر به الراحة له، وهناك ينام ساعتين أو ثلاث ساعات وبمجرد ما يستيقظ من نومه يغسل وجهه ويعمل على كيفة.

وهذه الكلمة لا مقابل لها فى لغتنا وإنما تدل على حالة بها تتوافر الراحة والنعيم للعقل والجسم معا ويسكن الإنسان فيها إلى الدعة والتمتع بالسعادة وتقف الحياة العملية. فهو بالجملة نوع من السبات ترتاح النفس إليه وتكمل اللذة به تلك اللذة التى لا يفيد معناها إلا كلمة Far nienic عند الايطاليين ثم يدخن جملة شبكات ويتعاطى القهوة ويلعب بلعبة الدامة أو الشطرنج حتى العصر حيث يعود إلى منزله لأداء الصلاة أو يذهب إلى المسجد للقيام بها فيه. وبعد انتهائه من ذلك يخرج للنزهة راجلا أو راكبا، ثم يعود قافلا إلى منزله قبل غروب الشمس بساعة كى يتأهب لصلاة المغرب وتناول طعام العشاء بعدها. وبعد العشاء يبرح منزله مرة أخرى إما إلى إحدى القهوات لسماع القصص التى يرويها الشعراء، وإما إلى أحد الأصدقاء للمسامرة معه ساعة من الزمان أو ساعتين وهو ينام عادة فى الساعة الثامنة أو التاسعة من المساء

ما لم تكن هناك حفلة خاصة كزفاف عريس مثلاً فإنه يطيل السهرة أكثر من ذلك. وربما يدعوه جمال الطبيعة في الليل إلى الصعود إلى سطح منزله ليستجلى مناظر السماء ويستنشق النسيم العليل.

تلك هي حياة الرجل الغنى وهي حياة مبنية على الدعة والسكون والتصون عن الأعمال فإذا شئت أن تصفها بوصف ما فقل إنها الراحة المطلقة. والظاهر أن المصرى يمقت الحركة ويجتنب السعى حتى إنه لا يرى في السير للنزهة باعثاً من بواعث اللهو، ولا يستطيع أن يتصور كيف يجد الأوربيون لذة في هذا النوع من الرياضة.

أما الذى يتولى مراقبة عمل ما أو إدارته أو يكون موظفاً في إحدى المصالح فإنه يذهب في الصباح إلى مقر عمله أو مركز ديوانه حيث يقضى النهار كله ويتناول فيه طعام الغداء ثم إلى داره.

وجماعة التجار يقضون النهار كذلك في حوانيتهم وهذه الحوانيت لا توجد غالباً في البيوت التى يسكنونها ولا في الأحياء التى هم من أهلها.

أما الصناع فيبدأون أعمالهم مبكرين ومثلهم الفلاحون فإنهم يخرجون إلى حقولهم في الصباح ولا يرجعون عادة إلى بيوتهم إلا في المساء، والأعمال الزراعية ليست على جانب عظيم من المشقة لأنهم يؤدونها ببطء شديد ويقضون شطراً من وقتهم في النوم لالتماس الراحة مما يكون قد نالهم من العناء ويكونون في نومهم غالباً معرضين لأشعة الشمس، ولكنهم يقصعون = ينكمشون = في أرديتهم إذا لم يكن بالقرب منهم أشجار يأوون إلى ظلها. ولقد اعتادوا حرارة الشمس حتى إنهم قلما يضجرون من زمن تأثيرها فيهم أثناء النوم أو يصيبهم من جرائها أقل ضرر.

٤٢. النوم وطريقة الرقاد

إن الشعوب والأقوام الساكنة بالبلاد العثمانية بدوية الأصل كلها على وجه التقريب، فليست مسألة النوم عندهم من المشاغل الهامة أو المسائل الخطيرة لأنهم بما اعتادوه من تقويض خيامهم في كل لحظة للظعون والانتجاع لا يحوون النوم بالوسائل الكفيلة بالراحة التى تستلزمها معيشة الإقامة في البيوت الثابتة، وقد ورث الأتراك والعرب الحاليون في هذه المسألة

كما ورثوا في غيرها من المسائل مآدرج عليه أجدادهم من الأخلاق والنزعات والعادات فهم بوجه عام لا يعرفون استعمال الأسرة. نعم إن البعض منهم قد درجوا على استعمالها من سنوات قليلة ولكنهم الفئة اليسيرة. والذي جرت عليه عادة المصريين في الرقاد أن يلقوا طراحة أو جملة طراحات فوق البسط أو السجاجيد ثم ينامون عليها بثيابهم ويزعمون أن هذا الفراش الذي يجهزونه في بيوتهم كل مساء ويجعلونه لاصقاً بالأرض أصلح من كل طريقة سواها للرقاد بسبب احتفاظ الفراش في كل نقطة من نقطه وجهة من جهاته بالاستواء الأفقى. ويقولون أيضاً إنه أقل كلفة من الأسرة وأبسط في الاستعمال، وإذ كانوا لا يخصصون في منازلهم غرفاً معينة للنوم بها فإنهم يطوون الطراحات بسهولة ويرفعونها لوضعها في مكان آخر، وبذا يتصرفون في الغرفة التي قضوا الليل فيها نوماً لما يشاءونه من المصالح البيتية الأخرى.

وطراحات الشرقيين محشوة بالقطن وليست بذات سمك عظيم. لأن المصريين يفضلون الزيادة في عددها على المبالغة في حشوها. وسعة الطراحات من طول وعرض وسمك مقررة عندهم ومرعية في كل مكان لأن تقديرها بنى على ما هنالك من الضرورة لطياها ونقلها من مكان إلى مكان، دع أنه إذا كان الفرش مكوناً من طراحات سميكة فإنه يسد المنافذ ويكون باعثاً على زيادة الحرارة.

وملاءات الأسرة عند الأغنياء تتخذ من الحرير أو التيل الناعم، وتكون الملاءة العليا متصلة بالغطاء.

وأصحاب اليسار في المدن يخلعون قبل النوم الثياب التي كانت عليهم في النهار فلا يبقى منها على أجسادهم إلا القميص واللباس ثم يلبسون جلباباً يسمونه بالقفطان يشدونّه على وسطهم بحزام من الكشمير أو الحرير ويخففون من القلنسوة مكتفين بطاقيّة بسيطة.

والكثيرون من الصناع والعمال لا يملكون في العادة ما يفتershونه أثناء نومهم غير السجاجيد والأبسط. والفقراء منهم يتوسدون الحصر، والنوم عندهم ليس من المسائل التي تستوجب قلق البال. إذ أنهم يعمدون إلى رداء واسع يلفون أجسامهم به أو يفعلون مثل ذلك بالغطاء الذي يبعثون التغطى

به ثم يرقدون على الأرض. وقد اعتادوا جميعا هذه الطريقة في نومهم إلى حد أنه لما شرعت الحكومة في تنظيم الجيش على النسق الجديد ارتأت ألا تعطى العساكر فراشا ما للرقاد عليه مقتصرة على أسرة الميدان التي كان هؤلاء العساكر يفرشونها ببطانية صوف ثم ينامون عليها.

والظاهر أن المصريين ينامون طوع إرادتهم. فالأغنياء منهم إذا أحبوا أن يجلبوا النوم بسهولة كلفوا جواريتهم أو خدمهم أو نساءهم بكبس أقدامهم وسيقانهم فيفعل هذا الضغط فيهم. فعل التنويم المغنطيسي. وإذا اشتدت الحرارة عهدوا إلى عبيدهم السهر طول الليل بجوارهم ليذبوا بالمذبات عن وجوههم ما يساقط عليها من الذباب أو ليروحوا على وجوههم بالمرآوح ولهم طرق خاصة للاستيقاظ من النوم فإنهم لا يستيقظون على جلبة صوت أو جذب يد، كلا! بل أن الخدم أو العبيد يدنون منهم باحتراس وحذر ويمرون بأيديهم مرا متداركا على باطن أقدامهم إلى أن ينتبهوا من نومهم مستشعرين بلذة هذا اللمس.

٤٣. أصوات النداء والتعجب والاستفهام والقسم.. إلخ

لما كان المسلمون شديدي التمسك بالدين فإنه غالبا ما تراه في أثناء محادثتهم يرفعون أصواتهم بذكر الإله والنبى والقرآن في كل من تلك الأحوال. وهم شديدي الميل إلى القسم. فلا يستشهدون على ما يقولون إلا بتلك الكلمات التي هي موضع إجلالهم واحترامهم وكثيرا ما ينطقون في الأيمان بكلمة «والله» وقبل أن يبدأوا بعمل أى شىء يرون من الواجب أن يقولوا «بسم الله الرحمن الرحيم» فإذا انتهوا منه قالوا «الحمد لله» وهم لا يحدثون أبدا عن شىء في المستقبل إلا إذا قالوا [إن شاء الله] أو عن حادث وقع في الماضى إلا وقالوا «الله أعلم».

والمسلمون أبعد الناس عن سب الأديان وإذا سمعوا أحدا يسبها امتلأوا حنقا وغيظا. أما معجم الشتائم عندهم فغنى بكثرة الألفاظ. ومنها ما يندى الجبين خجلا عند ذكره. فهم يتقاذفون بمثل لفظ «الخنزير» و«الثور» وهم يتظاهرون أحيانا بالبصق على الذين يشتمونهم. لأن البصق في نظرهم أبلغ

في الإهانة والتحقير.

٤٤. الخدم

اعتاد المسلمون الإكثار من الخدم وهؤلاء ينقسمون فرقا عديدة لكل فرقة اختصاص بحسب ما تزاوله من العمل. فمنهم الفراشون الموكلون إليهم العناية بالشئون الداخلية في المنزل وفرش الفراش... إلخ. ومنهم السقاءون الذين يحملون إلى المنزل ما يحتاجه من الماء، ومنهم الطباخون الذين يباشرون طهي الأطعمة، ومنهم الشبكجية الذين يجهزون الشبكات بوضع الدخان وتقديمها إلى المدخنين. ومنهم القهوجية والسواس الأولون لتقديم القهوة والآخرين لتدبير شئون الدواب. ولكل منزل بواب يحرس مدخله ويعرف الداخل فيه والخارج منه.

وجرت العادة بأن تكون رئاسة الخدم للسقاء. وفي بيوت متوسطى الحال يكون لكل فراش من الفراشين رئيس مسيطر على أفرادها. والخادم لا يؤدي سوى العمل الذى وكل به أداؤه والذى يعتبر أنه صناعة له لا يجوز أن يتعدها إلى غيرها. وفي هذا من المضار والعوائق ما يجعل رب البيت مضطرب دوما في قضاء حاجته، ولو كانت تافهة، إلى الاعتماد على أناس مختلفين يعلم أحدهم ما لا يعلمه الآخر. دع ما يستلزمه أيضا من استخدام عدد عظيم من الخدم والقيام بالانفاق عليهم جميعا. ولقد تغيرت هذه الحالة بعض الشيء إذ قل عدد الخدم كثيرا عن ذى قبل، واقتصرت الناس على الاحتفاظ بمن لا يستغنى عنه منهم، وذلك بفضل سمو الوالى ونجته إبراهيم باشا اللذين نصبا نفسيهما للقوة في هذا الموضوع.

والمسلمون كثيرون الرعاية والعطف على خدمهم. إذ يتولون تغذيتهم وكسوتهم مع دفع الأجور المستحقة لهم. وليست هذه الأجور بالشئ الذى يستحق الذكر، ومع ذلك فإنهم يقومون بواجبهم خير قيام ويؤدون عن طيب خاطر الأعمال التى لم يكن القيام بها - وقد قسمت ذلك التقسيم - مما يستدعى الكلفة والمشقة. وإن خادما واحدا عندنا ليقوم بسهولة ومن غير ضوضاء بعمل أربعة أو خمسة من الخدم المصريين، ولذا نرى هؤلاء يعمدون

إلى الدعة والسكون ويميلون إلى البطالة والكسل ولا يزالون العمل بنشاط إلا بدافع الخوف من العقوبة.

ولا يتخذ الرجال أبدا لخدمتهم خدما من النساء ولا النساء خدما من الرجال، والعادة الأوربية الجارية على عكس هذا المبدأ، وهى من أخص عاداتنا وتسوء المسلمين كثيرا إذ يرون فيها العار والفضيحة كلهما.

والخدم المصريون شديدا الشره إلى النقود، وعاداتهم أن يسألوا جميع المختلفين إلى منازل سادتهم، وخصوصا في أيام الأعياد، هدية من المال يسمونها «العيدة» فإنك إذا خرجت من منزل بعد زيارة صاحبه جروا خلفك ليساعدوك على امتطاء جوادك أو بغلك ثم مدوا أيديهم لطلب المكافأة الصغيرة المعروفة عندهم بالبقيشيش. والبقيشيش عادة جائزة متبعة وهى في ذلك كعادة Bona Manc الشائعة في بعض الاقاليم الإيطالية. ويذهب الخدم المصريون المذهب البعيد في المطالبة بالبقيشيش لأنهم يتقاضونه في مقابل ما يكونوا قد أدوه إليك أو أداه سيدهم من الخدم وبمناسبة ما تكون قد قمت به منها لأجلهم فإذا أقمت مثلا وليمة ودعوت إليها أصحابك فإنك ملزم بدفع البقيشيش لخدمهم.

ولقد عدت بصفتي طبيبا أحد المرضى ولم أتناقض أجره عيادتى له فما برحت غرفته حتى حوصرت بالخدم ولم أخلص منهم إلا بإلقائى بعض النقود في أيديهم. ولقد نهى سمو الوالى عن هذا لعبث وشدد في أمره ولكنه كان متأصلا في النفوس فلم يستطع اقتلاعه منها.

وكان من غير المسموح به للمسيحيين في البلاد الإسلامية اتخاذهم الخدم من المسلمين لاعتبار القوم استخدام المسيحي مسلما إهانة للإسلام وسبة. ولكن مصر ظلت بعيدة عن هذه العادة التى دعا إليها التعصب ولولا تسامح المصريين في هذه النقطة لوقع الأوربيون المقيمون بها في أشد الحيرة والاضطراب بدون ريب.

(٤)

النساء

النساء المصريات - وسائل الزينة - تزجيج الحواجب - تلوين الجفون والأظافر والأصابع وياطن القدم - الوسيلة الصناعية لتسمين العنق - الوشم - خفض النساء - النساء التركيات - سن البلوغ عند المصريات وحملهن وشيخوختهن - الملابس - النساء الغنيات - التعديلات الحديثة التي طرأت على ملابس النساء الغنيات - نساء العامة - الميزات الممنوحة للنساء - زيارات نساء الحرم - مشاغل النساء - آراؤهن في حالتهن - استحمام النساء في الحمامات - حكاية رواها نابليون - أخلاق العاهرات المصريات.

٤٥ - النساء المسلمات

النساء المسلمات، وهن الشطر الأوفى من جماعة الجنس اللطيف في القطر المصري، متوسطات القامة يلفتن الأنظار إليهن بحسن شكلهن ويشاركن الرجال في متانة التركيب ووثوق الأركان، ويقاسمنهم مشاق العمل الواجب عليهم وحدهم أن يقوموا به، وكثيرا ما يعلنون عليهم في أدائه. وعمودهن الفقري مقوس وأعضاؤهن المختلفة مستديرة منتظمة وأيديهن وأرجلهن صغيرة شتنة، وأعينهن واسعة سوداء سوادا فاحما، ينقذ منها شرر الحياة، تحيط بها أهداب طويلة تزيد وجوههن حسنا وتثبت فيها من الحلاوة ما يستهوى الأفئدة وأنوفهن صغيرة خفيفة الانبطاح وشفاهن سمكة قليلا وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البياض تخالف ببياضها لون بشرتهن الضارب إلى السمرة، تتفاوت سمرة بحسب ما إذا كن من أهالي الوجه البحري أو أقاليم مصر الوسطى أو الوجه القبلي أو من أهالي المدن أو الريف، وأثداؤهن جيدة التكون حسنة الوضع واقية صلبة تحلى صدورا عريضة، لا قبل لها بالحيل الضارة التي يلجأ إليها السيدات الأوربيات لتحسينها.

أما مشيتهن ففي النهاية من الرقة والرشاقة والدلال، إذا مشين فبخطوات واسعة معينة المواطىء. وفي أوضاع أجسامهن ما يشعر بالجلال والفخامة وفي حركاتهن من اللطف والرشاقة والخفة ما يحرك ذكرى نساء العصور الغابرة وفي أصواتهن من العذوبة والرخامة واللين ما يستهوى السمع ويرتفع له حجاب الأذن خصوصا وأن عباراتهن في أحاديثهن كثيرا ما تلابسها تلك العذوبة، فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «يا عيني» «ياروحى» «يا قلبى» إلخ ألفاظ الرقة والعطف. وإذا كان المخاطب رجلا أطلقن عليه اسم السيد أو الأخ أو غيرهما من الألفاظ التى تستروح منها رائحة الاحترام.

٤٦ - وسائل الزينة والتبرج

تهتم المصريات كثيرا بوسائل الزينة والتجمل لأنهن شديديات الطموح إلى الظهور في المظهر الفاتن لعقول الرجال وقد استنبطن لإصابة هذا الغرض ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان. منها أنهن بدلا من تركهن الحواجب تنمو على طبيعتها يزججنها أى يرققنها بالإنقاص من عرضها حتى لا يبقى منها سوى خط رقيق جدا. ومنها أنهن يكتحلن أى يصبغن باللون الأسود منابت شعر الأجفان ويستعملن لهذا الغرض مسحوقا أسود يسمونه الكحل أو الاثمد يضعنه في إناء صغير من الفضة أو البللور يسمى المكحلة يدخلن فيها عند الاستعمال الميل (المروء) الذى يرفعن المسحوق به إلى الجفون فإذا تكحلن على هذا الوجه بدت أشجار الأجفان سوداء براقية، وإذا لم يسفرن من الكحل حصلن على نتيجة حسنة تبدو عيونهن بها في أجمل ما يكون. ويضعن في مكان يخترنه من الوجه الخال الصناعى كما يضعنه على الرقبة والنحر.

ويصبغن أظافرهن والأجزاء الناتئة من باطن سلاميات الأصابع وباطن القدمين وأطراف أصابعهما باللونين الأسود والأحمر. يحصلان عليهما بورق شجيرة الحناء. فإن هذا الورق إذا سحق وبل المسحوق في الماء تكونت منه عجينة توضع على الأيدي بتقسيم فنى لا يعلمه غيرهن. فإذا نزعته في الصباح وجدت تاركة اثرا جميلا جدا، والمفهوم أن الغرض من هذه العناية أظهار بياض بشرتهن وحسن لونهن.

٤٧ . الوشم أو الدق

اعتاد نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وأذقانهن وسواعدهن وأيديهن.

٤٨ . خفض النساء أى (ختانهن)

تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ناهزن السابعة أو الثامنة، إذ يؤخذن إلى الحمام وفيه تؤدي تلك العملية الموكلات بها بواسطة مقراض ردىء. ولست أعلم أصل هذه العادة ولا سببها، ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حدة شهوة المرأة المصرية لا ما يعززون إليها من الأسباب الصحية فإن بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجما ولا أكثر انتشارا منه في المرأة الأوروبية. دع أن الديانة الإسلامية لم تحتم حذف هذا العضو من جسم المرأة. والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع إلى استمرارها على توالى الأجيال ومر الأزمان.

٤٩ . النساء التركيات

النساء التركيات أجمل نساء القطر المصرى على الإطلاق. لأن أغلبهن من الجوارى الجركسيات ومنهن طائفة السرارى والحظيات في القصور ودور الأغنياء وبشرتهن ناصعة البياض وتقاطيعهن من التناسق والجمال بحيث يمكن القول بأنهن أجمل نساء الأرض طرا.

٥٠ . سن البلوغ عند المصريات وسن الشيخوخة

تبلغ نساء مصر سن الحلم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن، ويصرن لهذا السبب أمهات في الثانية عشرة وجدات في الرابعة والعشرين وجدات لوالدات في السادسة والثلاثين وجدات لجدات في الثامنة والأربعين، وليس من النادر في مصر أن يرى الإنسان نساء معاصرات للطبقة الخامسة من سلالتهن.

وبلوغ النساء المصريات الحلم في تلك السن يؤدي غالبا إلى ذبول زهرة شبابهن. بحيث لا يبعد أن ترى مصرية في الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرفوه المرأة الأوروبية في الخمسين من عمرها. وقد اجمع المؤرخون من قديم الزمان على سرعة قابليتها للحمل. والمصريات

اللائي يصبن بالعقم ينظر إليهن بعين الاحتقار والامتهان، لذا تراهن دائبات
على البحث عن الوسائل الكفيلة بحملهن، ودخولهن في ديوان الأمهات.

٥١- لباس السيدات الغنيات

نساء العظماء وذوى الحثيات يمتزرن على سائر النساء بما تجمع
ملايسهن على تنوعها من أسباب الزخرف والزينة والتبرج من زركشة
بالذهب والحريير والكشمير ذى الألوان الساطعة وما يتعلق بكل ذلك من
التوشية وغيرها. وفيما يلي بيان الملابس المختلفة الخاصة بالسيدات:

قميص من حريير الموسلين أو القماش الدقيق السلك أو الكريب أو
الأنسجة الثمينة، ويكون إما أبيض وإما على ألوان كالوردى والبنفسجى
والأسمر والأزرق السماوى أو الأسود أحياناً. ويزركش غالباً بالحريير أو
أسلاك ذهب لامعة ويكون فى العادة واسعاً جداً وعريض الأكمام وقد لا يهبط
إلى الركبة فيغطى الجزء الأعلى من الملابس الذى يتخذ من التيل الدقيق السلك
وإما من حريير الموسلين.

شنتيان عريض القماش يناط بالخصر بواسطة تكة تمر فى باكية بأعلاه
ويربط من أسفل بالساق ويهبط من موضع ربط سابلاً إلى القدمين فيكون
أشبه شىء بالجونيلا.

يلك (أى ثوب) يلتصق بالقامة عند الحرقفتين فيصفهما إلى القدمين، وهذا
الرداء مقور بحيث إن مكان النحر منه لا يغطيه ولا يثبت فى مكانه إلا القميص
وهو يحتوى أزراراً من أمامه تتلو بعضها بعضاً من فوق إلى تحت الحزام،
ويكون مفتوحاً من الجانبين من ابتداء الحرقفتين، والكمان يلاصقان
الذراعين ثم يذهبان متسعين شيئاً فشيئاً من الكوع ويهبطان حتى يعادلا
أسفل الثوب وقد ينتهيان عند المعصمين.

حزام يحيط بالوسط، وهو إما من الشال الكشميرى أو مربع من حريير
الموسلين أو من أى قماش آخر كالشيت بحسب تفاوت درجات اللابسات فى
الثروة. فإذا كان الحزام عبارة عن مربع من الحريير فإنه يطوى على اتجاه
أحد القطرين ثم يوضع على أسفل البطن وتبقى زاوية من زواياه من خلف

الجسم، ثم يعاد بطرقه إلى الأمام حيث يثبتان بعقدة أو مشبك. وبهذه المثابة يكون الحزام المحيط بالجسم غير ضاغط له في أى جزء من الأجزاء التى يلامسها.

وتلبس السيدات فوق اليك جبة من الجوخ في فصل الشتاء، وينتهى كما هذه الجبة عند الكوع وتقوم من الأعلى ولا تلتقى حافتها فوق الصدر. ولذا تبقى مفتوحة على الدوام، وتكون إما ساذجة بسيطة أو مشغولة بالتطريز وبعض السيدات يستعصن عن الجبة بلباس آخر معروف عندهن باسم «السلطة».

أما القلنسوة - أى لباس الرأس فعبرة عن طاقية حمراء صغيرة يلف حولها على شكل العمة منديل أو أكثر من قماش الكريب أو حرير المسلمين الأبيض أو المرسوم أو المزركش بصنوف الزخرف.

وفي مقدمة الطاقية تثبت صفيحة مستديرة مكورة يبلغ طول قطرها ثلاثة بهامات تقريبا وتسمى بالكور، ونساء الطبقة الدنيا يتخذن هذه الصفيحة من الذهب فقط.. أما نساء الأغنياء فيتخذنها كذلك مرصعة بالأحجار الكريمة.

وترسل شعور القسم الأمامى من الرأس مجمعة بشكل الخلقات أو الصدغين أو ترفع الى فوق بالشكل المعروف «بالبانديو» والنساء المصريات كنساء أوروبا يجمعن شعورهن خلف الرأس ولكنهن بدلا من رفعه إياه عليه يرسلنه إلى الظهر ويعقصنه صفائر صغيرة يختلف عددها من إحدى عشرة صفيرة إلى خمس وثلاثين، ويهتمن الاهتمام كله في أن يكون عدد هذه الصفائر فرديا ويدخلن في تركيبها ثلاثة خيوط خفيفة من الحرير وتنتهى كل صفيرة بحلية ذهبية أو بقطف من اللؤلؤ أو بقطعة نقد مثقوبة من الحافة. ومجموع هذه الصفائر منسقة على الوجه السالف يسمى بالصفاء.

ثم أن المصوغات والآلى والأحجار الكريمة من الماس وغيره تكثر في زينة تلك النساء، فيكون منها الأقراط في الأذان والعقود العديدة والقلائد في النحور والخواتم الساطعة الضياء في الأصابع.

والسيدات المصريات بوجه عام لا يلبسن الجوارب. ومع هذا فبشرة أقدامهن من النعومة بما لا تختلف به عن بشرة أيديهن لأنهن يغسلنها غالبا

بالماء المعطر ويعنن بتنظيفها ويقلمن أظافرهن بالحناء. واللائي يبالغن منهن في التأنق ويذهبن المذهب البعيد في التبرج يحلين أصابع أقدامهن بما يحلين به أصابع أيديهن من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ويلبسن في أقدامهن حذاء يسمونه (المزد) من الجلد الأصفر أو القطيفة المشغولة بالحرير أو القصب لاحافة له من الخلف، لذلك يرى الكعبان ظاهرين للعيان، ويقوم المزد في أقدام النساء مقام الجوارب. لأنهن يبقينه بأقدامهن أثناء ذهابهن إلى الدواوين والسجاجيد. أما إذا أردن السير في مكان آخر فإنهن يلبسن من الأحذية نوعا يقال له البابوج وهو حذاء من الجلد الأصفر طرفه دقيق ملتو إلى فوق، وإذا أردن الخروج وضعن أرجلهن وسيقانهن في أحذية صغيرة من الجلد الأصفر صونا للساق من وقوع النظر عليها.

إن اللباس الذى وصفته الآن خاص بداخل الحرم، وهو فى بعض أجزائه على غاية الحسن . ولكن اللباس الذى تتغطى به النساء بين الجمهور يجعلهن شبيهات بالراهبات عندنا، أو بعبارة أخرى بمن يلبسن الثياب المعروفة بالدمينو فى مراقصنا.

فإنهن إذا أردن الخروج أفرغن على أجسامهن فيضا من الحرير الأسود يسمينه «السبله» ثم يغطين هذا القميص بإزار واسع جدا من حرير الحر (التافتا) ويسمينه بالحبرة. وهو يغطى الجسم كله . وهناك إزار آخر من حرير الموسلين يستر من وجه المرأة المصرية إذا لبسته، كل شئ إلا العينين وحبرة المتزوجات سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات اللائى لم يتزوجن فإنها بيضاء اللون، ونساء الطبقة الدنيا اللائى لا يستطعن اقتناء الحر من الأقمشة الحريرية يتخذن هذا اللباس من نسيج الخيط والقطن ذى الأرضية الزرقاء ويسمينه «الملاءة».

٥٢ . التغييرات التى أدخلت على ثياب نساء الأغنياء

إن الزى الحديث فى الثياب لم تصل عدواه إلى النساء المصريات ورجالهن. ومع هذا فقد أخذ اللباس المصرى، منذ سنوات قليلة، يتغير شيئا فشيئا بتأثير التحسينات التى أدخلت عليه - مثال ذلك لباس الرأس عند السيدات أصبح غير مثقل بالعمائم الكبيرة المرصعة بالجواهر، وهذا فضلا عن أن الصفا نفسه كاد يزول استعماله على أثر اعتياد النساء ضفر شعورهن

ورفعه فوق الرأس.

ولم تعد النساء يتركن القميص فوق الشنثيان كما كن يفعلن سابقا، كما أن اليك لم يبق بطول اليك الذى كان شائع الاستعمال قبلا. إذ أصبح كماه منتهيين عند المعصمين ولم يكن مقورا على الصدر بل صار يزرر فوق هذا الجزء من الجسم ويلتقى طرفاه به كما فى ثياب الأوربيات. أما الجبة فقد أصبح استعمالها مقصورا على الطاعنات فى السن وشاع استعمال الجوارب بين نساء الطبقة العليا وتركت الملابس المزركشة بالذهب فى زوايا النسيان وحل محلها نسيج حرير الموسلين الساذج..

وبالجملة فقد تمت هذه الإصلاحات وأدخلت على اللباس المصرى فجعلته مطابقا للذوق السليم ومانعا من الإسراف فى النفقة والاسترسال فى الزخرف الذى لامعنى له.

٥٣- نساء الطبقة الوسطى

يلبس نساء الطبقة الوسطى بدلا من قميص التيل قميصا من الحرير وحذاء يسمى بالمركوب. يمكن أن يقال أن أقدامهن لاتشعرن فيه بضغط ما عليها.

٥٤- نساء الطبقة الدنيا

أما لباس نساء العامة فأكثر من اللباس السابق سذاجة. لأنه عبارة عن قميص واسع من القماش الأزرق عريض الكمين جداً يلبس فوقه قميص أبيض ولباس. وهن بوجه عام لايحملن الأحذية فى أقدامهن.

٥٥- مساكن النساء والحرم

فى منازل الأتراك قسم منفصل عن القسم الذى يسكنه الرجال أو الذى يجتمعون فيه . وهو خاص بسكنى النساء ويسمى «الحرم» والفكرة الشائعة عن الحرم فى أوربا لا أثر لها من الصحة ولا نصيب من الصواب. فإن هذه الكلمة مستعملة فى المعنى الذى يؤخذ من لفظ السراى أو القصر. والحال أن المسلمين يطلقون كلمة الحرم ليس فقط على المسكن الذى يقطنه النساء بل مايحتويه هذا المسكن من الساكنات - أى على المحل والحال.

وليس فى التقسيم الداخلى للحرم ما يعد خارجا عن القواعد المألوفة. فإنه

يحتوى - كالمسكن الخاص بالرجال - ديوانا أى غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وتستقبل الزائرات، ثم حجرة لكل منهن وغرفا تابعة لهذه الحجرات لسكنى جواريهن وخدمهن وحفظ حاجاتهن المنزلية. ورب البيت يجتهد بقدر الإمكان فى تجنب أن يكون لهذه الحجرات نوافذ تطل على الشارع، ولذا تستمد الضوء والهواء من نوافذ تطل إما على الحديقة وإما على صحن البيت، والنوافذ ذات حواجز من الخشب المشغول بحسب الفنون المستظرفة فتحول دون نفوذ الأشعة الشمسية وأشعة أنظار الذين يحاولون استكشاف ما وراءها.

والفكرة السائدة فى أوربا عن الحرم أنه مهد للفسق والفجور وبؤرة للعاهرة اتخذتها أمة فاسقة لتمتعاتها الشهوية العديدة والمضى فى تيار الفساد الذاهب بالعقل. وهذا هو الوهم الباطل بعينه. فإن الحرم يسود فيه نظام أساسه الشدة والقسوة وتنتشر عليه ألوية الصيانة الدقيقة.. وهذا وذلك مما يجعله أقرب فى الشبه إلى الأديرة الخاصة عندنا بالنساء.

٥٦ - الهيئة التى يتألف الحرم منها

لا يذهب الوهم بالقارئ إلى أن المقصود بوجود النساء فى الحرم الاستعداد لإطفاء شهوات رب البيت. لأن حرم الرجل الغنى يقتضى التوسع فى المعيشة والاسترسال فى المظاهر ويتطلب وجود عدد عظيم من الخادما للقيام بحاجات الخدمة الداخلية. وتكون هاته الخادما عادة من السودانيات، وهذا وحده يكفى لإدراك الحالة التى يصير إليها الحرم إذا جاز أن يتألف من السواد الأعظم من نسائه.

ثم أن لكل زوجة من زوجات رب البيت بلاطا صغيرا خاصا بها يتألف من جوارٍ مخصصات لخدمتها بالذات يؤدين حواليتها الواجبات المطلوبة من الخدم فى بيت أحد الرجال، ولكل زوجة كاتمة سر وخازندارة ووصيفة، ولكل منهن وظيفة موكولة إلى عهدتها فمنهن من توكل إليها الخدمة على الطعام أو تدبير شئون الثياب، ومنهن من تكلف بتجهيز القهوة أو الشبك وتقديمهما إلى الشاربين والمدخنات.. الخ.

ومن بواعث الشرف للزوجة أن يكون عدد جواريهها كبيرا. لأنها إذا خرجت

صحبنها وسارت هي في طليعتهن افتخارا بأنهن على كثرتهن من توابعها. وكان الممالك في الزمن السابق يرون أن الفخر كل الفخر في أن يسيروا وفي صحبتهم العدد العظيم من الخدم والحشم إظهارا لما كانوا فيه من الثروة والنعيم والصولة.

ولكل من تلك الجوارى اللاتي يشغلن لدى الزوجات تلك الوظائف المختلفة طائفة من الخدامات. فيزداد بهذا النسق عدد النساء في الحرم ويتضاعف بازدياد وتضاعف عدد خدامات الزوجات وخدامات خداماتهن. ومن ثم يمكن أن يقال إن في الحرم المؤلف من مائتي امرأة أكثر من مائة وخمسين يجهلن رب البيت. ولست في حاجة إلى التأكيد بأن الحرم المؤلف من مائتي امرأة نادر جداً في أيامنا، وأن أكابر موظفي الدولة وحدهم هم الذين لا يعجزهم الإنفاق على هذا القدر العظيم من النساء.

٥٧- المعيشة في الحرم

لا ترى النساء المسلمات في بقائهن بداخل الحرم شقاء وعذاباً، لأنهن ولدن في دائرته وبلغن فيه إلى سن الشباب بدون أن يعلمن أن على وجه الأرض مقراً لنوعهن. يخالف هذا المقر ولا طريقة للمعيشة تناقض مآدرجن عليه منها في كنفه. فلقد كان الحرم المعهد الأول للعباهن في طفولتهن وأقراهن وآلمهن وآمالهن فتعاقب الفرح والألم والعمل والراحة في معيشة الحرم الشرقي هو بعينه تعاقب هذه المؤثرات على مسرح الحياة الذي فتح العرب أبوابه لنسائه.

ولقد قيل بحق. وهو قول قاله الحكماء منذ زمن طويل «أن العادة طبيعة ثانية». فمعيشة الحرم من هذا الوجه تنزل من النساء المسلمات منزلة العادة لأنهن إعتدن الحركة في حدود هذه الدائرة فلا يخطر ببالهن أن يتعدينها ولهذا وقفت أفكارهن ورغباتهن عند هذا الحد بدون تكلف وعناء لاعتبارهن إياه مما قضى به الزمن والدين والعادة. وهن إذا بلغن سن الزواج وخرجن من حرم الأم إلى حرم الزوج أحاطت بهن الأفراح والمسرات الجديدة وواجهت أفئدتهم السعادة المأمولة من الحياة الجديدة. لأن التربية التي تربيتها لم تضرهم في هذه الأفئدة ضرام الشهوات المخوفة. دع أن العناية التي يلقيها من أزواجهن تجعل الطريق الموصل إلى تلك السعادة سهلاً ممهداً.

وكل ما يملكه المسلم من حسن ونفيس يخصصه لحرمه، وهو يميل إلى

إعطاء مسكن نسائه رونقا من الجلال والفخامة. بينما يكتفى بالمسكن البسيط لإقامته، ويقتصر في الزخرف ومظاهر الأبهة على اقتناء السلاح والخيول. ومع ما استقر في الأذهان من أن النساء المسلمات رقيق لأزواجهن فإن لهن كما بسائر البلاد نفوذا عظيما وبأسا شديدا. فكم من الحوادث السياسية كان الباعث عليها سرا كميننا = دفيننا = في الحرم وكم من سلطان رضى لما لا يستطيع مقاومته من رجاء حظيته المكرمة. فعين في منصب الوزارة من أشارت عليه برفعه إلى هذه المرتبة السامية أو رقى من شاءت ترقيته من ضباط البلاط.

فالاستفادة من سلطان النساء الحظيات ودالتهن على أزواجهن أمر لا يحتاج إلى زيادة البيان. والسيدات المسلمات، إذا تزاورن حصلن لأزواجهن أو لبعض أفراد أسرهن بلا كبير عناء فوائد جمّة ومزايا جليّة يرجع في منحها إلى الزوجات صاحبات الهيمنة والسلطان على أزواجهن.

٥٨- امتياز النساء بالنجدة

في زمن الحرم تحترم النساء احتراماً خاصاً. فالمقاتل المغلوب على أمره، إذا لجأ إلى الحرم واحتوى بحماه، لا يصيبه ضرر، وفي الأمان السابقة كان مثل هذا الامتياز ممنوحاً لهن بقصد الكرم والنجدة والإغاثة إذ لهن أن يحمين المحرم من توقيع الجزاء عليه والتكيل به.

وبلغ من الأمر في عهد المماليك أن المجرم الذى يساق إلى الإعدام كانت تعصب عيناه حتى إذا الذى في طريقه بموكب لحرم أحد الأمراء اغتنم هذه الفرصة ليلمس طرف ثوب إحدى النساء السائرات فيه. فإن هذه الحركة التى يقصد بها الاستغاثة كانت تؤدى حتماً إلى العفو عنه وإخلاء سبيله.

٥٩ - زيارة سيدات الحرم

لاستقبال السيدات المسلمات من الرجال أهدأ غير الزوج. فإذا اتفق ودعى طبيب إلى الحرم عنى بتغطية المريضة بإزارها أو بأحد الأغطية الخاصة بها وحضر العيادة أحد الخصيان. وفيما عدا هذا فالحرم مفتوح على مصراعيه لجميع السيدات على اختلاف عقائدهن وأجناسهن. وإذا وقف الناس على كثير من تفاصيل الحياة بداخل الحرم وأسرارها فإنما جاء العلم

بها عن طريق المسيحيات واليهوديات اللائي تختلفن إلى الحرم الإسلامى. وتستغرق زيارة السيدات أحيانا أياما متعاقبة. ومتى كان بالحرم سيدة أجنبية فإن رب البيت يرى من أخص واجباته عدم الدخول فيه مهما طال أمد زيارتها به.

٦٠ - أشغال النساء

لا تتلقى النساء المسلمات شيئا ما من العقلية لاعتقاد المسلمين أن المرأة من جهة العقل والفهم أخط درجة من الرجل. ومفهوم أن الدين الإسلامى لم يفرض عليهن بسبب هذا الانحطاط رعاية الفروض الدينية المحضة رعاية كاملة. وذهب بعض العلماء إلى الشك فى أن لهن روحا. وهن يجهلن القراءة والكتابة، ولكنهن يحاولن بعض الأعمال كالتطريز والنسيج والوشى ويزاولن الخدمة البيتية بحذافيرها ويدخلن السرور على أنفسهن فى أوقات فراغهن بالألعاب المختلفة، وقد يستحضرن إلى حجراتهن المغنيات والعوالم للتسلل بهن، وسنتكلم فى الفصول الآتية على مايقمن به فى مجالى السرور والأفراح من أن إلى أن.

أما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد، وكثيرا مايتفق أن يبعث أزواجهن بهن الى الأسواق لبيع الحاصلات المختلفة أو غيرها.

٦١ - رأى النساء فى حالتهم

ما سمعت السيدات المسلمات أن السيدات الأوربيات يرثن لحالهن لما هن فيه من الاحتجاب وعدم البروز للجمهور إلا وقد اعتراهن الدهش، وقابلوا بالملاحظات المرة القارصة عواطف الرحمة والحنان التى لم يكلفن أحد بالإعراب عنها لأجلهن. فإن سيداتنا إذا سألتهن عن فائدة التزين والتجمل إذا كن مرغمت على سترهما عن الانظار فضلا عن احتجابهن وراء الستار أجبن: «إنا إذا تزيننا وتجملنا فإنما لأجل سيدنا ومولانا نفعل ذلك. أما أنتن فلغير أزواجهن من الرجال والنساء تتزين وتتجملن».

وإذا قال لهن أحد إن حالتهم تستدعى الشفقة لعجزهن عن الخروج والذهاب حيث يشأن أجبن على هذا العطف بقولهن: «إنكن لأسوأ حالا منا لأننا إذا شئنا أن نشترى شيئا جاء التاجر إلى بابنا وعرض بضاعته علينا، أما

أنتن فلا بد لكن من الذهاب إلى حانوته» الخ.

٦٢- عادة الاستحمام في الحمامات

تذهب النساء المسلمات غالباً إلى الحمامات وحمامات البخار هذه أحد اجتماعاتهن المألوفة يأسن فيه بعضهن ويروين على مسامع بعضهن نتفا من حوادث الحياة المنزلية فيما يتعلق بأشخاصهن أو بما يتخذنه من التدابير للزواج.

٦٣- حكاية نابليون بونابرتة

أورد نابليون بونابرتة حكاية مؤامرة دبرت في أحد الحمامات العامة يلذ لي إبرازها في هذا المقام لما احتوته من الدليل على أن إقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنواناً على تبدل الأحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال.

قال: «تزوج الجنرال مينو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات. إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها أوفق المجالس ويقدم إليها خير الأطعمة وأشهاها، وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه. فلما روت تلك المرأة هذه الأمور على صاحباتها في أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الأمل في تغير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضاً قدمنه إلى السلطان الكبير- بونابرتة- ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل مايعامل «مينو زوجته الرشيدية به».

٦٤- طباع النساء وأخلاقهن

يتعلم النساء المصريات فيما يتلقينه من التربية عن أهلن الطاعة والاحترام. وإذا كن لرابطة تربطن بالرجال فمن النادر أن يستطعن التفرغ للتدابير والحيل الغرامية، وبهذه المثابة كان شرف الأزواج بالشرق في مامن منه في الغرب. ولا بد لنا من القول هنا بأن النساء المصريات. مع محافظتهن على فضيلة العفاف واستمساكهن بعروتها الوثقى إلى وقت زواجهن حيث يلزمن بإقامة الدليل القاطع على بكورتهن لايلبثن أن يصرن بعد زواجهن أقل حرصاً على كرامتهن. ذلك لأن كرامة النساء - أى العفة لم تكن مرتكزة في

الشرق على قواعد وطيدة من الأخلاق. فإذا وقين أنفسهن شر العار، فما ذلك إلا لخشيتهن بأس أزواجهن لا لاحترامهن أنفسهن أو حرصهن على كرامتهن. وهذا هو السبب الذى جعل الأزواج يضيقون عليهن الخناق ويأخذون عليهن الأطراف بالدأب على مراقبتهن. علما منهم بأن صيانة شرفهم لا تتأتى إلا عن طريق اليقظة والانتباه فى المراقبة والحكمة فى التدابير والاحتياطات التى تتخذ لذلك.

وميل النساء المصرىات شديد الى المضاجعة لانهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة . فلا جرم إذا رغبين فى الكسل وطبعن على اللين والتفنج وأن لا يكون لهن هم سوى استهواء أزواجهن إلى الإعجاب بهن ومنهن من يعكفن على شئون البيت، ولكن إدارة هذه الشئون فى الشرق أقل صعوبة منها بكثير فى أوروبا.

وليس بالإمكان العثور فى مصر على امرأة متزوجة تعيش عيش الخلية مع رجل آخر غير زوجها.

٦٥ - العاهرات

تحرم الديانة الإسلامية، كالديانتين الموسوية والعيسوية العهارة تحريما قاطعا مانعا، ولذا كان وجودها فى الديار العثمانية نادرا جداً، ولكن مصر التى خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة، ولاسيما فى ارتقاء حبل الأخلاق، تجاوزت الحد فلم تنتصر على قبول العهارة فى إجازتها بل كانت تجبى من العاهرات مبلغا جسيما يدفع سنويا لخزانة حكومتها، وكانت طائفة العاهرات فيها إلى عهد قريب منا طائفة معروفة ذات رؤوس يهيمنون عليها وأنظمة خاصة تسير على منهاجها. وقد عدلت الحكومة فى آخر الأمر عن جباية ذلك المال منها برسم خزينتها. بل وقررت منعها إزالة لوصمة وجودها وعار الاعتراف بها.

نعم لا يزال يوجد حتى الآن عدد عظيم من النساء العوميات إلا أنهن يزاولن حرفتهن الساقطة الدنيئة سرا لاجهرا كما كان الأمر قبلا. ومع أن قرار الحكومة بصدها يرمى إلى غرض أدبى أخلاقى بحت. فما نذكره هنا مع مزيد الأسف أنه أفضى إليا اتساع نقيصة أشد خزيا وعارا من نقيصة العهر ألا وهى اللواط. وليس من المستحيل تجاه تفاقم هذه المخزاة الجديدة أن

تنتبه الحكومة لها وتدرأ سوء مغبتها ، بعد أن يستقر في خلدها أن غض النظر عنها مفض حتما إلى تجويز العهارة والرضا بوجودها.

والذى اعتقده أن هذه البلية الاجتماعية يعززها في القطر المصرى العبث بالطلاق وإرخاء العنان للأزواج في تطليق زوجاتهم أكثر مما يعززها المزاج الخاص الذى يحمل المصريات على الأفراط في قضاء شهواتهن. فإن نظرة واحدة في أحوال العاهرات تكفى للإقناع بأنهن بوجه عام من النساء المطلقات اللائى أنفن ذل المعيشة الزوجية وأبين ضيمها أو اللائى لم يستطعن بعد طلاقهن التزوج ثانيا فلم يجدن للارتزاق بابا مفتوحا غير المضى في تيار العهر والفسوق.

٦٦ - الخصيان

يجدر بنا - وقد بلغنا إلى هذه النقطة من موضوعنا - أن نذكر شيئا عن الخصيان الموكول إليهم حراسة الحرم ومراقبته. فإن الخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة أزواجهن . وليس ببعيد أن يراهم الإنسان في الوقت نفسه وقد اكتسبوا ثقة الأزواج والزوجات للتغريير بالفريقين وإدخال الغش عليهما.

واستخدام الخصيان يرجع إلى الأزمان القديمة في التاريخ. فقد روى أن الملكة سميراميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا واحتفظ اليونان في عهد دولتهم الأخيرة التى كان مقرها القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان ، وكان أحدهم وهو الخصى (نرسيس) أكبر قوادهم بعد (بليزير) ورفع من شأنهم زمنا في البلاد الإيطالية.

ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصى (الجب) فقد عكف المسلمون عليه وبالعوا فيه ، بحيث يخيل للإنسان أن هذه العادة الوحشية ملازمة لتعدد الزوجات ملازمة لا مفر منها.

وفي بلاد آسيا وأوروبا لا يفوز بامتياز الحصول على الخصيان واقتنائهم غير العظماء والأثرياء. أما في إفريقية - ولا سيما في القطر المصرى - فإنهم أكثر انتشارا لسهولة الحصول فيهما على العبيد اللاتقين لعملية الجب.

٦٧ - معاهد الجب

عملية الجب لا تجرى الآن في غير القطر المصرى فهذا القطر أصبح المورد التى تستورد منه الخصيان يرسم حرم العظماء والأثرياء في كل مكان. وصناعة الجب فيه رائجة رابحة يزيد في ربحها شدة الإقبال عليها وغلاء ثمن التعساء الذين تجرى عليهم تلك العملية القاسية.

ومدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتان من مدائن القطر المصرى اللتان تباشر تلك العملية الشائنة فيهما. ومن كان يخطر بباله أن الموكلين بمباشرتها جماعة من المسيحيين، وأنهم من رجال الاكليروس القبطى؟ هؤلاء الناس الذى أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية بالإنسانية موضوع احتقار السكان في تينك المدينتين لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياة من الجريمة في حق المروءة والإثم الغليظ ضد الإنسانية.

وقرية زاوية الدير القريبة من أسيوط عاصمة السفاكين السفاحين الذين يقومون بعملية الجب. وهم يرتكبون جرمها الشنيع على نحو ثلاثمائة شخص في كل عام ويختارون هذه الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات الى تسع وتأتى بهم قوافل الجلابة من سنار ودارفور. ويبيع هؤلاء التعساء بحسب ما يكون من حظهم في الحياة بعد إجراء العملية عليهم وبحسب المزايا المتوافرة فيهم من ١٥٠٠ قرش إلى ٣٠٠٠.

٦٨ - عملية الجب

تعمل هذه العملية عادة في فصل الخريف باعتبار أنه أوفق فصول السنة لنجاحها. ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون في الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة في الجزء الباقي من مجرى البول وبعد إلقاء الزيت يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى المعذب على هذا المثال في الأرض إلى ما فوق البطن وبعد أن يتركوه في هذه الحالة أربعة وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من طين الابليلز والزيت.

٦٩- تعظيم الخصيان

إن نحو الربع من الغلمان المساكين الذين تجرى عليهم هذه العملية الشنعاء لا يعيشون بعدها. أما الباقون فيقضون حياتهم في الضعف والآلام. نعم إن المسلمين يحوطونهم بكل ما هو مستطاع من الاحترام والرعاية والتكريم .. حتى أن كبير الخصيان في الآستانة العلية مثلاً يعد من أعظم رجال الحاشية السلطانية، وأن السلطان محمود رفع أحد خصيانه إلى مرتبة الباشوية وعهد إليه قيادة جيوش الدولة ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها أن لا آية من آيات الشرف والترقيع ولاشارة من شارات الحظوة والفوز بالرعاية تعدل فقدان الرجل صفته الخاصة به وعلامته المميزة له على غيره.

٧٠- العلامات المميزة للخصيان

بوجه عام يعرف الخصى بمظهره الخارجى وهيئة جثمانه. فإنه يكون أمرد سليب اللحية والشاربين وبجسمه ميل إلى السمن وفى صوته خنوثة. وتبدو عليه فيما عدا هذه الصفات، علامات التكبر فى كربة، ووجوم، وتشاهد فيه نزعة إلى الأذى والخوف وسرعة الغضب. وهى نتائج طبيعية لما يشعر به من سقوط شأنه وانحطاط مكانته بزوال أخص صفة للرجولة عنه. ويميل عادة إلى مظاهر الصلاح والتقوى، إذ يرى فى القيام بفروض الدين على وجه التشدد تعويضاً له عما أصابه من النقص فى جثمانه. ومن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون إليهن. بل أن فيهم من يتزوجون بهن.

٧١- منع الحب

إذا كانت ثمة جريمة نحسب أن الهيئة الاجتماعية بأسرها قد اشتركت فى ارتكابها، وأن لا جريمة تفوقها فظاعة وشناعة فإنما هى عادة إتخاذ الخصيان وبقاء هذه العادة حتى الآن..

ولقد حمل كبار الفلاسفة والمفكرين وبعض رجال الحكومات العاملين فى أيامنا هذه الحملة الشعواء على الاسترقاق وها نحن أولاء نرى أوربا تسير سيرا حثيثاً فى الطريق المؤدى إلى إلغائه، ولكن عادة إتخاذ الخصيان فضيحة كبرى للطبيعة وهتك مخز لأستار النواميس الطبيعية والخلقية. والغريب مع هذا أنتنى لا أعلم أن بين الشعوب التى تتولى زعامة الحضارة العصرية من

استجمعوا قواتهم وجهودهم لمكافحة عادة إتخاذ الخصيان.

وتداخل أوربا اليوم في شئون الدولة العثمانية ذلك التداخل الذى أصابها ببالغ الضرر من جراء ضغطها عليها بأثقال المصالح السياسية والمرافق الاقتصادية المختلفة كان يمكن أن يكون نافعا ومجديا وجديرا بثناء الإنسانية وشكرها لو كان الغرض منه إدخال الإصلاحات المطابقة لروح الحضارة والمدنية. لا التى يقصد بها تحقيق تلك الأغراض السياسية.

وليس من بين هذه الإصلاحات ما هو أوجب للحمد والثناء كمنع الجب وإتخاذ الخصيان .. وأتمنى صونا لكرامة أوربا وشرفها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها فى الحصول على هذا الإلغاء من سلطان تركيا ووالى مصر، وإنى لموقن أنه يكفى لتحقيق هذه الأمنية الشريفة أن تعرب تلك الحكومات لهما عن مقاصدها الخيرية نحو الإنسانية المعذبة لترى منهما الإقبال السريع على إجابة مطالبها ، وها هو محمد على المعروف بالمسارعة إلى اتباع النصائح النافعة والمشورات النبيلة لن يتوانى فى العمل بهذه النصائح وبذا لاتصبح مصر ميدانا لجريمة لايسع هذا الجيل بعد الآن أن يتهاون فى أمرها أو يتغاضى عنها.

(٦)

الزواج وتعدد الزوجات والطلاق

الزواج - تعدد الزوجات فى مصر - الطلاق - أسباب تعدد الزوجات والطلاق فى الشرق - تأثيرهما.

٧٢ - الزواج

فى بلد تجيز شريعته ، بلا قيد، تعدد الزوجات والطلاق لايمكن أن يكون الزواج عظيم الخطر، كلا ولا من المسائل التى يتوقف عليها مستقبل الرجل والمرأة فى الحياة كما نراه نحن. ففى الشرق لا يسيطر الحب على الروابط بين الزوجين. لأن احتجاب المرأة فى الحرم يحول دون معرفة الخطيب خطيبته التى ستربطه وإياها عقدة الزواج، - ولو بالنظر - بل غالبا ما يتم الاتفاق على تزويج اثنين من بعضهما بين أهليهما وهما لم يخرجوا بعد من سن الطفولة. فإذا ما بلغا سن، الحلم قلما يستشار أحدهما فى أمر زواجه بالآخر.

فكان من المنتظر، في هذه الحالة أن يتجلى الزفاف عن حبوط أمل وخيبة رجاء لا يجد الزوج التعس للخلاص من ورطتهما غير حل عقدة الزواج بالطلاق.. وفي هذا العهد بدا من جانب الأهل جنوح إلى تلطيف هذه الطريقة المنافية للصواب والعقل من وجوه كثيرة. إذ أخذوا يعدلون الآن عن خطة التشدد والتعسف — لا إلى جهة الرضا بأن يرى الخاطب المرأة التي اختطبها أو يحدثها — بل من جهة أنهم يعنون باستقصاء أحوال الخطيبين سنا وخلقا وخلقا.

وعندما يشرع في الخطبة تذهب أم الخاطب في لقيف من أهلها وقرابتها إلى بيت المخطوبة برسم الزيارة. فإذا وقع نظرهم عليها حفظوا ما بدا لهم من صفاتها جمالا ودمامة فضيلة ورذيلة حتى إذا عادوا إليه سردوا عليه ما ثبت عندهم من أمرها. فإذا أن يقبل على الزواج بها وإما أن يعدل عنه.

وفي الشرق لايمهر النساء الرجال بل الرجال هم الذين يقدمون إليها الصداق. وعند أصحاب اليسار والغنى يبلغ الصداق عادة عشرة أكياس (أى أكثر من ألف فرنك ومائتى فرنك) وهو أقل من ذلك للأيامى والمطلقات.

٧٢- تعدد الزوجات في مصر

رأينا فيما تقدم أن الديانة الإسلامية تبيح التزوج بأربع نساء وما لا عد له مما تملك اليمين. ومعنى هذا أن الإسلام يقرر تعدد الزوجات ويدعو إليه. ومن الخطأ أن يظن أحد أن إباحة تعدد الزوجات معمول بها من جميع الناس فإن السواد الأعظم من المصريين يقتصرون على زوجة واحدة فقط، وإنه ليتعذر عليهم أن يعدوا هذا القدر مالم يكن عدد النساء في مصر يتجاوز بكثير عدد الرجال.

والحقيقة أن عدد النساء في هذا القطر يكاد يعدل عدد الرجال، وهو ما يؤخذ منه انحصار تعدد الزوجات فيه ضمن دائرة ضيقة جداً. لاسيما وأن الإكثار من الزوجات يستدعى من النفقات الطائلة ما لا قبل لأحد به ولا طاقة له عليه إلا إذا كان من أصحاب الثروات الواسعة، وهو ما جعل عادة تعدد الزوجات مقتصرة على أرباب الغنى وأصحاب المظاهر والحيثيات لا تتجاوزهم إلى غيرهم. ويتفق أن يكون للرجل من عامة الشعب زوجتان أو أكثر ولكنهن ينفقن في هذه الحالة على أنفسهن من صفوة أموالهن. ومن

المسلم به أن متوسط عدد الزواج الذى تتعدد فيه الزوجات بالقطر المصرى لا يتجاوز خمسة فى المائة من مجموعه.

٧٤- الطلاق

من الأنظمة المرتبطة بتعدد الزوجات بروابط عديدة الطلاق، وقد بلغ من الشيوع مبلغاً فاضحاً مخزياً. لأنه إذا كان تحدد الطلاق يبيع للرجل الإمساك بقدر ما يريد من الزوجات فإنه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهم - على شريطة أن يخلفن بعضهن البعض فيتعاقب استمتاعه بهن بتعاقب الاقتران وتواليه، وتعدد الزوجات والطلاق متحدان في ما يميتهما لانهما ناشئان عن أسباب بعينها، ولا بد طبعاً أن يفضيا إلى نتائج متشابهة ويعقبها آثار متجانسة.

ولقد سبق أن، قلت إننى لا استبعد وجود مسلمين فى القطر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ولكن هذا من النواذر التى لاحكم لها. والمألوف المعروف وجود من تزوجوا وطلقوا عشر زوجات أو اثنتى عشرة زوجة أو عشرين، ويخالف الأتراك المصريين فى ذلك فإنهم يحرصون على عقدة الزواج ويصونونها من الإنحلال أكثر من هؤلاء. وتعدد الزوجات لا يلجأ إليه كما لا يلجأ عندهم إلى الطلاق إلا إذا كانا الوسيلة الوحيدة للخلاص من ضيق شديد.

٧٥ - أسباب تعدد الزوجات والطلاق

تمتاز الروابط التى تصل الرجل بالمرأة فى الشرق بصفات خاصة بها ومناقضة على خط مستقيم للصفات المميزة فى البلاد الأوربية، ولقد أمعن الفلاسفة النظر فى هذا التباين واقتفى أثرهم فى ذلك كتاب الصحف والباحثون فى الشئون الفسيولوجية وذهبوا فى طرق الآراء متخططين.

أما فى الغرب فقد حافظت الشعوب جميعاً من الإغريق إلى الغولو والجرمان إلى الرومان المحافظة التامة على وحدة الزوجة، وأما فى آسيا فقد أباحت شعوبها أجمعين من الفرس إلى الأتراك للرجل الاقتران بعدة زوجات..

ومفهوم أن روابط الرجل بالمرأة لكبيرة الأهمية عظيمة الخطر من الوجهة الاجتماعية، وأنها سريعة التأثير فى الأسرة وبالتالي فى الهيئة الاجتماعية بأسرها. فمن المفيد والحالة هذه استقصاء الأسباب التى تجعل تلك الروابط

خاضعة لعوامل الاختلاف المترتب على اختلال البلدان وتباين الشعوب التى تسكنها.

والذى نعتد به فى هذا الموضوع أن السبب الأصلى لتعدد الزوجات جثمانى مادى بحث، فقد لاحظ العلامة الفيلسوف «مونتسيكو» أن بين النوعين الذكر والأنثى فى البلاد الحارة اختلافا طبيعيا وتفاوتا عظيما، قال: «إن النساء فيها يبلغن الحلم فى الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرهن، وهوما يجعل الطفولة والزواج يسيران فيها يدا بيد فتصبح المرأة التى تزوجت فى إحدى تلك السنوات عجوزا شمطاء ولن يتفق اقتران العقل عندها بالجمال. فإنه إذا تطلب الجمال النفوذ والسلطان أباهما عليه العقل، وإذا استطاع العقل الفوز بهما يكون الجمال قد تلاشت دولته وذهبت صولته. ومن ثم كان الواجب بقاء المرأة فى حكم أحد وتبعيته — لأن العقل لا يجعل لها فى هرمها سلطانا ونفوذًا بخل الجمال عليها بهما وهى فى غض الشباب وإبان الحسن. فمن بسائط الأمور إذن أن يترك الرجل امرأته ليتخذ بديلا عنها — لاسيما إذا لم يكن فى الدين مانع يحول دون ذلك وأن ينشأ عن فعله تعدد الزوجات».

واعتقادت أن ذلك المفكر العظيم قد كشف بثاقب نظره وصائب رأيه عن حقيقة سبب تعدد الزوجات وشيوع الطلاق فى الشرق.

الأطفال

العناية الأولى بهم — تربيتهم.

٧٦. العناية الأولى بهم

الغرض الأول من الزواج فى مصر استبقاء النسل وتخليد الذكر، لذا كان مولد الأبناء من الحوادث الباعثة فى الأسرة على السرور والابتهاج. وعقم المرأة فى نظر المصريين غضب من الله عليها وباعث من بواعث نفور الزوج منها وعدم رضائه عنها. وبالجملة فاحترام المرأة عندهم يقاس بحسب قابليتها للحمل والوضع قلة وكثرة. والرأى المجمع عليه أن الرجل المستقيم لا يليق به أن يطلق امرأته لكونها لم تعقب منه سوى غلام واحد، ولاسيما إذا بقى هذا الغلام على قيد الحياة.

ولو لم يكن حب الأم لبنيتها فى مصر كما فى غيرها من البلدان أظهر ما بثته

الطبيعة في فؤادها من العواطف لكان من مصلحتها أن تتعهد هذا الحب بما ينميه ويقويه. فإن الامهات يبدين الكثير من الرفق نحو أبنائهن ويتجاوزن عن هفواتهم ويحطنهم بوسائل العناية والرعاية بل ويقمن على إرضاعهم بأنفسهم. والشريعة المحمدية تبيح لهن إرضاعهم حولين كاملين ما لم يأذن لهن أزواجهن بالفتامة قبل هذه السن. والقاعدة المألوفة أن يأذن النوالد بالفتام في منتصف الثانية من أعمارهم. وفيما قررته تلك الشريعة من ذلك ما يطابق الصواب. لأن البلاد الحارة من البلدان التي يموت فيها الأطفال بالأمراض المعوية. فلبن الأم بالنسبة لهم من خير الأغذية الموافقة لهم والمناسبة لحالهم.

وإذا لم تكن الأم في حالة من الصحة تسمح لها بمباشرة إرضاع وليدها فلها أن تتخذ له مرضعاً. فإذا كانت المرضع إحدى جواري البيت عدت لهذا السبب من أفراد الأسرة وكسبت حقوقاً مؤكدة تظهر محسوسة في احترام الأبناء الذين أرضعتهم وشكر آبائهم لها وحسن جزائهم إياها.

ولا يحمل الأطفال امهاتهم أو مرضعاتهم وهم في نعومة الأظفار عناء كبيراً في تربيتهم لهم لأنهم قليلو البكاء. ولو امتنع أهلهم من وضعهم في القماط كما نفعل نحن بأطفالنا لنموا وابتدأوا المشى على أقدامهم منذ الشهر السادس من عمرهم.

وهم يكونون في الغالب ضعافاً نحيل الأبدان إذا ناهزوا الثانية أو الثالثة من أعمارهم، وتتكرر بطونهم كثيراً لرداءة الغذاء، ولا شيء في ملامحهم وهم في هذا الدور من حياتهم يبشر بأنهم سيكونون على شيء من جمال الصورة العربية وقتما يبلغون سن الشباب.

وأبناء الطبقة العليا لا يعتنى بحسن لباسهم، تعتمد والداتهم ذلك فإذا خرجن من دورهن واستصحبنهم نزعن من ثيابهم ما يمكن أن يحكم الناظر به على يسار أهلهم وقدرتهم وجاههم. وقاية لهم من عيون الحاسدين. أما أبناء الفقراء فيجردهم أهلهم من الثياب بالمرّة. وكثيراً ما تشاهد الأمهات في الأرياف والمدن وهن حاملات لهم بهذا الشكل على أكتافهن.

٧٧. تربية الأطفال

في الطبقتين العليا والوسطى يربى الأطفال بداخل الحرم حتى يبلغوا السابعة من عمرهم. وللتربية الأولى كما هو معلوم أو كما في نفس المرء. فمن

البدهى إذن أن تترك التربية التى يتلقاها المسلمون على هذا الوجه أثرا عميقا فى حياتهم.

وغير منكور أن الأطفال يكتسبون فى داخل الحرم لين العريكة ودمائة الخلق فينتهى بهم الأمر إلى أن يشبوا على شىء من الرصانة والتحفظ والبعد عن نزق الطفولة وطيشها والأعبيها. وفى الأسرات الغنية يعود الأطفال آداب المعاشرة والاجتماع على الأسلوب المقرر فى الدين الإسلامى. فلا يبعد أن يقع نظرك على غلام فى الخامسة أو السادسة من عمره يدهشك من سلوكه مالا تجده فى خلق الرجل الكبير أو المولى العظيم من الرزانة والسمت والوقار.

وتعمل عملية الختان للطفل وهو فى السادسة من عمره أو قبل هذه السن أو بعدها ببسير وفى الأوان نفسه أو حواليه يعلم الأطفال تلاوة القرآن وكتابة آية فإذا ناهز الثامنة أو التاسعة خرج من وصاية الحرم فإن كان أهله على شىء من الغنى والجاه جاءوا إليه بالأساتذة يلقون عليهم الدروس فى بيوتهم ويتصدى أبائهم لإرشادهم إلى الواجبات والفروض الدينية من وضوء وصلاة .. الخ.

والإسلام يقضى أن يتعلم الأطفال الصلاة فى السابعة من العمر ويدعو آبائهم إلى ضربهم إذا لم يقوموا بفروضها فى العاشرة من أعمارهم. ومتى أشرفوا على تمام الثانية عشرة عهدت إليهم بعض الأعمال العسكرية أو المدنية ليؤدوها بإرشاد بعض الحكام وملاحظتهم.

أما الأطفال من أهل الطبقة الدنيا فيرسلون عند بلوغهم السابعة من أعمارهم إلى المدارس العامة - أى الكتاتيب الملحقة بالمساجد - وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ثم يخرجون منها لمزاولة التدريب على إحدى الصناعات بحيث لا يناهزون الثامنة من العمر إلا ولهم قسط فى الأعمال ومشاركة للعاملين فيها. وهم فى الأرياف يفيدون أهلهم فائدة جلية بتسيير الماشية وإدارة السواقي والذين يتخصصون من الأطفال لدرس علوم الدين يباشرون تلقاها فى العاشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم. وصفوة القول أن الأطفال ييكونون بمزاولة الأعمال ويربحون منها قوتهم.

الأغذية

وآداب الطعام

الغذاء- ألوان الطعام- الترتيب المتبع في تقديمها- المشروبات- قهوة البن- الشربات- الحشيش- الأفيون- الوجبة - الأنية والأوعية المستعملة للأطعمة- آداب الطعام- الاقتداء بالأوروبيين في طريقة الأكل- طعام الفلاحين.

١- الغذاء

يتناول المسلمون كثيرا من الأطعمة التي اعتدنا نحن تناولها. فهم يحبون من اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سواه. ويأكل أصحاب اليسار، غير هذا اللحم، اللحم البقري والفقراء اللحم الجاموسى وسكان الصحراء لحم الجمل أحيانا. ويمسك المسلمون جميعا عن أكل اللحوم المحرمة كلحم الخنزير والخيول والحمر الخ.. أما لحم العجول وصغار الضأن فانهم لا يتغذون به إلا فى النادر.. لأن الشريعة الإسلامية توصى نصوصها بالامتناع عن ذبح صغار الماشية دفعا لما يخشى من انقراض أنواعها. أما الطيور فمن النادر مثلها على مواعدهم لأنهم - كما سبق لنا القول - لا يميلون إلى الصيد والقنص لتعذر ذبح الحيوانات المصيدة بعد صيدها. وهم شديرو العناية باستنزاف دماء الحيوانات المذبوحة للتغذى بها. ولكنهم لا يجارون اليهود فيما يتخونونه من وسائل الاحتياط لهذا الأمر.. فمن ذلك أنهم لا يرون ضرورة فى أن يكون القائم بذبح الحيوانات رجلا اقتصر فى عمله على هذه المهمة فأصبحت صفة قائمة به لانتعاده إلى سواه، ولا أن تكون المديه التي يذبح بها جامعة صفات وخصائص لا تتوافر فى سواها الخ.

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والسماك، ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر، غير السمك، شيئا من الأنواع الأخرى كأنواع المحار والأصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم. ويحبون الألبان والبيض حبا جما، ويستنفدون المقادير الوافرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف أنواعها، ولا سيما الخبز (الخبيزة) والياميا والملوخيا (الملوكية) والبادنجان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والبقول والفاصوليا والترمس والبسلة. ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئا كالبصل والخيار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحماء) الخ.. ومما يوجب الأسف اساءة تهم الظن في البطاطس الذي لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لأفادهم فائدة لاتنكر.. وتدخل فواكه البلاد بنسبة عظيمة ضمن الأغذية التي يتناولونها.

وهم يطهون الأطعمة بالزبدة ويكثرون من ألوانها، ولكن العناية بالشطر الأكبر منها تكاد تكون معومة.

ويجلب الزيت الذي يستنفد في مصر من الشام واليونان، وعلى الخصوص من جزيرة كريد. وهو من الصنف الواطئ الذي لو وجد مثله في أوروبا لما استعمل في غير الصناعة، على أنه تجلب إلى مصر أنواع من الزيت الجيد كزيت (بروفانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لايتعدى الأوربيين والأغنياء من أهل البلاد.

وزيت الزيتون يعتصر في مصر بمقادير قليلة جدا، لان أشجار الزيتون لاتزال - كما قلنا سابقا - نادرة الوجود بها.

ويستخرج الزيت أيضا من بذور الخس والسمس. وفقراء المصريين يستعملون في بعض الأحيان زيت بذر الكتان المعروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم حريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل.

والبهارات شائعة الاستعمال في المطابخ المصرية فإن الفلفل الأسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبان الخ يستنفد فيها مقادير عظيمة.

ويكثر المصريون من استعمال الليمون . إذ هم يعصرونه على جميع ألوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البليح ولكنه رديء النوع.

أما الخبز - الذي أشرنا فيما سبق إلى احترامهم إياه الاحترام العظيم. -

فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه، ولكن الخبز الذى يعجنونه لايجارى خبزنا فى جودته وحسن صناعته. لأنهم يضيفون الماء الكثير إلى العجينة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف شكله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا. فإنه عندهم أشبه بفطائر مستوية كبيرة.. ومنذ انتشر الفرنون الأوربيون فى القاهرة والإسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا.

٢- ألوان الطعام

من ألوان الطعام عند المصريين الحساء. وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لا تتغير، فإنه عبارة عن الماء الذى سلقت فيه دجاجة أو بعض أفراخ الحمام، على موائد الأغنياء منهم، أو قطعة من اللحم على موائد متوسطى الحال. وقد يضيفون إليه بعض الحشائش أو البقول وأحيانا نوعا من العجين المجفف يشوونه بالشعرية.

ومن الأطعمة التى يميل إليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم. ويظهر أنهم أتقنوا هذا اللون وأجادوا فيه كل الإجابة.. وإذا شواء اللحم لا يشوونه فى الأسياخ بل فى الأفران، بخلاف الأتراك والبريان فإنهم يشوونه فيها، وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله. وبعضهم يربطونه بحبل إلى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار ويهينىء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الكباب » وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى أسياخ صغيرة.. وإذا كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فإنهم يرتبون تلك القطع فى الأسياخ بحيث تتخلل قطع اللحم الأحمر قطع من اللحم الدهنى، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوة أو فى الفرن.

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول، وأحيانا بالزبيب وعصير العنب.

وهم يميلون كثيرا إلى الأطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور. بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ.

والأرز عندهم من الأطعمة الوطنية يأكلونه مقللا ، ويسمون به بالأرز المقلل ويطهونه إما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهريز)، ويخلطون الأرز باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمون به بالورق المحشى والضلمة.

أما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة إليها. وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه لأن فطائرهم ترجع، على اختلافها، إلى فطائر مسطحة مستديرة يضعون بداخلها اللحم أحيانا أو القشدة أو الجبن الأبيض أو المربى أحيانا أخرى. وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجارة الأوربيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الأطعمة.

وفى جميع الأحياء حوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور، ويميل العرب إلى المربيات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى. ولم يعتد المصريون أن يأكلوا، قبل ألوان الطعام المعتاده شيئا ماعلى سبيل فتح الشهية مما يسميه الأوربيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحانة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الأسود وأنواع السلطات الخ. وهذه الأصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الأصناف. قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل. وإذا كان الشرقيون لا يجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فإنهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد ويختم الطعام عادة بالفواكه التى تثمرها البلاد كالشمش والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضج على أمه، والمصريون يعللون أكلها كذلك بقولهم: إن الفواكه إذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها.

٣- الترتيب المتبع فى تقديم أصناف الأطعمة

تقدم أصناف الأطعمة متتابعة بعضها تلو بعض. ولا توضع أبدا مع بعضها. ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعى فى أوربا لتعاقب الأطعمة. فإنهم بعد تعاطى الحساء يبدأون بشواء اللحم ويثثون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصناف اللحم. أما الأرز المقلل فلا يؤكل إلا فى ختام الطعام.

٤- المشروبات

لا يشرب المسلمون على الطعام سوى الماء صرفاً. لأن الدين الإسلامى يحرم عليهم خمر النبيذ كما حرم عليهم جميع الأشربة المسكرة، وهذا التحريم فى الدرجة القصوى من الصواب والحكمة بالنظر إلى أن طقساً كطقس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ.

والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ وغيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد، وهم الذين وقع الاتصال بينهم والأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم، ومن النادر جداً أن تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين، ولا سيما الذين أصلهم من تركية أوربا، فإن تعاطى النبيذ عندهم شائع مألوف.

والمتعاطون للخمر من المسلمين لا يتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد الشارب فائدة بدنية أو نفسية، كما هو المشاهد غالباً فى حالة التعاطى باعتدال وقناعة. وما السبب فى ذلك إلا أنهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياح العقل بالسكر. جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الإدراك والمشاعر وتتعطل المواهب النفسية التعتل الذى لو شعر به أوربى لما راق له أبداً.

واستعمال العرق فى مصر أكثر شيوعاً وأقل ضرراً من استعمال النبيذ. والعرقى الذى ألف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح، ولكنه ردىء النوع، وأجود أنواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعاً من العنب، لأنه يقطر مراراً ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ إلى ٢٥ وأحياناً إلى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جداً.

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوطة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير. وهى كثيفة القوام جداً كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الأوربيين، ولذيد جداً فى حلق أبناء البلاد.

٥- قهوة البن

قهوة البن هي الشراب المختار عند المصريين وضرورته لهم كضرورة التبغ للأوربيين. لأنهم إذا تنوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناء وتلذذوا بطعمه وريدا متمطقين. والأغنياء والفقراء منهم سواء في المحافظة على تعاطيها صباحا وبعد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربون في خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا.

وصنف البن الذي يهيئون به قهوتهم في غاية الجودة لأنهم يجلبونه من مخا (ببلاد اليمن) ويحمصونه كما نحمصه نحن تقريبا ولكنهم يختلفون هنا في كونهم لايسحقونه بالطاحون بل يدقونه في الهاون زاعمين أنهم بدقه يستخرجون منه الزيت الذي هو الأصل الفعال فيه.

وطريقتهم في تهيئة القهوة بسيطة جدا. إذ تقتصر على وضع الماء على النار في إناء القهوة (الكنكة) فإذا ما بدأ الغليان رفعوا الإناء وأسقطوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه في الماء ثم أعادوه إلى النار مع استمرار التحريك فإذا غلا الماء وفار رفعوا الإناء نهائيا وترك زمنا ريشة يتم امتزاج الماء بالبن ثم يفرق على الفناجين. وقهوة البن المجهزة على هذا المثال لاشك في لذتها وجودة صنعها. حتى أن كثيرين من المغرمين بشرب القهوة يفضلونها على المصنوعة منها بحسب الأسلوب الأوربي.

أما أنا فإني مقتنع بأن في الاستطاعة إذا اتبعنا في تهيئة القهوة الطريقة التي استتبها (دويلوا) أن تكون القهوة أحسن بكثير من التي تصنع به على الطريقة الشرقية.

٦- الشربات

تعاطى المشروبات المرطبة المعروفة بالشربات كثير الشيوع في مصر. ويقدم غالبا بعد تعاطى القهوة أو قبله. وهذه المشروبات أنواع كثيرة أبسطها الماء المحلى بالسكر والمضاف إليه ماء الورد أو ماء زهر البرتقال أو عصير البرتقال أو الليمون، ويتعاطى المصريون أيضا شراب اللوز أو بذور الشمام والبطيخ والقرع الخ. ويشربون غالبا في نهاية كل طعام الخشاف، وهو ماء محلى

بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطر بماء الورد، وأعظم أنواع المشروبات المرطبة اعتباراً في نظر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من ساقه ويعجن بالسكر ثم يجفف، وبعد جفاف العجينة يدق دقا ناعما جدا ثم يذاب في الماء عند الاستعمال. ويباع في الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخروب).

٧- الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدر قد كلف بتعاطيه الشعب المصري. هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنب المصري. وطريقة استخراجهِ أن تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير إلى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز الطيب وخلصات الروائح العطرية. وبعد طبخها تصنع منها أقراص صغيرة ضاربة اللون إلى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق. ويكفى للمرء أن يبتلع منه قطعة بحجم البندقة ليشعر في الحال بنتائج تأثيرها. وفي بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب. وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء. وفي الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن ما يحرق في نوع من الشيشة يسمى الجوزة. وهو في هذه الأحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبة لاتلبث أن تتحول إلى أقوال وأفعال شاذة.

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جدا، وكان شائعا في الأقطار الهندية منذ العصور الموعلة في القدم. وروى المؤرخ (هيرودتس) في الفصل الخامس والسبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحيثيين كانوا يستعملونه في حفلاتهم الدينية. وقد ذكره أيضا الحكيم (جالينوس) وشاع في بلاد الفرس على أثر اتصالهم بالهنود. فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى إلى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها. والمحتمل أن الشيع المتعصبة التي زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل إنما كانت تعمل تحت تأثير الحشيش. ومن ثم سماوا بالحشاشين، وهو اللفظ الذي حرفه مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التي أطلقوها على أولئك الأقوام ولا تزال موجودة في معجم لغتنا حتى اليوم.

وفي أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب، فهو محصور بينهم - كما قدمنا - يأكلونه ويشربونه ويدخنونه في القهاوى العامة

وفى حوانيت خاصة به تسمى (المحاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطى الحشيش تستعمل أيضا فى لغة القوم للسبب والشتم.

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيرا بالغا من الشدة والقوة الغاية القصوى. والظاهر أنه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين. فيصبح مخ من يتعاطاه يلتمس منه الغيبوبة والخدر مركز ازواج أفكار غريبة بأحلام خيالية مضطربة. وبالجملة فإن الحشيش يحدث تأثيرا يشعر صاحبه بشيء من الهناء ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقه إلى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشنوذ. وهو يثير الشهية إلى الطعام، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى إلى النوم الذى تخالطه الأحلام السعيدة. على أنه لا يصيب الرأس بصداخ ما ولا التنفس بشيء من الصعوبة والعناء، وهو كجميع المشروبات التى تززع أركان المجموع العصبى يصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله إلى الحيوانات العجم أقرب منه إلى بنى الإنسان.

٨- الأفيون

الأفيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى، ولكنه شائع بين الأتراك الذين يميلون إلى التخذر به. وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظر إلى ما فطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل. أما الحشيش فالمصريون أميل إليه من غيرهم لأن التأثير الملازم له يتفق مع ما جبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب.

٩- وجبات الطعام

للمصريون وجبتان فى كل يوم. الأولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة، مهما يكن اختلاف الفصول. أما الأولى فيسمونها « الغداء » والثانية « العشاء » والعشاء هو الوجبة الأساسية. وهذا هو سر العادة الشائعة عندهم من طهى الطعام بعد الظهر. وإذا لم يكن عندهم مدعوون لتناول الطعام فإنهم يحفظون ما يبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم الالى. والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الأمة أن لا يأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده.

ولما لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شهر رمضان أن يتعاطوا شيئا ما

خلال النهار فإنهم لا يتناولون طعاما إلا فى الليل. فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهى الصوم وبدأوا بتناول طعام الإفطار. وقبيل نصف الليل يستأنفون كرة الأكل، ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسن ما يروق فى الأنواق من شهى الأطعمة.

١٠- الآنية والأوعية المستعملة فى الطعام

قبل أن يجلس المسلمون إلى موائد الطعام يغسلون أيديهم ، وفى بعض الأحيان أفواههم بالماء والصابون. وذلك بأن يتقدم أحد الخدم إليهم ومعه طست إبريق من النحاس أو القصدير أو الفضة، إذا كانوا أغنياء، وللطست غطاء مثقب ترتفع فى وسطه هنة تشبه الحوض الصغير. فإذا سكب الخادم الماء فى الأبريق على يدى المخدم مر من ثقب الغطاء وسقط فى قاع الطست بحيث إذا تقدم الخادم إلى مخدم آخر ليغسل يديه لايقع نظر هذا الأخير على أثر ما من الماء الذى غسل سابقه به يديه.

ويختلف منديل الطعام (القوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لا مربعا ونسججه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويقه، وهو فى بيوت الموسرين مزركش إما بالحرير أو القصب. وقد تبلغ قيمة الواحد منه ما يعدل ثلاثمائة إلى أربعمائة فرنك. والعادة أثناء الطعام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شىء بالوشاح، وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الأول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنا. وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لا عند المصريين.

والمشاركة بدويو الأصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الأوعية. ولا يزال المصريون إلى عهدنا يتوخون هذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهم فى ذلك على صينية من النحاس أو غيره من المعادن يختلف طول قطرها من قدمين إلى ثلاثة أقدام وكرسى = طبلية = بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه، واجتماع هاتين الأداتين يتألف منه ما يسمونه « السفرة » التى يجلس الأكلون حولها على

المخدات المحشوة أو على السجاجيد وتوضع أمام كل أكل قطعة من الخبز وملعة.

والشرقيون لا يستخدمون الشوكة فى تناول الأطعمة. وملاعقهم على ثلاثة اصناف، صنف لتعاطى الحساء والأرز وكل طعام سائل القوام. وهو من الخشب المعتاد فى الأسر الفقيرة، ومن خشب الأبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والأحجار الكريمة فى الأسر الغنية. وشكل الملاعة المصرية يخالف شكل الملاعة الأوربية من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهى بطرف مدبب، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس.

والحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعة خاصة. وهناك شئ من الملاعق أكثر تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغة ويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطى الخشاف.

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم . بل يأخذون من الصحفة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصينى بل من النحاس، وهى على شئ من العمق ولها غطاء تغطى به.

والأوعية المستعملة للشراب هى أنية الماء أولا. وهى نوعان. عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق. وتصنع القل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس، وخاصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى فى وقت القىظ الشديد، ويعطر داخلها عادة ببخور الأخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكى المجلوبة من البلاد اليونانية. ولها أغطية من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو ورق النخل، وتوضع فى صينية من المعدن تتلقى الماء الذى يرتشح منها. والقل فى مصر يقابلها فى البلاد الأسبانية الجرازا (الخرزة). وفى بلاد الشرق لا يستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الأنية ممسكين برقابها، على أن أصحاب اليسار يشربون فى أكواب (طاسات) من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب.

١١- آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الأكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة، وهم إذا جلسوا كذلك أمكن أن يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية، ونادرا ما تحتوى المائدة

الشرقية مدعويين يربون على هذا العدد فإذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر ما يكفي لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها. وقبل أن يتناول المسلمون الطعام ييسلمون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهم لا يستعملون الشوك فى تناوله ورفعه إلى الفم. بل يأخذون ما يلزمهم منه بين أصابعهم فى الصفحة العامة الموضوعة وسط الصينية. وطريقة الأكل على هذا النمط ألطف مما يخطر ببال الأوروبيين الذين يسمعون هذا الوصف. ذلك لأن جميع الأكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة.

ثم إن الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة. إما بقدر عدد الأكلين أو زيادة عليه، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء ومن غير أن يلوث القطع الأخرى. ولا يشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الإبهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى. وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الأصابع الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصفحة بنظافة تامة وبشيء من اللطف والرشاقة.

وصاحب البيت أو الداعي ينبغى أن يكون أول من يمد يده إلى الطعام . فإذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الأكلين فآداب الأكل تقتضى عليه بأن يمسه إما بطرف إصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز، وبعد ذلك يتناول كل واحد من المدعويين ما يطيب له من الطعام.

وفى المآدب الكبرى التى يستدعى عدد المدعويين إليها إقامة عدد من الموائد تنتقل الأطعمة من مائدة إلى أخرى. وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الأربعين إلى الخمسين لونا أحيانا، ولكنها غير وافية المقدار، فيتمتع الأكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام إلى طعام من غير كبير كلفة. وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم.

ويلزم المصريون الصمت على الطعام. ومع إسراعهم فى تناوله فإنهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال، إذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الأكل، وقد بلغ حد الشبع، وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة. فإذا أطالوا المكث فقلما تتجاوز هذه المدة نصف الساعة. ومتى انتهى

الطعام بادر الأكلون بالقيام بمحمدلين بقولهم: « الحمد لله » واعتنوا بغسل أيديهم وأفواههم كما فعلوا قبل الجلوس إلى الموائد ورب البيت مضطر إلى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها الأكلون. فإذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة.

١٢- الاقتداء بالأوربيين في تناول الطعام

هم بعض النوات والأعيان منذ زمن بتقليد الأوربيين فى طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافنا واستعملوا لتناول الطعام منها الشوك والمضى وقرنوها بالاكواب لتعاطى الماء. غير أن الأسلوب الأوربى فى هذا الموضوع يلقى من الصعوبات ما يحول دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل ما بذل من المساعى فى هذا السبيل حتى الآن كانت نتيجته التقليد الأعمى الذى ينافى الطبع والذوق. فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر ما يكون من الأتنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف = الأتنية = الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس، وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد فى أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعام فيمسكون اللحم فى الصحفة = الإناء = بأصابعهم ثم يرفعونه إلى أفواههم بالشوكة بعد طعنهم إياه بأسنانها. وكثيرا ما يحدث فى المائدة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم إليه الصحفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل ما يحتويه. وخدام السماط الموكلون بتفريق الطعام على الأكلين لا يدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف، دع أنه بسبب ما يصيب الأتنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها.

١٣- طعام الفلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة فى المأكول والمشرب والاكتفاء منهما بما يسد الرمق، وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه. ويحدث أن يضيقوا إليه، إذا استطاعوا، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح، أو الأرز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو الكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ، ولايتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن.

(٣) الأثاث

ملحوظات عامة- المنظرة: الدركة والليوان والديوان- زخرفة
الجدران والسقف- الرفارف والبراويز الحائطية- زجاج النوافذ
وحديدها والفرش - مفروشات الفقراء

١٤- ملحوظات عامة

ترى فى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعرب والأترك أثارا تدل
على أصولهم البدوية، ويتبين منها أن احتفاظهم بالتقاليد كان من الشدة بحيث
لم تؤثر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قرون فى شكل الأمتعة التى يؤثثون بها
منازلهم. فإن الناظر إلى أثاثهم أول ما يخطر بباله أنهم ما برحوا على
الاستعداد التام للرحيل، كما لو كانت المنازل التى يسكنونها أقل استقراراً
وثبوتاً من الخيام التى سرعان ما تقوض لتضرب فى مكان آخر.

ومعنى هذا أنهم يربأون بأنفسهم عن اقتناء الأثاث والأمتعة الثقيلة المتعذرة
النقل التى يؤثث الغربيون بها منازلهم، ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهداً
ببقائهم فيها طول المدى. فإنك لا ترى فى حجراتهم لامكاتب للكتابة ولامناضد
ولاخزانات للثياب ولا ماجرى مجراها من الأثاث التى تأتلف مزية الانتفاع فيها
بالإسراف فى الزخرفة والتميق، والمرايا الصافية الأديم والأرائك الناعمة،
والزرايبى المبتوثة، والكراسى المصفوفة، والتماثيل المتقنة، والساعات الدقيقة
الصنع.. الخ بل إن متاعهم روعى فيه الإقلال مع البساطة فلم يعد شاملاً لشيء
سوى حصر السمار والسجاجيد والطراحات . فالشرق لم يكن المكان الذى
ينبغى أن يقصد إليه الإنسان للبحث عن تحف البذخ وطرف الرفاهة والنعيم
التي تفنن الغربيون وحدهم فى أساليب ابتكارها، ويرجع فضل تحقيقها
وإيجادها إلى عبقرية العلماء والفنانين منا ومهارة عمالنا وجودة صناعتهم،
والواقع أن الشقى الذى يلذ لبعض الشعراء الخياليين تصويره فى قصره أو
داخل حرمة متقلبا فى الهناء والنعيم وسط ما يعجز القلم عن وصفه من مظاهر
الأبهة والجلال يعيش فى قصارى ما يخطر بالبال من وسائل البساطة والتكشف
والقناعة بالقليل.

١٥- المنظرة والدركة

لا يلتفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة - أى غرفة استقبال الرجال، والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار. وجزء من الأرض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة إبهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى « الدركة » والعادة فى منازل الأغنياء أو الأثرياء أن توجد بوسطه فسقية ينبثق الماء منها على الدوام ، وأن تبلط بالبلاط المختلف الألوان على أشكال هندسية جميلة وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعدة مبنية بالحجر ومستندة إلى الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة ذات أقواس وحنيات محمولة على أعمدة صغيرة وتسمى « الصفة ».

والغرض من الصفة احتواء أنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام وبعده والوضوء وقلل الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ. وفى المنازل المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القيشانى.

١٦- الليوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهى كلمة معناها المكان المرتفع. ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد. لأنهم يفرشونه فى الصيف بحصر السمار وفى الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات).

١٧- الديوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها، ومن جهة خاصة على صنف مؤلفة من طراحت طويلة أو قصيرة يبلغ عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة إبهامات إلى خمسة. وهذه الطراحت تفرش إما على وجه الأرض مباشرة، وإما على دكاكين من الحجارة أو ألواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة إبهامات إلى ستة. وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا. والطراحت تتخذ من القماش وتحشى إما بالقطن وإما بالأسبطة = الليف = فى الأسر الفقيرة. وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا

العرض طولا تصف مستندة إلى الجدران في وضع عمودى على الطراحات لكي يستند الجالسون إليها.

وتكسى الطراحات عادة بالجوخ إذا كانت معدة لجلوس الرجال، وبالقماش الهندى (الشيت) أو الخريز المزركش بأسلاك الذهب إذا كانت معدة لجلوس النساء. وتنتهى هذه الأغطية، سواء كانت جوخا أو قماشاً فى أطرافها السابلة إلى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجف. أما المساند فيغطى وجهها الظاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا ما يكون هذا القماش موشى بالطراوات المختلفة الأشكال والألوان من الحرير.

١٨ زخرفة الجدران والسقوف

تغطى الجدران فى مصر بالقماش، وإنما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الأغنياء. ولما كان الشرقيون لا يمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فإن ما تخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفة لم يكن إلا رسما غليظا لا أثر فيه لأصول الفن ودقائقه فإنهم إذا تصدوا لرسم شىء لا يراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق. وكل ما تتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن والأشجار والحدائق والفسقيات.. الخ وكلها لا أثر فيه. كما قلنا - من طلاوة الفن وحسنه. على أنهم يبرعون بتفوق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر، ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب فى فن التصوير الهندسى. ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا إلى تصوير تلك الرسوم عليها.

١٩ الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل جدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة. ويصفون على الأولى أنية الخزف الصينى وعلى الثانية أدوات المائدة. وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف كما يشاهد فى جميع البيوت تقريبا من قطع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم تشبه ما تحويه منها الغضائر القشانى . وهناك سببان لصناعة الأثاث المصرى على هذا المثال. أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى. فتراهم

يتوخون هذه الطريقة للانتفاع بالقطع الصغيرة منه، والثانى إن حرارة الجو تدعو إلى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالألواح الكبيرة التى ، إذا استعملت، لا تلبث أن يصيبها هذه الطارئ.

٢٠- زجاج الشبائيك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشئ عن الشبائيك، وأضيف الآن إلى ما ذكرته عنها أنه ليس لها دفتان كما هو الحال فى أغلبها عندنا. فإن حلوقها تنقسم إلى قسمين أحدهما وهو الأعلى يظل ثابتا لا يتحرك والآخر وهو الأسفل يتحرك بحركة رأسية صعودا وهبوطا. والزجاج المركب فيها ردىء الصنع مهمل الشأن. إذ يحدث أن ألواح الزجاج فى بيت أصبح عتيقا لا تكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها. وهى إذا انكسرت يباعث ما، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها، لأن الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديدة تفكيك أجزاء الشباك برمته. وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذتهم قطعة من قماش الشيت أو القماش الهندى، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لا يتجاوز طوله طول النافذة. ولا يحلى بشئ ما من الزفاف (السجف) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الأستار وتنميقها به.

٢١- الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لا يستعملون الأسرة لنومهم، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة. ونقول الآن انهم لقضاء ليلهم، إذا كان الفصل صيفا، يضعون الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها، إذا كان شتاء يبسطون هذه الفرش فى غرفة صغيرة تسمى بالخزانة تكون عادة من الغرف الملحقة بالمنظرة. ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الأغنياء وأصحاب اليسار يتقون شرها بالكلل (النموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير المسلمين أو الخز = الحرير = أو أى نسيج آخر دقيق السلك، وبواسطة هذه الأقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها، ويثبتونها من زواياها الأربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بالجدران الأربعة للغرفة.

وتبلغ الكلل أحيانا من العظم ما يجعلها تشغل الديوان كله تقريبا، وتحمى

من البعوض أسرة برمتها، وفي بيوت الأغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعوا من مكانها وطويت لتتشر مرة أخرى قبيل الرقاد.

وليس لدى الشرقيين بواليب لحفظ الثياب، لأنهم يكتفون في صيانتها، بجعلها صرة تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به. ولما كانت المجاسد - أى الثياب التحتية لا تكوى ولا تننى بواسطة النار في مصر، وكان استعمال القبعات والمثقيات (الدانتلا) مجهولا من نسائها فإن هذه الثياب تلبس غير معرضة لعبث العابثين بها، فضلا عن أن صرها في البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة.

ولاتقع عين الناظر بمصر من المرايا إلا على الصنف الرديء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية. وهذا لا ينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التي أخذ بعض العظماء وذوى الحثيات يستوردونها من البلاد الأوربية.

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الأهالى ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس، وهى مما تصنعه المانيا برسم التصدير إلى الشرق الأدنى. والمصريون مغرمون باقتناء هذا النوع من الساعات إلى حد أنك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين، وفى بعض الأحيان ثلاث ساعات من هذا النوع.

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا عن الأشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغرض فلا حاجة إذن إلى استئناف الكلام عنها.

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام. وليس فى مصر شئ من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء. لأن الشرقيين ما برحوا عاكفين على استعمال المصابيح الفليظة التى كان يستصحب بها أجدادنا منذ بضعة قرون، ويستعملون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن رديء الصنع جدا غير أن لدى الأغنياء ثريات من زجاج البندقية.

وقد أدخلت إلى مصر وفى السنوات الأخيرة أشياء كثيرة تؤثث بها المنازل عندنا فى بيوت العظماء والأثرياء، ولست أذكر بهذه المناسبة قصور أصحاب

السمو التي بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الأثاث تعد مستكملة لحاجيات الحضارة الأوروبية.

٢٢- أثاث الفقراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الأثاث بالطبع مثل ما لدى اصحاب اليسار، وإن يكن في حد ذاته على شيء كثير من البساطة والسذاجة. ذلك لاقتصار الفقراء، في تأثيث بيوتهم، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات، أما الفلاحون فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم، ومائدة لطعامهم.

وليس عندهم من الأوعية إلا بعض أنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين. ذاك كل ما يتألف منه أثاثهم، وليس في الأمر ما يستغرب. لأن هذا الأثاث أوفق ما يكون لحالة الكواخ التي اتخذوها مساكن لهم.

(٣)

آداب الاجتماع

بيانات عامة- التحية- القواعد المرعية في الاستقبال بالديوان - أى مكان الجلوس- القهوة- الشبك.

٢٢- بيانات عامة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والأشارات والأوضاع من الفرد. فأداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هي، في يد الباحث الراغب في تصوير حضارة أمة من الأمم، الذى لا ينبغى له أن يطره = يمدحه = لأنه خير ما يبلغ به إلى غايته في تشكيل كيانها.

وثمة اعتبارات لاشك في أنها مما تقدم ارتباطا بالفلسفة، ولكنها ترمى إلى غرض المنفعة، تدعونى في هذا المقام إلى سرد بعض القواعد والأصول التي تنظم المعيشة اليومية للوطنيين المصريين، وسيسر الرحالون الذين يطوفون في الشرق، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته، أن يجدوا في البيانات المبسطة في هذا الفصل متنا وجيزا لقواعد آداب الاجتماع الشرقية. وبتلاوتهم

هذا المتن والمأمهم بما يحتويه يآلفون شيئا فشيئا الآداب المرعية عند المسلمين ولا ينتابهم من الحيرة والاضطراب ما ينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشيء من عاداتها وأخلاقها. وأية حيرة للرحالة الأجنبي من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لا يفهم منها شيئا. الا يكون شأنه - وهذه حالته - شأن من يحتاج إلى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها؟ أما إذا ألم بما يجله من أمرها فإنه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيته فيجتهد في التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها.

٢٤- التحية

في الغرب، إذا ساقط المصادفة شخصين إلى الالتقاء في الطريق، فإننا نرى الذي يستشعر منهما بسمو الآخر عليه في الواجهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالسلام. أما في الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذي يفتح صاحب المرتبة الدنيا به.

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبطا ارتباطا وثيقا بمراتب الذين يتبادلون التحية. فالنظيران إذا التقيا مثلا سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعا إياها إلى الفم ثم منه إلى جانب الرأس فإذا لم يكن التساوى بينهما تاما، كأن كان هناك تفاوت يميز أحدهما على الآخر. فالأرفع درجة من الأثنين هو الذي يجب عليه أدبا أداء التحية بالوصف الذي أوردناه. ولكن يجب على من يتلقى التحية في هذا الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها، وذلك بأن يحني رأسه وجسمه إحناء خفيفا. أما إذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد إلى الصدر. وفي هذه الحالة يجب على من يتلقى التحية أن ينحني انحناء محسوسا ويرسل يده اليمنى إلى أسفل لكي يرفعها بعد ذلك إلى الرأس. وإذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا في حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحية على المثال المتقدم بكتا بديه.

وفي تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير في طريقها. فإذا كان هناك فرق في المراتب، فالواجب على الأدنى مرتبة أن يقف ويواجه الذي يجب عليه رد التحية إليه.

وتصحب التحية التي تعبر عنها الإشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء

(الخير) أو (نهاركم سعيد).

وإذا التقى إثنان فى طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما. وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (أزيك) (طيبون) الخ. مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها إلى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال.

ونادرا مايستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم. فإن الآداب الإسلامية تستدعى إمساك الرجل عن توجيه التحية إليهن. ولاشئ يخالف مقتضى الآداب الأوربية من تلك الآداب السلامية كالعامل بهذه القاعدة.

حقا إنه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤتزرات بذلك الإزار الذى لايرى من خلاله شئ يعرفن به، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن، وإلا عد ذلك من المخالفات التى لا تتفق مع أصول الحشمة والصيانة. ثم إن النساء لايسلمن بعضهن على بعض فى الطريق.

٢٥- القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو البهو المخصص لاستقبال الرجال. وقد ذكرت فيما تقدم ترتيبه وتأنيته، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطئ من البهو «الدركة» حتى لا تتسخ الحصر والسجاجيد بالقذر أو يصيبها شئ من الدنس الذى لا يتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين. وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية إلى الحاضرين، كلابل إن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عند دخوله إذا كان من أهل مرتبته ودرجته. فإذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتحنى له عن مجلسه. أما إذا كان أحط منه مرتبة فليس على رب المنزل إلا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهم بالوقوف، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير إليه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقا إحدى ساقيه وثانيا الأخرى تحته تبعا لما يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت. وإنما يجب عليه فى هذه الأوضاع المختلفة أن يجعل يديه مشبكتين على أسفل

البطن، أما رجال الجندية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم.

وفى مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم، حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة والباشاوات وأكابر رجال الدين. ولم يتبع سموه هذه العادة مع الأجانب - ولا سيما الأوروبيين منهم - فإنه يدعو إلى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون إليه.

أما الإفرنج الذين فى خدمة مصر، فإنه يطلب منهم مراعاة عادات الشرقيين فى كل أمر.

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان. كما أن لضباطهم حق الجلوس فى حضرته، وهكذا بحسب ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكرية.

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم إلى جانب بعض بحيث يكون أسماهم مرتبة وأعلامهم مقاما أدناهم منه. على أن هذه القاعدة الأدبية غير مرعية يوما. فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظروف معيشتهم حتى أنك لتجد الأمير فى بعض الأحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك.

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحدهم بكلمة ويتراجعون إلى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لا يولوه أدبارهم أو أكتافهم. وعليه فى هذه الحالة أن يجيبهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا. وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين إلى الباب، إذا اقتضى أحد هذين الأمرين مكان الزائر المنصرف ورفعته قدره.

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات. وهذه العادات الأهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معروفة ومرعية من الجميع، والكل مجمعون على ضرورة الاحتفاظ بها واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون إيمانا أو يقينا دينيا.

٢٦- قهوة البن

مما لا يختلف فيه اثنان تعاطى قهوة البن فى أنحاء بلاد الشرق، فإن الشرقيين يقدمونها إلى جميع الذين يحق لهم الحضور فى مجالسهم. فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته أميرا خطيرا أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهذا الواجب الأدبى، ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل. وفى هذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر.

أما إذا كان المزور أقل من ذلك شأننا وأخط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفا إياها بوصف الجودة.

وتشرب القهوة فى أنية صغيرة من الخزف الصينى تسمى بالفناجين، وهى تشبه قشر البيض مقلوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشبه شئ بالأنية التى يوضع فيها البيض النمرشت. والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو المينا، وترصع أحيانا بالأحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينى والظرف من النحاس، وتصف عشرة فناجين إلى اثنى عشر فنجاناً، وقدّر هذا العدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسطها كنكة القهوة التى تتخذ من أحد تلك المعادن، وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزكش بالذهب أو بغيره بحسب مقدرة رب المنزل.

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها إلى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالإبهام والأصابع الثلاثة التالية له من اليد اليمنى. وتقدم القهوة فى أول الأمر إلى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره فى الخدمة، فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فإن فناجين القهوة تقدم إليهم فى آن واحد وعليهم قبل تناول الفنجان الذى يقدم إليهم أن يحيوا بعضهم بعضاً. أما إذا كان الزائرون أخط مرتبة من المزور فلا يصح تقديم القهوة إليهم إلا بعده بحسب ترتيب مجالسهم منه، والواجب عليهم فى هذه الحالة أن يحيوا صاحب البيت

بالإشارة قبل تناول الفنجان وكلما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانه إلى موازاة وجهه وعلى أثر هذه المظاهر الأدبية يشرب كل القهوة التى قدمت إليه.

ولا ينبغى فى شرب القهوة أن تشرب إلا مصا بطرف الشفتين ومن غير إمالة الفنجان، ومن يريد من الحاضرين إظهار الاحترام للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأنًا فعليه أن يتحول برأسه عنه تحولاً خفيفاً وأن لا يشرب من القهوة إلا الشيء اليسير منها.

وقد سرى قانون الآداب الإسلامية حتى على الكيفية التى ينبغى أن يرد الفنجان بمقتضاها إلى من قدمه. فإنه يقتضى فى حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرد الفنجان أن يكون هذا الابتعاد خفيفاً وأن لا يصحبه كلام مع الخادم وإنه متى تناوله هذا الأخير منه يؤدى بإشارة التحية كما أداها وقتما قدم إليه.

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشبه التى يقدمونه بمقتضاها رقة وأدباً. ذلك لأن الفنجان لا يحتوى على بروز خارجى فإنه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى.

ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل إلا بعد شرب القهوة. فإذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته إليه قبل ذلك كانت هذه المسارعة تهجماً لا مبرر له. بل مسلماً لا يليق بالمتأدبين وهذه العادة يستند البعض إليها فى إقامة الدليل على كسل الشرقيين ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو - أول وهلة - أنها مضيعة للوقت فيما لا جدوى منه ترتجى لاتخلو من الفوائد والمزايا. لأنها تفتح للزائر والمزور معاً طريقاً للانتقال الصالح من المشاغل التى كان خاطرها مشتغلاً بها قبل الزيارة والتى سيشغلان بها فى خلالها. وبهذه المثابة لا يحسب المزور أن الزائر أخذه، بزيارته إياه فى الوقت غير الملائم أو فى الأوان الذى كان لا يتوقع فيه زيارته، على غرة منه. لأنه بما ينقضى من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الأهبة للمفاوضة فى الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعداداً فكرياً.

ومن جهة أخرى فإن الزائر نفسه يجد، أثناء تعاطيه القهوة، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه

أسهل تناولا على الفهم أو أبلغ فى الإقناع بالحجة. وإذا فرض أن أحدهما أو كلاهما كان حينما وقع نظره على صاحبه قد ثارت فى نفسه تائرة الغضب أو اعتراء الحياء أو تملكته إحدى العواطف المؤثرة فى النفس فإن الوقت الذى ينقضى فى تبادل التحيات والتسليمات وشرب القهوة يمهد للغضب سبيل الفينة = العودة = إلى السكون والحلم اللذين لا بد منهما فى كل مفاوضة أو مناقشة.

٢٧- الشبك = الشيشة =

ليس فى استطاعتنا - إذا كنا فى أوربا - أن نصور لنفسنا منظر تركى وليس بيده شبك يستثير الدخان منه. وما من أحد فى الشرق إلا وهو مغرم بتدخين التبغ. إلا أن القوم يسلكون فى تدخينه مسلكا يدل على تفوقهم فى سلامة الذوق ورشاقة الحركة وما إلى غيرهما من المظاهر التى ينذر أن يتصف بها المدخنون عندنا.

والشبك أداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحولت فى نفوسهم، كعادات كثيرة غيرها، إلى طبيعة ثابتة. وللطرق المستحدثة والثروة تأثير فى الشبك باعتبار كونه إحدى الأدوات المنزلية التى يفضلها المدخن على غيرها. والأجزاء الثلاثة التى يتألف الشبك منها هى: الفم والأنبوبة والجوزة أو الحجر.

فالقم ويسمى أيضا التركيب هو الجزء الذى يوضع بين الشفتين لاستنشاق الدخان، ويكون عادة من الكهرمان رقيقا أو غليظا قصيرا أو طويلا، وعلى كل حال مناسبا لطول الأنبوبة مع اختلاف فى الشكل والزخرف اختلافا يوافق مزاج صاحبه وميله. ويبلغ ثمن الفم عادة، إذا كان من الكهرمان، من خمسين فرنكا إلى خمسمائة فرنك. ومن الأقسام ما يتجاوز ثمنه هذا الحد، ويكون مزخرفا بالمينا أو مرصعا بالأحجار الكريمة. ويقتصر الفقراء على اتخاذ أقماسهم من القرن أو سن الفيل.

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام، وتصنع إما من أعواد شجر الكراز أو الياسمين أو أى خشب سواهما وتكسى بالحريز. وإذا كان صاحبه من ذوى اليسر والقدرة كسا طرفيها، بطول أربعة إبهامات أو خمسة، بالفضة أو الذهب أو المينا، وربما رصعها بالأحجار الكريمة. أما الفقراء فيقتصرون على الخشب المعتاد فى صناعة الأنابيب لشبكاتهم وربما اكتفوا بقطعة من البوص

لهذا الغرض.

أما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربي، وتختلف الأحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس إلا.

ولم يكن التلهى وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفا على الرجال فقط، فإن النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضا بتدخينه داخل الحرم. وهذه العادة أقل شيوعا بينهن منها بين الرجال. ثم إن النساء لا يجهرن بالتدخين، وإنما يدخن فى حجراتهن بعيدا عن الأعين، وشبكاتهن أجمل رونقا من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة .

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحيانا بماء الورد ويقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم. ويتخذون أثناء التدخين أوضاعا تتم عن الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة والسكون من جهة أخرى، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور. وجلال تلك الأوضاع مضافا إلى أطوال الشبكات وسحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والأحوال التفصيلية الأخرى، مما يساعد على تحييد تلك العادة التى تبدو لنظر الأوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم.

وكان لابد للشبك أن يدخل، وله مآذركنا من الشأن والمكانة، فى دائرة الآداب الاجتماعية. غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة، ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على أنه لا يقدم عادة إلا من الرؤوس لرئيسه أو من النظير لنظيره. فمن النادر إذن أن يقدمه الرئيس لمؤوسه، وإذا قدمه فلا يكون ذلك إلا لقصر مدى التفاوت بينهما فى الدرجات، وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم إليه. ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أو الست بينها من التفاوت والاختلاف ما يجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم إليهم .

ثم إن الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع الأساليب الإسلامية الممتازة بالرقة فى الأدب. فإن الخادم المكلف بتقديمه لا يمسه به إلا من أسفل

الأنبوبة فى النقطة المتوسطة من طولها. ويكون إمساكه بثلاثة من أصابع اليد اليمنى فقط كما يمسك قلم الكتابة مع العناية بجعل الحجر إلى الامام. فإذا ما وصل تجاه الشخص الذى يراد تقديمه إليه أسند الحجر إلى الأرض بعد أن يكون قد قاس بنظره المسافة الفاصلة بينه وبين هذا الشخص بحيث يجعل أنبوبة الشبك، بعد ارتكاز الحجر على الأرض، تتحرك حركة يرسم الفم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم إليه.

ويقدم الشبك كما تقدم القهوة إلى الذين يحلون المكان الأول من مجلس صاحب البيت ثم إلى الذين يلونهم يمنة ويسرة، وهذا على حسب ترتيب المواضع. والواجب فى هذه الحالة على من يقدم إليهم الشبك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت. وإذا كان على الزائر للمزور فروض احترام وتعظيم إما لجاهه أو وجاهته أو ثروته أو غير ذلك فمن الأدب المستحسن أن يعنى بإبعاد طرف الأنبوبة التى فيها الحجر عن مجاورته. لأن ترك هذا الطرف بالقرب منه يشير إلى أن الكلفة مرفوعة من بينهما ويكون الزائر قد أتى، فى هذه الحالة، أمرا لا يتفق مع حسن الشمائل وكرم الأخلاق. وواجب الزائر حيال المزور الذى هذا شأنه أن يترك الطرف الأعلى من الشبك مستندا إلى ركبته، وأن يستنشق منه بين حين وآخر نفسا خفيفا لا يزفره إلا وهو محول رأسه عن ناحية المزور. والحذر كل الحذر من انبعاث صوت ما بين الشفتين أو البصق فى منديل أو غيره.

وإذا أراد الزائر مزايلة = ترك = المكان بعد انقضاء الزيارة، فعليه ان يكف عن التدخين بأن يرفع بيده الطرف المشتعل على الفم (المبسم) فلا يلبث الخادم أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك.

فإذا فرض ولم يكن هناك خادم ولم يتقدم أحد. فله أن يسند هذا الطرف إلى ديوان الجلوس.

(٤) الختان أو الطهارة

قدم هذه العادة- الاحتفال بها .

٢٨- قدم عادة الختان

كان الختان عند قدماء المصريين إحدى الوسائل الصحية التى تقضى بها القوانين المدنية، وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام). وإذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هو إلا لما ثبت عندهم من فائده وحسن أثره من الوجهة الصحية. لأنه، بقطع النظر عما يتطلبه الدين الإسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام، من أنجع الوسائل لوقاية أعضاء التناسل من الأمراض الكثيرة التى يكون القدر سببا لها.

٢٩- الاحتفال بالختان

جرت العادة بأن يكون ختان الأطفال فى السابعة أو الثامنة أو التاسعة من أعمارهم. نعم إن السن التى يقام فيها الاحتفال بالختان تحدد على وجه الصراحة. غير أنه يجب الشروع فى إجراء عملية الختان والاحتفال بها قبل مناهزة الغلام سن الحلم، لأنه يعتبر فى هذه السن مكلفا بأداء فرض الصلاة. فإذا لم يكن قد اختتن فلا يعتبر جائزا على شروط الطهر والنظافة التى يقتضيهما الشرع

والمألوف عند نوى اليسار والبسطة فى المال أن يبالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم. فإنهم يؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم.

أما الغلام المراد اختنانه فيمتطى جوادا مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمم بعمامة من الكشمير الأحمر. وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه النيلك والسلطة والكور والصوفة، ويضع على فمه بيده اليمنى منديلا مزركشا بالقصب. وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبى الحلاق الذى نيطت به عملية الختان ممسكا بيده الجلم، وهو صندوق يحتوى عدة معلمه وأدواته. يراد

بجعله فى المقدمة الرمز إلى الغرض من الاحتفال ثم يتلوهُ رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته.

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله، ولاسيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد فإنهم، فى هذه الحالة، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف ويأيدهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل، ويعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصّة من الزمن بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه بنبيه أن يحفظ «المطاهر» ويحرسه لأهله، ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الأطفال وغيرهم.

والعادة أن تتم عملية الختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل إلى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الخشقة = الغلفة = بالموسى ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم، ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر وإتحافه بالهدايا الجميلة. ويعد أسبوع من العملية يؤخذ إلى الحمام.

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أنوار حياة الطفل المختن. فإن الناس ينظرون إليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة. ومن هذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين، وإذا كان غنيا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسعا النطاق، أما إذا كان فقيرا فإنه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها.

(٥)

الزواج

ميل المصريين إلى الزواج - السن المعينة للزواج - الزواج المحرم -
مقدمات الزواج - حفلات الزواج - إزالة البكارة.

٣٠- ميل المصريين إلى الزواج

يرى المسلمون فى الزواج أنه من الفروض التى لا يحسن بالمرء محاولة
التنصل من القيام بها . فهم يريدون من الرجل الاقتتران بالمرأة متى بلغ السن
الملائمة لذلك ولم يحل نون إتمام هذا الأمر حائل لا قبل لأحد على دفعه . وبلغت
شدة الهم بهم فى هذا الموضوع إلى حد لا يمكن لأحد معه السكنى بأحد
الأحياء فى بيت خاص به ما لم يكن متزوجا أو عنده فى خدمته جارية أو جملة
من الجوارى . فالعازب مضطر إذن إلى السكنى فى الوكائل - أى الفنادق
العامّة المعدة لإقامة الغرباء

ويريد الآباء لأبنائهم ما يريدونه لأنفسهم من الحصول على النسل . وهذه
الرغبة أساس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهم
فى مقتبل العمر . وكثيرا ما يخطبون لهم العرائس وهم فى طفولتهم الأولى
فيحتظون بهن إلى أن يبلغوا سن الحلم فيتم زفافهم بعضهم على بعض .

٣١- السن المعينة للزواج

الحقيقة أن لاسن معينة للزواج عند المصريين ، لذا تراهم يذهبون فى هذا
الأمر إلى حد العبث والإخلال بالصواب . فإن منهم من يزجون بناتهم فى
التاسعة والعاشرة من عمرهن - أى فى الوقت الذى لم يتوافر للمرأة فيه من
النمو البدنى والأدبى ما يجعلها أهلا للتزوج .

وكثيرا ما يرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم ، وقد تزوجوا
بفتيات صغيرات يصح أن يكونوا مثلهن أباء أو أجدادا . وهو الدليل على أنهم
لا يهتمسون من الزواج سوى شفاء القليل من الشهوات البدنية ، وعلى أن الدافع
لهم إلى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولا العاطفة .

٣٢- الزواج المحرم

ليس لمسلم أن يتزوج بإبنته أو أخته أو بنت الأخ أو بنت الأخت أو الأخت في الرضاعة أو أخت الزوجة ما لم تكن قد توفيت أو طلقت، وفيما عدا هذا من طبقات القرابة يباح الزواج، والشريعة الإسلامية لاتحرم زواج المسلم بالنساء من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسيحيات ولكنها تحرمه بالمشاركة من أديان أخرى غير هذين الدينين، ومما يكاد يدخل فى حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الإباحة فيتزوج بمسيحية أو يهودية.

٣٣- مقدمات الزواج

إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح.

والزواج فى مصر اتفاق خاص لا يحتاج فيه إلى مصادقة من السلطة الدينية ولا إلى إجراءات ما من جانب السلطة المدنية، فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين، وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك، فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك إياها » فيجواب هذا: « قبلت ». وكثيرا ما يتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج إلى القاضى فيفضيان إليه الرضا والقبول، ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية

ويتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر، وليست المرأة فى مصر هى الملزمة بأدائه إلى الرجل، لأن الشريعة الإسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق إلى المرأة، وهذا الإلزم غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق، فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة.

ويقدر الصداق عادة بالريالات، والريال نقد صورى ينقسم إلى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما، ففى الأسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة إلى ألف ريال، وأحيانا لايتجاوز نصف هذا المبلغ، أما الاغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا، ويبلغ عندهم عادة إلى عشرة أكياس، وربما تجاوزها إلى ما فوق، ومما يشترط فى عقد الزواج أن نقبض العروس من المهر

عاجلة أى الثلثين من مجموعها، ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه. أما الثلث الباقي وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال احتياطي لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها.

٣٤- حفلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضا من الخطيبين، وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لا تتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها. وقد يقدم العريس إليها بعض الهدايا أثناء ذلك.

والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنين والجمعة على الأخص.

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنصورة بين فيضان النيل وشهر رمضان. وفى الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو الثلاث ليالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية إليه من الحى الذى يسكنه، وتقام المآدب ويدعى إليها أقرباؤه وأصدقائه.

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقربياتها وجاراتها، ويعد من الأعياد الكبيرة وبواعت السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية، ويزال شعر بدننها للمرة الأولى فى حياتها. ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها. ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ما تتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج، ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات. وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل. أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضا فى مثل هذا المظهر ويقضى به اليوم بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه. وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان إلى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالآجرة فلا يغشاة أحد من جمهور الناس.

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف، سارت العروس إلى بيت عريسها فى موكب

حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها إلى الحمام. وتسير فيه أيضا جواربها بعضهن حاملات أوعية تتضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصوغاتها، والبعض الآخر يقمن بإحراق البخور فى المباحر، بينما تبث نساء غيرهن فى الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد. ويواصل الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لإذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور فى بهجة احتفاله.

والدى عودة العروس إلى الحرم المعد لإقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهى الطعام. فتجلس إليها للأكل مع صويحباتها قريبات وجارات. أما العريس فلا يحضر هذه المائدة. بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا إلى المنزل لتناول الطعام معا، وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها.

عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل. وهذه الأونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الإنسان. لأنه يتأكد بعينى رأسه إذا كانت الأحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه، منذ تحرير عقد القران، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق. وعقب رفع النقاب يباشر بنفسه العملية التى يقوم بها الدليل على بكورة عروسه من عدمها.

٣٥- فض البكارة

يتم الزواج بمصر فى ظروف خاصة جدا، وخاصة إلى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها. نعم إن من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة إلى هذا المبلغ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهذا الواجب مع الاحتران بقدر الإمكان عن إيذاء سمع نوى الحشمة والوقار.

إن الغرض الأول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة. إذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها. كما يرى العريس أن هناك ما يدعوه إلى التحقق منها. فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها إقامة الدليل - لا لزوجها وأهلها - بل لأصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا، على أن درة البكورة لبثت مصونة ولم تعبت بها يد الثاقب.

لهذا كان المصريون يرون فى إزالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة إلى

إحاطتها بالأسرار المبنية على الحشمة والحياء، وأن لا مانع - بناء على ذلك - من الاستشهاد عليها بدعوة الناس إلى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه.

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الأمهات وبعض كبار السيدات، ومؤداها أن يقوم العريس بإزالة بكارة عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحرير الأبيض، وهو - في قيامه بهذه العملية - يبدي الشيء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الفيرة المخجلة التي ملأ بها فؤاده قبل أن يستجلى وجه عروسه. أما المنديل الحريري فيعرض على الأهل والأقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون في مظاهر الفرح والسرور. ثم يعرض أيضا هذا الدليل الدموي على عفاف العروس وطهارة ذيلها، على المدعوين. وفي اليوم التالي تطوف به أم العروس أو أختها أو إحدى قريباتها في الحي برمته لتطلع سكانه عليه.

والغاية مما تقدم أنه إذا اتفق أن عروسا وقعت في خطيئة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص في التكوين الجثماني يحول دون إتيانها بذلك الدليل فإن للعريس أن يطلقها من ساعته. وفي مثل هذه الحالة غالبا ما تكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لايزعمهم من الرحمة والتبصر وأزع عن قتلها ذبحا وإلقاء جثتها في النيل للتخلص من عارها. وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لأحد الأسباب المتقدمة.

والأحوال التي لا تستطيع العروس فيها إثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات. لاسيما وأن من السهل، ببعض الحيل الصناعية التي يعرف أسرارها بعض العجائز، إثبات وجود البكارة مع انها غير موجودة لحادث ما. هذا ولا يباح الاتصال للزوجين الا بعد سبعة أيام من إزالة البكارة على الوجه المتقدم.

(٦)

الوفاة والجنائز

الوفاة- حزن الأهل- الكفن- القبور والمقابر- احترام المسلمين للموتى- الحداد.

٣٦- الوفاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم، ولهذا كانت الجنائز عندهم من أهم المظاهر الدينية. غير أن هذه المظاهر لا تنتهز في هذا الأمر - كما في كثير من الأمور غيره - دليلاً على الشعور الحقيقي بالحنن والتأسي، لأن الدين الإسلامي يدعو أهله إلى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وإرادة لا راد لها وحكم يجب الانقياد إليه والرضا به. فإذا استسلموا إلى الحزن وبالفوا فيه أتوا ما يخالف أوامر الله وذهبوا إلى عكس مشيئته . وهذا هو السر في قولهم أثناء كلامهم على موتاهم، متى هدأت نار حزنهم الأول: إن الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم إليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء إلى دار البقاء الخ.

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم إليه يظهرن التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون: «لاحول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون» ويقولون لمن يجيء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم : « الحمد لله، هو أرحم الراحمين» وإذا أنسوا في أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة، ليكونوا في انتقالهم من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، على طهارة تامة. فإذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة.

٣٧- حزن الأهل

إن اللحظة التي يلفظ المسلم فيها النفس الأخير تتلوها في العادة مناظر غريبة طالما وقع نظري عليها واستقصيتها من أولها إلى آخرها. فإن النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار . ولكن المسلمين على خلاف ذلك. فإنه مادام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوي قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب

الصبر، ومهما أقتنعهم الأطباء الأوربيون به من قرب الوفاة وأنها لابد تالية لحالة الاحتضار، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين: «إن الحياة والموت بيد الله، وأن ليس لأحد من البشر أن يخبر عن شخص لا تزال الأنفاس تتردد في صدره، أنه لا محالة مائت» ولكنه متى لفظ النفس الأخير ولبى نداء ربه، سرعان ما يأخذهم الانزعاج وينتابهم الحزن والأسى فيصيحون ويبكون، وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعرهن ويحثن التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على إيقاع معلوم منهن، وإذا كان المتوفى رب الأسرة انبعثت من صدورهن ألقاظ تدل على مبلغ الحزن والأسى لوفاته من نفوسهن فيقلن: «ياسيدى! يا جملى! أنت الذى كان يجرى بقوتنا! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا! ياسبعى! يا ركنى! يا عزيزى! يا وحيدى! وامصيبتاه! ماذا تركتنا! ماذا كان ينقصك بيننا! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا!» الخ ما هنالك من عبارات الشجوة وصيحات الحزن.

ولا يكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضفن صراخهن وعويلهن إلى صراخ صاحباتهن وعويلهن. وغالبا ما يدعين إلهن الندابات الضاربات على الإطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها إظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات فى إيرادها المبالغة التى لامعنى لها. وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على إقامة الأحزان ويقبحونها ويدعون إلى هجرها والتئصل منها.

ذاك شأن النساء فى الماتم، أما الرجال فيحتفظون غالبا فيها وفى الحوادث المكدره والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الألم والحزن الذى يحسون به شديدا فى قلوبهم، ويتحامون إظهار شئ من العلامات والإشارات التى تنم على ما ينتابهم من ذلك، وغاية ما يشاهد منهم حب الانزواء عن الناس، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركونهم أحد فيه. وهذا ولا شك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم على الشدائد والمحن.

٣٨ - الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن.

والمجمع عليه بمقتضى نصوص الدين التعجيل بتجهيز الميت وتشيع جنازته ودفنه، وهم يجعلون بذلك حتى إنه ليحدث أحيانا أن تنقل الجثة إلى القبر. بعد الوفاة بنصف ساعة أو ساعة، ونادرا تمتد هذه المدة إلى بضع ساعات. والمقصود بهذه العجلة التى أوصى الشارع بها منع التأذى من تعفن الرمة السريع الحصول فى الأقاليم الحارة. وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت إلى أكثر من حزن موجب الأسف والندم.

وتشيع الجنازات فى النهار عادة فإذا توفى الميت ليلا فإنه لا يكفن إلا بعد شروق الشمس، ولذلك يبيت أهله فى بكاء وعويل لا يكفون عنهما إلا بعد زمن طويل تقضى فيه قواهم وتبج أصواتهم. وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الأخير من صدره يذهب أهله فى طلب المغسلين والحنوطيين الذكور منهم للذكور، والإناث للإناث. وبعد غسل الجثة فوق لوحة الغسل يزال شعره وتسد فتحات جسمه جميعا لصيانتة من التدنس بالمواد التى لايبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد.

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى إنهم إذا خرجوا، لسفر طويل أو قتال مع العدو، أخذوا أكفانهم معهم. وبعد إدراج الموتى فى أكفانهم يوضعون فى نعش يغطى بقطعة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى.

وليس محتما أن تكون نعوش الرجال شبيهة بالصناديق المقفلة. ولكن الشريعة الإسلامية التى تلاحق النساء بعواطف الغيرة عليهن، تقضى بأن لاتكون نعوشهن بعد موتهن إلا على الشكل المتقدم الذكر.

وبعد إيداع الجثة النعش، تحمل إلى أحد المساجد بحيث تكون الرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه. والمسلمون لا يؤذنون للمسيحيين بجعل جثث موتاهم على هذا الاتجاه. بل يلزمونهم بجعلها على عكس هذا الوضع - أى بتقديم القدمين على الرأس. ويتقدم مشهد الجنازة طائفة من العميان يسرون على ثلاثة صفوف صائحين صيحات موزونة مشجية ناطقين بالشهادتين وهما «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ثم يليهم خدم الفقيد فالندابات مرتديات بأردية طويلة زرقاء ومؤثرات بإزار أبيض. فالأربعة الرجال الذين يحملون النعش على اعناقهم فأعضاء أسرة الفقيد فشيوخ المساجد يتبعهم، فى بعض الأحيان، جماعة من عامة الشعب.

وبعد نقل النعش إلى المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه، ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره إلى المقبرة، وفيها يستخرج الميت ليغيب في القبر الذى أعد له متجه الرأس نحو الشرق. أما المشيعون الذين تألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حول حفرة الميت، ويعود الأهل والأقارب مع الندابات إلى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لأداء وظيفتهن الجنازية. ألا وهى إذكاء نار الحزن على الفقيد فى قلوب أفراد أسرته (١).

٣٩ - القبور والمقابر

إن قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفورة بحيث يتمكن الموتى الذين يودعونها من القيام لتلقى سؤال الملكين منكر ونكير والإجابة عليه. وأحد وجهى القبر يكون باتجاه الجنوب الشرقى. أى صوب مكة والوجه الآخر المقابل له فى المدخل يحميه مربع صغير من البناء ويمكن أن يحتوى كل قبر أربع جثث لا أكثر، ومن النادر أن تدفن النساء فى نفس القبر الذى يدفن الرجال فيه. وفوق القبو الذى يكون سطحه الأعلى بمستوى سطح الأرض يقام أثر مستطيل مكعب الشكل يثبت بطرفيه لوحان من الحجر يعلوهما شكل قلنسوة تدل على ما إذا كان القبر مخصصا لدفن الرجال أو النساء. وبالرغم من أن الدين الإسلامى لا يبيح وضع النقوش بأيات القرآن على القبور فإنه لا يكاد يخلو قبر منها. ومع تحريمه صراحة العلو ببناء القبور والأضرحة وتحثيمه الاقتصار فى بنائها على الطوب النىء فإن الأغنياء والعظماء يشيدون لأنفسهم أضرحة من الرخام المنقوش بالكتابات والرسوم الجميلة. بل أن منهم من يبنون المساجد الفخمة ليجعلوا فيها أضرحتهم. فلا جرم إذا كانت قبور الخلفاء والأمراء والممالك من أنفس تحف الهندسة العربية وأجل أثارها. وموقع مقابر المصريين من المدن داخلها أو ضاحيتها القريبة، ويتحرون لها الأماكن الرملية المرتفعة ونادرا ما يقع النظر فيها على النباتات إلا ما يكون من بعض أشجار الجميز التى تنشر ظلالها الوارفة على القبر، أو بعض شجيرات الأزهار نامية حوله يتعهد بها من أن إلى أن قريب حزين أو صديق حميم.

(١) إن عادة الندابات عادة خاصة بمصر. وقد جاء فى مؤلفات هيرودتس وديودوروس الصقلى ما يؤخذ منه أن هذه العادة كانت غاشية فى الأزمان القديمة.

وقد حرمها الدين الإسلامى، ولكن هذا التحريم لم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها.

٤٠- احترام المسلمين للموتى

يعنى المسلمون أثناء انتشار الأوبئة بتكفين موتاهم ودفنهم على المثال المتقدم. ولا يظن أحد أن الأوبئة تلقى فى أفئدتهم الروح الذى تلقيه فى أفئدة الأوربيين. كلا فإنهم لا يتنحون أبدا عن موتاهم الذين يموتون بالطاعون. وهذا هو شأنهم أيضا فى الحروب، فإنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضه الدين. وإذا كانوا يخترقون الصحراء فى سفر طويل ثم أعياهم السير وأضناهم حلول الشقة، وأدركوا أنهم مائتون لا محالة، حفروا قبورهم بأيديهم ورددوا فيها إلى أن يدركهم الموت.

٤١- الحداد

لا يحمل المسلمون الحداد كما نحمله نحن، الا أن منهم من يصبغون أيديهم بالنيلة أو بالسواد ولا يزيلونها إلا إذا زالا بنفسهما. وإذا توفى الأزواج صبغ النساء بالنيلة أيديهن وسواعدهن إلى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهن وقناعهن وتركوا شعورهن شعثة وغطلوا أنفسهن من الحلى وفى حالة وفاة رب المنزل قلبوا الحصر والسجاجيد والمساند وأغطية المفروشات ظهرا لبطن.

(٧)

الاعتقادات الباطلة

الجن - الأولياء - الدراويش - العين الحاسدة - الشعوذة - الأحلام - أيام السعود والنحوس - التنبؤ بالمستقبل - السحر - التنجيم - الكيمياء - أصحاب الفال - حواة الثعابين - الاعتقاد فى الخرافات - المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على.

إن الشعب الجاهل الذى أخذت الاعتقادات الدينية من نفسة مغرسا عميقا يكون ميالا فى العادة إلى العقائد الباطلة والخزعبلات الفاسدة. وهذا هو شأن المصريين الذين عرفوا بالميل الشديد إلى العجائب والغرائب وإحاطة جميع الشئون والظروف المعيشية بها.

٤٢- الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار فى مصر الاعتقاد بالجن. والجن فى نظر المصريين وسط بين الملائكة والبشر، وقد خلقوا قبل آدم

وكان خلقهم من النار. وأطال الله في حياتهم. فحياتهم تدوم قرونا طويلة. ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصة التشكل بما يروق لهم من الأشكال. فإذا شاءوا كانوا بشرًا أو حيوانًا وإذا شاءوا كانوا حجارة أو نباتًا وإذا أرادوا خفوا على الأنظار فلا تدركهم الأبصار. أما مساكنهم ففي جبال قاف التي يعتقد الأميون من المسلمين أنها تحيط بالأرض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحًا مستويًا لا كرويًا.

ومن الجن رهط يميلون إلى الخير ورهط ينزعون إلى الشر، والمسلمون يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم. وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو إضرام نار الخ قاموا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الأعمال. ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف إلى الحمامات والآبار والمراحيض، وأهل القاهرة مقتنعون بأن كل حي من أحيائها موكول حراسته إلى نفر من الجن الميالين إلى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين.

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت، فما من عبث أو فساد يقع في الأرض إلا وينسب إليهم فعله. فهم الذين يقضون فراغ وقتهم، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نوافذها، في إلقاء الأحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناتهم المقابر والهيكل والقصور والآثار القديمة. ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس في شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاق بين الناس. وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب إعصارًا قالوا في تفسير هذه الآثار والظواهر أن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا في الأرض فسادًا. وإذا سقطت الرجوم من السماوات قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع، ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين في قولهم: «سهم الله في عدو الدين».

٤٣- الأولياء

ليس في الدين الإسلامي ما يقضى بتقديس الأولياء، ولكن المسلمين بوجه عام، والمصريون منهم على الأخص يعتقدون في بعض الأولياء، بناء على ما تنأى إليهم من إجماع الرأي العام على تقديسهم. وقد يكون الرأي العام في

ذلك مخدوعا بخدعة مازح أو ماکر، وهم لا يقتصرون على تکریمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضوع احترامهم وتوقیرهم أثناء حياتهم.

ويرى المسلمون فى المجاذيب والمجانين الذين لا يضرون الناس أنهم قوم اتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة. وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلى من المواهب التى يسمو الإنسان بها على سائر الحيوانات، ولكن عامة الشعب يعللون إجلالهم إياهم أن روحانيتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها. ومن ثم تراهم يغضون الطرف على فعال أولئك الأولياء الذين تستدعى حالاتهم العجب والدمش. فإنهم لا يأنهون بهم اذا برزوا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى ما يستر عوراتهم. وقد يكون منهم من يهتكون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا يرعون حرمة الآداب والدين. ومع هذا فلست ترى أحدا يتأفف من عملهم أو يرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار. وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه إذا كان أولئك الأولياء قد تركوا أجسامهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى ميدان الملاذ المادية، فما ذلك الا الاستغراق روحانيتهم فى التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى. ويعرف سواد أولئك المجاذيب بقدرة أبدانهم ومايتشحنون به من أطمار بالية. وهم يصرفون نظر الناس إلى ذواتهم بما يأتونه من شاذ الفعال وغريبها ويعيشون من الصدقات التى يتهافت الناس على أدائها إليهم من غير سؤال فى غالب الأحيان.

ومن لم يصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون يطلق عليهم اسم الأولياء، ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها فى إظهار ولايته. بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب. وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يفوهون بكلمة وإنما يبدون فى مقابل ذلك من فاضح الإشارات ما يندى منه الجبين. وهناك فريق لا شغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غيره لا عمل له الا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع فى أيديهم أو يكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها

واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران.

وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من فعالها المتقدمة، فإن منها من لا يغطون رؤوسهم بالقلانس. بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغا عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثا وإما ممشطا. وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسون بين السابلة لا يستر أبدانهم شيء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يعملون الحياء ويتكفون السمات والوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان.

وشهرة الأولياء بإتيان الغريب والمعجب من الأعمال غنية عن البيان، ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الأولياء يسمو على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتولى رياستهم باسم القطب أى المحور الذى يدور الأولياء حوله. وهو يبرز إلى الناس ويختلط بهم، ولكن ليس فى قدرة أحدهم أن يتبين حقيقته أو يعرف أنه هو ذاك الذى امتاز على أقرانه بتلك خلال الجليلة والصفات العالية. وسبب جهل الكافة بحقيقة أمره. ظهر بينهم، تحريه التواضع والخشوع فى مظهره والحسنى والمعروف فى معاملته الناس كى يتمكن من إقناع المخالفين لأوامر الدين والمتغافلين عن العمل بنواهيه بالفينة = الرجوع = إلى طريق الحق والرجوع إلى الصراط المستقيم. والمعروف عندهم أنه يفضل الإقامة على سطح الكعبة ويصيح من أعلاها مع اختفائه عن الأنظار مرتين فى منتصف كل ليلة قائلا : «يا أرحم الراحمين ارحمنا» وله فى القطر المصرى جهات يقف بها، منها باب زويلة بالقاهرة ومقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ومقامات أخرى ومعاهد للدين . ومما لا يختلفون فيه أن فى قدرته الانتقال فى لمح البصر من القاهرة المحروسة إلى مكة المكرمة.

والموالد لتكريم الأولياء وإحياء ذكراهم تقام عادة بعد وفاتهم وقد أنشئت المساجد الجميلة على قبور البعض منهم وأقيمت الأضرحة فى المدن والأرياف تعلوها القباب على أجدانهم إجلالا لكراماتهم، وجرت العادة بغرس شجر جميز بجوار كل قبة لتظللها أغصانها بظلالها الوارفة. وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الأضرحة إما لتلاوة الدعوات وإما لالتماس الشفاء للمريض أو قضاء مطلب.

وفى بعض الأحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر حتى، إذا وصل إليه أخذ السابلة استطاع الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار الباسقة. أما الأضرحة التى لا أبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب السابلة. لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل الجرار والقلل فيها ويتعهدونها على الدوام لإرواء العطشى من أبناء السبيل أو المسافرين. وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها، أو يظهر فيهم أثر لجرح، ويروضون الأفاعى والعقارب حتى تأنس بهم، ويضعون النار متلظية تحت أباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى.. الخ.

وهم فى هذا العهد أقل إسرافا فى الشموخ والازدهاء بهذه الخاصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس.

ومن أغرب حفلات الدراويش الذكر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصلا غير منقطع. وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض، وقد حقنت وجوههم، وسال اللعاب من أفواههم بما يسيل من أفواه المتشجنين وبدت عليهم علامات الأخذة. وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثناءها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الإيذاء والتمثيل. وربما نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال.

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينية، ويسيرون فى مواكبها، ويمارس فريقهم الأكبر بغض الصناعات، والفريق الآخر لا مهنة له سوى تلاوة القرآن والإنشاد فى الجنازات فى سد جوعة أو قضاء حاجة، والفلاحون ينذرون النذور لأضرحة الأولياء فإذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فممنهم من إذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أو ماشية ذبحه وطبخه ومد الأسطة ودعا إليها الفقراء فيفدون زرافات لتتناوبها وإشباع البطون منها.

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الأولياء المشهورين فى القطر المصرى.

٤٤- الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصلاح والورع تفوق فيهما أبناء الفرق الدينية الأخرى. وهم كثيرون العدد في القطر المصري وينقسمون إلى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضهم عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وإشكال قلائنسهم. ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة إلا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها. فإنهم مثلاً يأكلون الأحجار والزجاج والمعادن، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين إلى الآخر دون أن يشعروا بالألم.

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء » الذي يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين. أما الفريق الآخر فيعيش بما يصدق عليه من الصدقات والمبرات. وفي مصر دراويش كثيرون متشردون وأصلهم من بلاد الشام والعجم.

٤٥- الحسد أو النظر أو العين

يعتقد المسلمون في الحسد أو النظر أو العين، وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة. للوقاية منها. فإذا رأوا أحدا يغالى في الإعجاب بشيء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده - أى أصابه بعينه، ولهذا السبب تراهم، إذا أرادوا الإعراب عن إعجابهم بشيء، يراعون القصد في الألفاظ الدالة على ذلك. وعندهم لا يليق بأحدهم أن يقول في خلال كلامه عن شيء يملكه أنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الإعجاب به بجملة « ما شاء الله » التي تشير إلى الطاعة للمشينة الربانية واحترامها. وإذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شيء فالذى يحب من السامعين، لها اتقاء ما يضره المتعجب من الحسد أن يواجهه بقوله: « صل وبارك على سيدنا محمد » فإذا أجاب على هذه الكلمات بقوله: « اللهم صل وبارك عليه » فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد.

ويعمل المسلمون ما ينزل بهم من المصائب الطارئة بسوء الحظ وقلة البخت وعدم موافقة الطالع. ويعتقدون في النفاثات في العقد، ويسندون ما هم فيه من العجز وقلة الحول إلى التأثير السارى إليهم من أعين الحاسدين.

٤٦- الأحجية

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والأحجية. فيحملون الحجاب الواقى من الشر مخيطا بثيابهم.

وأحسن الأحجية، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشدّها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آيات القرآن تكتب فى رقعة وتوضع - بعد أن تغلف فى قطعة من الحرير - تحت الإبط اليسرى.

ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية: « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » أو أسماء الله الحسنى أو أسماء النبى.

ويسند المسلمون إلى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فإن النساء يعلقن أهمية عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير والمواد يجهز ويباع فى العشرة أيام الأولى فقط من شهر المحرم يسمينه ببخور عاشوراء أو الملح المبارك. ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى والماء المستنبت من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة، ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا فى مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه الحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أو بعض آيات القرآن مثل « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » أو بعض الأدعية مثل « يا مفتاح الأبواب افتح لنا خير باب » إلى غير ذلك من الأقوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم.

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الألفاظ مثل « يا الله » « الخالق الدائم » وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان إحدى شجيرات الصبار الذى يعزّون إليه تأثيرا فى دفع العين وضرها.

٤٧- الأحلام

يقرأ المصريون فى صفحات أحلامهم ما يستنبئون به المستقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب. وإذا قال أحدهم لآخر إنى رأيت مناما، أجاهه السامع حالا بقوله « خير إن شاء الله ».

٤٨- أيام السعود والنحوس

والأيام عندهم قسمان: أيام سعود وأيام نحوس، فأيام النحوس هى الأحد وليلة الإثنين التى توفى فيها النبى ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لأن كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيه ويوم السبت وهو أنحس الأيام جميعا. أما أيام السعود فيوم الإثنين، ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبارك، ويوم

الجمعة وهو أول الأيام لأنه عند المسلمين بمنزلة السبت عند اليهود، وهم يفضلونه لإتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة.

ومن أيام السنة ما هو أيام سعود ومنها ما هو أيام نحوس.

وشر أيام النحوس الأربعاء الأخير من شهر صفر، وفي هذا اليوم يهجر الناس مساكنهم تقيّة الإصابة بالأمراض الكثيرة التي تنصب فيه على بنى الإنسان.

٤٩ - التنبؤ بالمستقبل

إذا تحير المسلمون في أمر ولم يهتدوا إلى وجه الصواب فيه اعتمدوا في تبينه على أمور ترجع إلى الخزعبلات المبنية على فساد الاعتقاد. فمن ذلك التجاؤم في إصابة الغرض إلى ما يسمونه بالزاييرجة. والزاييرجة هذه عبارة عن شيء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة في كل خانة حرف من حروف الإبجدية العربية، وطريقة استعمالها أن يقرأ فاتحة الكتاب. ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهي: « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ».

ويضع إصبعه على الجدول مغمض العينين ثم يفتحها، وبعد أن يقرأ الحرف الذي سقط أصبعه عليه يكتبه في ورقة ويكرر هذه العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التي يحتويها العمود الخامس إلى يمين العمود الذي أرشد إليه الحظ والجفاف أول مرة. فإن اجتماع هذه الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة. والمشتغلين بالزاييرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تغطى أربعة أجربة سلبية في مقابل جواب واحد موجب.

ومن الناس من يستخIRON القرآن ويلتمسون منه النبوة القاطعة فيما يحبون استطلاعه من أحوالهم. وذلك بأن يجعلوه في موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة. فيعمدون إلى السطر السابع من الصحيفة اليمنى ويقرأون. فإذا كان معناه يفيد السكون والسلام والخير كان الجواب موجبا. بخلاف ما إذا أفاد السخط الإلهي أو اللعنة فإن الجواب يكون سلبيا

وكثير من المسلمين يستفسرون المستقبل بأن يحركوا بين أصابعهم حبات السبحة التى بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الأولى : « سبحان الله » وعند تحريك الحبة الثانية : « الحمد لله » وعند تحريك الحبة الثالثة : « لا إله إلا الله » . ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة الأخيرة فإذا كانت الاستخارة التى قيلت فى الحبة الأولى تصادف الحبة الأخيرة فإن الإجابة تكون موافقة أى موجبة وإذا كانت الثانية كانت الإجابة لازمة، أى لا موجبة ولا سالبة .

يفهم مما ذكر أن الشعب المصرى الذى يبنى فعاله وتصرفاته على القضاء والقدر لشعب خائف يهاب تحكيم الضمير والعقل اللذين وهبهما الله للإنسان ويميزه بهما على سائر الحيوان، ويتصل من مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبل أموره على غارب الجراف والاتكال الأعمى، راضيا بما تقضى إليه من النتائج ولو ساءت مستسلما لها باعتباره أنها الإرادة الربانية بلا نزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم إنما كان الإقرار على أسبابها نتيجة حكم حبوب من السبحة أخذت تجرى بين أصابع وزير من الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوساوس، ومن ذا الذى يعلم كم مرة عبثت أيدي السلاطين بحظوظ الرجال، بل والدول على أثر التجائهم الاستخارة اثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم.

٥٠- السحر

ان مصر بلد السحر ولا فخر، ولعل القارىء يذكر السحرة الذين كانوا فى خدمة الفراعنة، ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمباراة موسى بسحرمهم، ومن المؤكد أن خلفاءهم الجالين لم يرثوا شيئا من قوتهم ونفوذهم السحر إليوم ينحصر فيما يسمونه الآن بالانكرومانسيا إذ إن السحرة رجالا ونساء يقتصدون تقريبا على التبنؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئان غالبا . وهم، فى بعض الأحيان، يستحضرون الموتى والأحياء ويطلعون الناس عليهم فى مرآة سحرية مؤلفة من بقعة حبر على مربع من الورق يقوم بعملها طفل صغير تحضر له هذه التجربة مقدما . فإن الطفل يرسم صور الأشخاص الذين تسوقهم قوة الساحر إلى المرور أمامه، ومما لاشك فيه أن بعض اللذين يعجلون بتصديق

مما يقع تحت أنظارهم من الحوادث بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفة الغلام شفوياً لحقيقة الواقع. ومن الأوربيين الذين تستميلهم هذه الخزعات الفاسدة، وعلى الخصوص الإنكليز، من يصدقون بهذه التجارب ويصدقون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلاً. فقد وصف وصف المسترم و. لان فى كتابه «عادات وملابس المصريين» وفى هذا لم يبد ذرة من الشك فى صحة نتائجها.

ومسلمو مصر يعتقدون أن بالإمكان القيام بالإجراءات السحرية بحسب مبادئ الخير أو الشر. وتسمى نظريتهم فى الحالة الأولى بالعلم الروحانى، وفى الحالة الثانية بالعلم الشيطانى. فالسحر الروحانى وهو موضوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لأنه يعتمد فيه على الوسائل غير المنافية للدين، أما السحر الشيطانى فيستعان فيه بالأرواح الشريرة والشياطين لغرض سىء وقصد خبيث.

٥١- التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضاً بعلم النجوم، ويتبعون فيه القواعد والأصول التى يقصد بها استخراج وتعيين الأوقات الموافقة للمشروعات واستنباء فلك البروج بحسب التأثير الذى يكون الانسان تحت سلطانه. ويزعم المنجمون أنهم، برسمهم على الرمل صورا وأشكالاً لا يعرف أسرارها إلا هم، يستطيعون الوقوف على أحوال الماضى والحاضر والمستقبل.

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضاً من المشتغلين بالكيمياء، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مع حياة وأموال بعض السذج والبلهاء فى البحث عن الحجر الفلسفى الذى يقولون إن الجواهر الخبيثة تستحيل بواسطته إلى الجوهر الكريم وهو الذهب. والعرب أول من اشتغل بهذا العلم وانكب على تجاربه العقيمة النتائج. غير أنهم مما بذلوه من الجهود فى هذا السبيل، توصلوا إلى تقرير كثير من المبادئ الصحيحة والأصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقى.

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الجحر واثقون بأن مساعيهم في هذا السبيل تكفل بالنجاح التام، اذا استطاعوا أن يقضوا سبعة أيام بلياليها من غير نوم مطلقا. ومفهوم أنه لم يستطع أحد ولن يستطيع أن يتغلب أبدا على حاجة النوم التي تدعو إليها الطبيعة ولا يتيسر لأحد الاستغناء عنها.

٥٣- البوهيميون أو الغجر

إن لجنس البوهيميين، وهو الجنس الغريب الخفى الأسرار المتشرد في طول أوربا وعرضها، فروعا منبثة في ضفاف النيل، ولكنهم في مصر تتألف منهم طبقة مستقلة لا خلطة لها مع بقية السكان. وشكل سحتهم يميزهم عن غيرهم. فإن لون بشرتهم أشد سمرة من لون المصريين، وكلامهم لغة تخالف اللغة العربية، ومع أنهم ينتحلون الإسلام دينا لهم فإنهم لا يؤدون فرضا ما من قروضه، ويهيمنون على وجوههم من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، متفرقين أو مجتمعين. ويشغل الرجال منهم عامة بأساليب الشعوذة والحيل. أما النساء، ويعرفن بملايسهن الغربية، فيزاوِلن حرفة النظر في البخت والإنباء بالمستقبل، ويخترقن الأرياف والمدن حاملات على أكتافهن أخراجاً من جلد الماعز أو الغزلان محتوية لأصناف كثيرة من الأحذية والتمائم والأدوية والثعابين، ويصفن الدواء للأمراض كافة، ويدعين أن عندهن السر الذى يمنع عقم النساء وبخبرن الجمهور في ندائهن المتكرر بما لديهن من الأسرار العجيبة والكنوز النافعة.

٥٤- حواة الثعابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر في كل مكان. وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير البان) إنه شهد بنفسه غرائب تأثير حرقتهم. وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثا يعربون عن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم في الأقاعي والحيوانات السامة. ويطوف حواة الثعابين بال منازل ويتنقلون من مكان إلى مكان يرتلون من الأقوال ما يسحرون به الثعابين التى تحتويها. وهم يزعمون أنهم يجذبونها إليهم بتأثير سر لا يعرفه سواهم. ويمسكون عادة بقضيب صغير من الخشب فيدخلون الغرفة التى يراد تطهيرها من الثعابين ويتمطقون بلسانهم ثم يتفلون على الأرض، وينطقون بمعنى الجملة الآتية: « أستحلفك بالله إن كنت بالخارج أو الداخل أن تبرح مكانك وتجيء

إلى، واستحلفك بالاسم الأكبر أن تظهر لى إن كنت طائعا، أما اذا لم تطع فلتمت وملتمت ولتمت» فاذا كان الثعبان طيعا للأمر خرج من مكانه على الفور ويكون خروجه عادة من ثلثة فى الجدار أو فى الأرض.

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون إلى أن فعل الحواة هذا حيلة مدبرة فليست أتمالك من الاعتراف بأننى - وقد شهدت تجاربهم مرارا - لم أقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشك دائما فى أمانتهم وصدق شعوذتهم. فقد ثبت لى أنهم كانوا يتحيلون - فى أحيان كثيرة على إدخال الثعابين إلى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون إلى استخراجها منه، ولما كانت الثعابين تخشى ضوء النهار، فانهم يبحثون عنها فى الأماكن المظلمة حيث يستطيعون، بلا خوف من العين الرقبية وفى مأمن من نقد الناقدين، تنفيذ ما دبروه من الحيل للتغريب بالناس. ومن عادتهم للوصول إلى هذا الغرض إخفاء الثعابين تحت إبطهم. وبما اعتادوه من الخفة والرشاقة فى الحركة لايسع الناظرين إلا الإعجاب بفعالهم وتجنب إساءة الظن فيهم.

ثم إنه لا يوجد فى مصر من الثعابين السامة إلا النذر إلىسير. ومن عادة الحواة استئصال أسنانها. ومن الحيل التى يخدعون بها العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها. ولكنهم لا يقدمون على هذا الفعل إلا بعد استئصالهم الأعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها.

٥٥- الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والأوهام على عقولهم، بل يشاركهم فيها الخاصة على اختلاف مذاهبهم.

ولقد اتفق لى يوما، وأنا ذاهب إلى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين، أن مدحت لأحدهم الجواد الذى يحمله. فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشيء من الاحتياط وعدم التصديق. وما تقدمنا إلى الامام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولاشك بمدحه. فسارعت إلى التوجه نحو الفارس الذى كان قد سقط عن جواده لمعاونته وإسعافه، وسألته منه عن سبب كبوة جواده. فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ

«لا بأس والسبب وإن خفى معلوم عندي» فأدركت من إجابته هذه أنني قدمت له دليلاً جديداً يؤيد الاعتقاد في الحسد والإصابة بالعين.

وكان محمد بك أول ناظر للحرب في حكم سمو الوالى . وهو من فحول الرجال. إذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه في جلائل أعماله ، يأوى عنده رجلاً من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربة وأحوالهم الشاذة تدعو الناس إلى وصفهم بالولاية. وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه. وسبب معرفته بهذا الوالى المسمى بالشيخ يوسف، أنه بدر منه مرة ما دعاه إلى حبسه في سجن مظلّم. فبينما كان موقناً بأن كانه لم يقبض عليه ولم يودع سجنًا . فلم يسعه الا أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلاً صادقاً على ولايته. فدأب منذ هذا الحين على احترامه وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الأعمال، وكان من لازمة ذلك الغى اعتراضه الناس جميعاً في الطريق وطلبه من كل منهم خمس بارات، فإذا أبوا عليه دفعها لطمهم على وجوههم. وكان يقطع البارات التى تعطى إليه قطعاً صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء. وقد أنشأ محمد بك ضريحاً له بجوار ضريحه ولا تزال رفاته تظللها نفس القبة التى تظلل رفات هذا الكيخياء العظيم الذى كان وكيلاً لمحمد على في إدارة شئون البلاد

وقد بلغ من تأثر المسيحيين وإلهود الوطنيين بالاعتقادات الباطلة الشائعة بين مواطنيهم المسلمين أنهم اعتقدوا بما يعزى للأولياء من القدرة العجيبة. فإن الجهلاء منهم يتوسلون بهم كما لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبادة على الطقوس المسيحية أو العبرية.

٥٦- المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد أقام سمو الوالى الدليل على حدة ذكائه وصدق نظره وأصالة رأيه. فلقد توصل في ظروف كثيرة إلى كسر قيود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لها أبناء دينه ويرضخون لحكمها رضوخ الأسير المغلوب على أمره. وسأذكر على سبيل المثال حادثة لا يخلو إيرادها من الفائدة. وبيانها أنه قد ظهر بالقاهرة في إبان حكمه - أى في الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الأسس

الوطيدة، امرأة تزعم القدرة على الإنباء بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها تطلب أحدهم أن يبرز فيسارع إلى إجابة طلبها، وتجعل الناس يلمسون في الظلام يده ويسمعون صوته.

وكان السواد الأعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساؤهم، حتى لقد استفحل أمرها وارتفع شأنها، فلما علم محمد على بأمرها، وكان يريد استكناء سر هذه الساحرة التي أصبح يخشى خطر نفوذها، استدعاها إلى قصره، وأعرب لها عن رغبته في الحديث مع جنيتها. فرضيت أن تطلعه على ما خصت به من قوة وسلطان. وكان الوقت ليلا، فأطفئت أنوار المنظرة التي كان ضباط الجند مجتمعين بها. وكان محمد على قد أمر أتباعه أن يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم. فلما دعت المتنبيّة الجنى أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم، حتى لقد وقع في وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار. ثم قدم يده لكي يلثمها الباشا. ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع. فلما أضاء المكان إذا باليد المرأة نفسها. وحينما رأت انكشاف حيلتها وانتهاك سترها توسلت إليه أن يعفو عنها.

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سمو الولى وحكموا بأنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه، وأخذوا يمرمررون مستائين، فخطب سمو الولى فيهم مبينا لهم خطأهم في سرعة اعتقادهم بما لم يكن صحيحا، ثم أمر بإلقاء المرأة في النيل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به. ولكن محمد على تغلب عليهم بقوة الحجة قاثلا لهم: إنه لو كان أحد الجن في خدمتها، كما تزعم باطلا وبهتاناً، فلن يتركها تذهب ضياعا في النيل. أما إذا لم يكن لها صاحب من الجن، فإن ما لقيته من الهلاك هو الجزاء الحق لاجترائها على التفرير بالناس من غير خوف ولا حياء.

(٨) الآداب اللغوية

الآداب العربية — قصة أبى زيد الهلالي — المحدثون — الشعر —
القصص الخرافية المصرية

٥٧- الآداب اللغوية العربية

إذا كان لابد من ذكر الآداب العربية بمناسبة الكلام على آداب المصريين اللغوية، فإن هذا الموضوع من تشعب الفروع وتراعى الأطراف بحيث يتعذر على تناوله بالبحث. وغاية ما يمكننى قوله فيه إن آداب اللغة العربية لمن أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا وأكرمها جوهرًا وأحسنها حلاوة وطلاوة.

ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها. وساغ لنا أن نقول فيها إنها أصبحت فى عداد الآداب الفانية.

ثم إن اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تنقوص معالمها، غير أن الضعف والجهل قد غشيا الشعوب الناطقة بها. فبعد أن كانت من الأمم المتسلطة صاحبة الغلبة والحكم فقدت استقلالها وأضاعت معه المواهب العالية التى كان أبناؤها يبتكرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلها مغزى، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة.

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعها واستيعاب حوادثها. ويتناقل الحافظون لها وقائعها العجيبة المختلفة بعضهم عن بعض بطريق الرواية. وهم لا يملون سماعها ولا يضجرون من تكرار روايتها. والغالب فيها أن تكون من حيث الوضع خليطًا من النثر والشعر، ومن حيث الموضوع وصفًا مستفاضًا لما كان العرب عليه فى معيشتهم، وما كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبائلهم. ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق ما يستدل به على أخلاق هذه القبائل التى لا تزال على فطرتها الأولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وما كان يقع بينها من قتال لا تحوم أسبابه فى الغالب إلا حول مكيدة غرامية يرصعونها بالحوادث الأخذة بالآليات لغرابيتها.

٥٨- قصة أبي زيد الهلالي

من أهم تلك القصص وأحبها إلى الجمهور قصة أبي زيد الهلالي، وإنا لمورودون هنا تحليلاً وجيزاً لها في الأسطر الآتية:

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهن بغير غلام واحد لأذراعين له ولا ساقين. فلما يئس من إنجابهن غلاماً كامل الخلقة تزوج من امرأة أخرى غيرهن تسمى قدرة. فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل. واتفق، ذات يوم، أن خرجت مع بعض خادماتها تترىض وتنزه النفس، فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من طيور آخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر. فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت إلى الله تعالى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير في قوته وشدة بأسه، ولو كان أسود اللون مثله.. فأجاب الله دعاءها. فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده. جمع نفرا من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده. وفي اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطاً به. فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاماً لا يشبهه ولأن لونه الأسود ينهض دليلاً على فجورها وذنس ذيلها. فعمل الأمير بنصيحتهم هذه مكرهاً. لأنه كان شغوفاً بامراته ومقيماً على حبها وعهد الولاء لها. وكان لا يشك من جهة أخرى في أن الولد ولده.

عادت قدرة إلى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال. ولقد روت قصتها على أحد الأمراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده، وأن يربي هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وسماه بركات. فانقضى زمن شب الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة البأس. فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتي من ضروب البسالة في القتال ما سارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام في كل مكان.

وفي ذات يوم عن له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره. فأثار هذا السؤال في نفسها الميل إلى الانتقام من زوجها الذي طردها ظلماً وعدواناً من بيته، ولو ث سيرتها إذ رماها بشر ما ترمى المحصنات به من التهم. فقالت

لولدها إن رزقا هو السبب فيما يراه من عنائها وتكبده من بلائها، وأنه القاتل لأبيها والمنأوى لقبيلتها. فاستشاط الفتى غيظا وأقسم إلا أن يأخذ بالثأر، وخرج لوقته رجاء اللقاء به وقتاله. فقاتله وتغلب الولد على والده على والده جهل منه بحقيقة الصلة بينهما، وأطلعتة على سر الأمر قائلة إن الذى ظفرت به وكدت تورده موارد الهلاك إنما هو أبوك بلا نزاع. فتعرف الخصمان على بعضهما، وكان ذلك سببا لرضاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها إلى داره حيث عاش معها في سلام ووثام وأحاطها بمظاهر الاجلال والاعظام، وخصها بالحب الخالص والولاء التام، وسمى بركات بأبى زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته.

ذاك هو ملخص الواقعة الأولى من وقائع قصة أبى زيد وفيها من غريب الحوادث وطرف النوادر وطلبيها مما لا يتسع المقام لإيراده ولا الإشارة إليه. والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت في القرن العاشر من الميلاد المسيحي.

وهناك قصص أخرى يميل العامة إليها ويحرصون على سماعها. منها قصة عنتره العبسى وغيرها. وقد ترجمت قصة عنتره كبير أبطال العرب إلى اللغات الأفرنجية، وهى ذائعة الشهرة في أوربا، وأورد المسيو (دى لامارتين) نتقا منها في غصون كتاب رحلته بالشرق.

٥٩- المحدثون

المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين. وأكثر تلك الفرق عدا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء، فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد في المجتمعات العامة.

وفي القاهرة وحدها الآن خمسون شاعرا من تلك الفرقة، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر، ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنتره العبسى، ويسمى رجالها بالعنترية، والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى في

كل ليلة، ولا سيما في ليالي الأعياد والحفلات. وقد أعدت لجلوسهم صفة = مصطبة = مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام، فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة. ويجلس السامعون أمامهم صفوفًا متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن لشبك أو متذوق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاعتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التي يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب إلقائها. فإن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية والحركات التي من شأنها أن تستثير الهمم من مكانها وتوقظ النشاط من سباته. وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل في نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن في الأساليب التي تشد العواطف، وكثيرا ما يستفزه ذلك إلى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها إلى الأصل مع التماس المبالغة في تحريك النفوس واستثارتها.

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكايتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم، وهذا غير ما يجمع برسمهم من السامعين. على أنه لا أحد من هؤلاء بملزم في الحقيقة بدفع أى مبلغ إليه بمثابة أجر له، ولكنهم لا يرضون عادة بشيء من المال كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته في نفسه من السرور والارتياح والنشاط.

٦٠- الشعر

إن وزن الكلام وتقفيته سليقة في العرب. فإنهم يميلون بفطرتهم إلى النظم والتقفية إلى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر، وقد بلغ عند الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيما.

وقد انتشرت في مصر الأغاني العامة الشبيهة بما نسميه عندنا بالرومانس. وينقسم إلى مقاطع تنتهى عادة بقافية واحدة.

وأغانيهم تخدم في الغالب بقولهم « يا ليل! يا ليل! » وبعض هذه الأغاني يرمى إلى الهجو، ويباح فيه ذكر ما لا يباح عادة من القول، إلا أن أغلبه يستشعر منه الحزن العميق والشجو بتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائية واحتوائه من التشبيهات الشعرية ما هو مستمد من أخلاق الأمة

والصفات التى اختصت البلاد بها.

والشعراء المصريون يميلون كل الميل إلى تشبيهه وجه المحبوبة بالقمر. ومما يذكرونه فى معارض شعرهم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الأسد وشوكتة وجلاله، ورشاقة الغزال وخفته وهور عينيه وسكون الليل الخ. ويجدون فى لغتهم الغنية بالالفاظ ومطاوعتها لأداء المعانى المطلوبة ما يمهّد لهم التعبير عما يخالّج الفؤاد من الأحاسيس المختلفة والعواطف المتباينة.

٦١- الأناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الأغاني والأناشيد مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعرية تتغنى بها العوالم فى الأعياد العامة والأفراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الأهلىن جميعا فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أوقات بسطهم وانشراحهم.

(٩)

الموسيقى

الموسيقى العربية - استعداد المصريين للموسيقى - آلاتهم الموسيقية - إدخال الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى.

٦٢- الموسيقى العربية

يميل المصريون ميلا شديدا إلى الموسيقى. ولكنهم يرون أنه مما لا يليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدراستها والتدريب عليها. وقد ذمها النبى محمد فى أقواله ونهى عنها، ولكنهم لميلهم الغريزى إليها تجاوزوا هذا النهى. فتراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بما فى أوقات فراغهم أو أثناء ممارستهم لأعمالهم. وبلغ من شدة ميلهم إليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة.

ومعلوم أن العرب تلقوا عن الأقدمين ما قرروه من القواعد والأساليب فى

الموسيقى وزادوا عليه زيادة كبيرة. ولم يطلقوا على هذا الفن اسما من ألفاظ لغتهم، بل احتفظوا للدلالة على أصله اليونانى بلفظ الموسيقى الذى ما برحوا يسمونه به حتى الآن.

وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى. كما لوحظ أن بين الأغانى العامة فى مصر والأغانى الشائعة فى أسبانيا مشابهة فى كثير منها. ذلك لأن العرب احتلوا البلاد الأسبانية زمنا طويلا. فكانت تلك الأغانى الشبيهة بالأغانى المصرية بعض ما تركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها. والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والارغن.

أما الموسيقى المصرية الحالية فلم تكن إلا فنا من الموسيقى العربية طرا عليه الفساد. وهى تمتاز بتقسيم الصوت إلى أقسام والأقسام إلى أجزاء صغيرة، كما تمتاز باختلاف مقامها عن مقام الموسيقى الأفرنجية. ولاسيما من جهة عدم وجود المفاتيح فيها بالمرّة. ومع هذا فإن العرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيب، ويحلونه هم إلى ثلاث وأرباع وأثمان. وهذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرها. ولدقة تدرج هذا التقسيم يتعذر. بل يستحيل على الأوروبيين تقليد الموسيقى المصرية، وإن يكن أهل البلاد يدركونها ويلتقون بها بسهولة تامة.

والأوروبيون، إذا سمعوا الموسيقى العربية، لا يشعرون بشيء غير ذلك الشعور الذى ييئ فى نفوسهم الحزن والشجو. على أن اتصافها بهذا الوصف الخاص، مضافا إلى بساطة الأنغام التى تتألف من مقامات صغيرة العدد جدا، للدلالة على بضعة أسطر من الغناء، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الأسماع. ومهما يكن من آراء الغربيين فى محاسن الموسيقى العربية أو مقابحها، فمن المجمع عليه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين من خصائص الجمال والجلال، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن إلى أداء الصلاة.

أما المصريون فسرّيعوا التأثير بأصوات المطربين منهم بالأغانى والناشيد. وهم يشجعونهم على الإحسان ويستفزونهم إلى الإجابة بما يوجهونه إليهم من عبارات الاستحسان والتحبّيز التى يعبرون بها عن شعورهم، إذ يصيحون بلفظ الجلالة قائلين « الله! » كلما بلغ الطرب منهم قصاره. فكانهم

يقصدون بإيراد ذلك اللفظ المعنى الآتى مقدرا: « أحسنت أحسن الله إليك! » أو « صوتك رخييم حفظ الله صوتك! ».

٦٣- استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميل المصريون إلى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان. وما برح هذا الاستعداد الفطرى باقيا فيهم حتى الآن. فانسجام الأنغام وإتزانها وضبط قوافيها سليقة فيهم، حتى إنك ترى الناس إذا أرادوا التعاون على أداء عمل، قاموا به على أحسن ما يراد بفضل ذلك الاستعداد الفطرى الذى ينظم حركاتهم أثناء عملهم. فيعاونهم نظامها على أدائه مع الاتفاق والسرعة. ويتمكنون فى الأعمال التى يستدعى أداؤها اشتراك الأيدى العاملة اشتراكاً مقرونا بالإجماع المنظم، من الحصول على هذا الإجماع بالتغنى جميعاً بصوت واحد.

ولبعض الصناعات عندهم أغان خاصة يقصد بالتغنى بها التعاون على إنجازها بالسرعة والدقة. فللمراكبية أغانيهم وأناشيدهم التى إذا تغنوا بها وأنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جر المراكب فى الأوقات التى لا تكون فيها الرياح موافقة، وللسقايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها وتفرغها، وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة. وإذا تذكرنا أن بعض شعراء العصور القديمة مثل (ابشيل) و(مارسيال) و(أوفيدس) قد استرسلوا فى وصف محاسن الأغانى النيلية، استطعنا أن نسلم. على سبيل الترجيح. بأن الأغانى التى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه، هى عين الأغانى التى كانت ضفتاه ترجعان صداها قبل بضعة ألوف من السنين، ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها. أما أغانى طبقة العلماء فتستروح منها رائحة الجد والشدة، لأن أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم.

٦٤- الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريون آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هى من أبسط ما عرف من الآلات وأوفقها للحالة الفطرية. نذكر منها الطبل البلدى، وهو من النحاس

ويشبهه الرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق، والنقاير وتستعمل في المواكب. والكاسات وتستعمل فيها أيضا، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شئ من النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن، والدف بكاسات صغيرة (الطار) ويشبه طبل البشكنس، والدربوكة هى طبل مخروطى الشكل ينتهى بأنبوبه مجوفة، وتمسك بإحدى اليدين بينما تدق اليد الأخرى على الرق الممدود فوق فتحتها. وبالجملة فشكلها يشبه شكل القمع الكبير وهى كثيرة الشيوخ فى القطر المصرى. والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجا غريبا.

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناي والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل إلى الزمر بها.

أما الآلات الوترية فأبسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة. وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم القصص. والربابة آلة جديدة بالذكر. فإنها عبارة عن كمنجة لا تجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية. واستخراج الأصوات منها بواسطة القوس. والآلات الأخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة، وهى ذات وترين يتألف كلاهما من أكثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة إلى بعضها. إذ إن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة مثقوبة بثقوب صغيرة. والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم، والقانون، والعود، وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد.

٦٥- المغنون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية، مفردة آلتى، وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، إذا جئ بهم إلى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة. والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة، من محض كرمهم، شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة، وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيرها، وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض.

وفي مصر مغنيات يسمين بالعوامل، مفرده عامة، وهى كلمة أطلقها الأوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء. مع أنه ليس في هذا الإطلاق شيء من الصواب. ويقدر المصريون كثيرا مهارة العوامل وحذقهن في صناعتهن، واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن إلى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقرنة بدقات الطار والدربة - بينما يكون رب المنزل وأصدقاؤه من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليضطربوا أسماعهم بتلك الأنغام. والعوامل الشهيرات بالحذق والبراعة في صناعتهن تدفع لهن الأجور العالية وتقدم الهدايا النفيسة.

وأغنى العوامل شديدة التشابه والتجانس لا تلبث الأذن أن تمل لهذا السبب سماعها. ومن هذا الوجه لا محل لمقارنة بينهن ومغنياتنا اللائي يمتزبن برخامة الصوت ونعومته ورنينه، ومن المغنين من يتسمون بجمال أصواتهم وهم يتوخون من مقامات الصوت، الجهر الكروانى وبالجمله الأصوات الحادة حتى تراهم وقد انتفخت أوداجهن لهذا الغرض وتكلفوا ما فوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن. وهيئتهن في هذه الحالة لمن أغرب ما تقع عليه الأبصار، لأنهم عقب هذا الانتفاخ يطرقون برؤوسهم ويضعون أصابعهم في آذانهم ويحشونها بتجويف كفوفهم ويخرجون الأصوات من حلقهم بأقصى مجهودهم.

٦٦- الموسيقى الأوروبية في الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة في الجيوش الأوروبية موسيقى خاصة بها، أرادت هذه الحكومة أن لا تكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب. فاستدعت إلى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها إلى مؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الأسبانيين فى الفنون الموسيقية. فأنشأ هذا الأستاذ ببلدة الخانقاه، حيث كان ميدان تعليم الجيش وأركان الحرب، معهدا للموسيقى جمع بين جدرانه مائتى تلميذ. فتعلم هؤلاء الطلبة الموسيقى الأوروبية الصوتية وتدريبوا على الضرب بالآلتن. وكما أنهم استعاروا منا آلاتنا الموسيقية. كذلك أخذوا عنا أدواتنا الحربية وأغانينا العسكرية.

وفي هذا المقام لايسعنى إلا الاعتراف بأننى بالرغم من سرورى واعتباطى

بسماع أنغامنا الوطنية والأناشيد العسكرية ترددها الأجواء على مقتضى إيقاع تلك الأنغام والأناشيد، إلى غايات الفوز والفخر في المكان الذى سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتياب والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا، ونقلهم إياها عنا من غير تحوير ولا تبديل. فإن موسيقانا لا تؤثر بالمرّة في المصريين، حتى أن أنشودة بونا برته لا تهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنتشر لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطعها أسماعهم. دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية. فإن حكومات أوروبا لما أنشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لا ترمى إلا إلى غرض واحد وهو التأثير في العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة.

ولاشك في أن الموسيقى لغة، ولغة فصيحة تؤثر في مجاميع الناس وطوائفهم تأثيرا عظيما، ولكن إرغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بآلات غير التى ألفوها قد أوقع الذين أرادوا هذا الإصلاح المعكوس وقاموا به في عين الخطأ الذى وقع فيه من يريد تحريك شعب بإرغامه على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لا يفهمونها لأنها غير لغتهم. وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سرورا إذا سمعوا أغاني المغنين والآلاتية منهم، وهى على ما عرفت من التجانس والتشابه الباعثين على المل، لا يشعرون حين سماعهم الآلات والأدوار الموسيقية الأوروبية إلا بالمل وانحراف المزاج. وإذا كان من الآلات الأوروبية ما يتلذذون بسماعه وتحسن في نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير. اما الآلات الأخرى فأصواتها في حكمهم خليط لا يستحق الاهتمام والاعتبار.

وكان الواجب والصواب في آن واحد، أن يستدعى إلى مصر فريق من الفنانين في الموسيقى القادرين على إدراك مغازى الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها. وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير في نفوس الجنود المصريين تأثيرا موسيقيا لا ريب فيه.

وبدهى أنه ما كان لموسيقانا أن تجد، بين أناس لا يهتمون بها ولا يخفق

لهم قلب عند سماعها، أن تؤدي أداء حسنا بمعرفتهم، فلم يكن من الغريب إذن أن تقر الحكومة ما أقرته من إلغاء معهد الخانقاه الموسيقي الذي كان - بالرغم من الموانع والصعوبات السالفة - ينشئ عددا لا بأس به من الموسيقيين الأكفاء القادرين. وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا في كل أورطة من الجيش معلما أوربيا للموسيقى، ولكن ما كان بميسور لمعلم واحد أن يحرز ذهنه نظرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طريقة استخراج الأصوات منها. لذا كان متعذرا على الموسيقي العسكرية المصرية أن تجارى الموسيقى الأوربية. ولو ترك المصريون وشأنهم في تطبيق الموسيقى الأوربية. على حاجاتهم لتطرق إليها الفساد والاختلال بالاربيب.

(١٠) الرقص

الرقص المصرى - الرقصات والعوالم - الرقصون.

٦٧- الرقص المصرى

لا وجه بالمرّة من وجود الشبه بين رقص الشرقيين ورقص الغربيين. فعندنا ينظر إلى الرقص بوجه عام من حيث كونه إحدى وسائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن. أما في الشرق فمحال أن ترقص امرأة مع رجل. والرقص في أوربا رياضة عملية تتلخص في أداء أشواط من الحركات موقعة إيقاعا متناسقا وتحريك الساقين تحريكا يراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط.

أما في مصر فما هو إلا تتابع أوضاع وتعاقب حركات يلتوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى. يرمى بذلك إلى غرض واحد هو استثارة كوامن الشوق إلى الملذات الشهوية.

والمفهوم أن الرقص المصرى وجد بنوعه وشكله منذ العصور الموعلة في القدم. فقد رأيت في النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرهما مناظر مما يقع داخل البيوت كمناظر الرقصات في ثياب كالتى يلبسها الآن

وأوضاع وحركات لا تختلف في شيء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم.

ثم إن هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات. وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين. فإن رقص الراقصات الأسبانيات من نوع الرقص المصرى، وهو مطبوع بالطابع العربى. ولكنه، والحق يقال، أخف من الرقص المصرى وأرشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية.

والغرائز في مصر، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها في سائر أقطار المملكة العثمانية. فإن الرقص، مع أنه غير مباح في الديانة الإسلامية، مسموح به لغوازي (الراقصات العموميات) اللاتي لا يقتصرن في عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة، بل يتجاوزنها إلى الطرقات والبيادين العامة. على ملاء من الجمهور. ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة في مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال في طرقات القاهرة والإسكندرية.

ولا يدخل الرقص في برنامج الدروس التي تعلم للبنات، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن. ومع أن هذه الحركات في غاية القبح وسوء الأدب فإن الأهلى لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها. والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات الذيل لا يجرؤن على الرقص إلا في داخل منازلهن بين صويحباتهن، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من آبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن. ولما كان الرقص من وسائل التسلية والابتهاج التي تروق السيدات كثيرا، فقد اعتاد العظماء والأثرياء اتخاذ الراقصات في منازلهم من الجوارى لإدخال السرور على زوجاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن.

ومن النادر جدا أن يدعو المسلمون الغوازي إلى منازلهم. فإذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فإنما هم اليهود والأوربيون. وإذا اتفق وجود الغوازي في منازل المسلمين برسم الرقص فإنهن لا يرقصن إلا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال. وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فإنه يحصل في بهو الاستقبال. والراقصات إذا

رقصن فيه برسم الرجال جئء بالنوبة - أى طائفة آلات الطرق، وببىء كل من رجالها إحدى الآلات التى سبق وصفها، لايقاع الحركات على مقتضى الأنغام. وىبلغ شعور الراقصات بالحاجة إلى الإيقاع والتناسق فى الحركات إلى حد أننى شهدت بنفسى البعض منهن لا يستطعن القيام بأداء حركاتهن، إذا قصرت الموسيقى عن أداء الأنغام بحسب الوزن المطلوب.

والعادة أن يجلس الموسيقيون فى ركن من أركان البهو وأن تشغل الراقصات المكان المعروف بالدركة، وأن يجلس المدعوون فى سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المراءى الشهوى وهم يدخنون الشبكات. ويطاف على الراقصات والموسيقيين، من آن إلى آخر، بأقداح العرقى الذى يستفزههم بالتدريج إلى الإمعان فى الرقص والغناء. ولكنه كثيرا ما يفقدهم الصواب ويلقيهم فى غيابات السكر جميعا فلا يفيقون من سكرتهم إلا بعد ساعات طويلة. أما إذا كان الرقص فى الحرم فإن الموسيقيين لا يحضرون مجلسه. وفى هذه الحالة توزن حركات الراقصات بالطار والدربة الذين ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت.

٦٨-الراقصات

السواد الأعظم من العوالم فى مقتبل العمر وعلى حصة وافية من الجمال والحسن، إنهن يجمعن إلى فن الرقص مزية الاتصال مع الرجال بالروابط التى تربط الخلية عادة بخليلها. وملابسهن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتأنقات فى ثيابهن اللائى وصفناهن فى غير هذا الموضع، ولكنها تختلف فى مظهرها الخارجى عن ملابس الحلائل الطاهرات الذيل. فمن ذلك أنها تضغط على أجسامهن فتصفها أكثر مما تصف ثياب الحلائل أجسامهن، دع أنهن يكشفن عن نحورهن وسواعدهن، ويتوخين الزخرف والزينة فى ثيابهن وحليهن، ويتخذن هذه الثياب من فاخر الأقمشة ويتحلين بالكثير من المصوغات والجواهر.

وإذا رقصن يرقصن إما مثنى وإما رباعا. ومع كونهن يتحرين التوفيق أحيانا بين حركاتهن، فإنهن لا يأتين بأوضاع منتظمة كالتى تترأى لنا فى الصور أو على مسارح التمثيل.

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعنى عن التصدى لإيراد تفاصيله ووصف أجزائه. لذا أكتفى بوصفه وصفا سطحيا يصور للقارئ شيئا من حقيقته. فإنهن إذا اصطفن في الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج (الصاجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الإبهام والسبابة) محركات أيديهن فوق رؤوسهن وحول أجسامهن، فيؤدين هذه الحركات أداء جميلا للغاية، وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذى يتلخص وصفه في احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك الذراعين والتقائهما بحيث يتكون منهما ما يشبه الحلقة ثم انخاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الأطوار المختلفة للشعور الشهوى الذى يستثير هذه الحركات فيهن.

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكلف الكل والملا والما يستتبعانه من الفتور والدلال. وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنثنى فتتخط بفعالها الحرقفتان تارة وترتفعان طورا آخر، وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها منافية للحياء والحشمة لداليتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدثها.

ورقص الغوازي على صنوف متنوعة. أولها، وهو أدلها على ما هناك من الجراة في أداء تلك الحركات، مصرى الابتكار. وثانيها خليط من الرقصين المصرى واليونانى إذ يتخلله التنقل بالخطوات. وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة. ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعة النحلة، فيأخذن بالبحث عنها في ثيابهن صائحات : « النحل أوه! النحل أوه! » ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لا وجود لها الا فى مخيلتهن يتجردن شيئا فشيئا من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفافة تخفق بشدة حركاتهن حول أجسامهن، ويفتحنها من آن إلى آن ثم يضممنها بمقتضى الإيقاع النغمى.

وإنى اترك للقارئ الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوا من الشهوات حتى فى العواطف الجامدة.

ومتى بلغ الرقص من مداه حدا تثار فيه الأشواق الشهوية، تلجأ الراقصات إلى الراحة وتختلطن بالمتفرجين لمعاكستهم ومناوشتهم. وأغلب ما يوجهن دعابتهن إلى زعيم المدعويين وعظيمهم. ولست بحاجة إلى القول بأنه لا يتمالك نفسه من الاسترسال معهن في هذه الدعابة. ومن مزاجهن في هذه الفرصة جلوسهن في حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معانقتهن إياه. وبالجمل فإِنَّهن يتطوحن معه في أساليب من المداعبة والمطايبة ينفر منها من لم يعتدها. والأوربيون يخللون طبعاً من نظرها أو سماعها. أما بقية المدعويين فيظهرون للراقصات ارتياحهم منهن وإعجابهم بحسن أسلوبهن في الرقص، ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها إليهن على شكل يدعو إلى الاستغراب. إذ غالباً ما تكون هذه الهدايا قطعاً صغيرة من النقود الذهبية يريقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحوهن وسواعدهن.. الخ.

وأجمل العوالم وأبرعهن في استمالة الرجال إليهن يحرنن في الغالب جانباً لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة، وتتألف منهن في الأمة المصرية طبقة خاصة تعيش في معزل عن سائر الطبقات.

وغير خاف أن الغوازي يرجع تاريخ وجودهن إلى العصور الموعلة في القدم أي إلى العصر الذي ابتكرت فيه حركات الرقص الشهوية التي كان الفراعنة الأولون يتلهون بمشاهدتها. بدليل ما هو منقوش من صور تلك الراقصات في قبورهم منذ آلاف السنين.

٦٩- الراقصون

معلوم أن في الرقص المصري شيئاً يخالف المألوف ويستفز العجب. ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بما يكون أوفق لمقتضى الآداب والأخلاق الفاضلة. وعلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضل بكثير من الحركات السخيفة السافلة التي يقوم بها الراقصون في مصر.

ومع أنه من المقرر في الدين الإسلامي أن لا يباح لرجل مشاهدة رقص النساء. فإن من الرجال في مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم «الخولات».

والخولات يتزيون عادة بزي النساء . وإذا كان الرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الرائي استحسان رقصه فإن الخول المصرى إذا رقص، لا يترك فى نفس من يشاهده إلا التقزز والاستنكار . وحينئذ فما يعتبره الناقدون غير ملائم للأدب فى رقص العوالم ممقوتا ومخجلا فى رقص الخولات.

ومنذ صدرت الأوامر بمنع رقص النساء على قوارع الطرقات إزداد عدد أولئك الراقصين المخنثين زيادة يندى منها جبين الأدب ويحمر وجه الإنسانية، وكان من أثر ذلك المنع أن حل مكان فساد فساد آخر أسوأ وأفظع منه . وإنى لأرجو من الحكومة المصرية أن تعجل باقتلاع جذور هذا الخزى الذى يدنس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضر منه من باب التفضيل على ما لا قبل لأحد بضره وشره.

(١١)

الألعاب والرياضات والمشعوذون

الألعاب الحسابية - الرياضة البدنية - ركوب الخيل - الحواة
والمشعوذون

٧٠- الألعاب الحسابية

أكثر الألعاب موافقة لطبيعة الدعة والسكون فى المصريين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الألعاب الحسابية التى نذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج. ولهم بهذه الألعاب ولع شديد. إذ كثيرا ما يرى اللاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقل قطعها على الرقع. وصناعة هذه القطع لا أثر فيها لدقة. وهى برسم الكبراء والأثرياء تصنع من الأخشاب الثمينة أو سن الفيل.

أما لعبة الورقة (الكتشينة) فالأقبال عليها قليل، ولذا ترى المصريين يجهلون الألعاب التى تبنى عليها وتستنبط منها ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته.

وهناك ألعاب أخرى خاصة بمصر والشرق يطول بنا الشرح إذا تصدينا لبيانها فى هذا المقام، وإنما نذكر منها لعبة المنقلة وهى تلعب من اثنين على

لوحة من الخشب حفر في اتجاهها الطولى إلى كل جانب من جانبيها ستة تجاويف يتألف منها صفان متوازيان وتوضع فيها قطع صغيرة من الأحجار أو أصداف بحرية بقصد ضمها جميعا بتدبير اللعب وسياسته في تجويف معين من قبل.

ثم لعبة الطابة وهى عظيمة الانتشار شديدة الالتباك، وبينها وبين لعبة الطاولة بعض المشابهة. أما لعبة السيجا فأكثر الناس إقبالا عليها هم الفلاحون، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة الدامة.

واللعب بهذه الأدوات تجرى أدواره إما بالمنازل أو بالقهوات العامة وفى النادر يكون النقد موضوع المراهنة. إذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة.

٧١ - الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صالحين للقيام بالتمارين الرياضية البدنية التى تتطلب من مؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل فى قلوبهم أمام ما يحسبونه خطرا على حياتهم وضمنهم بأرواحهم أن تجشم المتاعب والمصاعب. لهذا لم تقع الأنظار عليهم متنافسين فى إحراز قصب السبق فى الركض أو المصارعة أو غيرهما من ضروب الرياضة التى تبتث فى الجسم النشاط والهمة وتكسب الأعضاء اللين والمرونة. نعم إن الفلاحين اعتادوا المنازلة أحيانا فى الأعياد والحفلات العامة بالعصى الطويلة المسماة بالنبابيت التى مدار الفوز بها محاولة إصابة الخصم فى رأسه ولكنهم، إذا هموا باللعب، يحملون على بعضهم البعض بالضربات أو يتقونها بهمة فاترة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسالة والإقدام

وعلى كل حال فمنازلتهم بعضهم البعض على الوجه المتقدم لا تنهض دليلا على أن فيها شيئا من البراعة والحق. وهم يباشرون المصارعة أيضا، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى نصف أجسامهم عاريا. وهم يدلكون هذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الأرض. ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها ويعتقدون توافر

هذه المزايا في المصارعين الأوربيين لايسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين
الازدراء والتهكم والاحتقار.

٧٢- ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظورة إليها في الشرق بعين
الاجلال والاحترام. والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة
وأسمها قدرا، ولا يكادون يتجاوزون طور الطفولة حتى يتفرغوا للتدريب
عليها، ولا سيما إذا كانوا من البيوتات الكريمة أو الأسر المعروفة بسعة العيش
وكثرة المال، ولتدربهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد
الخيال جموحا وأكثرها شموسا بهيئة تدل على الوقار وحسن السمات وجلال
الهيبة. ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثيرة من الحركات التي من
شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الخيل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى
يصير حضور الذهن من أخص صفاتهم، ولقد كان المماليك في الزمن السابق
متفوقين في هذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم في الخطران بالسلاح،
وهم على متون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها،
إلى وصف فرق الخيالة وشراندها منهم بأنهم أحسن الفرسان طرا على وجه
الأرض.

وكان من أخص رياضاتهم بعد انثلال = زوال = عرشهم وانقراض
نريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد. وهى مما يذكرنا ببراجسنا
القديمة أيام انكباب الناس في فرنسا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات
البدنية على متون الخيل، ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدوا من
جانبيين متقابلين ليلتقيا ببعضهما.. ففى أثناء هذه يقذف أحد الفارسين
بأقصى في ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها
من أربعة أقدام إلى ستة يقصد بها إصابة الفارس الآخر. فإذا أصابه بها فقد
يحدث به جرحا بالغا - ربما يلقي بسببه حتفه، وهذا لا يكون طبعا إلا إذا
أنفق من قوته الكثير من إلقاء تلك العصى على نظيره. ولكن وجه الحيلة في تلك
اللعبة أن يستطيع الفارس المراد إصابته بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده
وهى تخترق الجو مصوبة إليه. وقبل أن يبرز فرسان العرب لأداء هذه اللعبة
العسكرية يقضون زمنا طويلا في التمرن على إصابة غرض ثابت معين

بالعصى من الجريد.

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التي تشاهد في ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها.

٧٣- الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيرا في شوارع القاهرة وميادينها، وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان ما يتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر. وهم يقومون بعدد عظيم من الأدوار يكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه إليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التي لا تتفق ومكارم الأخلاق. وللحواة عادة عون أو عونان من الأطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون في جسم أحدهم نصلا أو رمحا من الحديد، وهذا السهم انما يغيب في قراب من الخشب. وقد يطرح الطفل أرضا ويستعمل الطريقة عينها.. موهما الناظرين أنه يغرز في أنفه نصلا مطويا أو مدية صغيرة. وفي أحيان أخرى يفتح شدقه ثم تمسك بخديه داخلا وخارجا لينفذ منه قفلا لا يلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين، والحقيقة أن شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرج أنه يقاسى من العذاب الوانا.

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين في أوربا. ومن أخص أدوارهم دور الأكواب التى يحولون البيض فيها إلى كتاكيت، ويصبغون بالألوان المختلفة قطع الورق الأبيض الخ. ومن أدوارهم أيضا إيهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونها من أفواههم مغزولين وملونين بمختلف الألوان، ومنها أنهم يلقون التراب في إناء ممتلئ ماء ثم يستخرجونه فإذا به جافا، ويتفننون في أشباه هذه الحيل التى لا يحصيها العد بين استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة.

وفي أيام الأعياد والحفلات يقوم الجعيدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة في الطرقات والميادين لإدخال السرور على العامة. ولدى

المصريين وسيلة لهو يقوم بالتمثيل فيها تماثيل صغيرة على شبه الإنسان وتسمى بالأراجوز. والممثل الذى يحرك التماثيل يستتر عن أنظار المتفرجين فى مربع من الألواح الخشبية ثم يحرك تلك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافها ويقرن حركاتها بأقوال يفوه بها. فيخيل للسامع أنها أقوال تلك التماثيل وألفاظها.

وهناك طائفة من ممثلى الروايات المضحكة تؤدي أدوارها فى منازل الخاصة ولا يدخل فى تضاعيفها من الحوادث ما يستمد من الحيل والدسائس أو يشير إلى أنها جاءت عفواً ومن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل. وبالجمله فإن مصر مهد لفرع من فن الروايات لا يزال على فطرته الأولى مجرداً مما تحسن فى السمع أو البصر.

وهناك طوائف و فرق من البوهيميين « الغجر » يمثلون أمام الجمهور بعض أدوار القوة والصلابة البدنية، فيرقصون على الحبال المشدودة أو يطوفون على الناس بقرودهم وكلابهم وغيرها من الحيوانات المعروفة بالذكاء فيجعلونها ترقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكة ما يدخل السرور عليهم.

(١٢)

٧٤- الأعياد والحفلات العمومية

إذا استثنينا حفلة قطع الخليج، وهى الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على إقامتها احتفاءً بوفاء النيل منذ الألوف العديدة من السنين، فإننا نجد الأعياد والحفلات الأخرى كلها ذات صبغة دينية لا مرأى فيها.

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الأمر والباحث عن أسبابه، أول وهلة، أن الشريعة الإسلامية لم تترك جهداً إلا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الأخرى. فهى فى دعوتهم إلى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفيذ الذى ينفخ العبرانيون فيه لهذا الغرض، ولا الأجراس التى يدقها المسيحيون له، بل قضت بأن يكون الأذان هو النداء الداعى إلى الصلاة.

والعادة، إذا دخل الإسرائيليون معابدهم، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفة رؤوسهم. كما أن عادة المسيحيين، إذا غشوا الكنائس، أن يكشفوا رؤوسهم.

أما المسلمون فإنهم إذا دخوا مساجدهم أبقوا عمائمهم على رؤوسهم وخلعوا نعالهم. وحتى لا تكون هناك قدوة باليهود والمسيحيين في راحتهم الأسبوعية لم تتخذ الشريعة الإسلامية أحد يومى السبت والأحد لالتماس الراحة من عناء العمل، بل اتخذت له يوم الجمعة الذى لم يكن المقصود به، بمقتضى الشريعة الإسلامية، الإمساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة. ولهذا ترى المسلمين، بعد قيامهم بهذه الفريضة الدينية، ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم كما اعتادوا مزاولتها في بقية أيام الأسبوع بلا فارق أبدا. أما الأعياد العامة التى يتحتم عليهم الاحتفال بها فتتخصر في عيدى الفطر والأضحى. وليست الاعياد الدينية الأخرى التى سأسردها فيما بعد، إلزامية كالعيدين.

فالسنة الهجرية من هذه الأعياد، تبتدىء بشهر محرم الحرام. لأن العشرة الأيام الأولى من هذا الشهر تعد من الأيام المباركة، ويرتبط بها كثير من الأوهام الباطلة التى يسلم العامة بصحتها، ويسمى اليوم العاشر منها بعاشوراء بذكرى وفاة الحسين شهيدا في واقعة كربلاء.

وفي صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة إلى مصر.

ومنذ الشهر الثالث من السنة الهجرية تعد المعدات العظيمة للاحتفال بمولد النبى وإقامته في ميدان الأزبكية بمظاهر الأبهة والجلال. وال دراويش السعدية المحور الأكبر الذى يدور عليه هذا الاحتفال العظيم. فإنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار التى سبق لى وصفها في إحدى الفقرات المتقدمة. والعادة أن يبقى الشيخ البكرى، شيخ سجادتهم، بميدان الأزبكية. فإذا أقبل ذلك اليوم عاد في موكب جليل من المسجد إلى داره. وقبل أن يصل إليها بقليل يقف في الطريق حيث تقام بحضوره الحفلة المعروفة بالدوسة.

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممطيا جواده، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها جفاة الأقدام. والذي يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما، وأن هذا ينهض دليلا على ولايته. وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الأولياء أشهرها مولد الحسين ثم مولد السيدة زينب. وليلة السابع والعشرين من شهر رجب تعد من الليالي المباركة التي ينبغي إحيائها بالحفلات لأنها ليلة المعراج التي عرج النبي فيها إلى السماء. وقد ذكرت أن شهر رمضان وعيد الفطر الذي يتلو ختامه وعيد الأضحى الذي يطابق وصول الحجاج إلى مكة من الأعياد التي تقام الحفلات العامة برسمها. ففي هذه الأعياد وفي ليالي رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بإدخال السرور على الجمهور في الشوارع كلها مما يسهل على الباحث في أحوال مصر وعادات أهلها الوقوف على ما يمتاز به الشعب المصرى من الأخلاق الغريبة والعادات العجيبة.

(١٣)

بيانات تفصيلية عن الأخلاق

٧٥ - الشحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون في أغلال العوز والفاقة، فإن الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة فقرهم وعوزهم. وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر في دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمرا ميسورا عليهم. بل إن مداركتها من السهولة بحيث ينذر أن يوجد في القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه.

ويتقى المصرى برد الشتاء بقميص بسيط. لأن الشتاء في مصر لم يكن زمهريرا، ولا يهرب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده إياهما منذ نعومة

أظافره. وإذا لم يكن مالكا ما يسد به الرمق من القوت فإنه يثق بحصوله على شيء من الخبز من أى مكان من أبناء جلدته يواجهه في طلب إسعافه، فالمصرى الفقير لا يموت بالجوع أبدا.

وكان بعاصمة القطر المصرى في زمن مضى جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الإسلام في نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والإحسان، حتى اقتنوا من المال شيئا كثيرا من تلك الطريق بالحاحهم وإلحافهم في السؤال. وكان سوادهم الأعظم ينفقون هذا المال في ملاذهم، ولا سيما في تدخين الحشيش. فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظا في هذا العالم للشحاذين وأن ما يشعرون به من الملذات الخيالية لا يختلف في شيء عن الملاذ الحقيقية التى يحس غيرهم بها في عالم الحقيقة. ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعا لشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمائة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا.

٧٦- اللصوص

كان انتشار الفوضى في مصر، قبل أن يتسلم محمد على ذروة الحكم، من بواعث اختلال الأمن واضطراب حبل النظام وتولف عصابات اللصوص في كل مكان، وعلى الخصوص في الوجه البحرى. وقد اختص لفيف منهم بالقرصنة على نهر النيل. إذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ما تحمله، ويتخيرون الليل لارتكاب جرائمهم.

وتدور على السنة الناس قصص عن مهارتهم وجراتهم تكاد لاتصدق. ولكنهم كانوا مع ذلك في غاية الجبن. إذ كانوا يخشون بأس الأوربيين ويفرون من أمامهم إذا وقفوا لهم وقفة الجاد لا المازح وكثروا عن أنيابهم. لقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنة في النيل واللصوصية التى اتخذها العربان حرفة لهم، وألزم سكان القرى جميعا الذين تقع في دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعية ما يقع منها من دفع التعويض الوافي متضامنين لمن يصيبهم الضر من جرائمها. فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظام، ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين من السهر على حفظ الأمن

والسكينة في نواحيهم.

ومع هذا فحوادث السرقات بمصر أقل منها بأوروبا، وعلى الخصوص الحوادث المصحوبة بالظنروف المضاعفة للعقوبة كأن تكون السرقة سطوا استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ.

٧٧- المحكوم عليهم

منذ أنشئت ترسانة الإسكندرية ابتكرت للمجرمين عقوبة جديدة قصد بها إفادة هذا المصنع العظيم ببعض الأيدي العاملة وصرف أصحابها عن الأذى وتعويدهم العمل الصالح. فالمجرمون الذين ارتكبوا جرائم معينة يحكم عليهم الآن بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدة طويلة أو قصيرة. وهذه العقوبة في مصر لا تسبى سمعة المحكوم عليهم بها ولا تحط من أقدارهم، إذ كثيرا ما شوهدوا بعد انقضاء مدة العقوبة وانقلابهم إلى أهليهم وهم يحلون محلهم القديم في المجتمع الإنساني، ويتحلون بالرتب والامتيازات التي كانت لهم قبل الحكم عليهم. ولو حظ في حالة ميلهم إلى الزواج أن لا أسرة من الأسر التي طمح في الارتباط معها برابطة المصاهرة رأت في سعيه لديها ما يلوث شهرتها أو يذهب برونقها أو يحط من مكانتها بين الناس. ويدعو إلى ذلك أن المسلم لا يرى في العقوبة التي يقضى بها الشرع ما ينافي شرفه وكرامته أو يصمه طول عمره بوصمة الخزي والعار.

٧٨- القتل

إذا كانت حوادث القتل فاشية عند الأمم المتمدينة فإنها في بلاد الشرق نادرة الوقوع جدا. أما ما قد يحدث أحيانا في هذه البلاد من جرائم التعدي على النفس فتعليه لا يرجع إلى مثل ما يعلل القتل به في أوروبا من الشهوات الدنيئة والأهواء الساقلة والغرائز الوحشية الخ ما يدعو عامة المجرمين بأوروبا إلى إزهاق النفوس البريئة.

إن المصري قد فطر، في الأحوال العادية، على دعة الجانب ودمائة الخلق والنزوع إلى الطاعة. وليس من الممكن، وهو في هذه الحالة، أن يقصد ارتكاب جريمة تقضى إلى إراقة الدماء أو يصر على أي جرم من هذا القبيل، فإنما تلك نزعته الطبيعية إلى السكون والهدوء في معاملاته.

٧٩ - الشغب والفتنة

إن ما ذكرناه من انقطاع الأمة المصرية على السكون والهدوء وحجبها العيش في ظلال الأمن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الأمور. نعم إن الفلاحين ينزعون أحيانا إلى الشغب وإضرار نار الفتنة. ولكنهم لا يلبثون أن يفيثوا إلى الطاعة ويخلدوا إلى السكينة قبل أن تتحول تلك النزعة في نفوسهم من التردد إلى اليقين. وهذا فضلا عن أنه لا يدور بخلد مصرى ولا يخالط مزاجه شيء من البواعث التى توطن العزم على الثورة كالتروى فى عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمنابر والهمة واليقظة. إذ كثيرا ما يحدث أن يتجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب فى الهواء وتصيح قائلة: هلموا! هلموا! (يلا! يلا!) فإذا حان وقت العمل لا يلبثون أن يسكن الروع قلوبهم. وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم. وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأن لا خطة عمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها.

وقبل ان تتوثق أركان حكومة محمد على وتشتد مقاومتها، كانت الفتن والمشايخ متواترة الوقوع فى القاهرة. وكان رجال الدين يعززون جانبها بتأييدهم ويعضدونها (١). والسبب الدينى وحده هو الذى يستفز المصريين إلى العصيان، كما يدل عليه ما لا يزال حاضرا فى الأذهان لقرب عهده من توصل الكذابين، وفى مقدمتهم المهدي، إلى جمع شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها.

وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نار الثورة فالتهمت ما بين إسنا وأسوان، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد. وكان زعيمها ومذكى ضرامها شيخا ممن يدعون أنهم مهبط الوحي الإلهى. وكانت فى تلك الأرجاء شردمة جنود الأورطة الأولى فتفرقوا ولم يبق فى الصفوف منهم إلا العدد الكافى لإخماد تلك الثورة التى لو حدث مثلها فى بلد آخر لاتسع نطاقها وخيفت مغبتها.

(١) لقد خلط المؤلف بين الثورة التى تحض عليها الأديان السماوية وتعتبرها واجبا مقدسا دفاعا عن حقوق الأوطان والكرامة والسيادة، ولم يفرق المؤلف بين الثورة والفتنة التى تعمل الأديان السماوية وخاصة الدين الإسلامى على وأدائها فى مهدما. ولكنها بعض الرؤى الغريبة التى لم تفهم حقيقة الأديان خاصة الإسلام.

٨٠ - تنفيذ أحكام الإعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام الرضا والتسليم بما ساقه القدر. وكل ما يتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم إلى ساحة الإعدام تكرارهم الجملة الآتية « هذا ما أراده الله . هذا ما كتب في لوح القدر ». ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم إلى حيث تريد، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم. وإنك لتعتقد، إذا رأيتهم، أنهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذى سيطوى حياتهم . ولقد شهدت مرارا حوادث الإعدام، فكنت أرى المحكوم عليهم يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث، وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم إليها. أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة إلى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ أو ينجلبون إليه من كل فج وحذب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم إلى ساحة الإعدام.

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ فى الساحة التى تقام فيها الأسواق. فإذا سيق مجرم إلى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماما بغير أعمالهم التى جاءوا من أجلها، إذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم. ويصعد المحكوم عليهم بالإعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد، وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم إما إلى حبل المشنقة وإما إلى سنان سيف الجلاء، بدون أن يبدو على وجوههم أثر ما من آثار الخوف حتى أن المتفرس فيهم لا يفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله.

٨١ - الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل. لأن ذلك الوباء الأدبى لا يفتك إلا بالجماعات التى انطفأ نور الإيمان من قلوبها، ولا ينزل إلا حيث يصطدم العزاء الذى يبيته فى النفس الاعتقاد بالحياة الأخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الإيمان سوى الاعتقاد بالحزن والألم.

ولكن الدين الإسلامى يثبت فى قلوب ذويه جذورا قوية من الإيمان لا تلبث أن تتأصل فيها، لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة اله والخضوع لإرادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها. ولاشئ فى العالم يززعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لأنهم يرون أن ما قدر عليهم مكتوب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ، وأن أوامر الله ونواهيه لا معقب عليها. فالمسلم، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه، لأسرع الناس إلى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر. إذا جاءه نبأ بخسارة مال أو فقدان مظهر، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون. فلا يسقط فى يده ولا يضطرب جأشه ولا يختلج فؤاده. وهذه حالته أيضا إذا فقد أعز الأشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته.

ومهما تكن الدرجة التى يهبط إليها فى سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به، لا يعتقد أن هذا الهبوط يحط من كرامته ويقلل من شأنه. فلا غرو، وهذه قوة توكله ووطود إيمانه، أن يكون من اليأس وخور العزيمة مناط الثريا، وأن لا يفكر أبدا فى الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال. ولو كان فى وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا لزمنا أن نتحراها فى طبقة المسلمين الذين انغمسوا فى رذائل الحضارة الأوربية ومخازيها. ذلك لأن الشرقيين لا يسخطون فى الغالب على أخلاقنا، كلما اختلطوا بنا، سوى ما كان منها سىء العاقبة بعيدا عن الصواب.

٨٢- المبارزة

إن المبارزة، وهى تلك العادة التى اتصلت بنا منذ عصر المروءة القديمة والتى تدعو إليها فى أوربا عزة النفس والحاجة إلى صون الكرامة والذود عن الشرف، مجهولة عند الأمم الشرقية. وبلغ من جهلهم بها أنه لا توجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا فى منزلة الإيمان الحقيقى، بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليل بالنهار فى التدريب على استعمال السلاح. ولقد رأينا فيما سبق كيف أنهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يترشقون به. ولكنهم لا ينازلون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم من أعداء دينهم أو وطنهم.

نظرة فى العناصر الأخرى من سكان مصر

(١) العربان

قبائل العربان- شغف العربان بالصحراء- صفاتهم وطباعهم -
قناعتهم- مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم- تربيتهم ونظامهم- حروبهم-
حريتهم الدينية- تربيتهم العقلية- الأدلاء من العربان- سرقات العربان
وقطعهم الطريق- مكافحة محمد على لهذه النزعة- تنظيم فرسان العربان
على هيئة جيوش غير نظامية- فضائل العرب الرحل.

١- قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الرحالة التي تعيش في الصحراء،
وكانت القبائل التابعة لمصر أيام الحملة الفرنسية ستين قبيلة عدد أفرادها
مائة ألف نفس، منهم ثمانية عشر ألفا إلى عشرين ألف فارس. وهذا الإحصاء
التقريبي لم يتغير منذ ذلك الوقت، إلا قليلا. ومن أشد تلك القبائل بأسا
وأبعدها شهرة الهوارة والعبادة والهنادى والهندوة بالوجة القبلى، والمعازة
بمصر الوسطى والطرابين والقطاوية والبكاييش وأولاد على.. الخ بالوجه
البحرى.

٢- شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحراء المترامية الأطراف إلى أبعد مدى مرات كثيرة. فأدركت
السرى فى تعلق العربان بها، واستكشفت سبب نظرهم إلينا بعين الاحتقار،
نحن الذين كدستنا الحضارة فى آفاق ضيقة الحلقات. وقد بلغ ذاك التعلق
وهذا الاحتقار من نفوسهم مبلغا جعلهم لا يطبقون سكنى الحضر إلا بعد
معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها.

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لايميل بفطرته إلا إلى الصحراء، ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الإقامة في الحاضرة. حيث تسلم مقاليد الحكم على إحدى المقاطعات. ولقد طلب، وهو في مركزه هذا، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العربية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره المعيشة في المنازل المنجدة عليها في بيوت الشعر، وطلبه خصب العيش في ظل الدعة والراحة والسكون، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة. فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه.

٣- صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرجل بحسن شكلهم الأول وببساطته. فالناظر إليهم يخيل له أن نفوسهم لا تنفعل إلا بالعواطف السامية والإحساسات الشريفة، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية. فمن محض الخطأ إذا تخيلناهم في صفة المتوحشين وثوب الهمج وأسأنا الظن فيهم بذلك. نعم لا تخلو الحال من قبائل بدوية تدهورت في الدرك الأسفل من حضيض الرذائل، إذ جعلوا همهم للصوصية والدعارة، ولكنها لا تخالف في ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الأصل وإكرام النزيل وبسطة الكف. ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال إلى حد يخيل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان في وجهه. فلا يدهشك إذن أن تراه مفاخرا على الدم بأصله، معاليا الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب = الاختلاط = وأنه ما رضخ قط لمذلة. وما أجمل منظره، إذا غشى مجلس عظيم أو ديوان ثرى، متدثرا بردائه ومتشحا ببندقيته ورافعا رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء، لا يرضخ للنظم المرعية في الاجتماع ولا يأبه بالأداب المسنونة له، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام وإظهار شعائر الخضوع. وإذا خاطب عظيمًا، ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو إبراهيم باشا، خاطبه بجرأة وسهولة وصراحة لا أثر فيها لتكلف، مخاطبة النظير. فإذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلاً: « كيف الحال يا محمد على وكيف مزاجك يا إبراهيم ». وهذه سجيته دوما في الأسئلة التى يروم بها فتح باب الكلام مع سيد مصر وصاحبها وأكبر قائد في المملكة العثمانية كلها.

٤- قناعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة، فقليل من لبن النياق وبعض التمر يكفیان الواحد منهم غذاء طول النهار. وهم لا يعولون على أكل اللحوم إلا في الأعياد والحفلات الكبيرة. حيث يذبحون رؤوس الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقة التي كانت معروفة على عهد (هيرميرس) الشاعر اليوناني. وغالبا ما يقع النظر على نسائهن وهن مشغولات على متون الهجن، بإدارة الرحي لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم إنضاجا على ألواح حديد، يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيلة رحالها في مكان. وهم في الشراب أشد قناعة منهم في الغذاء، أما النبيذ فلا يشربونه أبدا وهكذا شأنهم في سائر الخمور، وبفضل تقشفهم في معيشتهم واعتدالهم في طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين.

٥- مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة في الصحراء تصون الأخلاق من الدنس وتربأ بها عن المخازى، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعوامل الغرام، إلا أنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا إلى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها. وذلك لأن احترام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أصبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم. والذين يجرون منهم على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت. ومع شدة غيرتهم على الأعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحرية أكثر مما يمنحه لهن غيرهم من المسلمين. فإنهن يبرزن سافرات الوجوه، ولا يتنقبن إذا وقعت عليهن أنظار الرجال. ولما كانت تربيتهن من تربية الرجال، فإنهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هؤلاء ويتخلقن بأخلاقهم.

٦- تربيتهن ونظامهم

إذا تنجع البدو في طلب الكلا ونزلوا جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد. وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء، أو من جلود الماعز والجمال. وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ما سواها ببياض

لونها. وتحتوى كل خيمة أسرة واحدة، وتنقسم بفاصل من القماش إلى قسمين، أحدهما خاص بالنساء. وإذا كانت القبائل لا تستطيع المعيشة متضامة إلى بعضها فإنها تنقسم إلى شعب متفرقة تسمى كل شعبة منها بالفريق، وتتألف من أربعين إلى مائة خيمة. ويختار كل فريق شيخا له من رؤساء الأسر وعظماؤها. وتنتخب الفرق مجتمعة شيخا كبيرا تجعله الرئيس الأعلى لها. وسلطة الشيوخ محدودة في دائرة ضيقة جدا، إذ في الإمكان عزلهم من منصبهم بصوت الأغلبية التي أفضت بالرئاسة إليهم من قبل. على أنهم يحتفظون بحقوق وامتيازات لا ينازعهم عليها أحد، بعد اعتزالهم العمل في المشيخة، ولكل قبيلة راية ترفع أمام خيمة شيخها، وفيها يكرم مثنوي الغرباء وتطرح الآراء وتدور المناقشات في شئون القبيلة لتقرير ما يتفق مع مصلحتها. وتحصل المفاوضات في الصلح والحرب. دع أن شيوخ القبائل وهم الذين يقودون التجريدات الحربية ويسوسون المقاتلة في ساحات الوغى.

٧- حروبهم

لكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدودها التي تنتهى إليها مراعيها الخصبة. ومفهوم أنه من المتعذر تعيين هذه الحدود بالدقة في أرض تنطمس معلما بهبوب الرياح في كل حين. فلا عجب إذا نشأت المنازعات بين القبائل المتجاورة على حدود أراضيها، وسرعان ما يتحول الكلام فيها إلى خصام فقتال بين الفريقين.

وكثيرا ما تستمر الحروب بينهما زمنا طويلا. بل ربما لا تجد حدا تقف عنده. وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلم وقوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك، من بواعث التنافر بين الجماعات. وقد ألف البدو الصدق والشهامة في حروبهم. فإنهم، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة، يندرونهم بها ويطلبونهم إلى منازلهم. وهم في قتالهم يتبارون في إظهار الشجاعة والإقدام. ونظامهم في القتال يلفت النظر ببساطته، ويذكر بأساليب القتال في العصور الأولى. إذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى: الصف الأول لشبان صفوة أهل القبيلة في الفتوة والحماس وسرعة النجدة، فإن هؤلاء المقاتلة الطامحين إلى

الظهور والشهرة يطلبون بعضهم البعض إلى المبارزة، ويتلاقون مرارا في ساحة النزال. أما الصف الثانى فخاص بأرباب الأسر الذين بلغوا سن الكهولة. ويقف خلفهم فى الصف الثالث ذوو الأسنان من الرجال والنساء. وحكمة وجود هاته النسوة فى ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحتثن المقاتلين ويشجعنهم بالأغانى والطبول وارتجال الأناشيد الحربية.

أما الفتيات المخطوبات لزواج فيستنهن من هم خطبائهن ويعدنهم بقرب الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمول. وأما النساء المتزوجات والأمهات فيذكرن أزواجهن بالروابط المقدسة التى تربطهم بهن ويمثلن لهم حالة الأبناء والأسرات إذا لم يعودوا مكللين بغار الانتصار. وتحرض أجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة إياهم جميعا بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم فى القتال أوفر قسط من المجد والفخار.

٨- حريتهم الدينية

يحمل أهل الحضرة من العرب نيرين: نير الاستعباد السياسى ونير الاستعباد الدينى، بخلاف أهل البادية الذين يجهلون النير الأول جهلا تاما، ويلمون بطرائق تحرير أنفسهم من النير الثانى وإلقائه عن أعناقهم. وغنى عن البيان أنهم مسلمون كغيرهم من أهل الإسلام، ولكن إسلاميتهم لا تزال على فطرتها الأولى من الصراحة والسذاجة، إذ لم يدخلها شوب التعاليم الدقيقة ومذاهب أهل الكلام ومختلف آراء الأئمة. لهذا تراهم يتصلون بمهارة وحذق من تبعة مخالفتهم لقواعد الدين ونصوص الشرع فيقولون مثلا: « إذا لم نؤد فرض الصلاة فلأن الماء ينقصنا للوضوء، وإذا لم نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا، وإذا لم نصم شهر رمضان فإننا نصوم من الجوع طول السنة، وإذا لم نحج إلى بيت اله الحرام فلأن بيت اله الحرام حيث يصلى الانسان» (١).

٩- تربيتهم العقلية

لغة أهل البادية مبنية فى الغالب على التشبيه. وهم فى شعرهم يستعيرون تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس

(١) الناشر: إنها رؤية مشوهة وغير موضوعية للإسلام

وصبر الجمل وقناعته وفوائد الصحراء وصفاتها المميزة. وليس في أذهانهم أثر من العلوم، بل إن السواد الأعظم من مشائخهم أميون لا يقرأون حرفاً ولا يكتبون، ولكن مواهبهم العقلية بالغة اقصى مبلغ من الاتساع. معززة الجانب بالمواهب الجثمانية التي تقويها الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقي من الشواطئ.

١٠- السنيورة

أتيح لي مرارا البحث في عادات البدو وأخلاقهم خلال رحلاتي العديدة الطويلة في الصحراء. ومما عرض لي فيها من الحوادث الجديرة بالذكر الحادثة التي أسوقها فيما يلي إلى القراء:

لما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر، هاجم البدو التابعون لقبيلة الزعيم الشهير المعروف بأبى قوره، وهو الزعيم الذى طالما قاوم المماليك ونافسهم على السلطة حتى حصلت له السيادة على إقليم المنصورة، حاميتهم في هذه المدينة. وكان مقره قرية (ميت العايل) على مسافة ستة فراسخ من الجنوب الغربى لها. فلما احتدمت نار المعركة سبى العربان امرأة فرنسية في ريعان الشباب وأخذوها إلى زعيمهم الذى لم يلبث أن تزوج بها. ولقد اشتهر أمرها في تلك الجهات وأطلق عليها اسم « السنيورة » لجمالها.

وكثيرا ما ذكر أمرها على مسمع منى. فوددت التعرف عليها واعتزمت اللقاء بها. فلما كانت سنة ١٨٢٤ ذهبت إلى مديرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لي إنها تسكنها ونزلت بدارها. فإذا بها قصر فسيح الجنات قائما بالقرب من مساكن العرب.. وقد أحسن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثنأى. وما عرف أننى فرنسى الجنس حتى ذكر لي والدته وقال إنها لكذلك. فأعربت له عن رغبتى في لقائها، وكانت الذريعة الوحيدة إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها. فلما وصلت إلى خدرها تلقنتنى محبة باللغة الفرنسية. ولكننى سرعان ما تبينت أنها إيطالية الجنس، وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية، وأن والدها كان تاجر قبعات، اسمه بارتولى، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت، وأن اسمها هى جوليا، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوا جوادا وانطلقوا يطوون بها القدائف والسياسب حتى بلغوا بها فى الماء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض، وأن

هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلا منها ثوبا شرقيا واسعا، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس - أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريبا، وجعل في خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجواري. ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطويل، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها، فكانت لا تكف عن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتها في العودة إلى ذويها. ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهرا حتى رزقت غلاما، فهدأ شعور الأم نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها في هذا المكان فلم يسعها إلا احتماله والرضاء به.

ولما مات زوجها وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه في بحبوحة الهناء والنعيم، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تألفه في أخيه. المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف. وبعد انقضاء أربع سنوات في هذا الحال، توفي هذا الزوج تاركا لها ابنة في الثانية من عمرها تسمى (حفيظة) وجنينا في بطنها سمي بعد ميلاده بعلى. ومع أنها كانت لا تزال بعد ميلاد هذا الابن تكابد من زوجها صنوف العسف والعنف، فإنها خسرت بموته خير معوان وأقوى سند لها في الملمات. ذلك لأن الشر أغرى أقاربه بالاستفادة من ضعفها على أثر وفاته. فنصبوا المكائد ودسوا الدسائس التى توصلوا بها إلى اغتصاب الشطر الأكبر من ثروة هذه الأسرة التى كان قد اعتورها النقص بامتداد أيدي السلبية إليها.

وكان منصور ابنها البكرى لا يزال في مقتبل العمر وعاجزا عن الدفاع عن ميراث أبيه. فأصابه غم شديد من رؤية تلك الثروة تتحول من يده إلى أيدي الأغيار. ولم يلبث هذا الغم أن انقلب معه إلى جنون. أما أخوه على، فهو الآن عماد بيت أبيه وسنده الوحيد، هذا البيت الذى كان فيما سبق رفيع العماد ومرموقا من الرواد والقصاد، إذ كان يملك زعيمه أربعاً وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعاناً لا عداد لها من الأغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقاء، فلم يبق من هذه الثروة الطائلة إلا فضلات يسيرة تكاد لا تفى بقضاء حاجاتها ولا تكفى لإعالتها بما اعتادته من السعة والخضب والنعيم.

ومنذ الأربعة والثلاثين عاما التى قضتها السنيوة فى هذه الدار لم تبرحها قط، بل لم تر رجلا من الأجانب سوى. ولقد أثار وجودى فى نفسها بواعث الانفعال والتأثر، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق إلى وطنها والرغبة فى استنشاق نسيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد فى فؤادها. وعندما انصرفت من حضرتها كانت تشيعنى بنظرات العطف والمودة. ولقد برحت دارها وقلبي يتحفز تأثرا بما رأيته وسمعته فى هذه المقابلة، ولاسيما ما أفهمتنى إياه من أنها لم يصل إليها منذ وقعت سبية فى أيدي العريان، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضابط (ديفو) الذى لا تدرى أقتل فى معركة المنصورة أم بقى على قيد الحياة.

ولقيت فى دار السنيورة كل ما يؤثر عن العرب فى ضيقتهم للأجانب من مظاهر الحفاوة والإكرام، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون فى وسطها، عند كل وجبة، خروفا بأكمله ويصفون على حافتها كثيرا من الصحاف الصغيرة، فينتابها أولا أفراد الأسرة والأعيان من أهل القرية، وكنا نأكل جلوسا على السجاجيد ونمزق اللحم بأصابعنا وبها كنا نتناول الارز مطبوخا على الطريقة العربية. وبعد أن نأكل كل على قدر همته، ينتاب المائدة بعدنا غيرنا من المدعويين. ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء. ولقد أحصيت عدد هؤلاء، ومما ضاعف دهشتى احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم إلى نهاية الطعام. وكان يبدو على وجوه أولئك الفقراء الذين يقربهم رب الدار كل ليلة على هذا المثال، أثر السرور من تلك الملاطفة التى تمحو فى نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف. خصوصا وأنهم يعتقدون أن ما يجدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لأن أهل البيت يكرمون زائريهم فى كل يوم على هذا المثال السابق.

١١- العريان الأدلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو فى الاهتداء والوصول إلى مقاصدهم. ويسترشد العريان فى قطع الطريق الذى يسرون فيه ويقدر أبعاد ما اجتازوه وما يتبقى عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيا على صدق النظر. والأدلاء من قبيلة بيزار، وهم أهدى من غيرهم فى

مسالك الصحارى الشرقية إلى جبل طور سيناء أما قبيلة أولاد على فمنها الأدلاء العارفون بأسرار صحراء ليبية، وهكذا قبيلة العبابدة بالنسبة لبلاد النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصحارى الممتدة بين النيل والبحر الأحمر فيما بين القصير ورانيس القديمة، وبالنظر إلى حدقهم في الصيد والقنص ترى أنهم من أنفع العربان الباحثين في الشئون الطبيعية .

١٧- سرقات العربان وقطعهم الطريق

إن العربان كقطعة النقد التى إذا سرك منها منظر أحد وجهيها ساءك منظر الوجه الآخر. لأن محامد الخلال ومحاسن الخصال لاتوجد، عند جميع القبائل على السواء، خالية من الشوب. وربما لم يكن ما وصفتهم به من كريم الشيم متوافرا فيها جميعا . فإن منها قبائل لاتستطيع مقاومة ميلها الفطرى إلى النهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها، ومن بواعث خوف المسافرين على حياتهم. ومع ما تقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة في العربان إلى ارتكاب الشرور ورداءة الطبائع وفساد النفس، فإن أهل البادية والمعتصمين بأوعار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم في حرب لا يخدم ضرامها مع أهل الحضر، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه مع عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب. وكان هذا على الدوام شأنهم معهم. إذ يرون أن ما يسلبونهم إياه إنما هو من الغنائم الشرعية والفيء التى لم يحرمها الله في كتابه.

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر بما تراءى للجنرال بونايرته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة . كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون في مذكراته عن ذلك ما يأتى: «إذا كان موقع مصر الغريب، وهى البلد الذى يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الإدارة لانتظام شئونها واستقامة أحوالها، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم ضربات العدل تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها في أفئدة أولئك الأشرار فلا يعيثون فسادا في تلك الأقطار».

ولقد بلغت بهم الجراءة ، في العهد الأخير ، إلى التعدى على قرى الفلاحين بدون أن يطاردتهم أحد أو ينكل بهم ، عقابا لهم على سوء فعلهم . ولكن ما كاد الفرنسيون يحتلون القطر المصرى حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيته ، فلم يتمادوا في باطلهم .

ولقد حذا محمد على حذوهم في معاملته لهم . فردهم ، بإدارته الحازمة ، عن بغيهم وألزمهم الوقوف عند أفقهم .

١٣- مكافحة محمد على لهم

في الوقت الذى تسلم محمد على فيه زمام مصر ، كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية . فقد كانوا يفرضون الاتاوات على سكان مصر ويضربون الفدية لايزعمهم عن ذلك وأزع . بل كان لا يصددهم أحد عن الزحف على مدينة القاهرة ودخولها دخول الفاتح لسبب النساء وخطف الأطفال ونهب الأموال . وكان لا يجرؤ أحد على زيارة الأهرام بغير رضائهم وأمرهم . وكانت القوافل التى تجتاز برزخ السويس تدفع لهم القرض الفادحة من المال .

فلما وقف محمد على على حقيقة هذه الحال ، قرر أن يمد رواق سلطته المطلقة على الصحارى كما نشر لواءها على الأرياف ، مقتديا في ذلك (بسكست كنت) الذى يؤثر عنه قوله : « من أجل الأمور أن يستطيع الناس في مملكتى حمل أموالهم في أيديهم وترك أبوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو يسطو عليهم في مآمنهم » . ولعل الوالى - حينما تسلم زمام الأمر - جرى في خاطره ما ينطبق على قول ذلك الملك ، فهم بالعمل على تحقيقه . إذ سلك مع العربان مسلك المهادن المسالم ، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم . ولكنهم لم يلبثوا أن هتكوا ستارها ونقضوا عهودهم غير مبالين ولا هيابين . وأيقن محمد على لهذا السبب أن لا مناص له من الاعتماد على القوة في قمعهم وتأييدهم فعول على قتالهم ، وسير لمطاردتهم فرقا من الفرسان المتحركة انطلقت تناوشهم وتأخذ الآفاق عليهم وتسد السبل ، حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح واستمناع العفو . ومنذ هذا الوقت ثابوا إلى الطاعة لوالى مصر وأقسموا بالولاء له . ولقد اشترط في عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهنا عنده على طاعتهم

وضمامنا لوفائهم بعهودهم، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والأمن. وزاد على ذلك أن أجرى عليهم الأرزاق والمرتببات لمعاشهم.

وفي رأيي أن هذه الطريقة التي ابتكرها محمد على في معاملة العربان ينبغي تطبيق مثلها على قبائل العربان في بلاد الجزائر المحقة بأملاكنا، فإنها خير وسيلة لكبح جماع أمة.

١٤- تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية

وبعد مضى زمن من تقرير أحوال العربان على النمط المتقدم، عرض محمد على عليهم تشكيل جيوش منهم للعمل في جيشه، واقترح أن يدفع لهم الأجور في مقابل خدمتهم، على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته. ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة محمد على فوائد جليلة، إذ اشتركت في حروبه بالسودان وسنار وجزيرة العرب وبلاد الشام كافة. وكانت منزلتهم من الجيش - من الوجهة العسكرية - كمنزلة غير المنتظمين في بعض الجيوش الأوروبية. وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومعاكسته أثناء انسحابه. وهم من أصلح ما يكون لأداء هذه المهمات الحربية.

ولا يزال عالقا بالأذهان أن العربان هم الذين أسروا عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثماني في معركة قونيا خلال الحملة الأولى على بلاد الشام.

١٥- فضائل العرب الرحل

مما لا ريب فيه أن محمد على توحى مع العربان أصوب خطط السياسة وأحكمها، وجاء من ذلك بما لا يستطيع غيره أن يجيء به لاتقاء شرهم، ولقد عقد على بك وهو أحد أمراء المماليك الذي استقل زمنا ما بالقطر المصري في النصف الأخير من القرن الماضي، النية على إبادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، وشرع فعلا في تنفيذها، إذ نكل ببعض القبائل وقضى عليها، واضطر غيرها إلى التراجع في الصحراء فرارا من المجزرة. وكان هذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمة السياسية ومضادا لطبيعة الإنسانية، فلا

غرو إذا عاد بالويلال والشر على الممالك أنفسهم. وإذا قلنا إنه ما كان لعل بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر، فما ذلك إلا لما هو ثابت ومستقر قى الأخلاق = النفوس = من فائدة وجودهم. فإنه إذا صح لنا أن نقول إن الجمال سفن الصحراء، فمن الحق والعدل أن نقول أيضا أن العربان ربانو هذه السفن وقادتها في ذلك الاوقيانوس الأرضى الذى لا أفق له. فالعربان هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد التى على حافاتها. فالاحتفاظ بهم، وذلك مبلغ أثرهم فى إفادة الإنسانية، يعود عليها بأجل المزايا. وإذا كان هناك ما يدعو إلى اتخاذ شيء من الوسائل لقمع شرورهم وصد طغيانهم فلا يجوز أن يتعدى حدود التهذيب والتأديب، لتتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم والتي لا يجاريهم فيها مجار غيرهم. ذاك ما كان ينبغى أن يعامل به العربان لدفع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ما قام به محمد على على خير ما كان يريده ويتمناه.

(٢)

الحكومة فى مصر

أتراك مصر - صفاتهم النفسية - ازدهاؤهم بأنفسهم وكبرياؤهم - شعور الأتراك نحو الأوروبيين - الإسلامبولية - أتراك أوروبا والألبانيون والعثمانيون - الأتراك الآسيويون والمماليك.

١٦- أتراك مصر

العثمانية أجنب عن مصر. وهم يفدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة، يجذبهم إليها فى الغالب اشتهاى محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة. ويرى الأتراك أنفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقة ممتازة - أى طبقة الظافرين الفاتحين. وازدهاؤهم شديد بالفارق الذى يتخللونه فاصلا بينهم والعناصر العربية. لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة، ولا يلتحمون معهم بلحمة المصاهرة، إلا فى النادر

الذى لا حكم له. والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين، وإنما يشترطون فيها أن تكون مع الأسر الوطنية الممتازة بمركزها في الهيئة الاجتماعية والمعروفة بسعة الثروة والجاه، وفي المدن دون الأرياف.

ثم إن العثمانيين يترفعون عن تعلم اللغة العربية، إذ يعتبرونها لغة الأمة المغلوبة على أمرها، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لا يليق بهم علمها، ناسين أو متناسين أن بها شيدت آثار جليلة في الآداب اللغوية ستظل باقية أيد الدهر، وأنهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين وفيهم الأتراك. وإذا كان الأتراك لا يظهرون نحو المصريين الميل والعطف، فإن هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم، إذ من النادر أن نجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية.

١٧- صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانيين أخلاقا وعادات وطبعا مغايرة كل المغايرة لما يقابلها عن المصريين. أما صفاتهم النفسية فعين الصفات التى توصف بها الطبقات الشريفة الراقية. فمن صفات العثماني الحزم والثبات والصلابة والمثابرة والتحفظ وبعد النظر في المستقبل. وطالما لاتعترضه الوسواس الناشئة عن التنتع في الدين، فإنه يمتاز بسلامة القلب وسلاسة الخلق، وبالشهامة والمروءة في صلاته الاجتماعية. والناظر إليه يخيّل له أن آدابه السامية غريزة فيه. وهو شديد الشعور بكرامة الذات، ومع أنه لايفوق المصرى في حدة ذكائه وصفاء ذهنه، فإنه يسمو عليه في العلم بأساليب التسلط والحكم والإدارة.

١٨- ازدهاؤهم بأنفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبئة فيهم انبثاا يكاد يكون نقيصة ورذيلة. فإن الأتراك متكبرون إلى أقصى حد. ومن مظاهر كبريائهم أنهم لا يترددون في أمر ما، ولايتراجعون عن إنجاز ما يعن لهم من عمل، ويعتقدون في أنفسهم القدرة على القيام بجميع الأعمال على حد سواء. وهذا الصلف البالغ مداه فيهم إلى الحد الأقصى، كان من أقوى أسباب سقوط الدولة

التركية، لأننا طالما رأينا الوصوليين الذين لا يعرف لهم أصل ولا فرع قد ترقوا في هذه الدولة، وبلغوا من مراتبها إلى الدرجة العليا لمجرد عطف السلطان عليهم. وبما أظهره من دلائل العجز في المناصب الخطيرة التي أسندت إليهم، لقد أورد هؤلاء الوصوليون الحكومة العثمانية شر الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك.

يكون أحدهم بالأمس خادما لخادم، فإذا هو اليوم قائد لجيش عرم، وما هي إلا لفظة من لفظات المولى المعظم، في ساعة من ساعات رضائه، حتى يصير في الغد أميرا لبحر أو في منصب قبطان باشا. فمجرد هوى السلطان ومطلق إرادته يعفيانه من شهادة الفضل تليدا أو طارفا، أو من تركية العلم معقولا كان أو منقولا. أو من الفوق على الأقران بالاختصاص = بالتخصص = في فرع من فروع المعلومات البشرية، وبالجملة فتلك الإرادة. إذا انصرفت إليه أو رمقته بعين عنايتها، كانت بمثابة الشهادة له بالكفاءة التي لا تبارى في علم كل شيء. ومن مدهشات الأمور أن يتجرد المحسوب الذي يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته. فإنه سواء أكان قائد الجيش أم أمير الأسطول، يعتقد أنه القابض دوما على ناصية الفوز والمتصرف في أطوار الانتصار.

وإذا كان إدراك الأتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما هذا المبلغ. فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسهم عن التدفع والتدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذي زلت فيه أقدامهم، نحو مهواة الفناء والهلاك؟

ومما لا بد لنا من الاعتراف به في هذا المقام - بالرغم مما أوردناه من عيوب الأتراك ونقائصهم - أنهم أقل من العرب طمعا في عرض الدنيا وحرصا على حطامها القباني، لذا يمكننا القول بأنهم كرماء، وأنهم يذهبون في الكرم إلى حد الإسراف، وأنهم مولعون بالسعة في النفقة والاختذ بمذاهب الترف والنعيم في الحياة.

بدهى أن هذا الميل الطبيعي يسوق أصحاب المناصب في الحكومة إلى ارتكاب الرشوة، ليستطيعوا قضاء مطالب النفس من وسائل البذخ والعيش في ظل الهناء والسعادة.

ولقد قلت إن كرامة النفس غريزة فيهم، وأقول الآن إن من أخص صفاتهم وأوجبها للعجب، ما يجدونه من السهولة كلما أرادوا اتخاذ الأصوات أو الأوضاع التي تلقى في يقين السامع أو الناظر معنى العظمة والأبهة والجلال. وهم من الثقة بنفوسهم والاعتداد بذاتيتهم بحيث إذا فاجأهم الحظ بمال أو منصب، لا تعريضهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها. ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة، إلى الطرائق التي يلجئهم إلى اتباعها حب التزلف إلى الذين يسمون عليهم في المراتب ورفعة الشأن. وكثيرا ما يفضى فجأة هذا التنقل إلى التناقض، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون إلى مقامه إشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الانصياع، إذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلسا أو مكانا اجتمع فيه أناس أحط منهم درجة في سلم الاجتماع، قد رفعوا عقيرتهم، وقوموا من منحنى صالبيهم، وأكسبوا سحتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة وإباء الضيم. ومن ثم ترى ذلك الرقيق الذي رأيناه مرذولا وقد صار في لحظة واحدة مولى عظيما يتوخى في حركاته وإشاراته الصفات الارستقراطية المبنية على النهى والأمر.

١٩- شعور الأتراك نحو الأوربيين

للعثمانيين في حكمهم على الأوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لامثيل لها. فهم يعتقدون أننا إذا أشهرنا الحرب عليهم فإنما نشهرها على ديانتهم، وأن الغرض الذي نرمى إليه هو إزالة معاملها من عالم الوجود. وأننا إذا كنا لا نستولى على بلادهم فما هو إلا لضعف جانبنا وخور عزمنا. وطالما عانيت الكثير من المشاق في تفهيم بعضهم ما نحن عليه من التسامح الدينى، وأن تفاوت وجهات النظر في السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن. وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا، كأنهم لا يذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر في العهد الأخير أثناء حروبها مع روسيا. وأعرف من بينهم فريقا لا يتزعزع يقينه في أن أوربا تدفع الجزية، وهى صاغرة، إلى السلطان المعظم.

نعم إن الأتراك يضطرون - في مسائل كثيرة - إلى الاعتراف بتفوق الأوربيين عليهم، ولكنهم لا يكفون عن النظر إلى هؤلاء بعين العطف المزوج بالاحتقار. وغنى عن البيان أنه ما دامت عقيدتهم الدينية متأصلة في نفوسهم، فلن نكون في نظرهم إلا كفارا مشركين، ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم في استقبال الأوربي من ذوى المكانة والنقوذ، فإنه مما يؤيد الرأى الذى أسلفناه. وبيان ذلك أنهم، مع استقبالهم إياه بشئ من مظاهر الأدب والاحترام التى كثيرا ماينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية في المراسم الشرقية، لا يقومون إجلالا له عند دخوله بهو الاستقبال. وغاية الأمر أنهم يتحركون، وهم في مكانهم، حركة خفيفة. فإذا كانوا ممن يحبون أن لايتهمهم أحد في أدبهم فلا يكون هذا عادة إلا إذا علموا أن زائرهم الأوربي من أفاضل الرجال وأعاضمهم الجديرين بالاحتراف والاجلال، إذ يكلفون خدمهم عندئذ بإنباتهم بوصول هذا الذات. فإذا ما وافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لا يظهر له أن قيامهم كان من أجله. وإن ننس لاننسى أخبار الخلاف الذى سار ثأثره في هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الأعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال في آن واحد، حتى لا يتكلف القيام خصيصا لهم إذا دخلوا عليه وهو فيه.

وفي ظروف كثيرة قامت الأدلة على هذا الصلف المستمد من التمسك الدينى. وآخر دليل منها ما حدث، منذ زمن قريب في الديار المصرية، من رفض أحد الضباط، وهو برتبة أمير لاي، المرور على مشهد من الدوق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الولي إلى مشاهدة عرض جزء من الجيش أمامه.

أما سمو محمد على، فقد ربا بنفسه عن الانتقام من هذه الأوهام الفاسدة، وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين، إذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه. فإنه يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأنس والرقّة وحسن التعهد، ولا يكف أبدا عن ضرب الامثال لضباطه وحضهم على الاقتداء به في حسن معاملتهم إياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الأدب وواجب المجاملة. ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته يتهمونه فيها بقلّة الإيمان، فكان يغتنم هذه الفرص

ليشرح لهم تفوق الأوروبيين على الوطنيين في العلوم والمعارف، ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم وإجلالهم. وفي وسعى أن أذكر في هذا المقام طائفة من الحكايات الغربية في هذا الموضوع، ولكنني أجتزئ منها بحكاية واحدة تكفى لإثبات ما ذكرته الآن.

جاء بعض ذوى الحشيشات من الأجانب يوماً، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان. وما استقر بهم المقام، حتى أمر محمد على بإحضار القهوة، فما هى إلا برهة حتى تقدم الأعوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى. ولم يلتفت الزائرون إلى هذا الأمر ولا فطنوا لسبب الباعث عليه، جهلاً منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق. والذين فطنوا منهم للأمر، لم يذهب سوء الظن بهم إلى الحكم بما فى تقديم القهوة على هذا الوجه من سوء الأدب وقلة الاكتراث بالضيوف. إذ لا يخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنها خلقت لدنس، فهم لا يستعملونها إلا فى الأعمال التى يصح وصفها بهذا الوصف. وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفتته ملاحظة ما أتاه خدمه من سوء الأدب فى حق زائريه، حتى استدعاهم إليه. وبعد أن بالغ فى تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضاء والسفر فوراً إلى مكة ليكونوا ضمن خدم الكعبة. ثم قال لهم: «إذ بلغ بكم التعصب الذمى إلى حد تعمد سوء الأدب مع أناس يشرقنى لقاءهم والاجتماع بهم، فأولى لكم أن تقطنوا المدينة التى لا يوجد بها أوروبى واحد تسوءكم رؤيته والتى لاتستطيعون أن تعرضونى فيها إلى الخجل من قبح فعالكم وسوء أخلاقكم».

٢٠- الإسلامبولية وأتراك أوروبا والأرنؤود

والعثمانيون والأسويون والمماليك

إن خلال التى استددلت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجة واحدة بين العثمانية. بل إن هناك فوراق تترتب على اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى تواردوا منها على مصر.

فالإسلامبولية جبلوا على البشاشة واللفظ، وربما بالغوا فيهما إلى حد التصنع. وكثيراً ما يقولون عن غيرهم من الأتراك إنهم ريفيون وإنهم لا يجاورونهم فى سمو الأدب ورقة الأخلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات

التي يمتاز بها أهل العواصم والحوضر على أهل الأرياف والبوادي. ومنهم من يميلون إلى الازدهاء بأنفسهم ويتطوحن في الغرور إلى حد يجز عليهم السخرية والاستهزاء. أما أتراك أوربا واليونان ومقدونيا. فلاعتيادهم مخالطة الأوربيين فقدوا بعض سماتهم الأصلية المميزة لهم على غيرهم، حتى أن منهم من يجهلون اللغة التركية ولايتكلمون إلا بلغة الوسط الذي يعيشون فيه.

وإذا نظرنا إلى الأرثوذكس من هذا الوجه فلا نلبث أن نرى أنهم جنس مستقل بذاته، وذرية لا تمت إلى الأتراك بحبل القرابة. وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال، وهذا هو سبب إقبالهم على التطوع في خدمة الولاة، وإذا انتظموا في سلك الجيش تفوقوا على غيرهم في الصفات المطلوبة من الجندي. وإنما عيبهم الوحيد العناد والنزوع إلى الثورة والشغب، ولهم حرص شديد على المال وغرام بجمعه إلى حد يمكن القول معه بأن جميع حوادث الاضطراب ترجع غالباً إلى النزاع على المال. وسواد = معظم = الأتراك الموجودين بمصر من أصل أرثوذكس أو أوربي. أما الأتراك الآسيويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم إذ لم يطرأ عليهم تغير كالذي ذكرناه.

أما المماليك فيحتفظون بأصولهم بدليل ما يبدو عليهم من سماتها الخاصة بها. وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والأخلاق التي يقتضيها نوع التربية المعطاة لهم. ومع أن الكثيرين منهم مسيحيو الأصل، وإنما اعتنقوا الإسلام في نعومة أظفارهم، فإن التعصب الديني تأصل في نفوسهم إلى حد جعلهم من ألد خصوم الديانة المسيحية. وهم، بوجه عام، لا يمتازون بشيء من الذكاء والعقل. وكل ما يميزهم عن غيرهم، ويعتبر الصفة الخاصة بهم والفطرة التي فطروا عليها دون غيرهم، العناد. وأعرف منهم فريقاً لا أشك في سمو مكانتهم من العقل ونباهة الذكر. وفي تاريخ الدور الخطير الذي قاموا بتمثيلة على مسرح الديار المصرية إلى أوائل هذا القرن أمثلة لا عداد لها على خيانتهم وغدرهم، فالأمانة لم تكن إذن من الفضائل الشائعة بينهم. وليس هذا مما يستغرب إذا نظرنا إلى أصل نشأتهم، وعلمنا أنهم في طفولتهم الأولى حرموا لذة الخب العائلي ولم يتذوقوا لها طعماً، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التي نشأوا فيها إلى وسط اجتماعي لا تلحمهم بآله لحمه قرابة ولا يعطف عليهم

إحساس الشفقة الوالدية. فهذا الحرمان محاً من أفتدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التى يحول دون انبثاؤها فيهم شيبوبهم، منذ المهذ، فى ضيق اليتم وذل الاغتراب.

ولم أستطع، فى هذه النبذة الموجزة، أن أقدم من طباع العثمانليين إلا البارز المشهود. وليس هو فى الحقيقة مما يجوز فيه الإطلاق، فإن بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربية القويمة والعلم الصحيح، منذ جلس محمد على على أريكة ولاية مصر، من الآداب العالية ما جعلهم أهلاً للإجلال والتوقير، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الأسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها.

(٣) الأقباط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الأقباط - طباع الأقباط وأخلاقهم - عقيدتهم الدينية - كنائسهم - حجهم إلى بيت المقدس - اكليروسهم - الزواج وتشجيع الجنازات - صناعات الأقباط وحرفهم.

٢١- نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها فى حالة الأقباط

الاقباط أقدم سكان القطر المصرى، والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون، منذ الفتح الإسلامى، مختلطين بهم. وأغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، على تعاقب الأجيال. ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثنى عشر قرناً. وغنى عن البيان أنهم، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتككيل بدولة الروم لما بينهما والمصريين من الاختلافات الدينية.

٢٢- طباعهم وأخلاقهم

طباع الاقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الأوربيين إلى محبتهم والعطف عليهم. فإنك تراهم فى وجود دائم واكتئاب ملازم، كأن الحزن لا ينفك عنهم. وسبب ظهورهم فى هذا المظهر الشدة المرعية فى تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم.

والأقباط يمتازون بأهلية خاصة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر. وهذا هو السبب الذي جعل الممالك - وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقدرّون من العلوم والفنون إلا ما تعلق منها بالحرب وحمل السلاح - يتخذون من الأقباط القومة على إدارة شئونهم المالية، وخصوصاً وأنهم من أصحاب الدراية ببعض المعلومات.

وقد نجم عن تولى الأقباط بعض المناصب الإدارية، لما اضطرت الحاجة الممالك إلى التنازل لهم عنها، أن توافرت لديهم الوسائل للأخذ بالثأر من جراء ما لحق بهم من المظالم والاضطهادات. فإنه لما عهدت إليهم مساحة الأرض وإدارة الأموال رأوا من استئانة الرؤساء إليهم واعتماد أرباب الأموال عليهم خير فرصة لاعتبارهم أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وصادتها الحقيقيين، ونظرهم إلى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين. فكانى بأولئك المسيحيين قد نسوا كلمة اليسوع: «رد إلى قيصر ما لقيصر».

٢٣- ملابسهم

يلبس الأقباط مثل ما يلبسه المسلمون من الثياب. وإنما يفضلون منها ما كان قاتم اللون. وإذا كانوا من سكان المدن، آثروا من الثياب ما يكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه، ذريعة إلى التمييز بينهم والمسلمين. وجعلوا عمائمهم بأحد هذه الألوان. أما نساؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شيء من وجوههن سواء خارج منازلهم أو داخلها، وفي حضرة أقرب الناس إليهن.

٢٤- إيمانهم الدينى

الأقباط شديداً التمسك بعقيدتهم، ولهم في أداء فروضها أساليب في الغاية القصوى من الشدة والصرامة. فمن ذلك أنهم يقومون بالصيام مراعين في أداء فرضه منتهى الصلابة والدقة والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع، ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكّار لصوم نينوى الذى سببه نبوءة النبى يونس. وأكثر الأقباط تشدداً في رعاية هذا الصوم يمسون عن كل طعام مدة الثلاثة الأيام ولياليها. أما الثانى فيسمى عندهم بالصوم الكبير، وكان في الزمن السابق، لا تزيد مدته على أربعين يوماً. ولكن أقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية

حتى أبلغوه إلى خمسة وخمسين يوما. وهم في هذه المدة يمسون عن تعاطي الاطعمة الحيوانية الأصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن، ويقتصرون في القوت على النباتات والبقول. ويحتفلون بـ « قبل المجيء » أى مدة التجهز لعيد الميلاد والأربعة الآحاد السابقة عليه. وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل، وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب. ويقومون أيضا بالصوم الذى قام به الرسل بعد موت المسيح.

وهناك صوم غير ما تقدم يسمونه صوم العذراء، ويقع في الثلاثة أيام السابقة على عيد صعود العذراء، وصوم يومي الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين في غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح والعيد الخاص بحلول روح القدس على التلاميذ. أما الأعياد الكثيرة التى يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعا للتطويل.

٢٥- كنائسهم

سبق لنا القول بأن للأقباط عددا عظيما من الكنائس والأديرة. ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم عادة إلى أربعة أقسام أو خمسة: القسم الأعلى أو الفوقى والهيكل ويحتوى المذبح، وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيسة بحاجز يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه طايب كبير، والقسم الذى يلي هذا الحاجز خاص بالقساوسة والشمامسة والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة. وهذا القسم أيضا يفصله عن الأقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجز من الخشب. وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار، وعلى الجدران صور غليظة تمثل القديسين، وعلى الأخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة. أما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية.

وعادة الأقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الأحذية كالمسلمين إذا غشوا مساجدهم، حتى لا تتلوث الأرض بلوثها.

٢٦- الحج إلى بيت المقدس

من جوامع الشبه بين الأقباط ومواطنيهم المسلمين، اهتمامهم بالحج إلى بيت المقدس. والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين في الطموح إلى التحلى بلقب (الحاج) فتراهم يتهافون على زيارة

الأماكن المقدسة، ويرون في هذه الزيارة فضلا كثيرا ومزية عظمية. وهم يؤلفون القوافل العديدة لهذا الغرض، ويسيرون بحيث يدركون المدينة المقدسة في أسبوع الصليبوت «الآلام» وأعياد الفصح. وعقب الأسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الأردن للاستحمام بمياهه.

٢٧- الإكليروس القبطي

يقوم بالخدمة الدينية في الكنائس القبطية الرهبان والشماسة الإنجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والأساقفة الذين يخضعون لسلطة أحد البطارقة. ولا يجوز عند الأقباط أن يترشح أحدهم للانتظام في سلك الإكليروس إلا إذا كان متزوجا. فإذا وافقه المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية. فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها في العزوبة. وكذا الحال بالنسبة له إذا توفيت زوجته، فإنه لا يجوز له أن يتزوج مرة أخرى. ويشترط في قبوله بالإكليروس أن يكون خاليا من العيوب الجثمانية، وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاما. وعليه أن يعيش من ثمار الحرفة التي يحترفها. ويتلقى الصفة الكهنوتية المقدسة إما من يد البطريق وإما من يد أحد الأساقفة.

أما الرهبان فتحتم عليهم العزوبة، ويتلمذون قبل قبولهم ليمعنوا في الصبر والتقوى، وذلك بأن يرسلوا إلى أحد الأديرة الواقعة في وسط الصحراء ويستخدموا في الأعمال الحقة المزرية. فإذا ظلوا بعد هذه التجربة مصرين على عزيمتهم، قبل اندراجهم في سلك الكهنوت، وتقرأ عليهم صلوات الموتى في حفلة تكريمهم لتمثيل موت الإنسان وفنائه في الحياة الدنيا. والرهبان كثيرون العدد جدا، ويعيشون عيشة أساسها الزهد والتقشف، فلا يحملون من الثياب إلا الصوف، ويميزون عن غيرهم بشريط من الصوف الأزرق سابل حول القلنسوة.

وللاقباط في القطر المصري إثني عشر أسقفا ينتخبون عادة من بين الرهبان أو القساوسة العزب، ويظلون طول مدة أسقفيتهم محافظين على الأساليب الصارمة لمعيشة الرهبان.

أما البطريق فهو رئيس الكنيسة الجالس على كرسى مار مرقص الذي يقول الأقباط إنه تولى تحويل المصريين من عقيدتهم الأولى إلى الديانة المسيحية. ويلقبونه ببطريك الإسكندرية، وأن يكون مقيما بالقاهرة.

وينتخب عادة من رهبان دير مار أنطونيوس القريب من البحر الأحمر. ويجوز أن يكون تعيين البطريك بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام في اختياره، أن يكون بواسطة الاقتراع.

وطريقة ذلك أنه إذا خلا الكرسي المرقصى انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو إثني عشر راهبا من المعروفين بالنسك والزهد والأهلية لحلول ذلك المركز السامى، ويكتب أسماءهم في قطع صغيرة من الورق بعضها في كيس بعد أن يجعلها في شكل الأنايب. ثم تخطط الأوراق بعضها ببعض خلطا جيدا، ويدخل أحد القساوسة يده في الكيس ويأخذ ورقة منها، فالذى يوجد اسمه مكتوبا فيها ينصب بطريكا ويعهد إليه الكرسي البطريكى. وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين، وأن يلبس من الملابس أقصرها. على أنه يبقى خاضعا لقواعد نظامية في غاية الصرامة والشدة منها أنه لا ينام إلا إذا أوقظ مرة في كل ربع ساعة ولبطاركة تأثير كبير في الأمة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهى ترجع إليهم غالبا في حسم منازعاتها وحل مشكلاتها.

٢٨- الزواج وتشيع الجنازات

يحصر الأقباط الزواج في دائرتهم بحيث لا يتعدى قط أفقها، فهو بينهم وأهل الديانات الأخرى محرم قطعاً. ويحتفلون به على الطريقة التى يتبعها المسلمون. وعندهم أن من بواعث العار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم.

أما الجنازات فليس فيها ما يستوقف النظر وغاية الامر أنهم، كالمسلمين، يستأجرون فيها المعدادات والندابات. والمرأة التى توفى «زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه إذا توفيت زوجته، فإنه يحمل حدادها نصف هذه المدة. والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لا يجوز له التزوج ثانيا خلال مدة الحداد.

٢٩- صناعات الأقباط وحرثهم

للأقباط مدارس كثيرة، ولكنها قاصرة على الأطفال. فالنساء اللاتى يعرفن القراءة والكتابة قليلات العدد جدا في الطائفة القبطية: والدروس التى تعلم ولاد في هذه المدارس هى مزامير داود (الزبور) والأنجيل ورسائل الرسل.

ويتكلم الأقباط باللغة العربية وبها يتفاهمون. أما لغة أجدادهم فلا يدرون منها شيئا، خصوصا في الوجه البحرى. ولا يزال الكثيرون منهم كما كانوا في عهد المماليك يشغلون وظائف الإدارة والمساحة وجباية الأموال. أما في المدن فيباشرون الحرف المختلفة، وفي القاهرة يزاولون الصياغة والتطريز، وفي مديرية منوف يصنعون حصر السمار، وفي مديرية الفيوم يستقطرون ماء الورد، وفي أسيوط ينسجون الكتان. ويزاولون فيما عدا هذه الصنائع مايزاوله بقية المصريين من أعمال الزراعة وما يرتبط بها.

(٤)

اليهود والأرمن واليونان والسوريون

الفقر الظاهرى لليهود - أخلاقهم - بغض المسلمين لليهود واحتقارهم إياهم - يهود دمشق - الصناعات التى يمارسها اليهود - الأرمن - اليونان - السوريون.

٣٠- الفقر الظاهرى لليهود

يسكن السواد الأعظم من يهود القطر المصرى مدينة القاهرة. ولهم فيها حى خاص بهم ضيق الطرقات مظلما قدر بلوث لوساخات مختلفة. وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهود أنفسهم فيه، كلما أرادوا ذلك، ليكونوا في معزل عن بقية سكان المدينة. ومنازلهم متلاحمة متراكمة إلى بعضها، رديئة التقسيم زرية الشكل. واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامح، أقل منه في أوروبا بينهم والأقوام التى يسكنونها. ومن عاداتهم لبس الثياب الرثة والأطمار البالية، وقد جبلوا على هذه العادة إلى درجة يخيل للناظر منها أنهم يزدهون بما هم متمرغون فيه من تلك الفاقة والمتربة. أما وجوههم فشاحبة اللون، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضى فيهم سببه الإفراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشريج.

٣١- أخلاقهم

تلاقت في يهود الشرق الأدنى الطباع والغرائز التى جعلتهم في القرون الوسطى مبغضين في أوروبا وممقوتين من الناس طرا. وهم مايرحوا إلى اليوم على ما فطروا عليه من الجشع والشح، لا تراهم يجتهدون في ستر ما لديهم

من الثروة عن الأنظار، والغالب على اليهود الجهل مع التدين، والتشيع للدين تشيعا يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى في أيامنا هذه.

ورغم ذلك فإنهم يمتازون بالنشاط والملاينة والمداهنة ومعالجة الصناعات المختلفة. ولا يترفعون عن الوسائل أيا كانت مادامت تكفل لهم الربح، قل أو كثر. أما أخلاقهم وعاداتهم فمبنية على الشدة والصرامة، لذلك كانت بعيدة عن مظنة الدنس والشوب.

ونساء اليهود تتحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجبا تاما. ولا سبيل إلى اتهامهن بما تتهم به المرأة التي تفرط في عفتها مع الرجل وتساومه على شرفها.

٣٢- بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الأخرى بغضا واحتقارا لليهود. ويرجع ذلك إلى ما وقر في نفوسهم من أن اليهود أكثر حقدا على الإسلام وكراهة له. فقد ورد في القرآن (المائدة): « لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة لذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ».

٣٣- يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه، كما فعل مع أهل الديانات الأخرى. فهم يتمتعون الآن في ظلال حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية، في سائر أجزاء السلطنة العثمانية. ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على ما لقيه اليهود من العناية والرعاية في عهد محمد على، حادثة يهود دمشق، وهى الحادثة التعسة التى دوى رنينها في أصقاع أوربا كافة. ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح إلى عدم التصديق به، ولكننى أقول لمن لا يؤمن بقولى ان مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفه. فلو أن تهمة كالتى وجهت إلى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق، وجهت قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية، لأفضت بلا ريب إلى إنزال

النقمة بالامة الاسرائيلية فيها وتسلط الناس عليها بالتخريب المتلف.

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن في قبضة وال كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممن لا يكثرثون بحياة الرعية، فإنه ما كان من المأمول مع طول التروى وإمعان النظر في القضية التى تورط اليوم فيها جملة من يهود الشام، الوصول إلى حلها حلا عادلا. أما الآن، وقد أحاط الوالى هذه القضية بجميع الضمانات الكفيلة بالعدل وعدم التحيز، وأصبحت إدارته الحكيمة في بلاد الشام بعيدة عن مزالق الانتقاد، فقد أقام الدليل الساطع على أنه يعمل بمحض الميل لخير الإنسانية.

٣٤- الصناعات التى يمارسها اليهود

يعالج اليهود من الصناعات ما يتطلب أدائها أكثر ما يكون من النشاط والحركة، وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والأخطار. فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش، وغيرهم يزاولون بيع الأمتعة القديمة أو يتدخلون بين الباعة والمشتريين لأداء مهمة السمسرة، أو يحترفون بالصاغة.. الخ. ومن اليهود فريق كبير يعانون الفقر ولا يعيشون إلا من الصدقات التى يتيحها لهم ذوو اليسر من أبناء دينهم.

٣٥- الأرمن

الأرمن قليلو العدد في مصر، والأسر المقيمة بها الآن هاجرت إليها مع الفاتحين العثمانيين. ولسنا بحاجة إلى ذكر التأثير العظيم الذى نتج عن مداخلة الأرمن، وهم على ما هو معروف من اقتدارهم ونفوذهم بالآستانة، في أعمال الحكومة المأجورة لباشوات، يتسلطون على إدارة الأقاليم. والباحث في أحوال بلاد الدولة العلية يخيّل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بين الأتراك والارمن، ملكا مشاعا مستقل هؤلاء بالنصف من خيراتها. ومن عاداتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين في تنقلاتهم من بلد إلى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة إلى مصر واستوطنوها.

وليس لارمن في القاهرة حى خاص بهم. وقد درجوا على أن ينظروا إلى الوطنيين بالعين التى ينظر الأتراك إليهم بها. فهم يعاملونهم بالعجرفة والصلف ويبرزون لهم في مظاهر الكبرياء والسمو، وبلغ من أمرهم في ذلك

أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم. والغالب عليهم اليسر وسعة الحال، لأنهم يعالجون صنوف التجارة ويشغلون باستثمار الأموال.. والعظماء الأذكىاء منهم هم الصرافون، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصنع الثياب وكراكي السمور وشغل الحديد. ويبدون الكثير من النشاط والهمة والأهلية في أداء هذه الأعمال التي زاولوها مزاوله تعلم وتدريب منذ نعومة أظفارهم.

٣٦- اليونان

في مصر طبقتان مختلفتان من الإغريق لم تختلطتا حتى الآن ببعضهما. الطبقة الأولى منهما سلالة الإغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصري قبل الفتح الإسلامي، وقد احتفظ هؤلاء بشيء كثير من السمات المميزة لأصلهم. ولا يتكلمون اليونانية وإنما لغتهم العربية، ويأولون من الصناعات النجارة والتطريز، ويتجرون بالقطاعي في كل شيء. أما الطبقة الأخرى فتشمل اليونان الذين هاجروا إلى مصر منذ فتحها العثمانيون، وجميعهم تقريباً يشتغلون بالتجارة.

ويقطن اليونانيون في القاهرة حين متباعدين: الحى الأول سمي أرض الروم (لعلها حارة الروم)، والآخر الحى المعروف بالجوانية. وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة، وسوادهم الأعظم على المذهب اليونانى المبتدع. ولهم ثلاثة معاهد دينية كبرى وهى: كنيسة مار نيقولاس التى يباشر شئونها بطريرك الأروام، ودير القديسة كاترينه فى الجوانية، ودير مار جرجس فى مصر العتيقة. وهذا الدير موضع احترام الأروام وتبجيلهم وهو عبارة عن قصر حصين يتعذر الولوج فيه من مدخله، وفيه كنيسة يصعد إليها بسلم ضيق مركب فى جدار سميك جدا. وفى الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الأراضى الخلوية المحاطة به. وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمعتوهين والمجانين إلى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الذى أطلق اسمه عليه.

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب فى شبه جزيرة مورِه. فلما جيء بهم إلى مصر بيعوا ببيع الأرقاء ثم اعتنقوا الديانة الإسلامية فتوصل بعضهم بذلك إلى أسمى المناصب فى الإدارة والجيش.

٣٧- السوريون

بدأ السوريون بالهجرة إلى مصر منذ قرن تقريبا، وكانت تدعوهم إليها الروابط العديدة التي تربط بلادهم بالقطر المصرى. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة، ولا يزال أعقابهم يسيرون على النهج الذى سلكه أجدادهم فأبأؤهم.

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليونانى، وقد حاول بطاركة المذهب المبتدع استدراجهم إلى الاندماج فى طائفتهم، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك. فلكى يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا إليهم فى كل سنة إتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش.

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحي من أهل سوريا وخمسمائة إلى ستمائة بدمياط، ومائتان إلى ثلاثمائة بالإسكندرية ورشيد. ويحرصون على جنسهم من اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب. فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعبدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغربية.

(٥)

الحالة السياسية للرعية

٣٨- يطلقون اسم «الرعية» على الأهالى الوطنيين الذين لا يدينون بالإسلام. والرعية فى تركيا أوروبا شطر الأمة الأكبر، أما فى مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا من الأنفس. وهو ما يؤخذ منه أن حالتهم السياسية فى القطر المصرى لا تؤثر تأثيرا كبيرا فى أعمال الحكومة، حاضرة أو مستقبلية، كما هو الشأن فى بقية بلاد الدولة العثمانية.

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعى دهشته طابع التطور الذى رسم به الأتراك كل شىء فى أنظمتهم السياسية. ولقد مضى زمن طويل قيل فيه أن الأتراك لا عمل لهم الا التنقل بخيلهم ورجلهم فى فسيح أملاكهم ولكننا رأينا، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم، أن هذا القول لا يزال صحيحا فى مدلوله الخاص به.

فإن العثمانيين لم يلحقوا المملكة التى أسسوها بشىء من عنصر البقاء ولقاح الحياة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القوة والجبروت تدبير

أنظمتهم الإدارية والعسكرية، إذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس. فإنهم لم يدركوا قط أن الاستقرار فى البلاد المفتوحة حديثا لا يستدعى احتلال أراضيها فقط، بل أيضا إفناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقه من مزج الأديان والأنظمة والأجناس بعضها ببعض. ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغاروا على أوروبا، إبان سقوط الدولة الرومانية، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الأمم المغلوبة بهم، ويتخذوا دينها دينا لهم، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بها. ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحياة تولد، مع حالتنا الاجتماعية الحاضرة، ما هو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة فى الأمم الأوروبية جميعا.

أما العثمانيون فقد ساروا - بالنظر إلى ازدهائهم برفعة عقيدتهم وسموها على سائر العقائد - على عكس الخطة المتقدمة فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا تحفوههم بعتاء، بل أقصوهم عنهم وعوملوا بالقهر وسيما بالمذلة. فلم يتوافر فى المملكة العثمانية، لهذا الباعث، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوى الذين يحملهما الفاتحون إلى المغلوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل، وعنصر المدينة الذى هو تراث الماضى مصونا بيد المغلوبين. ولم يتم فى تركيا ما تم بأوروبا فى القرون الوسطى من تلقيح الجسم - الذى أخذت تتلاشى حياته - بدم جديد كريم توافر فيه ما يحتاجه هذا الجسم الآيل إلى الفناء من عناصر القوة والتجديد. وكل ما حصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة.

قامت الدولة العثمانية على هذا الأساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح، ولم تحصل من الزمن على ضمان بالبقاء، إذ كانت مؤلفة من أمتين إحداها واقفة حيال الأخرى ومتصلة بها اتصالا لا انقطاع له، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما، وشعور كلاهما للأخرى فى نفسها بالازدراء والبغضاء.

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل أمتان لإحداهما على الأخرى التفوق فى العدد، وإن لم تكن قابضة على ناصية الشوكة والحكم

في الحال، والحقيقة التي لا ريب فيها أن وحدة الأمة شرط أساسي لا مفر منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره.

ومما أدهش ذوى العقول الراجحة ما يمكن أن يفضى إليه من النتائج انقسام شعوب تركيا إلى شطرين كبيرين. فقد قال أوركارت في كتابه (تركيا ووسائلها): «إن للرعية من المكانة والشوكة ما تستطيع به تعطيل إصلاح الدولة العثمانية وإعادتها إلى نشأتها الأولى».

وليلاحظ ما هناك من الفرق المشهود، من هذه الوجهة، بين مصر وبقية أملاك الدولة العثمانية. فإن مصر لا تخشى تفشى المنازعات الداخلية فيها، وكل ما تخشاه أن ترى النصف من سكانها يستصرخون بالأجانب ويدعونهم إلى قلب النصف الآخر والتحكم في أهله بالغلبة والقهر. ولنفرض جدلاً أن هناك أسباباً لتقليل التهم التي يوجهها خصوم مصر إلى حالتها الحاضرة. ولكنني أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرة لسائر الأجزاء، بتوافر الدلائل الراجحة فيه على حسن مستقبله، لتحقيق معنى الوحدة الجنسية فيه بحذاقها.

والرعية التابعون لدولة العثمانية لا يساهمون مع المسلمين فيما هو مفروض عليهم من الكلف والرسوم، ولا فيما هو ممنوع لهم من المزايا والخصائص في السياسة. فمن ذلك أنهم غير مطالبين بالتجند للدفاع عن حوزة الوطن، غير أنهم محرومون إزاء ذلك، من مساواتهم في الحقوق المدنية، فضلاً عن أدائهم إلى الخزينة ضرائب خاصة بهم إلخ. فالتقريب بين الرعية والمسلمين بإزالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر في الحقوق هما الغرضان اللذان يجب أن ترمى إليهما، في تركيا، كل سياسة رشيدة تتمنى من قلب سليم تجديد الدولة العثمانية وإعادتها سيرتها الأولى، والظاهر أن إلى هذه النتيجة تشرّب أعناق مستشارى السلطان، وفي طبيعتهم رشيد باشا الممتاز عليهم جميعاً بصراحة الأفكار وحريتها وصدق الميول إلى ناحية الخير.

وإذا أتيح لى أن أزجى إلى سمو والى مصر رأياً. فإنما أول ما أشير به عليه إقامة المساواة في الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية). وبدهى أن هذا العمل لا يكبده من الصعوبة والحيرة ما يكبد الباب العالى

منهما، لأن الرعية في حكومته أقل نفرا وأضعف شوكة منهم في بلاد الدولة العلية. فإذا سعى سعيه في هذا السبيل، عاد سعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار أن هذا العمل لم يكن إلا تجربة ضيقة النطاق، فإذا أفلح، وهو المرجو، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب في أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها. وفي هذه الحالة يكون بإمكان محمد على البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والإصلاح التي يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها. فإذا أتم ذلك بمعرفته فإنما يتم عملا بدأ به، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعية من ربة الاستعباد بقبولهم في المناصب الكبرى الإدارية واختيار المحافظين والمديرين منهم.

(٦)

الفرنجة

القناصل - التجار - الصنائع - مستخدمو الحكومة - أخلاق الإفرنج وطبائعهم - المسافرون والرحالة - شعور المسافرين - ما يستحقونه من اللوم - نصائح.

في جميع بلدان الشرق، يطلق اسم الفرنجة أو الإفرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الأوروبية. وقد رأينا - في غضون الكلام على سكان القطر المصري - أن عدد الإفرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريبا. ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها، وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة.

٣٩- القناصل

الطبقة الأولى جماعة القناصل والقنصليرية والأعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم. وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم.

وفي مصر قناصل جنرالية يقيمون بالإسكندرية. والدول الأوروبية التي ينوبون عنها هي فرنسا وروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولندا وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا.

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها.

أما القاهرة فالمباشر لشئون الأجانب فيها وكلاء بدرجة (فيس قنصل) في حين تتطلب أهمية هذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الأولى لما يوجبه ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها. فإنهم لا يحترمون الحكومات الأجنبية ووكلاءها، إلا بقدر ما يكون لها من جلال المظهر وحسن الهيئة. وللدول السالفة الذكر وكلاء في دمياط ورشيد والسويس وقنا والقصر تختارهم عادة بين أهالي القطر الذين يدينون بالنصرانية.

وعلى القناصل في بلاد الشرق أداء مهمة غير التى يقوم بها أمثالهم في أوربا. فإنه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقتنا مع الدولة العثمانية، كان الاختلاف بين أخلاق الأتراك وأنظمتهم وبينها عند الأمم الأوروبية عظيما إلى أحد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الإفرنج بمقتضاها، وتوسيع نطاق اختصاصات القناصل، وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمنوطين بحمايتهم، على وجه يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا في أى بلد غير ذلك البلد. وسبب ذلك أن الأتراك — لما فطروا عليه من التوحش والهمجية — كانوا لا يكفون عن استعبادهم بوسائل القهر والإذلال، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى من القناصل همة ويقظة لا تنقطع، فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات الدول الأوروبية في الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة، إلى أن تصبح الأخلاق والأنظمة في الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها في الديار الغربية.

ويميز القناصل الجنراليون للدول في الإسكندرية، على زملائهم في سائر بلاد الشرق الأدنى، ويسمون عليهم في رفعة القدر. لأن الدرجة التى بلغت مصر إليها في العالم السياسى، منذ قبض محمد على على زمام شئونها، أفضت بحكم التبعية إلى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة الوالى إلى مكانة تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأنًا وأعظم حظوة مما كان، ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء، لأنهم لا يقتصرون على حيطة المصالح

التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية . بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمرا ليرفعوا إليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة. فالشأن الخاص الذى صار إليه القنصل الجنرال فى الإسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب إذن تحويل هذا المنصب إلى مركز سياسى بحيث تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى إلى معتمد سياسى.

ولكل من انكلترا وروسيا وكيل خاص عهد إليه النظر فى الشئون السياسية. فخليق بالدولة الفرنسية أن ترفع إلى مستوى هاتين الدولتين. لاسيما وأن اهتمامها المتواصل بشئون مصر وتأييدها محمد على فيما يبذله من الجهود الجليلة لما يدل دلالة واضحة على أنها بإنابقتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملافية وليا عظيما لا باشا من مطلق الباشوات الكثيرين.

ثم إنه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الأخيرة إلى قنصل خاص بها. وغير خاف ما للشئون التجارية من الأهمية العظمى، فإذا اعتبرنا الأحوال الحاضرة فإن القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيرا والمشاكل عظيمة بالنسبة إلى اضطرابه من جهة أخرى للنظر فى شئون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى.

يتولى القنصل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يديرها بمقتضى الأوامر والقوانين المعمول بها فى كل الشرق، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الأمة المنتخبين من الأعيان فى القضايا المدنية والجنائية، ويبرز فى الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك.

وللقنصل الجنرال، فضلا عما تقدم، الحق فى حماية جميع الأديرة أما معاهد نشر الديانة المسيحية، فحمايتها من حق القنصل وهى داخلة فى دائرة اختصاصه.

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا فى المملكة العثمانية وإعلاء شأنهم توفير

ما ينبغي من الوسائل لقيامهم بالمهمة الموكولة إليهم ليكونوا أهلا للثقة التي وضعتها فيهم حكوماتهم. ومن المرغوب فيه أيضا تزويد السلطة القنصلية بالقوة الكافية، وأن لا يسمح بوجه ما لأحد من أبناء وطننا التوصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهانها. والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظة على النظام بين أفراد التبعة الفرنسية وتطهيره - مادام النظر في شئونها موكولا إليهم - من أدران المحتالين والداسسين الذين لا إلا = عهدا = لهم ولازمة، الذين يلوثون سمعة أمتهم باغتنامهم فرصة طيبة الشعب المصري واستنামته إليهم لا يتراز أمواله وانتحالهم ما ليس لهم من الألقاب والصفات للتغريب بهم. ويجب أيضا إلزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل.

٤٠- التجار بالجملة

الطبقة الثانية من الإفرنج تتألف من كبار التجار. وهم يقيمون غالبا في الإسكندرية، وعددهم الآن أربعون، يقيم بعضهم بالبلاد مع أسرهم منذ سنوات عديدة. ولا يتضمن عددهم طبعاً التجار بالقطاعي، إنما ينبغي أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنزل رؤسائهم التجار.

٤١- التجار بالقطاعي

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجار بالتجزئة، وبالإسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الأوربيين يباع في بعضها القماش وفي البعض الآخر الزجاج أو الجواهر. والأزياء الحديثة.. الخ.. وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضائع على اختلاف أصنافها. أما مخازن الأزياء المستحدثة فإنها من استجماع أسباب النظام والكمال بحيث تستطيع إيقاف زبائننا على حركة الأزياء المستحدثة بأوروبا.

وتحتوى الإسكندرية ثمانية مطاعم أو عشرة للفرنسيين والإنجليز والإيطاليين على ما يرام من النظام، وقهوات جميلة تقدم فيها الشيكولاتا على الطريقة الأوربية، وفي فصل الصيف أنواع الجليد المحلى = الجيلاتى = الذى يرد الثلج اللازم لتبريده من بلاد كرامانيا ولفطاطرية الإفرنج بالإسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهم وهم يربحون ربحا لا بأس به. وفي القاهرة مطاعم عديدة على الطراز الأوروبى.

٤٢- أرباب الصنائع والحرف

أما طبقة الصنائع فتتألف من النجارين والبنائين وصانعي الأقفال والكوالين والسمكرية والنحاسين وصانعي المركبات والصيغ والجواهرية والساعاتية وصانعي الأحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الأزياء الحديثة للسيدات.

٤٣- موظفو الحكومة

تتألف من الأوروبيين المنتظمين في خدمة الحكومة طبقة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر للذهن أول وهلة. ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما في الجيش. هذا كل عددهم الذى يتوهمون بأوروبا أنه يتجاوز بضع مئات بل بضعة ألوف، ولقد كانوا أيام تشكيل الجيوش البحرية بمقتضى النظام الجديد أكثر عددا منهم الآن، ولكن عددهم قل كثيرا منذ تدريب الجنود المصريين، ولم تعد الحاجة ماسة إلى الأوروبيين في تعليمها الفنون العسكرية. أما المدارس ففيها نحو العشرين إلى الخمسة والعشرين أستاذا أوروبيا أغلبهم من الفرنسيين وأما مصانع الحكومة وفابريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصناع فيها. وبين موظفى الإدارة بعض الإفرنج يؤخذ من إحصائهم والإحصاء المتقدم أن عدد الأوروبيين الذين في خدمة سمو الوالى لم يكن من الكثرة بما ذهب إليه الظن واتجه خاطر.. ولا جرم فإن بدهيا أن يكون اهتمام محمد على منصرفا إلى استخدام أكبر عدد ممكن من أفراد رعيته، وأن يتخلص من الوصاية التى كان لابد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت في استمداد أوربا والاستعانة بها على كل أمر من أمورها. وهى نزعة وطنية محمودة العقبى، غير أننى ألاحظ أن فيها مبالغة وشططا. إذ لا يخفى أن الأنظمة الجديدة تحتاج في حفظ كيائها إلى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجها أن تذهب ضيائها حتى يتيسر أطراد السير في سبيل التقدم والفلاح. وهذا يستدعى الاستمرار على طلب المعونة من الأوروبيين والاسترشاد بهم.

٤٤- طباع الإفرنج وأخلاقهم

إن الأوروبيين الذين ذكرت نتفا من أحوال طبقاتهم، تتألف منهم جماعات

يلم شتاتها أحياء خاصة بهم. وفما يؤثر عنها التشدد في رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة في تطبيقها. فإن أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لا يجوز لهم أن يتعدوا في علاقتهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم. ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع في الإنفاق على ما هو مألوف في الهيئات الاجتماعية الاستعمارية، وتحري البذخ والأبهة في الآثاث والرياش والثياب، وتعقب الأزياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والحضور فيها. وغالبا ما تقيم الحفلات الليلية الفخمة، وتعد المعدات الباهرة لإقامة المراقص التي تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق في التنميق والتنسيق. وفي الإسكندرية معهدان صغيران في الغاية القصوى من إحكام الترتيب وجمال الزخرف لتمثيل الروايات على اختلاف موضوعاتها، وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الإيطالية وكان بناؤهما على نفقة بعض هواة الفن، ويتسم الإفرنج برقة مقرونة بمظاهر الأدب وإكرام مثوى الزائرين وبسط الكف بالمال لذوى الحاجة، حتى أنهم كثيرا ما يوافون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك إلى الخمسمائة. ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالأموال التي كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما. وقد أنشأوا بالإسكندرية مستشفى يتولون الإنفاق عليه من صفوة مالهم، ويعالجون فيه الصنّاع والبحرية وسائر الإفرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشئونهم في منازلهم، أثناء علاجهم.

وما يؤسفني ذكره هنا ما لاحظته في الأخلاق والآداب بين الجالية الأفرنجية، من التجوز والترخص. فحيل الغرام أو دسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة، ولكن هذا الانحلال الخلقي لاينفى وجود أشخاص وأسرار على غاية ما يراد من العفة واستقامة الأحوال والمحافظة على نواميس الآداب والتدقيق في رعاية ما يليق وما لا يليق. وهؤلاء خير قدوة لمن يجب أن يستن بسنتهم في الفضائل ومكارم الأخلاق.

٢٥- الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دوما، فيما عدا طبقات الأوروبيين الذين سبق الكلام عليهم، عدد غير معين من المسافرين يفضى البحث في طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم إلى الانتقاد الشديد.

إن الأسباب التي يستند الأوروبيون إليها في اعتزام زيارة القطر المصري كثيرة ومختلفة. فبعضهم وهم الرحالة الحقيقيون يقصدون بزيارتهم الانتفاع في أوقات فراغهم بعمل ما يجهلونه، فهم كالنحل يتنقلون من زهرة إلى زهرة لاجتناء ما يطمحون إليه من ثمرات العلوم والفنون، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والكتاب يقصدون بالزيارة حل رموز العلم وتلقى آيات الوحي في أقدم معهد للفنون بل في الأرض التي أغدقت عليها الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتها بالطرف النادرة واللطائف المستملحة، وتحوم في جوها ذكريات ترجع في القدم إلى بضعة آلاف من السنين، وهناك فريق ثالث يشخص إلى مصر في طلب المال، وسوادهم الأعظم من رجال العسكرية والتجار والأطباء والمهندسين وذوى الابتكار لمشروعات والواقفين على الأسرار العجيبة وغيرهم ممن رفضت اختراعاتهم واستكشافاتهم في أوربا، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها بأرضها العذراء.

وممن يحضرون إلى مصر التماسا للنزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العالية والمراتب الخطيرة. وهؤلاء يعاملون بما هم أهل له من الإكبار والإجلال، إذ يحتفى سمو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهم ويبدل المستطاع في العناية بهم وحسن الالتفات إليهم، وكثيرا ما يخصص لنزولهم أحد قصوره الباذخة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولته. وإنا لنذكر بهذه المناسبة الحفاوة الباهرة التي لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بوكار مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى.

أما السياح الذين لا ألقاب لهم ولا شهرة، وإنما هم على شئ من الغنى واليسر، فيجوبون القطر المصري في أمن وسلام، ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات. وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا (١) أى

(١) كان هذا فرمان يكتب كما يلي :

من ديواننا في سنة من الهجرة

إن صديقنا القديم الحميم المسير . تذكر هنا الجنسية . جاء إلى أملاكنا ليزور المعابد الأثرية وغيرها من الأماكن المقدسة له في أبحاثه . وقد قدمه إلينا جناب قنصله . وبناء عليه قد سلمنا فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته في طول أملاكنا وعرضها .

فعلى المديرين والمأمورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين، وبالجمل كل من يقدم إليهم هذا فرمان أن يعنوا بأمره ويهتموا بإداء الخدم التي يروم منهم قضاءها حتى لا ترفع إلينا منه شكوى فيما بعد . ونوصيكم بعمل ما يلزم كي لا يلحقه حيف أو يوجه إليه شتم من الفلاحين أو غيرهم وأن تبادلوا بموافاته بكل ما يحتاج إليه، وأن لا يدفع ثمنه عنه إلا ما يطابق السعر الجارى في البلاد وذلك فيما يختص بأجر الدواب أو المراكب وثمان الأغذية الخ ... وأنى اعتبر أن الخدمات التي ستؤدونها إليه كأنها أديت إلينا بالذات .

نوعاً من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التي هم تابعون إليها.

٤٦- تأثير الزيارة في نفوس السياح

التأثيرات التي تتركها مصر في نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف. واختلافها تابع لغرائزهم وأمزجتهم، فإن بعضهم يصلون إلى ضفاف النيل وأدمغتهم ملأى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم، فاستقر في أخلاقهم أنهم سيجدون بمصر - فيما عدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب الراحة والهناءة والمزايا المادية التي هي ثمرة الحضارة والآثار القديمة - عادات وأخلاقاً تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يمتنون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم إياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر في أخلاقهم أن بلد الأهرام وأبى الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقة كما هو في أوروبا، بل متى علموا أنهم لا يستطيعون الذهاب إلى الأهرام في السكة الحديدية، وأن ليس هناك طريق سلطاني أو إقليمي أو زراعي يصل الإسكندرية أو القاهرة بأطلال الكرنك والاقصر الضخمة الفخمة، لا تلبث هذه الخيبة أن تتحول عندهم إلى شكوى مرة أو كراهة بالغة أو غيرهما مما يجعلهم يرون الأشخاص والأشياء في غير مظهرها الحقيقي، فيؤدى خطأ الحس حتماً إلى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته.

ولا يهمهم من الأمر أن يكون الجو معتدلاً، والسماء صافية الأديم، ماداموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق. ومن أين لهم، - وهذه حالتهم النفسية - التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين ييثان في الجسم والنفس نشوة السرور والفرح، بل إذا كانت أنظارهم تقع على ما تثيره الرياح من الإعصار فيكفى هذا لكي يتأهبوا للقاء يوم عبوس قمطير. ومع اعترافهم بخصوبة الأرض، تراهم يقولون إن مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبث اليأس والقنوط في النفوس لتجانسها وسذاجتها، دع أنهم لاتهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الأرض لا تعدو كونها شريطاً ممتداً وسط الصحراء القاحلة. ويضيفون إلى ماتقدم قولهم إن الآثار القديمة ضخمة جليلة، وأن ما تثيره من جليل الذكرى يتجة إلى خاطر الرائي ويناجي

فؤاده، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل، وسكانها رجالا ونساء لا يستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد. أما الأطفال فمجردون من الثياب بالمرة، تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الأمراض المختلفة، وأن كل شيء تنبو عنه الأنظار لقبيحة وبشاعته. يضاف إلى ما تقدم كله ما يستشعر الغريب به من القلق والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة، ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والموانع ما يبعث على الضجر والمل في كل آن.

لهذه الاسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شيء سوادا، لا يتنفسون الصعداء إلا إذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التي تنزح بهم عنها، وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد فإذا ما عادوا إلى مواطنهم واستقر بهم النوى، وكبر تأثر نفوسهم بما أصابهم من الفشل والخيبة في رحلتهم، أطلقوا لأستنتهم العنان في ميدان ذم مصر والطنن في أهلها، كلما سنحت لهم فرصة، وإذا عمدوا إلى تدوين رحلتهم أبرزوها في ثوب مبرقش بألوان لا تطابق الحق والعدل في شيء.

وهناك فريق من السياح يذهب الغلو في عكس ما شرحناه من الشعور والتأثر، فإنهم لإعجابهم بكل جيد وتحمسهم له وشرهم إلى استطلاع ما يدعوهم إلى العجب والدهش، لا يستثنون من إعجابهم ودهشهم شيئا مما تقع عليه أبصارهم. ففي نظر هذا الفريق، ينبغى أن يشمل إعجابهم واستحسانهم المرثيات التي تلفت أنظارهم، سواء في ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ.

لهذا السبب تراهم يسارعون إلى تقليد طرائق المسلمين في المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم، حتى لقد صار من التقليد الشائع بين الذين يصلون حديثا من الإفرنج، أن يكتسوا في أقرب وقت بالثياب الشرقية. ومع أن الذين يلبسون الملابس الأوروبية لا ينقص احترامهم في نظر الناس بسبب لبسهم إياها بل يزيد، فإن أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذي نزلوا فيه، بينما هم لا يقصدون في الحقيقة إقضاء حاجة في نفس يعقوب، فيكون من أشهى الأشياء إليهم أن رأوا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا إلى جانبهم سيفا. والذين يزعمون

أنهم من الفنانين والعارفين بأسرار الثياب، يفرطون من التشيع للثياب الإسلامية القديمة بما يدعو الناس إلى انتقادهم والتهكم عليهم. فإنهم يتعملون الرفق بالشرقيين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا. ومع أن استعمال العمة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئاً فشيئاً بحيث أصبح استعمالها لا يتعدى أهل الطبقة الدنيا إلا قليلاً، فلا يزالون يتعممون بها. كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريري الذي كان الشرقيون يحملون به السيف قديماً على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض

وهناك فريق تمكن منهم حب التقليد إلى حد السير على الأرض حفاة الأقدام. فيخيل للناظر إليهم أنهم أصبحوا بحيث لا يعرفون كيف يجلسون على الكراسى، وأنهم لكى يوقوا أنفسهم ضر الجلوس متربعين على الدواوين، لا مناص لهم من معاناة بعض الألم. ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الأوضاع وحمل الثياب تستدعى — بالرغم من مزاعم أولئك الزاعمين — الاختبار والدرية. وإنه ليكفى أن يتنبه الإنسان لما هناك من التصنع والكلفة في اختيار الثياب الشرقية وتسوية بعض أجزائها، وفي خطأ الحركات والأوضاع في الجلوس والمشى، لتمييز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه، ومعرفة المقلدين الأوربيين المنتكرين بالثياب الشرقية بعد اطراحهم الثياب الأفرنجية على أن هذا لا ينفى وجود لفيف من السياح ذوى عقول راجحة ينصفون في الحكم، ويتحامون التحيز والمتحاشين لغلو من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدرّون البلاد وسكانها والأشخاص والأشياء حق قدرها، فلا يأنفون من الرضوخ لمطالب الوسط وحكم العادات. بل يستطيعون الحكم حكماً صائباً على مصر التى أتاح لهم استغدادهم العقلى البحث فى شئونها بحثاً تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجزيلة.

٤٧- أصحاب المشروعات

إن أصحاب المشروعات الذين يصلون أفواجا إلى مصر، يزودون عادة برسائل التوصية. والمشتغلون منهم بالفنون العسكرية يقترحون على الحكومة المصرية الأساليب المستحدثة لتدبير القتال، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضاعها فى ميدان الحرب. ومنهم خبراء فى الشئون

المدفعية يقدمون إليها قذائف يقولون عنها إنها أصلح ما يكون لإحراق المواقع الحصينة وأفتك ما شوهد بالدوننمات. ومنهم من يكاشفها بسر تركيب السفن الغواصة أو يقترحون عليها الوسائل المختلفة لرفع الماء مؤكدين بأنها إذا روعيت تجيء بالمعجزات المدهشات، أو يرفعون إليها مشروعا بصنع آلات يعزون إلى قوة عجيبة منها، وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكر هنا على وجه خاص، أنها جربت مئات المرات وآلافها فأدى الامتحان إلى إصابة أصحابها بالفشل والامتهان.

ولقد رأينا فيما شهدناه بمصر أطباء من الدجالين يزينون للناس أنهم يملكون من أسرار طرق العلاج ما يمتدحون لهم تأثيره الفعال ونتيجته المحققة النفع. وقد جاء أحدهم، وهو من أهل مذهب الأوميوباتيا في العلاج، بدواء خاص أطرى فوائده، وقال بصدق تأثيره في الأمراض الثلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهي: الدوسنتاريا والرمم الصيدي والطاعون. واقترح، تحبيذا لهذا الدواء، إلغاء النقالات العلاجية. إذ قال إنه يكفي الطبيب أن يكون في جيبه علبة صغيرة من الأدوية لمعالجة جميع المرضى في إحدى فرق الجيش أو في أحد المستشفيات. حقا إنه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية في الأمراض التي تستدعى العمليات الجراحية، بل جهر بأن علاج الجراح الناتجة من الرصاص والسلاح الأبيض تخرج من اختصاصه، وأنه يكل العناية بأمورها إلى الطب العادي. وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزاعم زميله المتقدم، إذ جعل اختصاصه ادعاء القدرة على انقاذ مصر كلها من فتكات الرمم الصيدي. ولقد كان هذا الرجل أسعد الأفاكين الذي وجد من ديباجته وأشدهم دهاء ومكرا. إذ استطاع، زمنا ما، التغرير بالناس وإدخال الغش عليهم فسهل له ابتزاز أموالهم على وجه فاضح جدا. ومما ينبغي الاعتراف به سرعة انخداع الأوربيين بتغريرات من لازمة لهم من المتشردين والأفاكين على أثر ما يظهرونه من المجاملة والتسامح، بغير روية نحو أفراد هذه الطبقة. فإنهم يسارعون إلى تزويدهم بكتب التوصية على جهل منهم بحقيقة أمرهم وجليية خبرهم، وهو ما جعلهم يلقون من مظاهر الإجلال والتكريم — لدى وصولهم إلى مصر — ما لا يستقبل بمثله إلا الكبراء والعظماء. وماهم في الحقيقة إلا لصوصا يتبرا الرجل الشريف من معرفته بهم.

وفي استطاعتي أن أورد هنا حوادث عديدة ليس منها إلا ما يدعو إلى العجب والدهشة. ولكنني أجتزئ منها بحادثة البارون (دى ولفنجن) الشهير الذى استقبل استقبالا باهرا من أهل الإسكندرية إجلالا لقبه الدال على علو القدر ونباهة الذكر، وتقديرا لكتب التوصية العديدة التى زود بها. فقد بدا هذا الأفاق الحاذق بالنزول فى دار جليلة تبدو عليها مظاهر الأبهة والبذخ، وإنفاق المال عن سعة وبذل، واستقبال الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة. وكان لا يدور حديثه معهم إلا عن قصوره الشامخة وأمواله الزاخرة وخيراته الوافرة. فكانوا يتسابقون إليه جميعا رجاء أن يتفضل عليهم بإصدار أمر أو الإعراب عن أمنية ليتباروا فى تحقيقها على الفور، وما من أحد منهم إلا وتقدم إليه بماله يسأله التعطف عليه بقوله، وما من حفلة ليلية شائقة الا وأقيمت عنده أو جمعية صفاء وهناء إلا وأخذت مجلسها فى بهوه. واندرج جميع الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثل بين يدى البارون والذى كان - والحقيقة - من أعرف الناس بأساليب الطف والإيناس وأوسعهم إلماما بطرق مقابلتهم ومجاملتهم على ما تقتضيه مراسم الأدب. وما كانت تقع الأنظار على ذى حيثية سائرا فى الطريق إلا ويجاوبك على سؤالك إياه: إلى أين أنت ذاهب؟ إننى أقصد البارون. يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلف الذى دب فى نفسه، ولا يحس عادة به سوى من يدعى إلى لقاء ملك جليل الشأن.

وما كان أعظم يأس أولئك المغرورين وأشد شعورهم بالفشل حينما حامت الشكوك حول ذلك الثرى العظيم وأصبحت يده صفرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله. فإنه لم يتمالك أن نبه أولئك الحمقى ذات يوم بحقيقة أمره إذ قال: أن أمواله الطائلة وقصوره المشيدة فى ألمانيا، لم توجد قط إلا فى مخيلته أثناء حديثه عنها وفى حماقة الذين سلموا اعتباطا بمبالغاته فيها.

وقد خسر هؤلاء من جراء سذاجتهم وحسن اعتقادهم فى هذا اللص ما لا يقل عن خمسين ألف فرنك إلى ستين ألفا. ولقد كانت هذه المبالغ وافرة بالنظر إلى المدة القصيرة التى أقامها ذلك المحتال بالإسكندرية، وهى نحو خمسة عشر شهرا إلى ثمانية عشر.

٤٨- لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتفريع الشديد، لأنهم متى وصلوا إلى هذا القطر ووطئت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم إلى الترهات والأقاويل التي تحملهم على إساءة الظن بالنزلاء الأوربيين والتسليم، من غير بحث بأنهم في حالة يرثى لها من التأخر، وأنهم هم الذين يحملون إليه وحده مشاعل العلم والعرفان. وترى البعض منهم يصدرن الأحكام الجازمة في المسائل الإدارية ويرون فيها رأيهم البات قبل أن يلموا بشيء من أحوال الوسط وساكنيه. بل ويجرءون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته ونظامها. وربما بلغ الطيش بهم أحيانا إلى إتهام الأوربيين الموظفين في حكومته بقلّة الكفاءة وشدة الجهل، لأن بعض ما تم على أيديهم من الإصلاح لم يرق في نظرهم إما لأنه لا يفيد البلاد فائدة مؤكدة وإما لأن حقيقة ماقد يعترضه من الموانع يكون لا قبل لأحد على دفعه.

وخطأ ذلك الفريق أنهم، قبل رحيلهم إلى مصر، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب. فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها ما لم يعرفه غيرهم من الأوربيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بأداب المجاملة. ويرون أن من بواعث السرور ودواعى الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق، وأن يعيثوا بالحرية التي منحها سمو الأمير للأوربيين من فيوض مكارمه. فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الأوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض آراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل.

ويتبع هذا الفريق فريق آخر سلكوا مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدنية التى ينتسبون إليها وذلك لأنهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مردولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون، جهارا نهارا، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكبرياج. ولأجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم إلى مصر بالكرابيج يضربون بها — من غير رحمة ولا سبب معقول — الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشياءهم

باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب، وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الأمتعة برسمهم من مكان إلى مكان.

٤٩- نصائح إلى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون إلى الإسكندرية أن يقصدوا - بعد نزولهم من السفن مباشرة - إلى دور القناصل الذين ينتمون إلى دولهم كي يحصلوا لهم على الفرمان الذى يسمح بتنقلهم في البلاد وطوافهم في أنحائها وجوبهم أطرافها. فإذا لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة إلى واحد من أبناء وطنهم المستعدين لإيوائهم وإكرام مثواهم مدة إقامتهم بذلك الثغر، فإنهم يجدون في هذه المدينة من الفنادق والمطاعم ما يليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع المل والنحل.

ويجب عليهم - إذا هموا بالسفر إلى القاهرة - استئجار قارب أو زورق يصلون به إلى النيل عن طريق برعة المحمودية، وهذه المسافة تقطع عادة في نحو اثني عشرة ساعة أو أربع عشرة. وفي نهاية التربة - أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القرية من قوة، ينزل الركاب من ذلك الزورق إلى قارب آخر يصعد بهم في النيل إلى مدينة القاهرة، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه. فإذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين إلى ثلاثة أيام أما إذا لم تكن موافقة فربما استغرقت ثمانية أيام وأحياناً خمسة عشر يوماً، ومهما يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدة بطئها، فعلى المسافر التذرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول إلى القاهرة، لأن هذا الطريق متعب للغاية لاسيما وأن نظام النقل بين الإسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن.

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية إلى القاهرة تختلف من خمسين فرنكا إلى ستين للقوارب العادية، وتزيد على ذلك بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره. وإذا كان المسافرون عديدين فإن الأجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لا يكاد يذكر من المال، والنزول من المراكب - عند وصولها إلى القاهرة - يكون في بولاق، مرفأ هذه العاصمة وموردها.

ويحسن للمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام إلى خمسة عشر

يوما. والحقيقة أن خمسة أيام منها أو ستة تكفى لزيارة مايبهم الأجانب الإطلاع عليه كالأسواق والمستشفيات ودور الصناعة (الترسانات) والفوربقات والمدارس والمقابر وأهرام الجيزة وسقارة.

وبعد ذلك يعد معداته للصعود في الوجه القبلى حيث الآثار التى تلفت أنظار الرحالين. والواجب قبل كل شىء، فى هذه الحالة، الحصول على قارب جيد واستئجاره بأجرة تختلف من ألف قرش إلى ألف وثمانمئة شهريا، وتتضمن هذه الأجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره. والأفضل أن يحرر مع الرئيس صاحب المركب أو ربانها عقدا لبرازه عند الحاجة لدى السلطة المحلية، خصوصا إذا لم يف صاحب القارب بوعوده ولم يقم بعهوده. ومما يفيد المسافرين كثيرا، أن يكون استئجار القارب بالشهور لا باليوم، ويحسن به الاحتياط، فيأخذ معه بعض مايلزمه من المؤن كالبن والسكر وغيرهما من الأشياء التى يتعذر الحصول عليها داخل البلاد. أما اللحم والبقول والخضر والفواكه والبيض واللبن الخ. فالحصول عليها ميسور على طول الطريق بأبخس الأثمان.

ولابد - قبل مبارحة القاهرة - من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة، ويشترط معه فى ذلك أن يكون ملما باللغتين التركية والعربية. ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئة وخمسين قرشا شهريا. وغنى عن البيان أن الترجمة المصريين لا تتوافر فيهم الشروط المتوافرة فى الترجمة والادلاء الإيطاليين حذقا وإماما بالشئون العامة. فإنه إذا كان الترجمة لا يدرون قليلا من تاريخ الآثار التى اعتزم الرحالة زيارتها، فلا مناص لهم من محاولة التفاهم بشأنها مع أهل البلاد، وربما اضطرتهم الضرورة إلى مواجهة السلطة المحلية لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والإلمام به.

وإذا كانت الريح موافقة عند السفر من القاهرة، فمن الأنسب الصعود فى النيل إلى أقصى نقطة منه فى القطر المصرى، ومن ثم يسهل عليهم فى أى وقت شاءوا العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسو بحسب الإرادة فى الأماكن والبقاع التى ينوون زيارتها على الضفتين، لأن المركب يكون فى هذه الحالة مسوقا بقوة التيار.

الحكومة والأنظمة السياسية

١ - أسباب ظهور الحركة المدنية

فى الشرق منذ هذا القرن

١- لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هذا الزمن وتتجل
للأنظار آثار قوة انبعاثها، لما عدت المسألة الشرقية التى يعتبرها رجال
الصحف وأساطين السياسة كافة سنوات عديدة، تلك الوجفة التى زلزلت
أركان العالم السياسى فى هذه الأيام.

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئاً ما من مظاهر حضارتنا،
لما حركت أوربا نبضاً أو اشراب لها عنق اهتماماً بأمره. بل لما شك أحد فى
سقوط تركيا من علوة مجدها.

فبدهى إذن أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات
حركتها منذ أوائل هذا الجيل.

فإذا كان ما نشهده فى الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن
والحد الأقصى لشوط التقدم المستمر، فليس بمستطاع الجواب فى بضع كلمات،
على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درساً خاصاً وبحثاً عميقاً يتناول
الدولة التركية فى شئونها الداخلية كافة.

وإنما الحركة الحاضرة إحدى الحركات الطرآنية = الطارئة = التى
لايتأتى انبعاثها من جماعات الناس، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين. فلا
بد أن يكون هنا إذا باعث كبير طراً، هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث
خطير لن يتعذر على أحد استكشافه

وللحوادث العظمى دواما - على ما هو مقرر ومفهوم - نتائج لا ينتظر الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها في الحين الذى تقع فيه. ففي سلسلة الحوادث التى لا يعدو المرء أن يكون فيها مسوقا بقوة إلى غاية جهلها، تتجلى القوة الإلهية المهيمنة على شئون البشر جميعا. ولقد فطر الإنسان على حب استكشاف الصلة السرية التى تربط الحوادث بعضها ببعض، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة.

فمقدمة حركة الحضارة التى بدت أشارها الآن في الشرق هي الحملة الفرنسية في مصر.

لم يوفق نابليون بونابرت فقط لتحديد مجرى الأحوال في أوربا والإشاعة باسمه في طول هذه القارة وعرضها، بل هزت يده القوى الأساطين التى ظن الشرق القديم أنها دعامة بنائه التى لا يزلزلها الحدثان. ولما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه لم استطع الجزم في هل كان أثره في آسيا أقل من أثره في بلاد الغرب.

أما الحملة الفرنسية التى ساقى إلى مصر أشجع فرق الحرب الإيطالية، أى الجنود الذين عادوا مكملين بأكاليل المجد والغلبة في وقائع (لووى) و(أركول) فقد كانت أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق فأيقظته منزعجا من سباته الطويل.. وكانت الأساليب القديمة فيه قد بقيت إلى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل. وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد الروسيا والنمسا. ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى. لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من عقائدها التى أكل الدهر عليها وشرب. ومع هذا فإن الروسين والنمسيوين لم تقتف المدنية أثر جيوشهم. لأنهم لم تكن لهم مصلحة في نشر أنوار العلوم والمعارف بين الأتراك، وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر، وأنه لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة. وذلك لأن ذكرى فتوحاتها القديمة كانت لا تزال عالقة بأذهانهم، ولأن الدول الأوربية لم تنتزع هذا الوهم من نفوسهم ولم ترشدهم إلى الصواب من أمرهم، بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا في نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قراصنة المغاربة الذين كانوا، في ذلك

الوقت، يقاتلون أوربا ويجبهون الدول جمعاء بجراتهم ويفرضون عليها صنوف الفدى وأنواع الإتاوات.

ومن جهة أخرى، كان المماليك القابضون على زمام الحكم والسيادة في مصر يعتقدون أنهم في طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب، كما تثبته لك النادرة التالية التي تشير من جهة أخرى إلى ما بلغ إليه أولئك البكوات من الضعف المزوج بالحمق المضحك والجهل المزرى بهم.

لما استولى بونابرت على جزيرة مالطة أراد المسيو (روسيتي) قنصل النمسا وبعض الدول الأخرى في القاهرة وقتئذ وأحد أكابر تجار القاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطول والكلمة المسموعة لدى المماليك، إذ كان القيم على تدبير شئونهم والمتعهد بتوريد ما يلزم من حاجياتهم، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته.

فبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم، وكاشفه بهواجسه وما وقع في نفسه من عزم الفرنسيين على النزول إلى بر مصر، وألح عليه في اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن حياضها، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن قهقهه ضحكا حتى كاد يستلقى على قدميه وقال: ما مرادك من إخافتنا بالفرنسيين؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات- التجار- الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفيني، إذا نزلوا إلى بر مصر في مائة ألف من رجالهم، أن أبعث للقائهم بعض التلاميذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب (١) فحاول المسيو روسيتي جهده عندئذ لإقناعه بأن الفرنسيين قد فازوا بالنصر المبين في إيطاليا، وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم في أسواق القاهرة. ثم أعاد كرة الإلحاح بتحسين الإسكندرية، فلم يأت تحذيره إياه بفائدة، لأنه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجامله، فأرسل إلى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لدافعها.

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستولوا عليها وانتهى هذا النبأ إلى علم مراد بك فاستدعى المسيو (روسيتي) على الفور، وقال له بصوت المغضب: إن أولئك الفرنسيين الوقحاء

(١) كان المماليك يتخذون في استوائهم على خيلهم ركابا عريضا قاطعا من ضلعيه الأمامي والخلفي وكانوا يستعملونه كسلاح قاطع ضد المشاة والفرسان من العدو بل ضد خيل مؤلاء فيصيبونها بالجراح البالغة.

اجترأوا على وطء ثرى بر مصر، وطلب منه ان يكتب إليهم على لسانه بالمسارعة إلى الجلاء في أقرب وقت.

فلاحظ المسيو (روسيقي) قائلاً: « ولكنهم يامولاي لم يأتوا إلى هنا ليعودوا كما جاءوا عند أول إشارة تصدر إليهم منك » فقال مراد بك وقد تولاه الجزع الشديد: « وماذا يريد هؤلاء الكفار إذن؟ » ماذا يبغى هؤلاء المنتشردون الذين يموتون جوعاً؟ إن كانوا طامعين في مال فأرسل إليهم بكذا ألف من البطاق (أى خمسين ألف فرنك تقريباً) وليزايلا مكانهم. فرد عليه المسيو (روسيقي) قائلاً: « ولكن هذا المبلغ يا مولاي لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة نقلتهم إلى مصر. والأحرى بكم والاولى من هذا كله أن تأخذوا عدتكم للدفاع ».

لم يستطع مراد بك أن يدرك بأكثر مما تقدم معنى جرأة الفرنسيين واقدامهم على الحضور إلى مصر لمنازلته. ذلك لأنه كان مزدهياً بقوته ومغروراً بعلوه إلى حد أنه لم يعبا بهم ولم يرسل للقائهم بادئ الأمر سوى شرذمة من الجند. ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه إلا حين فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة في أول لقاء لهم بها، وعاد من بقى من رجالها يخبرون مولاهم بأن الفرنسيين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة، ففطن عندئذ لأمره وأدرك حقيقة الخطر المحقق به. وكان أول جرح أصابه في كبريائه وعزته، اندحار جيوشه في معركة (شبراريس) التى لم تنته حتى أعقبها اندحارها في معركة الأهرام المعروفة.

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجه ما يدل على مبلغ ازدهاء المماليك بأنفسهم، وجهل الذين كانوا في عهدهم يقبضون على دفة إدارة الحكومة في الدولة العثمانية. لأنه إذا كان ذلك شأن الزعماء والحكام، فماذا يكون شأن عامة الناس الذين لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به أن يعرفوا شيئاً عن أوروبا وحقيقة أمرها ومحض كيائها؟ فمن الميسور والحالة هذه تقدير الانقلاب الكبير الذى أحدثته في نفوس الشرقيين ما أحرزته فرنسا من الانتصارات الباهرة، على مشهد منهم فكان علمهم بها أشبه المرائى بالتجلى الذى يؤتاه المرء على غرة منه. ولاشك أنهم أدركوا أهمية الوقوف على الوسائل الجلية التى كان من آثار تنفيذها ما أفضت إليه معركة عين شمس مثلاً من

استطاعة جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربي التغلب على جيش مؤلف من ثمانين ألف تركي وأن يمزق شمله ويقضى عليه قضاء مبرما.

ولما بهر فوز نابليون أنظار المسلمين وفتن عقولهم انتهى الأمر بهؤلاء، وقد أيقنوا بالاختبار والعيان أن الغربيين يسمون عليهم سموا كبيرا في الشئون العسكرية، إلى أن يتمنوا عن طيب نفس لو تمت عندهم الإصلاحات في هذا الباب، وأن يكون رائدها التجربة التي أظهرت فوائدها المدنية الأوربية.

ومن رجال الحرب الذين جاءوا إلى مصر لقتال الفرنسيين بطل مقدوني ساقته المصادفة الحسنة إليها، وهو الرجل التي شاءت القدرة الأزلية أن يستفيد من أعمال حملة بونايرت بما تركه من الأثر في أحوال الشرق. ومن محاسن الاتفاق أنه تلقى من فرنسي يدعى المسيو (ليون). من مدينة مرسيليا أول عبارات التشجيع التي نبهت في نفسه الآمال وأيقظت المطامع فيها من نومتها.

بلغ محمد على إلى أسمى المراتب في الحكومة المصرية مجتازا من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها، تارة ببسالته وإقدامه وطورا بدهائه وصائب رأيه. والحقيقة التي لا مرأى فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا، هي التي أخذت بيده في الطريق وفتحت له مغاليق الأبواب، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد، لأنهما بفورهما على الممالك، أصحاب السيادة الحقيقية على مصر في ذلك الوقت، وانتصارهما عليهم في ثلاث معارك كبيرة، مهدا له طريق الوصول إلى الغاية البعيدة التي كان يرنو إليها.

ولا يزال محمد على — وهو القابض الآن على زمام الحكم — مؤيد الجانب من الفرنسيين. فلكان لفظة الفرنسي أصبحت جرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر، وكان في القطر المصري للحكومة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من وإفاه بنصائحه ومشوراته. وجاء من بعده المسيو (دروفتي) الذي أحرز عنده نفوذا كبيرا ومكانة عالية — ليس فقط باعتبار كونه وكيلا لأممتنا — بل أيضا باعتبار أنه من البارعين الماهرين في الفنون العسكرية. وبالجمله ففى عهد قناصلنا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية، ما برحت الروابط بين فرنسا وسمو الوالى وثيقة العرى

قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم.

وكان مما يهم محمد على، بعد اذ تسلم أزمة الحكم، الاحتفاظ بها حتى النهاية. فلكي يصل إلى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستفيدا من عظمات القتال مع الفرنسيين وعبره. وكان يرى أنه لا بد له في الاحتفاظ بسلطانه، من جيش قوى منظم ليس على الأساليب التركية، فيكون جيشا نزوعا إلى الفتن والاضطرابات. متهددا على الدوام حياة الذين يجرون عليه الأرزاق والأعطيات، بل جيشا خاضعا للقوانين والنظام، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له في ميادين القتال. فالغرض الأول الذي قرطس محمد على سهمه، فيه، إنما هو اجتياز انجع الوسائل لإصابة الغرض الآنف الذكر ألا وهو تنظيم جيوشه طبقا للأساليب الحديثة.

ولست أدعو أحدا إلى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وأنه مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الأمة التي ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل قد سلك مسكلا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك.

وعلى أثر تنظيم الجيش والدوننمة بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها إلى فريق من، الفرنسيين. ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما للذان دفعا بمصر في تيار حركة المدنية التي ما برحت تسوقها إلى الأمام حتى اليوم.

غير أنه لا ينبغي أن يخطيء القارىء في الأمر أو يعسر عليه إدراك سره، فإن الذى أثار تلك الحركة ونبهاها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم، بما فطر عليه من كرم الشماثل ونباله المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر. أما الشعب المصرى فلم يساهمه = يشاركه = قط في شيء ما من التصميمات التى أقراها، ولا في اختيار الوسائل التى استحسناها لتنفيذها. بل ألقى في طريقه كل ما استطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعائر لتعطيلها، وأقام في وجهه الاعتراضات الجمة عليه. ولقد رأى محمد على عندئذ أنه لإيلاف ذلك

الشعب وتعويده الأُنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغي العمل لإزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله إلى التشبث والعناد.

ولا يأخذن المصريون أحدًا بجريرة هذه النزعات ، فإن الروسين لم يشدوا أزر بطرس الأكبر فيما تصدى لإجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شئونهم من نافع الإصلاحات وتلك شنشنة معروفة عن الأمم في أدوار أرتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية في الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت في طريقه العقبات والمصاعب.

لم يذكر التاريخ مثلاً لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالمة. وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقورية عالية، قدعوا إلى مشاركتهم في عملهم أبناء وطنهم. وكثيراً ما لجأوا في تنفيذ مقاصدهم إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم، إلى وسائل العنف والشدة. وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لإمكان تطبيق المنطق عليه فقد جبل الإنسان على أن لايهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه، وأن لايتحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه. ولما كانت الشعوب، التي على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشيء من الحاجات عادة، فإنها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها، ولايتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لإرادة رجل تأججت في صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا في ذلك بتلك الشعوب ذاتها، وإنما عبقرية الرجل العظيم في تقديره أهمية ما يراه من الوسائل محققاً لمراده، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر (١).

هذا ولم يبدأ بتطبيق الإصلاحات الحديثة، على الطراز الأوربي بالأستانة إلا من باب المجارة والمنافسة لمحمد على. ولعل السلطان محمود تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث إلى فرنسا في أن توافيه ببعض البيانات اللازمة لإدخال النظام والترتيب على جيشه.

يؤخذ مما تقدم أن الإصلاحات في تركيا لم يبدأ بها إلا بعد أن تم في مصر

(١) من الطبيعي أن تكون هذه الرؤية استمراراً للنظرة الظالمة غير الموضوعية لطبيب يناصر الحملة الاستعمارية على مصر وهي لا تمت للحقيقة بأدنى صلة.

تنفيذها، ولم يقصد ها في الحقيقة سوى مناظرة محمد على كيلا يقال أن المتبوع أصبح - بالنسبة إلى تابعه - في طريق التقدم من المتخلفين. وإذا جاء تطبيق، الإصلاحات في مصر مقرونا بالنجاح مكفول الثمرات، فإنما الفضل في ذلك يرجع إلى تأثير الحملة الفرنسية في شئون مصر وأحوالها، وهو ما يستخلص منه أن فرنسا ونابليون كانا سبب حركة الحضارة التي ظهرت في الشرق، وتولى محمد على غراسها في مصر وتعهدها بعنايته حتى أينعت ثمارها على ماهو مشاهد اليوم.

٢. الحكومة في مصر

إدارة الأقاليم في عهد باشوات الباب العالي - آراء محمد على في الإدارة -
تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين في مصر.

٢- لقد كان المفهوم أن تدار حكومة مصر، بالنظر إلى كونها إقليما تابعا للسلطنة العثمانية اسما لا فعلا بحسب قوانين هذه السلطنة وأنظمتها الإدارية، إذا صح أن لها قوانين تسير على منهاجها، ولكننا نعرف كيف تشكلت الدولة العثمانية، وأن خلفاء عثمان لم يخطر قط ببالهم، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الأقاليم وأخضوعها لسلطانهم، أن ينظروا فيما إذا كانت هذه الأقطار تتكون منها - باجتماعها بعضها إلى بعض - حكومة متجانسة العناصر داخلة في نطاق حدودها الطبيعية.

كلا ! لم يفكروا في شيء من ذلك ولم ينظروا فيه، بل جعلوا مقصدهم الوحيد، بلا روية ولا تبصر، ضم بلاد إلى بلادهم وإلحاق أرض بأرضهم على طريق الجزاف والمصادفة، وكاننا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور، فبدلا من أن ينشئوا ضمن دائرة محدودة - وإن تكن كافية - حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها، بددوا سيادتهم الاسمية في أقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج ما بين الأخلاق والعادات والأجناس واللغات، منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية، فأضعفوا لهذا السبب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالي. وكانوا غلاظا في السياسة فلم يهتموا إلا يسيرا بتفاصيل إدارة الأقاليم التي أرضخوها لحكمهم. وكانت

أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر في نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة. وهو مادعاهم إلى أن يعهدوا بإدارة الولايات إلى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجباية. وكانوا يعطون الأقاليم التي يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليها في غيرها، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء. بل كانوا يعمدون إلى المساومة في إعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكار، وكانوا يطلبون من الملتزمين، إذا شئت الحرب، إمدادهم بالجنود والسفن ليس إلا. فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التي فتحوها بسلاحهم هذا الحد.

وكان، أرفع الباشاوات مقاما وأجلهم شأنًا في نظر الباب العالي أكثرهم توريثا للأموال. وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الأقاليم، فإنه بقدر ما كان يناله الوالي من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته إياه بأكثر ما يكون من المال، كان يتذرع بسلطته للضغط على الأهلين والسلوك معهم مسلك الجور، ويبتز ما بأيديهم من المال. ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها إليه؟ نعم إن هناك مستثنيات لكل قاعدة، ولكنني لا أفرض وجودها هنا إلا من باب التجوز والتسامح، تكريما للقطرة البشرية وحسن ظن بها. وإلا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية والأحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد، مع مصلحة الوالي الخاصة؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكومين ويمتزج به؟ كلا! لأنه إذا ترك الجرح الذي أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه، ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والزيادة عنه في الأستانة، لا يلبث أن يصل إليه فرمان الخلع في الحال أو أنشودة ينصرم بها مع حبل إدارته حبل عمره أيضا. فمن غير الممكن لوالٍ في مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل، مالم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرض والجبايات. ثم لا ينسى أن له مصلحة كبرى في الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع، وهو الشعور العام في بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدرجات إلى أعلى الدرجات، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات، وهى صوت الطبيعة الأمر ونداؤها الذي لست أظن أن من بين الرجال

من يقدر على مقاومته.

يفهم مما تقدم أن علائق الولاة مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الأمة في حماة الهمجية، وتحول بينها والثوب في طريق التقدم والنجاح. دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقوق - إلا ما كان متعلقاً منها بالدين - لم يستطع أحد الجهر بها. وتلك إرادة الولاة وسلطتهم المطلقة وسيرهم بين الناس بالحيث والعسف. ومما لا ريب فيه أن هناك أنظمة كثيرة ركنها الاستبداد وقمتها التحكم ومطلق التصرف، ولكن هذا الاستبداد كان شائعاً في كل أرجاء الدولة العلية. إذ كان ينبعث من المركز متشععا فيما حوله كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة إلى جميع نقط محيطها.

أما محمد على فقد عرف كيف يوطد دعائم شوكته ويرسيها على القرار المكين. فهو أول عثمانى استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة. وهو أيضا أول من أبرزها من حيز العدم إلى عالم الوجود.

نعم إن سلطته مطلقة، ولكنه أحكم التدبير بتجاشيه عن الحكم الاستبدادي الذي كان لمثله، في شوكته وقدرته أن يجري على خطته إذ شكل لنفسه مجلسا خاصا اعتاد المداولة مع أعضائه في جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذها. وألف لكل فرع من فروع الإدارة مجلسا من الأخصائيين، فكان هناك مجلس للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة.. إلخ.. وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجالس جميعاً يدعى بمجلس الحكومة، من اختصاصه النظر في جميع أقسام الحكومة وكان إذا عنت الحاجة إلى وضع قرارات مهمة في الزراعة أو الأشغال العامة الخطيرة، يعقد مجلسا لذلك يجتمع فيه حكام الأقاليم ومديروها.

ولقد أدرك - أول وهلة - أنه لأجل تسيير الإدارة على المنهج القويم، لابد من العناية بتقسيم الحكومة إلى فروع مختلفة. وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستها الوزراء والنظار. فأنشئت على التتابع وزارات الداخلية فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمالية فالخارجية فالتجارة.

ومن المؤكد أن هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الإتقان والنظام المرجوة من أول أمرها. إلا أن هذا لا يخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التي بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل، وبمثابة من النظام وحسن الأساليب فى إدارة الأعمال، بل بما أظهره من صدق الإرادة بإدخال النظام الإدارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لأهميته.

ومما لا شك فيه أنه إذا توافر عنده الوقت الكافى وانتهى من الأعمال التى يعنى الآن بإنجازها وخُرِجَت المدارس العدد الكافى من الأكفاء، ستتحلى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله من قبل فجصا ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية.

وعلى كل حال ينبغى لأوربا أن تعلم علم اليقين أنه إذا اغتصبت من مصر السلطة التى أقام محمد على صرحها لتعطى إلى الباب العالى، فإن ذلك القطر لا بد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لآقرار لها. واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيمًا متينًا، فقد قال نابليون إن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الأخرى فى بلادها، خصوصًا إذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة. وسمو محمد على جدير، ولا شك بالمكافأة لأنه أول من أرسى فى مصر قواعد إدارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها.

٣. الوظائف الإدارية الكبرى

التي استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد: المديرون والمأمورون والنظار ومشائخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود- شرطة القاهرة.

٣- الموظفون الجدد

رأينا فيما تقدم أن محمد على غير تقسيمات القطر المصرى وبديل منها بتقسيمات إدارية تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل. وكيفية ذلك أنه قسم مصر إلى سبع حكومات أصلية، جعل عليها قومة يسمون بالمديرين، ومن تلك الحكومات إثنتان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها

مصر الوسطى وأربع يتألف منها الوجه القبلى. وكل حكومة أو مديرية تنقسم إلى مراكز والمراكز إلى أخطاط.

أما المراكز فرؤساؤها يدعون بالمأمورين، وأما الأخطاط فرؤساؤها يدعون بالنظار والخط يشمل في دائرته جملة قرى لكل قرية رئيس يدعى بشيخ البلد.

٤- اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفلاحين الذين يلجأون إلى قراره وحكمه فيما يشجر بينهم من المنازعات، وهو الكفيل للحكومة بدفع الضرائب وأموال الجباية.

أما رئيس الخط فيطلب منه الإشراف على العمال المعهود إليه أمرهم فهو الذى يقوم بتوقيع العقوبة عليهم، إذا أنس منهم إهمالا في تنفيذ أوامر الحكومة أو إعراضا عنها.

أما المأمور فوظيفته تحديد الأعمال الزراعية، ويشترك مع المدير في تقدير عدد الفدادين المخصصة في كل قرية للزراعات المختلفة بحسب ما تقتضيه طبيعة الأرض. وعليه أيضا مطالبة الفلاحين بالضرائب، إما أصنافا من الحاصلات وإما مالا نقدا وأن يجمع في الشون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول إلى الحكومة.

وإلى المأمور يرجع الأمر في جمع الأنفار للخدمة العسكرية والأشغال العمومية. وعليه أيضا مراقبة المعامل والفاوريقات.

أما المدير فمن واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة في نطاق اختصاصه والسهر على تنفيذ أوامر الوالى وقرارات المجلس والعناية بترميم الترع والقناطر والجسور.

وعلى المأمير والمديرين أن يبعثوا في نهاية كل أسبوع إلى وزارة الداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليومية والأعمال التى سيقومون بها. وما من مسألة إلا وتدور المناقشة عليها ولا يتقرر شيء فيها إلا بعد إمعان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالى رأيه بشأنها.

وجميع المأمير الآن من المصريين الوطنيين، إلا النزر اليسير منهم. والسبب الذى دعا سمو الوالى إلى أن يعهد إليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرايتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها، وأنهم أقدر من غيرهم على الإلمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أولى بالقيام على شئون الإدارة من الأجانب الذين لا يخلون من نزعات التشيع الجنسى. على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة. لأن هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الأهلى بأقل مما كان يعاملهم به الأتراك من الرفق والرحمة.

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المأمير من نصارى البلاد. ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوه مثل هذه الثقة لأن أما المديرون فهم جميعا من الجنسية التركية.

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعى الخولى وصراف لجباية الأموال وحساب المبالغ التى يسلمها إلى المأمور ليتولى تسليمها إلى خزينة المدير. وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقود العمومية باعتبار كونه من المأذونين.

يفهم مما تقدم مقدار ما هنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم فى مصر وبينها فى موظفى البلاد الأخرى.

فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما، فهم حكام إداريون لا أكثر. تنحصر سلطتهم فى تقدير حاصلات الأرض وتعهده إدارة المصانع والقيام ببيان موارد البلاد المعهودة إلى إدراتهم.

ولاؤلك الموظفين مرتبات تختلف باختلاف درجاتهم. وقد جعل لهم منذ زمن قليل شوار - أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض فمشائخ البلد يعرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية، والمأمورون بها ماسية. ويشغل وظائف المديرين إما البكوات برتبة الميرالائى أو الفريق وإما الباشوات.

٥- البوليس أو الشرطة

لا يعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة في اختصاص المديرين. فإن إدارة هذه المدن الثلاث موكولة إلى حكام خصوصيين، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا من غيرها فالحاجة إلى حفظ النظام وصون الأمن فيها تستدعى دوام اليقظة والتعهد، فقد عنى بهذا الفرع من فروع الحكومة وأتقن تنظيمه فيها. ومنذ سنوات قليلة كان يتولى أمره موظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط. أما الآن فلا يوجد على إدارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين، وتحت إمرته ضباط تميزهم شارة خاصة. وهم منتشرون في أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصة ويصونون - بمراقبتهم الفعالة ويقظتهم المستمرة - النظام العام والأمن الخاص بأفراد الناس. ويقومون أثناء الليل بالنوبة، فإذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس ألغوا القبض في الطريق على كل شخص لا يحمل بيده مصباحا. وبهذا لا تمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة. وفي يقينى أن الأمر القاضى على الذين يخرجون في ظلام الليل من بيوتهم - وعددهم قليل جدا - بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الأوامر الحكيمة في مدينة كالعاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام. وعادة الشرطة في قيامهم بالنوبة - أن يوجهوا إلى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو » ومعناه « من هذا؟ » فيجوابون بقولهم: « ابن البلد » فيصيح العسس عندئذ قائلا له: « وحد الله » فيجابه بقوله: « لا إله إلا الله ».

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء. وسبب ذلك ما وقر في نفوس أهل الملة الإسلامية من أن مرتكب الجريمة أو المعول على ارتكابها بقصد، لا يجرؤ بوجه ما على مجاوبة العسس بالقول المتقدم. ولقد اشتهر الاغواات بالمهارة والتفنن في استكشاف اللصوص، ونقلت عنهم في ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم في اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين.

٤. الموارد المالية لوالى مصر

٦- أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته، ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى إلى إنشاء الحصون والمعازل للاقتناع بها، قد أرشدته إلى الوسائل التى لايتسنى له تحقيق غرضه بدونها. وسوف يقتنع المكابرون انه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعته ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستوراً موافقاً لعبقريتها وموفياً بمطالبها وحاجتها، بحيث لا يكون أثراً زائلاً لسياسة لا حياة ولا أفق لها. الدستور لا يكون فى هذه الحالة إلا نتيجة طبيعية ترمى إليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضر بتعديله على ما يطابق مقتضيات هذا الطرف وبث عنصر الحياة فيه، تلك الحياة الضمينة بمستقبل ساطع النور لن يقبل إلا فى هيئة وحشد عظيم من آثار التقدمات الفكرية والاصطلاحات التى أولدتها طبيعة الأشياء والتى سيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الأعمال حتى الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق. ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة إلىسمى ما فى قدرة إنسان أن يبلغه من غايات الكمال. وعلى كل حال فإنه لن يتركه بعده عملاً مبتوراً لا أمل فى بقاءه واستقراره. كلا! لأنه لقح أعماله كلها بلباق البقاء والاستمرار، وحسبه هذا فخراً ومجداً. وفطاحل الرجال لا يموتون إذا غيبت أجسامهم فى الأحداث، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الأعمال. فإذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه إلى أبعد مدى، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الإشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها، وقدم الناس إلى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم إتاوة الإعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الأيام وتعاقب الأعوام.

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بإمعان النظر فيهما لتبين

حقيقتهما. ألا وهما: ماهية هذه القدرة في ذاتها والشروط التي يترتب عليها بقاؤها أو بعبارة أخرى العناصر المكونة لها وقوام هذه العناصر. وسأقدم الكلام على ثانى الأمرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد إلى الكلام على الأمر الأول وهو القوة العسكرية. لأن القوة العسكرية في المال كالنتيجة للمقدمة في القياس المنطقى ولنجمل القول في ذلك الموضوع فنقول: إن الموارد المالية التي يعتمد الوالى عليها هى: أولا تشكيل الملكية في القطر المصرى.

وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية. وثالثا الضرائب والرسوم.

الملكية

تشكيل الملكية في الشرق - حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص إلى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم - حالتها على عهد المماليك. الأوقاف، الأرزاق، الالتزام - أراضى الفلاحين والأوسية - التغيير العظيم الذى أحدثه محمد على - آراء وخواطر في النظام الحالى للملكية.

٧- تشكيل الملكية في الشرق

مسألة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين: أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وأساس تغاير ما تقوم عليها منها في مختلف البلاد الأوروبية. والثانى أن الأسلوب الذى كانت الملكية قائمة عليه لمحمد على السبيل لجمع الموارد التي استعان بها على تشييد صرح شوكته.

ولم تعين طبيعة الملكية في المدينات الشرقية بمثل الصراحة التي عينت بها في الحضارة الغربية. لأن الحضارة الشرقية مغايرة للحضارة الغربية ببقائها واستمرارها. وإذا جعلت بيانى بشأنها قاصرا على مصر، فإننى مثبت هنا أن الأراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الأقدمين ملكا لولى الأمر.

٨- حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى

قرر الإسلام مبدأ عاما في ملكية الأرض تلخصه الآية الآتية من القرآن: «أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الأمر. ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملكية التى كانت موجودة إبان الفتح، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فريضة من المال إلى الأمير. وظلت الأحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة. ولم يطرأ عليها تعديل إلا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول. فقد قرر هذا السلطان أن الأراضى التى أعطيت فى الأصل من الأمراء تحول منذ الآن فصاعداً إلى ملكية ولى الأمر. وبهذه الكيفية أصبح صاحب الأرض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة. غير أنه كان لورثته ردها إلى حوزتهم بدفع مبلغ معين، على طريق العسف والاستبداد، لا تقبل فيه مساومة.

وقد أخذ السلاطين، من خلفاء السلطان سليم الأول، يعهدون إدارة البلاد المصرية إلى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيتها. وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها. غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة الممالك وامتداد نفوذهم، لأنهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد وكانوا يتصرفون فى الأرض على ما تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على ما يروق فى نظرهم منها بلا أدنى التفات إلى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف.

٩- حالتها على عهد الممالك

فى عهد الممالك وإبان وجود الحملة الفرنسية بمصر، كانت الملكية منظمة على الوجه الآتى:

كان الشطر الأوفى من الأراضى ملكاً للممالك والحكومة وكان الشطر الباقى فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين. أما ما بقى من الأراضى، فكان موقوفاً على المساجد ويعرف بالأوقاف أو الرزقة.

وكانت أملاك الملتزمين من الأرض على نوعين: نوع يسمونه بأطيان الفلاحين إذا كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستئجار خيراتها ابناً عن أب وأباً عن جد. وكانوا يدفعون الضريبة عنها والإيجار المستحق عليها، فكانوا

لها بمثابة المزارعين. أما النوع الثانى فكان يعرف بأطيان الأوسية - أى أن الأطيان التى اشتراها الملتزمون بأموالهم وأخذوا يزرعونها على حسابهم. وكانت أطيان القرى مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين. وكانت الرابطة بين نوعى الأطيان السالقى الذكر وثيقة إلى حد أن الملتزمين كانوا لا يستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئا من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين إلا إذا باعوا فى الآن نفسه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الأوسية. وكان الملتزم لا تنقل ملكية أطيانه بعد وفاته إلا إلى أبنائه أو من يوصى بهم أن يكونوا ورثة له. وعلى كل حال فقد كان من المفروض على الورثة أو الذين احتازوا الأرض بمبيعها إليهم - كلها أو جزءا منها - أن يحصلوا على تقليد الوالى بذلك لكن يجوز لهم الحصول محل المورث فى الحقوق المخلفة عنه. وكان ثمن التقليد مبلغا من المال يعدل القيمة التى اشترت الأرض بها، فإذا لم يدفع ذلك الثمن آلت الأرض إلى الحكومة. وكان هذا ما يحصل غالبا، إذا لم يوص الملتزم المتوفى - بدون أن يعقب - بأملاكه لأحد. ذلك لأنه كان لا يعترف شرعا إلا بأبنائه كورثة طبيعيين له.

وقد قلت إنهم كانوا يطلقون كلمة الوقف إطلاقا عاما على الأملاك الخاصة بالمساجد ومعاهد البر والإحسان. فإذا كانت هذه الأملاك أطيانا سميت بالرزقة. وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العلية والمماليك، إنها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمونة فى عهدهم. ولما كانت الأوقاف مما لا يجوز التصرف فيه بوجه ما، فقد نشأ عن ذلك أن عددا عظيما من الملاك عمدوا إلى تحويل من يوصون بهم من أفراد أسرهم حق الانتفاع بأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد. وكان يدفع إليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابة إيراد ثابت لا يجوز تقاضى الضرائب عنه ولا تمتد إليه مطامع البكوات. وقد بلغت فوائد هذه الأوقاف ومزاياها من قوة التأثير الجاذب للملكية إلى حظيرة الوقف، ما استفز الحكومة إلى إصدار أمرها بمنعه، إلا بموافقة منها. فقد خشيت أن ينتهى الأمر إلى اندراج جميع الأراضى فى سلك الأملاك الموقوفة ووقوع الأرزاق الكبيرة بعد ذلك فى ملكية أصحاب النفوذ والوجاهة من المشايخ، وأن يتمتع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الأملاك الدينية بالرعاية والحماية.

تلك كانت حالة الملكية في القطر المصرى حينما استولى الفرنسيون عليه. ولقد انتقلت إليهم حقوق الحكومة السابقة في ملكية الأقطان، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر إلى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ.

١٠- التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

في سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضي القطر المصرى إلا القليل منها.

فقد طلب في ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم، فلما قدموها إليه قرر بطلانها جميعا - معتمدا في ذلك على حق ملكية ولى الأمر - أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان. ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين، فقدر ريع كل منهم من إيراده ودفعه إليهم سنويا من الخزانة. ثم ترك لهم حق الانتفاع، مدة حياتهم بأراضي الأوسية بعد أن فحص سنداتها فحصا جيدا، وقرر مبدئيا، للتمشى مع الاعتقادات الدينية، احترام الأقطان الأرزاقية. ولكنه لم يلبث أن ألغاها آخذا على عهده الإنفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعى الأيدي على تلك الأقطان معاشات سنوية. ولم يحتفظ بصفة الوقف إلا للأمالك المبنية والحدائق.

وكان يبغي بهذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضي القطر المصرى إنماء موارده المالية لسد نفقات الإصلاحات العامة، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية. بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتى ألف فدان، فضلا عن إبقائه على الأملاك المبنية كما ذكرناه.

وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال بينه والفلاحين. فمهدت هذه الخطوة الأولى له تنظيم الزراعة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل في الأرض باليومية، إذ عين للواحد منهم قرشا واحدا يوميا كان يدفع إما نقدا وإما أصنافا من الحاصلات. ثم وزع عليهم الأقطان - على أن يبقوا مالكين لها دواما إلا إذا عجزوا عن سداد ضرائبها. وقرر في الحالة الأخيرة أن يحل غيرهم، من القاديرين على السداد، محلهم في

ملكيتها. وقدم إليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشية اللازمة للرعى. وكان على مأمور المركز أن يعين للفلاح مساحة الأرض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها. فإذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة. على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها. فإذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد.

١١- أفكار وخواطر فى النظام الحالى للملكية..

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف ومانشأ عنه من الارتباط بين الوالى والفلاحين، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه الحالة انتقادا مرا يرومون الحكم على مصر وسكانها بمقتضى مذاهب أوربا فى الملكية، من غير نظر إلى ما هنالك من الفارق بين أمة شرقية والأمم الأوربية. ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الأسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند، وهو المعروف باسم «زمندار» الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن فى القطر المصرى. على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة، والخبرة التى اكتسبها الأوربيون الذين تطاولت اقامتهم بمصر منذ ذلك العهد، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمد على للملكية هو أحسن ما يكون من الأنظمة وأوفقها لحالة البلاد. إذ لولا هذا النظام لما تقدمت الزراعة بخطوات واسعة فى سبيل الاتساع والإتقان، ولا أدخلت إلى مصر زراعة النباتات المجهولة بها إلى ذلك الوقت. مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة فى زمن يسير.

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته إلى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجته وأنها أقل مما يخطر ببال الأوربى أن فيه الكفاية للمرء. فلو ترك وشأنه، وهو على ما فطر عليه من تلك النزعة، لأدى تركه إلى سقوط الزراعة المصرية. فالنظام الذى سنه محمد على للملكية هو خير الأنظمة، لاسيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة إيراد مصر الذى بلغ إلى ٦٠ مليون فرنك بعد أن كان لايزيد على ٢٥ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية.

ولست أنكر أن هناك إصلاحات جمة تقضى الحاجة بإدخالها، إلا أننى أجاب الذين يأخذون على سمو الوالى أنه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى:

أولاً- إن الحالة الحاضرة أفضل بكثير من الحالة السابقة.

ثانياً- إنها من الحالات المؤقتة التي تبشر الأمة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات، وتمهد السبيل شيئاً فشيئاً، بحسب سرعة تقدمها في طريق المدنية، لتملكها حاصلات الأرض.

وأضيف إلى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازماً لتلك الحالة، إذ يصادر في القريب العاجل على المركز السياسى الذى آن إلى محمد على وأسرته، ويزول بلا شك إذا سويت هذه المسألة التي يرتبط بها إما البقاء وإما الموت. وإنه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائره لغرض هو حرمانه، بغير حق، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة.

٢. الاحتكار

الغرض من الاحتكار- قدمه في القطر المصرى- سبب ضرورته فيه.

١٢- الغرض من الاحتكار

الاحتكار في مصر، على عهد محمد على، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها في أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الأوفى من حاصلات الأرض. ومما أنساق الناس إليه على طريق الوهم، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصلات مصر كافة من غير استثناء. وهذا خطأ محض فإن هناك أصنافاً عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الاحتكار، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها. وإنما الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون الخ ولا يتعداها إلى غيرها.

١٣- قدمه في مصر

اتخذ خصوم محمد على مسألة الاحتكار تكأة لتوجيه التهم البالغة إليه والنيل من شوكته والحد من كرامته والحد من شهرته.

ومما لا مرأى فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه، وإنما كان من الواجب، قبل اعتباره جريمة وإسناد هذه الجريمة إلى محمد على، الإقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه. بل إنه كان معروفاً في سائر أنحاء المعالك

العثمانية ومعمولا به، وأن الخط الشريف لم يصدر بإلغائه منها إلا من عهد قريب. مع أن هذا الإلغاء لاتزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة في تنفيذه، دع أنه بعد هذا وذاك من الأنظمة اللاصقة بمصر منذ قديم الزمان إذ من المقرر المعروف أنه كان معمولا به في كل زمان واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة إليه.

ألم يعهد إلى يوسف (عليه السلام) بعد إذ قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع — في سنى القحط والمجاعة — على الأهلين؟ وهل في هذا الأمر إلا الاحتكار بعينه؟ ولقد أجمع المؤرخون على تمجيد (سيزوستريس) والإشادة بذكره لأنه خول رعيته حق الملكية. أفليس هذا دليلا ناصعا على أنهم كانوا من قبله لا يملكون هذا الحق؟ ومع هذا فقد توافرت الأدلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط في مصر على أساس وطيء. وقال أحد مؤلفي مصنف الحملة الفرنسية الموسوم: « تخطيط مصر » (المجلد السابع عشر، الطبعة الثانية - الحكومة الحديثة -) مايتى:

« منذ حدثت أول غارة على مصر، قام نظام حكومتها على حق الفتح. وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك، بدون أن يسنوا قانونا لتحصيده وتعيين شرائط التمتع به. وإذا كان الشعب المغلوب على أمره قد منح أحيانا حق الانتفاع ببعض قطع من الأرض فإنه كان يكفى، لا سترداد هذا الحق غير الثابت، صدور الأمر به بمحض إرادة الفاتح. وتلك لا تزال الحال التى عليها الأملاك المسماة هنا بالأملاك الخاصة. فإنها تبقى مستقرة فى الأسرة — لا كحق ناشئ عن الوراثة — بل كأية من آيات عطف الحكومة التى يبقى لها دائما حق فيها طبق مشيئتها. فليست تلك الأملاك إذن كما شهدناه الآن، إلا أحد ضروب الالتزام التى تنقلها الحكومة من يد إلى يد، بدون أن يكون للمتفع بها حق التصرف فيها».

ولقد أحست الإدارة الفرنسية — إذا لم يكن بضرورة الاحتكار — بصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له. على أن الجنرال (ديزه) كثيرا ما فكر فى توزيع قسم من أراضي الوجه القبلى على الفلاحين، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكرة موضع الإجراء (راجع فى كتاب تخطيط مصر السالف الذكر، الطبعة الثانية، المجلد السابع عشر، موضوع — الحكومة الحديثة -).

١٤- سبب ضرورته

يسهل بمقتضى ما تقدم تعليل الاحتكار وإقامة الدليل على قدمه وإثبات أن محمد على لم يكن الواضع له من عندياته. ومن الحقائق الثابتة أن النيل، بفيضانه المنتظم، أوجد بالقطر المصرى حالة خاصة به، فإن هذا النهر، إذا ترك وشأنه، لا يروى إلا القليل من الأراضى إذ تضيع مياهه كلها فى البحر، فاقتضت هذه الحالة احتفار الترع العديدة وإقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لا يمكن لأحد غير الحكومة أن يقوم بها. وهذه الترع والجسور كان من غير الميسور للأهلين، ما لم يكونوا على إرث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم إلى شئونهم الذاتية، ولا أن يفقهوا لما وراء هذا التعهد من الفائدة العامة للبلاد. وهذا فضلا عن أن إدارة تلك الأعمال والحاجة إلى من ينجزها من العمال وما يقتضيه إتمامها من وفير المال، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها، وهو أمر لم يكن ميسورا بالمرة، عند أمة كالأمة المصرية، بل كان من رابع المستحيالات.

وكان من الواجب على الحكومة - بعد أن تضع نظاما لرى الأراضى - أن تزرع بواسطة الفلاحين الأطيان التى ساقطت إليها بذلك مواد الخصب والنماء، لاستحداث موارد جديدة للمال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات. ولقد أدركت هذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى وآلات الحراثة لاستثمار الأرض محتفظة لنفسها - فى مقابل ذلك - بحصة من الحاصلات غير ناظرة إلى ما قد يحيط بالسوق من اختلاف الأسعار وتذبذبها. ذاك هو بيان أصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته.

ومفهوم أنه إذا كانت الإدارة قديمة حكيمة رحيمة، فإنها لا تتطلب من المزارع إلا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقات ومداركة حاجيات الحكومة، ولكنها إذا كانت طموعة شرهة - كما هى فى كل مكان - فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة إلى الإجحاف والظلم. أما إذا اتسع نطاق حاجياتها، فلا مناص لها من ابهاظ عاتق رعيته بالكلف الفادحة والفرص الباهظة.

ولمعترض أن يقول إنه كان من الأولى ترك الخيار للفلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبى الحكومة منهم الضرائب نقدا عينا، لما يستتبعه ذلك

من تزامم التجار على الشراء وتنافسهم التنافس الذى تنجم عنه مضاعفة الفائدة للبائع. وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتادوا ادخار المال لوقت الحاجة إليه، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة إلى بيع حاصلاتهم وهى على سوقها - أى قبل أن تنضج وتحصد. وهو مايتأتى منه تحكم المشتري فيهم بفرض الشروط المجحفة عليهم، وأخذهم المحصول الذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة فى اليوم المعلوم، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق. فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتمويله بكل ما يحتاج إليه من الزاد، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الأموال فى ذمته. وشتان بين الحالين.

ولا يخامرن القارئ أننى ممن يذهبون مبدئياً إلى تبرئة الاحتكار من العيوب والموانع، أو يقولون إنه غير قابل للتحسين والتعديل. وكل ما أراه أن تفكر الحكومة فى قلب النظام الحالى رأساً على عقب، بل أدعوها إلى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى من التحسن والارتقاء. والأمل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البدهاء ويستدعيه الطبع السليم، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من الممولين المصريين. غير أن السر كل السر هو فى أن المطالبة بالقليل ينبغى معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الإنفاق ضيقة وقليلة معاً. فعليكم أن تخفضوا اليوم من غلواء احتياجات الحكومة المصرية، فإن شكواكم من وجود الاحتكار تقل، إذا لم تتمتع برمتها. ويكون محمد على فى طليعة من يهتمون بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج.

٣. الضرائب أو الأموال

الضريبة العقارية أى الميرى - الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس والخراج - الضرائب المختلفة والجمارك - آراء فى جباية الأموال. إيرادات الحكومة من الضرائب ثلاثة أنواع: إيرادات ضريبة الأتبان وإيرادات الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس وإيرادات الجمارك.

١٥- الضريبة العقارية أو الميرى

لما استولى السلطان سليم على مصر أجرى التاريع = تحديد الريع = لشطر كبير من أطيانها، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هذا العمل مقدار ما

كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية. وكانت تتألف هذه الضرائب من ثلاثة أجزاء: الأول وهو أوفائها قدرا كان مخصصا لسداد أموال الميرى والثانى كان مخصصا للكشوفية والثالث لفائض الالتزام.

أما الميرى فكان يؤول إلى السلطان، وأما الكشوفية فإلى البك أو الكاشف حاكم الإقليم، وأما فائض الالتزام فكان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية. وكان لا حق للملتزمين فى فائض الالتزام، إلا إذا أدوا ما عليهم للسلطان والكشاف. ثم إنهم فرضوا على الفلاحين رسوما كانوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى.

ولم تكن الأراضى كلها، خاضعة على السواء لفرض الضرائب عليها. فإن الأراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والأثر كانت معفاة منها فكان شأن الأراضى البور غير الصالحة للزراعة. أما الأراضى الرديئة التى كانت للملتزمين والفلاحين فكان لها ضريبة معتدلة أقل من الضريبة المفروضة على الأراضى الجيدة. أما أراضى الاثر والأوسية فكانت الضريبة تدفع عنها بحسب جودتها وكثرة ما تعطى من المحصول وكانت الاثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى.

أما الآن فلا تمييز بين الأراضى، لأنها أصبحت لا تدفع إلا صنفا واحدا من الضرائب وهو الميرى. ومتوسط ضريبة الأطيان مقدرة بما يعدل عشرة فرنكات تقريبا للفدان الواحد، أما الأراضى الممتازة بالخصوبة ووفرة الحاصلات، فالضريبة التى تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ إلى ١٦ فرنكا. والأراضى الأقل منها درجة فى تلك المزايا تدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات إلى ثمانية. ومنذ عهد قريب أعطى الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الأراضى بالحرث والرى لا استثمارها، ما مساحته ٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا من الأراضى البور ليتولوا إصلاحها وزرعها، وأعفاها من مال الميرى. وهذا المال يعدل نصف إيزادات الحكومة على وجه التقريب.

١٦- الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد إيراد الميزانية المصرية. ويباشر تحصيلها باعتبار كونها جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الذى يفرض أنها تعدل دخل الممول. والذكور المراهقون كافة،

مسلمين كانوا أو رعية، ملزمون بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم. وتختلف - تبعاً لتفاوت الناس في الثروة - من ١٥ قرشاً إلى ٥٠٠ قرش. وفي المدن تحصل الضريبة الشخصية عن النفوس، وفي القرى عن المنازل. ويبلغ ما يحصل من هذه الفرضة عادة السدس من إيرادات الخزنة المصرية.

ويدفع الرعية من الأهلين ضريبة خاصة بهم تسمى الخراج. وقد فرضت في الأصل بحسب المبادئ المستمدة من القرآن، والقاضية على غير المؤمنين بدفع الجزية. وتقدر بوجه عام من ثمانية قروش إلى عشرة. ولا يتجاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠٠ فرنك (١).

١٧- الضرائب المختلفة والجمارك

وهناك ضرائب مفروضة على الماشية. فالبقرة والجاموس يدفع عنها عشرون قرشاً للرأس الواحد، وسبعون إذا كانت مخصصة للذبح. على أن تبقى الجلود المسلوخة ملكاً للحكومة. أما الجمال والنعاج فيدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش. وأما قوارب النيل فيدفع عن كل قارب ضريبة قدرها مائتا قرش وكذا النخل فإنه خاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة.

ورسوم الجمارك المتفق عليها في الامتيازات الدولية والمعاهدات التجارية، تحصل على البضائع المجلوبة من أوروبا إلى مصر، وهذا فيما عدا الضرائب التي تعينها الحكومة لتحصل من القوافل الآتية من بلاد العرب وسنار ودارفور الخ.

ولقد رأينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تدفع عنها مكوس عند دخولها في مدن معلومة.

أما الجمارك فمعطاة بالالتزام. ووجه الحكومة في تفضيل هذه الطريقة أنها تخليها من مشاغل إدارتها والقيام على ضبط أعمالها. والحاصلون على هذا الامتياز، وكلهم من التجار الأتراك والأرمن، تتألف منهم شركة أو ما

١ - أبطل الخراج في الممالك العثمانية بمقتضى خط كلخانة. لأنه أفضى فيها إلى العبث بحقوق الرعية ولكن نصوص هذا القانون لم يتناولها بالتنفيذ بعد ولم توضع حتى الآن موضع الإجراء.

يشبهها لتحصيل الرسوم الجمركية. وهذه الطريقة، وإن تكن حسنة من بعض الوجوه، رديئة من وجوه غيرها. فإذا كان في نية الحكومة إبقاؤها، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها في جميع الأحوال والظروف.

١٨- أفكار وخواطر في جباية الضرائب

لسكان مصر، إذا شاءوا، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافاً من حاصلات أرضهم. وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروض وصولها إلى الخزينة، ومن شأنه أن يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين في السداد. تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة في مركز واحد، فالمراكز التي تتألف منها مديرية واحدة. ولا شك أن هذا النظام يلجئ العامل الذكي الذي يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله، إلى سد العجز الناشئ عما لم يكن مسئولاً عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم. وفي هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا في تصريف العدل بين الناس.

إلا أن هذا لا ينبغي أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الآتفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية. فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الإسلامي من سكان إذ تبينت ضرورته في استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر إلى ممارسة الأعمال والانصباب عليها. ومع هذا ففي نية سمو الوالى، متى صرف عنايته إلى إتمام التنسيقات والإصلاحات الداخلية التي اعتزم إجراءها للسمو ببلادته وأتمته إلى الدرجات العليا، وهى العناية ما برح في حاجة إلى صرفها بالخارج، أن يقضى على كل اثر للحيف والظلم في الأنظمة الحالية، فيتعهد بنفسه وقتئذ رم الجراح الذى أثخن بها جسم مصر في السنوات الأخيرة العديدة. وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هذا الاثر الجليل الذى يود من صميم فوائده أن يتولى إقامته لمصلحة مصر ومنفعة بنيتها، إذا ما انتهى من إرساء قواعد أسرته وإعطاء مصر كيانها السياسى الذى لا قوام لها إلا به.

٤. إيرادات مصر ومصرفاتها

لكى أزجى إلى ذهن القارئ فكرة عن إيرادات مصر ومواردها المالية الأساسية التى تعتمد عليها فى تدبير أحوالها وتصريف شئونها، سأطرح جدولاً ملخصاً من الميزانية السنوية لحكومة الوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلادية الموافقة لسنة ١٢٤٩ الهجرية وإذا تخيرت هذه السنة دون غيرها من السنوات، فما هو إلا لأن ميزانية الإيراد من هذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيراً محسوساً.

١٩- إيرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى - أى الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠	فرنك
الرسوم الشخصية - أى ضريبة النفوس	٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
الخراج	٨٠٠٠٠	فرنك
عوائد التركات (بيت المال)	١٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٤٨٠٠٠	فرنك
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠٠٠٠	فرنك
عوائد صب الفضة والمقصب	٥٦٢٥٠	فرنك
عوائد (عشور) النخل	٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الملح والقوارب والأسماك	٤٣٧٠٠٠	فرنك
عوائد الحبوب	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
رسوم الجمارك والمكوس	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد السوائل	٣٠٧٠٥٠٠	فرنك
عوائد السنامكى	٣٤٦٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٣٢٥٠٠	فرنك

الأرباح الناشئة من الأشياء الآتية:

القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيد والأرز والعسل وجمع العسل
والحناء وماء الورد وبذر الكتان والسمن وبذر الخس والقرطم والحريز
والزعفران والنتر والجير والمصيص والأحجار والنطرون والصودا والملح.

النوشار	١٣٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من دار الضرب (الضربخانه)	٣٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من الأقمشة	١٥٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من مبيع الحصر	٩٢٧٧٨٧٥٠	فرنك
المجموع	١٦٠٨٥١٥٠٠	فرنك

٢٠- المصروفات في سنة ١٨٣٣

فرنك	١٥٠٠٠٠	أموال مرسله إلى الآستانه
فرنك	١٥٥٠٠٠٠	ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندي)
فرنك	٥٠٠٠٠٠	مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح
فرنك	٨١٢٠٠٠	جمليات الخيالة الأتراك غير النظاميين
فرنك	٦٥٠٠٠٠	أجور العربان
فرنك	١٧٥٠٠٠٠	ثمن أدوات حربية
فرنك	٣١٢٠٠٠	المعينات للعلف والجمال والبغال
فرنك	٢٠٠٠٠٠	المدرسة الحربية
فرنك	٧٥٠٠٠٠٠	ميزانية موظفي البحرية ورجالها
فرنك	١٨٧٥٠٠٠٠	إنشاء مبانى حربية
		نفقات ترسانة (دار صناعة) إنشاء القوارب فى بولاق
فرنك	٤١٢٥٠٠	نفقات الفاوريات وأجور العمال
فرنك	٧٥٠٠٠٠	مرتبات موظى الإدارة
فرنك	٢٠٠٠٠٠٠	معينات غذائية للموظفين
فرنك	٦٢٥٠٠٠	معاشات الملتزمين السابقين
فرنك	٤٤٠٠٠٠	معاشات ممنوحة لبعض العربان
فرنك	٧٥٠٠٠٠	مصروفات لإنشاء القصور والفاوريات والقناطر
		والجسور
فرنك	٢٢٥٠٠٠٠	أشياء مطلوبة من أوروبا برسم الفاوريات
فرنك	١٨٧٥٠٠٠	مخصصات لصيانة قصور سمو الوالى
فرنك	١٢٥٠٠٠٠	مخصصات غذائية لسمو الوالى
فرنك	٥٠٠٠٠٠	مخصصات لإدارة مشتريات الكاشمير والأثواب
فرنك	١٧٥٠٠٠٠	الحريية والجواهر الخ
فرنك	٢٥٠٠٠٠	نفقات قوافل الحجاج
فرنك	٤٩٩٥١٥٠٠	المجموع

٥. الوسائل السياسية

تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة - المسيو سيف (سليمان باشا) - تنظيم الجيوش النظامية - المشاة المصرية - الفرسان - مدرسة الخيالة - المدفعية أو الطوبجية - مدرسة الطوبجية - الإدارة العسكرية - شوار العساكر (ملابسهم الرسمية) - الرتب.

٢١- تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن - بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن - أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية. فإنه ما انتقل بلد من التبعس والشقاء إلى السعادة والهناء، إلا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيرا مما يبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم. ومن فحول الرجال الذين يشار إليهم بالبنان الإسكندر الأكبر وقيصر وشارلمان و نابليون الذين كانوا - قبل كل شىء - من رجال الحرب.

وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تأثير الحرب، محسوسا ملموسا فى سائر فروع الحضارة، كما يشهده فى حالة مصر الآن.

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما، وكان يجب لإيجاده من العدم البدء فى خلقه وتكوينه. وهو ما حدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى.

ناصر محمد على الفرنسيين العداء واشتبك معهم فى معارك عدة فأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته، وكان همه قبل كل شىء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ إليه من الولاية على شئون مصر، فرأى أن هذه البغية لن تنال إلا بقوة السلاح، فأتجهت جهوده منذ هذا الحين إلى تشكيل الجيش. فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الأمن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج.

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه، نتائج عامة جزيلة النفع، أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد

الأمة المصرية النظام، بعد إذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى، حتى ذلك العهد، ولم تعامل بغير الضراوة والافتراس من جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والسير بالعنف في الشدة بين الناس والنزوع إلى الفتن في كل آن.

وكان من نتائج ذلك التنسيق أيضا، أنها أحلت وحدة العمل وترتيب الدرجات من المرؤوس إلى الرئيس وسير الأحوال على النهج القويم وهيبة السلطة، محل الانحلال والاختلال والضعف وغيرها من العيوب التي كانت فاشية في كل مكان. ولقد رفع من شأن الشعب المصري بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقدته من الثقة والاعتزاز بنفسه وغيرهما من العواطف التي لا بد منها لكل أمة تلتمس الحياة في ظل الاستقلال. أما النتائج العملية لذلك التنسيق فكانت أكثر عددا وأعظم أهمية، إذ من المستطاع القول بأنه هو الذي كان الباعث على ما شهدته مصر من أطوار التقدم خلال السنوات الأخيرة.

وكان لا بد في تنظيم الجيش بحسب الأساليب والأنظمة الجديدة، من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون الحرب. وكان لا مناص، لإصابة هذه الغاية، من الالتجاء إلى المسيحيين لاختيارهم من بينهم، وتعويد العساكر الخضوع بالرغم مما هنالك من الاختلاف في العادات، وأخذ الفنون العسكرية عنهم من زحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيوش وطاعة للرؤساء والنظام المسنون ودقة في جميع الأمور الحربية. وبدأ التنسيق بتدريب العساكر، ثم بدت الحاجة إلى الضباط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت إلى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ.

ولما تم تشكيل الجيش، قضت الضرورة طبعا بالنظر في مداركة حاجاته وتدبير شئونه والعناية بأمره، من لبس وإقامة في ثكنات تبني خصيصا له وتخصيص أطباء لمعالجة المرضى منه. واستلزمتم مسألة التسليح وإعداد المعدات العسكرية إنشاء دور الصناعة (الترسانات) والفابوريات. وتعد الجيوش عادة، ضمن أسلحتها، المدفعية والفرسان وفرقة الهندسة الحربية. فللقيام على تدبير هذه الأسلحة التي يرجع أمرها إلى العلم، عني بتوسيع نطاق التعليم، فأرسل الشبان من الأتراك والمصريين إلى أوروبا لتلقى علوم

الحرب في مدارسها، وغيرها من العلوم والحرف التى لها أساس بعيد أو قريب بالحرب وشؤونها.

٢٢- المنيو سيف (سليمان باشا)

الذين عهد إليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد كانوا جميعا من ضباط عهد الإمبراطورية الفرنسية والإيطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل فى وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين إلى الشرق. وكان من أعظمهم كفاءة وأوسعهم علما وأحسنهم استعدادا المنيو سيف (ملازم الركاب سابقا لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى).

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغفط حق أحد ما من أولئك الضباط الأبطال الذين كانوا خير معاون له على أداء المهمة التى عهدت إلى كفاءته، لا يسعنا إلا الاعتراف برجوع الفضل إليه فى إنجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد على أتم ما يرام.

ولد المنيو سيف (سيف) موفقا للقتال. فقد دخل مبكرا فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومرة على التعاقب بالأسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهضة لتوسيع نطاق معلوماته، وتنمية كفاءته وحذقه وتدريبه على أنواع الرياضات البدنية التى كان يساعده على أدائها قوة بدنه ومثانة أساطينه. وكان من سلامة الطبع ودماثة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة، مهمة تشكيل الجيش على النظام الجديد. وقد كان هذا الفوز مما وجه إليه الأنظار، وجعل كلا من الوالى وإبراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقة به إذ رقى بالتعاقب إلى رتبة بكباشى ثم إلى رتبة أميرالاي، وكان حائزا عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (مورة) بعد أن منح لقب البكوية. ولما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليونان وعاد معها إلى مصر، رقى إلى رتبة أمير لواء، ثم إلى رتبة أمير ميران مع لقب الباشوية بعد انتهاء حملة الشام. وكان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثا من بواعث إعجاب الدوق دى راجوز به. لهذا لا أجد بأسا من إيراد رأى هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد مما كتبه. قال:

« كان سليمان باشا نافذ البصيرة في رؤية طويل الروية في عمله، وكان كلما ارتفع درجات في سلم الترقى ازداد استشعارا بثقل مسئوليته تبعاً لانفساح أفق سلطته. إذ كان من أصحاب النظر في الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت القرص له مرارا لتطبيق العلم على العمل فاستغنتها فقد أصبح بحق في طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية. بل إنه وصل في هذا الميدان إلى حد يجيز لى أن أقرر هنا أن مالم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه، قد أدركه وعمله بطريق الحزر والتخمين. ذلك لأنه قام بخدمته في فرنسا وحارب معنا حينما كان في الرتب الصغيرة. فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا، وكلت الحروب التي اشترك فيها لأجل مصر بالنجاح والفوز الباهر. وهو يحدث عن هذه الحروب حديثاً عجيباً، وله فيها من الآراء ما يطابق الصواب دائماً، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو بالمبادئ التي ينبغى أن تكون قاعدة هذا التنظيم وهذه الحركات. وصفوة القول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والإعجاب لدى أركان حرب البلدان الأخرى».

٢٣- مبادئ تشكيل الجيوش النظامية.

أذكر فيما يلي بيان مبادئ تنظيم الجيوش النظامية في مصر فأقول:

قدم محمد على إلى الميسو (سيف) خمسمائة من مماليكه كى يعلمهم استعمال السلاح ويديريهم على فنون الحرب. وما من عظيم من عظماء القطر إلا وقدم عدداً من مماليكه لهذا الغرض، حتى بلغ عدد أولئك الشبان ألفاً. وكان المقصود أن يكونوا نواة الجيش المصرى، غير أنه لم يكن ميسورا حملهم على رعاية النظام وتلقيهم تلك الفنون فقرر الوالى إرسالهم إلى أسوان، لا ليطيعوا أمره فقط. بل أيضاً ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والأوهام الباطلة من التحويم حولهم. وكان الوالى قد أنشأ بتلك الجهة أربع ثكنات فسيحة وضع فيها أولئك الألف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب.

وكان تعليمهم مبادئ هذه الفنون يستدعى قضاء ثلاث سنوات تقريبا، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة، لم تلبث أن دلت وأزيلت من الطريق. وكان من أهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم

والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم لمعلمين مسيحيين. وكان النظام والسكوت اللذان لابد منهما أثناء المناورات العسكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شيان اعتادوا - منذ نعومة الأظفار - الألعاب والتمارين التى تتخللها الضوضاء والحركة واختلال النظام. فلقد دبروا المؤامرات مرارا ضد المسيو (سيف) لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقد شيئا من ثبات جأشه بل أستأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد.

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ إلى الفتنة وتهديده بالتنكيل به، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا: إنه يريد بذلك أن يقيمهم معرة الجبن، إذا قتلوه غيلة. فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شرة حدتهم. وبعد إذ كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له . ولقد تمكن بفضل هذه العواطف من إتمام تعليمهم فى مدة ثلاث سنوات وبعد أن تكونت على المثال المتقدم الهيئات الأولى من الضباط، شرع فى حشد العساكر وتكوينهم. وكان الوالى لا يذهب إلى اختيارهم من الأتراك أو الأرمن، لإفضاء الجهود التى بذلت فى سبيل تنظيمهم إلى الفشل والخيبة، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لأحكامه. وكان من جهة أخرى لايميل إلى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا لحيلة مفتوحا أمامه إلا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار. ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا، وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفوط فى الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل. وفى الوقت الذى وصلوا فيه إليها، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الأنفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين، وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الأورط الستة الأولى، وعين أولئك المماليك ضباطا وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الأشهر التالية إلى يونيو سنة ١٨٢٤ فى إتقان التعليم العسكرى وترقيته. ولما لاح للوالى نجاحه أنفذ بالأورطة الأولى من تلك الأورط الست إلى بلاد العرب الوسطى، وبالأورطة الثانية إلى سنار وبالأربع

الباقية إلى شبه جزيرة مورده تحت إمرة إبراهيم باشا.

على أن هذه التجارب الأولية لم تتوج كلها بالنجاح، فإن السواد الأعظم من السودانيين الذين جندوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعدم موافقة جو مصر لأمزجتهم. دع أنهم كانوا لا يصلحون في الحقيقة لتحمل أعباء الخدمة العسكرية كما ينبغي.

وكان لا يمر يوم إلا ويزداد شعور الوالى فيه بالحاجة إلى جيش منظم لتنفيذ مقاصده العالية وبلوغ مطامحه البعيدة. فاعتزم حشد الجنود من المصريين. وكانت هذه المجازفة محفوفة بالآخطار الكبار، كما يثبت تدمير الأمة المصرية ونزوعها إلى الهياج في جهات متعددة حتى اضطرت الحكومة إلى التدخل لإخمادها. ولكن لما رأى الفلاحون الذين انتظموا في سلك الجيش ما يعاملون به من الرعاية وحسن العناية بشئونهم، ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا في بيوتهم، انتهى الأمر بهم إلى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتياب بها.

ولما عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديد وظهرت أهميته للناظرين، استدعت الحكومة من فرنسا الجنرال (بوابين) والكولونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الذين كان لهم الأثر الظاهر في إتمام ذلك التنسيق على خير ما يرام.

٢٤- المشاة أو البيادة المصرية

كان تشكيل جنود المشاة المصرية أول ما استرعى أنظار الحكومة واستدعى عنايتها. فلا عجب إذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر، حتى أنها أنشأت بثغر دمياط مدرسة لتخريج الشبان اللازمين للاندراج في سلك الجيش كصف ضباط أو ضباط. وبهذه المدرسة الآن أربعمئة تلميذ يدرّبون على المناورات الحربية والإدارة العسكرية ويتلقون اللغات العربية والتركية والفارسية. وناظرها ضابط من مقاطعة (بييمونت) وهو المسيو (بولونى) الذى كان ضابطا برتبة اليوزباشى في عهد الإمبراطورية. وقد ترقى في مصر إلى رتبة القائم مقام مكافأة له على ما أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب وإشعارا بما أحرزه من النجاح في مهمته.

ولقد شهد الدوق دى راجوز فيلقا من المشاة المصرية أثناء قيامه
بالمناورات فكتب ما يأتى:

« كان لواء المشاة المؤلف من الأورطة التاسعة والأورطة العشرين متأهبا
لرحيل إلى السويس للإبحار منها إلى الحجاز لتعزيز الحملة المصرية فيه.
فتوليت بنفسى عرضه فقام بالمناورات أمامى مدة ثلاث ساعات فى سهل
القبة القريب من قبور الخلفاء وقبر الملك العادل فرأيت منه ما استوجب
سرورى وإعجابى . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر، فتيسر بذلك
لى الحكم بما كان للقائد الأعلى للجيش من الأثر الجليل فى تشكيله والحق
يقال، فإن العساكر الذين عرضتهم جمعوا إلى الدراية بالأساليب العسكرية
حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام.

٢٥- الخيالة أو الفرسان

لم يبدأ تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد إلا عقب عودة الجيوش
المصرية من حرب مورة. فإن إبراهيم باشا كان قد رأى فى هذا البلد الخيالة
الفرنسيين، فأدرك ما يكون من الأهمية للفرسان الذين يعملون جماعات أو
شراذم أو أورطا، والامتياز على الفرسان غير المنتظمين، وأن هذا الامتياز يشبه
نظيره فى المشاة المنتظمة بالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة. وبمجرد عودته
إلى مصر صرف همته بنشاط ومثابرة إلى تشكيل الخيالة بحسب النظام
الجديد واستدعى لهذا الغرض المعلمين الأوروبيين وشكل أورطا عديدة من
الفرسان على اختلاف أنواعها. من صيادة ومدركة ورماحة الخ.

٢٦- مدرسة الخيالة

أنشئت مدرسة الخيالة فى الجيزة بقصر مراد بك. وقد طبق عليها حديثا
نفس النظام المعمول به فى مدرسة الخيالة بمدينة (سومور) بفرنسا مع
رعاية ما اقتضاه المكان من اختلاف بعض التغيير والتبديل. ويتعلم بهذه
المدرسة شبان من الأتراك والمصريين - مختلطين بعضهم ببعض - ضروب
المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والإدارة العسكرية.

قال الدوق دى راجوز: « وقد بلغت هذه المدرسة درجة الكمال وسيكون
لها التأثير العظيم فى مستقبل الجيش المصرى»، ويتلقى العلم بها الآن

ثلاثمائة وستون شاباً منقسمين إلى ثلاث فرق. والذي قام بإنشائها ويتولى إدارتها الآن هو القائم مقام (فاروق) الذي كان فيما سبق ملازماً لركاب الماريشال (جوفين سان سير).

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى مير اليا. وهى مكافأة عادله على خدمه الجلية لمصر ولسمو الوالى.

٢٧- المدفعية أو الطوبجية

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت نفسه الذى شكلت فيه المشاة النظامية. وغنى عن البيان أن الذين أنشأوها طبقة من المعلمين الأوربيين وجماعة من الضباط السابقين فى عهد الإمبراطورية. ومن الأتراك الذين تفرغوا لإتقان هذا السلاح جماعة فازوا فيه بالقدح المعلى، وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك، وهذا الضابط الممتاز هو الذى أنشأ معامل صنع السلاح والمدافع الموجودة بقلعة القاهرة ويقوم الآن على إدارتها. ولقد أشار الماريشال (دى راجوز) إلى تلك المعامل، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضوعات، فقال: «إنه لايسع من شهدها إلا الإطراء فيها» وإنه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشال فى كفاءة أدهم بك وحكمه على ذكائه واقتداره. قال: «لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ، وهو صحيح اللهجة فيها. وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية. وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية وأمهر مديرى الأدوات المتعلقة بها، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الإدارية. ولا شك أن محمد على كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط. بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله.

٢٨- مدرسة المدفعية أو الطوبجية

أنشئت ببلدة طره، منذ سنوات، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمائة إلى أربعمائة تلميذ. يعلمون اللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات، وكل ما هو صالح من

العلوم العالية للتطبيق على المدفعية. ولقد أدى - البرتغالى الميرالاي (ساجرا) الذى تولى إدارة هذه المدرسة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى إلى رتبة أمير لواء - خدما جليلة لها - وألحقت بالمدرسة أورطة لمدفعية المشاة وأورطة أخرى لمدفعية الفرسان. وأنشئ لها ميدان ضرب نار (بوليجون) يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ.

وهاك ما ذكره عن هذه الجنود الدوق دى راجوز الذى لايسعنى إلا الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وأفكاره العالية فى الموضوع. قال: «تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمناورات، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات، فقامت بها على أتم ما يكون من الترتيب والدقة وبأقصى ما يرام من السرعة.

وكان رجالها على ما يرام من حسن الهيئة وسعة العلم والدربة ونظام الحركات العسكرية، كما كانت مركبات المدافع مستوفية لشروط الإتقان، وإن تكن الخيل التى تجرها صغيرة الجسم. وكل خيل القطر المصرى من هذا القبيل. ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا، وهم لا يخطئون الهدف بل يصيبونه بدقة وسرعة. فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكمال والإتقان وتشبه من هذه الجهة مدفعات الجيوش الأوروبية. وأمير آليها من الرجال الأكفاء الممثلين نشاطا وغيره. أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ثمانية عشر بلوكا وقد قامت بتمريناتها أمامى فالفيت أن مدافعها كانت تصوب مقذوفاتها نحو الهدف تصويبا حسنا. أما نار مدافع الهاون، فكانت أقل ضبطا منها وإحكاما.

« ولا يسع الرأى لهذه المدفعية إلا الإعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين الذين ديدنهم الاستئناس إلى الدعة والسكون، إلى جنود على جانب عظيم من البسالة والإقدام».

وأستمع الدوق دى راجوز الإذن لى بإيراد آخر عبارة كتبها فى هذا الموضوع، على سبيل الحكاية، فقد قال: « ومتى تخرج من المدارس نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من تلاميذها، وهو ما لابد حاصل فى بضع سنوات إن شاء الله، فإن الجيش المصرى يكون قد تم تشكيله بحسب النظام الحديث فيبارى أمثاله فى الديار الأوروبية».

٢٩- الإدارة العسكرية

نسقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعية على نمط الجيوش الفرنسية. واتبع فيها ما هو متبع عندنا من الأساليب والأتماط في أداء الحركات والسير، وسلكت في نظامها الموسيقىات العسكرية. وتم التشاكل من كل وجه تقريبا فلم تبق مغايرة إلا في النداء بالأوامر التي يصدرها الضباط إلى الجنود فإنه حاصل باللغة التركية لأنها من أنسب اللغات لأداء هذا الغرض. وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التي يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقا دقيقا محكما. وبلغ من المغالاة في التقليد والأخذ عنا أن الرتب العسكرية في ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها في هذا.

وقد أنشئت منذ البداية، للقبض على زمام الجيش وإدارة شئونه، نظارة على نظام أبسط من نظامها عندنا، مع توسع في اختصاصاتها. فنظارة الحربية المصرية هى المنوط بها جميع ما يورد إلى الجيش من سلاح ومعدات وثياب. وهى التى تستخرج من مخازن الحكومة ومستودعاتها ما يلزمها من الذخائر والمؤن الغذائية والأدوية الخ.

وإدارة الفياق في الغاية القصوى من البساطة والخلو من التعقيد فإنها لاتحرر عقودا بشراء، ولا تساوم أحدا على ثمن ولا تطلب اعتمادا من أحد ولا تحول اعتمادا من باب إلى غيره. وفي اتباع هذا الأسلوب الساذج وقاية من الاختلاس والسرقة أما مصلحة الصحة، فقد جعل النظام الفرنسى قاعدة لتنسيقها وترتيبها، مع شئ من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات. ولكل أورطة من الموظفين والأدوات العدد اللازم والمقدار الكافى لتشكيل المستشفيات الخاصة بالأورط كلما مست الحاجة. وسنفيض في الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب في القطر المصرى.

وأغذية العساكر عبارة عن معينات من الخبز واللحم والأرز والعدس والسمن والزيت والصابون، وكلها من الصنف الجيد وبالمقادير الكافية.

٣٠- شوار = لبس = الجنود

شوار الجنود - أى ملابسهم الرسمية المتشابهة، في الغاية القصوى من البساطة. وهى، على صلوحها وفائدتها، حافظة للزى الوطنى الأصلى بقدر المستطاع لتألفها من طربوش أحمر، (والعقائد الدينية تحول دون اتخاذ قلنسوة تشبه قبعة المسيحيين) وصدرية كالشعار متشابكة على الصدر

ومحشورة في السروال. والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضا واسعا إلى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين)، ويدار على الجسم حزام. والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف. ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس ، شتاء، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء. وفي الصيف يرتدى رجال الجيش كله الملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الأحمر. ،وأما مجموعة الأدوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية. ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر إلا في نوع الجوخ وما هو مجمل منه من الوشى ، واللون الأحمر خاص بالضباط أما النشرات التي تميزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهي: يحمل الأونباشى شريطا واحدا على الصدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة. أما الملازم الأول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمة فضية، والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس، والميرالاي هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللواء نجمتين في هلال، وكلها من الماس، والميرميران ثلاثة نجوم في هلال وكلها من الماس.

٣١ - الرتب في الجيش

الرتب في الجيش كما يأتي:

رئيس العشرة	الأونباشى
مساعد اليسار	الجاويش
التالى الثانى للرئيس يساعد وينوب عنه	الباشجاويش
التالى الأول للرئيس يساعد وينوب عنه	الصول قول أغاسى
رئيس المائة	الملازم الثانى
مساعد اليمين	الملازم الأول
رئيس الألف	اليوزباشى
الذى ينوب مناب الميرالاي	الصاغقول أغاسى
أمير الألاى	البكباشى
أمير اللواء	القائمقام
أمير الأمراء	الميرالاي
رئيس القواد	الميرلواء
	الميرميران
	السر عسكر

وأمرء الآلايات وأمرء الألوية يحملون لقب البكوية. أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبن.

٣٢- المراتب والمهيات

مرتب الجندي البسيط خمسة عشر قرشا في الشهر - أى ما يعدل صليدين ونصف صلدى في اليوم. ومرتب الأونباشى خمسة وعشرون قرشا، والجاويش ثلاثون، والباشجاويش أربعون، والصولقول أغاسى ستون، والملازم الثانى مائتان وخمسون، والملازم الأول ثلاثمائة وخمسون، واليوزباشى خمسمائة، والقائمقام ثلاثة آلاف، والمير الاى ثمانية آلاف والمير لواء أحد عشر ألفا، والمير ميران اثنا عشر ألفا وخمسمائة.

ومراتب كبار الضباط جسيمة، على ما يؤخذ مما تقدم، وسبب ذلك أن سمو الولى كان يريد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث في الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه، دع أن الرؤساء في الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم إلى بسط اليد بالنفقة.

٣٣- الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤساء في الجيش المصرى جارية على مثالها في الجيش الفرنسى. فإن القانون العسكرى الفرنسى، الباحث في هذا الموضوع، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه. وفي بادىء الأمر، اضطر إلى استعمال الجلد عقابا للمخالفين. ولكن سمو الولى وإبراهيم باشا حصرا استعماله في دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن إلى إلغائه بالمرّة.

٣٤- الروح العسكرية في المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم. لأنهم بوجه عام يمتازون ببداثة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمال المشاق والأتعاب. ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والبسالة والثبات عند الخطر، ومقابلة النوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معامع القتال، بلا وجل ولا تردد. والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى:

حدث في معركة حمص أن جندياً من الأورطة السابعة الفرسان يدعى منصوراً انتزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى - وهو في هذه الحالة - التراجع عن ميدان القتال. بل تقدم رجال كتيبته حاملاً على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة. وظل يحارب إلى أن مات.

وحدث في معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح، أسرتهم في المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال لمساهمة = مشاركة = إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفي تلك المعركة سقط جندي من الأورطة الرابعة الفرسان من ظهر جواده مصاباً بجرح، فلما شاهده أمير لوائه أحمد المنكلي سارع بتقديم جواده إليه، لكي يرجع إلى الساقية. فأبى الجندي قائلاً إنه يفضل البقاء في ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين، ولو لقي حتفه.

وفي إحدى المعارك أصيب فتى من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح، ورأى رفاقه في فصيلته يذهبون كل مذهب فراراً من العدو. فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ في بوقه بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. ولما شهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الحياء من رؤيته، وهو فتى صغير جداً، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالة فلموا في الحال شعثهم وجمعوا فلولهم ثم عادوا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذي ثلمه العدو برهة ما من الزمن.

ومن أهم الحوادث وأجدها بالذكر - لا سيما وأن فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم - أن سليمان باشا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثاً. فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل في السادسة عشرة من عمره يدعى بالحاج على، فهم سليمان باشا برفضه معترضاً على تجنيد مثله، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على إلا أن يبقى تحت السلاح قائلاً لسليمان باشا إنه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه في أول نهضة ينتهزها لذلك.

وكان الجيش المصرى ضارباً الحصار على (عكا) فخرجت الحامية يوماً

وتغلّبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة في الجبهة ملازمة الهزيمة. فتقدمت الأورطة الثالثة من الفرسان التي كان الحاج على منتظما في سلكها لتعزيز جانب أولئك الجنود، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين إلى مواقعهم. ولكن الحاج على لم يكفه أنه شاطر رفاقه فخار فوزهم. بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع في أسر العدو. ثم انقض على ضابط تركي فأسره، وجاء بالضابطين المصري والتركي إلى سليمان باشا وقال له: «ألا تزال تعتقد أنني جندي لا أصلح لشىء؟».

وكان الأتراك، لما يشعرون به من علوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكثرثون بهم. ويعتقدون بهم العجز عن مجاراتهم. ولكن حرب مورة أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول المنجم، الذى أذله الضغط والعسف، قدير على استرداد مجده القديم وأهل لمنازعتهم على فخر النجاح والفوز في القتال. ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و(بلان) و (قونيا) سموهم الذاتى عليهم باعتبار كونهم أفرادا كما أثبت شوكتهم باعتبار أنهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط القتال وتدابيره.

على أن المصريين الذين يستحقون هذا الإطراء العظيم بوصف كونهم جنودا، لا يستحقونه أبدا متى وصلوا في مدارج الترقى إلى مراتب القيادة، لأنهم في المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغيرون العثمانيين والمماليك في الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عاداتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنهما إبراهيم، على الرغم منهما، إلى العدول عن ترقيةهم وترفعيهم إلى المراتب السامية في الجندية.

وتلقاء هذا النقص، أسندت إلى المماليك والأتراك في الجيش المناصب العليا. وليس بمستبعد أن تكون قلة أهلية المصريين للقيادة من الظروف الملائمة لجريان الأحوال على مقتضى الواجب. فإن الشعب المصرى سريع التقلب عديم الثبات إلى حد يخشى معه. فيما لو سلمت قيادة الجنود إلى ضباط منه، نزوعهم إلى الهياج والثورة. أما وقد وضع النظام على الترتيب السابق فإن العساكر يخضعون لضباطهم، ويستطيع هؤلاء إلزامهم بتنفيذ أوامرهم لما يتخذونه من وسائل الاحتياط والتحفظ لذلك. لاسيما وأنهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم، كما لو كانوا من أبناء جنسهم والشعور العائلى

من أخص صفات المصريين، فهم لا يستغنون عن الأنس بنسائهم. ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا أيضا. ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع في تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرّد. على أنه لمّا بهم في بلد قليل عدد السكان كالقطر المصري، أن يساعد الخمسون أو الستون ألفا من الجنود المصريين، بزواجهم وهم في الجيش، على تكثير النسل. ومفهوم أنه إذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجاتهم وأولادهم ويزحفون وحدهم إلى ميدان القتال. وتهتم الحكومة، في مثل هذه الحالة، بأطفالهم وتتولى الإنفاق عليهم فترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعدل نصف المرتب الذي يتقاضاه آباؤهم.

٣٥- جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلي بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحرب الأخيرة:
 حرس صاحب السمو الوالى، وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة
 آليات من المشاة وآلايين من الفرسان أى من ١٢٠٠٠ عسكرى.
 حرس شرف السر عسكر، وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكرى
 أورطة أساس الضباط، وهى مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى
 خمسة آليات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة واثنان من المشاة الراكبة
 وعدد عساكرها ١١٦٠٠
 ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع، وعدد عساكرها ١٨٠٠
 آلاى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى
 أورطتا هندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠
 ستة وثلاثون آلايا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠
 خمسة عشر آلايا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠
 جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والأرنؤود والعربان، وعددهم
 ٢٦٠٠٠ مقاتل

المجموع ١٨٠٠٠٠ تقريبا.

وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التى يقيمون

بها:

جيوش نظامية

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
١٣٧٢	حماه	الآلأى الأول من طوبجية الحرس
٢٣٤٩	الإسكندرية	الآلأى الثانى من طوبجية المشاة
١٩٤٩	حلب	الآلأى الثالث من طوبجية المشاة
٩٨٢	حمص	الآلأى الأول من طوبجية الراكبة
١٠٠٧	دمشق	الآلأى الثانى من طوبجية الراكبة
٣٣٧	عكا	أربع فصائل من طوبجية متفرقة
٣٧٩	الحجاز	الأورطة الأولى من المدفعية
٣٠٤٨	عينتاب	الآلأى الأول من مشاة الحرس
٢٦٤٥	مرعش	الآلأى الثانى من مشاة الحرس
٢٤٣٥	حلب	الآلأى الثالث من مشاة الحرس
٤٥٤٧	السودان	الآلأى الأول من المشاة (الأورطة الخماسة)
٢٢٥١	عينتاب	الآلأى الثانى من المشاة
١٥٢٦	اليمن	الآلأى الثالث من المشاة
٢٥٩٣	مرعش	الآلأى الرابع من المشاة
٢٦٢٩	أطنه	الآلأى الخامس من المشاة
٢٣٦٢	قليس	الآلأى السادس من المشاة
٢١٩٢	الحجاز	الآلأى السابع من المشاة
٣٣٩٦	السودان	الآلأى الثامن من المشاة
٢٣٠٤	حلب	الآلأى التاسع من المشاة
٢٠٥٤	حلب	الآلأى العاشر من المشاة
٢٣٣٨	أورفه	الآلأى الحادى عشر من المشاة
٢٣٢٦	عينتاب	الآلأى الثانى عشر من المشاة
١٢٢٥	الحجاز	الآلأى الثالث عشر من المشاة
١٩٨٨	حلب	الآلأى الرابع عشر من المشاة
٢٥٥٥	الدرعية	الآلأى الخامس عشر من المشاة
٣١٤٩	قنديا	الآلأى السادس عشر من المشاة
٢٣٦٩	أورفه	الآلأى السابع عشر من المشاة
٢٠٤٩	عكا	الآلأى الثامن عشر من المشاة
٢٣٤٩	الحجاز	الآلأى التاسع عشر من المشاة
٢٦٧٧	اليمن	الآلأى العشرون من المشاة
٢٣٦٣	الحجاز	الآلأى الحادى والعشرون من المشاة
٢٢١٢	أورفه	الآلأى الثانى والعشرون من المشاة

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
٢٣٤٢	ينبع	الآلای الثالث والعشرون من المشاة
٣١٣١	انطاكية	الآلای الرابع والعشرون من المشاة
١٧٥٥	أورشليم	الآلای الخامس والعشرون من المشاة
٣٣١٨	القاهرة	الآلای السادس والعشرون من المشاة
٢١٢٩	الحديدة	الآلای السابع والعشرون من المشاة
٢٤٤٦	الحديدة	الآلای الثامن والعشرون من المشاة
٣١٧٢	آطنه	الآلای التاسع والعشرون من المشاة
٢٩٢٥	حماء	الآلای الثلاثون من المشاة
٢٤٠١	حلب	الآلای الحادی والثلاثون من المشاة
٣٣١٨	القاهرة	الآلای الثاني والثلاثون من المشاة
٢٦٠٤	الإسكندرية	الآلای الثالث والثلاثون من المشاة
٢٥٦٤	قليس	الآلای الرابع والثلاثون من المشاة
٣٣١٨	القاهرة	الآلای الخامس والثلاثون من المشاة
٧٩٦	اللانقية	الآلای الأول من فرسان الحرس من المشاة
٨٤٤	بيسان	الآلای الثاني من الحرس المدرعين
٨٢٥	أورفه	الآلای الأول من الفرسان
٨٣٠	زامبا	الآلای الثاني من الفرسان
٨٤٧		الآلای الثالث من الفرسان
٦٧٨	آطنه	في الطريق إلى الإسكندرية
		الآلای الرابع من الفرسان
		الآلای الخامس من الفرسان
٨٣٢		في الطريق إلى الإسكندرية
٧٧٠	دمشق	الآلای السادس من الفرسان
٧٤٢	طرسوس	الآلای السابع من الفرسان
٧١٢	دمشق	الآلای الثامن من الفرسان
		الآلای التاسع من الفرسان
٨١٦		في الطريق إلى الإسكندرية
٧٦٨	عكا	الآلای العاشر من الفرسان
٧٥٦	قليس	الآلای الحادی عشر من الفرسان
٦٦٢	طرسوس	الآلای الثاني عشر من الفرسان
٨٠٦	أورفه	الآلای الثالث عشر من الفرسان
٣٩٨٠	القاهرة	أورطة المتقاعدين
٨١٢	عكا	الآلای الأول من البلطة جيه
٧٩١	إسكندرية	الأورطة الأولى من المتقاعدين

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
١٦٤١	طرابلس	أورطتان من المتقاعدين
٨٨٥	دنقله	أورطة من المتقاعدين
٧٥٨	أدليب	أورطة من فرقة المهندسين
٨٠٨	إسكندرية	أورطة من البلطة جيه
٩٤	القاهرة	فصيلة من اللغامين
٢٨٥	القاهرة	الأساس
١٦٧١	مراكز القطر	١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين
١٨٥	مصر العتيقة	رجال الألعاب النارية والصواريخ
١١٥٢	السر عسكر	آلئ من رجال القرابة
١٠٦	في الحجاز	فصيلة من رجال القرابة
٢٠٠	في الحجاز	بلوكان من العساكر المتقاعدين
١٣٠٣٠٠	المجموع الكلى	

الجيوش غير النظامية

عساكر	ضباط	في الحجاز
١٥٨٠	٤	فرسان أترك
٣٩٥	١	مشاة أترك
٩٤٥	٩	فرسان مصريون
٣٣٩	٥	مشاة مصريون
٧٨٧	—	مدفعية
—	—	
٤٠٤٦	١٩	المجموع
٢٧٨٥	١٠	في القطر المصرى
٢٧٧٥	٧	فرسان أترك
١٦٦٠	٧	مشاة أترك
١٢٩٩	—	فرسان مصريون
—	—	مدفعية
٨٥١٩	٢٤	المجموع
١٩٧٠	٥	في اليمن:
		فرسان أترك

٧٦٠	٩	مشاة أترك
٢٠٠	—	مدفعية
—	—	
٢٩٣٠	١٤	المجموع
		في قنديا:
٤٥٠	٢	فرسان أترك
٢٤٠٥	٦	مشاة أترك
٢٨٠	—	مدفعية
—	—	
٣١٣٥	٨	المجموع
		في المدينة:
٣٠٢٠	٣	فرسان أترك
٣٧٥٠	١٠	مشاة أترك
٢٢٥	—	مدفعية
١٢٢٥	١٦	مصريون
—	—	
٨٢٢٠	٢٩	المجموع
		في السودان:
١١٧٠	١٧	فرسان أترك
١٢٨٠	٤	فرسان مصريون
٩٥٠	١٠	مشاة مصريون
١٨٦	—	مدفعية
—	—	
٣٥٨٦	٣١	المجموع
		في الشام:
٤١٢٥	١٤	فرسان أترك
١٩٣٠	٥	مشاة أترك
٤٩٨٠	٦٣	فرسان مصريون
—	—	
١١٠٣٥	٨٢	المجموع

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتي:

ضباط ٢٠٧

عساكر ٤١٤٧١

٤١٦٧٨

وقبائل العربان في القطر المصري كقبائل أولاد علي والجميعات والهنادى والجهلات ولد سليمان والزوفه وجهينه والهواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الدوام لتوريد الكثيرين من الرجال والخيول والجمال ولوازم القتال لأول إشارة من سمو الوالى.

الحرس الأهلى

الإسكندرية	آلايان	٦٨٠٠ جندى
البرلس ورشيد	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
دمياط	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
القاهرة	ثمانية آلايات	٢٧٤٠٠ جندى
مصر القديمة	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
بولاى	آلاى واحد	٣٤٠٠ جندى
		٤٧٨٠٠

وفى استطاعة مدارس الطوبجية والخيالة والمشاة والبحرية والهندسة الحربية أن تقدم للخدمة العاملة فى الجيش ١٢٠٠ مقاتل.

وعدا ما تقدم فإن جميع عمال الفاورىقات فى القاهرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بالتدرب على المناورات الحربية والإجراءات العسكرية، وفى الإمكان إبلاغ عدد من يحشد منهم إلى ٥٠٠٠٠ إذا مست الحاجة لذلك

مراجعة عامة لما تقدم

جيش نظامية	١٣٠٣٠٢ عسكري
جيش غير نظامية	٤١٦٧٨ عسكري
الحرس الأهلى	٤٧٨٠٠ عسكري
عمال الفاوريات المدربون	١٥٠٠٠ عسكري
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠ عسكري
الدونمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣ عسكري
المجموع	٢٧٦٦٤٣

٢. البحرية المصرية

إنشاء البحرية المصرية- حالة البحرية المصرية ومنشأتها قبل وصول المسيو سريزى بك إلى مصر- إنشاء دار صناعة الإسكندرية- العقبات التى ذللها المسيو سريزى- الأعمال والمباني والمنشآت فى الترسانة- السفن الحربية التى شرع فى بنائها- عمال الترسانة من المصريين- أحواض السفن- نوتية الدونمة- القوات البحرية لمصر وتركيا.

٣٦- إنشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحرية المصرية بعد تنظيم الجيش البرى بزمان يسير. نعم إنه كان لمصر أيام حرب موره دونمة حربية، غير أن الشطر الأكبر من سفنها أنشئ أو اشترى فى (مرسليا) و (ليفورنة) و (تريسته) وقد قضى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة.

ولم يرتفع للبحرية المصرية شأن عقب ذلك، إلا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغر (نولون) المشهورين بالخبرة والبراعة فى فنون البحرية، لتشكيل ترسانة (دار صناعة) لإسكندرية والإشراف على إنشاء السفن فيها. ولذا أن نقول فى موضوع هذه الترسانة أن إنشاءها كان، كإنشاء الشعر ونظمه، عفو الساعة لم يسبقه أقل استعداد. ولعل إيجادها من العدم كان المظهر الأول لعبقرية محمد على، والدليل الساطع على عزيمة وإرادة حاسمة لا ينتلم لها حد ولا يكبح لها جماح.

٣٧- حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) إلى مصر في أبريل سنة ١٨٢٩ ألفى = وجد = البحرية المصرية مؤلفة من وحدات قليلة من السفن، هي التي نجت من كارثة (نافارين)، نذكر منها فرقطة ذات ٦٠ مدفعا أنشئت بثغر (البندقية) وأخرى أنشئت في (ليفورنة) وجملة سفن من طراز الكورفيت والبريك. وكانت هذه السفن ينقصها لوازم القتال ومعداته، لأنها أنشئت في ثغور تجارية لا حربية. فاضطر (دى سريزى بك) إلى إنشاء مخازن للبارود فيها وإدخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضرورتها.

ولم يكن في الإسكندرية ترسانة لبناية السفن. وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب من الماء تبني فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقطة. وكانت ورش الصناعة عبارة عن ظلات بسيطة من الخشب، وكانت المواد والخامات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الأوروبيين يجلبونها من أوروبا.

وكان يرأس أشغال بناء الأساطيل وترميمها مصرى طاعن في السن يدعى الحاج عمر، وهو رجل شهم واسع الحيلة. وقد صار فيما بعد الساعد الأيمن لمسيو (سريزى) وموضع ثقته. وكان معه رجل تركى الجنس يزعم العلم بالهندسة، ولكنه كان في الحقيقة عنوان الغباوة والجهل، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته. وكان العمل قائما على قدم وساق لبناء سفن حربية أخرى برسم سمو الوالى بعضها في (ليفورنة) والبعض الآخر في (مرسيليا) و (لوندرة).

٣٨- تشكيل ترسانة الإسكندرية

كان محمد على يدرك ما للبحرية من الأهمية وخطر الشأن في حرب الشام وصد غارات الآستانة وجمالاتها. فكان إذا وقع إبطاء في بناية السفن بالثغور الأجنبية أو أعترض إنجازها عارض ناله من ذلك غم شديد. فعقد النية لهذا السبب على إنشاء ترسانة. وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهيمته بما ظهر له منهما في إنجاز الأشغال البحرية التي أنجزت بثغر مرسيليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور إلى الإسكندرية لتولى إدارة الأعمال البحرية في ثغرها.

وكان كل ما ألقى في وهم محمد على من استحالة دخول السفن الحربية إلى ميناء الإسكندرية وتحققه من نقص الأدوات الجربية والعمال اللازمين لمباشرة الأعمال المختلفة بها، مما شجعه على التمسك بإنشاء الفرقاطات الكبيرة. وكانت طلباته الأولى للسفن قائمة على أساس هذه الفكرة. فلما نظر سموه في الرسوم التي قدمت إليه، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحوظاته بشأنها وأيقن مطابقتها للصواب، اعترى أن لا يقتنى من السفن الحربية إلا ما كان منها كبير الحجم. ومن ثم ورد على خاطره إنشاء ترسانة كبيرة.

وبينما كانت تجهز الأدوات اللازمة، بالديار الأوربية، لإخراج هذا المشروع إلى حيز الفعل، كان المسيو (دى سريزى) يعد في الإسكندرية المعدات ويهيئ المقدمات. إذ تفرغ لأخذ أعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لإنشاء الترسانة الجديدة.. ولقد تبين له أن عمق الماء في بعض السواحل من ناحية مريوط لا يعوق إقامة البناء المطلوب. ولكن هذه السواحل - فضلا عن بعدها عن المدينة - كانت أمواج البحر في هياجه ترتطم بها ارتطاما شديدا وتحول دون إصابة الغرض المطلوب من الدفاع عن ثغر الإسكندرية. وكان العساكر يشغلون في أمالة الساحل، وهو متكون من مادة حجرية رخوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة المنحدرة التى تنشأ السفن عليها، بينما كان يعمل غيرهم في استخراج الأحجار التى ستبنى بها من الأبنية الأخرى. وصفوة القول فقد كانت بوادر العمل بما تخللها من آيات النشاط والهمة أصدق دليل على شدة الحاجة إلى سفن لقتال في أقرب ما يمكن من الزمن. وعلى الرغم من هذا فقد كان المسيو (دى سريزى) غير مرتاح لذلك الموقع، فصرف عنايته إلى البحث عن موقع آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لإنشاء الترسانة. وكان مما لاحظته أن الشاطئ الذى تنشأ فيه الزوارق في وقاية من هبوب الرياح واضطراب الأمواج، وأن الهجوم عليه مواجهة متعذر، إن لم يكن مستحيلا، وإنما كان عيبه قلة عمق الماء به. فمر بخاطره أن يعمل للتغلب على طبيعة الأرض فيه. وكان يعلم أن المواد الصخرية موجودة على عمق ثلاثين قدما، وأن من الميسور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على إقامة المباني المطلوبة. فعول نهائيا على إنشاء الترسانة فيه.

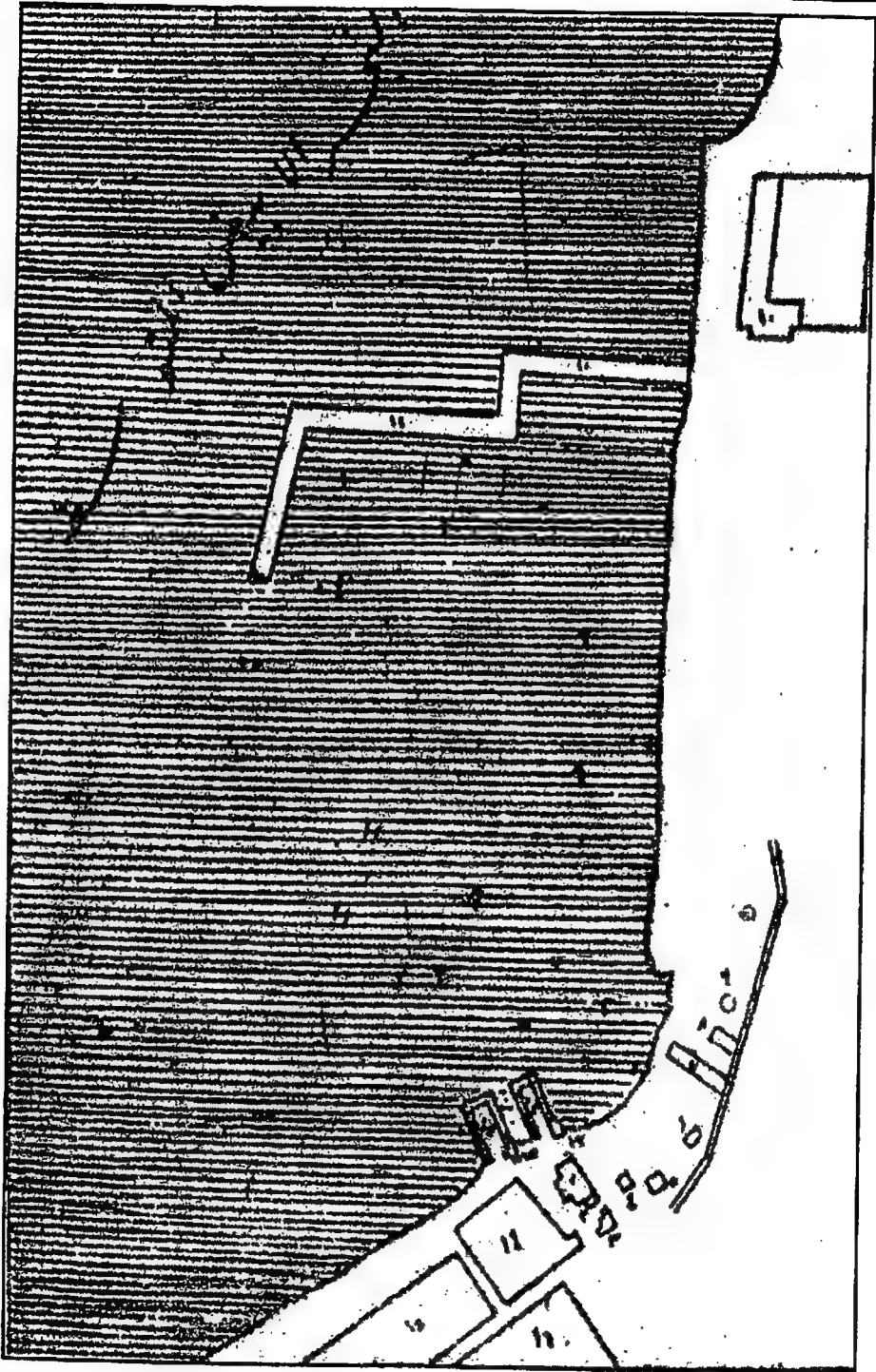
وما اختمرت هذه الفكرة في ذهنه، حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمباني التي تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة. وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة ١٨٢٩ حتى رفع إلى أعتاب سموه مجموعة من عمله الابتدائى، فأجال فيها نظره وتروى مليا ثم وافق عليها. وما هى إلا ساعة واحدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الأساس للمباني التي كانت الحاجة إلى البدء بها أشد ما يكون. وناط بالقيمين على الآلات وضع الأوتاد (الخوازيق) للارصفة وحفر الأحواض.

دليل تفصيلي

لتصميم ترسانة الإسكندرية

قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

- ١- الجمرک
- ٢- قهوة عمومية
- ٣- دکان
- ٤- مسجد
- ٥- ورشة بالبناء
- ٦- أرضية مستعملة لإنشاء السفن
- ٧- ظلة من الخشب لآلات الحدادة
- ٨- ظلة من الخشب لصناعة البراميل
- ٩- مسجد
- ١٠- مخازن ومكان للزجاج.
- ١١- الرصيف القديم، وقد تلف جزء منه
- ١٢- رصيف الخشب للنزول فى السفن
- ١٣- مكاتب مستخدمى الجمارک
- ١٤- مخازن الحكومة
- ١٥- مخازن خصوصية
- ١٦- جزء من مدينة الإسكندرية



«ترتيب أقسام ترسانة الإسكندرية» بحسب تصميم سنة ١٨٢٩

وكان سمو الوالى ، اثناء ذلك، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت إرادته إلى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن. فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهم بحسب النظام العسكرى، إذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل. فكان منهم النجارون والحدادون والجلافطة والسباكون والميكانيكيون الخ. وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج. وكان كلما اتسع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال، اختير الأونباشية والجاويشية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء.

وأجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) لسمو الوالى تشكيله هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم. ونظرا إلى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة بأسرارها على اختلاف مناحيها، كان يتولى بنفسه تدريب العمال على مباشرة الأعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها. وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيرا مطردا منتظما. ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٢١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تتزلج من البر إلى البحر.

ومنذ هذه الآونة وضح وضوح الشمس فى رابعة النهار ان مسألة «البحرية المصرية» حلت على أحسن ما يرام. ولكن كانت لاتزال الحاجة ماسة إلى إقامة الدليل على خطأ الأوربيين الذين زعموا أن السفن ذات الأربعة والسبعين مدفعا لا تستطيع اجتياز بوغاز الإسكندرية فى مأمن من الأخطار. فلما تصدى (دى سريزى)، لإثبات فساد هذا الزعم إثباتا عمليا بإنشائه تلك السفينة، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات. وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد إلى حد إتهامهم أياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالاساءة إحسانه. ولكن لم تلبث هذه الحملة أن انتهت بسلام، إذ تقرر أن بالإمكان اجتياز البوغاز بلا خوف من خطر ما، إذا اتخذت احتياطات معينة وتدابير معلومة. وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة إلى تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها وأبحرت من الميناء للإيغال فى خضمات البحر الأبيض المتوسط.

ومنذ هذا الحين أحرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره، وملأت بالسرور والابتهاج قلبه، فخوله السلطة

المطلقة وحرية التصرف في شئون الترسانة. وكان مما اشأبت إليه عنق (دى سريزي) أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على، فتفرغ لهذا العمل . ووهب لأجله وقته وحياته وهمته.

٣٩- العقبات التي تغلب عليها المسيو دى سريزي

وبالرغم من الهمة العالية التي أمتاز بها المسيو (دى سريزي) تكاثرت العقبات والمعاثر في طريقه وأصبح فرضا عليه تذليلها بحكمته وقوة إرادته وصبره. وبيان ذلك أن مجيئه إلى الإسكندرية لإنشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية، أزعج البيوت التجارية التي كانت تربح الأموال البالغة من التوصية في الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها، وألقى الخلل والاضطراب في أعمالها، فأخذت تضيع عنه من الأحاديث المفتراة مالا حصر له، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة. بل بلغ من أمرها أن حاولت استقزاز العمال الأوربيين الذين يتولون رئاسة الأقسام الصناعية في الترسانة ويقومون على تعليم المصريين وتدريبهم، إلى الشغب والعصيان. وكثيرا ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة في الالتباك والخلل من جراء هذه الفتن، حتى لقد حدث عند الشروع في دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها في مكانها قبل الاجل المعين، وكان ذلك بفعل فاعل بقصد إتلافها. وكان العمال المالطيون واليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم في ترسانة الإسكندرية. وكان المسيو (دى سريزي) قد جاء بهم من ذلك الثغر في السنة التالية لتعيينه ليتولوا رئاسة الأقسام المختلفة، فلم يتحرك لمسيو (دى سريزي) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد. بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجنان ثابت وإرادة قوية، فلم تقو عند الارتباط بهذه الصفات العالية على البقاء. أمّا الولي، وهو صاحب العبقرية العالية في كل شأن، فقد أغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشائيات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بإنجازها من غير توان ولا إهمال.

على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التي اضطرت ذلك المهندس الخبير إلى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات. وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته في بادئ الأمر إلى استخدام

الجم الغفير من الأوربيين لتسليح السفن التي كانت تبني بسرعة مدهشة، فادت معالجته هذا الأمر إلى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته. ولكنه ما انفك، مع ذلك، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين، ومعاقبة المقصرين في أداء أعمالهم، سواء أكان هذا التقصير عن إهمال أم عن غلط، أم عن سوء نية. وقد حملته تعليم المصريين تدريجياً تلك الصناعات التي حذقوها حتى ضارعوا الأوربيين فيها، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث أن الأعمال في العهد الأخير كان ينجز الشطر الأوفى منها بواسطة عمال من أهل البلاد ولم يحتفظ من هؤلاء الأوربيين إلا بشرذمة صغيرة من المعلمين الفرنسيين قصد ببقائهم في الخدمة الإشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن، ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سيرزى) على أداء المهمة التي وكلت إليه على خير مايرام.

دليل تفصيلي لتصميم ترسانة الإسكندرية

بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

- ١- مدخل الترسانة، وسيكون بعد انتهاء العمل في نمرة ٢٤.
- ٢- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء السفن عليها.
- ٣- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة.
- ٤- ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها.
- ٥- ورش الساريات والقلوع.
- ٦- ورش البكرات والخرطة.
- ٧- مكان أدوات السفن وأطقمها.
- ٨- مكان إبرام الحبال، وبالدور الأول مكاتب الإدارة ومدارس مختلفة.
- ٩- ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الأثقال.
- ١٠- ورشة الآلات البحرية والمعادن والصفائح والرصاص والنجارة.
- ١١- المخزن العمومى.

- ١٢- الإدارة الهندسية.
- ١٣- إدارة الميناء.
- ١٤- ورش الحدادة الكبرى.
- ١٥- معمل المزيليج والبرادة.
- ١٦- المسبك.
- ١٧- ورشة حدادة الأحواض.
- ١٨- ورش أشغال ترميم السفن في الأحواض.
- ١٩- ورش نجارة العمارات والثقب والجلفطة.
- ٢٠- موضعا الحوضين.
- ٢١- مكان إذابة الزفت والقطران.
- ٢٢- ليّمان.
- ٢٣- ثكنة.
- ٢٤- صحن المدخل الأصلي.
- ٢٥- آلات إبرام الحبال.
- ٢٦- المخازن.
- ٢٧- مساكن المديرين والضباط وموظفي الترسانة.
- ٢٨- ورش المعادن للمدفعية.
- ٢٩- ورش الخشب للمدفعية.
- ٣٠- مخزن وإدارة المدفعية.
- ٣١- مخازن خاصة بالسفن التي ينزع سلاحها.
- ٣٢- مستودعات لأخشاب بناء السفن.
- ٣٣- آلات وسطوح مائلة لسحب أخشاب بناء السفن.
- ٣٤- ترسانة الزوارق والسفن.
- ٣٥- مكان ترميم الغائص من السفن.
- ٣٦- حراس الميناء.

٣٧ فرقة الحرس.

٣٨ مخزن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب.

٣٩ جزء من المدينة يسكنه بعض المستخدمين.

٤٠ جزء من المدينة وحوانيت.

٤١ الرصيف المحيط.

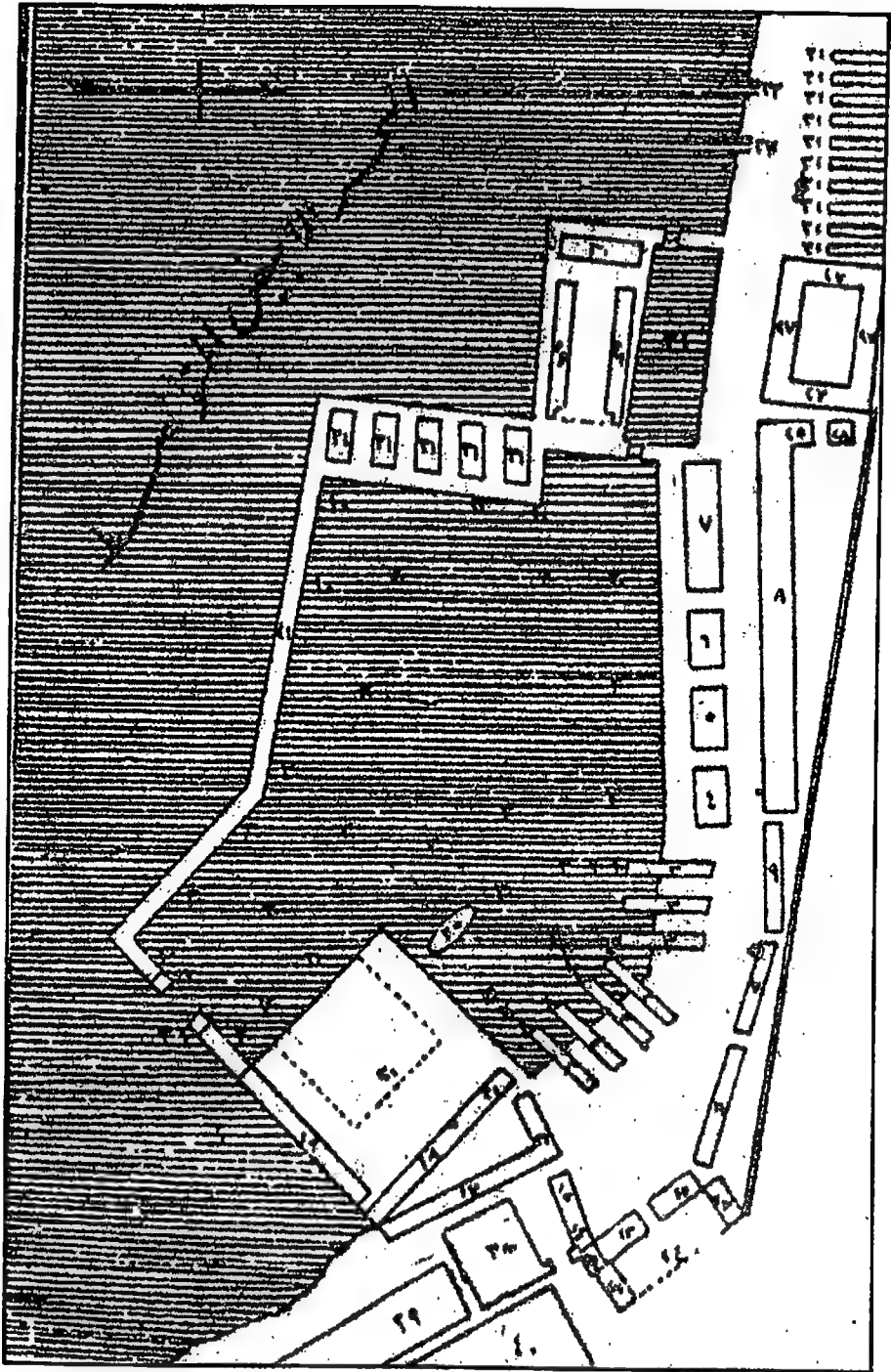
٤٠- أعمال الترسانة وبنياتها

بالنظر إلى إنشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع، قضت الحاجة ببناية ما يلزم لها من جديد. أما الأعمال الأصلية التى تم إنجازها فأربع قواعد من الحجر لبناء السفن عليها مع ما يتبعها من الانحدار الممتد إلى داخل البحر لتزليج سفن الدرجة الأولى، وثلاث قواعد غيرها لبناية الفرقاطات والسفن الأقل من تلك حجما، ومخزن عام لإيداع الذخائر البحرية. ومصنع للحبال بآلاته، وورش الحدادة والمزاليج، وورشة النشر والخرط، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبك والصفيع والرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والأشعة والبراميل، ومصانع الفلايك والزوارق وآلات رفع الأثقال وسحبها «الكابستان» ودقات السفن والمركبات، وورشة النماذج لأجزاء السفن والمدافع، وغرفة نماذج الأشياء التى يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضباط وظلات لخزن الأخشاب اللازمة لبناية السفن وحفظها وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغاطس من السفن الخ.

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسج قماش الأشعة ومعامل أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة. وكانت ورش القاهرة ومعاملها تشتغل أيضا لهذا الغرض، وكان المسيو (دى سريزى) لايميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد، فدرّب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها.

٤١- السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينما كان الخشب والموارد اللازمة لبناء السفن تصدر من أوروبا إلى الإسكندرية، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على إتمام بناية فرقاطة



تصميم ترسانة الإسكندرية
قدمه المسيو ليفوبور ديسريزي يوم ٩ يونيو سنة ١٩٢٩ ووافق عليه سمو الوالي

وسفینتین آخرین من طراز الکورفیت والبریک کان قد بدیء ببنائیتها قبل وصوله إلى الإسکندرية، فتعذر تحويلها إلى سفن حربية. ثم شرع في بناء سفينة من طراز الجولیت لم یستطع إتمامها إلا بتکبد العناء الشدید في تعلیم العمال بنفسه وارشاہم مباشرة إلى دقائق البناية البحرية وتفاصيلها الجزئية، فكان فوق ما هو منوط به من عمله أستاذًا یلقن العلوم والفنون في مدرسة العمل والتجربة.

وما کادت تصل إلى الإسکندرية الارسالية الأولى من الأخشاب التي وصی بها، حتی بدأ ببناء سفينة حربية من ذات المائة مدفع، وما أشرف على إتمام بنائها حتی شرع في بناية اثنتین أخريیین من حجمها وطرازها.

وسنأتی بعد علی بیان واف للمنشآت التي أنجزت أو رمت في ترسانة الإسکندرية أثناء وجود المسیو (دی سريزی) بالقطر المصري.

بنيت السفینتان (مصر) و (عكا). وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة سطوح، إلا أنها لم توضع بهما البطارية الرابعة بسبب أن السطح الأول منهما یحمل فیهما اثنتین وثلاثین مدفعا من عيار ٣٠، وهی مدافع طويلة، والسطحان الآخران كلاهما ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠.

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهی المعروفة بأسماء: (المحلة الكبرى) و (المنصورة) و (حمص). وفي كل من هذه السفن اثنتان وثلاثون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى و ٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ في البطارية الثانية و ٣٤ مدفعا من الزهر (كاروناد) من عيار ٣٠ في مقدم السفينة ومؤخرها.

والسفينة (أبوقير) ذات الثمانية والسبعین مدفعا منها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى، و ٣٠ مدفعا قصيرا في البطارية الثانية، وعشرون مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ في مقدمة السفينة ومؤخرها. والکورفیت (طنطا) وفيها أربعة وعشرون مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ انجليزی.

والجولیت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤ وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤ وسفينة لمدافع الهاون وسفينة نقالة لأخشاب الساريات.

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعا تحت التسليح، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى و ٣٠ مدفعا قصيرا في البطارية الثانية وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر في المقدمة والمؤخرة.

وكان العمل جاريا في سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب) و (دمشق).

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠.

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب المصلحون البحريون به فى أوربا بلا جدوى.

أما السفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدا من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا فهى:

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى وكان انشاؤها بمدينة (ليفورنة).

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر (مرسيليا).

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية.

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى، وأربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ انشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا، ولكنها لم تتم فكمل انشاؤها فى (لوندرة) فرقاطة للقتال.

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤، وكان إنشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الإسكندرية تعديلات تناولت جميع أجزائها.

و(الدمياطية) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨، وكانت كبيرة وحولت فى الإسكندرية إلى فرقاطة حربية.

و (موستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٨ وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢، و«كلانت» فرقاطة جزائرية أهدتها فرنسا إلى مصر.

والسفن (جنة بحرى) وأصلها من ثغر (جنوة)، و (جهادبحر) وأصلها من (جنوة) أيضا و (فوه) وأصلها من الإسكندرية، و(بلنك جهاد) وأصلها من (مرسيليا). وكلها من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤. و(واشنطن) وأصلها من (بورديو)، و(فولمينان) وأصلها من (ليفورنه)، و(الفشن) وأصلها من الإسكندرية، و(شاهين داريا) وأصلها من تركيا. وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منها إثنين وعشرين مدفعا من الزهر.

و(سمند جهاد) وأصلها من (مرسيليا)، و(خبر جهاد) وأصلها من (سيوتا)، و(التمساح) وأصلها من (مرسيليا)، و(بادى جهاد) وأصلها من (الإسكندرية)، و(الأمريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة، وهى سفن من طراز البريك الصغير، وتحمل كل منها إما ستة عشر مدفعا وإما ثمانية عشر من مدافع الزهر.

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن.

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب.

وكذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسقى (النيل) أصلها من (لوندره).

وقد راعى المسيو (دى سريزى) فى بناء السفن الحربية الإصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بإدخالها على السفن الفرنسية، وكذا الإصلاحات التى اهتدى إليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا، والملاحظات التى لاحظها فى إنجلترا ورأى من الأفضل العمل بها لفائدة البحرية. ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الإسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه.

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناء السفن الفرنسية الحربية، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فيها بزمان طويل. وهو ما يرجع الفضل فيه إلى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته.

٤٢-عمال الترسانة المصريون

إن العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال إنشاء السفن، وقد اظهرو فيها من الأهلية والدراية ما يوجب الدهش . وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل إلى ثمانية آلاف . أما العمال الأتراك فلم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاه عنهم ، لأنهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع إلى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لإجادة مايناط بهم من الأعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقیض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة أسرار الأعمال التى تنجز أمامهم ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الأخلاق والامتثال للرؤساء . دع أنهم فطروا فى محاولة فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر أكثر منه على الذكاء والعقل حتى ان الرسم البسيط يرشدهم إلى فهم حقائق الأشياء بمجرد النظر إليه قبل إمعان الفكر والروية فيه . إلا أنه مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن انه إذا بلغ من التعلم درجة ما لا يرغب فى تجاوزها ما بعدها . وهذا النقص يحول ، بلا ريب ، دون سعيه إلى الكمال .

وهم أميل إلى مزاولة الصناعات التى أساسها تقليد الأشكال والنماذج الثابتة . ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الأشرطة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة، ويحسنون ثقب الثقوب وقللطة المراكب . وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها إذا مست الحاجة إلى تغيير الأحجام واستنباط أشكال تخالف ما عهدوها عليه من المثال ، كما يتفق أحيانا فى ورش الآلات والحدادة والسبك ، ما لم يراقبهم أثناء أدائهم أيها الرؤساء الأوروبيون فإنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام .

وترسانة الإسكندرية التى يصنع فيها كل شئ بأيدي المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقتضى أن عامة الشعب فى أوروبا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الأعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه .

٤٢- أحواض ترميم السفن

لما أنجز الوالى بناية السفن الحربية الكبرى، وشعر بضرورة إنشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة، أطلعه المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض إنشاءها بالإسكندرية ، وقال إنها فى أوروبا تلتمس العناية المتتابعة من حذاق المهندسين وأذكاء العمال. وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لإنشاء ترسانة بالإسكندرية يتناول بناية حوضين، مع أن حوضا واحدا كان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لا مفر له من العمل بإدارة صاحب السمو والمسارة إلى تحقيق أمانيه، ولو استلزمت التحيل لإيجاد كل شىء من العدم. وكانت حالة الحرب بالنسبة إلى مصر تستدعى السرعة فى إنجاز تسليح السفن المبنية. فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من إنشاء تلك الاحواض. وعقب رحيله من الإسكندرية تصدى بعض المهندسين لإنشائها فذهبت جهودهم فى هذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الولى إلا أن رجا من الحكومة الفرنسية، وقد كان هذا منذ عامين، أن تبعث إليه رجلا قديرا على إتمام هذا العمل الجليل، فاختارت إدارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الأعمال الهندسية الجليلة التى قام بها فيها، وسبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به.

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الإسكندرية فترجع فى الأصل إلى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فإن هذا القاع طينى الماده إلى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الأركان لا ينفذ منه الماء، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الأولى. أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما. فإذا ضم إلى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما وهو سمك الأساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها، فلا مناص إذن من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء، بحيث لا ينفذ الماء منها. وهو ما لا يتأتى طبعا على قاع طينى هش إلا إذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة.

أما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام العقبات ولم تخذله صعوبتها، بل رفع إلى الوالى تصميمًا جليلاً محقق التنفيذ - على بساطته - فقد اقترح عليه فيه ما يأتى:

اقترح أن تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الأرض مندمجة صلبة، ومن الطول بحيث تهبط إلى القاع اليابس. وقال إن هذه الأوتاد إذا وضعت على الوجه المتقدم صلحت لأن تكون أعمدة وقوائم لبنانية الحوض. وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق واحاطته بخط من أوتاد أخرى متتابعة تنزل منه بمنزلة السياج وتختلف عن الأوتاد الأولى بطولها الذى تبلغ به إلى مستوى الأرصفة، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى الماء بعد زمن قصير، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء أو صخرة صناعية مصبوبة. وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعل إغلاقه ميسورا عقب مرور السفن إلى داخله بواسطة عوامة خاصة تشبه السفينة، تغرق وتعويم بحسب الإرادة. وهذه الطريقة هى المتبعة تقريباً فى إنشاء الحوض الجديد بثغر طولون.

ولقد بدىء العمل لإنشاء الحوض على هذا النمط. وهو جار الآن على قدم وساق. والمرجو أن يتم فى زمن قريب، لاسيما وأن الأخشاب والمواد اللازمة لإتمامه مكدسة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها.

ولقد قامت الكراكات بحفر القاع. أما وضع الأوتاد وهو عمل فى غاية الصعوبة فقد أنجز سريعاً بواسطة آلات خاصة انشئت بإشراف المسيو (مونجل) وإطلاعه.

٤٤- النوتية والدونمة

كان فرضاً، وقد تم إنشاء الأسطول بهذه السرعة، إيجاد النوتية لها فى أقرب آن. لذا بورد بتدريب عشرة آلاف رجل على الخدمة البحرية. وأنشئت للملاحة مدرسة نظم فى سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعى عندنا، ونيط بضباط فرنسيين تسليح السفن وتعليم بحريتها. وكان من

أطولهم باعا في تشكيل البحرية المصرية وأعظمهم أثرا في تدريب رجالها ومعاونة سمو الوالى بجهودهم العظيمة ومساعدتهم المبرورة، كل من المسيو (بيسون بك) الذى أسفت مصر جد الأسف لوفاته، والمسيو (هوسار) الذى لايزال يؤدى أجل الخدم لسمو الوالى.

ومما لا ريب فيه أن إيجاد ترسانة وإبداع أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب، ويدل على قوة العبقرية. فقد كان شاطئ البحر بالإسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات. فمن قواعد لإنشاء السفن عليها. وتزليجها إلى البحر، وورش ومخازن ومصنع الحبال امتداد بنايته طولا ألف وأربعون قدما - أى كطول مصنع الحبال في ثغر طولون. وأنشئت خلال تلك المدة دوونمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال وجربت للمرة الأولى من انشائها في مطاردة أحد الأساطيل العثمانية.

وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقافته، سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحرية وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم وقد أصبح المصريون، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال، كأنهم خلقوا أكثر صلوحا لممارسة البحر من غيرهم ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ونقول الآن إنه بالنظر إلى سكناهم شواطئ النيل، وهو النهر الذى بلغ من السعة في نظرهم ما دعاهم إلى تسميتهم إياه بالبحر، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم إلى معاناة فنون الملاحة. ومن المناقب التى توافرت فيهم، غير ما تقدم، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبههم أن لا يحرز قصب السبق سواهم.

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية تتردد عليه برسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة فكان منظر هذه السفن يبعث في نفوس الشبان المنتظمين منهم في سلك بحرية الوالى روح الغيرة والحماس ويستفزهم إلى الرغبة في إطلاع الخبيرين في الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات في المناورات ونمى بذلك في نفوسهم إحساس الشمم وتنبه الشعور بالكرامة -

فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تناقضهم في إحراز أوفر قسط من العلوم والفنون. ويؤخذ من آراء الاختصاصيين في حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبحرية القسطنطينية كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالي.

وامتازت بحرية محمد على، أول وهلة، بالتفوق في شبه جزيرة (مورة) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التي طالما هلعت لمراها قلوب أهل الآستانة وقبعت بسببها أساطيلهم، لم تخش بأسها السفن المصرية التي كان يقوم على أمرها في ذلك العهد ربان السفينة الفرنسية المسيو (لوتليبة).

ولقد شرف الأسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام إذ قامت بمراقبته سواحل الشام ومنعت الأتراك من النزول إليها وقبضت في أنحائها على بعض السفن العثمانية وساعدت المصريين على حصار عكا واقتفت أثر الدونمة العثمانية التي كانت أكثر منها عددا وأوفر مددا حتى حصرتها في مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذي أشرفت أن تجتازه لولا مداخله الدول الأوربية التي حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة.

وتتألف الدونمة المصرية من إحدى عشرة سفينة كبيرة وسبع فرقاطات وخمس سفن من طراز الكورفيت وتسع من نوع البريك والجويليت. وبلغ مجموع عساكر هذه السفن (الأطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا. ونورد فيما يلي بيانا وافيا لقوات البحرية المصرية. وإذ قد أصبحت البحرية العثمانية في قبضة محمد على، فقد عنيت ببيان قوات هذه البحرية تجاهها، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية.

القوات البحرية المصرية
الدونمة العثمانية الدونمة المصرية

السفن الكبرى

أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣١٣	المنصورة	١٠٣٤
فيضان	١٠٣٤	الإسكندرية	١٠٣٤
فتحية	١٠٣٩	أبو قير	٧٣٦
مدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧
نصرتية	٩٠٦	عكا	١١٤٨
تعريفية	٩٧٢	حمص	١٠٣٤
توفيقية	٩٤٨	بيلان	٩٠٠
برج ظفر	٧٦٥	حلب	١٠٣٤
		بنى سويف	١٠٣٤
		الفيوم	١٠٣٤
المجموع	٩٤٤٥	المجموع	١١١١٩

الفرة طات			
الدونمة المصرية		الدونمة العثمانية	
٥٥٨	المنوفية	٦٧١	نظامية
٥١٠	البحيرة	٦٧٥	جهادية
٤٧٠	الدمياطية	٥١٦	نافيك
٥١٠	سر جهاد	٥٤٨	شهاب
٥١٠	رشيد	٦٦٢	خوز أمان
١٥٢	وابور النيل	٥٣١	تافير
		٤٨٤	مراد ظفر
		٥٥٥	سوريا
		٥٣٤	راسم ظفر
		٤٧٨	قائد ظفر
		٣٨٦	فضل الله
٢٧١٠	المجموع	٦٠٤٠	المجموع

الكـــ

١٥٩	جهاد فكر	٢٧٧	مسير فرج
١٨٣	طنطا		
١٥٩	جنه بحرى		
١٥٩	بلتك جهاد		
٢٦٢	دمنهو		
٩٢٢	المجموع	٢٧٧	المجموع

الجوابليــــــــــــت

الدوننمة المصرية	الدوننمة العثمانية
١١٥	الصاعقة
١١٥	واشنطن
١١٥	شاهين داريا
٩٧	التمساح
٤٤٢	المجموع

البريد ك

٩٧	سمند جهاد	١٣٩	جاي فرح
٩٧	شباس جهاد	١٥١	قوس ظفر
٥٢	وابور الجوكا	٨٤	بحر سفيد
٢٧	الوابور الجديد		
١٧	وابور بولاق		
٢٩٠	المجموع	٣٥٤	المجموع

القووطر

٢٩	نمرة ١
٣١	نمرة ٢
٦٠	المجموع

٣. حشد الرجال لخدمة البرية والبحرية

الأسلوب المتبع في التجنيد - عيوب هذا الأسلوب - أسباب هذه العيوب - جهود محمد علي لعلاج هذا الداء - كراهة المصريين للخدمة العسكرية - النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الأهلى.

٤٥- الأسلوب المتبع في التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الأسلوب المتبع في التجنيد للجيش بمصر. فقد كان هذا الأسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب، مخالفا لطبيعة البشر ومقتضيات العمران، وموجها لما لا مزيد عليه من الاسف.

فإنه لا نظام ولا قانون بمتبع في التجنيد للجيش. فالجيش في القطر المصرى لا يتشكل. كالجيش الفرنسى قبل الثورة، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاحجاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكل إلى الاقتراع بين المتساوين في حظ القبول في الجندية. كلا بل إن القوة الغاشمة وحدها في مصر، وهى فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية، هى التى يرجع إليها في تزويد الجيش بمن يحتاج إليهم من المجندين. فالتجنيد في مصر من وجوه الظلم البين بالإجحاف المتلف الضار بها. ولا شك في أن ما رواه الرحالة عنه في كتب رحلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه، لأنه يكفى في موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر إلى إحدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بإلقائه القبض عليهم بمجرد وصوله إليها. وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط بعضهم ببعض يسير بهم إلى بندر المديرية، يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين. وهناك يختار الطبيب منهم من يكونون أهلا لخدمة العسكرية.

٤٦- عيوب هذا الأسلوب

هذا الأسلوب لم يكن همجيا فقط، بل سىء العاقبة أيضا، وعيوبه بادية للعيان. لأنه بصرف النظر عن الأعمار وحالة العائلات التى تحرم بالتجنيد

من رجالها، يحول دون نمو عدد السكان ويلقى هذه العائلات في مخالب الحزن والفاقة. فإنه بمجرد توارد الأخبار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشبان الأصحاء الأبدان إلى الفرار إلى القلوات التي يعرفون بأسرار وهادها ونجادها فيختفون بها شهورا، فينشأ عن اختفائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحرية لعله أو عاهة فيهم ولست أستر هنا الضرر الناشئ عن هذا الأسلوب، بل الخطر الذي يتهدد كيان الأمة المصرية. فليس في مقدور أحد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجه الضارة وسمو الوالى نفسه عالم علم اليقين بضرره، ويتمنى أن يوفق لعلاج يستأصل به شأفة هذا الداء. لأنه يرى أن مصلحته الذاتية مرتبطة بمصلحة مصر الخالدة وأن لا شيء يفصل المصلحتين عن بعضهما. فلنجهتد في البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء .

٤٧- أسباب هذه العيوب

لما هم محمد على بإدخال النظام العسكرى الجديد إلى مصر قامت عليه الاعتراضات من الأهالى الوطنين بل بلغ من نفورهم منه بسبب تمسكه بهذا الإصلاح أن أزدروا به وحقروه ولقبوه « باشا النصارى » ولم يكن قد سبق لمصريين أن خضعوا لنظام عسكرى . دع أنه لم يكن في نفوسهم من روح الوطنية ولا في رؤوسهم من الذكاء والحصافة ما يدركون به حقيقة المثل الأعلى الذى ترنوا مصر إليه بعينها. فيستفزههم إلى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمورهم. ثم لا ينسى أنهم لا يفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم، فكان هذا باعثا منذ البداية على استعمال الشدة ليضطروهم إلى معاونته على إصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه.

ولقد خبرت المصريين بالمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم ما يدعونى إلى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش. ولكننى أؤكد فى الآن نفسه أنه كان لابد من مضى وقت طويل لانتقالهم من الحالة التى ألقوها إلى حالة مغايرة لها، بل إلى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل، لا سيما وهى تنافى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم فى الفكر والتصور. تلك هى الحقيقة. غير أن محمد على ما كان يستطيع الانتظار والتريث طويلا حتى

تتطور الأمة. إذ لا بد من اعتبار أنه هبط القطر المصري لتنشئة المصريين على مهل التنشئة التي يتمناها لهم. نعم إن ما قام به من جلائل الأعمال يعد بناء في جدار المستقبل، ولكن ينبغي النظر إلى أن الحاضر يتطلب منه العمل السريع والاحتفاظ بدقائق الزمن ويأمره بالإحتفاظ بمركزه ودرء الأخطار المحدقة به، وبأن يكون منيع الجانب على من يرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة، ويدرا عن حياته ومستقبل أسرته من جهة أخرى ما يتهدها من الخطر. فكان مما لا مفر منه أن يتوافر لديه في الحال جيش كثيف وأن لا يقف في التجنيد له عند أوفق الوسائل لمبادئ الحرية والإنصاف. بل عند أدها إلى إتمام الحشد له بأسرع ما يستطيع. واتفق لسوء الحظ أن اقترنت الوسائل التي ترمى إلى هذا الغرض بالشدة والعنف، فإذا أفضت السرعة إلى تكبد فريق من الناس هول الشدائد والآلام، فإن الإنسانية تأسف من أجلها وليس المسئول عنها سمو الوالى بل أولئك الأشرار الذين لا يكفون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياته وتلك الظروف القاهرة القاسرة التي حفت به.

ولما أتم محمد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل أسلوبا عادلا لتجنيد تقدم إليه به بعض قناصل الدول رفقا بالأهلين. ولا يسعنى هنا إلا الجهر بأننى لم أكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الإصلاح، علما منى بما جبل عليه الوالى من عواطف البر بالإنسانية. ولهذا أراد - مضيا مع ميوله الشريفة واحساساته العالية - أن يطرق باب التجربة مرة أخرى رجاء أن تفضى نتيجتها إلى ما يتفق مع الإنسانية ومبادئ العدل.

٤٨- جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لما اتجهت رغبات محمد على إلى حسم هذا الداء وعلاجه بالأنسب من الدواء، شكل مجلسا للتجنيد مؤلفا من كبار الضباط في جميع الأسلحة، وعهد رياسته إلى أحد قواد الطوبجية، وكنت أنا بالذات من أعضائه. فبدأنا بإنجاز مهمتنا في مديرية قُليوب، لأنها أقرب المديریات إلى القاهرة. ولما تقابلنا مع المدير واستقر بنا المقام عنده استدعى مشائخ البلاد حتى، إذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم: « إن جميع أقطار الدنيا في حاجة إلى القوى العسكرية للمحافظة على كيائها بتوطيد دعائم الأمن والسلام في

الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير. وهذه الحاجة تدعو إلى تشكيل الجيوش، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها إلا إذا قدمت الأمة رجالها لهذا الغرض، والرجال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغي أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن.

« ومن المفروض على طبقات الأمة كافة وعلى جميع الأقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته، وما هو متوافر لديه من الوسائل. ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الأقوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم في نفوس أسرهم الأثر السيء. وهذا معناه أن العساكر ينبغي أن يؤخذوا من شبيبة القطر الممتلئة بالقوة والنشاط. وإنما يحدث أن يوجد بين أفراد هذه الشبيبة من يستحقون الإعفاء من تلك الخدمة المفروضة قانوناً على السواد الأعظم ويدخل في عدادهم من لهم أخ أو إخوان في سلك الجيش أو يكونون أياماً. على أن الحكومة لم تكن بحاجة إلى جميع الشبان، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها — بعد جعل الحظ مقسماً بالسواء بين الجميع — تعيين الأفراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام في سلك الخدمة العسكرية ».

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد في فرنسا وأنها مؤسسة على القرعة. فلما سمع الحاضرون من المشائخ هذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها في أوربا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعاً بالموافقة عليه داعين إلى اتباعه والعمل به.

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم إلى قريته وأن يحرر كشفاً بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة إلى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت إداراتهم المبادئ العادلة التي ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعداً. فعاد المشائخ تبدو على وجوههم علائم البشر والابتهاج، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم في أمر تلك الطريقة الجديدة. والأسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الادبار وأركنوا إلى الفرار، فلم تجد الحكومة إزاء هذه الحالة إلا الالتجاء إلى القوة وأن تأخذ الآفاق على الذين في سن التجنيد لتنظمهم في سلك الجيش.

ومن النواذر التي يحسن إيرادها في هذا المقام، أن إبراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد في فرنسا، فتمسوا له ووافقوا عليه ودعوا إليه واعترقوا بما انطوى عليه من رفق وعدل. ولما أنس منهم إبراهيم باشا هذا الاستحسان العام قال لأحدهم: « بما أنك موقن بمزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل - فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحدا من أبنائك الخمسة فأجاب العالم وكان الجزع قد ملاً فؤاده - : « أنا... أنا... لا أقدر على مفارقة ولد من أولادي ».

٤٩- نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل امكان اندراج إنسان في سلك الجيش بمحض إرادته، لان المصريين يجزعون من العسكرية ويبغضونها إلى حد أن الأمهات يتعمدن إتلاف بعض أعضاء أبنائهن ليصيروا غير صالحين للتجنيد. فهن يسملن عيونهم أو يبترون أصابعهم إلى غير ذلك. ولقد شوهد بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظام في سلك الجندي يقطعون جملة من أصابع يدهم اليسرى بل يبرونها برياً بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث ولكنهم كانوا، بمجرد استيقاقهم إلى العمل في الجيش، يخضعون للقوة القاهرة لارتياحهم منها، ويرضخون لأحكامها باعتبار أنها قضاء واقع ليس له من دافع. ومع هذا فإنهم متى انتظموا في هيئة الجيش تطوروا سريعاً بطور العسكرية واعتادوا حالتهم الجديدة ومحووا من ذاكرتهم سيرة نفورهم القديم. وتراهم إذا دارت النوبة دورتها فكلفوا بمباشرة التجنيد، يعاملون المجندين بمثل الشدة التي عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمل السلاح.

٥٠- النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى

ولكن أستنتج من هذه الخاصية الغريبة لدى المصرى أنه لايرجى، فيما يتعلق بمسألة التجنيد، الوصول إلى سن نظام له أفضل من النظام المعمول به؟ كلا، فإن بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض في الطريق من العقبات. ولا بد أن يأتى يوم يكونون فيه قد اعتادوا ممارسة الأعمال الحربية وشغفوا حبا بالمعيشة العسكرية. فمتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل أفكاره في مصر ويقصر عليها أنظاره وقلت حاجته إلى الجنود. فلا جدال في أنه سيضع للتجنيد أسلوباً يجعل قوامه النظام والإنصاف.

وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهيمته ما يعترضه من العقبات. وهاهو الحرس الوطنى الذى أنشاه فى الأزمنة الأخيرة لسوف يفلح فى تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستقراهم إلى القيام بواجباتها عن طيب خاطر. فإنه متى قضى الفلاح بعض الزمن فى التدريب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشة المعسكر بالقرب من أهله، زال ما كان يغشاه حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد إليها. وسوف يتمهد له، وهو يتدرب فى المدرسة العملية للحرس الوطنى، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكى إلى النظام العسكرى. ومتى راق له هذا النظام وحسن فى نظره، لما يكون قد استقر فى خلدته من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية، فإنه لن يلجأ فى مقاومته لتجنيد، وهو الضرورة التى ساقها واجب الدفاع عن الوطن، إلى تشويه نفسه ذلك التشويه الذى لم يجرؤ على ارتكابه إلا بدافع من الطيش والجهل والعناد. وعندئذ لا ترى الحكومة أن هناك ما يدعوها إلى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشريرة والنزعات الباطلة التى ليس من ورائها إلا الضرر المحقق لأصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية لتجنيد إلا وهى طريقة الاقتراع التى لم توفق للعمل بها.

ولا ريب فى أن الأمة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقة فوائد جليلة. أما الأمة، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العسكرية عليها توزيعاً أساسه المساواة والعدل، وقوامه رعاية الرفق والإنسانية. وهو ما يبيث فى نفسها الإقدام شيئاً فشيئاً بمحض إرادتها على الانتظام فى السلك العسكرى، فلا يعتمد وقتئذ على وسائل الشدة والإكراه فى التجنيد. وأما الحكومة فبما تربحه من مزايا تنظيم جنديتها شأن كل حكومة رشيدة. وأهم هذه المزايا: الوحدة والبقاء والقوة.

الزراعة والصناعة والتجارة

(١)

الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر

١- الزراعة صفة خاصة بمصر وميزة لاصقة بها إلى حد يتسع معه مجال القول بأن الطبيعة، إذا حرمتها العناصر الأولية اللازمة للصناعة لتوزيعها على كل قطر ما يميزه من الصفات عن سائر الأقطار، أرادت أن تجعل الزراعة عملها الذى ينبغى أن لا تتعداه إلى غيره من الأعمال.

ولقد رأينا فيما تقدم ماهية تركيب أراضى القطر المصرى وأنواع حاصلاته. وسنذكر بعض الشئ الآن عن الظروف الخاصة التى توجد الزراعة المصرية فيها الآن والأساليب المتبعة من الفلاحين للقيام بواجباتها. ونفيض فى بيان التفاصيل المتعلقة بالحاصلات الزراعية.

غير أننى أرى قبل ذلك، أن أطرح على أنظار القراء الجدول الآتى ببيان الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة فعلا بالقطر المصرى.

٢- جدول الأراضي القابلة للزراعة والمزروعة

الوجه البحرى

المديرية	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع ضرائب الأطنان
الغربية	٤٥٠٠٠٠	٤٠٩٠٠	١٥٥٥٠٠٠ فدان
منوف	٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	أراضي الأبعاديات يوجد منها قسم مزروع تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠٠ فدان يضم إلى مساحة الأراضي المزروعة
الشرقية	٣٦٠٠٠٠	٥٣٠٠٠	يخصم من مساحة الأراضي غير القابلة للزراعة هكذا الأراضي غير قابلة للزراعة
المنصورة	٣٢٠٠٠٠	١٥٢٠٠	١٥٨١٠٠٠
البحيرة	٢٤٥٠٠٠	٢٢٠٠٠	٣٠٠٠٠
قليوب	٢٩٠٠٠٠	٨٠٠٠	أرض غير قابلة للزراعة
الجيزة	٢٤٥٠٠	٦٤٠٠	١٥٥١٠٠٠
الأراضي المزروعة	٢٢١٩٠٠٠		
الأراضي «القابلة للزراعة»	٣٨٠٠٠٠٠		
«غير»	١٥٨١٠٠٠		
			٢٢٤٤٩٠٠٠ «مزروعة»
			المجموع ٣٨٠٠٠٠٠

مصر الوسطى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع ضرائب الأطنان
المنيا	١٥٢٨٠٠	٥٠٩٠٠	٦٦٧٢٠٠ فدان أراضي
بنى مزار	١٤٨٢٠٠	٤٩١٠٠	الأبعاديات منها
القشن	١٦١٠٠٠	٣٩٢٠٠	٢٥٠٠٠ مزروعة الآن
بنى سويف	١٣٩٤٠٠	٣١٠٠٠	تخصم كما تقدم
الفيوم	١٢٤٠٠٠	٤٩٧٠٠٠	
			٨٦٨٦٠٠
			٢٥٠٠٠
الأراضي المزروعة	٧٢٥٤٠٠		أرض غير قابلة
الأراضي القابلة للزراعة	١٥٩٤٠٠٠		للزراعة ٨٤٣٦٠٠
الأراضي غير القابلة	٨٦٨٦٠٠		أرض مزروعة
			٧٥٠٤٠٠
			المجموع ١٥٩٤٠٠٠

الوجه القبلى

المديريات	الأراضى المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضى الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطنان
إسنا	٤٧٣٣٧	٢٦٦٥٤	٢٩٧٢٤٠ فداناً أراضى
قنا	١٠٢٣٩٠	٥٤٢٣٢	الأبعاديات ومن هذا
فرشوط	٩٨٨٢٢٨	٣٧٦٦٦	المقدار يمكن حساب
جرجا	١٠١٢١٧	٤٩١٩٢	١٠٠٠٠ فدان أصبحت
سوهاج	١٣٤١٦٩	٣٧٣٦٦	قابلة للزراعة الآن هكذا
أسيوط	١٦٣٥٥٤	٣٠٠٣٠	٧٧٣١٧٤
منفلوط	٩٨٩٦٤	٢٦٧٥٤	١٠٠٠٠
ملوى	١٠٠٣٦٧	٢٤٣٠٦	أرض غير قابلة
أراضى مزروعة	٨٤٦٨٢٦		للزراعة ٧٦٣١٧٤
أراضى قابلة للزراعة	١٦٢٠٠٠٠		أرض مزروعة ٨٥٦٢٨٦
أرض غير قابلة	٧٧٣١٧٤		المجموع ١٦٢٠٠٠٠

مراجعة عامة

المديريات	الأراضي المزروعة	أراضي غير قابلة للزراعة	المجاميع	مجموع مساحة أراضي القطر المصري ٧٠١٤٠٠٠ فدان
الوجه البحري	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠	
الوجه القبلي	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠	
مصر الوسطى	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠	
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠	

الرى

الرى بالترع - الرى بالآبار - السواقي - الشواذيف

٣- من الحقائق الثابتة أن سكان القطر المصرى وجهوا عنايتهم فى جميع الأزمان والأدوار إلى الانتفاع ، بقدر الإمكان، بما يحمله النيل إليهم سنويا من عناصر الخير والثروة. فكان إنشاء الترع وتعهدهم إياها بالترميم والإصلاح مما استجمعوا فى سبيله جهودهم وصرفوا نحوه عنايتهم. ومعلوم أن خصوبة أرض مصر سببها فيضان النيل، فلا بدع إذا كانت مسألة جر مياه هذا النهر لتغمر أوسع مساحة مستطاعة من الأرض، من أمهات المسائل التى شغلت خواطرها منذ قديم الزمان وارتبطت بحالها حالة مصر هن يسر ورخاء أو ضيق وشقاء.

ولا تزال الحال اليوم كما كانت عليه فى ذلك العهد. فإن ثروة مصر تتوقف على تدبير مياه النيل، كما أن لأساليب الرى الآن نفس ماكان لها فى تلك العصور الغابرة. والترع بالوجه القبلى تشبه فروع الشجرة التى تتفرع عن أصلها الثابت، إذ تتجه نحو سلسلتى الجبال الحافتين بوادى النيل من جانبيه، حتى إذا بلغت إلى سفوحهما استطالت بالتوازي للصحراء وحصرت الاراضى الزراعية بين خطوطها المخصبة.

وقبل الفيضان تقام السدود عند مأخذ ترع الرى المتفرعة من النيل على ضفتيه، فإذا بدأ النيل بالارتفاع والنمو تقطع تلك السدود فتجرى المياه فيها إلى أن تلتقى بسد آخر تقف عندها فتفيض المياه على الاراضى التى يخترقها هذا الجزء المحصور بين السدين.

وكلما كان الفيضان عظيما ارتفعت المياه دون السدود المشار إليها واتسع نطاق الاراضى المغمورة بالمياه.

وبعد أن تغمر هذه الاراضى وتروى ريا جيدا، تفتح السدود التى كانت المياه قد وقفت عندها فتتسكب فى القسم التالى لها وتملاه إلى أن تقف عند سد جديد فتفيض المياه على الاراضى التى يخترقها هذا القسم من الترعة المنحصر بين السدين، فإذا تم رى الأرض ريا جيدا وعمت المياه الاراضى البعيدة قطع السد الثالث، وحدث فيما يليه ماحدث فى الذى قبله وهكذا بقدر ماتسمح به

حالة الفيضان ارتفاعا وانخفاضاً.

ومأخذ المياه من النهر تتعدد على مسافات متفاوتة من شاطئه بترع خاصة يقصد بها زيادة إيراد المياه لتعويض الذاهب منه ضياعاً بتفرعه وانبثائه في الجهات المتطرفة من الترع وتوزعه على المسطحات الواسعة من الأراضي بالقنوات التي تشتق منها في أطرافها.

وبذا يمكن تمثيل وادي النيل أثناء انتشار الفيضان من ضفتيه إلى سفوح الجبال الحافة به من جانبيه بمناطق تذهب صاعدة كالدرج وتنغمر بالمياه الغزيرة.

ولاستمرار الماء فوق الأراضي ومنعه من الانحسار عنها والعودة إلى مجرى النهر أقيمت على ضفتيه جسور اتخذها الناس طريقاً للمواصلات مدة الفيضان، بين الأماكن والنواحي المتناحية، حتى أن المياه المحجوزة كثيراً ما تبقى أثناءه مرتفعة فوق مستوى سطح النهر. ومن ثم كان تعهد الجسور الأصلية الواصلة من قرية إلى أخرى أمراً من الأهمية بمكان مكين. وكذا السدود التي يتم بها فيضان المياه من الترع ذلك الفيضان التدريجي، فإنها جديرة بدوام التعهد والعناية، إذ لا بد في قطعها من أعمال الروية دفعا لما يمكن أن يصيب القرى البعيدة بسببها من الضرر.

يؤخذ مما تقدم أن مياه النيل تشبه الكنز. الثمين تقبض الإدارة على مفتاحه وتهيمن على وسائل تدبيره بتوحيد الاجراء = الإجراءات = اللازمة لذلك وبقوة مابيدها من الوسائل. فإذا كانت الإدارة حكيمة مدبرة حاذقة مهيبية الجانب فقد سهل عليها التحكم في العناصر النافعة التي يسوقها النيل في جريانه تحكما يمهد توزيعها على الأراضي المراد إرواؤها بالعدل والنزاهة. أما إذا كانت جاهلة غاشمة ضعيفة متوانية فإنها تترك ذلك الكنز الثمين يفلت من يدها وتعرض ثروة البلاد وحياتها إلى خطر مداهم وخطب جلل.

٤- الري بالآبار

رأينا هذا المصنف أن فيضان النيل لم يكن العامل الوحيد لخصوبة الأرض في مصر. إذ لو كان كذلك لكان هذا القطر أخصب بلاد الدنيا في أحد فصول السنة وأقلها وأ محلها في الفصول الباقية. وقد ذكرنا أن ارتشاح المياه خلال الطبقات الرملية التي هي في مصر قاعدة الأراضي الصالحة

للزراعة، كان من أقوى عوامل نجاح الزراعة المصرية لقيامه بتغذية النباتات أثناء السنة كلها. ولنذكر الآن كيف استفادت الأراضي الزراعية في مصر منذ قديم الزمان بارتشاح المياه.

لما رأى الأقدمون أن المياه العليا من النيل تنحط في القيعان وتهوى إلى المنخفضات، ابتكروا فكرة الآبار المعروفة بالسواقي أو النواعير ليتمكنوا بواسطتها من رفعها إلى سطح الأرض وري المزروعات بها. وهذه الآلة الرافعة عبارة عن دولاب يدور حوله حبل ربطت فيه قدور من الفخار تسمى بالقواديس. ويحرك هذا الدولاب عجلة مسننة تدور حول محور تحركه ماشية من الجواميس أو الثيران.

والسواقي آلات بسيطة يصنعها الفلاحون أنفسهم ويتركبونها في مواضعها ولقد جربت طرق عديدة لرفع الماء آلاتها كثيرة الالتباك والتعقيد، فلم تفلح التجارب بسبب ما تقتضيه من العناية التامة ودوام التعهد، بالترميم والإصلاح على أيدي صناع حاذقين. وما من مرة أجريت تجربة من هذا القبيل إلا وانجلت عن ضرورة الرجوع إلى طريقة الري بالسواقي والتعويل عليها، لاسيما وأنها منتشرة في طول البلاد وعرضها، حتى أن عددها في الوجهين البحري والقبلي الآن يربو على خمسين ألف ساقية. وأكثر ما تفيد السواقي المزارعين في الأماكن البعيدة عن النيل، لرى الأراضي التي لا يفيدها الري بالفيضان. والحدائق المنتشرة في ضواحي المدن لا تروى غالبا إلا بمياه السواقي.

وتستعمل للري أيضا آلة أخرى غير السواقي ترى على ضفاف النيل وشواطئ الترعة، خصوصا في الستة أشهر السابقة على الفيضان، وهي أبسط من السواقي. وقد وصفها الرحالون في رحلاتهم، واسمها «الشادوف» ويتألف الشادوف من رافعة معلقة في نقطة تقع في الثلث الأول من طولها بعارضة أفقية ترتكز على دعامتين رأسييتين قائمتين على جسر النيل أو الترعة المراد رفع الماء منها لرى الأرض.

وفي طرف الجزء القصير من جزئي الرافعة ثقل من الطين الجاف. وفي الطرف المقابل له - أي طرف الجزء الطويل من الرافعة عقدة مرنة يهبط منها قضيب إذا تحركت الرافعة احتفظ باتجاهه الرأسى. وبأسفل هذا القضيب

دلو من الجلد أو غيره يملأه العامل الواقف على أرض بارزة من الجسر، وذلك بأن يغرز طرف القضيب في الماء حتى إذا امتلأ الدلو رفعه بواسطة إلى أن يوازى صدره، فيسكب ما فيه في رأس جدول صغير. وتكرر هذه العملية فيندفع الماء ذاهبا في القناة إلى الأرض المراد ريها أو إلى حفرة أخرى، ليلتقطه رجل ثان فيرفعه بتلك الوسيلة عينها إلى رأس جدول آخر. وربما كان هناك، فيما عدا هذين الرجلين، رجال آخرون يفعلون فعله إذا كانت الأرض المراد ريها عظيمة الارتفاع. ومتوسط الارتفاع الذى يبلغ إليه الماء بواسطة كل شادوف ثلاثة أمتار تقريبا. وقد وضع أولئك الرجال على منحدر ضفة واحدة بحيث تكون حركة الماء في ارتفاعها ووصولها إلى سطح الأرض على شكل الدرجات التى يتلو بعضها بعضا.

ولقد قام بعض علماء الحملة الفرنسية بتجارب عديدة على هذه الآلات الرافعة. فتبين لهم منها أن العامل المصرى يستطيع أن يرفع بالشادوف ما متوسطه ٥٠ لترا من الماء في الدقيقة الواحدة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا. وهذا فوق طاقة القوة العادية للرجل الواحد. على الكيفية التى تقدر بها هذه القوة في أوروبا. وظهر أيضا أن متوسط ما ترفعه الساقية الواحدة من الماء يعادل خمسة أمثال ما يرفعه الشادوف.

والشادوف في الوجه القبلى حيث شواطئ النيل أكثر ارتفاعا منها في الوجه البحرى، عظيم الانتشار. وقد يضعون خمسة شواذيف أو ستة بالتتابع على درجات متفاوتة الارتفاع لإيصال الماء إلى الأراضى المطلوب ريها. ولما كانت مأخذ ترع الرى من النيل بالوجه القبلى قليلة العمق، فإنها تبقى جافة أثناء الشطر الأكبر من السنة. ولكنهم يعالجون هذا النقص بالصناعة والحيلة. إذ يضعون العدد العظيم من الشواذيف على خط واحد بعضها لصق بعض. لإيصال الماء إلى تلك الترع. وكثيرا ما يقضى الرجال الموكلون بتلك الشواذيف النهار والليل أحيانا، لرفع الماء من النهر و كثيرا ما أدهش جميع السياح الذين ساروا في النيل أثناء التحريق، منظر تلك الشواذيف متراسة على ضفتى النهر يحركها باستمرار رجال مجردون تقريبا من ثيابهم، وهم ينظمون حركة عملهم للتوفيق بينها في حالتى الخفض لأخذ الماء والرفع لسكبه بالأناشيد والأغاني المقفاة.

والأراضي التي تغمرها مياه الفيضان تغطي محصولا واحدا. أما التي يمكن ريها على مدار السنة فتعطى في السنة ثلاثة محاصيل وفي بعض الأحيان أربعة.

(٣)

آلات الحرثة والأساليب الزراعية

المحراث - الكرك - الحصاد - النورج - تعاقب الزراعات في الأرض - تمسك الفلاحين بالأساليب القديمة - العزبة المتخذة نموذجا

٥ - لا تستدعى أعمال الزراعة في مصر كبير عناء، إذ إنها من السهولة بحيث لا يحتاج في القيام بها إلا إلى آلات في الغاية القصوى من البساطة. ولعل هذا هو السبب الذي لأجله حفظت الآلات الزراعية شكلها المصري منذ سكان مصر الأولين وهو الأمر الذي تؤيده النقوش الموجودة في الآثار القديمة.

المحراث

والمحراث المصري عبارة عن قطعتين من الخشب تلتقيان ببعضهما من الطرفين بحيث تكونان زاوية يتغير انفراجها بأداة مثبتة في القطعة السفلى، مارة في ثقب بالقطعة العليا. وهذه الأداة ذات ثقوب عديدة تمر فيها قطعة خشب تجعل فتحة الزاوية ثابتة. وانفراج هذه الزاوية كثرة أو قلة يكون بحسب ما إذا أريد جعل الحرث عميقا أو غير عميق.

أما القطعة الكبرى من القطعتين اللتين يتألف المحراث منهما فتتنزل من المحراث بمنزلة العريش من العجلة. وفي طرفها عارضة خشب هي النير = الناف = الذي يعلق به الثوران أو غيرهما من الماشية المستخدمة في الحرث. ويوضع هذا النير على عنقي الثورين أو غيرهما ويثبت في مكانه من العنقين بحبال من الليف.. أما القطعة السفلى فيجتمع فيها بشكل عاشق ومعشوق قطعتان من الخشب تسهلان على الحارث توجيه المحراث نحو الجهة التي يرومها أو غرز سلاحه في الأرض بالقدر الذي يريده.

وبعد حرث الأرض يسوى سطحها ويمهد بقطعة من جذع نخلة تلقى عليها يسحبها ثور أو ثوران باتجاه عرضها. وقد يكون الجذع خفيفا. ففي

هذه الحالة يقف فوقه الرجل الذى يسوق الثور ليزيده ثقلا. ولكى تصرف المياه من الأرض التى تروى ريا صناعيا تستعمل أداة تسمى «الزحافة» وهى عبارة عن لوح من الخشب فى طول متر بأحد طرفيه مقبض وبالأخر حبل، فيمسك رجل أو رجلان بهذا الحبل بينما يحرك اللوح من المقبض رجل آخر. وبعد بذر البذور لا يعود الزارع إلى الغيط إلا لتتقيته من الحشائش أو ربه أو مباشرة الحصد. وتقطع سوق النباتات بالمنجل إذا لم يكن المراد انتزاعها بجذورها. وبعد الحصاد تجمع النباتات المحصودة حزما كبيرة ثم تلقى فى مكان خاص من الغيط الذى حصد محصوله أو فى مكان آخر قريب منه. لأنه بالنظر إلى قلة هطول الأمطار وسقوط الجليد فى مصر، لا يحتاج المصريون فى الاحتفاظ بحاصلاتهم إلى الحظائر المسقفة. بل يدعونها معرضة فى الغيط للهواء والشمس. وفى جهات الصعيد الأعلى تدرس الحبوب بالمواشى بعد نشرها على البيدر أى الجرن. أما فى الجهات الأخرى فتتم هذه العملية بالآلة المعروفة بالنورج. والنورج عبارة عن إطار أفقى يتألف من أربعة قطع كبيرة من الخشب متعاشقة بعضها ببعض. وقد ثبت فى جانبيه قطعتين منهما عمودان أو أكثر من الخشب، فى كل عمود منهما ثلاث صفائح من الحديد الذى سمكه ملليمتران تقريبا مستديرة الشكل، ونصف قطر كل منها أربعون سنتيا. وهذه الأعمدة بصفائحها المستديرة تتحرك كالعجل بحيث تكون فى وضعها على شكل تتقابل فيه صفائح كل عمود مع وسط المسافات الواقعة بين صفائح العمود التالى له. قد ركب فوق الإطار كرسى غليظ الصناعة يجلس عليه سائق الثورين. وفى العارضة الداخلية من الإطار المربع حلقة يربط فيها عريش من الخشب يعلق بطرفها نير يوضع على عنق الماشيتين المعلقين بالنورج. فإذا فرشت حزم الحبوب المحصودة المراد درسها بتلك الآلة على شكل دائرة يختلف نصف قطرها من ثمانية أمتار إلى ثمانية عشر مترا، ومر النورج فوقها مرادائيا، داست الثيران والمواشى الحزم المفروشة بأرجلها. فيخرج الحب من سنابله بينما تقطع الصفائح المدورة السوق الجافة فيتكون منها التبن.

هذا والأراضى التى يخصبها الطمى الراسب من ماء النيل تنبت باستمرار. والفلاحون لا يتركونها لترتاح، بل يتابعون حرثها وزرعها. وغاية

الأمر أنهم يراعون التناوب في زراعتهم.

والفلاحون كغيرهم من الشعوب الجاهلة متمسكون بالأساليب الزراعية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. ولعل ذلك هو لأن الأعمال الزراعية لا تستدعى في مصر إلا اليسير من المشقة إذ يظهر أن الطبيعة في هذا القطر تتولى العمل الزراعى بنفسها، بحيث لا يحتاج هذا العمل من الإنسان شيئاً سوى القيام على الري وتعهده شئونه. فالفلاحون المصريون لا يحتاجون في الحصول على مايطمعون فيه من وفرة الحاصلات الزراعية إلى الأساليب الراقية التي استكشفها العلم الحديث. غير أنه لما كان تأثير العلم طيباً ومفيداً في كل مكان وزمان، فمن المحقق أنه سيأتى بأحسن الثمار وأجل النتائج في مصر. وهو ما أدرك سمو الوالى حقيقته، ولأجله أرسل فريقاً من الشبان الى أوربا للوقوف على ماوصل إليه علم الزراعة من التقدم عندنا.

ولقد تلقى لقيف من المصريين هذا العلم بمدرسة (روفيل) تحت إدارة العلامة (ماتيو دى ديمبال) وأنشأ محمد على بالقرب من شبرى عزبة على المثال الحديث لتكون نموذجاً لما ينشأ من العزب في المستقبل، فجاءت ببعض الفوائد. ومحقق أن بالإمكان الاستفادة من هذا العمل، متى أتيح لسمو الوالى التفرغ التام لتوسيع نطاق الموارد السلمية في مصر التي مازال مضطراً إلى تعزيز قوتها الحربية بحكم الظروف والمؤثرات السياسية.

(٤)

الزراعات الكبرى في مصر

مواسم الزراعة : الزراعة الشتوية - القمح - الشعير - الفول -
العدس - الترمس والحلبة - الزعفران والبرسيم - الزراعة القيفية -
القطن - النيلة - الزراعة الصيفية : الذرة - الأرز - الكتان - دود القز -
جدول الحاصلات المصرية.

٦- مواسم الزراعة

يقسم فيضان النيل السنة إلى ثلاثة أدوار زراعية. ولعل هذا هو السبب الذى دعا قدماء المصريين إلى تأليف السنة المدنية من ثلاثة فصول فقط. كل فصل مائة وعشرون يوماً. ففي ارتفاع المياه في النهر إلى أعلى مقياس لها

وانتشارها على الأراضي الزراعية بعد قطع السدود، كانوا يباشرون زراعة الإصناف التي لا تحتاج للرى إلى أن تبلغ تمام النضج وتصلح للحصد، وتعرف أصناف هذه الزراعة باسم الفياضى. أما الزراعات التي تزرع في الفصل نفسه في أرض لم يسبق غمرها بماء الفيضان أو لم تحتفظ بهذا الماء على سطحها زمنا طويلا، فلا بد في ريها من الاستعانة بالوسائل الصناعية. وتلك الزراعات تسمى لهذا السبب بالزراعات الشتوية. وكل من هذين الصنفين من الزراعات أى الفياضى والشتوى تتبعهما الزراعتان المعروفتان بالصيفى والفيضى. وهاتان الزراعتان تقابلان الزمن الذى يكون النيل أثناءه في التحريق، وتقتضيان لهذا السبب الرى الصناعى.

ومتى بدأ ارتفاع النيل تبدىء الزراعتان الآتيتان وهما:

الزراعة الدميرى، وهى التى تحصل في الأراضي الواطئة والزراعة النبارى وهى التى تحصل في الأراضي العالية التى يحتاج ريها إلى رفع الماء بالوسائل الصناعية.

٧- الزراعة الشتوى : القمح

تزرع الحبوب عادة في الأراضي التى غمرت بماء الفيضان إذ تبذر بذورها عقب انحسار المياه عنها. والعادة أن يتم بذر القمح بالوجه القبلى قبيل شهر نوفمبر، وبالوجه البحرى قبيل بداية ديسمبر. وتبلغ البذور اللازمة للفدان الواحد ثلث الأردب المصرى بعد انكشاف الأرض ببضعة أيام.. ولا يعنى بتنقية البذور من الأجسام الغريبة التى تحتويها، ويحصل الحصد قبيل أوائل مارس بالوجه القبلى وفي أبريل بالوجه البحرى. ولقد ذكرنا في الفصل المخصص للنباتات مقدار محصول مصر من القمح فلا حاجة هنا إلى التكرار. ويزرع القمح أيضا أثناء فصل الربيع في الأراضي التى سبق زرعها بالبرسيم الحجازى، وتروى الحقول المزروعة به وصنفه أحسن بكثير من القمح الفياضى ولكن زراعته تستدعى نفقات أكثر من زراعة الأصناف الأخرى.

٨- الشعير

بعد حرث الأرض حرثا خفيفا يبذر الفدان الواحد منها بثلاث كيلات إلى أربع من الشعير. ويتم الحصد بعد البذر بمدة تختلف من أربعة أشهر إلى خمسة.

٩- الفول

يُبذر الفول في الميعاد السابق تقريبا على الطمى الذى يتركه النيل ويغرز في الأرض بالزحافة وتبقى زراعة الفول في الأرض نحو أربعة أشهر ونصف. ويبلغ ما يلزم للفدان الواحد من البذور من خمس كيلات إلى ست.

١٠- العدس

يبدأ بذرُه في نوفمبر من غير أن يعنى بالأرض المخصصة له، ولا أن تجهز تجهيزا خاصا لزراعته. ويكفى الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات إلى ثلاث ونصف. ويتم الحصاد بعد ذلك بثلاثة أشهر أو أربعة.

١١- الحمص

يُبذر له في نوفمبر بالأراضي التي لا تحرث إلا لتغطية هذه البذور بالتراب. ويبلغ ما يكفي الفدان من البذور من ثلاث كيلات ونصف إلى أربع كيلات.

١٢- الترمس والحلبة

يُبذر لهما في الأراضي الضعيفة وطريقة زراعتهما كطريقة زراعة الحبوب التي سبق الكلام عليها.

١٣- الزعفران

يُبذر له في الآن نفسه بلا تكلف عناء لإعداد أرضه، وغاية ما هنالك أن البذور تغطى بالتراب بواسطة الكرك. يلزم لزراعة الفدان من كيلة إلى كيلة ونصف من البذور. ويحصد الزعفران في مارس، وبعد حصده يجعل حزما ويحمل إلى الأمكنة التي ينزع فيها من بذوره فيترك بها من خمسة عشر يوما إلى عشرين حتى إذا جف تماما ضرب بالعصى لفصل البذور منه.

١٤- البرسيم الحجازي

البرسيم الحجازي من الزراعات العظيمة الأهمية للفصل الذى يلي انصراف المياه. لأنه المحصول الذى يعتمد عليه في تغذية مواشى القطر المصرى.

١٥- الزراعة القيسى : القطن

زراعة القطن حديثة في مصر وقد أشار بها على سمو الوالى في سنة ١٨٢١ فرنسى يدعى المسيو (جومل)، إذ أوقفه على مزايا هذه الزراعة وبين له مقدار فوائدها وما يستثمر من ربحها. وكان القطن الذى تنتجه مصر حتى ذلك

الوقت من الصنف الرديء، بخلاف الصنف التى اقترح المسيو (جومل) إدخال زراعته فإن أصله من الهند، وكان يزرع فى بعض حدائق القاهرة كنبات من نباتات الزينة. فلما وقف المسيو (جومل) عليه وسع نطاق زراعته وعنى بها فبقى اسمه مرتبطا بهذا المحصول الذى صار أهم الحاصلات الزراعية التى يعتمد عليها سمو الوالى.

وأرض مصر من أوفق الأراضي وأصلحها لزراعة هذا القطن. نعم إنهم يبذرونه فى جميع الأراضي على حد سواء، ولكن أصلح الأراضي له الأرض الكثيفة القوية الحافظة للرطوبة التى تستطيع شجيرات القطن أن تستمد من عناصرها العصير المغذى وأثمار اللوزات ومما يساعد نموه مجاورة الأراضي التى تزرع به للنيل حيث يتوافر الرى بالراحة وبأقل ما يمكن من النفقات.

ومما ينبغى رعايته فى زراعة القطن أن تكون الأراضي التى تزرع به بعيدة عن مضان فيضان النهر، لأن، بقاء الماء بجوار الشجيرات يميتهما حتما والفلاحون شديداً الاهتمام بحماية الأراضي المعرضة للفيضان، أثناء ارتفاع مياه النيل، بالجسور القوية من الطين. وشجيرات القطن تروى فى مواعيد دورية بالسواقي والشواذيف. وفى فصل الشتاء تروى كل خمسة عشر يوماً مرة. أما فى الخريف فتروى كل اثنى عشر يوماً إذا كان الندى كثيراً وكل ثمانية أيام إذا كان الزمن صيفاً.

ويبذرا لقطن فى شهرى مارس وأبريل بالوجه البحرى. ويعنى قبل البذر بحرث الأرض مرة واحدة إذا كانت الأرض قوية. أما إذا كانت ضعيفة فيكرر الحرث مرتين أو أكثر، وفى الصعيد يبلغ إيغال المحراث فى الأرض ستة وثلاثين سنتياً وبعد الحرث على هذا المثال ترسم الخطوط متوازية على مسافة متر بعضها من بعض. ويكثر القليل عقب ذلك وتمهد الأرض، وتفتح جور قطر كل جورة من ثلاث بوصات إلى أربع وعمقها كذلك ويوضع فى كل جورة من بذرتين إلى أربع من بذور القطن التى يعنى بوضعها فى الماء قبل ذلك بنحو أربع وعشرين ساعة لتعجيل انباتها. وتجعل المسافات بين سوق شجيرات القطن نحو المتر تقريباً وعادة الفلاحين فى المزارع القريبة من المدن أن يبذروا مع القطن بذور الخضر والبقول للاستفادة بالأرض كلها. وفى زمن الفيضان تنقى الزراعة القطنية من الحشائش الطفيلية التى تنمو حول الشجيرات.

وفي السنة الثانية لاتعزق الأرض إلا للتتقية مرة أخرى وشجيرة القطن التى يبلغ ارتفاعها فى السنة الأولى من متر إلى متر ونصف يزداد نموها فى البسنة الثانية. ولكن هذه الزيادة أضعف منها فى السنة الأولى.

ومنذ السنة الأولى تقلم شجيرات القطن بأداة مخصصة لهذا الغرض أسمها المشذب. وتنزع جميع فروعها لاتخاذها وقودا وهذه العملية تعطى الشجيرات قوة جديدة وتقيها ضرر البرد الذى يسطو عادة على الفروع فيهاكها.

ويبتدىء جنى القطن عن السنة الأولى فى شهر يوليو وينتهى فى يناير إذا لم يكن البرد شديدا.

ومحصول الشجيرة الواحدة رطل وربيع من القطن الخام عن السنة الأولى ومن رطل وربيع إلى رطلين عن السنة الثانية، ومثل هذا القدر عن السنة الثالثة. ولكن الشجيرات تفقد فى السنوات التالية هذه الخاصية ، ولذا كان من الأوفق تجديد زراعتها كل ثلاثة أعوام . وبالرغم مما تقدم فإن شجيرات القطن تستمر على الإنتاج زمنا طويلا فقد شوهد منها ما لايزال يثمر اللوزات بعد خمسين سنة، ومفهوم أن شجيرات القطن تنمو نموا عظيما فى آخر السنة الثالثة وتتكاثر أغصانها وتزداد أوراقها.

وفى استطاعة رجل واحد أن يزرع أربعة فدادين من الأرض. بحيث يحتوى هذا المسطح أربعة آلاف غرس من شجيرات القطن. أما فى موسم الجصاد فيستطيع العامل الواحد أن يجمع فى اليوم خمسة عشر رطلا من القطن الى ثمانية عشر، وكيفية حليج الأقطان أنهم يأتون بألة مؤلفة من اسطوانتين موضوعتين أحدهما فوق الأخرى ومثبتتين فى قائمتين وطول قطر كل منهما تسع بوصات. فإذا تحركت هاتان الاسطوانتان بعجلة يديرها رجل بقدمه ووضع القطن بينهما، مر شعر القطن ووقفت البذور بدون أن تمر وسقطت فى مكان معدلها. وفى استطاعة العامل الواحد أن يحليج فى اليوم اثنى عشر رطلا إلى خمسة عشر .

ويقتصر الفلاحون فى تعبئة القطن على كبسه بالأقدام، كلما وضعوا جانبا منه فى الأكياس. ولكن سمو الوالى استحضر من انجلترا مكابس من النوع المستعمل لهذا الغرض فى أمريكا، وأمر بصنع آلات أخرى عل مثالها. وحجم

البالة على الطريقة المتبعة عند الفلاحين في تعبئتها متر ونصف ارتفاعا في متر واحد عرضا. أما حجمها إذا كبست بالآلة الأمريكية، فمتر واحد ارتفاعا ونصف متر عرضا.

١٦- النيلة

زراعة النيلة في مصر أهم الزراعات وأوسعها نطاقا. وهذا النبات أصله من الخارج وقد نجح نجاحا باهرا حتى شاعت زراعته في القطر المصري ولاسيما في الصعيد والفيوم. والعادة في زراعته أن يبذر له عقب الفيضان في الأرض السميكة الرملية التي يسهل ريها بمجاورتها للنيل أو الترع المتفرعة منه. وقبل البذر تحرث الأرض مرة واحدة ثم يقسمها مربعات صغيرة تخترقها قنوات متقاربة يضعون فيها البذور. وتروى الشجيرات مرة كل ثمانية أيام أو عشرة فإذا بدأت النباتات بالإزهار شرع باقتطاف الأوراق للمرة الأولى. فإذا تم نضجها وبلغت الغاية من نموها حصدت والبذور في آن واحد.

١٧- الزراعة الصيفية : الذرة

الذرة البلدية أساس غذاء الفلاحين الذين يفضلونها على القمح. وهم يبذرون لها في آخر مارس بالغيطان والحقول التي كانت مزروعة قبلا بالبرسيم الحجازي. والعادة إحراق الحشائش الطفيلية التي تكون الأرض المراد زرعها ذرة مغطاة بها. وبعد هذه العملية التي تزيد في خصوبة الأرض تحرث مرة واحدة ثم تحفر فيها جورات بالفأس يودع في كل جورة من ثلاث حبات إلى أربع وتغطي بالتراب وتقسم الأرض بعد ذلك إلى مربعات طول أضلاعها من أربع أقدام إلى خمس، تحيط بها حواجز يسيل الماء حولها، ثم يرسل إلى خطوط تعمل بواسطة الفأس. وبعد ري كل مربع رياً كافياً يطلق الماء في المربع الذي يليه وهكذا بالتعاقب، وفي الغالب يستغنون عن الري، ولكن المحصول يكون في هذه الحالة رديئا وقليلًا.

وتحصد الذرة خلال يوليو. وطريقة حصدها أن تقطع السوق من فوق الجذور بالمنجل أو الفأس. وفي فصل الخريف يزرع نوع من الذرة يسمى بالذرة البيضاء أو الذرة التي يسميها المصريون بالشامية. فتزرع مرتين في

السنة. مرة في الخريف وأخرى في الصيف. ويبلغ مايلزم من البذور لزراعة الفدان الواحد نحو ربع أردب ويختلف المحصول من أربعة أردب إلى عشرة ولكن الذرة الشامية يختلف محصولها للفدان الواحد من عشرة أردب إلى أربعة عشر أردبا.

١٨- الأرز

لزراعة الأرز، وهى من أعظم الزراعات في الوجه البحرى أسلوب خاص وطريقة تغاير طرق المزروعات الأخرى. ولقد سبق لنا القول بأن مزارع الأرز شائعة في الوجه البحرى، ولاسيما في ضواحي دمياط ورشيد.

وقبل وضع بذور الأرز في الأرض، توضع في قفف تغمر بالماء من عشرة أيام إلى خمسة عشر يوما، حتى إذا لانت البذور نشرت على الحصير، ثم جعلت أكواما طول كل كومة ثلاثون قدما في عرض أربع أقدام وارتفاع قدم واحد، وغطيت بالبرسيم أو التبن وبقيت كذلك إلى أن تنبتها الحرارة. وهو ما يحدث عادة بعد يومين أو ثلاثة أيام من بقائها في هذه الحالة. وتبذر بعد ذلك في أرض تكون قد غمرت من قبل ببضعة أيام وحرثت حرثا متقاطعا وتركت أياما لتراتح، ثم أعيد حرثها وغمرت بالماء ثانيا ومهد سطحها بعد تشربها بالماء بالزحافة أو الكرك. والبذور التى تنثر عليها تنغرز فيها بنفسها بحكم ثقلها، خصوصا وأن الأرض تكون وقتئذ متشعبة بالرطوبة الشديدة. وبعد ثلاثة أيام تطلق المياه مرة أخرى على المربعات التى نثرت عليها البذور وتترك كالسابق ثم تصرف عن الأرض وتروى الأرض على هذه الطريقة الى أن يتم نضج الارز. وإذا بقيت مزارع الأرز من غير ماء، فإن الزراعة تصبح معرضة للخطر.

والعادة أن يبدأ بزرع الأرز في شهر نوفمبر فإذا تم نضجه قطع بالمنجل وعقد حزما ثم نقل إلى بيدر (جرن) لتستخرج الحبوب منه بأداة شبيهة بالنورج يجرها ثوران بضع ساعات على تلك الحزم، بعد فك رباطها ونشرها على سطح البيدر. وبعد غربة حبوب الأرز تعرض للشمس لتجف وتجرد من قشورها بضربها في هاون بمضربين يتحركان بوسيلة آلية خاصة. وبعد تببيض الأرز يعاد ثانيا إلى المضارب ويخلط بكمية من الملح تعادل خمس مقداره.

١٩- التيل أو القنب

الأرض الموافقة لزراعة التيل هي التي على ضفاف النيل وحفاف الترع، بشرط أن تكون دائمة الرطوبة. وقبل الشروع في مباشرة بذرها بالتيل تحضر بالكيفية التي تجهز بها لزراعة قطن جومل. والعادة البدء بالبذر في شهرى يناير وفبراير، فلا يمضى أربعة أيام حتى تنبت البذور فتظل آخذة بالنمو نحو خمسة عشر يوما، وتتقى عندئذ من الحشائش، وتكرر هذه العملية كل ثمانية أيام. ويلبث نبات التيل في الأرض من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة ونصف تقريبا، ويستدل بلونه على بلوغه حد النضج، وبعد حصده يترك معرضا للهواء عشرين يوما لتجفيفه، ثم يضرب لفصل البذور منه فالألياف التي تنتج عن هذه العملية تنتقع في الماء خمسة عشر يوما، فإذا تطورت بطور معروف عند أهل الفن فصلت بعضها عن بعض وعرضت للشمس ستة أيام ثم نظفت من الشوائب المخالطة لها وأرسلت بعد تنظيفها مع البذور الى الشون والمخازن المعدة لحفظها.

٢٠- الكتان

يزرع الكتان بطريقتين: الأولى لايعنى فيها بتجهيز الأرض المخصصة لزراعته سواء قبل البذر أو بعده، إذ يكفي ببذر البذور عقب انصراف المياه والثانية يعنى فيها بحرث الأرض على الاتجاهين الطولى والعرضى وقسمتها إلى مربعات تبذر باليد، ثم تروى مرة واحدة فقط، ومتى ظهر النبات ونما نثر على الأرض تراب قلوى ثم رويت أثناء نمو السوق وتركت حتى تبلغ حد النضج في مارس حيث تنتزع السوق وتنشر لتجفيفها، ومتى تم جفافها جعلت حزما صغيرة لاستخراج البذور منها إما بالضغط على أجزائها العليا أو بنفضها على أنية من الفخار. والطريقة الأولى شائعة في الوجه البحرى والثانية في الصعيد. وبعد الضرب توضع المحافظ المحتوية للبذور في الرحى لاستخراج هذه منها. وعقب هذه العملية يربط التيل حزما ربطا شديدا وتعرض الحزم للشمس والندى زمنا ثم توضع في المياه الراكدة أو الترع وضعا رأسيا لعطنها وتثقل بالحجارة حتى لا تطفو على وجه الماء. وتبقى كذلك خمسة وعشرين يوما تستخرج في نهايتها وتطرح تحت أشعة الشمس لتجفيفها. ومتى زال ما بها من الرطوبة توضع على حجر وتضرب بعصى ثم

تنفض نفضا لنزع القشور اللاصقة بها. وتمر بعد ذلك من بين أعواد متوازية كأسنان المشط لتنقيتها مما يكون متخللا أليافها من القشور.

٢١- دود القز أو دود الحرير

عُضد محمد على تربية دود القز في مصر، وغرس لهذا الغرض أكثر من ثلاثة ملايين شجرة توت، في الوجه البحرى وحده، وشجر التوت يورق عادة في يناير من كل عام، كما أن نقف دود القز للبيض يوافق شهر مارس أو ماقبله وبين النقف والميعاد الذى تغزل فيه دودة القز شهران تتطور أثناءها بالاطوار المعلومة عند المتفرغين لتربيتها.

ولا يصاب الدود في مصر بالآفات الوبئية ولا تعرف هذه الآفات فيها. ولكن الحرارة الشديدة والعثير والندى مما يضر به. وهبوب رياح الجنوب المحرقة تجففه وتحرقه حتى يصير كالفحم

والأوقية الواحدة من البيض تعطى ٧٠٠٠ فيلجة أو شرنقة تزن الواحدة منها من نصف درهم إلى درهم. وفي سنة ١٨٢٢ بلغ محصول الحرير المصرى ٦١٥٠ أقة. أما البيض الذى يبيضه الفراش، فلا يستلزم عناية ما، لأن الذكور منه تزواج الإناث بنفسها. ويكفى عشرون يوما لتكون الفياالج على أتم ما يراد. أما البذور التى يبيضها فتحفظ شتاء في أكياس تدلى في الآبار.

٢٢- حاصلات القطن المصرى

نورد فيما يلى كميات الحاصلات الأصلية للقطن المصرى في سنة ١٨٢٢ ليقف القارئ على أهميتها التى نذكر أنها ما برحت حتى الآن حافظة لمكانتها:

هتكو لتر	
٢٦٦٨٠٠٠	قمح
١٢٨٨٠٠٠	فول
١١٩٦٠٠٠	شعير
٢٩٤٤٠٠	ذرة شامي
١٣٨٠٠٠٠	ذرة بلدى
١٢٨٨٠٠	عدس
٤٦٠٠٠	حمص
٣٦٠٠٠	ترمس
١١٠٤٠٠	حلبة
٥٥٢٠٠	أرز رشيدى
٩٢٠٠٠	أرز دمياطى
٤٠٤٨٠	بذر كتان
١٤٧٢٠	بذر خس
٣٣١٢٠	بذر سمسم
٢٧٦٠٠	بذر قرطم
كيلو جرام	
٤٨٩١٧٠٠	قطن شجرى
٢٠٠١١٥	قطن حشيشى
٣٨٢٤٤٩	سكر
٢٦٦٠٠	زعفران
١٥٥٥٤٥٠	حناء
٨٠٠٤٦٠	كتان
٩٤٧١٠٠	نيله
١٨٤٥٠	أفيون
٧٩٩٥	حرير

(٥) الصناعة

٢٣- الصناعة المصرية قسمان قسم يشمل الصناعات الكبرى أعنى الصناعات التى أنشأ محمد على لأجلها المصانع الكبرى الكثيرة. والثانى الصناعات الصغرى المحلية والأنوال المختلفة التى يكسب الأهليون أقواتهم من ممارسة العمل بها.

١

الفاوريقات = الشركات =

مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية: ببولاق والقاهرة والوجه البحرى والصعيد - فاوريقات الأقمشة الكتانية - مبيضة بولاق - بصم الأقمشة والمناديل - فاوريقات الأنسجة الحريرية - معامل الحبال - فاوريقة الجوخ فى بولاق - فاوريقة الأنسجة الصوفية - فاوريقة الطرابيش فى فوه - مسبك الحديد - معمل الأسلحة القابلة للحمل - فاوريقة السكر - معاصر الزيت - معامل النيلة - معامل البارود وملح البارود والمواد الكيميائية - أفكار وخواطر عن فاوريقات مصر ومعاملها.

أنشأ إلى مصر عددا عظيما من الفاوريقات، فمن مغازل القطن إلى فاوريقات الأقمشة الكتانية إلى معامل البصمة (الشيت) والجوخ والصوف. إلى مصانع الطرابيش والأقمشة الحريرية إلى مسابك الحديد ومعامل الأسلحة الخ.

٢٤- مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية

فى أنحاء متفرقة من القطر المصرى عدد غير قليل من معامل غزل القطن، فقد بلغ عدد هذه المعامل خمسة عشر تحتوى ١٤٥٩ نولا منها ١١٥ للغزل الغليظ و ١٣١٤ للغزل الدقيق. أما أنوال النسيج فأكثر من ١٢٠٠ تنسج فى فصل الشتاء أكثر من ٣٥٠٠ قطعة من القماش يوميا، وفى الصيف نحو ٦٠٠٠ يوميا كذلك، أما ما تنتجه فى السنة من قطع القماش فيبلغ على حساب المتوسط مليونى قطعة.

وأتقن تلك الفاوريات وأكملها فاوريقة (مالطة) ببولاق، وهذه البلدة هي المرفأ الصناعى والتجارى لمدينة القاهرة. فإن القطن يغزل فى المعمل ثم ينسج أقمشة مختلفة الأنواع. وقد أعتنى ببنائها وجعل فيها للعمل ثمانية وعشرين عجلة وأربعة وعشرين محلاجا. وهذه الآلات تصل إليها الحركة من أحد عشر طنבורا يحركها ثمانية أبقار بالعدة المعدة لهذا الغرض. وكل عجلة يشتغل عليها رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تنقطع بحركة الآلة. وفى فاوريقة مالطة مائتا نول تنسج خيوط القطن. ومما ينسج فيها قماش الموسلين والباتست. وبجوار هذه الفاوريقة معملان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بمعمل إبراهيم أغا والآخر بمعمل السبتية.

أما القاهرة ففى حى الخرنفش منها فاوريقة من هذا النوع تحتوى مائتى عجلة، عشر منها للغزل الغليظ والباقى للغزل الدقيق. وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحدة والمائة الثانية مائتين وستة عشر. وفى الوجه البحرى تسعة فاوريات لغزل القطن ونسجه واحدة منها فى قليوب وهى فسيحة الجوانب بعيدة الأطراف تحتوى سبعين عجلة وثلاثين محلاجا تحركها ثلاث عدد. وفى قرية شبين من مديرية منوف فاوريقة أخرى لغزل القطن فيها سبعون عجلة وثلاثون، محلاجا يحركها عدتان. وفى المحلة الكبرى فاوريقة بها مائة وعشرون عجلة وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد، والخيوط التى تغزل هذه الآلات تنسج فيها قماشاً على مائتى نول.

وفاوريقة غزل القطن فى زفتى من مديرية الغربية تحتوى خمسة وسبعين عجلة وخمسين محلاجا يحركها ثلاث عدد. وفى بلدة ميت غمر فاوريقة من هذا النوع.

أما فاوريقة المنصورة فتحتوى مائة وعشرين عجلة وثمانين محلاجا يحركها أربع عدد وفيها مائة وستون نولا لنسج الخيوط التى تغزل فى مغزل الفاوريقة. وفى دمياط مصنع للغزل شبيه بالمتقدم، وفيه مثل ما يحتويه عددا من الانوال.

أما فاوريقة دمنهور ففيها مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا. وفى فاوريقة رشيد مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا يحركها أربع عدد وهى خاصة بنسج أقمشة القلوع.

وفي الوجه القبلى مصانع للغزل والنسيج ازداد عددها منذ بضع سنوات، وأهمها الفاوريقتان اللتان ببنى سويف وأسيوط ولقد أنشأ الوالى فاوريقات أخرى بالمنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وإسنا.

٢٥- فاوريقات الأقمشة الكتانية

أما فاوريقات الأقمشة الكتانية فموزعة كالسابقة على جملة من المديریات، ولاسيما مديريات الوجه البحرى. وما تصنعه من الأقمشة يستنفد بالقطر المصرى. ويبلغ ما تنتجه فى السنة ثلاثة ملايين قطعة، يصدر قسم كبير منها إلى (تريسته) و(ليفورنة) وفى القطر المصرى ثلاثون ألف نول لنسج أقمشة الكتان.

وفيما بين بولاق وشبرى حظيرة فسيحة جدا تسمى (المبيضة) تجرى فيها، على الأقمشة المنسوجة فى تلك الفاوريقات، عمليات التبييض المختلفة. وفى هذا المكان تبصم هذه الأقمشة أيضا بالألواح أو الاسطوانات الميكانيكية. ويبلغ ما يبصم منها فى الشهر ثمانمائة قطعة. وفى السنوات الأخيرة أخذت الأقمشة المبصومة فى المبيضة (البصمة) تنافس الأقمشة الواردة من نوعها من إنجلترا وألمانيا، ولذلك قل المستورد منها قلة محسوسة. وهى تمتاز على هذه بدقة النسيج وجمال الرسوم وثبات الألوان. وتبصم فى المبيضة أيضا مناديل المسلمين التى يعصب النساء بها رؤوسهن.

٢٦- فاوريقات الحرير

كانت الأقمشة والحريرية تنسج بمصر فى كل زمان ولكن محمد على هو الذى وسع نطاق صناعة نسجها بغرسه المقدار العظيم من شجر التوت. ولقد أحضر من الأستانة عمالا أخصائيين لنسج الحرير على الطريقة التى ينسج بها فى هذه المدينة وفى الأقطار الهندية. وبمصر الآن نحو مائة نول مستعملة لنسج الحرير والأسلاك الذهبية وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وهم على غاية من الحذق فى صناعتهم. لأنهم يجيدون النسج ويظهرون البراعة فى تحليلته وتنميته بالرسوم اللطيفة.

٢٧- معامل الحبال

إن القنب الذى أصبح محصوله أقل منه قبل أن يبلغ محصول القطن ذلك

المبلغ العظيم بتعصيد سمو الوالى، لم يعد يستعمل الآن لنسج المنسوجات ، منذ اقتصر فى استعماله على صنع الحبال اللازمة للبحرية، وبالقاهرة مصنع كبير للحبال ترسل مصنوعات إلى ترسانة الإسكندرية.

٢٨- فاوريقة الجوخ

ببولاق فاوريقة لصناعة الجوخ على اختلاف أنواعه وألوانه وبالرغم من أنها لم تأت منذ البداية بالنتائج المرضية المنتظرة. جاءت فيما بعد بفوائد لا تنكر، خصوصا منذ تولى أمرها خمسة من الفرنسيين انتخبوا من بين صناع معامل الجوخ فى مقاطعة (لنجدوك) بفرنسا. وقد عكفوا على إدارة هذا المصنع منذ أربعة عشر عاما. فتمكنوا من تدريب لفيف من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والطباخين من الأهالى الوطنيين. ولم يكتف سمو الوالى بما تقدم. بل أرسل لفيفا من الشبان المصريين لتعلم هذه الصناعة بفاوريقات الجوخ بمدينتى (سيدان) و(البوف) بفرنسا. فاستطاعوا بعد عودتهم ، وقد تدربوا على العمل، إفادة البلاد بما حصلوا عليه بخبرتهم وتجاربهم.

وتنسج الأجواخ المصرية من الصوف المصرى الذى يرد أجود أصنافه من دمنهور والمنيا. ويستعمل لهذا الغرض أيضا الصوف المستورد من الأيالة التونسية.

أما الجوخ المصنوع فى الفاوريقة المصرية فحيد الصنع متين التيلة، ومنه تتخذ ملابس الجنند. واللون الذى يلون به فى الغالب هو الأزرق الغامق والأزرق اللازوردى والأحمر القرمزى والأحمر البرونزى والأخضر الغامق. ويبلغ ما ينسج منه فى الشهر الواحد ١٣٥٤٠ مترا تقريبا.

وتصنع فى الفاوريقة الآنفة الذكر - فيما عدا الأجوا - منسوجات من الصوف للملابس النوتية المصريين (البحارة) وأغطية (بطاطين) للنوم. والصوف المستعمل لهذا الغرض هو الصوف الغليظ الوارد من الوجه القبلى. وبالقطر المصرى ٤٠٠ نول لنسيج الصوف.

٢٩- فاوريقة الطرابيش

فاوريقة الطرابيش التى أنشأها سمو الوالى توجد الآن ببلدة فوه. وقد

نجحت نجاحا باهرا في صناعتها لأنها تنتج مصنوعات جيدة جدا بأيسر كلفة. وقد وضعت في الأصل تحت تاجر من المغاربة واستدعى صناعتها من حاضرة تونس المشهورة بصناعة الطرابيش على اختلاف أنواعها. أما الصوف المتسعمل لصنع الطرابيش فيستورد من أراضى (آليكانت). وبعد شغل الطرابيش وكبسها تصبغ باللون الأحمر القرمزى والعفص والطرطير والشب. وتصنع فاوريقة قوة من الطرابيش يوميا ستين دستجة، = دستة = منها مايصلح للبس عساكر الجيش ومنها مايباع على الأهلين.

٣٠- فاوريقات السكر

يصنع السكر بكميات عظيمة في الوجه القبلى، ولكن الطرق التى يهتخرج بمقتضاها لاتزال متأخرة. وفي سنة ١٨١٨ أنشأت الحكومة ببلدة الايدمون من مديرية المنيا فاوريقة للسكر. على نمط فاوريقات بلاد (الانتيل) بأمريكا. ثم أسست فاوريقتان من هذا النوع، أحدهما في ساقية موسى والأخرى في الروضة من مديرية المنيا. وبلغ ما صنع في الايدمون من السكر سنة ١٨٣٣ نحو ١٢٩٩٥ قنطارا من السكر الخام، وفي ساقية موسى ٥٢٠٠ قنطارا، وفي الروضة ٣٢٠٠. وفي هذه الفاوريقات يستقطر شراب الروم بمقادير عظيمة.

٣١- مصانع النيلة

أنشئت حديثا جملة مصانع للنيلة، واستدعى إلى مصر بعض الهنود لتعليم المصريين تحضير هذه المادة. وقد خص سدس محصول هذا النبات ليصنع في تلك المصانع التى أنشئت حديثا بالبلاد الآتية وهى: شبرى والشهابية من مديرية قليوب، العزازية من مديرية الغربية، ثم في ميت غمر والمنصورة ومنوف وإبيار والأشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وطهطا وأسيوط وملوى ومنفلوط والفشن.

٣٢- معاصر الزيت

يحتوى الوجه البحرى مائة وعشرين معصرة لاستخراج الزيت من بذرة الكتان. وهناك آلات أخرى لعصره من السمسم (السيرج) وبالقاهرة أربعون معصرة لعصر الزيت من بذور القرطم. وفي الوجه القبلى يعصر الزيت من بذور الخس. وهذه الزيوت على اختلاف أنواعها داخلية في احتكار الحكومة.

٣٣- معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد الكيميائية

بالقرب من المقياس في الطرف القبلى من جزيرة الروضة معمل البارود يديره فرنسى كان سابقا من مستخدمى معمل بارود (سان شاماس) من مقاطعة (بوش دى رون) والحكومة تأخذ كل حاجاتها منه.

وقد أنشأ المسيو (هيم) الكيميائى الفرنسى جملة مصانع مهمة لتحضير المواد الكيميائية اللازمة للفاوريقات ، وعلى الخصوص منها حامض الكبريتيك. وتحت تصرفه الآن جملة مناجم لاستخراج ملح البارود الذى تستخرج هذه المادة منه بالتبخير، والمعامل التى من هذا القبيل ستة أذكرها فيما يلى مقرونة بكمية ما أنتجته في سنة ١٨٣٣ :

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارا
معمل البدرشين	١٦٨٩ قنطارا
معمل الأشمونين	١٥٣٣ قنطارا
معمل الفيوم	١٢٧٩ قنطارا
معمل أهناس	١٢٥٠ قنطارا
معمل الطرانة	٤١٢ قنطارا

٣٤- مسابك الحديد

ببولاقي مسبك كبير بلغت النفقة على بنيته وحدها مليوناً ونصف المليون من الفرنكات. وكان إنشاؤه بمقتضى تصميم وضعه المهندس (جالويه) الإنكليزى مطابقاً للتصميم الذى بنيت بحسبه مسابك الحديد في لوندرة. وقد تولى هذا المهندس بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال من الإنكليز. إدارة الأعمال فيه وهم يرأسون خمسين عاملاً من المصريين، ويصبون من الحديد المصهور في كل يوم ما يبلغ وزنه على وجه التقريب خمسين قنطاراً من الحديد، وما يصنع من الأدوات والآلات في هذا المسبك خاص بالبحرية المصرية، والفاوريقات المختلفة التى أنشأها سمو الوالى.

وفي ترسانة القاهرة مسبك يقوم بحاجات المدفعية والبحرية، وفيها أداة طرق المعادن لعمل صفائح النحاس المستعملة في تجهيز السفن . وهذه الأداة تحركها آلة بخارية شديدة الضغط قوتها عشرون حصاناً.

٣٥- معمل الأسلحة القابلة للحمل

أهم معهد للصناعة في مصر ، بل أحق المعاهد التي من نوعه بالذكر هو . بلا خلاف معمل الأسلحة القابلة للحمل. ولست أظننى قادرا على وصف هذا المعمل بأحسن مما وصفه به جناب الدوق (دى راجوز) فيما أبداه من الآراء بشأنه. ورأيه في مثل هذا الموضوع حكم قاطع، فقد قال: «مما أعجز عن توفيته حقه من المدح معمل الأسلحة القابلة للحمل الذى يبدع من هذه الأسلحة أكثر استجماعا لضروب الكمال والإتقان. والمعامل من هذا القبيل في مصر ثلاثة، زرت منها معمل القلعة باحثا مدققا منتقدا فرأيت ان الأسلحة التى تصنع قد جمعت وسائل الإتقان والإحسان المتوافرة فيما تصنعه معاملنا من نوعها. والنوع الذى يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسى. وجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة نوع السلاح تتخذ في معامل مصر كما تتخذ في معاملنا. سواء. وقد اتبعت فيها طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة في معاملنا فإن كل شئ يعمل بالقطعة بحسب تعريفه مقرر. وخلاصة القول فإن معمل السلاح الذى زرت يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاما وجودة مصنوعات وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد.

٣٦- آراء وخواطر في فاوريقات مصر

أثار إنشاء الفاوريقات في مصر انتقاد الكثيرين. وقد بنوا انتقاداتهم على الأسباب الآتية:

أولا- أن الآلات الضرورية للفاوريقات لا يمكن صنعها ولا تركيبها في القطر المصرى. وأن مصر ستبقى مضطرة دواما إلى الاستمداد بأوروبا فيما يتعلق بالوسائل الأولية لنشر الصنائع في أرجائها.

ثانيا- إنه لمن المتعذر جدا تعهد الآلات بالعناية في قطر لا مناص من إصابتها فيه بالتلف بسبب الحرارة والعثير والرطوبة.

ثالثا- إن الأمة المصرية تنقصها جميع المزايا والفضائل التى تحملها على الميل الى الصناعة والانصباب عليها. دع ماجبلت عليه من الدعة والتراخى وقلة البصر بالعواقب وعدم الحرص على الضبط والدقة . فهى لا تملك إذن شيئا من العبقرية التى تتطلبها الصناعة فيمن يتصدرون لممارستها.

رابعاً- إن الحكومة لم تخلق للتفرغ إلى تسيير الصناعة في الطريق الطبيعي الذي ينبغي أن تسيير فيه ، وإنما يتوقف اتساع نطاق الصناعة على التنافس فيها بشرط أن يهيمن على إدارة شئونها أخصائيون يهتمهم بالذات رقيها في مدارج النجاح. لا موظفون ليس من مصلحتهم الاشتغال بها ولا باعث هناك يستنفروهم إلى التنافس في طلب الربح منها.

خامساً- إن من المتعذر على المصريين فيما وصلوا إليه الآن من الحضارة أن ينتجوا شيئاً يضارع في الجودة ما تنتجه الشعوب الغربية التي أمعنت البحث في العلوم الطبيعية والرياضيات ولا تزال حتى اليوم تقطع الأشواط البعيدة عن طريق نموها.

سادساً- إن مصر لن تستطيع استعمال الآلات البخارية مادامت تستعين بالأجنبي في استيراد الوقود منه، ولا تستطيع لحرمانها من الشلالات والأنهار السريعة التيار استخدام الوسائل المائية لتوليد القوة المحركة. يضاف إلى ما تقدم أن القوة التي تنتجها الحيوانات لا تكفى في هذا الزمن لأداء الأعمال الكبيرة ولا تليق إلا بالصناعات الصغرى التي ما برحت على الفطرة الأولى.

سابعاً- إن مصر مضطرة إلى الاستقرار والبقاء في نطاقها الزراعى بحكم خصوبة أرضها وطبيعة طقسها وأخلاق سكانها.

وهذه الاعتراضات على مكان مكين من الصواب والحق كما هو ظاهر، ولا غبار عليها، إذا نظرنا إليها من جانب الإطلاق والتعميم. وقد أيدت الحوادث بعض ما ورد فيها، إذ كثيراً ما تبين النقص والعيب في المصنوعات المصرية مع زيادة كلفتها على ما يقابلها من المصنوعات الأوروبية. وأن هذا الفارق لم يمنع سمو الوالى من المضى في تجاربه الصناعية مراعاة لشعور الحب الذاتى والنصرة الوطنية.

ومع هذا فمما ينبغي الاعتراف به أن نظر محمد على على البعيد في السياسة. كان القائد الرائد له في سبيل اقراره على إنشاء المعامل الكثيرة. فلقد كانت همته منصرفة إلى تخويل مصر كل ما ينقصها من عناصر الاستقلال. وأسبابه. وأن له من هذه الجهة الحق في اتخاذ الوسائل الكفيلة بتخلصه من ربقة التبعية الصناعية لأوروبا.

ولا ينبغي أن يتطلع أحد - باسم النواميس الصارمة التي أقرها علم الاقتصاد السياسي - إلى تجريد مصر من بعض الحاصلات الصناعية التي تساعد ظروف كثيرة على انتاجها كالغزل والانسجة القطنية والكتانية والصوفية الخ. فإن وفرة المواد الأولية ورخص أجور العمال يجعلان مصر من أكثر البلاد صلوحا لإنتاج هذه المصنوعات. ولايسع الذين تحملهم بعض البواعث على استحسان أفكار سمو الوالى وابتكاراته من جهة الصناعة إلا أن ينصحوا له بترك إدارة تلك المعامل زمنا ما لذوى الخبرة والاختصاص من الأوروبيين . فإن من البديهي، إذا كانت إدارة المعامل قد كلفت الكلف الفادحة ولن تأت من الثمرات بما يعوض بعض ما أنفق في سبيلها من الأموال المباهظة والكلف الفادحة، أن يكون السبب في ذلك عدم حسابان الحكومة مايتأتى عن اخلائها - في غير الأوان المناسب - سبيل المديرين والمعلمين الأوروبيين الذين عهدت إلى كفءاتهم إدارة تلك المصانع وتعليم صناعاتها، لمجرد انصراف رغبتها إلى تعيين غيرهم من الأتراك والمصريين في وظائفهم، قبل أن يحصل هؤلاء على الخبرة والدربة الضروريتين في عملهم. ومع أنهم لايزالون خلوا من الكفاءة وصفرا من العلوم التي تؤذن لهم بتتبع أثر الصناعة الأوروبية في تقدمها المطرد وانسياقها المستمر إلى الأمام.

ومما يجىء بالفوائد الجزيلة إجازة أصحاب المشاريع الخاصة باستغلال تلك الصناعات. شيئا فشيئا، حتى تصير في معزل عن الحكومة، وفي بعض تلك المعامل - إذا لم يكن فيها كلها - من المزايا النافعة والخواص الثمينة ما يغرى المضاربين من أصحاب المشاريع بالإقبال على استثمارها. وأعتقد أن الحكومة المصرية باتباعها هذا الأسلوب الجديد وسيرها على هذا الدرب، لابد وأصلة في النهاية إلى خير النتائج وأجداها نفعا. وهى إذا فعلت ذلك ستشجع الصناعة تشجيعا نافعا بوضعها تحت تأثير المصالح الشخصية، دع أنها بذلك تستدرج إلى مصر كثيرا من رؤوس الأموال الأوروبية التي لانظن أنها تجد موطنها لاستثمارها أوفق من البلاد المصرية.

(٢)

الصناعات الصغرى والفنون والمهن

الطوائف الصناعية . الفنون الغذائية: تجهيز القمح — الفرانجون-
الجزارون- معامل الدجاج- تحضير الفول- الخل- الاستقطار- صحن
البن- صنع الفطير — الفنون الخاصة بالكسوة: الغزل- اللبد والحريز
وتبييض الغزل والقماش والصبغ والتلميع والتطريز والمخيشات- الدباغة-
صناع الأحذية والسروج- الخياطون- صناع الكراكي — الفنون الخاصة
بالسكنى: البنائون- الحدادون- نجارو العمارات والنجارون الدقيون-
صناع المزاليج من الخشب- الخراطون- صناع الفخار- صناع الزجاج-
الجوهريون والصياغ- صناع السلاح- الحصرية — صناعات مختلفة :
الشبكجية- المزينون- التجار.

٣٧- الطوائف الصناعية

يمتاز نظام الصناعات الصغرى في مصر بعلامات يفيد القراء الوقوف
عليها. فإن كل حرفة يدوية يتألف منها طائفة يرأسها شيخ يتولى النظر في
شئونها، ولمشائخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء،
يختارهم إما حكام المدن التي يقيمون بها وإما السلطة العليا. وكلما رأت
الحكومة ضرورة إلى النظر في نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها
من الفرض خاطبت في ذلك مشائخها. فيتولون توزيع الفرض المطلوبة مثلا
على كبار الصناع التابعين لطائفتهم.

وليس تأليف الطوائف قاصرا على الصناعات النافعة. بل يتناول المهن
الدنيئة كمهن الجعيدية والآلاتية والشعراء الذين يروون القصص
والحواة والرقاصين والعوالم والمومسات فلكل طائفة من هذه الطوائف شيخ
تخضع لسلطته وينوب عنها لدى الحكومة ويتولى شئونها ويدافع عنها عند
الحاجة.

وكان للصوص قبل محمد على رؤساء معترف بهم، يأخذون على أنفسهم
استرجاع الأشياء المسروقة في مقابل مكافأة تعطى لهم، وهي التي يسمونها

بالحلاوة. وهو ما يؤخذ منه أن هذه العادة التي كانت شائعة عند قدماء المصريين قد استمرت خلال القرون الطويلة إلى العهد الحاضر.

ولكل صناعة مدة يتدرب العمال خلالها على العمل فيها:

فإذا أراد الصبى المتعلم أن يصير معلما أو «أوسطى» بعد حذقه الصناعة التي اختارها تحت مباشرة عامل ذى حيثة وصفة ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوبا بمعلمه. ومتى اجتمع به سلم عليه وقال له: «لنقرأ الفاتحة» فيقرأ الشيخ هذه السورة مع الصبى والحاضرين جميعا، وبعد القراءة يسأله الشيخ عن سبب زيارته له مع معلمه، فيقول المعلم إن صبيه قد تعلم الصنعة وأحكمها وأنه يرغب أن يصير معلما وأن يمارسها في مصنع خاص، فيدنى الشيخ الصبى منه ويحزمه بحزام خاص عنده وينادى به عضوا من أعضاء الطائفة وعلى أثر هذه الأجراء = الإجراءات = يدعو المعلم الجديد شيخه وكبار رجال الطائفة، إلى وليمة في بيته إشعارا بامتثانه منه وشكره له، فيجيب المدعو. هذه الدعوة أما المعلم الجديد فلا يطالب بدفع شيء ما من المال إلى الشيخ في مقابل تكريسه إياه معلما على الوجه السابق.

وإذا ترك الصبى معلمه، فإنه لا يستطيع الدخول في معمل ما إلا إذا زار الشيخ ليبسط له الأسباب التي حملته على مغادرة معلمه الأول، فإذا ثبت له من بيانه أن الانفصال حصل لوقوع مشاجرة بين الاثنين تداخل الشيخ في الخلاف. وكثيرا ما يؤدي تدخله إلى إزالة الخلاف ووقوع الصلح بين الصبى ومعلمه. أما إذا ثبت له أن السبب مصلحة مالية فلا أسهل من أن يدخل العامل. بموافقة الشيخ وواسطته، في خدمة معلم آخر.

وفي القاهرة المهن والصناعات كافة على اختلافها، لكل مهنة مثل هذا النظام الغريب وأهم المهن ما كان عدد الصناع فيها أعظم منه في غيرها كمهن الطحانين والخبازين وصناع معاصر الزيت والخل والنساجين والدباغين والخياطين وصانعى الفخار والحدادين والنجارين والخراطين والطرزينة والعقادين. وفيما عدا هذه الصناعات والحرف مهن كثيرة يزاولها جم غفير من الناس، منها مهنة تجهيز الفول المدمس وتحضير الجير والجبس والطوب والفحم.

ومن المحتمل أن تكون الأساليب المتبعة في مزاوله هذه الصناعات الآن مطابقة لها في عهد قدماء المصريين، وأن ماتعطيها من النتائج والثمرات تماثل ماكان يجتنى منها في أيامهم بفارق بسيط يستدعيه تأثير طول الزمن بتعاقب الأجيال. لاسيما وأن المصريين امتازوا، على توالى العصور، بالاحترام التام الثابت للعادات والتقاليد القديمة والتمسك بها، كما عرفوا بالحرمان من عبقرية الاختراع إلا أنهم يتفوقون في مقابل ذلك، بالحنق في التقاليد بمعنى أنه إذا أعطى أحدهم نموذجا ما أحكموا تقليده وذهبوا في إتقانه إلى الغاية القصوى.

ويجلس الصناع القرفصاء أو متربعين أثناء اشتغالهم عملا بتقاليدهم المألوفة. ويؤدون وهم في هذا الوضع، أعمالا يعجز صناعنا عن أدائها. وقد أعجب السياح برشاقتهم ومهارتهم في استخدام أرجلهم.

ولكن أتى على وصف الحرف الأصلية التي تتألف منها الصناعة الصغرى وصفا سريعا ، لا أظننى قادرا على تقسيمها تقسيما يوافق المنطق والصواب كتقسيم العلامة (جومار) لها في الجزء المخصص لوصف القاهرة من مذكرته الجميلة المدرجة في المجلد الثامن عشر من كتاب «تخطيط مصر» وفيه بيان شاف للصناعة والمهن الميكانيكية. فاقترء به سنقسم الفنون والمهن المصرية الصغرى إلى أربع رتب: الأولى للمهن التي يرتبط بها غذاء الإنسان، والثانية للمهن التي يتعلق بها لباسه، والثالثة والرابعة للمهن الخاصة بالمساكن وتأثيثها وزخرفتها، وبالجمله كل مايتعلق باحتياجاته البيئية.

٣٨- المهن الغذائية: تحضير القمح والخبازون

يستعمل المصريون لطحن القمح طاحونا بسيطا مؤلفا من حجرين تحركهما عدة يعلق بها عادة حصان أو بغل.

وهم يخبزون الخبز في أفران بسيطة، مرتين كل يوم. والخباز يدخل الخبز الذى يرد إليه في الفرن لإنضاجه ثم يخرج منه بعد أن يلبث فيه بضع الدقائق الكافية لنضجه.

٣٩- الجزارون

الجزارون قليلو العدد في القطر المصرى تبعا لقلّة استنفاد اللحوم فيه بسبب عدم إقبال طبقة الشعب عليها.

٤٠- معامل الدجاج

لمعامل الدجاج - أى أفرانه شهرة متصلة من قديم الزمان، ويستطيع المصريون بواسطة هذه المعامل تفريخ الدجاج بمقادير عظيمة، ويستعوضون بتأثير حرارتها عن التفريخ الطبيعي. ولا خلاف أن الذين ابتكروا هذه الطريقة هم قدماء المصريين، دعاهم إلى ذلك أن الدجاج المصرى لايميل، إلى احتضان البيض.

والأمكنة التى يعالج المصريون فيها عملية التفريخ المتقدمة تسمى «معامل الفروج» ويحتوى الواحد منها عادة من أربعة إلى ثلاثين فرنا مصفوفة على خطين متوازيين، يفصلهما عن بعضهما ممر ضيق، والمعمل عبارة عن خلية صغيرة إرتفاعها ثلاثة أمتار وطولها كذلك وعرضها متران ونصف متر. وتنقسم فى منتصف الارتفاع إلى طبقتين بواسطة سقيفة من الآجر ذات فتحة تسمح بمرور الإنسان من بيت إلى بيت - أى من طبقة إلى طبقة. ولكل من البيتين باب يفتح على الدهليز - أى الممر الضيق المتوسط بين الصفين، وأبواب مثله فى الحواجز الجانبية التى بين كل خلية والخلية التالية لها، بحيث تتصل جميع الخلايا الموجودة على صف واحد بعضها ببعض. وتخصص البيوت السفلى لوضع البيض المراد تفريخ الدجاج منه والعليا لوضع النار، وهى ذات شكل خاص يلائم الغرض المطلوب منها.

والعادة أن يوضع فى كل فرن من الأفران برسم التفريخ من ثلاثة آلاف بيضة إلى أربعة تبسط على سطح البيت الأسفل من المعمل فوق حصيرة، طبقات يفصلها بعضها عن بعض شئ من الأبسطه أو التبن. وبعد ترتيب البيض على هذا المثال تضرم النار فى ثلث عدد الأفران تقريبا بحيث تكاد تكون المسافات بينها متساوية، وبعد أربعة أيام أو خمسة تضرم النار فى أفران غير الأولى، وعقب مضى أيام مثلها، تضرم فى الأفران الباقية. وكلما أوقدت الأفران اللاحقة عنى بإطفاء الأفران السابقة. وتجدد النار ثلاث مرات أو أربعاً فى كل يوم، وتذكى قبيل الليل لدفع طراوة الجو فيه. ويكلف أحد العمال بغشيان

البيوت السفلى جملة مرار في اليوم لتقليب البيض وإبعاده عن الأماكن التي تزيد درجة الحرارة فيها عنها في الأخرى. وفي اليوم الخامس يتفقد كله على ضوء الصباح ليعزل ما لا يكون منه قد أخصبه الديكة.

والحرارة الضرورية لنجاح عملية التفريخ هي ٢٢ من ميزان (ريومور). والمصريون المزاولون لهذه الصناعة يجهلون موازين الحرارة (الترمومتر). ولكن العادة أکسبتهم شعورا لا يخطئ في تقدير درجة الحرارة الضرورية. وهذا الشعور سر صناعتهم وقوامها. وهم لا يكسبون إلا بعد المرات الطويل المتواصل على العمل سنوات عديدة. وإذا كانوا لا يطلعون أحداً على سر هذه الصناعة إلا إذا كان من أبنائهم أو أقاربهم فلا عجب إذا تأصل هذا الشعور فيهم وصار فطرة يتوارثها الأبناء عن الآباء.

ويتم تفريخ البيض بعد عشرين يوماً إلى خمسة وعشرين من وضعه في الأفران ويبلغ متوسط البيض الذي لا يفرخ الخمس تقريباً. وبمجرد فتح المعمل. في فبراير أو مارس يتسابق أهل القرية ومعهم البيض الذي يرومون تفريخه. والمألوف أن يرد صاحب المعمل إليهم منه ٥٠ فرخاً عن كل مائة بيضة وما يتبقى هو ربحه. وبعد انتهاء مدة الاحتضان في معمل واحد نقف عن بضع عشرات الألوف من الكتاكيت. وقد قدر عدد الكتاكيت التي تخرج سنوياً من معامل الفروج في مصر، وعددها مائتا معمل، بـ ٢٤٠٠٠٠٠٠ فرخ - أي كتكوت.

٤١- تحضير الفول

يرد الفول على القاهرة بمقادير جسيمة، ويباع في طرقاتها بعد تجهيزه تجهيزاً ينحصر في نقعه يومين، في الماء حتى ينبت ثم يطبخ على طريقة معلومة عند الأهليين.

٤٢- الخل

بالقطر المصري عدد عظيم من المعامل المخصصة لعمل الخل. والخل المتخذ من البلح أكثر شيوعاً من غيره. ويستخرج الخل أيضاً من الزبيب.

٤٣- الاستقطار

بالقاهرة جم غفير من الناس يمارسون مهنة الاستقطار. فهم يستقطرون

العرقى من البلح والزبيب ليشربه المسيحيون ومما يستقطر فيها أيضا ماء الورد.

٤٤- البن

يحمص البن ثم يصحن في هاون من (الجرانيت) محفور على شكل مخروط مقلوب، ويقوم بصحنه ثلاثة من الدقاقيين أو إثنان بمدقات يحملونها بأيديهم، ويدق كل منهم دقة بحيث تتتابع الدقات. وزنة المدق تختلف من خمسة كيلو جرامات إلى ستة، ويقرن الدقاقون حركاتهم أثناء رفع المدق وإنزاله بنشيد مقفى بينما يدلى طفل صغير يده إلى قاع الهاون ليحرك البن، مهتديا في ذلك بقوافى النشيد، فهو في غنى عن متابعة حركات الدقاقيين بنظره لكى يقى يده خطر سقوط المدقات عليها. وكثير من الأوربيين الذين يشهدون هذه العملية يخشون على يد الطفل الصغير أن تحطمها المدقات. إذا لم يفتن اتقاءها بنظره. ولكن الشعور بموازين الشعر خصية راسخة فيهم ينطبعون عليها منذ نعومة الأظفار، بحيث لا يخشى وقوعهم في الخطأ أثناء عملية صحن البن.

ولعل أصل هذه الخصية أن المعلم في مدارس الأطفال يدرّب تلاميذه على حركة تمرينية يبدو - أول وهلة - أنها تستدعى الازدراء والسخرية ولكنها تستر تحت مظهر الغرابة فائدة مؤكدة جلية النفع في جملة من الحرف الصناعية التى يزاولها المصريون. وبيان ذلك التمرين أن المعلم يضرب بمقرعته المنضدة التى أمامه، ثم يطلب من الغلام أن يضع يد على النقطة التى لمستها المقرعة وأن يسحبها على الفور ويكرر هذه العملية مسرعا شيئا فشيئا فيتابعها الغلام فى كل حركة من حركاتها بوضع يده على تلك النقطة. وقد يعتاد هذه المتابعة حتى يبلغ الأمر به إلى القدرة على اجتناب الضربات وتوقيها.

٤٥ الفطاطرية

قلنا إن المصريين شديدا الشره إلى الفطير. وللـفطاطرية عدد عظيم من الحوانيت بحى السكرية فى القاهرة والشرهون الى فطيرهم من أفراد الطبقة الدنيا يقصدون إلى هذه الحوانيت لتناوله فيها.

٤٦- الفنون المتعلقة بالملابس: الغزل

قبل أن ينشئ محمد على فاوريقات الغزل الكبرى. كان القطن والكتان والصوف يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية، ثم يلفونه بطريقة بسيطة حول «الطيار» ومفهوم أن هذه الصناعة القاصرة على الاحتياجات البيتية لم يبق لها اليوم شأن يذكر. وقبل أن تحتكر المواد الأولية ذات الأهمية برسم المعامل الكبرى، كان المصريون ينسجون غزلهم بأجهزة بسيطة جداً ويتخذون منه الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية.

٤٧- اللبد والحريز وتبييض الخيط والقماش

والصبغ والتلميع والتطريز

كان ينسج بمصر أيضاً بعض الأقمشة من الحريز. كما كان عدد وافر من الصناع يشتغلون بالطرابيش اللبدية أو اللبد. وكانت صباغة الأقمشة صناعة شائعة إلا أنها كانت غير متقنة. وكان بالقاهرة معامل عديدة لتلميع الأقمشة وتبييضها.

أما المطرزون الذين كان لهم عدد عظيم من المحال يزاولون فيها هذه الصناعة فكانوا يمتازون بدقة عملهم وأنيق رسومهم واتساق نقوشهم. وكان أبرعهم في صناعة التطريز أولئك الذين كانوا يطرزون أنواع الجلود بأسلاك الذهب والفضة.

٤٨- العقادون

العقادون المصريون بارعون جداً في صناعتهم. وهم يصنعون «القيطان» (الكردون) من القطن والحريز وأسلاك الذهب والفضة كما يصنعون أيضاً «الشراريب» من الحريز وأسلاك الفضة والذهب أيضاً.

٤٩- الدباغة

الدباغة بالقطر المصري صناعة واسعة النطاق. والمصريون يتبعون فيها أساليب خاصة بهم يستعينون بها على دبغ جلود البقرات والجواميس والأغنام والماعز. الخ. وهم بارعون جداً في تحضير الجلد السختيان الذي هو جلد الماعز مصبوغاً باللون الأحمر أو الأصفر أو غيرهما من الألوان بعد العناية بدبغه.

٥٠- الصرمانية والسروجية

يصنع بالقاهرة كل ما يلزم للبلاد من الأحذية (المزد والمركوب والبابوج). وفي حى البرادعية بها جم غفير من الصنائع يصنعون سروج الخيل وبرادع البغال والحمير.. الخ. أما اللبب وهو مايشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئثار الرجل، والزمام - أى المقود، والقيد، فتصنع في حى السكرية. وهذه المصنوعات تزخرف غالبا بنقوش جميلة تشغل باليد على الجلد.

٥١- الخياطون

الخياطون المصريون كثيرون العدد بالقاهرة. ويقومون بخياطة ثياب الأهالى من أبناء البلد، وقد يتصدرون أحيانا إلى خياطة ملابس السيدات. وبها أيضا خياطون من اليونان والأرمن يهينون ملابس أفراد الطبقة العليا، ولاسيما العثمانية منهم. وهم بارعون في صناعتهم ولهم دراية تامة في تكليف الثياب بالقيطان الحريرى أو الذهبى ينمقون به أشكالا تطريزية جميلة ورسوما في غاية الحسن. ومعتقدى أن قليلا من الخياطين بأوروبا يتفوقون عليهم في هذا النوع من أعمال الخياطة.

٥٢- الفراءون

عامة الفرائين بمصر من اليونان والأرمن. وعددهم قليل جداً. لأنه لا يلبس الفراء في الأمة المصرية سوى أفراد طبقتى العظماء والعلماء.

٥٣- الفنون المتعلقة بالمباني: البناءون

المواد المستعملة عادة لتشديد المنازل هى: الآجر (الطوب الأحمر) والطوب النىء وأحيانا أحجار النحت والمصيص والجير.

أما الطوب الذى مادته الأولى طمى النيل مخلوطا، على نسبة قليلة أو كثيرة، بالطين الأبليز، وأحيانا بالرمل فيجفف في الشمس أو يحرق في أفران خاصة به.

أما أحجار النحت فتأتى من مقالع جبل المقطم أو من أطلال المباني القديمة.

ويحرق البناءون الحجر الخاص بعمل الجير بطريقة تقرب من الطريقة

المتبعة في أوروبا لهذا الغرض. ويطفئونه بكيفية مماثلة لكيفية إطفائه عندنا. غير أن النقص يظهر باديا في كيفية تحضير المونة، فإنهم، بدلا من أن يخلطوها بالرمل الموجود في متناول أيديهم من أجود الأصناف وأصلحها للبناء. يخلطونه بالتراب المضاف إليه رماد الأفران.

أما المصيص فيؤتى به من حلوان وغيرها ويقوم على استعماله عمال مخصوصون، لطلاع داخل المنازل به وقد ذكرنا قبلا أن الجبس الأبيض غير موجود عندهم وأنهم يستعملون الجير أحيانا فيما نستعمل نحن المصيص فيه.

والمباني التي يشيدها المصريون المحدثون لا تتوافر فيها مزايا المتانة والإتقان التي امتازت بها الأبنية الفخمة والآثار الضخمة في عهد أجدادهم. فإنهم يتخذون لأبنيتهم المواد الرديئة النوع والدبش الصغير. ويدخلون في أسماك الجدران عوارض من الخشب لتمكينها، مع أنها تمنع أجزاء الجدار من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة لا تشوبها شائبة.

وآلات البنائين المصريين وأدواتهم ناقصة كثيرة العيوب وهي تنحصر في مملسة صغيرة (مجارة) من الحديد ضيقة أما المسطرة والمثلث وخط الرصاص والمقاييس فلا تستعمل إلا في أحوال نادرة جداً. وهذا هو السر في أن جدرانهم لا تطابق في الغالب الاتجاه العمودي، وتبقى لهذا السبب معرضة لخطر السقوط بأدنى طارئ. ومن النادر جداً أن تكون الأبواب والنوافذ مستطيلة الشكل أو غير منحرفة الجانبين. ومما ينقصهم في صناعة البناء أيضا الضبط ورعاية المضاهاة (السيمتريا) وبعد هذا وذاك فإن المباني تقام غالبا من غير أن يوضع لها تصميم سابق أو تخطيط بل يبلغ من الأمر أنهم يضيفون غرفة إلى غرفة أخرى من غير تدبر ولا حساب ولا يفكرون فيما هنالك من ضرورة إيصال الضوء إلى الغرف المبنية والتوصيل بينها بالأبواب إلا بعد البناء.

٥٤- نحاتو الأحجار

المنازل المبنية بحجر النحت قليلة العدد، لأن المسلمين لا يرمون إلى بقاء المباني فكانما هم يبنون للحال لا للمستقبل ولا يهتمون أقل اهتمام بنماذج الهندسة العربية الجميلة التي هي في مطرح أنظارهم أثناء تنقلهم جيئة

ونهابا في كل مكان. وهذا هو علة عدم انتشار فن نحت الأحجار وتنسيقها في مصر وارتقائه. والآلات التي يتخذها النحاتون المصريون غليظة جداً، وإذا كانوا لا يعملون بها إلا في صنوف الأحجار اللينة فإنهم لا يكادون يشعرون بمشقة ما في مزاولة عملهم. ومع هذا فلا يزال يوجد نحاتون بارعون في صناعة نحت الصّوان أى الجرانيت ومجيدون في تكييفه بالصّور والرسوم المطلوبة

ويوجد، غير نحاتي الأحجار فريق من الصناع متفرغين لقطع البلاط ووضعه في أماكنه ويسمون بالمبلطين، أما سقوف المنازل فيعهد عملها إلى رجال لا يمارسون غير هذه الصناعة. وطريقتهم في ذلك أنهم يربطون بعروق السقف الخشبية البوص منضما بعضه إلى بعض ثم يطرحون عليه حصيرا ينشرون فوقه طبقة من المونة هي التي تعلوها غالبا طبقة البلاط.

٥٥- الحدادون

آلات الحدادين وأدواتهم غليظة جداً وأتاتين = أفران = النار عندهم تذكى نارها المنافيح المزدوجة. والسواد الأعظم من الحدادين بالقاهرة يسكنون الحى المعروف بالنحاسين.

٥٦- النجارون

أجود الأخشاب الشائعة الاستعمال في التجارة هي أخشاب اللبخ والسنت والنبق والجميز، وفيما خلفه لنا قدماء المصريين من المصنوعات الخشبية الدلالة الواضحة على أنهم لم يستعملوا من الأخشاب إلا ما ذكرنا. أما الآن فيستورد المصريون ألواح الخشب بمقادير وافرة من (تريسته) و(البندقية) و(ليفورنه) و(الشام) و(كرمانيا).

والنجارون المصريون في غاية الحذق والبراعة ولا يتخذون المناضد (البنوكة) للاشتغال عليها، لأنهم يشتغلون قاعدين أو جاثين على ركبهم. والفارة التي يستعملونها شبيهة بالمستعملة عندنا وهكذا الشأن فيما يتعلق بالمنشار. والأداة الأصلية التي يستعملونها في جميع الأعمال كالبرى والشق والدق والخلع هي القدوم.

وفن التجارة بمصر أقل تقدما فيها من جميع الفنون، إذ من النادر أن

ترى المصريين يضمون أجزاء الخشب بعضها إلى بعض عاشقا ومعشوقا. بل يبرونها من الأطراف في زوايا حادة ثم يثبتونها بعضها ببعض بالمسامير. وقلما يستعملون الخواير لهذا الغرض، وهذا هو السبب الذى يعرض أشغالهم الى سرعة التلف ويجعلها قبيحة الصناعة. على أنه قد كان من نتائج انتشار الترسانات والمصانع التى أنشأها محمد على إتقان هذا الفن اليدوى بتخريج عمال على يد بعض الأسطوات الأوربيين، أحرزوا شيئا من الحذق والبراعة فى صناعتهم.

٥٧- صانعو الضرب أو المزاليج

صانعو الضرب — أى المزاليج فريق كبير من النجارين.. والسبب فى ذلك أن أغلب الأبواب لاتغلق إلا بمزاليج من الخشب. وكل مزلاج يتألف من ثلاث قطع.

٥٨- الخراطون

الخراطون يقطنون بالقاهرة حى الشعراوى. وهم كثيرو العدد جداً لأنه ما من قطعة من قطع الأخشاب التى تتألف منها النوافذ والمشربيات وغيرها إلا وهى مخروطية بيدهم. والخراطون أحذق صناع القطر المصرى بلا ريب، وصناعتهم من أكثر صناعاتها تقدما وإرتقاء. وآلات الخراط عندهم ليست مثبتة، كما فى أوروبا — على البنوكة فتضطربهم الى الاشتغال واقفين. بل إنها عبارة عن جهاز واطيء يشغلون أمامه جالسين وهو مؤلف من عروستين إحداهما ثابتة والأخرى متحركة — فالمتحركة تبتعد أو تقترب لتضغط الأشياء المراد خراطها بين نقطتين. وبالرغم من أن آلات الخراطين بسيطة وناقصة، إلا أن الخراطين بلغوا من الحذق والرشاقة وخفة اليد وضبط حركاتها فى صناعتهم مبلغا يمكن معه القيام بأدق الأعمال التى تعهد إلى كفاءتهم. وهناك عمال آخرون يحذقون مهنة الخراطة إلى حد أنهم يخرطون أشياء كثيرة غير الخشب كالكهرمان والعاج لعمل أنابيب الشبكات منها.

٥٩- صناعة الفخار

صناعة الفخار معروفة فى القطر المصرى منذ قديم الزمان، وتصنع بالقاهرة والصعيد أصنافا مختلفة من الأوانى.

ولقد سبق لنا الكلام على أهم المصنوعات الفخارية وأشهرها كالقلال التى تصنع فى جهات عديدة من القطر المصرى وخصوصا فى قنا . ولا شك أن الأسباب التى تجعل الناس يفضلون القلال المصنوعة فى قنا على غيرها، نعومة الطين الذى تصنع به وجمال الأشكال التى تعطى لها أثناء صنعها والروائح العطرية التى يخلطها الصناع بها والخصية التى توافرت فيها من تبريدها الماء وجعلها إياه المذاق سائغا للشاربين.

ويصنع فى تلك المدينة أيضا نوع من الجرار (الأزيار) تصدر منه مقادير وافرة إلى القاهرة. ونقلها إلى هذه المدينة يحصل بطريقة غريبة فإنهم ينكسون تلك الأزيار فى الماء ويربطونها بعضها إلى بعض بحيث يتألف منها ما يشبه طوقا كبير ا يدفعه تيار النيل إلى الجهة المراد تصديرها إليها.

وفى أغلب مدائن القطر المصرى العليا معامل للفخار تختلف عن بعضها فى جودة الصناعة أو رداءتها. ففى ملوى ومنفلوط تصنع أوعية العجن الجسيمة (المواجير) والجرار الكبيرة (الदनان) التى تستعمل فى المصانع والمدابع.

وفى بلد (البلاص) يصنعون البلايص. وصانعوها يجيدون حرقها بحيث تكون غير قابلة تقريبا لنفوذ الماء من مسامها.

ويستعمل سكان الأرياف البلايص لادخار ما يلزمهم فى بيوتهم من ماء النيل. فترى جماعات النساء رائحات غاديات بين منازلهن والنهر يحملن البلايص على رؤوسهن فى وضع يلفت النظر ويقع الموقع الحسن من القلب.

وأنواع الفخار العادية تصنع فى الوجه القبلى. وفى القاهرة وبعض قرى الصعيد مصانع لعمل أحجار الشبكات، وفى هذه العاصمة معامل لصناعة الفناجين مدهونة بالطلاء اللامع الملون.

ومفهوم أن المصنوعات المصرية من الفخار لاتطلى عادة بهذا الطلاء، ولذلك تحفظ لونها الطبيعى. فالقلال مثلا ترى فى بعض الأحيان رمادية اللون. ولكن القسم الأكبر منها لونه أحمر. إلا أن الفناجين التى تصنع بالقاهرة على المثال المتقدم غليظة الشكل.

أما التى يستعملها الأغنياء فواردة، كغيرها من أصناف الفخار الدقيقة

الصنع ، من البلاد الألمانية والإيطالية.

٦٠- الزجاج

صناعة الزجاج في مصر ناقصة وغير متقنة. ومصنوعاته من القناني وغيرها رديئة الصنف واطئة النوع. ولقد أنشأ محمد على بالإسكندرية مصنعاً للزجاج تشبه مصنوعاته مثلها في أوروبا. وفيه صنعت جميع ألواح الزجاج التي استعملت في السنوات الأخيرة بأنحاء القطر المصري كافة. ولقد أنشئ حديثاً معمل آخر للزجاج بالقرب من ضفة المحمودية على مسافة أربعة فراسخ من الإسكندرية.

ولما كان الوقود من الوسائل الحيوية التي ينبغي الاحتياط لها حرصاً على حياة المصانع التي أنشئت بالقطر المصري وبقائها. فقد اتجهت النيات السامية إلى غرس غابة كبيرة من شجر الصفصاف وغيره من أصناف الأشجار الأخرى التي تصلح أرض مصر لنموها بالقرب من ذلك المعمل.

٦١- الجوهرية والصياغ

للصياغ بالقاهرة حى خاص بهم والبارعون منهم في هذه الصناعة مقرهم خان أبى طاقية، وهم جميعاً من اليهود والأقباط ولم تبلغ الصياغة بمصر من الإتقان المبلغ الذى أدى إليه عندنا التفنن في البهرج والبذخ. أما الجوهرية الذين في القاهرة فأكثرهم عدداً الأرمن والمتنسبون إلى الأستانة. ولهم معرفة عجبية بتركيب الأحجار الكريمة التى يكلفهم بتركيبها العظماء والوجهاء من الأتراك. وفي حى مرجوش يشتغل الصنائع بالمرجان والكهرمان ويتخذون منهما العقود والمسابع .. الخ.

٦٢- صانعو السلاح

مقر صانعى السلاح بالقاهرة الحى المعروف بسوق السلاح وهم أخصائيون في صناعتهم فلا يشتغل بعضهم إلا بالأسلحة النارية ولا البعض الآخر إلا بالأسلحة البيضاء. وهم لا يظهرون في ممارستهم هذه الصناعة شيئاً من الخصائص الجديرة بالذكر، فإن أجمل الأسلحة التى يقتنيها الأغنياء مستوردة من أوروبا. وإذا كان لصانعى السلاح بالقاهرة عمل فيها فإنما هو الترميم والإصلاح ليس إلا.

٦٣- صناعة الحصر

استعمال الحصر في مصر بالغ من الانتشار حدا يسهل معه إدراك جسامته عدد العمال الذين يزاولون هذه الصناعة. وتصنع الحصر بالقاهرة والفيوم وأحسنها ما يصنع من أعشاب السمار وأجود السمار ما يؤخذ من الجهات القريبة من بحيرات النظرون وتصيب هذه الأعشاب بالألوان المختلفة وتجعل بحيث تكون أشكالا ظريفة في الغالب على الشكل المعين.

٦٤- الصناعات المختلفة: الشبكية

لا جرم أن يكون صانعو أنابيب الشبكات كثيرون العدد في قطر أعتاد أهله جميعا بوجه التقريب تدخين التبغ. وتتخذ هذه الأنابيب عادة إما من البوص أو خشب الكراز أو الياسمين أو الزئبق.. ويثقب هذا الخشب بمثقب يحركه وتر قوس تمسك به يد الصانع.

٦٥- الحلاقون

يمتاز الحلاقون المصريون بالحنق والرشاقة في مهنتهم والطريقة التي يتوخونها في الحلاقة غريبة في ذاتها وجديرة بأن يطلع القراء عليها ولست بمحدثهم في شأنها بشيء من عندياتي وإنما اقتصر في تكوين فكرة لهم عنها بإيراد ما ذكره الدكتور (براير) في مؤلفه النفيس الموسوم «تسع سنوات في القسطنطينية» عن تلك الطريقة. فإن أساليب الحلاقين المصريين مطابقة لأساليب زملائهم في الآستانة. فقد قال ذلك المصنف ما يأتي:

« لا يكاد الإنسان يستوى على العرش الخشبي المنصوب بداخل حانوت الحلاق حتى يقدم إليه المعلم صاحب الحانوت شبكا، ثم يأخذ بتحضير فنجان من القهوة برسمه. ولا تنقضى دقيقتان إلا وهو يقدم له هذا الفنجان تتصاعد من سطحه أبخرة القهوة.

«ولما كان أهل القسطنطينية لا يكثر أحد منهم بالسرعة ولا يهتم بإنجاز الأعمال في مواعيدها، فقد اعتاد الراغب في الحلاقة الانتظار بسكون زمنا طويلا ريثما ينتهي المعلم الحلاق أو القلفة الأول (الصبي الأول) من حلاقة زبون، سابق عليه. ومتى جاءت نوبته على هذا المثال فقد وجب عليه أن يحل محل هذا الزبون الراح، وعندئذ يجد فوق رأسه ساقا معدنية مثبتة من

طرفها في الحائط أو السقف وحاملة في الطرف الآخر المقوس أنية معدن بشكل القمع مثقوبة ثقباً ضيقاً. فبينما يحمل بيديه تحت ذقنه صحناً للحية من المعدن مستديراً، ينسكب من الأنية المعلقة على رأسه سلسول ماء فاتر يستعمله الحلاق لغسل رأسه ووجهه ورقبته بالصابون. فإذا كان بالرأس شعر غسله واستغرق زمناً طويلاً في حكة متخذاً أظافره كأسنان المشط ثم يجفف رطوبة الماء بمنديل ويلف رأسه بمنديل آخر.

«وبعد ذلك يتفرغ للحلاقة فيرطب اللحية بالماء ترطيباً جيداً، ويتناول موسى حقيرة الشكل مصنوع النصل في ألمانيا لايتجاوز ثمن الدسطة الواحدة منها فرنكين. غير أن الحلاقين يستعينون بحجر المسن وقطعة من الجلد على شحذ تلك الأسلحة. بحيث تصير أتم ما يكون صلوحاً للاستعمال. ويرتكز الحلاق بقدمه اليسرى على العرش الخشبي، ثم يسند رأس الزبون إلى ركبته بعد تغطيته إياها بمنديل ويشرع في إزالة الشعر مبتدئاً من أعلى الخد اليسرى إلى أسفلها، ثم ينتقل إلى الخد اليمنى مكرراً هذه العملية فمتى انتهى منها وقف تجاهه وأنشأ يسوى شعر اللحية والشاربين ويزيل ما يعثر عليه في الوجه من الشعرات الشاذة.

«وإذا أحببت تزجيج الحاجبين فإنه يسويهما بالحلاقة على شكل يجعلهما بمقتضاه تامى التقوس. ولما كان أهل البلد يعتبرون الشعر من القذر، فإنه يعتمد بمقراضيه إلى فتحتى الأنف فيقص بهما ما فيهما من الشعر، ثم الأذنين فيضع فيهما ماء فاتراً ويكرر ذلك لإزالة ما يكون بهما من الصملاخ، فإذا لان استخرجه بأداة صغيرة عنده. ويقص بعد ذلك ما يجده من شعر في مدخل الصماخ. أما إذا رأى سنطة صغيرة بالوجه عمد إلى إزالتها بالموس، غير أنه لا يقدم على هذه العملية عادة إلا بعد الاستئذان. وكل هذه العمليات تتم بالبطء والتوانى، لأن الأحاديث والمحاورات تتخللها حتماً، على أن تمامها لا يكون بمواصلة العمل، بل على دفعات متكررة. إذ قد يحدث أن يدخل زبون، أثناء تفرغه لشأن الزبون الأول، فسرعان ما يتركه بلا احتشام ولا كلفة كي يقدم إلى القادم الجديد شبك التبغ ويجهز له فنجان القهوة. وفي تلك الأثناء يتناول الزبون الأول الذى لم يتم حلاقته سوى النصف أو أكثر أو أقل الشبك الذى كان قد تخلى عنه لأمد، ليستأنف التدخين به ريثما يعود الحلاق

إليه بعد فراغه من المهمة التى لأجلها تركه.

وعقب الانتهاء من الحلاقة يقدم القلفة الصغير (الصبى الصغير) إلى الزبون مرآة لينظر فيها نفسه، ويمعن النظر فى حلاقته ليحكم بما إذا جاءت وفق المراد. فإذا لم يكن فيها ما يوجب الانتقاد، اندرع الحلاق يعرك بين أصابعه خصلة الشعر التى اعتاد الشرقيون تركها بأعلى جمجمتهم ويمشطها بالمشقة ثم يغطيها بالطربوش أو العمة أو الكلبك. وهذه تستغرق عادة من عشر دقائق إلى نصف ساعة.

٦٦- السقاؤون

لما كان ماء الآبار فى القاهرة أسنا غير صالح للشرب فإن السقائين، وعددهم فيها جسيم جداً، يحملون ماء النيل إلى السكان، ومنهم من ينقلونه فى قرب كبيرة من الجلد على الجمال أو الحمير أو على ظهورهم فى قرب صغيرة. وينادى السقاؤون على الماء بقولهم «العوض على الله.. عليه العوض». ونادراً ما يتقاضون أكثر من عشرة سنتيمات (أربعة مليمات) ثمناً لقربة ماء واحدة ينقلها من مسافة كليو متر ونصف.

ويبيع بعض السقائين الماء على السابلة، وهناك فريق غيرهم كثير العدد يبيعونهم فى الطريق أشربة مختلفة من نوع ما ذكرناه أثناء الكلام على أصناف المشروبات المرطبة فى أول هذا المجلد.

وفى مصر مهن أخرى خاصة بها غير التى تقدم ذكرها.. منها مهنة المكارية - أى الحمامين ومهنة الجمالين ومهنة النوتية فى النيل. وسأتكلم على هذه المهن بالتفصيل الوافى فى أحد الفصول الآتية:

٦٧- التجار

سبق لنا الكلام على شكل حوانيت التجارة بالقاهرة، وسمينا الأحياء المختلفة التى يصح اعتبارها مركزاً للمتاجر الكبرى فيها. ونقول الآن إن أصحاب الحرفة الواحدة يجتمعون عادة فى ناحية واحدة من العاصمة المصرية. ولهذا ترى أن شوارع برمتها أو أقساماً من هذه الشوارع مخصصة لصنف واحد من التجارة.

والتجار المصريون يجلسون متربعين فى حوانيتهم، كأن على رؤوسهم

الطير دعة وسكونا. وفي كل حانوت ديوان أو «دكة» تحف به على ضيقه، هي التي يستوون عليها بذلك الوصف. وغنى عن البيان أن المقارنة بينهم والتجار بأوربا، من حيث اليقظة والحركة والتوافر على العمل، مستحيلة إذ شتان بين أولئك في تكاسلهم وتواكلهم وجهلهم بأساليب استمالة الناس إلى الشراء وتركهم زمام رواج تجارتهم بيد القضاء والقدر وقلة تحفزهم لاقتناص قنيصة الربح، وهؤلاء في نشاطهم ولطف أساليبهم في اجتذاب الناس إلى اشتراء بضائعهم.

وبالقاهرة تجار من المسيحيين واليهود والعرب والترك. والفريق الأول من هؤلاء يطالبون دائما بالأسعار العالية أثمانا لبضائعهم، ولكنهم يضطرون بعد المساومة والمماكسة إلى الرضى بالثمن المعتدل الذي تساويه بضاعتهم. أما الأتراك فيحددون للمشتري الثمن الذي يريدون أن يبيعوا به بضاعتهم ويتمسكون به ولا يتنازلون عنه مهما بلغ من مماكسة المشتري. ومن عاداتهم أنهم لا يبيعون التمسك بالمشتري ولا يبذلون جهدا ما في سبيل الاحتفاظ به، لا اعتقادهم أن الأرزاق مقدرة وأنهم لا يصيبون منها إلا ما قسمه الله لهم.

(٤)

التجارة

الأهمية التجارية لمصر - الأصناف التي تتألف منها التجارة المصرية - الواردات والصادرات - تجارة القوافل - المحال التجارية الأوربية - خواطر وأفكار

٦٨ - الأهمية التجارية لمصر

ليس بين المواقع الجغرافية ما يشبه موقع مصر في صلوحه للتجارة إلا القليل. وإذا اكتفينا في النظر إلى هذا الامتياز بالاعتبارات التجارية فقط، فإننا لانرى قطرا كمصر جديرا بأن تكون له حكومة خاضعة ذات إدارة مستقلة. فإن مصر تتلقى بواسطة الإسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط جميع أصناف التجارة الواردة من الشمال والغرب، كما تقبض بيدها على

مفتاح تجارة القسم الشرقى من أفريقية. وفوق هذا وذاك فإنها الملتقى الطبيعى لشطر كبير جداً من القارة الأفريقية وصاحبة الشأن فى التماس المسالك إلى المحيط الهندى بواسطة البحر الأحمر الممتد على سواحلها . وهى التى ينبغى أن يؤول إليها الامتياز على البلدان الأخرى بنقل البضائع الجسيمة المصدرة برسم أوربا من جنوب آسيا، بعد أن كان مصدروها يلتمسون فى إيصالها إليها أبعد ما يكون من الطرقات ، ألا وهو طريق رأس الرجاء الصالح.

ولاسع أحد أن يتصدى للكلام على مصر التجارية من غير أن ينصرف خاطره إلى المستقبل، وأنه سيجعل لها شأنًا رفيعًا باعتبار كونها الطريق الوحيد إلى الهند، ولاسيما لأن المشروعات المتعلقة بحفر ترعة بين النيل والسويس أو إيجاد وسيلة للاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر قد جعلها الحكام المصريون، فى ظروف عديدة، نصب أعينهم واتخذوها المثل الأعلى الذى طالما بذلوا فى تحقيقه أقصى مجهودهم.

ولقد ظلت مصر إلى القرن الخامس عشر الوسيط فى المبادلات التجارية بين مصر وأوربا. وهى وظيفة ترجع بطبيعة الحال إليها وتختص بها دون غيرها، حتى أن البرتغاليين لما فتحوا طريق المحيط الأطلانطيقي، أراد أحد الذين تكانفوا منهم على توطيد شوكة البرتغال فى آسيا ألا وهو المقدام (لبوكرك) أن يكفل لأمته على طول المدى ما أحرزه برسمها من المزايا والفوائد، فقرر احتفاظًا بتلك الطريق أن يحول مجرى النيل إلى البحر الأحمر كى تنصب مياهه فيه، ويغتصب بهذا الفعل من مصر طريق البلاد الهندية.

وليس فى هذا الأمر ما يستغرب ، فما من أحد من كبار الرجال العارفين بحقائق الأحوال وتصاريفها ، إلا وقد أدرك أهمية موقع مصر وقدره حق قدره. فالإسكندر الأكبر إستشعر بهذه الأهمية، وبسببها خطط على سواحل مصر ثغرا أراد به أن يخلف ثغر (صور) فى عظمتة التجارية. وما دفع بنابليون إلى ضفاف النيل سوى التجارة، ولاسبب غيرها. فقد كان هذا الرجل العظيم يريد أن يبذر للتجارة الفرنسية فى مصر بذورا ويقم لها بها صروحا، ويتخذ هذا القطر مظهرًا لنشاط التجار الفرنسيين. اعتقادًا منه بأنهم سيدخلون البحر الأحمر فى نطاق أعمالهم التجارية مع البحر الأبيض

ويقبضون بيدهم على زمام احتكار التجارة الهندية البريطانية.

والذى أراه بعد هذه المقدمة أنه لا ينبغي أن يعهد أمر مصر، وهى على ماتقدم ذكره من أهمية الموقع، إلا إلى دولة مستقلة حريصة على حيادها، يدعو إلى ذلك ويلتمسه بلوغ أهمية هذا القطر، من الوجهة التجارية، إلى الدرجة القصوى وانصراف الأطماع إليها من قديم الزمان. دع أن التجارة يتطلب نموها واتساع نطاقها أن تعيش في ظلال القوة الحامية لها والحياد الذى لا يعرضها للمجازفات والأخطار.

٦٩- أصناف التجارة المصرية

وصف نابليون «التجارة المصرية» في مذكراته وصفا سطحيا ما برح منطبقا عليها إلا في بعض الشئون الصغيرة. ولست أظننى قادرا على أن أزجى إلى ذهن القارئ صورة ممثلة لحقيقة هذه التجارة كالتى رسمها هو بوضوح فيما يأتى قال:

«تنتج مصر المحصول الوفير من القمح والأرز والخضر. وقد كانت لهذا السبب المخزن الذى تستورد منه رومية مؤونتها، وما برحت حتى اليوم خزائن الخير الوفير لمدينة القسطنطينية. وهى تنتج، فيما عدا ماتقدم، السكر والنيلة والسنا والنطرون والكتان والقنب، إلا أنها محرومة من الأخشاب والفحم والزيت. فإن هذه الأشياء تنقصها كالتبغ الذى تستورده من بلاد الشام والبن الذى تجلبه من بلاد العرب، وفيها القطعان الكثيرة من الأغنام والماشية. وهى غير ما يوجد منها في الصحراء كما أن فيها أنواع الأطيوار المختلفة، والفروج يفرخ بها في أفران = حضانات = خاصة فيكون عدده لهذا السبب عظيما جداً.

«ومصر واسطة بين أفريقية وآسيا. وتصل القوافل إلى القاهرة كما تصل السفن إلى الساحل - أى في الوقت الذى لم يكن وصولها منتظرا فيه لورودها من الأصقاع النائية ولتعذر الوقوف على أخبارها قبل وصولها إلى الجيزة. وهى تدخل إلى القطر من ناحية الأهرام، وهناك يعين لها المكان الذى تعبر منه النيل فالمكان الذى تحط فيه رجالها من ضاحية القاهرة. ومن الجيزة أيضا ترد الأنباء بوصول قوافل الحجاج أو التجار الآتية من مراكش وفاس وتونس

والجزائر وطرابلس، قاصدة إلى الأقطار الحجازية ومعها صنوف البضائع التى تقايض عليها فى القاهرة، وتتألف هذه القوافل عادة من بضع مئات من الجمال وأحيانا من، الألوف، يحرسها رجال مسلحون. وتتوارد القوافل أيضا من الحبشة وباطن أفريقية (وتنجوست) وما يتصل بهذه الأصقاع من الأقطار المفضية إلى رأس الرجاء الصالح من جهة وبلاد سنغال من جهة أخرى. وهى تحمل إلى مصر الأرقاء من العبيد والجوارى والصمغ والتبر وسن الفيل، وسائر حاصلات تلك الأقطار للمبادلة عليها ببضائع أوروبا والشرق الأدنى.

وهناك قوافل أخرى تصل من أنحاء بلاد العرب والشام كافة حاملة الفحم والحطب والفواكه والزيت والبن والتبغ، وعلى العموم كل ما ينتج داخل البلاد الهندية من مختلف الأرزاق.

إن التجارة الحالية لمصر، وإن تكن فى حاجة ماسة إلى استتباب السلم ليتسع نطاقها وتزداد منافعتها، ما برحت - بالرغم من الحرب - رفيعة الشأن عظيمة الأهمية. وهى مبنية على استيراد الأنسجة وخشب البناء والحديد والأنية والورق والعقاقير وحاصلات المستعمرات وغيرها من أوروبا، وتصدير الأرز والقطن والحبوب والنيلة والأفيون .. الخ من مصر.

وفى الملخص الآتى عن واردات مصر وصاداتها فى سنة ١٨٣٦، مقدرة بطريق التقريب، ما يشير إلى درجة أهمية ذلك التبادل التجارى.

الواردات

فرنك	١٦٠٠٠٠٠	أنسجة قطنية
فرنك	٣٥٠٠٠٠	أجواخ
فرنك	١٨٠٠٠٠	طرايش
فرنك	٢٠٠٠٠٠	أنسجة صوفية
فرنك	٢٣٠٠٠٠	أنسجة حريرية
فرنك	٩٠٠٠٠٠	خشب للعمارات
فرنك	٤٠٠٠٠٠	حديد قضبان
		وأسلاك حديدية
فرنك	٢٥٠٠٠٠	أنية من الحديد
		والنحاس وسكاكين
فرنك	١٠٠٠٠٠	ورق
فرنك	١٥٠٠٠٠	عقاقير وأصناف عطارة
فرنك	١٢٠٠٠٠	فحم حجر وخطب
فرنك	١٣٠٠٠٠	قرمز
فرنك	٦٦٦٠٠	سكر
فرنك	٦٤٠٠٠٠	زجاج ومرايا
فرنك	٧٧٠٠٠٠	زيوت
فرنك	٧١٠٠٠٠	أنبذة ومشروبات روحية
فرنك	٢٠٠٠٠٠	بضائع أخرى
فرنك	٥٠٧٨٦٠٠	المجموع

الصادرات

فرنك	٢٤٠٠٠٠٠	قطن
فرنك	٤٠٠٠٠٠	أرز
فرنك	٣٠٠٠٠٠	صمغ
فرنك	١٦٤١٠٠٠	أنسجة كتانية
فرنك	١٦٢٥٠٠٠	حبوب
فرنك	١٥٨٠٠٠٠	صودا
فرنك	١٢٠٠٠٠٠	بلح
فرنك	١٠٠٠٠٠٠	خضر جافة
فرنك	٩٠٠٠٠٠	أفيون
فرنك	٦٠٠٠٠٠	حناء
فرنك	١٠٠٠٠٠٠	بضاعات أخرى
فرنك	٤٠٥٤٦٠٠٠	المجموع

لم نذكر في الجدول السابق إلا ما يتعلق بالتجارة بين مصر وأوروبا. أما الجدول الثاني فقد ذكرنا فيه بيان الحركة التجارية العامة في الإسكندرية مشتملة على حركة التجارة مع البلاد العثمانية.

مجموع التجارة	الصادرات	الواردات	جهات الورد والتصدير
٥٨٣٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠٠	٤٣٨٠٠٠٠٠	النمسا
٢٤٨٠٠٠٠٠	١٢١٠٠٠٠٠	١٢٧٠٠٠٠٠	تركيا
٢٠٥٦٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠	١٥١٦٠٠٠٠	إنجلترا
١٦٦٠٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠٠٠	٥٨٠٠٠٠٠	فرنسا
١٥٣٩٠٠٠٠	٥١٣٠٠٠٠	١٠٢٦٠٠٠٠	توسكانا
٩٠٠٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	٢٨٠٠٠٠٠	الشام
٦٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠	بلاد الغرب
٢١٨٠٠٠٠	٨٢٠٠٠٠٠	١٣٦٠٠٠٠	اليونان
			بلجيكا
٨٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٥٥٠٠٠٠	وهولاندا
١١٧٠٠٠	—	١١٧٠٠٠	السويد
٣٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	ممالك أخرى
١٥٤٠٩٧٠٠٠	٥٦٩٠٠٠٠٠	٩٧١٩٧٠٠٠	المجاميع

في سنة ١٨٣٦ لم يتم لتجارة الإسكندرية الواردة ١٢٣٥ سفينة محمولها بالطن ١٥٣١٤٨ والصادرة ١١٤٧ محمولها بالطن ١٣٤٠٠٠.

٧٠- تجارة القوافل

تقدر تجارة مصر كلها، بواسطة البحر الأحمر والقوافل بنحو عشرة ملايين من الفرنكات. وفي كل سنة تصل إلى القاهرة من بلاد الحبشة قافلة تجلب معها العبيد والجوارى وسن الفيل وريش النعام والإبريز والصمغ الخ.

وتتألف في مراكش قافلة أخرى برسم الحج إلى مكة. فتنبع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأخذ معها الحجاج من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس الخ، وتصل إلى صحراء الإسكندرية في أربعة آلاف جمل، ثم تقصد منها إلى القاهرة حيث تنضم إلى القافلة المصرية، وتتجه القافلتان بعد ذلك إلى البلاد الحجازية.

وتجبي حكومة القاهرة رسوما للمرور عن البضائع والحجاج. وتصل من دمشق بين حين وآخر قوافل صغيرة تحمل معها الأقمشة الحريرية والقطنية والزيت والنقل.

٧١- المحلات التجارية الأوروبية

يبلغ عدد محلات التجارة الأوروبية بالإسكندرية الآن أربعة وأربعين محلا، وكانت في سنة ١٨٢٢ لا تتجاوز ستة عشر محلا. ومن المحال الموجودة الآن ثلاثة عشر محلا فرنسيا وسبعة محال إنجليزية وتسعة نمساوية وثمانية توسكانية واثنان سردينيان وواحد دانمركى وواحد هولندى وواحد بروسى وواحد تابع لحكومة اليونان الجديدة.

وهناك فيما عدا ما ذكر، ستة محال لتجار من المسلمين وأربعة لتجار من أساكن الشرق وهم يونان جميعا على المذهب الكاثوليكي.

والتجار المشتغلون لحساب أنفسهم بالقاهرة قليلو العدد وإنما الموجودون بها وكلاء عن بيوت الإسكندرية، ففيها محل إنجليزى وتسعة محال نمساوية وأربعة توسكانية اثنان سردينيان وإثنان يونانيان وعشرة للرعايا العثمانيين من أساكن الشرق وثلاثة وستون لتجارة صغار من الأتراك والمغاربة والمصريين.

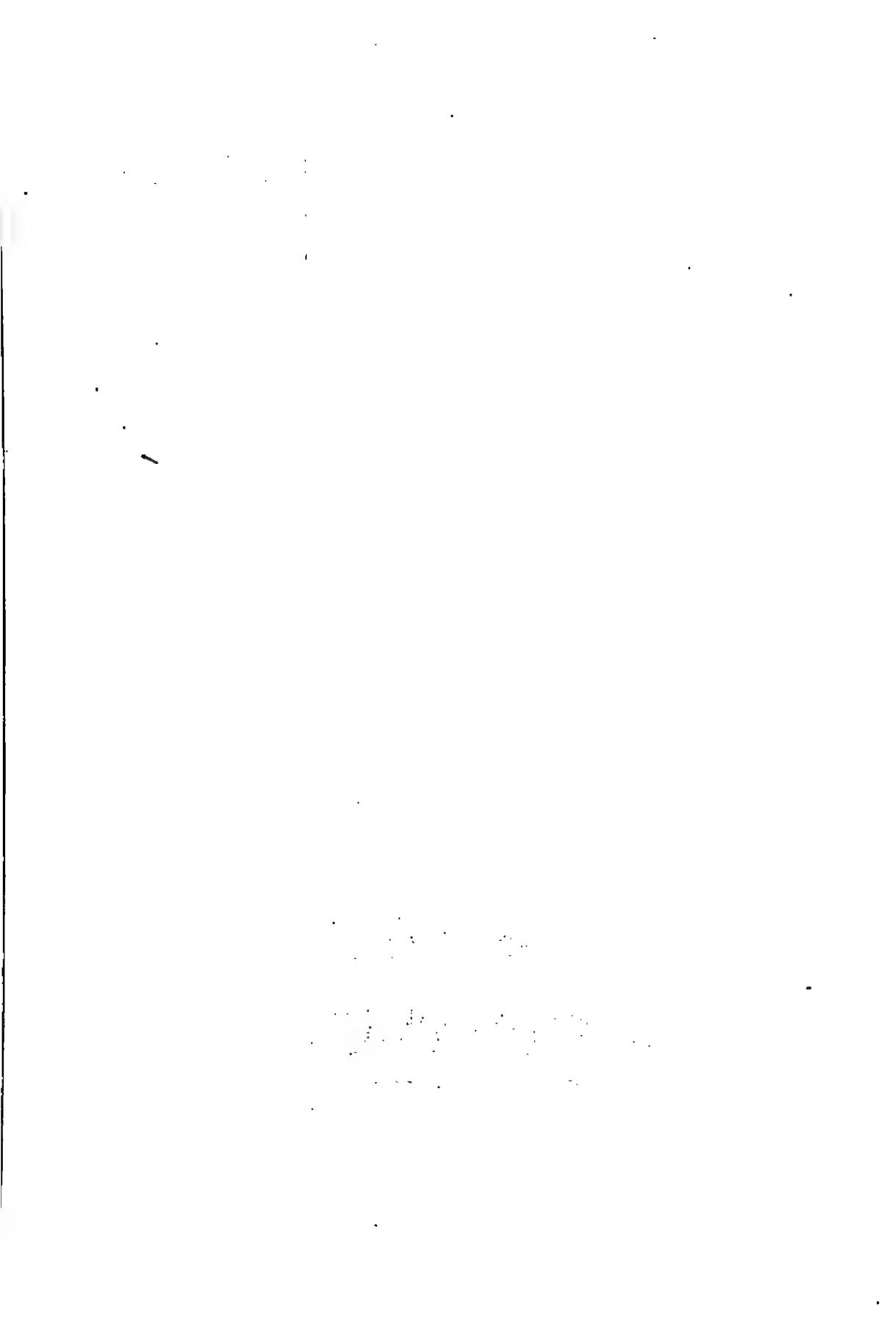
٧٢- أفكار وخواطر

لم تكن، مصر على عهد المماليك بحيث تنتج من المحصولات ما تنتجه الآن، وهذه الحقيقة يسهل فهمها بمجرد التفكير فيما صرفه محمد على على وسائل العناية بالزراعة فلقد أدخل إلى مصر زراعات وافرة المحصول طيبة الثمرات كزراعة القطن التي يصح اعتبارها اليوم الفرع الأصلي من فروع تجارة التصدير.

هذا وقد زادت الواردات أيضا كما زادت الصادرات لسبب يرجع — بلا ريب — إلى ما تشعر مصر به أثناء انسياقها في طريق النجاح والرقى من الاحتياجات المختلفة، إذ غير خاف ما هناك من ضرورة تموين الترسانات والقوافيرقات والمدارس والمصالح، وعلى الخصوص الجيش الكبير المضطر بظروف الأحوال إلى البقاء تحت السلاح، باللوازم والمعدات.

وما ينقص مصر لكي تبلغ إلى الغاية القصوى من الثروة التجارية هو المعيشة في ظلال السلم. فلو أن عقدة الإشكال التركي المصري حُلّت نهائيا وحُسم الخلاف المشتجر بين الحكومتين العثمانية والمصرية، بعناية من الدول الأوروبية لاتسع نطاق الزراعة بما ينضم إليها من ألوف العاملين الذين تثقل عواهنهم الآن أعباء السلاح، وارتفع عن الميزانية الشطر الأعظم من باب المصروفات، وغنى عنى البيان ما تجنيه مصر أولاً ثم الدول الأوروبية التي ترتبط مصلحتها التجارية بمصلحة مصر، من الفوائد الجزيلة والمنافع العظيمة إذا تحققت تلك الأمانى.

التعليم العام والمدارس في مصر



العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب- عصر الخلفاء- عصر المماليك- نهضة العلوم والمعارف في عهد محمد علي- البعثة المصرية في باريس- تأسيس المدارس- تنظيم المعارف العمومية.

١- العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب

كانت مصر مهد العلم ومبعث أنوار العرفان. فظلت إلى مابعد الفتح الفارسي، رافعة لواءهما وطارحة في جميع الأرجاء ضياءهما. ومما لا يحتاج إلى عناء التفكير أن أغلب فطاحل علماء اليونان (كفيثاغورس) و (هيرودتس) و (أفلاطون) و (أرسطو) وفدوا على مصر في تلك الأزمان. فتلقى بعضهم عنها أصول الفلسفة وقواعد الدين، والبعض الآخر حقائق العلوم والفنون وما هو متبع في استقصائها عن الأنماط والأساليب. ولما انطفأ سراج المدارس اليونانية وخبأ نورها وغشيت بعده ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض، سما لمدرسة الإسكندرية كوكب تكبد السماء. فلم تلبث أن صارت للعلم والعرفان مشكاة تبهر الأبصار بسنائها الساطع. ولقد نبغ فيها علماء بثوا في الخافقين شهرتها منذ عهد البطالسة إلى أوائل القرن السادس من الميلاد، ومنهم المهندس (أرخميدس) والفلكي (بطليموس الفالوذي) والفيلسوفان (جம்பليكس) و (بلوطانس) والأطباء (هيروفيلس) و (إيروز ستراتس) و (جالينوس) وغيرهم.

٢- عصر الخلفاء

جاء العهد الأول من عصر الدولة العربية مبدا لما غشى النفوس من سحب المخاوف والهلع من تعصب الفاتحين المسلمين. فلقد كان عصر الخلفاء غرة في جبين الدهر ومن أعلى وأغلى ما تزدان به تواريخ العلوم والآداب والفنون. ولا عجب فقد كانت أسماء هارون الرشيد والمأمون والمنصور لاتزال من العناوين الخالدة على الملوك والأمراء الذين أحاطوا العلوم والمعارف بسياج حمايتهم وأمدوها بمتواصل رعايتهم. فإنهم عهدوا الى لفيف من أعيان المسيحيين واليهود الواقفين على أبوابهم والمتصلين بحكومتهم في نقل أهم المصنفات العلمية الى اللغة العربية. ومع أن المغالين في التحبذ قد تجاوزوا حد المعقول في برقشة الحضارة العربية بألوان المديح، فلا يسعنا إلا الاعتراف به على الملأ بأننا مدينون لها، فيما عدا الآثار الفخمة والمصنفات الأدبية الجليلة - بالاستكشافات الأولى في الكيمياء ومبادئ علم الجبر، وبما أحرزه من التقدم على يدهم علم الحيل (الميكانيكا) ثم بالمزاوِل الشمسية والساعات والأراغن الموسيقية وغيرها.

٣- عصر المماليك

اندثرت باندثار الأنظمة العلمية التي خفقت عليها رايات مجدهم وأظلمها رواق شوكتهم. لأن الأسر المملوكية التي خلفتهم في ولاية الأمر كانت على الدوام مزعزعة الأركان ضعيفة القواعد، فلم تعن بالشئون العلمية التي أخذت تضمحل وتذوى كما تذوى أوراق الشجر. فإن السلاطين المماليك الذين ألقوا أساس الحكم الاستبدادي الذي أقاموا عليه صرح شوكتهم قد تركوا بعد انقراضهم من الآثار الهندسية الفنية، فلما حل المماليك محلهم ولم تكن لهم دراية بشيء غير العلم بأساليب القتال، ولا عمل عندهم أشرف من رياضة الأجسام، دفعوا بمصر الى الامام، وإنما في طريق الهمجية والجهل. ففي عهدهم لم يرتفع شأن لعلم سوى دراسة القرآن. أما العلوم والفنون الأخرى، فقد ألقيت في زوايا النسيان، واطرحت حتى صار علم الطب دجلا وشعوذة فظيعة وساءت الأحوال الى أن فقد المصريون كل ذكرى تتعلق بماضي بلادهم. وفي عهد الحملة الفرنسية أخذ بعض مواطنينا يقصدون إلى الأهرام لمشاهدتها، فكان الأهليون يقولون أن تلك الأهرام شادها أقوام

الفرنسيون من سلالتهم. وكانوا قبل ذلك يعتقدون أنها أثر من آثار الطبيعة وعمل لادخل ليد الإنسان فيه.

وكانت نتف العلوم التى تتحلّى مصر بها فى ذلك الاوان احتكاراً للعلماء ووقفاً عليهم. إذ كان هؤلاء يتلقون فى الجامع الأزهر بعض الشئ من فلسفة (أرسطو) واللغة العربية والكتابة والحساب وتفسير القرآن وتاريخ الخلفاء، لينقلوه فيما بعد إلى غيرهم ولم يكونوا حاصلين من مبادئ علم الهيئة وتخطيط البلدان إلا على مبادئ وأصول مبنية على الأغلاط والأباطيل.

ولم تكن الثلاث سنوات التى قضّاها رجال الحملة الفرنسية فى مصر وعادت على العلم بأجزل الفوائد وأوفر الثمار بكافية لنمو نبت التعليم وترعرعه وإزهاره بين المصريين الوطنيين.

٤- نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على

كان من نصيب محمد على أن يتولى نشر راية العلوم والمعارف فى قطر قطعت فيه الدور الأول من أدوار نموها وازدهارها، وجاءت بباكورة طيبة من الثمرات الشهية الجميلة. فلقد وجه هذا الوالى منذ البدء لفتة من لفتاته الصائبة الحكيمة إلى التعليم، وقدر ماله من جليل المزايا فلم يمض على استلامه مقاليد الأمور زمن يسير حتى أنشأ جملة من المدارس لم تبلغ من الأهمية المبلغ الذى كان يتمناه لها. ثم أدرك فيما بعد أن لا مناص له من الاعتماد على أوروبا فى الاسترشاد بها إلى طريق التقدم العلمى، فوجه إلى إيطاليا وفرنسا طائفتين من الشبان المسلمين لتنشئتهم فيهما على تلقى العلوم والتحلى بحلية الآداب والفنون. فنبغ من بينهم فى مقدمة من نبغوا عثمان أفندى نور الدين الذى بعد أن قضى سنوات فى بلادنا عهدت إليه إدارة مدرسة القصر العينى الكبرى، وأسس مدرسة أركان الحرب بالخانقاه فى سنة ١٨٢١.

٥- البعثة المصرية

لما عاد السلم إلى نصابه فى سنة ١٨١٥ خاطب العلامة (جومار) — أحد مهندسى الجيش الفرنسى بالشرق سابقاً — ومرخص الحكومة المندوب منها عامئذ لمباشرة نشر استكشافات المعهد العلمى المصرى، فنصل فرنسا

بالإسكندرية ليستأذنه في استئناف المباحث العلمية والتاريخية التي بدىء بها أيام الحملة الفرنسية. وقد حزر منذ هذا الحين كل ما كان ينتظر أن محمد على سيبيئله من الجهود لاستنبات الغراس الذي غرسته تلك الحملة على ضفاف النيل.

وكان من الأغراض التي يرمى إليها توثيق الصلة بين مصر وفرنسا بأواخي الشكر وقيود الامتنان لما ستقدمه الثانية إلى الأولى من وسائل الرقي العلمي وتمهده لها من طرق النقد الفني والأدبي. وكان تعليم الأهلالي الوطنيين من أقوى عوامل الإصلاح والحضارة في مصر. وكانت الحكومة المصرية ميالة بالبداية الى التذرع به لإنهاض البلاد من كبوتها ورفعها إلى المستوى الجدير بها أن تظهر فيه.

وأثناء وجود عثمان أفندي نور الدين بفرنسا كاشفه العلامة (جومار) بمشروع ابتكره لتحقيق ذلك الغرض، وهو إرسال بعثات مصرية إلى أوربا لطلب العلم فيها فتلقياه عثمان أفندي بالاستحسان وأطلع عليه سمو الوالي الذي لم يلبث أن أمر بتنفيذه، وقد نفذ فعلا منذ سنة ١٨٢٦ إذ عهد سموه إلى المسيو جومار إرسال أول بعثة مصرية في فرنسا وكانت مؤلفة من أربعة وأربعين شابا من الأتراك والمصريين.

ولست أقصد هنا إثبات تاريخ هذه البعثة الفريدة في بابها. بل أقصر على القول بأن مديرها حصل بعد مضي سنة أو سنتين من تأليفها على نتائج جليلة ومزايا نافعة بتهيئته أحد عشر طالبا من أولئك الشبان لدرس أساليب الإدارة العسكرية والمدنية والسياسية، وثمانية لتعلم فن البحر والهندسة العسكرية والمدفعية، وإثنين لاستقصاء علوم الطب والجراحة وخمسة لدرس الزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعي، وأربعة لتحصيل العلوم الكيميائية، وأربعة لممارسة فن الأيدروليك وصب المعادن، وثلاثة لمباشرة الحفر في المعادن والطباعة، وواحد لإتقان فن الترجمة، وآخر لإجادة فن العمارة وقد اضطر خمسة من أعضاء البعثة إلى العودة لأسباب بعضها صحي والبعض الآخر يتعلق بعدم الكفاءة وقلة الأهلية.

وأخذ الطلاب يتواردون بعد ذلك إلى فرنسا في كل عام وينضمون إلى طلاب البعثة الأولى، فبلغ عدد الذين قدموا إليها في طلب العلم من سنة ١٨٢٧

إلى سنة ١٨٣٣ نحو ستين طالبا. سوادهم الأعظم من أبناء الفلاحين، وقد تخصص أربعون منهم لدراسة العلوم الآلية (الميكانيكية) وإثنا عشر لدراسة الطب والأقرباذين = صناعة الدواء =، وكنت أنا الذى جاء بهم إلى باريس. وإذا ضممتا إلى هؤلاء الطلاب سبعة من الحبشان وثلاثة من أبناء الذوات فإن مجموع طلاب البعثة حتى تلك السنة يبلغ مائة وأربعة عشر طالبا.

فماذا كانت نتائج هذه البعثات ؟ لست أزعم أن هؤلاء الطلاب جنوا من الثمرات ما كان مرجوا لهم أن يفوزوا به منها. ولكنى أستطيع التأكيد بأن نسبة الناجحين منهم تجاوزت الحد المعتاد وأن نجاحهم فى الامتحانات العامة التى لا سبيل فيها إلى المحابة كان باهرا جداً، إذ أحرز بعضهم قصب السبق بإمتياز عظيم فى امتحانات مدارسنا الكبرى فخرجوا منها مزودين بأجازه الليسانس أو الدكتورية فى العلوم أو بشهادة النبوغ فى علوم الطب والصيدلة.

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أورد أسماء بعض النابغين على طريق التدليل والاستشهاد. وإذا كنت آثرتهم على غيرهم بإيراد أسمائهم فما ذلك إلا رجاء أن يكون هذا الإيثار منشطا للآخرين وحاثا على الجد فى تحصيل العلوم وأن يكونوا أهلا للتنويه بهم. أما أولئك الذين آثرتهم على غيرهم فأذكر فى مقدمتهم عبدى بك ومختار بك وقد تولى أحدهما رئاسة مجلس الحكومة والآخر إدارة المعارف العامة، وحسن بك الذى عهدت إليه نظارة البحرية، وأرتين بك وخسرو أفندى ويشغل أحدهما الآن المنصب الأول لكتابة السر والترجمة لسمو الوالى والآخر المنصب الثانى لها، وأمين بك مدير فاوريقة ملح البارود، واسطفان أفندى عضو مجلس الحكومة والشيخ رفاعة رافع أستاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة، ومظهر ومصطفى المهندسان، ومحمد بيومى أستاذ الرياضيات، وحسن الوردانى ومحمد مراد ومحمد إسماعيل المعلمون فى النقش والزخرفة والرسم، وأحمد يوسف مدير دار الضرب (الضربخانة)، وهو الذى كلف بالذهاب إلى فازوغلى للبحث عن الإبريز فى رمالها أو زار مناجم الذهب فى (مكسيكا)، ومحمد نافع وأحمد الرشيدى وعشرة غيرهما من الأطباء الأساتذة بمدرسة قصر العين، وحسين الرشيدى مدير معمل الصيدلة وغير هؤلاء كثيرون منهم، المدفعيون ومنهم الموظفون فى الفاوريقات ومنهم المزارعون وغيرهم ممن امتازوا بالبراعة

وفاقوا الفوق العظيم في العلوم والفنون التي تفرغوا لدراستها وتوفروا على اسقصاء غايتها. وهم يبلغون النصف من عدد الطلاب الذين آثروا البقاء في مصر ولا يزالون يقومون به يوميا من جليل الخدمة وجزيل الإفادة فذلك غنى عن البيان وأشهر من نار على علم. وإنما نخص بالذكر ثمرة من الثمار الغضة فازت فرنسا باجتنائها من وراء البعثة المصرية ألا وهي نشر اللغة الفرنسية والنفوذ الفرنسى في مصر. وبحصول فرنسا على هذه الثمرة لن يأسف سمو الوالى محمد على ما كلفت البعثة المصرية من الجهود المتواصلة والكلف الباهظة إذ تكون فرنسا قد حصلت على ماتطمح إليه من حسن الجزاء تلقاء ما بذلته من العناية في تعليم الشبيبة المصرية وتبريزها. شكرا من مصر لها على اكرامها مثنوى أولئك الشبان، واعترافا بحسن صنيعها وجنوحا إليها بباعث الحب الصادق والولاء الخالص. أما العلامة (جومار) الذى يرجع إليه الفضل في ظهور تلك النتائج الجليلة بما بذله في سبيل ذلك من الهمة والغيرة والعناية والإخلاص فلن توفى مصر وفرنسا والعلوم ما هو جدير به وأهل له (١).

٦- تأسيس المدارس

في سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة أبى زعبل الطبية التى سنخصصها ببعض البيانات عند الكلام على الطب. وقد أنشئت المدارس تباعا بعد ذلك، ولم يكن النظام فيها كلها متشابهاً. وكانت، تابعة لنظارات الحكومة على اختلافها، ولكن انحلال الرابطة بينها بعدم وجود نظام شامل لها أفادها في بادئ الأمر فائدة لا تنكر، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زج ببعضها في طريق التقدم فقطعت منه أشواطاً طويلة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل. على أن المصريين لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين بل قاوموا التعليم وأقاموا في طريقه العقبات وألقوا المعائر كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد وحشد العمال لمزاولة الصنائع. وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم

(١) انى اغتنم هذه الفرصة لى اؤدى إلى المسير جومار ما هو حقيق به من المدح من جهة تستدعى مزيد الشرف له فلقد أرادت الحكومة المصرية أن تكافئه على متاعبه وأعماله الجليلة. فلم يكن من هذا العالم الجليل إلا أن رفض هذه التقدمة بعزة نفس وحسن قصد. بالرغم من أهمية المرتب الذى ألح عليه بقبوله.

بترا للأصابع وسملا للعيون. منعا لقبولهم بالمدارس في حين أن التلاميذ يعاملون بها معاملة مملوءة بالعطف والرعاية إذ تنفق الحكومة على شئونهم كافة من مسكن وغذاء ولباس بدون أن تتقاضى منهم درهما. بل هى فوق ماتقدم، تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات وتعتبر المدة التى يقضونها بالمدارس من أدوار الانتقال المفضية بهم إلى المراتب الرفيعة المفضلة، بلا ريب - على البيئات التى منها توافدت وفودهم. ولقد أدرك الآباء فيما بعد ما يترتب على التعليم من المزايا المادية والمنافع الدنيوية. فكفوا عن المعارضة فى إرسال أبنائهم إلى المدارس التى شادتها الحكومة لهم بالمال الكثير.

٧- تنظيم التعليم العام

لما أتت المدارس التى تم تنظيمها وأحكم ترتيبها نهائيا بثمرتها الأولى، أدرك الناس أهميتها. فعهدت الحكومة بإدارتها إلى ناظر خاص، كان أول ما مارسه من أعمالها أن قسم التعليم ثلاث درجات شملت الدرجة الأولى المدارس الابتدائية والثانية المدارس التجهيزية والثالثة الخصوصية.

وأنشئت مدارس ابتدائية فى الأقاليم وأطراف القطر فبلغ عددها بالوجه البحرى أربعين مدرسة وبالوجه القبلى ستا وعشرين، وفى كل مدرسة مائة تلميذ. تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة. والمدة المقررة للدراسة فيها ثلاث سنوات، يتجدد ثلث عدد التلاميذ فى كل سنة ويتعلمون المبادئ الأولية من اللغة العربية والحساب وغيرهما.

ومن المدارس الابتدائية تستمد المدارس التجهيزية تلاميذها، ومن هذه المدارس واحدة كبيرة جداً بأبى زعبل. وكانت قبلاً بقصر العينى ثم نقلت منه لما خصص هذا القصر بالمستشفى العسكرى العام والمدرسة الطبية. أما المدرسة التجهيزية الثانية فبالإسكندرية. وفى المدرستين يتناول التعليم علوماً أكثر مما يتناوله التعليم الابتدائى، إذ تعلم فيها اللغة التركية ومبادئ الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم وغيرها، والتلاميذ يقضون بها أربع سنوات ويتجدد عددهم فيها بنسبة الربع سنوياً.

أما المدارس الخصوصية فهى: مدرسة الهندسة ومدرسة الطبوجية ومدرسة الخيالة ومدرسة البيادة ومدرسة الطب ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة اللغات والألسن ومدرسة الموسيقى ومدرسة

الفنون والصنایع.

وبالقطر المصرى تسعة آلاف تلميذ تنفق الحكومة على سكناهم وغذائهم ولباسهم، وتدفع لهم المرتبات الشهرية. وهم ينامون على أسرة حديد مفروشة بمرتبة من القش وأخرى من القطن ويصرف لهم فى كل عام طربوش وأربعة أقمصاة وأربعة سراويل وأربع تكك وأربعة مناديل للجيب ومنديلان (فوطتان) لتجفيف الجسم من ماء الاستحمام وثلاثة مراكيب وصدريتان الخ.

والغذاء الذى يقدم إليهم صحى جيد وهم يتناولونه فى وجبتين الأولى قبل الظهر بساعة والثانية بعد غروب الشمس بساعة ودروسهم مقسمة حصصا بحسب الساعات ، ويتقاضون فى آخر الشهر مرتبا، فتلاميذ التعليم الابتدائى يتقاضون فى السنة الأولى خمسة قروش شهريا، وفى السنة الثانية عشرة وفى الثالثة خمسة عشر قرشا. أما الذين يتلقون التعليم التجهيزى فيتقاضون فى السنة الأولى عشرين قرشا شهريا وفى الثانية خمسة وعشرين، وفى الثالثة ثلاثين وفى الرابعة خمسة وثلاثين ويقبض تلاميذ المدارس الخصوصية أربعين قرشا شهريا فى السنة الأولى، وخمسين فى الثانية، وستين فى الثالثة وسبعين فى الرابعة.

ولكل مدرسة ناظر توكل إليه إدارتها من الوجهة المادية وعالم لإرشاد تلاميذها.

صحة المصـريين
وأمر راضهم وطبهم
وتنظيم المصلحة الطبية

(١)

تربية المصريين - طريقة معيشتهم - إمساكهم عن المشروبات - استعمال القهوة والأفيون والحشيش - الحمامات - نصائح الأجانب المقيمين بمصر.

١- تربية المصريين

إذا تأملت المصرى أثناء تقلبه فى طوار الحياة ، فإنك تجده منذ مبارحته لحضن أمه ، عارى الجسم أو مستترا بخرق من القماش الغليظ ، ومعرضا لاختلافات الطقس وتقلبات الفصول ، فيصير منذ ولادته سلبيا من الشعور بالفواعل الخارجية التى تؤثر قليلا أو كثيرا فى النظام العضوى لجميع الكائنات. وتراه ينمو سريعا ، ويتزعزع بدون أن تصيبه أمراض الخنازير ولين العظام وغيرها. حقا تظهر عليه أحيانا ، وهو فى سن الطفولة أعراض مرضية فى ناحية البطن يدل على وجودها ما يعترى هذا العضو من الضخامة إلا أن هذا الاستعداد المرضى ينسب إلى قلة العناية بالأطفال وإغفال أغلب شئونهم فى السنوات الأولى من حياتهم . كما يعزى أيضا إلى الطريقة المتبعة فى تغذيتهم ونوع اللبن الذى تسد به حلوقهم أثناء الليل وأطراف النهار فيصابون بسوء الهضم وينتهى الأمر بهم - على توالى الأيام - إلى تضخم أحشائهم وأمعائهم كما قلنا. وهذه الاستعدادات المهيئة للمرض لم تكن عامة ، وإذا توافرت فسرعان ماتزول. لأن الغلام لا يكاد يبلغ الشهر السادس أو الثامن من عمره حتى يدب ويدرج ، فإذا بلغ من سنيه السابعة أو الثامنة ، وقد نمت قوى بدنه وعقله نموها المبكر ، تراه وقد أصبح قادرا على كفاية نفسه. ومنذ هذا الوقت تبتدىء حياته فى ميدان الجد والعمل ، فتراه بالقاهرة

والإسكندرية وسائر المدن مغرما بالريح، يقدم إليك حماره لتقطع به المسافات الطويلة المحفوفة بالأخطار، ومن ذا الذى جاء للسياحة بمصر ولم يحمل عليه جماعة الحمارين (المكارية) حملاتهم العنيفة؟ بل من منهم لم يعجب بخفتهم ونشاطهم وسرعة حركتهم مع عدم احتياجهم لشيء ما أثناء قطعهم الأشواط الطويلة والشقق البعيدة ركضا على الأقدام بلا حذاء وجريا على أرض تثلّظ بحرارة قيظ لا يطاق؟

وإذا تقدم فى السن قليلا بعد ذلك، ورأى رفيقه فى أوصاب الحياة ومتاعبها غير كاف لقضاء حاجته وسد عوزه فسرعان ما يطلب الانتظام فى سلك السواس (السياس) الذين ذكرنا عنهم أنهم يعتادون الركض منذ الصغر ويدربون أنفسهم عليه بحيث يستطيعون مجارة الخيول فى سرعة ركضها زمنا طويلا. وهذه الرياضة - التى لا يشك أحد فى عنفها ومتاعبها التى لا يحتملها غير المصريين - لاتصيبهم بما تصيب به غيرهم ممن يحاولون معالجتها من الضرر، إذ قصارى ماينجم عنها بالنسبة للمصرى أن أعضاء التنفس والعضلات فيه تنمو وتكتسب حجما كبيرا.

٢- طريقة معيشتهم

من أسباب قوة بنية المصريين ومتانة عضلاتهم ووثوق أساطينهم التزامهم جانب القناعة والاعتدال فى المأكل والمشرب وطريقتهم فى توزيع وجبات الطعام. فالفلاح فى الأرياف كالعربى فى الصحراء يعلم علم اليقين أن الغذاء الوفير الذى يدخل فى تركيبة الكثير من المواد الحيوانية والدسمة لا يتفق وطقس القطر المصرى وحرارة الشمس الشديدة فيه. ويعلم أيضا بدافع من فطرته وتجاربه أنه إذا لم تحتو المعدة من الغذاء السهل الهضم سوى النزر اليسير، أدت أعضاء الجسم جميعا وظائفها بسهولة وانتظام، فضلا عن أن التنفس لاتعترضه العوائق وعن أن المفاصل تبقى لينّة، فيحتمل الإنسان فى هذه الحالة بسهولة تامة لقطع أجواز الفلاة، لا يأخذ معه ذخيرة ليومه سوى كيس صغير يحتوى بعض الدقيق وقربة ماء صغيرة، فيعجن من الدقيق فى روبة (قصعة) صغيرة هى التتمة لما يحمله معه من المتاع مايلزم لعمل خمسة أو ستة أقراص من الخبز لاتتجاوز القطعة التى يصنع منها القرص حجم الجوزة، ثم يجفف الأقراص فى الشمس أو ينضجها على النار، وقد

يقترن هذا الغذاء بشيء من التمر الجاف فيكفى ذلك لإشباعه طول النهار. وإذا كان الفلاحون المصريون لا يبالغون في التقشف مبالغة عربان الصحراء فيه بل إذا كان سكان المدن يتحرون في طعامهم الأصناف اللذيذة التي يجهلها أولئك العربان، فلا ينهض هذا دليلا على أنهم ليسوا على جانب كبير من القناعة والاعتدال، إذ إنهم لا يتناولون أبداً من الطعام إلا ما يقوم بأودهم ولا يلجأون إلى الأغذية المحرصة والتوابل المشهية التي يكثر الأوروبيون من أكلها لتحريك الشهية.

٣- الإمساك عن المشروبات

إمساك المسلمين عن تعاطي النبيذ والمشروبات الكحولية سبب آخر من الأسباب التي تقيهم شر الأمراض والآفات التي تتحيف سكان الأقاليم الحارة حتماً إذا أقبلوا عليه.. وسواد المصريين لا يعرفون من ضروب الشراب سوى الماء القراح، أما المسيحيون واليهود فيتعاطون الأنبذة بوجه عام، والشراب المعروف بالعرقى بوجه خاص.

٤- قهوة البن والأفيون

قهوة البن من المنبهات التي ألف المصريون تعاطيها وتأثيرها في النظام العضوى أخف وطأة بلا ريب من تأثير المشروبات المحرصة فيها، إلا أنني أعتقد أن اعتياد المسلمين شربها لا يخلو من أثر ضار بصحتهم. وضررها هذا مؤكد بذوى المزاج السريع الانفعال والتهييج العصبى. ولا يبعد عن الظن أن يكون هذا الشراب من بواعث العنة التي يشكو منها الكثيرون من الشرقيين غير أن لهذه العاهة - فيما نعلم - سببا أقوى من إدمان القهوة. ألا وهو استعمال الأفيون على وجه أصبح منتشرا معه بين المسلمين، ولا سيما الأتراك منهم. ويحدث الأفيون بفعله المحرض ضعفا في الجهاز العصبى وخمودا في أعضاء الجسم وأنه لمن حسن الحظ أن يكون الأفيون غير ماهو شائع الاستعمال بين المصريين ولكن من أقوى بواعث الأسف ماهو مشاهد من إقبالهم العظيم على الحشيش، وهو تلك المادة التي سبق لنا الكلام عليها والتي لا يقل ضررها بالجسم عن ضرر الأفيون.

٥- الحمامات والدلك

سبق لى أن أفضت فى الكلام على الحمامات البخارية وعملية ذلك الجسم وما ينجم عنها من جزيل الفوائد باعتبار أنها من وسائل الصحة أو طرائق العلاج من الأمراض ولست بمكرر فى هذا المقام ماسبق لى إيرادها فى هذا الموضوع بل اقتصر على تحويل القارئ إلى ماأوردته من التفاصيل السابقة.

إن المصرى مدين بقوة بنيته واعتدال مزاجه إلى تمسكه بما ذكرته الآن من عاداته المختلفة كالقناعة والتقشف والأساليب المتبعة فى حياته ، والظروف الخاصة بالطقس والمحيطه بالمكان. فإلى هذه الأسباب بلا ريب يرجع انحصار الأمراض بمصر فى دائرة ضيقة جداً حتى أنهم لا يعدون من الموتى فى مدينة القاهرة التى يتجاوز عددها ثلاثمائة ألف نسمة أكثر من ثمانية عشر إلى عشرين كل يوم.

ويسير المصريون الآن سيرا حثيثا فى سبيل الحياة الصحية. فإنه لايندر أن تجد بينهم أناسا تجاوزت أعمارهم المائة. وشهدت بنفسى شيخاً من هذا القبيل فى الثلاثين من عمره بعد المائة ولم يكن مصابا بعاهة أو مرض سوى الماء الساقط فى إحدى عينيه. وفى بلدة (كفر نجم) من إقليم الشرقية لايزال على قيد الحياة رجل فى الثالثة والعشرين بعد المائة من عمره حائزا تمام الصحة، وله جملة أبناء أكبرهم سنا فى الثمانين من عمره ، والثانى فى الرابعة والسبعين، والثالث فى السنة الثالثة والأخير لايتجاوز عمره بضعة أشهر. وزوجة هذا الشيخ من طهارة الذيل بما يدفع كل شك فى أن المولود الأخير الأخير من صلبه. واتفقت لذلك الشيخ الفانى حادثة فى غاية الغرابة وهى أنه لما بلغ الثانية والثمانين من عمره نبتت له ست أسنان جديدة اضطر بعد ذلك إلى خلعهما لما كان يشعر به من الضيق والحيرة بوجودها.

٦- نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر

ماذكرته الآن من حسن تأثير قناعة المصريين فى صحتهم والحرص على أداء بعض الإجراءات = الصحية يدعونى فى هذا المقام الى توجيه بعض النصائح إلى الأوربيين من ساكنى مصر والسياح الذين يجوبون أرجاءها. أذكر فى طليعتها التحاشى عن التغذى بما يدخل فى تركيبه الكثير من

الأصول الحيوانية لما هو معروف ومقرر في العلم من أنها تفيض عن حاجة الجسم إلى تعويض ما فقده، وتتجاوز القدر المناسب من التنبيه والتحريض، ثم الإمساك عن النبذ الصرف والمشروبات الكحولية.

وتأثير المشروبات الكحولية بالبلاد الحارة في صحة متعاطيها ردىء للدرجة القصوى ولعل في التجارب الكثيرة التى قام الباحثون بها في هذا الموضوع مقنعا للناس كافة بهذا الضرر، إذ غير خاف عليهم ما لوحظ من ازدياد عدد الوفيات بمصر بنسبة مزعجة بين الأجانب الذين ألفوا تعاطى تلك المشروبات. ومما هو غنى عن البيان وإقامة الدليل عليه لبدايته أن الإنجليز النازلين في هذا القطر يهلكون بنسبة فاحشة جداً بالقياس على نسبة الوفيات في الجاليات الإفرنجية الأخرى. وما ذلك إلا لأن الإنجليز احتفظوا في مصر بعادة إدمان المسكرات. وهى عادة لا تتفق وطقس البلاد التى جاءوا ليتخذوها مقاما لهم.

وهناك أمر آخر ينبغى أن يلاحظه الناس كافة ويعملوا به أثناء إقامتهم في القطر المصرى، نريد به التوقى من تأثير الرطوبة واختلافات الطقس المتواترة الوقوع في هذا القطر. والسبيل الى هذه الوقاية إنما هو بالحرص على لبس الثياب المدفئة والإحجام عن النوم في المخادع والغرف المفتوحة النواقد، أثناء النوم، والاحتراز من الرقاد في ظل الأشجار كما يفعل الفلاحون غالباً فإن إهمال الاحتياطات يفضى في كثير من الحالات الى ضعف الجسم وانحلال قواه، ويسبب الأمراض الروماتزمية والإصابات الرمدية وغيرها من أنواع الأمراض التى تهيب حالة الجسم واستعداده إلى الإصابة بها.

ومن عادة الأهلين بمصر إذا أحسوا ببوادر أعراض مايلحقهم من مرض أو انحراف في الصحة أن يعللوا ما اعتراهم من ذلك - وهو ما نذهب إلى أنه الصواب بعينه - نسداد المسام وقلّة افرازات الجلد. وسرعان ما يلجأون في إزالة هذه الأعراض إلى وسيلة لاريب في حسن أثرها وصدق فعلها، ألا وهى التوجه إلى الحمامات البخارية لاستثارة إفراز العرق الغزير من أبدانهم وهذا وحده يكفى لتبديد مظهر من تلك الأعراض عادة. وأنى لا نصح بالاعتماد على الحمامات إلى من يشعرون بما وصفته من مرض أو انحراف، واعتقد يقينا أنها تفيد غالبا في إيقاف أمراض جمة لولاها لسرت في الأجسام وأنهكتها.

والاستحمام في حمامات البخار مع ما يتخلله من ذلك البدن كله بالكيس لمن أفضل الوسائل التي ينبغي للأجانب المقيمين بمصر أن يعتمدوا عليها لتحسين صحتهم من الأمراض الداهية. ولقد سبق لنا الكلام على المزايا التي تنجم عنها من جميع الوجوه فلا حاجة إلى التكرار.

الأمراض المصرية

الطاعون . أمراض أعضاء الهضم: الدوسنتاريا- التهاب الكبد- البواسير.. الخ- الفتق- الأمراض الجلدية: الجدام - حب الخيل- البرص- الحصبة.. الخ- الفريتيث. أمراض العيون: الرمد الصديدي- الشترأى انقلاب العين للداخل- الشعرة.. الخ. أمراض أعضاء التناسل ومجاري البول: الحصاة المثانية- الايدروسيل- المبارك أو الزهري- الأمراض السرطانية- الأمراض الصديدية- الأمراض المخية- الأمراض العقلية- الأمراض العصبية- الروماتزم أو وجع المفاصل - النقطة- التيتانوس- الكلب.

أشرنا فيما سبق إلى أن المصريين ، بما هو معروف من مزاجهم وقوة بنيتهم وطريقة معيشتهم ، ليسوا عرضة إلا لليسير من الأمراض . ولكنهم إذن في أمان من شروخ الأمراض الجمة التي تدهم الأوروبيين والشعوب المتمدينة كانوا عرضة لأدواء = جمع داء = كثيرة غيرها، بعضها خاص بالمواطن التي يستقرون فيها والبعض الآخر مشترك بينهم وشعوب الأرض المختلف، وسنتكلم عليها فيما يلي:

٧- الطاعون

إذا لم يكن الطاعون أكثر الأدواء انتشارا في مصر فهو على الأقل من الآفات الفتاكة أكثر من غيرها بالأرواح. بل هو من الأوبئة الكامنة في بلاد الشرق، وعلى الخصوص في أرض الفراعنة القديمة.

يجوز إذن القول بأن مصر مهد للطاعون، وأنها كانت - سواء في أيام عزها القديم أو فيما تلاها من القرون - ميدانا لانتشار ذلك الوباء فيها وفتكه بأهلها أذرع فتك. فليس سقوط الحضارة المصرية من علوة مجدها القديم ولا إغفال القواعد الصحية التي كان المصريون أشد الناس حرصا على

اتباعها هما اللذان أولدا ذلك المصاب المخيف والطامة الكبرى، كلا بل إن أسباب انتشاره ما برحت في أيامنا هذه كما كانت في تلك العصور الغابرة سرا من الأسرار الغامضة. وهي كغيرها من أسباب أمراض وأوبئة شتى لاتزال مستعصية على المتصدين لمعالجتها بالبحث والتمحيص والاستقصاء.

ولم يكن الطاعون وباء كامنا في مصر فقط، بل في سائر البلدان الممتدة على السواحل الشرقية والجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. ومع تفاوت درجات انتشاره فيها شدة وخطورة، فإنه لاتكاد تمر سنة حتى ينزل بكله على الشرق في ميعاد واحد. والعادة أنه. إذا فشا بين الناس بادية ذى بدء لا يكون شديدا. فإذا انتشر بشكل وبائي. وهو ما يحدث مرة في كل ست سنوات أو ثمان أو عشر، فإنه يحصد الأرواح حصدا، ويكون شأنه في ذلك شأن الكوليرا إذا انتشرت وأحلت بهم بأسها فجعلتهم غرضا لسهامها وجزرا لسيوفها.

وليس الطاعون من الأوبئة المعدية الوبيئة. وسواد الأطباء الذين فحصوه في السنوات الأخيرة ودرسوه درسا دقيقا يشاطروننا هذا الرأي. وقد كان هذا الاعتقاد ولا يزال اعتقاد المسلمين لا يحدون عنه. لذلك تراهم لا يوقون أنفسهم شر ملامسة المصابين بالطاعون والاتصال بهم. ومما يبعد عن الظن أن تكون آراؤهم في هذا الموضوع مستمدة من الاتكال على القضاء والتسليم بما يأتي به القدر.. فإنه مما لا يصح التسليم به أن يتعرض شعب بمحض اختياره للإصابة بداء يعرف أنه من الأدواء المعدية، إذا كان في استطاعته أن يدراه بلا معاناة إذ يكفيه مجانية الموبوئين به.

أمراض أعضاء الهضم

٨- الدوسنتاريا

الدوسنتاريا من الأمراض الملازمة لمصر، وهي بعد الطاعون من أشدها فتكا بالمصابين بها، ويعرفها المصريون باسم الدوسنتاريا وعنصل البطن والسهلة، والإصابة بها في الوجه البحرى أكثر تواترا منها في مصر الوسطى والصعيد، والغالب عليها أن تكون في أيام الحر حيث يأخذ انتشارها في بعض

الأحيان شكلا وبائيا فتصيب العدد العظيم من الناس.

ذلك المرض الذى يكافحه الأهالى الوطنيون بالشعوذة وطب الركة ودجل الدجالين. فتكون عاقبته وخيمة عليهم ، ويعالجه الأطباء الأوربيون بالطرق النافعة الناجعة وأخصها مضادات الالتهاب والحمية. والحمية شرط لا بد منه فى نيل الشفاء التام.

أما الأمراض الأخرى لأعضاء الهضم فنادرة الوجود فى القطر المصرى.

٩- التهاب الكبد

يشاهد هذا المرض فى أحيان نادرة ، فهو أقل انتشارا مما يتبادر إلى الذهن، والسبب فى ذلك شدة حرارة الطقس، وأكثر الناس تعرضا للإصابة به الأجانب بوجه عام والأوروبيون منهم بوجه خاص.

١٠- امتلاء المساريقا

أما الامتلاء المعروف باسم امتلاء المساريقا أو انسدادها أو احتقانها فقليل الشيوع أيضا. إذ لا يشاهد إلا فى عدد قليل من الأطفال.

١١- الاستسقاء

ومما تنهى الفرصة كثيرا لمشاهدته أحوال الإصابة بالاستسقاء أو ترشيع البطن. غير أن هذا المرض فى مصر لا ينشأ عن الإلتهاب المزمن فى البريتون. وشأنه فى ذلك بمصر كشأنه فيه بالبلدان الأخرى. وتزداد خطورته عادة بتأثير أحوال عديدة كاحتقان الكبد أو حدوث الأعراض التى تعوق الدورة الدموية.

١٢- البواسير

أما البواسير فكثيرة الانتشار فى مصر، بعكس الأمراض المتقدمة، وعلّة انتشارها على ما يظهر تفشى داء الدوسنتاريا فى هذا القطر. والأهالى الوطنيون يعالجون البواسير بوسائل تبعث كلها على العجب والدهشة. فإنهم متى شعروا ببروزها وتضخمها ، يستدعون الحلاق فيقطعها لهم بالموس.

١٣- الآفات الديدانية

وهناك أمراض أخرى كثيرة الشيوع والتفشى فى مصر يجمعها اسم

الآفات الديدانية. فإن أهالي القطر، من جميع الأسنان والأمزجة، معرضون للإصابة بها. وكثيرا ما تنتشر الديدان الباطنية في جسم المصاب بها بحيث لا يحصى عددها ولا يحصر.

١٤- الفتق

الإصابات بالفتق شائعة في مصر. وقد عزوا حدوثها إلى ماء النيل باعتبار كونه شرابا يشربه المصري وينتفع به في مرافقه كما عزوا إليه ما لاحصر له من الامراض ولاسيما داء الفتق الذي ينسبونه إلى استعمال الحمامات الساخنة الشائعة في الشرق، ولكن يبدو لنا أن لاسبب من الاسباب الموما إليها بصحيح، وأن لانصيب لهذا التعليل من الصواب. والذي نرتئيه أنه إذا كان لمياه النيل بعض التأثير في ازدياد المرض، فإن هناك أسبابا أقوى من التي تقدم ذكرها، منها: بنية الأشخاص الذين نسيجهم الخلوي الشحمي رقيق جداً لايسد التجاويف التي تهبط الأحشاء منها سدا محكما، ومنها ارتخاء المجموع العضلي في أجسامهم. وهذا الارتخاء يتسبب عن طبيعة مزاجهم وحرارة الوسط الذي يقيمون فيه، ومنها إدمان ركوب الخيل وهو ما لاغنى لسواد المصريين عنه.

وزعم بعضهم أنه لولا احتياط الفلاحين بضغط بطونهم بالأحزمة العريضة الجلدية لبلغ عدد الإصابات بالفتق في مصر مبلغا فاحشا. وهذا الزعم ظاهر البطلان. لأن القائلين به لم يلتفتوا إلى أن الضغط بمثل تلك الأحزمة على الحرقفتين والجزء الأعلى من البطن من شأنه أن لايرفع الأحشاء إلى فوق. فهو لن يأتي بالفائدة التي تعزى إليه. بل من شأنه أن يدفع الأحشاء التي يضغط عليها نحو النقط التي يحدث الفتق عادة فيها، إذا ثقلت عليها الأحشاء. وعليه فاستعمال الحزام كوسيلة لمنع الفتق لمن أقوى البواعث على حصوله وتفاقم خطره.

١٥- الأمراض الجلدية

الامراض الجلدية شائعة في مصر، وتبدو للناس على أشكال مختلفة، وأكثرها شيوعا مرض الجذام الذي يصيب الأعضاء ومواضع التناسل وحب النيل والبرص والقوبة والحصبة والجرب وغيرها.

١٦- الجذام

يعرف هذا المرض في أوروبا بأسماء مختلفة منها الفتق اللحمي (بروسير البان) ومرض جزائر (البرباد) وسرطان الخصية المصرية، وقد سماه العلامة (الار) بمرض المجموع اللنفاوى، وهو شائع في مصر وإن لم يكن خاصا بإقليمها، وما سمي في اللغة الافرنجية باسم (اليفانتيازيس) اشتقاقا من اسم الفيل، إلا للشكل الذي تتشكل به الأجزاء المصابة. من حيث إنه يجعل العضو المصاب بهذا الداء شبيها برجل الفيل. وهذه التسمية التى تليق إلى حد ما بالمرض إذا أصاب الساقين، لا محل لها إذا أطلقت عليه في حالة إصابته أجزاء أخرى من الجسم كالخصيتين مثلا، ثم أن تسميته بأسماء الفتق اللحمي وسرطان الخصية والقيلة المائية لا تنطبق أيضا على حقيقة الواقع، كما سيتبين للقارئ عند ذكر طبيعة المرض وشرح أعراضه. أما تسميته بمرض المجموع اللنفاوى فغير صحيحة كذلك. لأن المجموع اللنفاوى لم يكن مركزا من مراكز الاضطرابات الباطنية.

إن الجذام الذى اقترح بعضهم بحق تسميته بالارتشاح أو الانتفاخ الارتشاحى، إنما هو من الأمراض التى مركزها النسيج الخلوى الذى تحت الجلد، فإن هذا النسيج إذا وقع تحت تأثير ظروف مختلفة يرجع أغلبها إلى أسباب التهيج، ينفذ إليه مقدار يختلف قلة وكثرة من المواد المصلية التى تزداد تراكما بازدياد نمو الأجزاء الصلبة. فمن هذين الطرفين يتولد الجذام ويكون فى آن واحد نتيجة الرشح وفرط النمو فى النسيج الخلوى. يؤيد ذلك استئصال الغدد والعجز الناجمة بالقطع عن هذين السببين، فإن هذا القطع يفضى إلى إنسياب مقدار كبير من المواد الصلبة فيقل حجمها قلة محسوسة. ويؤيده أيضا تشريح الأجزاء الصلبة فإن هذا التشريح يجلى عن مثل النتيجة المتقدمة.

وتجرى الأحوال على هذا المثال. سواء اتسع نطاق الداء بالأطراف السفلى للجسم، أو اتخذ غلاف الخصيتين مقرا له. وفى الحالة الأخيرة على الأخص يبلغ الجذام فى الضخامة وفرط النمو أقصى مبلغ له. فلقد رأيت أوراما من هذا القبيل تجاوز وزنها مائة رطل. وأستأصلت بنفسى أوراما مثلها بلغت من ضخامة الحجم مبلغا وصل معه قطرها الرأسى إلى أسفل الساق.

أما أسباب الجذام والظروف التى يتولد فيها، فهو ما لم يحققه المحققون حتى الآن، وغاية ما فى الأمر أن من الأسباب المختلفة التى يعزى إليها فرط نموه وتضخمه سببا ربما كان صحيحا وهو تأثير البرودة الرطبة والحمامات الباردة وكثرة الاغتسال إلى غير ذلك من الأسباب المختلفة التى من شأنها أن ترد العرق إلى مصادره . ولكن هذه الظروف لا تكفى وحدها لتوليد الداء. إذ لو كانت هى الموجدة له، لكان من أكثر الأدوية الباطنة شيوعا فى العالم خصوصا وأن العرق كثيرا ما تتعطل بمصر وظيفته بدون أن يترتب على توقفه ظهور ذلك الداء.

ولكى يأتى علاج الجذام بفائدة قاطعة ونتيجة حاسمة، تحسن المبادرة بعلاجه لمجرد ظهور علاماته. لأنه مادام فى دوره الأول يكون الأمل فى الشفاء منه، باتخاذ الوسائل الطبية الأصولية، أوثق وأدنى إلى التحقق. وعليه فمن الميسور الحصول على نتائج حسنة باستعمال مضادات الالتهاب والفصد واللبخات المليئة، وبحمل الأحزمة بعد وضعها فى المكان اللازم وضعا لاثقا. أو إذا كان ثم ما يدعو إلى الاشتباه فى أصل المرض، وأن له ارتباطا بإصابة زهرية مثلا فتستعمل الأدوية الزئبقية. أما إذا مضى بعض الزمن على الإصابة فيعتمد فيها على قطع الجذام كذريعة يلتمس منها تخفيف الألم لا الشفاء التام من المرض. وأما إذا بلغ الداء إلى الدرجة التى أشرنا إليها. أى إذا دهم الخصيتين وأحدث فيهما ذلك الانتفاخ البالغ، فالوسيلة الفعالة فى الخلاص منه هى الاستئصال التام.

١٧- حب النيل

يطلق المصريون هذا الاسم على مرض خاص ببلاذهم لا يعدوها إلى غيرها، وقد أجمعت الآراء على أن سببه استعمال ماء النيل شربا.

ولم يكن حب النيل مرضا جلديا كما ذهب إليه العلامة (بونيه) وإنما هو بثور تخالف بطبيعتها وشكلها أنواع البثور الأخرى، إذ تشبه دمامل صغيرة ملتصبة مختلفة الأحجام تكون منضمة تارة وطورا متفرقة، وتحدث أكلانا يزعج المصاب بها. وقد تستحيل إلى دمامل كبيرة تنتشر على ظاهر الجسم كله وتنقشى فى الأجانب أكثر منها فى الوطنيين. ويتفق أوان ظهورها مع أوان فيضان النيل. ولا خلاف فى أن مياه النهر هى السبب فى حدوثها بدليل أنها

تزول بانتهاء الفيضان وانخفاض الماء.

وحب النيل أكثر شيوعا في الوجه البحرى منه في مصر الوسطى. فشأنه من هذه الجهة شأن الجذام. أما الوجه القبلى فالإصابة به نادرة جداً، ولم يستطع أحد حتى الآن تعليل هذه الخصية.

١٨- البرص

البرص أحد أمراض الشرق التى فقدت كثيرا من قوتها بتعاقب الأجيال ومضى الأحقاب. ومع هذا فإن بلاد الهند وبعض شطوط أفريقية والشام ومصر وعلى الخصوص جزيرة كريد ما برحت ملوثة بتلك الآفة. وكثيرا ما تشابه الأمر على الناس فخلطوا بين الجذام والبرص مع بون ما بين المرضين، والبرص يظهر في شكلين أصليين دعيا إلى تسميتهما. الأول بالبرص الدرنى العربى، والثانى بالبرص الآكال اليونانى.

أما البرص الدرنى المشاهد في مصر بوجه خاص فيظهر بشكل أجسام درنية صلبة صغيرة الحجم تنتشر في النسيج الخلوى فتحدث نتوءا في الجلد وتكسبه لونا ضاربا إلى الحمرة ويبتدىء المرض بالوجه والأعضاء ولا يصيب الجذع إلا في أحوال نادرة جداً. ويتبع في سيره سير الأمراض الخنازيرية، مفضيا إلى أعراض واضطرابات تشبه ماتحدثه هذه الأمراض منها .. فمن ذلك أن الدرن يلتهب ويتقيح ويحدث جروحا تلتحم عن ندب بشعة المنظر. بل ربما أحدث تشويها في الأعضاء أو أدى إلى فقدها وسقوطها إذا وصل الدرن إلى المفاصل.

أما البرص اليونانى الذى يقرب بطبيعته من الأمراض القويية، فنادر الحدوث في مصر. وهو ببلاد اليونان ألصق منه بأى بلد آخر ويحدث كالسابق اختلالا واضطرابا مختلفى الضعف والشدة في النظام العضوى.

وكثير من الأطباء يعتبرون البرص مرضا معديا، ولكنه غير ما زعموه من ذلك. فإن الأبحاث التى قمت بها في هذه الموضوع والمرضى الذين فحصت إصاباتهم في مستشفياتنا وفي جزيرة كريد أقنعتنى وزملائى المصريين بأن المرض غير معد. وهذا الاقتناع يطابق رأى السائد منذ زمان طويل بين شعوب الشرق.

١٩- الأمراض القوبية والخنزيرية

الأمراض القوبية موجودة بمصر ، ولكن الإصابة بها نادرة وإذا وقعت كان وقوعها في جهات متفرقة ومتباعدة وهذا الوصف ينطبق على الأمراض الخنزيرية لسبب لا خلاف في وجاهته، وهو المزاج الخاص بالمصريين وطبيعة الوسط الذي يعيشون فيه. وبما أنه ليس لهذه الأمراض من الصفات الخاصة ما يميزها بعضها عن بعض، فقد اكتفينا بالكلمات السابقة عن الاسترسال في وصفها والتوسع في بيانها.

٢٠- الجدري

الجدري من الأمراض الجلدية الأكثر شيوعا في مصر وفتكا بأهلها. على أنه فقد منذ بضع سنوات كثيرا من قوة انتشاره وشيوعه ، بفضل ما اتخذته الحكومة من الوسائل لإجراء عملية التلقيح على الأطفال. والمأمول أن ينتهي الأمر بانقطاع ضرر هذا الداء عن مصر كما انقطع عن الديار الأوروبية.

٢١- الجرب

الإصابة بالجرب من أكثر الإصابات شيوعا بين المصريين، وخصوصا في صفوف الجيش. والأسباب المحدثه له في مصر هي عينها في كل قطر آخر.. وإذا كان هذا المرض أكثر شيوعا في القطر المصري منه في غيرها، فإنما يرجع السبب إلى عدم احتفاظ الناس بالنظافة وإهمالهم وسائل الوقاية.

لمحة عن «كلوت بك»

نعم .. مصر لاتنسى أبناءها.. ولا تنكر ولا تتنكر لغيرهم من الذين عاشوا على أرضها من غير فساد أو إفساد أسمائهم وحفظت لهم إسهاماتهم..

ومن هؤلاء العالم الفرنسي الشهير «كلوت بك» الذى وفد إلى مصر سنة ١٨٢٥ ميلادية، ولسيرته مزايا منها أنه رتب الاسبتالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن ترتيب. وبذل جهده فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.. وفى سنة ١٨٣٢ ميلادية ذهب إلى باريس وبصحبه اثنا عشر تلميذا من المصريين منتخبون من مدرسة «أبى زعبل»..

وهذه نبذة عن «كلوت بك» وعصره بقلم «عبد محمد لبيب» أحد تلامذة مدرسة «الألسن» بتكليف من سعادة الدكتور «محمد بك الدر» وهذا الجزء متمم للكتاب «لمحة عامة إلى مصر» وتعريف بصاحبه الذى قدر له، معايشة المصريين وأحوالهم فى فترة تاريخية مليئة بالأحداث والمواقف.

أحمدك يا من جعلت الأمم الغابرة موعظة واعتبارا للآدم الحاضرة
وخصصت بعض أفراد النوع الإنسانى بمزايا حسب ما لديه من الاستعداد،
وأوضحت له بجليل آياتك خفايا طريق الغنى من طريق الرشاد وأصلى وأسلم
على نور الوجود وواسطة الفضل والجود، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام.

وبعد فيقول العبد الفقير المضطر إلى رحمة مولاه الملتجئ إليه دون من
عده عبده محمد ليبب أحد تلامذة مدرسة الألسن التى طار صيتها فى الآفاق:
بينما كنت عاكفا على تحصيل المعارف والتظلل بظلها الوارف، وإذا بشمس
الحكماء وقدوة الفضلاء الحائز قصب السبق فى مضمار العلوم الطبية لقمان
عصره وبقرات مصره، العلم الشهير الغنى عن البيان الذى يعجز عن تعداد
فضائله اللسان، ويكل عن الإحاطة بوصف جليل معارفه فكرى. سعادة
الدكتور البارع المتقن محمد بك الدرى أمرنى بترجمة كتاب محتو على سيرة
كلوت بك من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فأجبتة إلى مطلوبه وبذلت
الجد فى إنجاز مرغوبه. كيف لا ولصاحب هذه السيرة مزايا تجل عن أن
يحصرها الفكر منها أنه رتب الاستبالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن
ترتيب. وبذل جهده فى ترجمة الكتب الطبية من اللغة الأجنبية إلى اللغات
العربية حتى استمد أبناء أوطاننا من معارفه الجلية أشهر العلوم خصوصا
الأعمال الجراحية واستدعى لها جميع ما يلزم مقدما الأهم فالأهم حتى
تكاملت فيها الآلات الطبية والجراحية والمادة الطبية والتاريخ الطبيعى
وغيرها مما تحتاج إليه من زوال فن الطب ومتعلقاته. كالقطع المرضية
التشريحية الصناعية المزين بها الآن كل من قاعة الاكلينيك الجراحى
والقاعات التشريحية المنسوبة إلى الدكتور (تيبير Thibert) حتى بلغت غاية
الكمال، وطبع فيها عدة كتب طبية بعد أن ترجمت من اللغة الأجنبية إلى اللغة
العربية فتقدمت هذه المدرسة إلى الدرجة العليا وأصبحت كعبة معارف تتوارد
إليها التلاميذ من سائر القرى والبلدان فى ظل العائلة المحمدية العلوية وما
زالت كذلك حتى زاد تقدمها فى زمن الخديوى المفخم ملك مصر الجالب لها
ثروتها والمعيد لها نخوتها توفيقنا الأول الذى نشر ألوية المعارف فى هذا
القطر بعد أن درست معالمها. جعله الله دوحة مجد وإجلال وحفظ أنجاله
الكرام ووزراءه الفخام.

مقدمة مؤلف هذه النبذة التاريخية

اعلم أن التاريخ هو أجل العلوم نفعا وأعظمها فائدة فهو محط أنظار العقلاء وبغية الفضلاء. إذ هو المرشد الأمين الذى يوقفنا على أحوال الأمم الماضية ويبين أعمالهم الحسنة والقيحة كى يتحل الناظر فيه بالخطة الأولى ويتخل عن الثانية فهو أعظم مرب وأجل مرشد لمن نظر فيه بعين الاعتبار.

ومن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره

غير أنه قد وقعت فى بعض كتبه أغلاط أوجبها الخروج عن جادة الإنصاف من حب التقرب لأرباب العظمة وعدم معرفة طبائع العمران وغير ذلك من الأسباب التى يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها ومن ثم عذمت على أن أتبع سبيل الصدق فى ذكر سيرة هذا الرجل الذى حاز المقام الأسمى حتى أنه نجح فى جميع مشروعاته وأحدث فى البلاد إدارات نجمت عنها فوائد شتى من المصالح العمومية ، حتى أصبحت تشابه البلاد الأوروبية - مع كونه لم يكن من رجال الإدارة . وإنما أسس كل ذلك بثاقب فكره وسامى إدراكه فهو الجدير بأن يقوم له المصريون بأنواع الشكر جزاء على ما له من جليل الأعمال كغيره من عظماء هذه الأمة الساهرين على منافعتها ، ولم يكن هذا العالم الشهير من المبعوثين المسيحيين . مع أنه كان من أجل العالمين بالدين المسيحى الساعين فى نشر المعارف ، ولا من قبيل بعض الذين يتخذون العلوم سلما للغنى ووسيلة للتعيش ليس إلا ، وكان من سجاياه الانكباب على المطالعة فى العلوم والانهماك فى تحصيل المعارف حتى تحصل منها على ما يتعلق بجميع المنافع البشرية بسبب تقننه فى العلوم الطبية ، ولنتعرض إلى سرد ما كان من هذا الرجل منذ سمحت الظروف ببروزه إلى عالم الوجود إلى أن اغتالته أيدي المنون مبينين ذلك فى مطلبين الأول يشتمل على بيان حالته منذ حاز صفة الوجود وزوال العلوم إلى أن نبغ فيها وعرف غثها من ثمينها والثانى على ما كان منه من جليل الأعمال بعد ذلك إلى أن انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية ولنشرع فى ذلك فنقول:

المطلب الأول

ولد (الدكتور أنطون برتيلمي كلوت بك Le Doctor Antoin Barth'elmy Clot) في جرينوبل (Grenobel) لسبع خلت من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٢ مسيحية، وكان من عائلة فقيرة جداً، وبهذه الوساطة لم يتحصل إلا على تعليمات ابتدائية وكان والده ضابطاً بالجيش الطلياني وأضطر إلى أن يعود إلى عائلته بعد واقعة (مارانجو Marango) لأجل الاستراحة مما عاناه من مشاق الحرب والمرض الذي ألم به منها، وتوجه إلى بلدة تسمى (برينيول Brignoles) لأجل أن يعالجه هناك الدكتور (سابيه Sapay) الشهير الذي عرفه في الجيش أيام الحرب المذكورة، وكان الدكتور الموماً إليه مديراً لمستشفى البلدة المذكور المسمى (باسبتالية الصدقة L'hotel- Dien) ثم مات والده في سنة ١٨١١ تاركاً زوجته ونجله ييتكدان آلام الفقر وكان لهذا النجل (كلوت بك Clot-bey) رغبة شديدة في تعلم فن الحكمة والجراحة حتى أنه كان في مدة طفولته يزاوّل تشريح مايعثر عليه من الحشرات في مزارع (دوفينه Daufin'e) مع غاية من الحذاقة وشدة الرغبة ومازالت تنمو فيه هذه الرغبة كلما نما سنه حتى أن الدكتور (سابيه Sapay) الذي كان محباً لوالده ألحقه بوظيفة مساعد له في الأعمال الجراحية وبعد مدة قليلة نبغ في هذا الفن وظهرت نجابته حتى أصبح يجارى الدكتور المذكور في صغار العمليات.

وفي هذه المدة كان منكبا على مطالعة الفنون الطبية في كتبخانه هذا الدكتور، واستمر على هذه الحالة باذلاً جده واجتهاده حتى أنه حفظ كتاب الجراحة المنسوب إلى (لافيه Lafaie) وبعد بقاءه على هذه الحالة بضع سنين علم أنه لايجد في هذه البلدة (برينيول Brignoles) وسائل التبحر في هذه العلوم. فعزم على أن يتوجه إلى (مرسليا Marseille) لكي يلحق بالمستشفى الذي بها فعارضته والدته وأقاربه وأحبابه بأنه مخطيء في هذا الرأي فلم يصغ لقولهم، وتوجه إليها منكسر الخاطر من أسف والدته وأقاربه وأحبابه على فراقه وتقبيحهم له هذا الرأي، وكان عمره وقتئذ يناهز تسع عشرة عاماً ولم يكن معه سوى ثلاثين فرنكا ومنذليه وفيه بعض لوازمه، وبعد مدة من

وصوله إليها نقد ما كان معه فعزم على أن يسافر في سفينة يقال لها (هازار hasard) أى الصدفة بصفة جراح ولكن لم يحصل ذلك لأن قبطانها عين ابن أخيه لهذه الوظيفة وسافرت هذه السفينة ولم يعلم إلى أى جهة توجهت غير أن الأخبار أفادت أنها غرقت..

فاشتغل (كلوت بك Clot Bey) بأشغال لاتفيد، ثم اضطره احتياج المعيشة إلى أن يقيم عند حلاق له إمام ببعض المسائل الجراحية الصغيرة فكان يشتغل بالفصد والعمليات الأولية ثم عاد جناب هذا الدكتور إلى حالة التلمذة، ورجع ثانيا إلى محله واشتغل بتحصيل العلوم بجد واجتهاد ثم حضر إلى المستشفى وطلب الانتظام في سلك التلامذة فما تيسر له أن يقبل تلميذا خارجيا، ولكن لم يضعف هذا الأمر رغبته في تحصيل العلوم بل زاده رغبة في تحصيلها، وبعد ذلك حضر مرة ثانية وطلب الطلب الأول فحاز القبول، ولم يكن له في ذلك الوقت معرفة بالعلوم الأدبية ولكن تحصل منها بعالى همته على درجة عظمى وقبل تلميذا داخليا، وحينما كان بالاسبتيالية أدخل بمصلحتها بعض التحسينات الإدارية وتقدم في العلوم تقدما ما أنبأ عن علو همته، ومع ذلك فكان في العيش لايجد للرفاهية سبيلا ففى ذات يوم شديد البرد قابله أحد أصدقائه فوجده لابسا بنطلونا من القطن ويرتعد من ألم البرد فقال له بنوع مزاح . كيف تقابل البرد الشديد بهذا الملابس الخفيف فأجابه بتأسف بأنه آله والجليد أضرب به فأعطاه جانبا من النقود كى يستعين بها على التخلص من هذه الآلام.

وفي أثناء هذه الأيام حصل امتحان في المستشفى حاز فيه الدكتور المذكور قصب السبق، وشهد الحاضرون بقوة مدرسته وعظمة استحضار ذاكرته حتى أن الحكماء الحاضرين قالوا له إنا نؤمل أن نراك دكتورا في زمن قريب فكان هذا القول داعيا لزيادة رغبته في تحصيل العلوم وقوة أمله في الوصول إلى هذه الدرجة بعد أن كانت آماله متعلقة بما هو منخط عنها وعين حكيما صحيا في سنة ١٨١٧ بعد أن تحصل في المستشفى على علوم لم تتحصل عليها أقرانه، ولم يزل منكبا على الاشتغال بالعلوم ورافق أحد العلماء الروحانيين، وتعلم منه اللغة اللاتينية حتى تاهل للحصول على (شهادة العلوم الأدبية Diplome de bachelie 'es - lettre) ووقتئذ عين رئيسا

للأعمال التشريحية في المدرسة الثانوية ثم عين جراح باشى داخلى بالمستشفى. فازداد جده في مزاولة العلوم والاشتغال بها وحضر إلى مدرسة الطب الخصوصية (بمونبلييه Montpellier) سنة ١٨٣٠ مسيحية لأجل أن يمتحن امتحان الدكتورية وكان يكفى تلامذة مدرسة الطب في هذه الأوقات أن يكتبوا أسماءهم في دفتر الحضور إلى المدرسة المذكورة كل ثلاثة أشهر ولم يكونوا ملزمين بالإقامة في تلك البلدة بل كانوا يسافرون كل ثلاثة أشهر إلى أماكنهم أو حيث شاءوا على سبيل الإجازة والاستراحة متكبدين في هذا السفر بعض المشقات وقد أعطيت رخصة (لكلوت بك Clot Bey) مقدارها ثلاثة أيام ولكن لم يعط له ما يعينه على ذلك فقطع راجلا مسافة ستين فرسخا حتى أجهد المشى فجلس على جانبى الطريق ليستريح فمرت عليه عربة يجرها جوادان من الخيل فهم باغتنام ركوب هذه العربة زاعما أن لا أحد بها فلم يشعر إلا وضربه قائدها بالسوط ضربة قوية جعلته طريحا على الأرض وعندما كان يقص هذا الفاضل هذه القصة المتقدمة كان يعد نفسه بكونه يمنع القائد من هذه الأعمال الوحشية متى نال مطالبه وساعده القدر وأصبح ذا بطش وثروة ولديه عربة - وقد عمل بهذا الوعد - ولما انتصب للامتحان بادر بعض مختبريه باكتثار الاعتراضات عليه نظرا لما قاله في مسألة النخاع الشوكى المسطرة ضمن أفكار (بروسيه Braussais) التى وضعها حديثا لأن أفكاره في تلك المسألة كانت مباينة لأفكار أحد مختبريه الذى هو من علماء المدرسة المذكورة ولكن كان بين هؤلاء المختبرين رجل له القدم الثابت في هذه العلوم ويدعى بالدكتور (للمنض Lallemand) له دراية تامة بعلم (الفسيولوجيا physiologie) أى علم وظائف أعضاء الإنسان في حالة الصحة فمال إلى تعضيده في دعواه وتأكدت بينهما المحبة من ذلك الوقت.

ولما رجع (كلوت بك Clot Bey) الى مرسليليا عين حكيما ثانيا بمستشفى (شاريتيه charit'e) الصدقة، وحكيما للجراحة بمستشفى الأيتام.

وأصبح من ذلك الوقت ذا شرف عال وشهرة عظيمة، ومعلوم أن الحسد يتبع الشرف تبع الظل للشمس كما قاله (بلوتارك plutarque) فنشأ من هذا ومن حسن سيرته ومحبة الكثير له إثارة حنق بعض الاشخاص عليه فتحير بين الصمت والكلام، ولكن التزم الأول لعلمه بضرر الثانى، وكان بين هؤلاء الأشخاص الفقراء القليل العدد رجل طويل الباع في الخديعة والاحتيال

فظفروا بواسطة النميمة التي هي سلاح السفلة والمارقين عن حوزة الشرف بعزلة من إدارة هذين المستشفين، ولم يعتره لذلك غضب وحنق حتى يحاول الانتقام منهم. بل عوضا عن ذلك بذل جهده في اتخاذ الوسائل المؤدية إلى الاحترام ونيل الشرف والرفعة. فدون في مدة عشرين يوما مسأله المتعلقة باستعمال آلات الولادة في الأحوال الخطرة حتى صار دكتورا في فن الجراحة ومن هذه الحادثة يتضح أن مثل السيئة في الهيئة الاجتماعية كمثل النبات الرديء الذي يوجد مع النبات الحسن. فإنه وإن كان يعوقه عن وصوله إلى الدرجة الحسنة لا يؤثر فيه إذا كان مثمرا فالنجاح في الخير كان ذريعة لارتداع من لهم في الشر رغبة، وبعد مدة قليلة رأى أن، شهرته نمت بين العام والخاص وانعكس ما كان يحاوله الحساد من إخفاء صيته وشهرته.

وفي سنة ١٨٢٥ تيسر لهذا الدكتور بسعد طالعه التوجه إلى الديار المصرية التي أخذت وقتئذ تخرج من حضيض البربرية والتوحش إلى أوج التمدن والانتظام بهمة صاحب المعارف العالية والمدارك السامية رجل السياسة الوحيدة، واسطة عقد العمران وزيادة الثروة والتمدن صاحب السيادة على تلك الأقطار المرحوم محمد على باشا. الذي سعى في أن يجلب إليها التمدن والمعارف والصنائع الأوروبية فإنه لما رأى عظم ثمرة الإرسالية الفرنسية في هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا ورأى أن من المصلحة المهمة المحافظة على صحة جيشه. فأرسل من قبله إلى البلاد الفرنسية أحد التجار الفرنسيين المدعو (تورنو Tourneau) لأجل أن يأتي بحكماء للجيش المذكور فقابل هذا الرجل الدكتور كلوت بك وعرض عليه التوجه إلى تلك الأقطار بوظيفة جراح باشى فلبى هذا الطلب بصدر منشراح رغما عن حسن تعيشه بمرسلييا واشتهاره الزائد لعلمه بأن هذه الوظيفة تخلد له المآثر الجليلة وتجعل له تاريخا حسنا نظرا لما يقوم به من جليل المنافع الصحية وغرس نبات العلوم في أرض مصر غير مراعاة مصلحته الذاتية كغيره من أغنياء باريس وكتب معه شروطا تقضى بحريته في العمل وأن يتبع ديانتة المسيحية وعدم إجباره على السير مع الجيش خلاف ما كانت عليه قوانين اليان أيام حدوث الحرب بينهم وبين الدولة العليا، ولنشرح الآن ما كان بعد ذلك من أعمال هذا الرجل في المطلب الثاني على وجه الاختصار المفيد فنقول:

المطلب الثانى

قبل الشروع فى سيرة كلوت بك نقول : إن المرحوم محمد على باشا ماتقلد إدارة مصر إلا بقوة سيفه واتساع مداركه، وما كان يمكنه تثبيت سلطته عليها إلا بتلك القوة ومساعدة جيشه الجرار وقلعته الحصينة وعدد رجال هذا الجيش لم يكن أقل من مائتى ألف مرتبين بضباط أوروباوية وكان الجيش البحرى يزيد عدده عن عشرين ألف شخص ومع ذلك فلم يكن لكل من هذين الجيشين انتظام زائد، بل إن الأمة المصرية بتمامها كانت محرومة من فوائد العلوم الطبية والوسائل الصحية.

فلما شاهد هذا الأمر كلوت بك شرع فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى التخلص من هذه الحالة السيئة، ولكن لما تحقق أن نجاحه فى مأربه منوط بمساعدة المقربين إلى الوالى المرحوم محمد على باشا أشار عليهم بتشكيل ديوان للصحة لعظم فائدته، فنجح جناب هذا الدكتور فى ذلك كما نجح فى غيره من الأعمال، واتخذ فى هذا المشروع الترتيبات الفرنساوية نموذجاً وأحدث أشياء ضرورية مثل الحكمة وممارسة الفنون الجراحية على الطراز الذى كان اخترع حديثاً فى فرنسا وأنشئت فى هذه الاوقات المستشفيات العسكرية لضرورة الاحتياج فى إتمام النظام العسكرى إليها، ووضعت أيضاً مصلحة الصحة البحرية وكان لجناب هذا البيك الاعتبار الزائد والاحترام الفائق بقطع النظر عن هذه الأعمال الجليلة، ولم تكن أهالى مصر وقتئذ متأهلة للقيام بما يلزم لهذه التنظيمات، ولذلك بعد أن عين لكل واحد من أنواع المستخدمين مثل التمورجية وغيرهم الأعمال التى يزاولونها شرع فى تعليم كل واحد منهم أشغال وظيفته ونظم الصحتين الشخصية والإدارية، وكان يعامل المستخدمين بهمة عليا مع زيادة نشاطه وحسن قيامه بما يعهد إليه من الأعمال، وسعى فى إزالة الامتياز الذى كان بين ضباط الجيش وحكمائه وطلب احترام العمال الذين بصحبته نظراً لكونه كان لا يستخدم إلا أرباب الصدق، وأشهر المستشفيات العسكرية التى أنشئت حسب ما طلب البيك المذكور مستشفى أبى زعبل (وهى بلدة صغيرة على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة) بقرب ميدان الخانكة. لأن جانباً عظيماً من العساكر يبلغ عدده نحو

مائة ألف تقريباً كان بالجهة المذكورة، وقد اشتغل هذا الرجل العظيم بترتيب المستخدمين ووضع الاسبتالية والأدوات والبناء المحكم واعتنى اعتناء زائداً بإنشاء بستان للنبات في الساحة الداخلية، وسعى في إيجاد المدرسة الطبية التي أسسها سنة ١٢٤٢ هجرية والممارسة في المستشفى المصري.

وفي الحقيقة أن ذلك مما تقضى المصلحة بوجوبه لأجل اجتناء أبناء الأوطان ثمرات العلوم الطبية ففاز بنجاحه في هذا الأمر وأنشئت المدرسة المذكورة غير أنه من سوء الحظ لم ينجم عن ذلك إلا فائدة قليلة رغماً عن ضرورة وجود أطباء مصريين للجيش وسائر جهات القطر حتى لا يحتاج إلى الاستمداد من أوروبا المستلزم للخضوع الأدبي لها الذي هو أمر صعب الاحتمال وقد بذلت نقود جمة لأجل الوصول إلى تلك الفائدة القليلة ولم يكتف كلوت بك بترتيب الجيش على غاية النظام بل عمد إلى بث هذه الفنون الطبية في عقول أبناء الأمة المصرية لما رأى فيهم من الاستعداد الذي يوجب لهم التضلع من المعارف وتحسين مستقبل البلاد كيف لا وهم سلالة قدماء المصريين الذين آمدنوا أهل الكرة في الأزمنة السالفة وبثوا العلوم في الأمة اليونانية وحازوا تالذ المجد وعظيم الثروة في مدة الخلفاء العظماء ولما رأى الحساد نجاح أعماله شرعوا في تحويل الوالى عن هذا المقصد مدعين عدم الوصول إليه لعدم وجود معلمين ماهرين. غير أن المرحوم محمد على باشا لم يوجه لهذه الأقوال أذناً واعية لعلمه بمنشئها وانتصر كلوت بك على هؤلاء الأعداء بما ظهر من تقدم التلامذة في الامتحان العمومى الذى جعله في آخر كل سنة مكتبية، وبذل فيه المصاريف من ماله الخاص وكان يحضر ذلك الوالى المعظم ووزراؤه الفخام وقناصل الدول واستعان بثاقب فكرته على إزالة صعوبة التعليم بإيجاد مترجمين يتلقون الدروس مع التلامذة ويترجمونها لهم من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية وقرر الامتحان للتلامذة في آخر كل شهر، وترجمت وقتئذ الكتب المشهورة في الحكمة والطبيعة والجراحة وغير ذلك بمجلس مؤلف من العلماء المشهورين وأنشئ تعلم علم الفنون والصنائع وترجم قاموس (نيستن Nysten) الطبى ولما كانت فائدة علم الحكمة والطب متعلقة بزيادة تعلق بعلم التشريح الذى كانت تعوق عن نشره في هذا القطر العوائق بذل جهده في التحصل على الإذن بالتشريح حتى

تحصل على إذنٍ قاضٍ بإباحة ذلك في حالة السر - على شرط أن يزاوله بغاية التفطن للاحتياج إليه وشرعوا في التعود على تشريح الأجسام البشرية وأخذ نفور التلامذة من هذا الأمر ينقص شيئاً فشيئاً لتعقلهم ضرورته تدريجياً، ولم تحصل في مدة مزاولة دروس علم التشريح حادثة تكرر الخاطر سوى أن أحد التلامذة أتى إلى الدكتور كلوت بك في وقت الدرس وقدم له عريضة فبينما هو يتأمل في معانيها وإذا بالتلميذ طعنه بخنجر في جمجمته فلم يصبه فضربه ثانية بجوار قلبه ولإشراق طالع هذا الدكتور لم تصبه أيضاً هذه الضربة لكونه ثنى ذراعه وعند ذلك أسرع التلامذة مبادرين إلى إيقاف هذا الخائن وحالوا بينه وبين ما يريده ومع ما للدكتور كلوت بك من حسن الدراية والاجتهاد في نشر العلوم لم يتمكن من إنشاء مدرسة طبية تشابه مدارس أوروبا لنفرة الأهالي من انتظام أولادهم في سلكها. لولا أن قهرروا على ذلك والتزمت الحكومة بمصاريف من ينتظمون فيها وجلب المهمات اللازمة لهم وإيجاد ما يحتاج إليه التعليم العلمي من نحو الأماكن مثل (انفثياترو amphitheatre) محل معد لتدريس التشريح وقاعات الطبيعة والتاريخ الطبيعي والمعامل الكيماوية وغير ذلك من الأشياء ذوات الفائدة.

وفي سنة ١٨٣٢ ذهب هذا الدكتور إلى باريس وبصحبه اثنا عشر تلميذا مصريون منتخبون من متقدمي تلامذة المدرسة.

وعند وصولهم إلى المدينة المذكورة طلب اختبارهم في الجمعية العلمية الطبية وبحضور عظماء العلماء الأوروباءوين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلامذة وعلو همة أستاذهم في التعليم ، وكانت إجاباتهم عن الأسئلة التي وجهت إليهم باللغة الفرنسية لأنهم كانوا يتعلمونها في المدرسة المصرية وقد أثبتت هذه الجمعية أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى درجة تلامذة البلاد الفرنسية.

وهامو محضر الامتحان الذي صار إجراؤه في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية لاثني عشر تلميذا المتخرجين من مدرسة أبي زعبل بالمجلس العلمي الطبي الملوكانى بباريس.

لما قدم كلوت بك إلى باريس وصحبته التلامذة المصريون الاثنا عشر الذين صدر أمر حضرة وإلى مصر محمد على باشا بتوجيههم إلى فرنسا بحث في

نصيبهم على الوجه الأسنى والطريقة الحسنى بجادة الدراسة إلا أنه لما كانت رغبة الباشا المشار إليه امتحان هؤلاء التلامذة في أول الأمر حتى تظهر ثمرات العلوم الطبية التى تحصلوا عليها بمصر، وتبين حقيقة درجة المدرسة التى نشأوا فيها تداول صاحب السعادة (كلوت بك Clot Bey) مع المسيو (جومار Jomard) أحد أعضاء جمعية المعارف ومع المسيو (برشيت Breshet) رئيس المجلس العلمى الملوكانى والمسيو (باريزيت Pariset) السكرتير المستديم لهذا المجلس، وشرح لهم رغبة ومقاصد صاحب مصر محمد على باشا، فكانت نتيجة ما قرروه تشكيل لجنة مركبة من حضرات المسيو (ديجينت Desgenetes) والمسيو (لارى Larrey) والمسيو (ديبويتن Duputrea) والمسيو (برشت Breshet) والمسيو (أورفيل Orfila) والمسيو (روستان Rostan) والمسيو (بيجان B'egin) والمسيو (روش Roche) والمسيو (كلوكيه J. Cloquet) والمسيو (ماجندى Magendie) والمسيو (سنسون Sanson) والمسيو (باريزيت Pariset) للامتحان فى العلوم الطبية ومن حضرة المسيو (جوبير Jaubert) والمسيو (جومار Jomard) للامتحان فى اللغات الشرقية وقد تقرر إرسال خطابات إلى هؤلاء الأعضاء متضمنة سؤالهم قبول هذا الطلب، وتحدد يوم الامتحان فى الساعة الواحدة من يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية بقاعة جلسات الجمعية العلمية الطبية الملوكانية وفى اليوم والساعة والمكان المعينة اجتمع حضرات أعضاء اللجنة ومعهم حضرة كلوت بك وبصحبته الاثنا عشر تلميذا وكان قيد ذاع وشاع خبر هذا الامتحان وتكلمت به السنة الجرائد بكل مكان فكنت ترى الناس يتقاطرون من كل فج لحضور هذا الاحتفال الجليل. وقد وفد إليه كثير من أعيان أطباء عاصمة فرنسا وجم غفير من رجال الجمعية العلمية وأمرأه وأكابر باريس وفى مقدمته حضرة البارون (ديبوا Le baron du bois) والدكتور (مارك Marck) الطبيب الخصوصى لجلالة الملك، وقد حصرت الأسئلة التى امتحنت فيها التلامذة فى المواد الآتية:

أولا : الكلام على المخ والأذن الباطنة والعين وخصوصا على البلورية والкатراكطة والعملية اللازمة لها.

ثانيا : الكلام على الملتهمة وأمراضها.

ثالثا: الكلام على القناة الأوربية وعلى تكوين الفتق الأوربى والعملية اللازمة له.

رابعا: الكلام على العجان وعنق المثانة وشرح أسباب وأعراض إلحاصة وعمليتها على طريقة المسيو كلوت بك.

خامسا: شرح المفاصل الكتفية العضدية وخلع العضد ورده .

سادسا : الكلام على الجروح الناشئة عن الأسلحة النارية التى تستدعى عملية البتر وشرح هذه العملية.

سابعا: الكلام على تشريح الكبد وشرح تاريخ الالتهاب الكبدى.

وبعد أن تقررت الأسئلة انتخب المسيو (أورفيل Orfila) لرئاسة اللجنة وصحبه حضرة البارون (ديبوترن Dupuytren) والمسيو (باريزيت Pariset) كاتباً لها هنالك قام حضرة الدكتور كلوت بك بشرح أفكاره وإلى مصر بخصوص هذا الامتحان، وأبان أنها مطابقة لأفكاره هو أيضا ثم قدم للهيئة قائمة بها الأسماء الآتية:

- ١- أحمد الرشيدى
- ٢- حسن الرشيدى
- ٣- محمد منصور
- ٤- إبراهيم النبراوى
- ٥- حسين الهياوى
- ٦- عيسوى النحراوى
- ٧- مصطفى السبكى
- ٨- محمد الشباسى
- ٩- محمد السكرى
- ١٠- محمد الشافعى
- ١١- أحمد بخيت
- ١٢- محمد على البقل

وأول من دعى إلى الامتحان من هؤلاء التلامذة الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لإنقاذ المريض منها فأجاب وأجاد وسلب قلوب الحاضرين ببراعة أجوبته. فإنها كانت في غاية السداد وصفق له الحاضرون استحسانا وكان كل يثنى عليه قلبا ولسانا.

ثم دعى حسين الهياوى فسئل في شرح العجان وعنق المثانة وعن الأعراض التى تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التى كان يستعملها المسيو كلوت بك ولله دره فإنه سحر الألباب بقوة جوابه وشرح صدور الحاضرين بحسن إعرابه، ثم قام النبراوى فسئل في تركيب المفاصل الكتفية العضدية وفي خلع الذراع وكيفية رده فأجاب بما أظهر قوته وأبان للناظرين ذكاه وفطنته.

فلما شوه من إجابة التلامذة مايدل على نجابتهم أراد حضرة البارون (ديبوترن) أن يتخذ أسلوبا غير الذى كانوا يتبعونه في هذه الأسئلة. ودعا بالشيخ منصور مرة أخرى وسأله عما إذا كان من اللازم إجراء الشد المقابل أو التثبيت في حالة زد خلع العضد أثناء حصول الشد الذى يستدعى مجهودات غير متساوية ومتنوعة وسأله أيضا عما إذا لم يكن من الضروري تثبيت الشد المقابل وجعله غير متغير فأجاب الشيخ منصور بالإيجاب وشرح أسباب ذلك بالشرح الكافي وأيد أقواله بالدليل الوافى.

ثم دعا بحسين الهياوى وسأله عن وظيفة البلورية في الإبصار وعن الطريقة التى يستغنى بها عن هذا العضو بعد عملية الكتراكتة فأجاب ببديهة حاضرة وقريحة نيرة.

ثم سأل إبراهيم النبراوى عما إذا كان يلزم في عملية الحصاة أن يكون الشق مناسبا لحجمها وعما يلزم إذا كان جرم الحصاة عظيما جداً.

فأجاب هذا التلميذ بقوله أن القشاطر = القسطرة = تدل على وجود الحصاة وتبين مقدار حجمها فإذا كانت الحصاة عظيمة لزم أن يكون الشق متسعا وإلا فإذا كانت كبيرة جداً وخارقة للعادة في جسامتها لزم استعمال عملية الحصاة فوق العانة.

وعند ذلك سأل الباريون المشار إليه عن مقدار المدة التي أقامها في الدراسة وعما إذا كانت الحصاة من الأمراض العمومية بمصر، وسأله أيضا عما شاهد من أنواعها وعن الأسباب التي توجب حصولها.

فأجابه بقوله: إن لي خمس سنين في الدراسة وأثناء ذلك شاهدت كثيرا من الحصوات التي تكاد أن تكون مرضا عاما بمصر وينسبون لها إلى تكوين مواد رملية تدخل مع الأغذية والمشروبات وتمر بالكيلوس ثم تمتزج بالدم وتدور معه في العروق ثم تدخل في المثانة وهناك تكون نواة تكون أصلا للحصاة ثم قال: وعلى كل لا نعتبر هذا الرأي حيث إننا الآن لا نعلم حقيقة أصل هذا الداء.

ثم قام كثير من هؤلاء التلامذة وتكلموا على هذه المسألة بما يدل على أنه يوجد بمصر أناس يزاولون فيها عملية الحصاة الصغيرة بواسطة توسيع قناة مجرى البول واستخراجها بطريقة المص (الجب) وإن ذاك تم الامتحان وكانت تلوح على جميع الحاضرين أمارات الفرح وعلامات الابتهاج حتى أنهم صفقوا أكثر من مرة دلالة على سرورهم وانشرح صدورهم وقد اختتم هذا المحفل العظيم حضرة الباريون الموما إليه بخطابة بليغة وهاك تعريبها.

أيها التلامذة بنو مدرسة أبي زعبل

إننا نعد أنفسنا سعداء حيث دعينا إلى مشاهدة ما اكتسبتموه بهذه المدرسة من المعارف وما نلتتموه من النجاح في ظلها الوارف. وناهيك بها مدرسة فإنها حفظت بمصر آثار أزهار القواعد الطبية بعد ما أصابها الذبول وأعادت ذكر اسمها بعد أن اعتراه الخمول، ولا غرو فإن ما غرس فيها من أصول اللطائف الطبية عادت على مصر ثمرته ورجعت إليها فائدته. كيف لا وقد ألفت العناية الإلهية بمصر بين يدي حضرة المليك الأعظم والداوري الأفخم أفندينا محمد على باشا الذي أخذ بزمامها وبحث في مهامها فأقام ما اندرس من فخار بنيتها ونشر ما طوى من رفاهية أهلها، وشيد بها ما قوضته أيدي الزمان من معالم الحضارة وال عمران وأنشأ بها مدرسة الطب الذي هو قطب دائرة حياة الحيوان، وقد انتخب لهذا المشروع الجليل والمقصد الجميل النبيل حضرة العلامة الأوحد والفهامة الشهير المفرد صاحب المزايا الجليلة ليعيد بهجة الطب كما كانت في الأيام التي ازدهت فيها مدرسة الاسكندرية الشهيرة. ألا وهو جناب المسيو كلوت بك الذي يرجع إليه ما نلتتموه من النجاح، وينسب

له فخار ما رفع لكم من أعلام الفلاح، فلحضرتنا الشكر الجميل والثناء الجزى. هذا ونحن نشكركم معاشر الشبان المصريين فإننا رأينا من تقدمكم ما يدل على زيادة فضلكم فإنكم أصبتم الصواب ونطقتم بفصل الخطاب. مع انكم استعملتم لغة غير لغتكم بما دل على أن ماتعلمتموه هو على أساس متين ونبا قوى حصين وأيضا فإن إجابتكم اليوم جعلت لنا أملا وطيدا في انكم ستنهجون إن شاء الله منهج أجدادكم من أعظم الحكماء وكبار الأطباء كابن سينا والرازى وأبى القاسم وإنكم ستسيرون بحوله تعالى على أثرهم حتى يقال نعم السلف ويأحبذا الخلف وأظن أنه غير خاف عنكم أن هذا الطريق هو لكم محجة تقدم وكمال وتعظيم وإجلال، وبه تسمو صناعتكم إلى منتهى الشرف ويرتفع وطنكم إلى ذروة الترف وكأنى بكم وعمما قريب تدعون إلى تشخيص ومعالجة الأدواء التى كأنها تعترض مصر حقداء لها على ثروة أهلها وخصوبة أرضها، ولكن لا تقصر همتمكم على ذلك فقط بل يلزم أن يكون جدكم واجتهادكم فى توسيع نطاق العلوم التى تنتظر ذلك من مواظبتكم على العمل ومثابرتكم على هذه الصناعة ونطلب منكم البحث بهمة شديدة عن أسباب وطبيعة ومعالجة الأمراض الخاصة بدياركم وأهل وطنكم فأجيبوا سؤالها ولا تضيعوا فيكم آمالها.

إن هذه الجمعية العلمية التى انشرح خاطرها لقدمكم متشوقة لرؤية نتائج هذه الملاحظات التى أوردتها الآن على جيد فطنتكم ونير ذاكرتكم والله يهديكم سواء السبيل.

وكان كلوت بك يبادر إلى فعل ما تستلزمه المصلحة من التنظيم والإصلاح كلما سنحت له الفرص، ووقتئذ زاد الأمل فى اقتراب وجود معلمين وطنيين ذوى أفكار ثاقبة، وقد وصلت هذه الإصلاحات إلى الدرجة العليا ثم أمر بنقل المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة سنة ١٢٥٣ هجرية ثم افتتحت مدرسة للقبالات كى يتعلمن فن الولادة لزيادة أهميته، وقال المعلم (للمنض Lallemend) إن عادات المصريين كغيرهم من الأمم الشرقية لا تسمح بتولى الرجال ولادة النساء، ومن ثم كان يرى الحكماء فى الكشف عليهم موانع شديدة وحرمن وقتئذ من فوائد هذا الفن الجليل فشرع الدكتور كلوت بك بإنشاء مدرسة بالمحروسة لتعلم فن الولادة بعد أن لاقى صعوبات ظفر بهذا

الأمر واتضح جليل فائدته، ثم أضيف إلى المدرسة مستشفى للنساء ومدرسة للقبالات، وكانت التلميذات وقتئذ تعدن = تَزُرْنَ = المرضى في نفس الأوقات التي يتلقى فيها الدروس وأصبحت النساء اللاتي تعلمن هذا الفن تعالجن النساء الأخريات، ولاريب في أن هذا الأمر عظيم الفوائد يخلد للدكتور كلوت بك جميل الذكر وكان تعلم القبالات لا يسمح لهن بممارسة الحكمة زيادة عن وظيفتهن ولما وصلت المدرسة إلى درجة عليا واستعدت تلميذاتها لمباشرة هذا الأمر شرع الدكتور كلوت بك فيما يلزم المصلحة الإدارية من الترتيب والتنظيم فأتى بالقوانين الفرنسية وعمل منها بمقتضى ما رآه موافقا للحكومة المحلية وأسست أماكن للاستشارة الطبية بالمحروسة والإسكندرية وأنشئت مستشفيات عظيمة جداً وجعل لكل قسم أجزاجية وأطباء وبنيت أيضاً مستشفيات صغيرة في جميع البلاد المشهورة من القطر المصري كل واحد منها يشتمل على خمسة وعشرين سريراً، واستعمل التطعيم الجدرى (الدق) في القطر المصري للأطفال والغلمان وتكلف حلاقو القطر المصري بمباشرة في البلاد وبهذه الوساطة انقطع الوباء من الجيش والقرى وأخذت الحالة الصحية تتقدم يوماً فيوماً وقل عدد الموتى فإنه كان يموت قبل ذلك كل سنة ستون ألفاً من الأطفال بمرض الجدرى، وغير حالة الإدارة ومراعاة وسائل الصحة تغييراً عظيماً في زمن قليل حتى تضاعف عدد سكان مصر في مدة خمسة وعشرين عاماً ولا ريب في أن هذا العمل يبيض صفحات التاريخ ويبقى غرة في جبين الدهر وقد ساعده وساعد الأقطار المصرية أيضاً في أيام الوباء العلاقات والارتباطات الودية التي كانت بينه وبين باريس.

ولنتكلم الآن على حالة المسيو (جومار Jomard) الذي جبل على حب الديار المصرية وبث العلوم والمعارف في أنحائها فنقول: إن جنابه حضر إلى هذه القطر أيام أن احتلته الجيوش الفرنسية بصفة كونه عضواً من جمعية علماء باريس، وكان هذا الرجل شبيهاً بالدكتور كلوت بك من حيث الشغف ببث العلوم والحب في اتساع دائرة المعارف وفي سنة ١٨٢٦ استرضى المسيو (جومار Jomard) المذكور الوالى بمساعدة المسيو (دروفيتي Drovetti) قنصل عموم فرنسا هنا فأرسل نجباء من فتيان المصريين إلى باريس كي يتضلّعوا من العلوم والمعارف وينشروها في قطرهم . فقورن سعيه بالنجاح

وأرسلت مائة شخص من الشبان ووكلت ملاحظتهم له، وهذا هو مبدأ تأسيس الإرسالية المصرية في البلاد الفرنسية ولم يزل ناظرا على هذه الإرسالية حتى مات في سنة ١٨٦٢ مسيحية وخرج من تحت إدارته أبطال نجباء في العلوم والمعارف كسعادة على باشا مبارك وزير المعارف الحالي والمرحوم شريف باشا الذي كان وزيرا للخديوى السابق إسماعيل باشا والمرحوم مظهر باشا والمرحوم الدكتور محمد على بك ناظر المدرسة الطبية سابقا والمرحوم شافعى بك ولاينسى فضل المرحوم رفاة بك الذى أسس مدرسة الألسن والمرحوم السيد أحمد أفندى الرشيدى والمرحوم السيد حسين أفندى الهيهوى الذى كان ذا قوة حافظة عجيبة حتى أنه في مدة دراسته بباريس كان يحفظ الدرس من أول مرة والتلامذة الفرنسيون تصحح وتكمل مانقص منهم عليه، وكان يخبرهم حرقيا بما قيل ولذلك اشتهر صيته في الديار المصرية وبالأخص في المدرسة الطبية البحرية بإسكندرية فاستحصل على أمر من جنة مكان المرحوم محمد على باشا بأن لا يدخل أحد من الأوروبيين الخدمة إلا بعد بحثه بنفسه مع جمعية من رجال المعارف العظماء وبذلك ظهرت ثمرة أعمال ساكن الجنان محمد على باشا ظهور الشمس في رابعة النهار ولنصرف عنان القلم إلى ذكر بعض ماكان من الدكتور كلوت بك في الديار المصرية زيادة على ما سبق فنقول:

قد طرأت في سنة ١٨٣٠ على مصر (الكوليرة chol'era) فكان يموت بها من المحروسة فقط ٢٠٠٠ كل يوم، وإذ ذاك أبدى الدكتور المذكور من جليل الأعمال مايدل على إخلاصه وحسن اعتناؤه. فإنه كان سببا للإنقاذ من مخالب هذا الوباء الشديد الوطأة فكان يمضى الليل والنهار في معالجة المرضى واتخاذ الوسائل الواقية ووزع تلامذته في أنحاء البلدة بعد أن مرّهم على العمل وشجعهم عليه بواسطة إقدامه على المضى وعدم خشية العدوى إلى أن تقشعت سحائب هذا الداء وخلت منه البلدة فسر ساكن الجنان محمد على باشا من حسن أعماله وشدة إخلاصه وأنعم عليه برتبة بك التى لم يعطاها قبله لمثله، وأنعمت عليه الحكومة الفرنسية في هذا الزمن برتبة (ليجيون دنور L'egion d'honneur) ولا توجه إلى باريس بعد الاحتلال الفرنسي أخذ معه الاثنى عشر تلميذا سابقى الذكر من مدرسة أبى زعل

انتظموا في أعضاء الجمعية العلمية في ١٣ خلت من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية، وفي سنة ١٨٣٥ انتشر الطاعون (لبست La peste) بمصر القاهرة ففر بعض الأطباء وبعضهم ضرب على نفسه الحجر الصحي (كرنتينة Quarantaine) ماعدا الدكتور كلوت بك وثلاثة من أقرانه وقد كتب في ذلك الوقت إلى قنصل فرنسا المسيو (ميموت M. Mimaut) وقت أن كان بالإسكندرية يقول له: نحن أربعة رجال لانفتر عن مزاولة العمل ونرجوا أن يعيش منا واحد لأجل أن يبين بعض الملاحظات وكان عموم الناس يعتقدون عدوى هذا الوباء ولكن الدكتور كلوت بك أظهر خطأ هذا الاعتقاد الذي ربما يترتب عليه الضرر باقترابه من المرضى حال المعالجة، وقد طعم نفسه - أى لقح من دم الخراج (والمادة الفحمية La mati'ere du Charbon بحضور تلامذته الذين جعلهم حكماء لقله الأطباء وقتئذ والباعث على ذلك تشجيعهم على العلاج وإزالة الخوف من قلوبهم.

وكان يصوب سهام اللوم والتنديد من يعتقد العدوى. ففي ذات يوم كان يعالج مريضا نصرانيا قابضا على يده، وإذا بقسيس تليانى = إيطالى = أتى ليطعمه القربان الأخير فوجد هذا القسيس مغطى من رأسه إلى قدميه بقماش مشمع ماعدا عينيه اللتين كان موجودا أمامهما ثقبان فوضع عليهما نظارة من زجاج ولما اقترب من المريض ارتجفت أعضاؤه رغما عن شدة تحفظه فلما الدكتور كلوت بك على هذه الحالة فقال كل أمرىء ورأيه.

ومكث على هذه الحالة باذلا جهده في معالجة المرضى ستة أشهر. فأرسل إليه ساكن الجنان محمد على باشا الكبير هذا الكلام (لقد كسوت نفسك أيها العاقل ملابس الفخر بهذا العمل الجليل ولذلك جعلتك جنرالاً G'en'erale) ولما علمت الدولة الفرنسية بما له من الفوائد أنعمت عليه برتبة (أوفيسييه دى لاليجون دنور Officier de La l'egion d'honneur) وأرسلت له جميع الدول التى إهتم بعلاج رجالها نياشين وفي سنة ١٨٤٠ سافر كلوت بك إلى فرنسا وأظهر هناك الكتابين اللذين ألفهما أولهما يشتمل على التأسيسات والترتيبات التى أسسها في مصر، وثانيهما متعلق بالحوادث الوبائية، وكان هذا الكتاب مقدمة للإصلاحات التى اتخذت في الحجر الصحي بعد نشره وفي هذه المدة تزوج ببنت أحد معتبرى تجار

مرسيليا. وفضلا عن تأدية وظيفته المنوط بها كان يعالج أعضاء العائلة الخديوية وعظماء رجال الحكومة السنوية فكان مشهورا بالاخلاص في المعالجة لا يبتغى عليها جعلا، ومن ثم كانت الأغنياء والفقراء على حد سواء في الورد عليه لأجل المداواة، وقد أرسل في مأمورية بمعية المرحوم إبراهيم باشا في مدة حرب الشام وكانت تتوارد إليه المرضى من أقطار تلك البلاد وشاهد وقتئذ دمشق وديار بكر ثم انتقل إلى بيروت وصيدا وعكا وحيفا وجبل الكرمل ثم ذهب إلى الناصرة التي كان الطاعون فيها وزار نابلس واسبالية الجرحى الذين فيها ثم توجه إلى بيت المقدس وغزة ولم يخل في هذه التنقلات من مداواة المرضى وكان هذا الدكتور شديد الإخلاص إلى المرحوم محمد على باشا وعالجه في المدة الأخيرة حين استيلاء المرض عليه علاجا ينهى عن حسن الصدق في الخدمة ولازمه مدة مرضه وفي سنة ١٨٤٩ مسيحية توفي المرحوم إبراهيم باشا قبل أبيه ببضعة شهور وكانت آماله متعلقة بتميم ماشرع فيه والده من جليل الأعمال المفيدة فقام بأعباء الخديوية بعده المرحوم عباس باشا، اطلب منه الدكتور كلوت وقتئذ الرخصة بالتوجه إلى فرنسا فأعطاه إياها فتوجه إلى مرسيليا وأفكاره متعلقة بمصر متأسفا على ما أنشأه من التأسيسات الجميلة والترتيبات الجليلة ولما توفي المرحوم عباس باشا سنة ١٨٥٤ مسيحية وخلفه المرحوم سعيد باشا نجل المرحوم محمد على باشا عاد الدكتور كلوت بك ثانية إلى الديار المصرية لينظم إدارة الطب كما كانت أيام والده جنة مكان محمد على باشا فوصل إليها في ١٧ يناير سنة ١٨٥٦ وكان عمر كلوت بك في هذا الوقت ٦٣ سنة، وأخبر الوالي المرحوم بأن (كلوتشى بك Colucci Bey) و (فجرى بك Figuri Bey) و (بريجير بك Burguières Bey) و (شافعى بك Chafey Bey) و (محمد على بك Mohamed Aly Bey) هم الذين يصلحون للقيام بما يلزم لما أنشأه من الترتيبات، وصار كل منهم يتبادل رئاسة الطب والمدرسة الطبية ولما ارتقى الخديوى السابق اسماعيل باشا إلى سدة الخديوية قام بإجلال ذوى الفضل الذين نبغوا في العلوم الطبية.

ولما سافر الدكتور كلوت بك إلى باريس سنة ١٨٥١ وجد بها جمعية دولية صحية مشكلة لأجل تنظيم الحجر الصحى بالأمصار فنشر نبذة تتعلق

بهذا الموضوع ولح فيها للأعمال الضرورية فأنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة (كومندورد ولاليجون دنور (Commandeur de la L'egion d'honneur ثم سعى في أن يكون عضوا مراسلا في هذه الجمعية ولكنه لم يوجه إلى ذلك ركاب الطلب حينما بلغه أن المعلم (للمنض (Lallemand طلبه. لأنه كان معلمه وظهيرا له فضله على نفسه وأعرض عن طلب هذه الوظيفة.

وكان الدكتور كلوت بك لين العريكة لمن تحت رئاسته فخورا بوطنه محافظا على وسائل احترامه معظما للديانة المسيحية. فكانت رجال فرنسا الذين بمصر له عضدا قويا وقد تشكر له رئيس الكاثوليك على ما أجاه من الهمة في جانب الديانة المسيحية وأنعم عليه (البابا جرجورا (Papa Gr'egoire السادس عشر بجملة نياشين ولقبه البابا التاسع عشر (بكونت رومين (Comte Romain) وهو ثابت لنجله اليوم وان لم يستعمله الدكتور كلوت بك وهذا اللقب عظيم الامتياز لدلالته على أن الملقب به لم يأخذ الرشوة البتة وتوجه في سنة ١٨٦٠ مسيحية إلى مرسيليا ومكث فيها معظما بين أقرانه مألوقا لكل من عرفه وبعد زمن اغتالت أيدي المنون زوجته فأسف عليها وتوالت عليه عقب ذلك الأمراض حتى أنهكت جسمه وهدت قواه وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ فارق الدنيا وهو يشير بسبابته ويلوك لسانه قائلا.. الشغل.. الإنسانية اللذين قصر عليهما حياته. فليعتبر الناظر من هذه السيرة ويتيقن من أن العمل الجليل يخلد لصاحبه الذكر الجميل.

(جواب من كلوت بك Clot Bey إلى الميوراني Ranzi بالقاهرة)

حضرة زميلي المحترم

طالما دعتنى رغباتى فى إنشاء العلوم الطبية بالديار المصرية أن أقف وأنا
إذ ذاك بمعزل عن الأعمال على كل ما يلم بالمصالح الصحية المختلفة التى
أحكمت نظامها وأدرت سياجها وكثيرا ما نادتنى آميالى الغريزية إلى رواج تلك
العلوم أن أراقب سيرها وألاحظ بوارق فلاحها وعوامل كسادها.

وبينما أنا مضطرب البال كثير اللبالب إذ اتصل فى بداية الأمر خبر مساعى
أمير تلك البلاد فى استدعائك وتصميمه على أن يعهد إليك برياسة المدرسة
الطبية لتمدها من وسيع علمك وترشدها بغزير فضلك قطرت لذلك فرحا
وانشراحا وابتهجت مسرة وارتياحا، وأيقنت بالقور المبين ووطنت نفسى على
أن المولى جل شأنه سيكلل آمالك بالنجاح الباهر ويجعلها غرة فى جبين هذا
العصر الزاهر ويلحقها بأعمالك السلف الجليلة وأن وطنيك = مواطنك =
الدكتور (راجى Raggi) ليكون معاوننا لك على نوال هذه الغاية التى تسعى
إليها وتداب فى الحصول عليها.

وقد علمت بعد ذلك بقليل أنك لبيت أنت والدكتور راجى ما عرض عليكما
وإنكما قد بلغتما مصر ولم يكن إذ ذاك قد تنوسى شىء من حسن نتائج
امتحان التلامذة الذين اختبرهم وشهد بطول باعهم الأستاذ (للمنض
Lallemand) الشهير. لأنه لم يمض كبير زمن بين انفصالى عن أعمالى
وبين التحاقك بوظيفتك. ومع ذلك فقد وفقك الله إلى أن تقدر تلك الأعمال حق
قدرها وتسبر غور ماتجشمتها من المتاعب وذلتها من المصاعب وتعلم مبلغ
الهمة التى بذلتها والعناية التى صرفتها للوصول إلى إيجاد هذا النظام الجديد
وتقريره على وجه سديد يعود على الطلبة بالخير الجزيل والفضل العميم.

وقد أخذت بحول الله فى العمل فحذوت فى سيرك البروجرام الذى قرر لك
لعلك تعثر على إصلاح وتهدى إلى فلاح فانتهجت أقوم المسالك وظفرت بأنجع
المناهج حتى إذا حانت ساعة الاحتفال بتحديد عهد هذا العمل الجليل ورفعت
أعلام البشارة بنوال الأمانى أشركتنى معك فى ذلك اليوم السعيد وقمت

فشمرت عن ساعد الجد وطفقت تذكر للناس حسن صنيعي وتعرفهم بمنزلتي ومكانتي وتستلفت إلى زميل لم تكن رآته عيناك قوما بذلت النفس والنفيس حيناً من الزمن في سعادة وطنهم وخدمة بلادهم فأوجبت عليهم شكرى ودعوتهم إلى رفع ذكرى.

وإن خلال الحميدة والمناقب الفريدة التى أبديتها في زمان كثر حاسده وفشى فاسده لخليقة بأن أهدى إليها سويداء قلبى وأجعلها فرضى ونفلى وأنى أسالك أن تقبل وافر امتنانى وعاطر ثنائى وتتيقن أنى لو قدمت إلى تلك البلاد وتشرفت بمقابلة الأمير كنت أول مطمح نظرى ومسرح فكرى لأصافحك يدا بيد وأبذل لك خالص الود.

وهذا جواب المسيو رانزى ردا على كتاب كلوت بك

كتبه إليه في تاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤

حضرة زميلي الأجل الأكرم

إليك جزيل شكرى ووافر امتنانى على ما قلدتني في كتابك من حلل مجدك إقبالك وماكاشفتني به من عظيم عنايتك وجليل رعايتك التى برهنت على أكيد مودتك وصادق محبتك وبعد: فإنى ما نبهت القوم يوم الاحتفال إليك وما عطرت الاندية بذكراك إلا قياما بما يفرضه على التاريخ الذى قيد اسمك توأما للمدرسة الطبية وعلماء على جميع المصالح الصحية وإظهارا لسمو مكانتك في القلوب وخطر شأنك في النفوس، ورغبة في تعريف التلاميذ الذين هم غرس يديك ونسيجك وحدك بما لك عليهم من الأيادى البيضاء والمنن الغراء كيما يقوموا ببعض الواجب فيوفوك حقك من الثناء الجليل والاعتراف بالجميل ولعمري لقد كان ذكر اسمك جزية لا أرى بدا من تأديتها إليك وليس من العدل جحودها والتغاضى عنها.

ولقد علمت مقدار الحمل الثقيل الذى أخذته عى عاتقى وألقيت مسئوليته على نفسى يوم قبضت على زمام تلك المدرسة التى استوفيت أنت علاجها وأوضحت منهاجها. فأعملت فكرتى وأجهدت طاقتى وبذلت ما فى وسعى وصرفت جل اهتمامى عسى ربك أن يهدينى إلى طريقة تمكننى من إعادة ذلك المجد الذى فقدته بعد بعدك عنها ورد السمعة التى استلبها الدهر منها وكن

على يقين أنى سأواصل الليل بالنهار لالتماس هذه الضالة، وحاشا لله أن أدنس شريف عملك أو أقصر فى المحافظة على تلك النعمة المقدسة التى غرستها فى هذه البلاد وأنرت مشكاتها للعباد.

على أنه إذا أراد الله سبحانه فغير الأحوال وبدل الأشكال وأعاد للمدرسة الطبية المصرية تاجها القديم وزينها بعقدها التنظيم فهناك يزداد الأمل وثوقا بالنجاح، وتبرق ثانية بوارق الفلاح وتعلمن أنه لو تم هذا الأمر ولو قبل مضى زمان عقد الاتفاق فلا يسعنى سوى أن أقابله بغاية الفرح والقبول فإنه يكون غاية المأمول ونهاية المستول لما يترتب على ذلك من إهداء الحقوق إلى ذويها وإعطاء القوس باريها ولاتحسبن أنى أصير إذ ذاك خلوا من الأعمال فإن لى مقاما محفوظا بمدينة (فلورانس Florence) لدى حضرة (الگراندوق Grand Due)

وإنى لمقيم على ولائك صادق فى إخائك متهاك فى محبتك، وليس هذا بالعجب العجاب فإن الأبرار من الناس قد عرفوا بخلوص النية وامتازوا بصفاء الطوية ومهما كان مآل هذا الحال فحسبى منه ما نالنى من الشرف وعمنى من الفرح بسبب هذا التعارف ومبادلة مانحن عليه من التألف على أنه وإن كان هذا الأمر قد ينشأ عنه انحلال فى عرى المودة وفتور فى روابط الاتحاد عند قوم لم تهذب نفوسهم، ولم تطهر من الدخل قلوبهم فإننا بفضل الله قد أصبحنا فى نعمة وحسن مأب.

زميلك المخلص فى مودتك

(رانزى)

خطاب للحضرة الخديوية السعيدية في إعادة فتح المدرسة

سیدی الأعظم

مما جبر خاطري وأعلا قدری وشرح في هذا القطر صدری أن سدتكم العلية لما جلست على تخت الحكومة المصری تفضلت على بإعادة افتتاح المدرسة الطبية التي كنت أسستها في الأيام الأولیة وسلكت فيها بالطرق المستحسنة مدة خمسة وعشرين سنة فأرى من واجب الشكر على تلك النعمة أن أظهر لأعتابكم ما أدیته من يوم فتحها من الخدمة مما رفته جداول الامتحان العام عما اكتسبه التلامذة في هذا العام.

هذا. وكم لأعتابكم من المقاصد الجليلة الحائزة لكل فضيلة المقرونة بالانعام والمنن العائدة على هذا الوطن كمساعدة التجارة وتلطيفها ورفع الأثقال عن الرعية وتخفيفها وتسهيل السكك الحديدية لتقريب كل بعيد وتسهيل طرق السفر في البر والبحر وتعديل الأحوال في فتح القنال وفعل ما يجب ذكره وتفرض على سائر الدول شكره. سيما وبحسن الالتفات بعين العناية والنظر إلى المصلحة الطبية بكل رعاية يجب أن تلقب أيها الملك الكريم بلقب الفتو، وأن تعد سنداً للإنسانية والمروءة.

خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا

أيها السادة الكرام

لا يخفاكم ما اعترانى من الهيام وأنا في هذا المحفل محاط بالذوات الكرام والعلماء الأعلام. فأحيطكم علما أنى أمضيت ثلاثين سنة تحت رعاية الشهم الفضيل والباشا الأعظم النبيل المضمن على نشر العلم وثمرته بين أهل مصر رعيته وبأمره أنشأت مدرسة الطب وحليت ثغرها وأعليت بين بقية المدارس قدرها وأرى الآن رجال تلامذتها الأول حولى بانذلين غاية جهدهم فى مساعدتى على تجديدها وتقويتها وتعسيدها بما عندهم من الهمة الدالة على ما اكتسبوه المفصحة عن ثمرة العلم الذى طلبوه مما يظهر الفرق بين المدرسة السابقة وبين هذه المدرسة اللاحقة.

ولا يخفاكم أيها السادة تلك الطرق المتبعة فى التعلم والتفنى الجارية عند أهالى الدول الساعين فى التقدم والتمدن. وهى منفعة اللغات الأجنبية وإدخالها فى هذه الديار المصرية فإننا نعلم علم اليقين أن شرطها جازم وفعلها متعدد ولازم. إذ بها يتوصل إلى ثمرات كثير من العقول ومعرفة حركاتها فى كل معقول ومنقول. فمن ثم أنشأت المدرسة الطبية، وجعلت فيها فرقة تجهيزية وقيدت ضمن دروسها اللغات الأجنبية انتظارا لنتيجة المدرسة التجهيزية الكبرى التى كان والى مصر الأعظم قد أمر بإنشائها لتدريب الشبان على الدخول فى المدارس الخصوصية الأخرى.

وتلك أعظم طريقة للقطر فى إحياء مهجته وإظهار رونقه وبهجته وإعادة ما كان على ما كان وتجديد ما سلف فى غابر الأزمان ولكن ما العمل فى بعض العقول التى لا تتفكر ولا تطلع على ما قالته أهل الفراسة وأهل التاريخ فننذكر ألم يلتفتوا إلى المدحة فى تلك العقول المصرية ولا يزالون مصممين لهم على عدم القابلية حتى يتركوهم على حالهم مستغرقين فى فترتهم وجهالتهم

وينسون أنهم كانوا أول أمة أخرجت للناس، وأشرف من رفّعوا قواعد العلم على خير أساس، وأن رجال اليوم هم ذرية الإقدمات ونتاج الأوائل من المصريين الذين كانوا تاجاً للأمم المتقدمة وإماماً للدول المتعلمة (مصر) وكان قدماء اليونان يرسلون طلبتهم إليها، ويرتكنون في اكتساب العلوم عليها، وكم تمتع أهلها في أزمان الخلفاء على أعظم حظوة وتخلصوا في مدتهم على درجة جسيمة من العلم والثروة، ثم لما استولت عليهم الغز وتملكتهم وأثقلتهم بأحمال الجور وأهلكتهم خبت أنوار مصابيحهم وخمدت جذوة قرائحهم لكن بجودة الحكومة وحسن التفاتها ونشرها التعليم في البلد وسائر جهاتها لا بد من تيقظ تلك القرائح الخاملة وتلين هاتيك الطبائع الجامدة ورجوع الفرع لأصله في علو وازدياده عنه في الكبر والنمو ألا ترى ما ظهر منهم في زمن المغفور له الحاج محمد علي باشا كالعساكر التي اقتحمت الأخطار وانتشرت للحروب في بعيد الأقطار، وشهدت لهم الدول بالحماسة ولضباطهم بحسن السياسة والرياسة؟ أليسوا هم الفلاحون الذين تسلطت عليهم الغز وأهلكتهم وأتلفت طبائعهم وتملكتهم حتى صاروا يرتعبون من أدنى القواصة ويتذللون لأنذل البصاصة؟ وكذلك أصول التلامذة المخرجين من المدارس المصرية المرسلين إلى البلاد الأوروبية مركز الفنون والعلوم ومعدن المنثور والمنظوم فإن رجال أوروبا عرفوا قدرهم وحرروا الشهادات الفائقة لهم فلا وجه حينئذ للأقوال المبطلّة والآراء المعطلة التي تدعى بما لاتعى من أن العقول المصرية غبية. كلا فإن المصري لا عيب فيه إلا من تركه وإهماله وعدم تشغيله بالعلم واستعماله وبحسن إدارته وتدريبه وتنقيحه وتهذيبه تزول عنه العيوب وتنكشف له الغيوب وتعود الخلقة لمادتها الزكية وفترتها الأصلية.

وعلى المعلمين الزيادة في الاجتهاد وإرشاد الطلبة إلى سبل الرشاد إذ بحسن الإدارة وجميل النصائح تزكو العقول وتجلى القرائح وترفع أعلام الطب على حصون المدارس وتقام شعائر الإنسانية في المحافل والمجالس وأسألكم أيها السادة الأعضاء عما طولت فيما إليه في تلك المادة عولت فانكم إن نظرتكم إلى السبب الباعث إلى التطويل وعلمتم الداعي إلى هذا التأويل من ذكر ما أثبتته وحققته وما صرفت عليه من نفسي وأنفقته تحقق لديكم عذري

ووجب لكم شكرى.

وحيث إن مصلحة الطب لصحة العموم نافعة، وإنها للمروءة من الأمراض شافعة وإنكم ولاة أمرها وخزائن سرها وجهرها فلنا الأمل الزائد في أن يتحصل القطر منها على جزيل الفوائد وإذا نظرنا إلى أهمية تلك المأمورية وما أحيل عليكم فيها من المسؤولية رأينا أن اجتهدكم فرض لازم وفعل أمر واقع بعد جازم. لنكون قد أدينا التشكر لولى أمرنا الذى يسره الله لنا. فإنه أعزه الله وأكرم مثواه يحب العلم لرعيته والتمدن لأمته ويود أن أنواره تسرى على سائر بلاد هذا القطر المصرى.

خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور كلوت بك

في الساعة التاسعة من صبيحة اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٤ هجرية الموافق ٦ أبريل سنة ١٨٥٨ مسيحية احتفل بامتحان تلامذة المدرسة الطبية احتفالاً شائقاً حضره صاحب السعادة وزير الداخلية مندوباً من لدن جناب الأمير وجملة من الوزراء وكبار الموظفين والعلماء الأعلام ولقيف من مشاهير الأطباء الأجنيبين فافتتح حضرة الدكتور كلوت بك الحفلة بالمقال الآتى:

سادتى: إنى أرانى سعيد الطالع لوقوفى هذا الموقف مرة أخرى أبرهن على ما حصلتكم عليه من النجاح العظيم والفوز المبين في هذه المدرسة التى كنت أول من تقلد زمامها وأحكم نظامها وأنى لأمل أن تكونوا في خلال هذه المدة التى مضت عليها منذ تجديد عهدها وافتتاح أبوابها قد أحسنتم القيام بما كلفكم به حضرات الأساتذة الماهرين الذين أخذوا على أنفسهم تثقيفكم وإعلاء شأنكم وقاموا ببث روح العلم فيكم فإنى أعتبر فلاحكم غنيمة يحسن وقعها وتحلو عادة ذكرها وتطيب النفس بها ولاسيما في هذا الوقت الذى أصبحت الراحة لى فيه من ألزم اللوازم لذهابى في الشيوخوخة وانحطاط قوتى.

ولست أرى من حاجة لتعريفكم بما يجب عليكم لمعلمكم من حسن الطاعة والامتثال وما ينبغى أن تتخلقوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الخلال

وإياكم أنتم معشر التلامذة الذين أتممت دروسكم وستبدأون بحول الله في مزاولة صناعتكم أن تفرطوا فيما تلقيتموه عن أساتذتكم وتطرحوه وراءكم ظهريا. فإنهم جزاهم الله لم يقرروا ما قرروه إلا بعد أن سبروه بمعيار الحكمة وعرضوه على ميزان الاختبار. وحاذروا أن تقبلوا ما يتناقله البعض من الخرافات المعبر عنها عندهم بعلوم السحر والطلسمات التي لاتزال قائمة في الشرق محترمة فيه حتى الآن، وقد يابهاها العقل السليم ويمقتها الدين القويم ولا تالوا جهدا في تتبع المتجددات الزمانية واقتباس الاكتشافات العلمية فلقد قال أبو الفنون الطبية: « العلم عسير والعمر قصير » فعليكم والحالة هذه أن تصرفوا عنان السعى وتبذلوا قصارى الهمة حتى تبلغوا شأن آبائكم الأولين وتعيدوا للمدرسة المصرية مجدها القديم، واعلموا أنكم مادمتم محافظين على دواعي ارتقاها مجدين في مراعاة أسباب اعتلائها فقد أمنتكم شر الانقلاب وتجاوزتم العطب بعون الملك الوهاب فإن هذا التقدم الباهر الذى أحرزتموه ليس سببه فقط تضلع الأساتذة وتسابق التلامذة وإنما هو على الأخص ثمرة النظام ونتيجة الإتقان والإحكام. ولقد أسفت على عدم إمكان الوصول الى تأييد مستقبل هذه المدرسة وتثبيتته على وجه يضمن بقاءها ويعمل على توسيع نطاقها وإعلاء شأن العلم فيها، ولكننا لانيأس من روح الله فإن لنا أملا وطيدا بأن حضرة الأمير الأبر سيقطفى سنن والده الخالد الأثر فيساعدنا على نوال هذه النعم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولقد أثنى أحد مشاهير الرجال على ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الأكبر حين قام بإنشاء هذه المدرسة فقال : « قد يجهل الإنسان أسماء الملوك الذين شيّدوا الأهرام ولكنه لا ينسى أبداً أولئك الذين يطوقون الأعناق بهذه المنن الجسام ».



